

موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية
خطب الجمعة
1998 - 1997
www.nabulsi.com
info@nabulsi.com

خطبه الجمعة - الخطبة ٠٥٩٨ : خ١ - الأمل ، خ٢ - التخيير و التكليف.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠١-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى :

الأمل ثمرة من ثمرات الإيمان :

الأمل مصدر كل انبعاث

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في سلسلة من الخطب، تتحدث عن ثمرات الإيمان في المؤمن، تحدثنا عن الإيمان وثمرة العزة، وعن الإيمان وثمرة الأمن، وعن الإيمان وثمرة السكينة، واليوم نتحدث عن الإيمان، وكيف أن الإيمان يفجر الأمل في النفس.

أيها الأخوة الكرام، الأمل أحد مصادر الأمن والسكينة، وهو شعاع يضيء في الظلمات، وينير المعالم، ويوضح السبل، تنمو به شجرة الحياة، يرتفع به صرح العمران، يذوق به المرء طعم السعادة، يحسُ به بهجة الحياة، إنه قوة دافعة، تشرح الصدر للعمل، تخلق دوافع الكفاح من أجل الواجب، تبحث النشاط في النفس والبدن، تدفع الكسول إلى الجد، والمجد إلى المداومة، تدفع المخفق إلى تكرار المحاولة، تحفز الناجح إلى مضاعفة الجد، إن الذي يدفع الزارع إلى الكدح والعرق أمله في الحياة، إن الذي يغري التاجر بالأسفار والمخاطر أمله في الربح، إن الذي يبعث الطالب إلى الجد أمله في النجاح، إن الذي يحفز الجندي إلى الاستبسال أمله في النصر، إن الذي يحبب الدواء المرّ إلى المريض أمله في الشفاء، إن الذي يدفع المؤمن إلى أن يخالف هواه ويطيع ربه أمله في رضوانه وجنته، لولا الأمل لضاع العمل.

الأمل و اليأس و القنوط و العجب :



للأمل جانب آخر، ذمه القرآن الكريم، وذمته السنة النبوية، وله جانب إيجابي، إنني أتحدث عن الجانب الإيجابي للأمل.

الأمل سرُّ الحياة، دافع نشاطها، مخفف ويلاتها، باعث البهجة والسرور فيها، وضد الأمل اليأس؛ وهو انطفاء جذوة الأمل في الصدر، وانقطاع خيط الرجاء في القلب، هو العقبة الكؤود، والمعوق القاهر الذي يحطم في النفس بواعث العمل، ويضعف في الجسد دواعي القوة.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: " الهلاك في اثنتين، القنوط والعجب ".

والقنوط هو اليأس، والعجب هو الغرور، والإمام الغزالي رحمه الله تعالى، يشرح هذا القول- قول ابن مسعود-: إنما جمع بينهما - الغرور واليأس- لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب، والجد والتشمير، والقانط لا يسعى ولا يطلب؛ لأن ما يطلبه يراه مستحيلاً، فالقانط لا يتحرك، ساكن، قابع في مكانه، لا يتطور، والمعجب المغرور يعتقد أنه قد سعى، وأنه ظفر بمراده، فلا يسعى، فالموجود لا يطلب والمستحيل لا يطلب.

الهلاك في اثنتين، القنوط والعجب، القانط لا يتحرك، والمعجب لا يتحرك، لأن القانط يرى هدفه مستحيلاً فيجلس، والمغرور يرى أنه وصل إلى كل شيء فلا يتحرك.

إذا يئس التلميذ من النجاح نفر من الكتاب والقلم، وضاق من المدرسة والبيت، ولا ينفعه درس خاص يتلقاه، ولا نصح يسدى إليه، ولا مكان هادئ يدرس فيه، إنه فقد الأمل، ولن يعاود الدراسة، إلا إذا أشرق في نفسه الأمل مرةً ثانية.

المريض إذا يئس من الشفاء كره الدواء والطبيب، وكره العيادة والصيدلية، وضاق بالحياة والأحياء ذرعاً، ولم يعد يجديه علاج، إلا أن يعود الأمل إليه.

إذا تغلب اليأس على إنسان اسودت الدنيا في وجهه، وأظلمت في عينيه، وأغلقت أمامه الأبواب، وتقطعت دونه الأسباب، وضاقت عليه الأرض بما رحبت.

التلازم بين اليأس و الكفر :



الحقيقة الثانية: أن هناك تلازماً ثابتاً بين اليأس وبين الكفر، إنك تجد الكافرين أيأس الناس، وإنك تجد اليائسين أكفر الناس، يقول الله عز وجل:

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة يوسف : ٨٧]

ويقول أيضاً:

(قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

[سورة الحجر: ٥٦]

وأظهر ما يتجلى هذا اليأس في الشدائد، قال تعالى:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ)

[سورة هود : ٩]

(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

[سورة هود: ١١]

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)

[سورة الإسراء: ٨٣]

وفي آية أخرى:

(لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)

[سورة فصلت: ٤٩]

هناك تلازم حتمي بين الكفر وبين اليأس، إنك تجد اليائسين أكفر الناس، وإنك تجد الكفار أيأس الناس.

ليس اليأس من لوازم الكفر فحسب، بل هو من لوازم الشك أيضاً، فكل من فقدَ اليقين الجازم بالله، وكماله، ووحدانيته، وألوهيته، ولقائه، وحكمته، وعدله، فقد حرم الأمل، حرم النظرة المتفائلة إلى الناس والكون والحياة، عاش ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود، يرى الأرض غابة، والناس فيها وحوش، والعيش عبء لا يطاق، هذه نظرة اليائسين، هذه نظرة ضعاف الإيمان، هذه نظرة الشاردين.

تلازم الإيمان مع الأمل :



الإيمان وحده هو الذي يلد الأمل في النفوس..

الأمل له وجه سلبي، ووجه إيجابي، أتحدث اليوم عن الوجه الإيجابي فالوجه السلبي ذمه الله في القرآن الكريم، وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

إن اليأس والكفر متلازمان، كذلك الإيمان والأمل متلازمان، المؤمن أوسع الناس أملاً، وأكثرهم تفاؤلاً واستبشاراً، وأبعدهم عن التشاؤم والتبرم والضجر، الإيمان ماذا يعني؟ يعني أن تعتقد بقوة عليا تدبر هذا الكون، لا يخفى عليها شيء، ولا يعجزها شيء، أن تعتقد بقوة غير متناهية، ورحمة واسعة، وكرم غير محدود، أن تعتقد بإله رحيم قدير يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، يمنح الجزيل، ويغفر الكثير، يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، أن تعتقد بإله أرحم بعباده من الأم بولدها، وأبرّ بخلقه من أنفسهم.

الإيمان يعني أن تعتقد بإله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

الإيمان يعني أن تعتقد بإله يفرح بتوبة عبده أشد من فرحة الضال إذا وجد، والغائب إذا وفد، والظمآن إذا ورد.

الإيمان يعني أن تعتقد بإله يجزي الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف أو يزيد، ويجزي السيئة بمثلها أو يعفو.

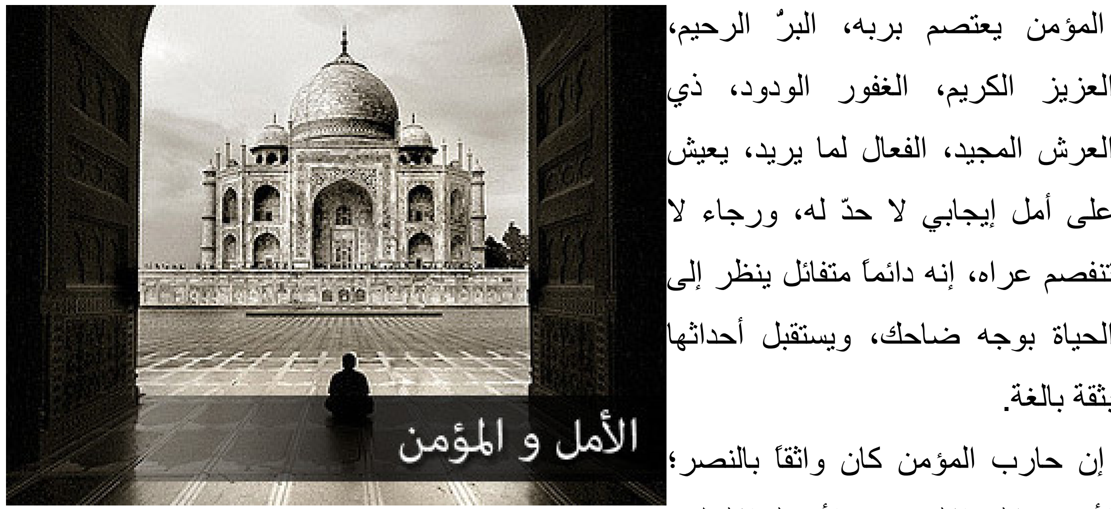
الإيمان يعني أن تعتقد بإله، يدعو المعرض عنه من قريب، ويتلقى المقبل عليه من بعيد، يقول:

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

الإيمان يعني أن تعتقد بإله يداول الأيام بين الناس، فيبدل من بعد الخوف أمناً، ومن بعد الضعف قوة، ويجعل من كل ضيق فرجاً، ومن كل هم مخرجاً، ومع كل عسر يسراً.

اعتصام المؤمن بربه و الثقة بنصره :



المؤمن يعتصم بربه، البرُّ الرحيم، العزيز الكريم، الغفور الودود، ذي العرش المجيد، الفعال لما يريد، يعيش على أمل إيجابي لا حدّ له، ورجاء لا تنفصم عراه، إنه دائماً متفائل ينظر إلى الحياة بوجه ضاحك، ويستقبل أحداثها بثقة بالغة.

إن حارب المؤمن كان واثقاً بالنصر؛ لأنه مع الله، فالله معه، ولأنه لله فالله له:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُون)

[سورة الصافات: ١٧١-١٧٣]

وإذا مرض المؤمن لم ينقطع أمله في العافية:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين)

[سورة الشعراء: ٧٨-٨٠]

وإذا اقترف المؤمن ذنباً لم ييئس من المغفرة، مهما يكن ذنبه عظيماً، فإن عفو الله أعظم، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر: ٥٣]

وإذا أعسر المؤمن لم يزل يؤمل في اليسر:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

[سورة الشرح: ٥-٦]

ولن يغلب عسر يسرين، ولو دخل العسر جحراً لتبعهم اليسر.

الله مع المؤمن في كل مكان و زمان :



وإذا انتابت المؤمن كارثة من كوارث الحياة، كان مع رجاء الله أن يأجره في مصيبته، وأن يخلفه خيراً منها، قال تعالى:

(الّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة: ١٥٦-١٥٧]

حتى إذا عادى المؤمن أو كره، كان قريباً إلى الصلة والسلام، راجياً في الصفاء والوئام، مؤمناً بأن الله يحول القلوب من حال إلى حال، قال تعالى:

(عَسَى اللّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدّةً وَاللّهُ قَدِيرٌ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الممتحنة: ٧]

وإذا رأى المؤمن باطلاً يقوم في غفلة من الحق أيقن أن الباطل إلى زوال، وأن الحق إلى ظهور وانتصار:

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمّا تَصِفُونَ)

[سورة الأنبياء: ١٨]

المؤمن إذا أدركته الشيخوخة، ووهن العظم منه، واشتعل رأسه شيباً لا ينفك يرجو حياة أخرى فيها شباب بلا هرم، وفيها حياة بلا موت، وفيها سعادة بلا شقاء، قال تعالى:

(جَنّاتِ عَدْنٍ الّتِي وَعَدَ الرّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّا)

[سورة مريم: ٦١]

الإقبال على الله الملاذ في الشدة والأنس في الوحشة :

الماديون، الشاردون، التائهون، الغافلون، العصاة، هؤلاء يقفون عند السنن المعتادة، والأسباب الظاهرة، لا يطمعون في شيء وراءها، أما المؤمنون فيتجاوزون ظواهر الأسباب، وينفذون إلى سرّ الوجود، إلى الله خالق الأسباب والمسببات، الذي عنده من الأسباب الباطنة، والعناية اللطيفة الخفية، ما يخفى على إدراك عقول عباده، تتجه قلوب المؤمنين إليه، حين تذلهم الأزمات، وتستحكم بهم الحلقات.

إنهم يجدون في الإقبال على الله الملاذ في الشدة، والأنس في الوحشة، والنصر في القلة، يتجه إليه المريض إذا استعصى مرضه على الأطباء، يتجه إليه المكروب يسأله الصبر والرضا، والخلف من كل فائت، والعوض من كل مفقود، يتجه إليه المظلوم آملاً يوماً قريباً ينتصر فيه من ظالمه، فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب، يتجه إليه المحروم من الأولاد، سائلاً ربه أن يرزقه ذرية طيبة.

هذا هو المعنى الإيجابي للأمل...الإيمان وحده، وألح على كلمة وحده، هو الذي يفجر الأمل في النفوس.

الإيمان وحده يفجر الأمل في النفوس و مثال ذلك :

١ ـ سيدنا إبراهيم :

سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - طلب الولد من الله وهو شيخ كبير:

(رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)

[سورة الصافات: ١٠٠]

فاستجاب الله له، فقال إبراهيم عليه السلام:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)

[سورة إبراهيم: ٣٩]

أن تكون متقدماً في السن، شيخاً كبيراً، تطلب الولد، هو أمله بعطاء الله.

٢ ـ سيدنا يعقوب :

سيدنا يعقوب بعد أن غاب عنه ابنه يوسف- عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- ماذا قال؟:

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

[سورة يوسف: ٨٣]

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف: ٨٦]

٣ ـ سيدنا زكريا :

سيدنا زكريا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا *إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

[سورة مريم: ١-٦]

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

[سورة آل عمران: ٣٨]

ماذا كانت النتيجة؟..

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا)

[سورة مريم: ٧]

٤ ـ سيدنا أيوب :

سيدنا أيوب، قال تعالى:

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)

[سورة الأنبياء: ٨٣-٨٤]

٥ ـ سيدنا يونس :

سيدنا يونس، كان في وضع من أندر الأوضاع، في ثلاث ظلمات؛ في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة الليل، وفي ظلمة أعماق البحر:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨]

وقلب الله عز وجل هذه القصة إلى قانون، فقال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: ٨٨]

في أي عصر، وفي أي زمان، وفي أي مكان، وفي أية حالة، وفي أية ملابسة:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: ٨٨]

٦ ـ سيدنا موسى :

سيدنا موسى- عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- تبعه فرعون وما أدراكم ما فرعون، بجيشه، وقوته، وبطشه، وجبروته، وهو مع شرذمة من أصحابه المستضعفين، أمامهم البحر، ووراءهم فرعون، فقال أصحاب موسى:

(فَلَمّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلّا إِنّ مَعِيَ رَبّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: ٦١-٦٢]

أنجاه الله وأصحابه، وأغرق فرعون وأتباعه.

٧ ـ نبينا محمد صلى الله عليه و سلم :

نبينا عليه أتمّ الصلاة والسلام، وهو في الغار مع الصديق، قال الصديق: "يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا، قال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ "

تروي بعض الكتب، أنه قال له ثانية: يا رسول الله، لقد رأونا وقعت العين على العين، فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا بكر، ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف: ١٩٨]

في أثناء الهجرة، وضعت مئة ناقة، لمن يأتي بالنبي حياً أو ميتاً تبعه سراقة، غاصت قدما فرسه في الرمل، قال له البني عليه الصلاة والسلام - والقصة طويلة - كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى..

ماذا يعني هذا الكلام؟.. هو مُلاحق، وضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، أمله العظيم بأن يصل إلى المدينة، وأن ينشئ مجتمعاً إسلامياً، وأن يفتح البلاد، وأن تأتي كنوز كسرى، وقد وعد سراقة بن مالك، أن يلبس سواري كسرى..

في عهد عمر، جاءت الكنوز، وقلبها عمر بقضيب بيده، وقال: إن الذي أدى هذا لأمناء، فقال له سيدنا علي كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين لقد عففت فعفوا، ولو وقعت لوقعوا..

سأل عن سراقة.. جاء سراقة، ألبسه سواري كسرى، وتاج كسرى، وقميص كسرى، وقال رضي الله عنه: بخٍ بخٍ، أعرابي يلبس سواري كسرى..

ليس في هذا عجب:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[سورة النور: ٥٥]

أما حينما خلف من بعدهم خلف، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً..

هذا هو الوجه الإيجابي للأمل، الأمل يفجره الإيمان، والإيمان وحده، ولولا الأمل لبطل العمل، وسوف أحدثكم بعد قليل في الخطبة الثانية عن الوجه الآخر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فاستغفروه يغفر لكم فيا فوز المستغفرين.

* * *

الخطبة الثانية :

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم.

التخيير أساس التكليف :

لأن الإنسان هو المخلوق الأول، والمخلوق المكلف الذي حمل الأمانة، والأمانة تعني أن يزكي نفسه ليستحق جنة الله عز وجل، ولأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس: ٩-١٠]

لأن الإنسان مُكلف حمل الأمانة، والأمانة تزكية نفسه، ولأنه جاء إلى الدنيا؛ ليستعد لجنة ربّه في الآخرة، جعله الله مخيَّراً - دققوا في هذه الكلمة:- التخيير أساس التكليف، لولا التخيير لما كان التكليف، لولا التخيير لما كان تكليف، لولا التخيير لما كانت جنة ولا نار، لما كان هناك ثواب ولا عقاب.. " إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً ولم يُطع مُكرهاً"، لأن الإنسان:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: ٧٢]

الإنسان هو المخلوق المكرم و المكلف :

لأن الإنسان هو المخلوق المكرم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: ٧٠]

ولأن الإنسان هو المخلوق المكلف:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات : ٥٦]

فطره الله فطرةً تتناسب مع تكليفه، ومع اختياره.

الخصائص النفسية لصالح التكليف :

١ ـ الضعف :

من خصائص النفس التي تتوافق مع تكليفه، أنه خُلق ضعيفاً.. لماذا؟ خلق ضعيفاً ليفتقر في ضعفه، فيسعد بافتقاره، ولو خلقه الله قوياً لاستغنى بقوته، فشقي باستغنائه:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)

[سورة النساء: ٢٨]

٢ ـ الجزع :

وخلق جزوعاً..

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)

[سورة المعارج: ٢٠]

كثير الجزع، ما إن تلم به ملمة حتى يخاف أشد الخوف، فلعل هذا الخوف الشديد يدفعه إلى باب الله، يدفعه إلى الالتجاء إلى الله، الجزع لصالحه، والضعف لصالحه.

٣ ـ الحرص :

وخُلق منوعاً حريصاً على ما في يديه حتى إذا أنفقه ارتقى عند الله، هذا الجزع، وهذا الحرص، وذاك الضعف لمصلحة إيمانه.

٤ ـ العجلة :

وخُلق عجولاً، إن اختار الآخرة يرقى باختياره لأنه يحب الشيء العاجل، هو خالف طبعه واختار الآجل.

إذاً لأنه خُلق ضعيفاً، وجزوعاً، ومنوعاً، وعجولاً، هذه الخصائص النفسية لصالح التكليف..

الخصائص النفسية لصالح التخيير :

١ ـ الغيرة :

أما الخصائص التي لصالح التخيير فالله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان خصائص حيادية، يمكن أن ترقى به، أو أن تهوي به، هذه الخصائص سلم يرقى بها الإنسان، أو دركات يهوي بها، خلقه غيوراً، إن اتجهت غيرته إلى الآخرة ارتقى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين: ٢٦]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات: ٦١]

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة يونس ٥٨]

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحديد]

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة آل عمران]

هذه غيرة، إن توجهت إلى أمور الآخرة كانت سبب الرقي السريع، أما إن توجهت إلى أمور الدنيا فكان الحسد البغيض.

خاصة الغيرة حيادية، توظف في الخير كما توظف في الشر، تتوجه إلى الآخرة كما تتوجه إلى الدنيا.

٢ ـ الأمل :

خاصة أخرى: الأمل، إن تعلقت بالدنيا، وبيوتها، وقصورها، ونسائها، ومتعها، ومباهجها، فهذا هو الوجه السلبي للأمل، الأمل ذمّه النبي عليه الصلاة والسلام، رسم مستطيلاً على الرمل، ورسم خطاً داخل المستطيل، وقد مدده حتى خرج عن حدود المستطيل، فقال عليه الصلاة والسلام: هذا الخط هو أجل الإنسان، وهذا هو أمله ". فالإنسان إذا جعل الأمل متعلقاً بالدنيا هلك، إنما أهلك الناس طول الأمل.. قال تعالى:

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[سورة الحجر]

حينما تتأمل في الدنيا، تضع كل اهتمامك فيها، تجعلها مناط الرحال محط الرحال، غاية الآمال، فهذا هو الوجه السلبي للأمل، أما حينما تتأمل بعفو الله، ورحمته، وقدرته، وعدله، وبرّه، وإحسانه، ولطفه، ومغفرته، فهذا هو الجانب الإيجابي للأمل.

حينما تجعل موضوع الأمل متعلقاً بعطاء الله، ومغفرة الله، وتوفيق الله، وحفظ الله، هذا هو الجانب الإيجابي، أما حينما تجعل من الأمل موضوعاً في الدنيا، وزينتها، وزخرفها، ومباهجها، وبيوتها، ومركباتها، فهذا هو الأمل الذي يقطع عن الله.

كما قلت قبل قليل ؛ في الإنسان خصائص لصالح إيمانه، خلقه ضعيفاً، وخلقه جزوعاً، وخلقه منوعاً، وخلقه عجولاً، هذه الخصائص الأربعة لصالح إيمانه، وأما الخصائص التي هي لصالح اختياره، جعل من خصائص النفس حيادية الجانب، إما أن توظف في الخير، أو في الشر، سلم ترقى به، أو دركات تهوي بها..

فيا أيها الأخوة المؤمنون: ما أردت من هذه الخطبة ـ الجانب الإيجابي في الأمل- إلا أن تضع ثقتك بالله، إن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإن أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإن أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٥٩٩ : رمضان شهر التوبة والغفران.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠١-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

أطلّ علينا شهر الصيام، شهر التوبة والغفران، شهر الطاعة والإحسان، شهر الذِّكر والحب،

((فرغم أنف عبد - كما قال عليه الصلاة والسلام - رغم أنف عبد أدرك رمضان فلم يُغفر له، إن لم يُغفر له فمتى))

ينبغي للمسلم في رمضان أن يخرج من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشّهوات إلى جنّات القربات، ومن مدافعة التدنِّي إلى متابعة الترقِي.

موضوع الخطب اليوم وقفة متأنِّية عند آيات الصيام، وقبل أن نقف هذه الوقفة، لابد من مقدمة: الإسلام - أيها الإخوة - دين الله الذي ارتضاه لعباده، وهو المنهج القويم الذي ينبغي للإنسان أن يسير عليه، تطبيق هذا المنهج عن إيمان وإخلاص هو جوهر العبادة، تطبيق هذا المنهج الذي أنزله الله على نبيه إيماناً واحتساباً هو جوهر العبادة، والعبادة - أيها الإخوة - هي على وجودنا، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

[سورة الذاريات]

وكما تعلمون - أيها الإخوة - هناك عبادات تعاملية، كالأمر بالصدق والأمانة، والعفاف، وإنجاز الوعد، والوفاء بالعهد، وتحرّي الحلال وضبط الجوارح والأعضاء، هذه العبادات التعاملية تقوم أصولها على حسن العلاقة بالله.

الإسلام عبادات تعاملية، حينما سأل النّجاشي سيدنا جعفر عن الإسلام قال: **" أمرنا بصدق الحديث، وأداء المانة، وصلة الرّحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء ".**

سيدنا جعفر رضي الله عنه، عرّف الإسلام تعريفاً أخلاقياً، هذه العبادات التعاملية تقوم أصولها على حسن المعاملة مع الخلق، أما العبادات الشعائرية كالصلاة والصوم والحج، فتقوم أصلوها على حسن العلاقة مع الله عزّوجل.

حسن العلاقة مع العبادة عبادة تعاملية، حسن العلاقة مع الله عبادة شعائرية، والصيام من العبادات الشعائرية، التي أساسها حسن العلاقة مع الله.

إن صحت العبادات التعاملية، صحت العبادات الشعائرية.

((ركعتان من ورع ـ ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مُخلِط))

[أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس وأورده الذهبي في الضعفاء]

والمخلِط هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً..

الدِّين ـ حينما قال الله تعالى على لسان سيدنا عيسى عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ـ قال تعالى:

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصّلاةِ والزّكَاةِ مَا دُمْت حَيّاً (٣١))

[سورة مريم آية٣١]

وأوصاني بالصلاة: حسن العلاقة مع الله.

والزكاة: حسن العلاقة مع الخلق.

حينما يُقبل المسلم على تطبيق أمر تكليفي لعلّة فيه، أو لما فيه من أسرار أو حكم، يكون إيمانه بالأمر لا بالآمر، والمفروض أن يكون الإيمان بالآمر لا بالأمر، حينما يُقبل المسلم على تنفيذ أمر تكليفي لعلة واضحة فيه، أو لما فيه من أسرار وحكم، يكون إيمانه بالأمر لا بالآمر والمفروض العكس ؛ أن يكون إيمانه بالآمر لا بالأمر، والقصد عبادة الله وطلب رضوانه، لا الوصول إلى السّلامة وبلوغ السعادة في الدنيا فالمؤمن الصادق الذي عرف الله حقّ المعرفة، يقبل على امتثال الأمر لأنه أمرٌ من خالقه، ذو القدرة المقتدرة، والحكمة البالغة، والكمال المطلق، يقبل على الائتمار بالأمر لأنه أمر من خالقه وكفى، فهمت العلة أو لم تُفهم، المهم أن يكون الدّافع إلى فعل الأمر، وترك النّهي هي عبادة الله وطاعته، لا جني ثمار الأمر واجتناب تبعات النّهي.

يعني هناك من يفلسف، قد يكون مصيباً فيما يقول، إن الصِّيام من أجل الصحة، عندئذ يقبل الإنسان على الصيام من أجل صحته، ليست هذه هي العبادة، العبادة أن تُقبل على الأمر تنفيذاً لأمر الله عز جل وطاعة له، وتقرُباً إليه.

الله جلّت حكمته، حينما يرى عبداً من عباده المتّقين، يُقبل على الطّاعات، لأنّها أوامر خالقه، ومربيه، حينما يكون كذلك، يكشف الله بعد التطبيق علّته المعجزة، وحكمته البالغة، وأسراره العظيمة.

يعني أنت إذا أقبلت على طاعة الله تنفيذاً لأمر الله، وتقرباً إليه وتحقيقاً لعبوديتك، بعد أن تنفِّذ الأمر

يمتن الله عليك، فيكشف لك حكمته فتكون قد جمعت بين العلم وبين العبادة، أما الذي لا يطبّق أمراً إلا إذا بدت له حكمته، وبدا له نفعه، وتعلّقت به مصلحته، هذا لا يعبد الله لكنّه يعبد ذاته.

إذا أقبلنا على طاعة الله تحقيقاً لعبوديتنا له، عندئذ نكون قد فعلنا ما ينبغي أن نفعل، أما الذي يعلق تطبيق الأمر على فهم الحكمة، ورؤية الثِّمار، فهو لا يعبد الله، ولكنّه يعبد ذاته.

كل أمر إلهي علته أنّه أمر إلهي، هذه اللّفتة ـ أيها الإخوة ـ من أجل أن يرقى صيامنا من سلوك ذكي إلى عبادة خالصة، السُّلوك الذّكي نقطف ثماره في الدنيا، أما العبادة الخالصة، نقطف ثمارها في الدنيا والآخرة.

يقول الله تبارك وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

[سورة البقرة]

لقد جرت سنّة الله في خطابه أن يخاطب الناس جميعاً بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

[سورة البقرة]

بينما يخاطب المؤمنين الذين آمنوا بوجوده، وكماله، ووحدانيته يخاطبهم بفروع الدين، كالأمر والنهي، والحلال والحرام، وكأنّ الله سبحانه وتعالى، في هذه الآية، آية الصيام، يرقِّق الأمر بالصيام، كأنه يقول: يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بعلمي وحكمتي، يا من آمنتم برحمتي ومحبتي، يا من أحببتموني، لقد كتبت عليكم الصِّيام.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

وحينما يأتي الحكم، ممن آمنت به، وممّن وثقت برحمته، وحكمته تثق بأنّ هذا الأمر تأتي منه فائدة لك، ولا ينبغي أن تقيس هذا الأمر بمقياس عقلك المحدود، بل ينبغي أن تقيسه بعلم خالقك، وحكمته ورحمته، فالله يعلم، ونحن لا نعلم.

قد يقول الأب الرحيم لابنه: يا بني، ألست والدك، ألا تثق بخبرتي المديدة، ورحمتي الأكيدة، وحرصي على سلامتك وسعادتك، دع هذا الأمر، ولا تقسه بعقلك الفتي، ولا بخبرتك المحدودة، ولا بنظرك القاصر، بل قسه بعقل أبيك، وخبرته وعقله.

لعل هذا الشرح توضيح لارتباط قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

الصِّيام: إمساك عن الطعام والشراب، وسائر المفطرات من الفجر وحتى الغروب، بنيّة العبادة والطّاعة، لأنّ هذا النّهي عن شهوة الطعام والشراب وشهوة أخرى، شهوات مباحة، وفق منهج الله، ومحببة إلى الإنسان، ورد في الحديث القدسي:

((أن كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به))

وفي رواية:

((يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصِّيام لي وأنا أجزي به))

[متفق عليه واللفظ للبخاري]

يعني هذا الصّوم، من العبادات الشعائرية، أمرك أن تترك المباح المحبّب لك من الطعام والشراب وسائر المفطرات بنيّة التّقرب إلى الله عز وجل، إنّك حينما تفعل هذا، تؤكد أنّ طاعة الله أحبُّ إليك من كل شيء.

أما قوله تعالى:

(كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)

فتشير هذه الآية إلى أن مبدأ الصّوم، لا يختلف من زمن لآخر، فهو ركن تعبُّدي موجود في الدِّيانات السّماوية السّابقة للإسلام، أي إنّه منهج الله لتربية الإنسان.

وأما قوله تعالى:

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

أي لعلكم تدعون المعاصي وتلتزمون الطاعات، لا في شهر رمضان فحسب، بل في كل أشهر العام.

إذن كأنّ الصّوم تربية الإرادة في الإنسان على طاعة الله على مدار الأعوام.

ليس القصد أن ننتصر على النّفس في رمضان، ثم ننخذل أمامها بقية العام، ولكن الصيام الحقيقي، أن نحافظ على هذا النّصر على طول الدوران، وتقلّبات الزّمان والمكان.

ليس القصد أن نضبط ألسنتنا في رمضان، فننزهها عن الغيبة والنميمة وقول الزُّور، ثم نطلقها بعد رمضان إلى حيث الكذب والبهتان، ولكن الصيام الحقيقي، أن تستقيم منا الألسنة، وأن تصلح فينا القلوب مادامت الأرواح في الأبدان.

ليس القصد أن نغضُّ أبصارنا عن محارم الله في رمضان، وأن نضبط شهواتنا غير المشروعة في رمضان، ثم نعود إلى ما كنا عليه بعد رمضان، إنّا إذاً:

(كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً)

ولكن الصِّيام الحقيقي، أن تصوم جوارحنا عن كلِّ معصية، في رمضان وبعد رمضان، حتى نلقى الواحد الدّيان.

ليس القصد أن نتحرى الحلال خوفاً من أي يُردّ علينا صيامنا، ثم نتهاون في تحرّيه بعد رمضان، على أنّه عادة من عوائدنا، ونمط شائع من سلوكنا، ولكن الصيام الحقيقي، أن يكون الورع مبدأً ثابتاً، وسلوكاً مستمراً في حياتنا.

ليس القصد أن نبتعد عن المجالس وعن المشاهد التي تُكثف في رمضان، إكراماً لشهر رمضان، ليس القصد أن نبتعد عن المجالس وعن المشاهد التي لا ترضي الله، إكراماً لرمضان، ثم نعود إليها وكأن الله ليس لنا بالمرصاد، في بقية الشهور والأعوام.

ليس القصد أن نُراقب الله في أداء واجباتنا، وأعمالنا ما دمنا صائمين فإذا ودّعنا شهر الصيام، آثرنا حظوظ أنفسنا على أمانة أعمالنا وواجباتنا.

أيها الإخوة الكرام:

أربأ بنفسي وبكم عن أن تغطينا هذه الحقيقة، مثل هذا الإنسان لم يفهم قط حقيقة الصيام، ولا جوهر الإسلام، إنّه كالنّاقة حبسها أهلها، ثم أطلقوها، فلا تدري لماذا حبست، ولا لماذا أطلقت.

الشيء المهم الذي ينبغي أن نستوعبه، هو أن الله تعالى، لم يصطف رمضان، من بين بقية الشهور ليكون شهر الطاعة والقرب فحسب، بل أراده شهراً يتدرّب فيه الإنسان على الطاعة، ليذوق حلاوة القرب وعندها تنسحب هذه الطاعة، وذاك القرب، وتلك السعادة، على كل شهور العام، فيكون عندئذ رمضان، قفزةً نوعية مستمرة، في مجال الطاعة والقرب.

الحكمة من أنّ الله تعالى، أمرنا بالإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات، من طلوع الفجر الصّادق، إلى غياب الشمس، هي أنّ الإنسان حينما يدع ما هو مباح امتثالاً لأمر الله، لا يستطيع ولا يتوازن أن يقترف ما هو محرم في هذا الشهر، فحينما يصطفي الله شهراً من الشهور، لتصفو فيه العلاقة بالله، يصطفيه من أجل أن يشع هذا الصفاء مع الله في كل الشهور، لأن الله تعالى مع المؤمن في كل زمان.

وحينما يصطفي الله تعالى، مكاناً كبيته الحرام، ويدعو المؤمنين إليه ليذوقوا حلاوة القرب فيه، يريد أن ينسحب هذا القرب على كل الأمكنة لأن الله مع المؤمن في كل مكان.

وحينما يصطفي الله إنساناً ليكشف الله له الحقائق، إنما يصطفيه ليكشف من خلاله الحقائق لكل الناس.

وحينما يصطفي إنساناً ليوحي إليه، الأمر والنّهي، والمنهج القويم إنّما يصطفيه ليكون هذا المنهج مطبّقاً لدى كل الناس.

" إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ".

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢))

[سورة هود آية ١١٢]

وحينما يصطفي إنساناً ليسعده سعادة أبدية، إنما يصطفيه ليسعد بدعوته كل الناس.

محمد عليه الصلاة والسلام، هو الذي اصطفاه ليكون القدوة الحسنة والمثل الأعلى لنا.

اصطفاء الأزمنة كرمضان، واصطفاء الأمكنة كبيت الله الحرام واصطفاء الأشخاص كسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو في الحقيقة من أجل أن يكون الصّفاء في كل زمان، وفي كل مكان، ومع كل إنسان.

يقول الله عز وجل:

(أَيّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤))

[سورة البقرة]

(أَيّاماً مَعْدُودَاتٍ)

إنّها أيام قليلة، اصطفاها الله لتكون أيام طاعة وقرب، فلعلّ الطاعة والقرب تستغرق كل أيام العام.

(فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ)

فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وسع النفس لا يستطيع أي إنسان أن يقدره بعقله، لكن الله وحده، الذي خلقه والذي صنعه، بعلمه وخبرته وحكمته، هو وحده الذي يقدِّر الوسع، فهو جلّ جلاله، يعطي الرخصة عندما يكون التكليف فوق الوسع، وتحديد المرض الذي لا يتسع للصيام يكون بغلبة الظن، أو بإخبار طبيب مسلم حاذق، وكذلك السفر الذي تقصر فيه الصلاة، يعدُّ علة للإفطار في رمضان، لذلك لا يُقبل في الدين أن يقول إنسان من خلال تحكيم عقله في أمر تكليفي: هذا الأمر لا أقدر عليه، والله لا يؤاخذني على تركه، إلا أن ترد رخصة من الذي خلق الإنسان، ويعلم حقيقة وسعه، في أحد الوحيين، الكتاب والسنة.

حينما يطيق المسلم الصيام مع السفر والمرض، فالأولى أن يصوم لقوله عز وجل:

(وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

هذا وجه من وجوه تفسير هذه الآية ؛ لأنّ القرآن حمّال أوجه **" الشريعة رحمة كلها، ومصلحة كلها، وعدل كلها، فكل قضية خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن العدل إلى الجور، فليس من الشريعة، ولو أدخلت عليها بالف تأويل وتأويل ".**

(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥))

[سورة البقرة]

يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر، ولتكملوا العدة (أيام رمضان) ولتكبروا الله على ما هداكم..

الاهتداء إلى الله، والتزام منهجه، والوصول إليه، والتّنعم بقربه ثمرة يانعة من ثمار الصوم، عندئذٍ تقتضي فطرة الإنسان التي فُطر عليها تقتضي شكر المنعم على نعمه، وهل من نعمةٍ أجلُّ وأبقى من نعمة الهدى.. فماذا وجد من فقدك يا رب، وماذا وفقد من وجدك يا رب.

وما دام الصّائم قد ذاق حلاوة القرب في شهر الصِّيام، فهو يتجه بالشُّكر لله عز وجل، على ما أولاه من نعمة المعرفة والقرب، وهنا يناسب أن يقول الحق عقب آيات الصيام:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

[سورة البقرة]

هذه الآية وردت عقب آيات الصيام، قال تعالى إذا سألك، ولم يقل إن سألك، لأن إذا تفيد تحقق الوقوع، بينما إن تفيد احتمال الوقوع، أي أن من لوازم معرفة الله والوصول إليه، والتّنعم بقربه التّوجه إليه وحده بالسُّؤال والدُّعاء، وهذه هي حقيقة التوحيد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الْغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة]

لو تأملتم في آيات القرآن الكريم، لوجدتم مادة السؤال ورد في جوابها قل:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥))

[سورة البقرة]

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً (١٠٥))

[سورة طه]

إلا في هذه الآية:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

لم يرد في جوابها قل بل إن الله عز وجل يقول مباشرةً:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

إشعاراً بأنّه ليس بين العبد وبين ربه في سؤاله له، ودعائه إياه وسيط:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

لقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، **" أقريب ربك فنناجيه، أم بعيد فنناديه "**.

لأن البعيد ينادى، والقريب يناجى، فنزل قوله تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

وكلمة عباد غير كلمة عبيد، فكل من في الأرض من البشر عبيد لأنّهم مفتقرون في وجودهم، وفي استمرار وجودهم، وخصائصهم وحاجاتهم مقهورون في هذا الوجود إلى الله، ولكن العباد شيء آخر، هم الذين تعرفوا إليه، والتزموا منهجه، وتقرّبوا منه، مبادرة منهم، وبمحض اختيارهم، فالعبد الذي جمعه عبيد، هو عبد القهر:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦))

[سورة فصلت آية ٤٦]

بينما العبد الذي جمعه عباد، هو عبد الشكر.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

أيها الإخوة:

لماذا قال الله عز وجل عن ذاته:

(فَإِنِّي قَرِيبٌ)

قال عن ذاته **فإني قريب** ؛ ليشعر المؤمن أنّ الله معه، في كلّ مكان وفي كلّ زمان، وفي كلّ حال، وأنّه ما عليه إلا أن يدعوه مؤمناً ومخلصاً، والله يجيب دعاءه، لكن الإنسان بضعف إيمانه، أو لضعف توحيده، يدعو غير الله، قال تعالى:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤))

[سورة فاطر]

ولكن لماذا لا يستجيب الله أحياناً لمن يدعوه، أجاب النبي عليه الصلاة والسلام عن هذا السؤال:
عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ:
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)
ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد والدرامي]

لذلك قال تعالى:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

تؤمن به، وتستجيب لأمره، فيجب دعاءك، **لعلهم يرشدون: إلى الدّعاء المستجاب، أو إلى سعادة الدنيا والآخرة.**

حينما لا يُستجاب الدُّعاء، يُعزى ذلك ؛ إما إلى فساد الداعي وانحرافه عن منهج الله، أو أنّه ليس من الرحمة والحكمة أن يُستجاب له، فلو كُشف الغطاء لاخترتم الواقع.

وعلى كل فحظ المؤمن من الدعاء الإجابة أو العبادة، فالدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام هو العبادة، قال تعالى:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠))

[سورة غافر]

المعنى عن دعائي، قال تعالى عن عبادتي.

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠))

استنبط النبي عليه الصلاة والسلام أن الدعاء هو العبادة، إن دعوت الله إما أن يستجيب لك، وإما أن تكون قد عبدته بهذا الدعاء.

أيها الإخوة الكرام:

قال بعض العلماء:

إنّ الصيام يخفف العبء عن جهاز الدوران، القلب والأوعية، حيث تهبط نسب الدسم والحموض في الدم إلى أدنى مستوى، الأمر الذي يقي من تصلب الشرايين، وآلام المفاصل.

ويريح الصيام الكليتين، وجهاز الإبراز، حيث تقل نواتج استقلاب الأغذية، ويتحرك سكر الكبد، ويحرك معه الدهن المخزون تحت الجلد ويحرك معه بروتين العضلات، إذاً صيام رمضان يُعد دورة وقائية سنوية تقي من كثير من الأمراض، ودورة علاجية أيضاً بالنسبة لبعض الأمراض، وأنه يقي من أمراض الشيخوخة، التي تجم عن الإفراط في إرهاق العضوية، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((صوموا تصحوا))

[ابن السني، وأبو نعيم في الطب عن أبي هريرة، وحسنه السيوطي]

((كان عليه الصلاة والسلام يفطر على تمرات قبل أن يصلي، فإن لم تكن تمرات حسا حسوات من الماء))

[رواه أبو داود وأحمد والترمذي في صحيح الجامع الصغير]

((وعن سلمان بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة، فإن لم يجد تمراً فالماء طهور))

[أخرجه الترمذي وأبو داود في صحيح الجامع الصغير]

التمر أيها الإخوة ـ الذي يتناوله الصائم مع الماء فيه خمس وسبعون بالمائة من جزئه المأكول مواد سكرية أحادية، سهلة الهضم سريعة التمثل، إلى درجة أن السكر ينتقل من الفم إلى الدم في أقل من عشر دقائق، وفي الحال يتنبه مركز الإحساس بالشبع في الجملة العصبية فيشعر الصائم بالاكتفاء، فإذا أقبل على الطعام أقبل عليه باعتدال وكأنه في أيام الإفطار.

بينما المواد الدسمة، يستهلك امتصاصها أكثر من ثلاث ساعات فمهما أكثر الصائم من الطعام الدسم لا يشعر بالشبع، ولكن يشعر بالامتلاء وفرق كبير بين الشبع والامتلاء، الشبع تنبه مركز الجوع في الجملة العصبية، إذا تنبه هذا المركز شعر بالشبع ولو لم يكن في معدته طعام كثير، أما حينما يشعر بالامتلاء، الإحساس بامتلاء المعدة شيء آخر.

لذلك كان عليه الصلاة والسلام يفطر على تمرات ويصلي المغرب ثم يجلس إلى الطعام، ومن لم يطبق سنة النبي عليه الصلاة والسلام في إفطاره، فاته خير كثير في صيامه، صحياً، ونفسياً، ودينياً.

التمور ـ أيها الإخوة، وهذه من آيات الله الدالة على عظمته ـ تتركب من السكريات الأحادية، وهذا النوع من السكر أسر السكاكر امتصاصاً في جسم الإنسان، وهذه التمور تتركب أيضاً من الألياف السيلولوزية التي لها آثار مدهشة في عملية الهضم، وفي وقاية الأمعاء من الأمراض الوبيلة.

تتركب هذه التمور أيضاً من المواد البروتينية المرممة للأنسجة ومن نسب ضئيلة من الدهن، ويحتوي التمر على خمسة أنواع من الفيتامينات الأساسية، التي يحتاجها الجسم، كما يحتوي التمر على ثمانية معادن أساسية، ومائة غرام من التمر يومياً فيها من نصف إلى خمس حاجة الجسم من المعادن يومياً، ويحتوي التمر أيضاً على اثني عشر حمضاً أمينياً، وفيه مواد ملينة، ومهدئة، وهناك خمسون مرضاً يسببها الإمساك والتمر يقي من الإمساك، وله آثار إيجابية في الوقاية من فقر الدم، ومن ارتفاع الضغط، ويعين على التئام الكسور، وهو ملين ومهدئ، وقد أثبتت الأبحاث العلمية، أن التمر لا يتلوث بالجراثيم إطلاقاً لأن تركيز السكر العالي يمتص ماء الجرثوم.

وهذا التوجيه النبوي من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

حتى في أيام الإفطار قال بعض الأطباء: يبغي أن تُقدم الفاكهة لما فيها من سكاكر أحادية على وجبات الطعام، التي تحتوي غالباً المواد الدسمة، استنباطاً ظنياً من قوله تعالى وهو يصف أهل الجنة:

(وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١))

[سورة الواقعة]

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٠٠ : الإسلام والفقر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠١-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، موضوع الخطبة اليوم، الإسلام والفقر، الفقر أيها الإخوة من أقدم المشكلات الإنسانية، والإسلام ينكر أشد الإنكار النظرة التقديسية للفقر بل يجعل الغنى نعمة يمتن الله بها على عباده، ويطالب بشكرها ويجعل الفقر مشكلة يُستعاذ بالله منها، وهو الذي يقول في القرآن الكريم:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآَوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨))

[سورة الضحى]

ولعل الغنى الذي تعنيه كلمة الغنى في القرآن الكريم، أن يكون مستغنياً عن الناس، أن يجد حاجته، أما المفهوم الآخر، الذي يُستنبط من الممارسات الخاطئة، وهو الإسراف، والتبذير، والترف والاستعلاء فهذه المعاني كلها، ليست لها علاقة بموضوع خطبتنا الغنى أن تكون متغنياً عن الناس:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

الفقر المدقع خطر على العقيدة، ولاسيما إذا كان هذا الفقر المدقع بجانبه ثراء فاحش، وبخاصة، إذا كان الفقير هو الساعي والكادح والمترف هو المتبطل القاعد.

ورد عن بعض السلف، أنهم كانوا يقولون، إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر خذني معك.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه:

((كاد الفقر أن يكون كفراً))

[أخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي عن أنس رضي الله عنه]

لعل هذا الفقر المدقع، مع ذلك الثراء الفاحش، يسبب خللاً واضطراباً في عقيدة المسلم.

شيء آخر، الفقر ـ أيها الإخوة ـ خطر على الأخلاق والسلوك، فعنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ فَقَالَ إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

والفقر خطر على الفكر الإنساني، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان))

وقد حمل الفقهاء على هذا الحديث، ثلاث وثلاثين حالة، أحدها الجوع الشديد، الجوع الشديد يجعل الفكر يضطرب.

وقد ورد عن بعض الأئمة الكبار قوله: **لا تستشر من ليس في بيته دقيق.**

والفقر خطر على الأسرة نفسها، قال تعالى:

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١))

[سورة الأنعام]

من إملاق: من فقر واقع.. وفي آية أخرى:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (٣١))

[سورة الإسراء]

فالفقر والواقع، أو الفقر المتوقع، خطر على الأسرة، الفقر خطر على العقيدة:

((كاد الفقر أن يكون كفراً))

والفقر خطر على الأخلاق والسلوك، والفقر خطر على الفكر الإنساني، والفقر خطر على الأسرة. مرة ثانية، الفقر المدقع، الذي إلى جانبه ثراء فاحش، والفقير الذي يعمل ويكدح والغني هو المتبطل القاعد..

والإسلام فضلاً عن أنه ينكر أشد الإنكار النظرة التقديسية للفقر ينكر أشد الإنكار النظرة الجبرية للفقر، وإليكم القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٤٧))

[سورة يس]

هؤلاء الذين كفروا، يتوهمون أن الفقر لابد منه، لا محالة، وينبغي أن يكون الفقير فقيراً، أو أن يبقى الفقير فقيراً، هذه النظرة الجبرية للفقر ينكرها الإسلام أشد الإنكار.

هناك فقر الكسل، ذكرت هذا في خطبة سابقة، وهناك فقر القدر وهناك فقر الإنفاق، ثلاثة أنواع للفقر، فقر القدر ؛ قد يُصاب الإنسان بعاهة، أو بمرض عضال، أو بمشكلة تحول بينه وبين الكسب، هذا فقر القدر، هذا قدر من الله عز وجل، وفيه حكمة بالغة، لو كُشفت لشكر الفقير ربه على هذا الفقر، ليس هذا هو موضوع خطبتنا، فقر القدر هو قضاء وقدر، والمجتمع متكافل متضامن، أما

فقر الكسل، فقر الإهمال، فقر التبطل، فقر القعود، فقر الراحة، هذه كلها تؤدي إلى الفقر، هذا الفقر مذموم، والإنسان محاسب عليه، وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد، فرأى شاباً يصلي في غير أوقات الصلاة، قال يا هذا من يطعمك، قال أخي، قال: أخوك أعبد منك الذي يطعمك أعبد منك.

وقد أمسك النبي صلى الله عليه وسلم بيد ابن مسعود وكانت خشنة من العمل، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

وكان عمر يقول ـ رضي الله عن عمر: **إني أرى الرجل ليس له عمر يسقط من عيني.**

والذي أقوله دائماً، وأعيده مراراً وتكراراً: إن عملك الذي ترتزق منه، إذا كان في الأصل مشروعاً، وسلكت فيه الطرق المشروعة لم تكذب، ولم تدلس، ولم تغش، ولم تحتكر، ولم تستغيب، ونويت من هذا العمل كفاية نفسك وأهلك، ونويت به خدمة المسلمين، ولم يصرفك عن طاعة، ولا عبادة، ولا أداء واجب، ولا طلب علم انقلبت حرفتك التي تمضي فيها وقتاً طويلاً، انقلبت إلى عبادة وطلب الحلال فريضة بعد الفريضة.

هذا فقر الكسل، المذموم، الذي يُحاسب الإسلام عليه، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

[أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد]

أما فقر الإنفاق فهذا فقر آخر، نقف عنده وقفة سريعة، جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((يا رسول الله، والله إني أحبك، قال انظر ما تقول، قال: والله إني أحبك، قال: انظر ما تقول، قال: والله إني أحبك، فقال عليه الصلاة والسلام: إذا كنت صادقاً فيما تقول، للفقر أقرب إليك من شرك نعليك))

إن أحببتني حقيقة، لابد من أن تنفق مالك في سبيل الله، لابد من أن تعطي من مالك الذي أعطاك الله، فهذا فقر الإنفاق وسام شرف للمؤمنين، من شدة إنفاقه، أنفق ماله.

حديثنا لا عن فقر القدر، هو قدر من الله، والمؤمن يجل قدر الله عز وجل، وحديثنا لاعن فقر الإنفاق، هذا لعلة المؤمنين السابقين حديثنا عن فقر الكسل، وفقر الكسل الإنسان ملوم عليه أشد اللوم.

يقول عليه الصلاة والسلام،

((إني لا أعلم شيئا يبعدكم من الجنة، ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين نفث في روعي: أن نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب))

[رواه بن أبي الدنيا في القناعة، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهدا لحديث أبي حميد وجابر وصححهما على شرط الشيخين، وهما مختصران ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال: إنه منقطع]

الرزق مضمون، لكنه يحتاج إلى حركة، إلى سعي، أرأيت إلى الطير، تغدوا خماصاً، وتعود بطاناً، كأن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر الطير ليضرب المثل الأعلى في ضمان الرزق، ومع ذلك تغدوا من أعشاشها خماصاً، وتعود بطاناً، تتحرك..

((إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس، تصحيح السيوطي: ضعيف]

إذا سعيت في طلب الرزق، أديت الذي عليك، بقي الذي لك من الله عز وجل، أما هذا الذي يقعد ـ أنا لا أتكلم من فراغ ـ قصص كثيرة جداً تنتهي إلي، أن هذا الشاب لا يجد ما ينفق، وهو يقبع في البيت، لا يتحرك ولا يعمل، يؤثر الراحة، يؤثر أن تكون يده هي السفلى، مريح شيء مريح جداً !.. العمل عبادة، بل هو من أدق العبادات..

كيف عالج الإسلام مشكلة الفقر، عالجها بالعمل، وعلاجها بكفالة الموسرين من الأقارب، وعالجها بالزكاة، عالجها بإيجاد حقوق غير الزكاة، نقف في هذه الخطبة عند البند الثاني، كفالة الموسرين من الأقارب.

أيها الإخوة الكرام، الأصل الأصيل في شريعة الإسلام أن يحارب كل مسلم الفقر بسلاحه هو وهو السعي والعمل، ولكن ما ذنب العاجزين الذين لا يستطيعون أن يعملوا ؟ وما ذنب الأرامل اللواتي مات عنهم أزواجهم، ولا مال لهم ؟ وما ذنب الصبيان الصغار، والشيوخ الهرمين ؟ ما ذنب المرضى والمقعدين ؟

هؤلاء فقرهم فقر القدر، لا فقر الكسل.

أيها الإخوة الكرام، الإسلام حلّ هذه المشكلة عن طريق تضامن أعضاء الأسرة الواحدة فجعل الإسلام ذوي القربى متضامنين، متكافلين، يشد بعضهم أزر بعض يحمل قويهم ضعيفهم، يكفل غنيهم فقيرهم، ينهض قادرهم بعاجزهم، لأن العلائق بينهم أشد قوةً، ولأن بواعث التعاطف والتراحم أوثق عروة، قال تعالى:

(النّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً(٦))

[سورة الأحزاب]

هذه الآية التي يتلوها الخطباء في كل خطبة من دون استثناء من أكثر من ألف وأربعمئة عام:

(إِنّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ (٩٠))

[سورة النحل]

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتّقُوا اللّهَ الّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

[سورة النساء]

اتقوا الأرحام أن تقطعوها..

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السّبِيلِ وَلَا تُبَذّرْ تَبْذِيراً (٢٦))

[سورة الإسراء]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّه عَنْه عَنِ النّبِيِّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد والدارمي]

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((الرّحِمُ مُعَلّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللّهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد]

وقد سئل عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَبَرُّ ؟ قَالَ أُمّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ وَمَوْلَاكَ الّذِي يَلِي ذَاكَ حَقّ وَاجِبٌ وَرَحِمٌ مَوْصُولَةٌ))

[انفرد به أبو داود]

آيات كثيرة، وأحاديث كثيرة صحيحة، تؤكد وجوب الإنفاق على الأقارب المحتاجين.

من الأشياء المضحكة أن يتوهم بعض الناس، أن صلة الرحم تعني الزيارة قريب غني موسر، يزور قريبه الفقير المدقع، يزوره ويطيب خاطره، ثم يودعه ويذهب، ويظن أنه أسقط عنه واجب صلة الرحم.

قال بعض العلماء: إذا كان القريب يرث قريبه بعد موته فيغنم فمن العدل أن ينفق عليه عند العجز فيغرم، والغرم بالغنم..

قال عليه الصلاة والسلام في الحديث عن صلة الرحم:

((حق واجب))

بعض الناس فهم هذا الحق الواجب، ترك قطيعته، قال ابن القيم: أي قطيعة أعظم من أن يراه يتلظى جوعاً وعطشاً، ويتأذى غاية التأذي بالحرّ والبرد، ولا يطعمه لقمة، ولا يسقيه جرعة، ولا يكسوه ما يستر عورته ويقيه الحرّ والبرد، ويسكنه تحت سقف يظله.

إن لم تكن هذه قطيعة فمَ القطيعة المحرمة، وما الصلة التي أمر الله بها.

هذه الزيارات التي لا تعني شيئاً، ينبغي أن تزور رحمك، أن تتفقد حالهم المعاشي، هل عليهم دين؟ أيشكون حاجة ؟ وأن تنفق عليهم، هذه صلة الرحم التي أرادها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعله أراد من هذه الصلة الحقيقية شيئاً أكبر، هو أن تأخذ بيدهم إلى الله.

تزورهم أولاً، تتفقد أحوالهم ثانياً، تأخذ بيدهم إلى الله ثالثاً.. هذه عبادة من أجلّ العبادات ؛ أن يتكافل أعضاء الأسرة الواحدة، وأن يكونوا متكافلين متضامنين، وهذا من أرقى ما يُسمى اليوم بالتكافل الاجتماعي.

أجمع الفقهاء على أن الزوج يُجبر على الإنفاق على زوجته، وأن الوالد يجبر على الإنفاق على ولده الصغير والأنثى، والابن يُجبر على الإنفاق على أبويه، واختلف الفقهاء بعد ذلك في بقية الفروع والشيء الثابت أن سلطة القاضي المسلم في إجبار القريب على أن يُنفق على قريبه ثابتة بالإجماع.

هناك فرق بين الفتوى والقضاء، تستفتي مفتي، يقول لك: افعل أو لا تفعل، هذه فتوى، لكن القاضي لا يعطيك رأيه، ويدعك تفعل ما تشاء يلزمك إلزاماً، وأنت مكره، على أن تنفق على أقربائك.
وعَنْ طَارِقٍ الْمُحَارِبِيِّ قَالَ:

((قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ النَّاسَ وَهُوَ يَقُولُ يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ مُخْتَصَرٌ))

[انفرد به النسائي]

عن معاوية بن حيدة قَالَ قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبَرُّ قَالَ أُمَّكَ قَالَ قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ أُمَّكَ قَالَ قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ أُمَّكَ قَالَ قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبَاكَ ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ قَالَ))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد]

ومن الأحاديث الدقيقة حديثُ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إنّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وَإِنّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ))

أطيب طعام تأكله عند الله، الطيب هنا الحلال.. كلوه هنيئاً مريئاً

[أخرجه النسائي والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدرامي]

يعني إذا أنفق الابن على أبيه ابنه جزء منه، وهو من كسبه وكأنه من كسبه، ألم يربه صغيراً ؟ ألم ينشئه يافعاً ؟ ألم يعلمه ؟ ألم يأخذ بيده ؟.. له عليه حق كبير..

وفي موضوع الإنفاق على الأقرباء والأهل حديثُ جَابِرٍ قَالَ:

((أَعْتَقَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ عَبْدًا لَهُ عَنْ دُبُرٍ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ أَلَكَ مَالٌ غَيْرُهُ فَقَالَ لَا فَقَالَ مَنْ يَشْتَرِيهِ مِنِّي فَاشْتَرَاهُ نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ الْعَدَوِيُّ بِثَمَانِ مِائَةِ دِرْهَمٍ فَجَاءَ بِهَا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ ثُمّ قَالَ ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدّقْ عَلَيْهَا فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا يَقُولُ فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدارمي]

والشيء الذي يلفت النظر أن حق القرابة في القرآن الكريم يلي حق الوالدين، العم والد كما قال النبي، والعمة والدة كما قال النبي، والأخ الأكبر والد.

سيدنا عمر حبس عصبة صبي، أي أقرباؤه من طرف أبيه، حبس عصبة صبي على أن ينفقوا عليه.

وجاء ولي يتيم إلى عمر بن الخطاب، فقال أنفق عليه، وقال بعد ذلك: **لو لم أجد إلا أقصى عشيرته لفرضت عليهم الإنفاق عليه.**

وقد استنبط الفقهاء ـ جزاهم الله خيراً ـ أن واجب الإنفاق على الصغير أو الفقير، أو العاجز يتناسب مع حقوقهم من ميراثهم، فإذا كان أمٌّ وعمٌّ فعلى الأم بقدر ميراثها، وعلى العمّ بقدر ميراثه.. استُنبط هذا من قوله تعالى:

(وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ)

[سورة البقرة آية ٢٣٣]

شروط النفقة على الأقارب:

أن يكون القريب فقيراً، لكن في أيام رمضان، إن أكثر سؤال يُطرح على الدعاة إلى الله، هل يجوز أن أعطي زكاة مالي لأختي، أو لأخي، أو لابني المستقل عني في النفقة ؟..

الحقيقة يرغب الناس أن تبقى أموالهم فيما بينهم، يتوهمون أن هذا الأخ بحاجة إلى أن يوسع بيته، بحاجة إلى بعض الأثاث، يعدونه فقيراً فيؤثرونه على الفقير الذي لا يجد ما يأكل، فلذلك الله جل جلاله أوجب على الإنسان أن يؤدي زكاة ماله، وأوجب عليه أن ينفق المال على حبه، فأد زكاة مالك للفقراء، وأعط جزءً من مالك لذوي القربى، واجعلها من باب الصدقات هؤلاء الناس يتوهمون أن كل حاجة تجعل الفقير فقيراً..

برّاده صغير لا يتسع للطعام، لابد من أن يكبّر براده، إذاً نعطيه من زكاة أموالنا، وندع الذي لا يجد قوتاً يأكله ندعه هملاً، هذا مخالفٌ لروح التشريع، ولحكمة أداء الزكاة.

لذلك يجب الإنفاق على الأقارب بشرط أن يكون القريب فقيراً، فإن استغنى بمال أو كسب لم تجز له النفقة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ))

[الترمذي وأبو داود وأحمد والدرامي]

وأن يكون للمنفق فضل مال زائد عن نفقة نفسه وزوجته، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ابدأ بنفسك، ثم بمن تعول))

أما أصحاب النبي رضوان الله عليه، فلهم شأن آخر، وصفهم الله عز وجل فقال:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٩))

[سورة الحشر]

أضع بين أيديكم بنود الإنفاق:

تختلف حاجات الناس باختلاف المكان والزمان والحال والعرف، يعني هل تستطيع أن تقول لإنسان يسكن في المدينة، اجمع حطباً وأوقده في بيتك غير مقبول الآن، لا يوجد وسائل لإشعال الحطب في البيوت، لابد من أن تعطيه ثمن الوقود السائل، تختلف حاجات الناس باختلاف المكان والزمان والحال والعرف، والمنفقون تختلف قدراتهم من بين موسر، ومن بين متوسط الحال، الإسلام راعى قدرة المنفق وحاجة المنفق عليه.

وأن تُسد هذه الحاجلة بالمعروف، وهو ما تقره الفطرة السليمة والعقول الرشيدة، وعرف الفضلاء من الناس..

هل يُعقل أن تؤمن لإنسان تدفئة منزله بتدفئة مركزية ؟..لا.

العرف يرفضه، والعقل السديد يرفضه، والفطرة تأباها.

ليس محرماً أن تنشئ في بيتك تدفئة مركزية، أما أن تنفق مال الزكاة لهذا الشيء، هذا لا يجوز، يستعمل التدفئة البسيطة، العرف والعقول الرشيدة والفطرة السليمة، هذه تدرك ما معنى أن تُسد حاجة هذا الفقير.

قال تعالى:

(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً(٧))

[سورة الطلاق]

(لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦))

[سورة البقرة]

(وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ)

[سورة البقرة آية ٢٣٣]

أعلى درجات الإنفاق من أجل الغذاء والماء، ثم الكسوة في الشتاء والكسوة في الصيف بما يناسب كلاً منهم.

وخيف عليه العنت، هذا من مال الزكاة، تزويج من يخشى العنت من عدم زواجه.

وإنفاق الزوج على زوجته وأولاده، تطعمه وحده وأولاده جياع، تطعمه وحده وزوجته جائعة، يأتون بالفقراء ليطعموهم أطيب الطعام، في مناسبات الوفاة، طيب وأهل هؤلاء ؟.. وزوجاتهم ؟ وأولادهم ؟ !.

والعلاج وثمن الدواء ؛ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ قَالَ:

((قَالَتِ الْأَعْرَابُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَدَاوَى قَالَ نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجة]

الغذاء والماء والكسوة في الصيف والشتاء، والمسكن وما يتبعه من أثاث وفراش، والخادم لمن يعجز عن خدمة نفسه، وتزويج من يتوق للزواج ونفقة الزوجة والعيال، والعلاج وثمن الدواء. الإنفاق على الأقارب من خصائص الإسلام، لا يُعرف تشريع في الأرض فيه وجوب الإنفاق على الأقارب إلا في الإسلام.

زار رجل بلد غربي، ففي البيت خادمة يبدو عليها مخايل الأصالة، من أسرة عريقة، إنها تعمل في خدمة البيت، فسأل صاحبة البيت لماذا تعمل هنا هذه ؟ قالت إنها من أسرة طيبة لكنها فقيرة، ولها عمٌّ غني، فقال بسذاجة لترفع دعوى على عمها كي ينفق عليها، فتعجبت أشد العجب، قال هذا ليس عندنا وارد إطلاقاً.. أما عند المسلمين من حق الفقير في الشرع الإسلامي، أن يرفع دعوى النفقة على أقربائه الأغنياء، ومعه الشرع الإسلامي، ومعه القضاء الإسلامي.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، نحن في شهر رمضان، ورمضان شهر الإنفاق، وكان عليه الصلاة والسلام جواداً، وكان أجود ما يكون في رمضان، وهذه الخطبة من أجل أن ترعى أقاربك، ورمضان مناسبة سنوية، كي تزور كل أقربائك، وكي تتفقد أحوالهم، وكي تنفق عليهم، لأن الأقربين أولى بالمعروف هكذا يقول بعض الفقهاء، لكن بعضهم قال: الأقربون إلى الفقر أولى بالمعروف، والأقربون نسباً أولى بالمعروف، والأقربون إلى الإيمان أولى بالمعروف.

فكلما أردت أن ترجح بين شخصين استخدم هذه المقاييس الثلاثة، فقيران في درجة واحدة، رجّح عامل النسب، إن تساويا في النسب رجح عامل الدين، تساويا في الدين، رجح عامل النسب، تساويا في الدين والنسب، رجح عامل الفقر..

قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣))

[سورة التوبة]

الصدقة ومنها الزكاة، تطهر نفس الفقير من الحقد، ونفس الغني من الشح، وتطهر المال من تعلق حق الغير به.

تزكي نفس الفقير فيرى أنه ليس مهاناً، وهو ليس هيناً على مجتمعه هناك من يهتم به، ويُعنى بشؤونه وأحواله.

تزكي نفس الغني ؛ يرى عمله الطيب أمامه فيقبل على الله.

تزكي المال نفسه بطريقتين، بطريقة علمية، وبطريقة العناية الإلهية فالذي ينفق ماله، يضاعف الله له ماله المُنفق أضعاف كثيرة.

ينبغي أن يظهر إيمان الإنسان في إنفاقه، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((.. والصدقة برهان...))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي]

إنك حينما تُنفق مالك، تبرهن لنفسك ولربك ولمن حولك أن الله عز وجل أغلى عليك من المال، تنفقه في سبيله هيناً.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٠١ : خ١ - مقومات التكليف ، خ٢ - قل لن يصيبنا إلا ما لنا.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠١-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، ستعقد إن شاء الله تعالى ندوة علمية بعد هذه الخطبة، في الموضوع المحدد، مسؤولية التكليف، والالتزام في الأوامر الشرعية سوف أعالج هذا الموضوع في هذه الخطبة، وأدلي بدلوي فيها، من أجل أن نستفيد من الضيوف في وقت الندوة القصير المحدد بين صلاة الظهر إلى قبيل صلاة العصر.

من الثابت أن الإنسان هو المخلوق الأول، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢))

[سورة الأحزاب]

ومن الثابت أيضاً أن الإنسان هو المخلوق المكرم، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠))

[سورة الإسراء]

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣))

[سورة الجاثية]

والمسخر له أكرم من المسخر، فالإنسان هو المخلوق الأول وهو المخلوق المكرم، وهو المخلوق المكلف، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

[سورة الذاريات]

والعبادة أن تعرف الله أولاً، وأن تطيعه ثانياً، وأن تسعد بقربه ثالثاً، في معنى العبادة، تتضح في الإسلام كليات ثلاث ؛ كلية تعريفية، وكلية سلوكية، وكلية جمالية..

الكلية التعريفية سبب الكلية السلوكية، والكلية الجالية نتيجة الكلية السلوكية، تتعرف إليه، فتطيعه، فتسعد بقربه في الدنيا والآخرة.

ربنا سبحانه وتعالى كلفنا تزكية أنفسنا، إذا عرَّفنا أنفسنا بربها وحملناها على طاعته، وتقربت إليه، حققنا الهدف من وجودنا لقوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤))

[سورة الأعلى]

الفلاح كل الفلاح، والنجاح كل النجاح، والفوز كل الفوز والتفوق كل التفوق، بتزكية النفس، لأنه:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

[سورة الشعراء]

نفس زكية طاهرة من كل درن، نقية من كل عيب، هي نفس مؤهلة أن تكون في جنة الله عز وجل، إلى أبد الآبدين، نحن في الحياة الدنيا، في حياة دنيا إعدادية لحياة عليا تكريمية، نحن في حياة نكدح فيها كدحاً:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (٦))

[سورة الانشقاق]

والآخرة حياة تكريمية، قال تعالى:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥))

[سورة ق]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: [فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ]))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدرامي]

ما كلفنا ربنا تزكية أنفسنا إلا وأعطانا مقومات هذه التزكية العنصر الأول في مقومات التزكية، هذا الكون، بمجرَّاته، بكازاراته، بكواكبه، بمذنباته، بأبراجه، بسماواته، بأرضه، يوما فيها من جبال وأنهار وأسماك وأطيار، وأنواع لا تُحصى من النباتات، وأنواع لا تُحصى من الحيوانات، هذا الكون ينطق بثلاث كلمات ينطق بأن الله موجود وبأن الله كامل، وبأن الله واحد موجود وواحد، وكامل..

هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، إذا أردت أن تعرف الله فالكون يدلك عليه، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠))

[سورة آل عمران]

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(٢٩))

[سورة الشورى]

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧))

[سورة فصلت]

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣))

[سورة الروم]

الحديث يطول عن آيات الله في الكون، مجرة اكتُشفت حديثاً، تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، إذا أردت أن تصل إلى أقرب نجم ملتهب إلينا الذي يبعد عنا أربعة سنوات ضوئية، تحتاج إلى خمسين مليون عام بمركبة أرضية، فكيف لكي تصل لمجرة تبعد عنا ثلاثمئة ألف مليون سنة ضوئية، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦))

[سورة الواقعة]

هذا في خلق السماوات والأرض..

نجم صغير اسمه قلب العقرب، يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، قال تعالى:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢))

[سورة الأنعام]

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١))

[سورة يونس]

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥))

[سورة يوسف]

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣))

[سورة فصلت]

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨))

[سورة البلد]

في شبكية العين مئة وثلاثون مليون مخروط وعصية، عصب العين تسعمئة ألف عصب، لكل عصب وريد وشريان، لكل عصب أغماد ثلاث.

في رأس الإنسان ثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرة وريد، وشريان، وعضلة، وعصب، وغدة دهنية، وغدة صبغية.

قلب الإنسان يضخ ثمانية لترات في اليوم.

طول أوعية الدم يزيد عن مئة خمسين كيلو مترًا في جسم الإنسان.

في الكلية طريق طوله مئة كيلو متر، يقطعه الدم في اليوم خمس مرات.

آيات الله في جسم الإنسان قد لا تُصدق..

الكون أحد مقومات التكليف..

المقوم الثاني: العقل..

الله سبحانه وتعالى ذكر العقل وفروعه في القرآن الكريم قريباً من ألف آية.. أفلا يعقلون.. أفلا يتفكرون.. أفلا يذكرون.. العقل أداة معرفة الله، مبادئه تتوافق مع مبادئ الكون، مبدأ السببية، العقل لا يفهم شيئاً بلا سبب، ومبدأ الغائية، والعقل لا يفهم شيئاً بلا غاية، ومبدأ عدم التناقض العقل لا يقبل الشيء ونقيضه..

مبادئ العقل تتوافق مع أنظمة الكون، العقل أداة معرفة الله هنيئاً لمن أعمل عقله فيما خُلق له عقله، والويل لمن أعمل عقله في غير ما خُلق له، في المكر والخداع، والتضليل، والتكذيب، والاحتيال.. هؤلاء الذين وصلوا إلى منجزات تقترب من حد الخيال، وصلوا إلى هذه المنجزات عن طريق عقولهم، ولو استعملوا عقولهم واحد بالمليون مما يستعملونه في إنجازاتهم العلمية لعرفوا الله عز وجل ولسعدوا بقربه في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣))

[سورة عبس]

العقل البشري أداة فعالة في معرفة الله عز وجل..

المقوم الثالث: الفطرة الإنسانية.. ربنا سبحانه وتعالى فطر الإنسان فطرةً عالية قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠))

[سورة الروم]

الفطرة تعني أنك تحب الحق، وتكره الباطل، تحب الخير وتكره الشر، تحب العدل وتكره الظلم، تحب الرحمة وتكره القسوة، هكذا فُطر الناس جميعاً، الفطرة شيء، والصبغة شيء آخر، الصبغة أن تكون عادلاً، وأن تكون رحيماً، وأن تكون منصفاً، أما الفطرة أن تحب العدل والإنصاف، وأن تحب الرحمة والإحسان، النفس البشرية متوافقة مع الدين توافقاً تاماً، إذاً لا ترتاح، ولا تركن، ولا تطمئن ولا تستقر، ولا تسعد إلا إذا عرفت ربها، وانطوت تحت ظله، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فطرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠))

من الآيات التي تؤكد الفطرة، أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن أصحاب نبيه الكرام، بأنهم يفرحون بما أنزل إليهم، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦))

[سورة الرعد]

توافق أنفسهم مع شرع الله عز وجل جعلهم يفرحون..

من الآيات الدالة على الفطرة:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨))

[سورة الشمس]

أي أنها إذا فجرت تعلم أنها فجرت من دون أن يعلمها أحد.

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥))

[سورة القيامة]

وأنها لو اتقت تعلم أنها تتق الله من دون أن يعلمها أحد، إذا كان العقل يصل بك إلى الله فإن الفطرة تكشف لك الخطأ والصواب.

أيها الإخوة الكرام، معنى آخر من معاني قوله تعالى:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

ألهمها طريق تقواها، وألهمها طريق فجورها، وألهمها إذا اتقت أنها تتق الله، وألهمها أنها فجرت أنها تفجر، لذلك الحجة قائمة على كل إنسان، فطرته وحدها حجة عليه..

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد والدارمي]

هذه هي الفطرة..

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الْأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِوَابِصَةَ:

((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ قالَ قُلْتُ نَعَمْ قالَ فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ وَقالَ اسْتَفْتِ نَفْسَكَ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ ثَلاثًا الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

[أخرجه الدرامي وأحمد]

الكون أحد مقومات التكليف، سخره الله لنا تسخيرين، تسخير تعريف وتسخير تكريم، من خلال الكون نعرف الله، عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ:

((هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

[انفرد به أبو داود]

ينفعنا ويرشدنا إلى ربنا، وقس على الله كل شيء، قس طعامك وشرابك، قس أنواع النباتات، قس أنواع الأطيار أنواع الأسماك قس تضاريس الأرض، ما فيها من بحار، من جبال، من أنهار، من أغوار، من صحارى، من بحيرات، من سهول، قس على ذلك كل شيء، هلال خير ورشد.. الكون مسخر لنا تسخيرين، تسخير تعريف، وتسخير تكريم..

الموقف الأمثل من تسخير التعريف أن تؤمن، والموقف الأمثل من تسخير التكريم أن تشكر، إن آمنت وشكرت حققت الهدف الذي من أجله خُلقت، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧))

[سورة النساء]

تسخير التعريف يقتضي أن تؤمن، وتسخير التكريم يقتضي أن تشكر، فإن آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، وتوقف العلاج الإلهي:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧))

أيها الإخوة الكرام، المقوم الأول الكون، والمقوم الثاني العقل، والمقوم الثالث الفطرة جبلت على فطرة متوافقة مع الدين، الإنسان ـ أيها الإخوة ـ لو حقق نجاحاً اقتصادياً، كان من أغنى الناس، في نفسه فراغ لا يملأه المال لو وصل إلى أعلى المناصب، في نفسه فراغ لا تملأه القوة، لو بلغ أعلى مستوى من الصحة، في نفسه فراغ لا تملأه الصحة، لو كان له أتباع كثيرون، في نفسه فراغ لا يملأه الأتباع، في النفس فراغ لا يملأه إلا الإيمان بالله، وطاعته والقرب منه، هذه الفطرة، متوافقة مع الدين، خذ مثل السيارة، هذه مصممة كي تسير على طريق معبد مستوٍ، فإذا سارت على طريق وعرة اضطربت، وسمعت منها أصوات لا ترضي، ليس العيب في صانعها، ولكن العيب لأنك استخدمتها في غير ما صُنعت له، أما إذا جعلتها على طريق سوي تشعر براحة ؛ لأنها توافقت مع ما صُنعت له.

أيها الإخوة الكرام، إن الله يعطي الصحة للكثيرين من خلقه، ويعطي القوة للكثيرين من خلقه، ويعطي الجمال للكثيرين من خلقه، ويعطي المال للكثيرين من خلقه، أما السكينة فلا يعطيها إلا لأصفيائه المؤمنين.

السكينة شيء لا يوصف، إذا تجلى الله على عبد بالسكينة، كان أقوى الناس، وكان أغنى الناس، وكان أسعد الناس، وكان أكثر الناس صبراً، أكثرهم اطمئناناً، أكثرهم إقبالاً، أكثرهم توازناً.

المقوم الرابع: الشهوات..

ما أودع الله بنا الشهوات إلا لنرقى بها إلى رب الأرض والسماوات الشهوات سلم نرقى بها، أو دركات نهو بها، إنها حيادية، كل الشهوات التي أودعها الله فينا حيادية، يمكن أن ترقى بك إلى الله ويمكن أن تهوي بك ـ لا سمح الله ـ إلى أسفل سافلين..

حب النساء، سُمح لك بقناة نظيفة هي الزواج، فإن تحركت بدافع من هذه الشهوة، ضمن هذه القناة سعدت وأسعدت، وإن تحركت بدافع من هذه الشهوة في قناة أخرى ما شرعها الله عز وجل شقيت وأشقيت، سلم ترقى بها، أو دركات تهوي بها، حيادية، كالوقود السائل في السيارة، إن وضع في المستودعات المحكمة، وسال في الأنابيب المحكمة، واحترق في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب ولّد حركة نافعة، أما إذا خرج الوقود عن مساره، وأصاب المركبة شرارة، أحرق المركبة ومن فيها..

الشهوات حيادية.. قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤))

[سورة آل عمران]

فالشهوات ترقى بنا، كيف تتقرب إلى الله إن لم تنه نفسك عن الهوى ؟.. لا سبيل إلى الله إن لم تنه نفسك عن الهوى، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١))

[سورة النازعات]

الشهوات:

((ما كان الله ليعذب قلباً بشهوة تركها صاحبها في سبيل الله))

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

((من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه))

المقوم الخامس: التشريع..

إذا كان العقل مقياساً علمياً، وكانت الفطرة مقياساً نفسياً، فإن التشريع مقياس على مقياسي العقل والفطرة، الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع، إن توافق عقلك مع الشرع أنعم بهذا العقل وإن لم يتوافق عقلك مع الشرع، فلا أنعم بهذا العقل، هذا العقل منحرف، الأصل هو الشرع، إن اجتهدت، وفكرت، واستنبطت واجتهدت، ووصلت إلى نتائج متوافقة مع الشرع، نقل لك عقلك يعمل بشكل صحيح، أما إذا جاء بنتائج مختلفة عن الشرع، هذا العقل منحرف ولا يُعبأ به، قال تعالى:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦))

[سورة المدثر]

أيها الإخوة الكرام، الله سبحانه وتعالى خلق الكون لنعرفه به، وأنزل التشريع لنعبده بالتشريع، لا سبيل إلى عبادة الله إلا بما شرع الله، إن أردت أن تتقرب من الله عز وجل، فالشرع الحنيف هو الذي يوصلك إلى الله:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣))

[سورة الحجرات]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

[سورة الأحزاب]

ثم إن الله سبحانه وتعالى يمد الإنسان بقوة من عنده لتحقيق اختياره فالقوة عنصر تابع من عناصر التكليف، إنها قوة الله عز وجل، إنه فعل الله عز وجل، لكن الإنسان مخير، فإذا اختار شيئاً وكان من الحكمة الإلهي أن يتحقق، أمده الله بقوة كي يتحقق، له الكسب والفعل لله، قال تعالى:

(يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦))

أيها الإخوة الكرام، المقوم الأخير: أن الله سبحانه وتعالى منحك حرية الاختيار، قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨))

[سورة الأنعام]

هذه الآية أصل في أن الإنسان مخير، قال تعالى:

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩))

[سورة الكهف]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨))

[سورة البقرة]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (٣))

[سورة الإنسان]

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧))

[سورة فصلت]

بل إن مجرد الأمر يقتضي الاختيار، وإن مجرد النهي يقتضي الاختيار.

أيها الإخوة الكرام، لو أن الله أجبرنا على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرنا على المعصية لبطل العقاب، ولو تركنا هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخيراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء عبثاً، ولم ينزل الكتب لعباً..

جاء رجل إلى سيدنا عمر وقد شرب الخمر، فقال رضي الله عنه أقيموا عليه الحد، فقال والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر علي ذلك فقال رضي الله عنه، أقيموا عليه الحد مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله.. قال له: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار..

أنت مخير، والحدة قائمة عليك، مخير فيما كُلفت، ومسير في غير التكليف، لكن هذا التسيير لصالحك..

أيها الإخوة الكرام، لأن الإنسان مكلف أن يعرف الله، وأن يطيعه جعله الله جزوعاً قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

[سورة المعارج]

جعله جزوعاً ليبادر إلى باب الله فيؤوي إليه، جعله جزوعاً ليحتمي بحمى الله عز وجل، جعله جزوعاً ليتقوى بطاعة الله عز وجل، إن الإنسان خُلق هلوعاً إذا مسَّه الشرُّ جزوعاً، وإذا مسَّه الخير منوعاً وجعله منوعاً ليرقى بإنفاقه، لولا أنه يحب المال لما ارتقى عند الله بإنفاقه.

والإنسان خُلق ضعيفاً، لو أنه خُلق قوياً لاستغنى بقوته، فشقي باستغنائه، خُلق ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره..

خُلق جزوعاً، وخلق منوعاً، وخلق ضعيفاً، وخلق عجولاً، إذ لو أنه اختار الآخرة، هو عجول اختار الشيء البعيد، يرقى بهذا الاختيار.

أما حظوظه، حظُّ المال، وحظ الصحة، وحظ الذكاء، هذه الحظوظ أيضاً كالشهوات، يرقى بها، أو يهوي بها، حيادية توظف في الخير كما توظف في الشر..

أيها الإخوة الكرام، هذا هو الإنسان، مخلوق أول، ومخلوق مكرم، ومخلوق مكلَّف مكلف أن يزكي نفسه، وتزكية النفس تحتاج إلى كون مسخر لتعرف الله، وإلى أداة لتعرف الله به وهو العقل، وإلى فطرة متوافقة مع أحكام الدين، وإلى شهوات محركة، وإلى اختيار مثمِّن، وإلى تشريع ضابط..

التكليف يحتاج إلى كون معرِّف، وإلى أداة للتعريف هي العقل وإلى فطرة متوافقة مع الشرع، وإلى اختيار مثمن، وإلى تشريع ضابط، هذه هي مسؤولية التكليف والالتزام.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن، عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، الموضوع الفرعي التابع لموضوع ندوة بعد صلاة الجمعة إن شاء الله تعالى، هي قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١))

[سورة التوبة]

هذه الآية لها سياق دقيق، قال تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢))

[سورة التوبة]

هذا شأن المنافقين والكفار، في الخندق الآخر غير خندق المؤمنين لمجرد أن تأتي مصيبة تصيب المؤمنين يفرحوا، وإن جاءت حسنة ينزعجوا، وبإمكانك أن تتخذ هذا مقياساً لك، فيما إذا كنت مؤمناً أو غير ذلك ـ لا سمح الله ـ علامة إيمانك أنك تفرح للخير يصيب المسلمين، لك صديق، لك جار، لك قريب، لك أخٌ، لك زميل أكرمه الله بزواج، أو شراء بيت، أو مركبة، أو نيل درجة، أو نجاح في دعوة تفرح له، علامة إيمانك أنك تفرح للمؤمنين، تفرح لما يفرحهم، وتتألم لما يؤلمهم، هذه علامة صادقة من علامات الإيمان، أما إذا بالنفس شعور بالفرح حينما تأتي المصيبة تصيب المؤمنين، أو شعور بالضيق حينما يأتي الخير يعم المؤمنين فهذه علامة خطيرة جداً على أن صاحبها منافق:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١))

قل يا محمد لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. لنا.. لنا غير علينا تقول هذه الجوهرة لي ؛ لام الملك، أما هذا الدين علي، فرق كبير بين كتب لنا، وكتب علينا:

قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا من خيري الدنيا والآخرة..

معنى كتب أي أثبت لنا الخير في الدنيا والآخرة، وأنت حينما تصطلح مع الله، وحينما تخلص له، وحينما تقبل عليه، وحينما تخدم خلقه، وحينما تعامل الناس كأنهم أخوتك ؛ لأنهم عباد الله عز وجل الله جل جلاله لن يكتب لك إلا الخير في الدنيا والآخرة..

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١))

علامة إيمانك توكلك على الله..

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢))

الشهادة أو النصر..

(وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ(٥٢))

أيها الإخوة الكرام، هذه الآية بشارة للمؤمنين، لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..

كن عن همومك معرضاً وكل الأمور إلى القضـا

و أبشر بخير عاجـل تنسى به ما قد مضــى

فلرب أمر مسـخـط لك في عواقبه رضــى

ولربما ضاق المـضيق ولربما اتسع الفضـــا

الله يفعل ما يشـــاء فلا تكن معترضـــا

الله عودك الجميــل فقس على ما قد مضــى

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٠٢ : محبة الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠١-٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

بما أن الإنسان هو المخلوق الأول، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى كرمه وجعله سيد المخلوقات، وسخر له الأرض والسماوات.

بما أن الإنسان هو المخلوق الأول كلفه بالعبادة، وقد ذكرت هذا في الأسبوع الماضي، والعبادة في أدق تعاريفها: طاعة ترافقها محبة فمن أطاع الله ولم يحبه، ما عبده، أما أن يحبه دون أن يطيعه فهذا لا يكون إنه حب كاذب..

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب يطيـع

***

إذاً العبادة: طاعة الله عز وجل ممزوجة بمحبته، فمن أطاع ولم يحب ما عبد الله، الإنسان يطيع جباراً في الأرض ولا يحبه، أما إذا أطاع الله عزو جل، هذه الطاعة ينبغي أن تنطلق من محبة الله عز وجل.

شيء آخر يلفت النظر في القرآن الكريم، هو أن الله عز وجل جمع كلمة عبد مرةً عباد، ومرةً عبيد، فقال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣))

[سورة الفرقان]

وقال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦))

[سورة فصلت آية ٤٦]

وقد فرق علماء التفسير بين العباد والعبيد، فالعباد جمع عبد الحب عبد الطاعة، عبد العبودية، والعبيد جمع عبد القهر، كل مخلوق فضلاً عن البشر مقهورون بوجودهم، وباستمرار وجودهم إلى إمداد الله عز وجل، فلذلك **وعباد الرحمن**، هؤلاء الذين أحبوه، وعرفوه وأقبلوا عليه.

محور الخطبة اليوم محبة الله عز وجل، ونحن في رمضان، ونحن في شهر التقوى والحب، ونحن في شهر الإحسان والقرب نحن في شهر المغفرة، نحن في شهر القرآن.

العلاقة التي ينبغي أن تكون بين العبد وربه علاقة حب، والله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا، خلقنا ليرحمنا، ولكن جعل لنا منهجاً إذا اتبعناه وصلنا إلى محبة الله عز وجل، هنا موطن الشاهد، هناك منهجاً تفصيلي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، هذا المنهج إذا اتبعناه وصلنا إلى محبة الله عز وجل، ويا أيها الإخوة الكرام إن أثمن شيء على الإطلاق يصل إليه إنسان هو أن يصل إلى محبة الله لأن الله سبحانه وتعالى هو المسعد، وإليه المصير، وبيده مقاليد الأمور وإليه يُرجع الأمر كله.
ماذا ورد في السنة المطهرة عن أعمال إن فعلناها أحبنا الله عز وجل ؟

ما دامت العبادة أساسها الحب، لو قلنا إن أساسها الطاعة، الطاعة وحدها ليست عبادة، طاعة مع الحب.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها))

إن أردت أن تصل إلى محبة الله فحافظ على الصلاة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤))

[سورة المعارج]

يحافظون عليها في أوقاتها، ومن أخر الصلاة عن وقتها، أذهب الله البركة من عمره، إلا أن القضية تتلخص في أن الذي حزم أمره وأعلن توبته واصطلح مع الله يرتاح في الصلاة، بينما الذي أقام على معصية أو مخالفة يرتاح منها إذا صلاها، وفرق كبير جداً بين أن يرتاح الإنسان في الصلاة وبين أن يرتاح منها، الراحة منها تشير إلى بعض أنواع النفاق، لكن الراحة فيها عين الإيمان، قال عليه الصلاة والسلام:

((... وجُعلت قرة عيني في الصلاة))

((وقال عليه الصلاة والسلام، أرحنا بها يا بلال))

ثم برُّ الوالدين، البار بوالديه يحبه الله عز وجل، ما ورد في السنة المطهرة، وفي كتاب واحد من كتب السنة (الجامع الصغير) ما ورد عن موضوع الحب، ثم الجهاد في سبيل الله.

أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها، ثم برُّ الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله، ولا تنسوا أن تعلم القرآن وتعليمه، ونشر الحق وترسيخ قيم الدين نوع من الجهاد، بل هي من أكبر أنواع الجهاد لقول الله عز وجل:

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (٥٢))

[سورة الفرقان]

وهو جهاد متاح لكل مسلم.

أحب الأعمال إلى الله من أطعم مسكيناً من جوع، إطعام المساكين إطعام الطعام مطلقاً من الأعمال التي يحبها الله عز وجل، لأن إطعام الطعام يمتن العلاقات، يزيد في الألفة، إطعام الطعام بينة التقرب إلى الله عز وجل من الأعمال الطيبة، ومن السلوك الاجتماعي الذي يجمع القلوب.

أحب الأعمال إلى الله من أطعم مسكيناً من جوع، أو دفع عنه مغرماً، إنسان مثقل في الدين، خففت عنه، لو أنك صاحب الدين وضعت عنه بعض دينه، فهذا العمل مما يحبه الله عز وجل، أو أنك تدفع عنه دينه.

أحب الأعمال إلى الله من من أطعم مسكيناً من جوع، أو دفع عنه مغرماً، أو كشف عنه كُربة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((من نفس عن مؤمن كربة نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة))

تنفيس الكروب من الأعمال العظيمة، وما أكثر الكروب في المجتمعات، وما أكثرها، يعني هناك نقطة دقيقة جداً ـ أيها الإخوة ـ الله جل جلاله هو الحق، من رحمته بنا أعطانا وسائل للتقرب إليه لو أنه لم يعطنا هذه الوسائل كيف نتقرب إليه، هو المسعد، وهو المعطي وهو الرزاق وهو الغني، أن تكون في ظله أنت من أسعد الناس، لو أن الله عز وجل لم يضع بين أيدينا منهجاً تفصيلياً كي نصل إليه، ما العمل، وضع لك ألف طريق وطريق كي تصل إليه الطرق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

الصلاة على وقتها طريق إليه، بر الوالدين طريق إليه، الجهاد في سبيل الله طريق إليه، أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله طريق إليه، **يا موسى أتحب أن أكون جليسك، قال كيف ذلك يا رب وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحينما التمسني عبدي وجدني ".**

أحب الأعمال إلي من أطعم مسكيناً من جوع، أو دفع عنه مغرماً أو كشف عنه كربة.

أحب الأعمال إلى الله بعد أداء الفرائض ـ دققوا في هذا الحديث ونحن في رمضان، ونحن على أبواب العيد ـ أحب الأعمال إلى الله أحب اسم تفضيل ـ يعني هناك أعمال كثيرة يحبها الله، لكن هذا العمل أحب الأعمال إلى الله، أحب الأعمال إلى الله بعد أداء الفرائض إدخال السرور على المسلم.

إنك إن زرته أدخلت عليه السرور، إن أمددته ببعض المال أدخلت عليه السرور، إن وفيت عنه الدين أدخلت عليه السرور، إن عالجت ابنه من مرض مقلق أدخلت عليه السرور، أحب الأعمال إلى الله بعد الفرائض إدخال السرور على قلب المسلم.

وأحب الأعمال إلى الله حفظ اللسان، هذا الذي يضبط لسانه، هذا الذي يتكلم بعد تفكير، لا يدلي بكلام قبل أن يزنه بالشرع، أفي هذا الكلام غيبة، أفيه نميمة، أفيه استهزاء، أفيه تألي على الله، أفيه استعلاء، أفيه جرح، أفيه محاكاة، أفيه تدليس ؟.. أحب الأعمال إلى الله حفظ اللسان.

" ولا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه " وهذا من أبرز السلوك الاجتماعي اليومي.

إن الشيطان يأس أن يُعبد في جزيرة العرب.. مستحيل بعد أن من الله علينا بهذا الدين العظيم، وهذا الشرع القويم، وهذا القرآن الكريم من سابع المستحيلات أن يعبد غير الله في بلاد الله التي عرفت الله من أي يأتي الشيطان إذاً ؟.. قال: إن الشيطان يأس أن يعبد في أرضكم، ولكن رضي فيما تحقرون من أعمالكم، ومنها التحريش بين المؤمنين، أن تنتقد مؤمناً، أن يعاديك مؤمن، أن يقول لقد تكلمت علي، الغيبة، والنميمة، والإفك، والبهتان، والسخرية، والاستعلاء والتألي، والتكبر، هذه كلها من معاصي اللسان، وقد عدّ الإمام الغزالي بضعاً وعشرين مرضاً من أمراض اللسان، وهذه معاصي صريحة، لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه.

أحب الأعمال إلى الله الحب في الله، والبغض في الله، أهل الدنيا محور محبتهم مصالحهم، الذي يأتيك منه المال تحبه، ولو كان على غير الصراط المستقيم، الذي يمنع عنك المال لحكمة يراها تبغضه ولو كان على حق، المصالح أساس الحب عند المنافقين، لكن المؤمنين أحب الأعمال إلى الله الحب في الله، أن تحب إنساناً لا تبتغي منه مالاً، ولا جاهاً، ولا سمعةً، ولم تتعلق مصلحتك به، أن تحبه لله أو أن تبغض أنساناً لأنه من منحرف، الحب في الله، والبغض في الله، وهذا ما عبر عنه بعض العلماء، الولاء والبراء، يجب أن توالي من والى الله، يجب أن تتبرأ ممن تبرأ الله منهم، يجب أن يكون لك موقف، هذا الذي يستطيع بذكاء كبير أن يرضي الناس كلهم فهو منافق عند الله، ليس له هوية، ليس له اتجاه، يرضي جميع الناس، بكلامه وأفعاله، هذا إلهه مصلحته، إلهه دنياه اتخذ إلهه هواه، أما الولاء في الله، والبراء في الله، الحب في الله، والبغض في الله، أما المؤمن لا ينتمي لا إلى أسرتك، ولا إلى مدينتك، ولا إلى بلدك، من أقاصي الدنيا، أتحبه لوجه الله ؟ أتتمنى أن تخدمه أتتمنى أن تعبر عن محبتك له ؟ هذه من علامات الإيمان، أحب الأعمال إلى الله الحب في الله والبغض في الله.

أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها طبعاً عند الضرورة لابد من الأسواق، لكن أن يكون شغل الإنسان الشاغل في الأسواق، أن تأخذ الأسواق جزءً من عقله، الأماكن العامة الفنادق، الأماكن التي فيها بعض المعاصي، يحبها فإذا دخل إلى المسجد قال الخطيب أطال في الخطبة، أحب الأعمال إلى الله مساجدها، وأبغضها أسواقها، والمؤمن في المسجد كالسمكة في الماء والمنافق في المسجد كالعصفور في القفص.

وأحب الحديث إلى الله أصدقه، ما من صفة ترفع الإنسان كأن يكون صادقاً، إن قضية الرزق بيد الله وحده، كن صادقاً ولا تأخذك في الله لومة لائم، إن الصدق يهدي، الصدق من صفات المؤمن يطبع المؤمن على الصفات كلها إلا الكذب والخيانة، فالذي يكذب ليس مؤمناً، والذي يخون ليس

مؤمناً.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

أحب الأعمال إلى الله ما كثرت عليه الأيدي

الكريم لا يأكل وحده، يأكل مع من حوله، الطعام مبذول لمن يأتيه، لضيوفه، هذا الذي يبذل طعامه للناس عند الله كريم وهذا الطعام الذي كثرت عليه الأيدي هو من أحب الطعام إلى الله عز وجل. وأحب اللهو إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمي، يعني لهو مرتبط بأهداف الإنسان، لو أننا أجرينا مسابقة لحفظ القرآن الكريم، لحفظ الحديث الشريف، هذه المسابقات ترضي الله عز وجل، لأنها نوع متصل بأهداف الأمة، نوع متصل بأهداف الفرد، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أحب اللهو إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمي))

وأحب العباد إلى الله تعالى أنفعهم لعياله، هناك إنسان بنى حياته على بثِّ الخير، بنى حياته على بثِّ الحق، بنى حياته على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبنى حياته على مسح دموع البائسين وهناك إنسان والعياذ بالله، بنى حياته على إدخال الرعب في قلوب الناس، بنى حياته على أكل أموال الناس، بنى حياته على أخذ أموالهم، أحب العباد إلى الله تعالى أنفعهم لعياله.

قبل أن تتحرك، قبل أن تعطي قبل أن تمنع، قبل تقف موقفاً عنيفاً قبل أن تلقي الرعب في قلب إنسان، تذكر أن هذا عبد لله، وأن هذا بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، هذا الذي أمامك عبد لله ولو أنه لا ينتمي إليك، لا ينتمي إلا أنه إنسان، قد خلقه الله، والإنسان عند الله مكرم، لذلك الإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله يعني إذا أفقرته يغضب الله عليك، إذا أخذت من ماله أكثر مما ينبغي يغضب الله عليك، أكثر الناس يعدون هذا شطارة وحنكة في البيع والشراء، أن يأخذوا ثمن بضائعهم أضعاف قيمتها الحقيقية، لا، هذا أخوك في الإنسانية، فإذا سلبت ماله بغير حق يغضب الله عليك وسوف يحاسبك حساباً عسيراً.

أحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله.

هذه نظرة عميقة، حينما تتحرك في عملك حولك أشخاص، أي نوع يكونون، هم أخوتك في الإنسانية، والمؤمن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، ويبغض لها ما يبغض لنفسه، ويكره لها ما يكره لنفسه.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه، يعني الله عز وجل يبتلينا أحياناً لنقبل عليه لنلتجئ إليه، لنلوذ بحماه، هذا بعض أسرار الشدائد التي يسوقها الله لعباده.

وإذا أحب الله عبداً حماه من الدنيا، كما يحمي أحدكم سقيمه من الطعام، قال تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥))

[سورة الفجر آية ١٥]

خطأ كبير أن تتوهم عطاء الدنيا إكراماً، وخطأ أكبر منه أن تتوهم أن حرمان الدنيا إهانة، الحرمان معالجة، والعطاء ابتلاء، والحظوظ التي بين يديك لا تُعد عطاءً إلا إذا وظفت في الحق.

من أجل أن تكون العلاقة بين المؤمنين متينة جداً، الله يحب المؤمنين الذين إذا كانوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، كيف ؟ مثلاً إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه يحبه، هذا الإعلام يزيد المودة متانة، إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله، فليخبره أنه يحبه لله، إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه يحبه، في أحاديث عديدة، أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نعلم الذين نحبهم أننا نحبهم، من أجل أن يكون المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا وإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا، هناك طفرة ينطلق فيها الإنسان ثم يخبوا ضوؤه، ويغيب نجمه، أما المؤمن يتحرك حركة ثابتة، كل طاعة عملها يلزمها، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل))

في الصدقات، في حضور مجالس العلم، في مطالعة الكتب الدينية، في قراءة القرآن، في أعمال الخير والبرّ، في اللقاءات التي تدعو فيها إلى الله، أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

الآن حديث دقيق:

((إذا أحب أحدكم أن يحدث ربه، فليقرأ القرآن إذا أحب الله عبداً قذف حبه في قلوب الملائكة، وإذا أبغض الله عبداً قذف بغضه في قلوب الملائكة، ثم يقذفه في قلوب الآدميين))

يعني بشكل أو بآخر دون أن يُتخذ هذا مقياساً صارماً، مقياساً يُستأنس به، إذا أحبك الناس فهذا من محبة الله لك، إذا أحبك الناس لأن الله إذا أحب عبداً ألقى محبته في قلوب الآدميين، ألم يقل الله عز وجل:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩))

[سورة طه]

هذه المحبة ألقيت في قلب امرأة فرعون، فقالت لا تقتلوه عسى أن ينفعنا، أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون..

فإذا أحبك الناس، إذا أعطاك الناس، إذا احترمك الناس، فهذا من محبة الله، إياك أن تنسى الله، وتلتفت إلى الناس، لو أن الله تخلى عنك لرأيتهم متنكرين لك، لرأيت أن أقربهم إليك يخيب ظنك.

وإن الله تعالى إذا أحب عبداً جعل رزقه كفافاً، يعني يكفيه، لا يشغله برزقه، لا يجعله يلهث وراءه ليلاً نهاراً كما قال الله عز وجل:

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١))

[سورة المدثر]

ورد في الحديث القدسي:

((أن يا عبادي خلقت السماوات والأرض ولم أعي بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي، إن لم ترض بما قسمته لك، لأسلطن عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً))

((أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك فيما تريد وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

المؤمن الحريص على محبة الله، كلما رأى في منهج رسول الله عملاً يحبه الله، أو يقربه من الله يفعله، أما أهل الكفر والنفاق:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩))

[سورة محمد]

كرهوا منهج الله عز جل، أما المؤمن كل فقرة في منهج الله علم أن الله يحب من يتبعها اتبعها، والتي لا يحبها الله يجتنبها.

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الحب، كان عليه الصلاة والسلام يدعو ربه ويقول: اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك.

اللهم وما رزقتني فيما أحب فاجعله قوةً لي فيما تحب، اللهم وما زويت عني فيما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب.

هذا من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام في شأن الحب، دعاء آخر:

اللهم اجعل حبك، أحب الأشياء إلي، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم، فأقرر عيني من عبادتك.

ودعاء ثالث متعلق بالحب: اللهم اجعلني أخشاك حتى كأني أراك، وأسعدني بتقواك، ولا تشقني في معصيتك، وخير لي في قضائك، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت، واجعل غناي في نفسي، ومتعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني، وانصرني على من ظلمني، وأرني فيهم ثأري، وأقر بذلك عيني.

الحب جوهر الدين

ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ولا أمانة لمن لا عهد له.

وقد قال عمر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله يا رسول الله إني لأحبك أكثر من أهلي وولدي ومالي والناس أجمعين إلا نفسي التي بين جنبي، فقال: لما يكمل إيمانك يا عمر إلى أن قال له مرةً والله يا رسول الله، لأنت أحب إلي من مالي وولدي والناس أجمعين حتى نفسي التي بين يدي، قال الآن يا عمر، والآية التي لا تغيب عنك أبداً:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤))

[سورة التوبة]

يعني إذا كان شيء من هذه الأشياء التي ذُكرت، أبنك، أبوك زوجتك، عشيرتك، أخوك، مسكنك الذي تسكنه، مالك الذي تتاجر به، تجارتك أحب إليك من الله ورسوله، يعني عصيت الله من أجل هذه، آثرت مصلحتك من هذه الأشياء على طاعة الله عز وجل فالطريق إلى الله ليس بسالك.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٠٣ : يا أبا ذر أوصيك بتقوى الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٢-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

النبي عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام، إن هو إلا وحي يوحى، وسيدنا سعد بن أبي وقاص كان يقول:

" ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، من هذه الثلاث وما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى ".

موضوع الخطبة اليوم مجموعة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، هي في حقيقتها حكم ونصائح، توجه بها إلى سيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، مما يلفت النظر أن أحاديث تزيد عن التسعين حديثاً، تبدأ بقوله صلى الله عليه وسلم - يا أبا ذر.

اخترت لكم من بين هذه الأحاديث الكثيرة مجموعة منها تنفعنا إن شاء الله في دنيانا وأخرانا.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((يا أبا ذر أوصيك بتقوى الله))

(يعني بطاعته، لأن الله عز وجل يجعل طاعته المرجح الوحيد في تفاوت العباد بعضهم من بعض، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣))

[سورة الحجرات]

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣))

[سورة النساء]

((يا أبا ذر أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس الأمر كله))

إن كنت مطيعاً لله صلحت كل أمورك، وإلا فسدت كل أمورك، رأس الأمر كله، يعني مثلاً، ولو أن الكهرباء انقطعت، كم آلة في البيت تتعطل ؟.. كل شيء معطل، إن كنت مطيعاً لله، صلح الأمر كله، وإن خرجت عن منهج الله فسد الأمر كله.

((وعليك بتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، فإنه ذكر لك في السماء، ونور لك في الأرض))

يرفعك إلى أعلى عليين، لأنك إذا قرأت القرآن الكريم كأن الله يناجيك، وإن ذكرت الله كأنك تناجي الله، ويا موسى أتحب أن أكون جليسك، قال كيف ذاك يا رب، وأنت رب العالمين قال: قال أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني.

((وعليك بطول الصمت))

الندم على السكوت، أفضل ألف مرة من الندم على كلمة نابية، أو كلمة ليست في مكانها.

((إلا في خير))

الساكت عن الحق شيطان أخرس.

((فإنه مطردة للشيطان عنك، وعون لك على أمر دينك))

الإنسان حينما يضبط لسانه يجتمع قلبه على الله، فإذا تفلت لسانه شعر بحجاب بينه وبين الله.

((عليك بطول الصمت إلا في خير فإنه مطردة للشيطان عنك، وعون لك على أمر دينك، إياك وكثرة الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب وتذهب بنور الوجه، عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي أحب المساكين وجالسهم))

إنك إن أحببتهم كنت متواضعاً أما إن تكبرت عن أن تجلس معهم، حُشرت مع المتكبرين.

((اللهم أحييني مسكيناً وتوفني مسكيناً، واحشرني مع المساكين))

فهم بعضهم فهماً ما أراده النبي عليه الصلاة والسلام، المسكين هنا هو المفتقر إلى الله عز وجل، الذي خلع عن كتفيه ثياب العجب والكبر، وأتى الله طائعاً مستسلماً.

((أحب المساكين وجالسهم وانظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك، فإنه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عندك))

في أمر دينك انظر إلى من هو فوقك، في أمر دنياك انظر لمن هو تحتك، عندئذ تجد أن الله سبحانه وتعالى أعطاك نعماً لا تُعد ولا تحصى، لأنه من دخل على الأغنياء غير المؤمنين، خرج من عندهم وهو على الله ساخط..

((يا عائشة، إذا أردت اللحوق بي، فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، ولا تستخلقي ثوباً حتى ترقعيه، وإياك والدخول على الأغنياء))

((انظر في أمر دنياك لمن هو دونك، وانظر في أمر آخرتك لمن هو فوقك، صل قرابتك وإن قطعوك))

ونحن على أبواب عيد الفطر السعيد..

((أمرني ربي بتسع، من هذه التسع أن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من منعني))

((صل قرابتك وإن قطعوك، قل الحق وإن كان مرا. لا تخف في الله لومة لائم))

فكلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً.

((ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك))

ليس هناك إنسان أشد تناقضاً، وأبعد عن القبول، من الذي ينصح الناس بشيء هو واقع فيه، أو يعيب على الناس بشيء هو متلبس فيه.

((ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك، ولا تجد عليهم فيما يأتون، وكفى بالمرء عيباً أن يكون فيه ثلاث خصال: أن يعرف من الناس ما يجهل من نفسه، ويستحيي لهم مما هو فيه، ويؤذي جليسه. يا أبا ذر لا عقل كالتدبير))

إن أردت إنفاذ أمر تدبر عاقبته، قبل أن تغريك الدنيا انظر إلى المصير.

((لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق))

لا تقل أصلي وفصلي أبدا، إنما أصل الفتى ما قد حصل..

[الطبراني في الكبير عن أبي ذر تصحيح السيوطي: حسن]

أيها الإخوة الكرام:

يقول النبي عليه الصلاة والسلام، في أحاديث كثيرة، مخاطباً سيدنا أبا ذر.

((قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: أفترى قلة المال هو الفقر؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب))

[أخرجه ابن حبان]

القلب الذي عرف الله، وأقبل عليه، وامتلأ حباً به، وإخلاصاً له هو القلب الغني..

((إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب))

قلب متصخر لا رحمة فيه، ولا شفقة، ولا تواضع لله فيه، لا يحب الآخرين، يحب مصالحه، يحب ذاته، هذا قلب فقير، ولو كان صاحبه يحب الملايين، والقلب الذي فيه رحمة للخلق، فيه تودد لهم فيه تواضع لله عز وجل، فيه شوق إلى الله عز جل، هذا هو القلب الغني، لماذا لأنه كما قال الله عز وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

[سورة الشعراء]

والقلب منظر الرب، وقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه، تعاهد قلبك.

((ويا ابن آدم، طهرت منظري سنين، أفلا طهرت منظري ساعة))

القلب منظر الرب لأن الله لا ينظر إلى صوركم، طويل أو قصير أبيض أو أسمر، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، فالقلب منظر الرب، وهنيئاً لمن نظر الله إلى قلبه فرآه طيباً قوياً مخلصاً..

((يا أبا ذر ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة، لا حول ولا قوة إلا بالله.))

لا حول عن معصية الله إلا بالله، ولا قوة على طاعته إلا به، هكذا فسرها النبي عليه الصلاة السلام..

يا أبا ذر، كان عليه الصلاة والسلام يعرف أصحابه معرفة دقيقة، يعرف إمكاناتهم، يعرف خصائص نفوسهم، كان عليه الصلاة والسلام يضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

قال يا رسول الله، استعملني، اجعلني في وظيفة من عندك، قال:

((يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها.))

قال الناس مرةً، هابوا شدة عمر، وبطشه، كما يتوهمون، فقال أبو ذر لسيدنا عمر، **يا أمير المؤمنين إن الناس هابوا شدتك فارفق بهم، قال والله يا أبا ذر، لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة، لأخذوا عباءتي هذه ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى، لابد من شدة ظاهرة.**

مرة كان عمر رضي الله عنه يحرس قافلة، أقامت في ظاهر المدينة، ومعه عبد الرحمن بن عوف، فسمع بكاء طفل، توجه إلى أمه وقال أرضعيه، فأرضعته ثم بكى، قال أرضعيه، في المرة الثانية، الثالثة غضب وقال يا أمة السوء، أرضعيه، قالت أيها الرجل ما شأنك بنا، ما دخلك بنا إنني أفطمه، قال ولمَ، قال لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، تروي الكتب أن هذا الخليفة العظيم، ضرب رأسه، وقال **ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين**، وتوجه إلى المسجد، وصلى بأصحابه الفجر، وما سمع أصحابه قراءته، من شدة بكائه، وكان يقول **يا رب هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها**، ثم أمر أمراً في الأنصار، أن العطاء يجب عند الولادة.

((يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها.))

وفي رواية أخرى:

((يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تتأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم.))

الإنسان قد يضعف، وقد يقوى، كان عليه الصلاة والسلام، يضع الرجل المناسب، في المكان المناسب.

((يا أبا ذر إني أعرف آية لو أن الناس أخذوا بها لكفتهم، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً.))

من يتق الله في تربية أولاده، يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم.

من يتق الله في كسب ماله، يجعل الله له مخرجاً من تدبير المال.

من يتق الله في اختيار زوجته، يجعل الله له مخرجاً من تطليقها.

من يتق الله بإيمانه بالله، يجعل الله له مخرجاً من الكفر.

من يتق الله في التوحيد، يجعل الله له مخرجاً من الشرك.

من يتق الله في تطبيق منهج الله، يجعل الله له مخرجاً من كل كارثة سببها معصية الله.

((يا أبا ذر: أي عرى الإيمان أوثق))

ما الشيء الذي يشدك إلى الدين ؟ ما الشيء الذي يحسن الصلة بالله عز جل ؟ ما الشيء الذي يدفعك إلى باب الله، ما الشيء الذي يقربك إلى الله ؟ أوثق يعني أشد، العروة: الوصلة.

ما الشيء الذي إذا فعلته اتصلت بالله، وكنت معه قريباً.

((يا أبا ذر: أي عرى الإيمان أوثق، قال الله ورسوله أعلم، قال يا أبا ذر الموالاة في الله، والبغض في الله.))

لا تكون مؤمناً إلا إذا واليت أولياء الله، ولا تكون مؤمناً إلا إذا عاديت أعداء الله، يكفي أن تبغضهم، لأنه من هوي الكفرة حُشر معهم، لا ينفعه عمله شيئاً.

((يا أبا ذر لا تيأس من رجل يكون على شر فيرجع إلى خير فيموت عليه))

لا تقطع أملك من الناس، الصلح يتم في لمح البصر، لا تيأس من إنسان عاص، لا تيأس من إنسان شارد، لا تيأس من إنسان منغمس في المعاصي والآثام، لعله إذا اصطلح مع الله، وأقبل عليه يكون في أعلى عليين.

((يا أبا ذر لا تيأس من رجل يكون على شر فيرجع إلى خير فيموت عليه ولا تأمن يكون على خير فيرجع إلى شر فيموت عليه، ليشغلنك عن الناس ما تعلم من نفسك))

أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

((يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين، هما أخف على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما: عليك بحسن الخلق))

ذهب حسن الخلق بالخير كله الإيمان حسن، حسن الخلق جوهر الدين..

" كنا قوماً أهل جاهلية، فلما جاءنا النبي عليه الصلاة السلام، أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، وصلة الرحم، والكف عن المحارم والدماء ".

((يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين، هما أخف على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما: عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، اخزن لسانك، فو الذي نفسي بيده، ما يتجمل الخلائق بمثله..))

((يا أبا ذر، لا تدعن من المعروف شيئاً إلا فعلته))

إياك أن تدع عملاً صالحاً، إنه ذخرك في الدنيا إنه زادك إلى الآخرة، إنه علة وجودك ما الذي يقوله الإنسان هو على فراش الموت:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠))

[سورة المؤمنون]

((يا أبا ذر لا تدعن من المعروف شيئاً إلا فعلته، فإن لم تقدر عليه))

ما المعروف الذي هو الحد الأدنى ويقبله الله منك، قال: كلم الناس وأنت طليق الوجه، ابتسامتك صدقة، طلاقة وجهك صدقة لين كلامك صدقة تبسمك في وجه أخيك صدقة، وإذا طبخت مرقا فأكثر من مائها واغترف لجيرانك منها، أطعم الطعام، الق الناس بوجه طلق، وأطعم الطعام.

أيا الإخوة الكرام:

تسعون حديثاً في كتب الحديث تبدأ بكلمة يا أبا ذر، اخترت لكم هذه الأحاديث.

((يا أبا ذر كن للعمل بالتقوى، أشد اهتماماً منك بالعمل))

ليست العبرة بالعمل، أن تتحرك، أن تنجز، العبرة أن تعمل في طاعة الله، العبرة أن تعمل ضمن منهج الله، العبرة أن تعمل عملاً يرضي الله العبرة أن توقع خطواتك على طريق الحق، الأول تحرك، والثاني تقدم، وفرق كبير بين التحرك العشوائي، وبين التقدم نحو الهدف الواضح.

((يا أبا ذر كن للعمل بالتقوى، أشد اهتماماً منك بالعلم))

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (٢٣))

[سورة الفرقان]

العبرة ليست بحجم العمل بل بانضواء العمل تحت منهج الله العبرة أن تعمل عملاً يرضي الله، وأن أعمل صالحاً ترضاه، ورضاء الله قيد لهذا العمل، ما كل عمل يرضي الله، ما كل حركة كبيرة ترضي الله ما كل إنجاز ضخم في رأيك يرضي الله، لابد من أن يكون عملك وفق منهج الله وفق الكتاب والسنة، وفق الأمر والنهي، وفق افعل ولا تفعل، الحركة العشوائية، الكبيرة، الضخمة، هذه يوم القيامة تكون هباءً منثوراً.

((يا أبا ذر، كن للعمل منك بالتقوى أشد اهتماماً منك بالعمل، يا أبا ذر إن المؤمن الصادق يرى ذنبه كأنه تحت صخرة، يخاف أن تقع عليه..))

هذه من علامة الإيمان، كلما كبر عليك الذنب، فأنت مؤمن ورب الكعبة وكلما صغر الذنب في عينيك.. ماذا فعلنا ؟.. ماذا فعلنا.. الله غفور رحيم.

((يا أبا ذر، إن المؤمن يرى ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه، وإن الكافر يرى ذنبه، ذباب يمر على أنفه.))

هذا مقياس من مقاييس الإيمان.

((يا أبا ذر، لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظم من عصيت.))

لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت..

((يا أبا ذر، لا يكون الرجل من المتقين، حتى يحاسب نفسه، أشد من محاسبة الشريك لشريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه، أمن حل أم من حرام..))

والله كلام ما بعده كلام، نصائح ما بعدها نصائح، حكم ما بعدها حكم..

((يا أبا ذر، إنه لا يضرك من الدنيا ما كان للآخرة..))

أي عمل تفعله لوجه الله خالصاً، تبتغي به الدار الآخرة، لن يضرك في الدنيا، وهذا النص الذي قاله النبي، يجب أن يلغي مائة ألف قصة نسمعها.. فعل خيراً فدمره الله !.. كلام لا يُقبل..

((يا أبا ذر، إنه لا يضرك من الدنيا ما كان للآخرة..))

إن أتيت إلى مجلس علم تبتغي به وجه الله، هل يعقل، هل تقبل أن الله سبحانه وتعالى لأنك أتيت إلى هذا المجلس، يأتيك منه ضرر، وعلى هذا فقِس..

لو أنك خفت من الله، فلم تتعامل بطريقة لا ترضي الله في كسب المال أو إنفاقه، هل يُعقل أن تُضر من ذلك:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آَمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧))

[سورة القصص]

حينما كنتم في المعصية، كنتم في حرم آمن، بعد أن تبتم إلى الله ستخطفون من أرضكم، هذا منطق!..

((يا أبا ذر إنه لا يضرك من الدنيا ما كان للآخرة، إنما يضر من الدنيا ما كان للدنيا..))

((يا أبا ذر أقل من الطعام والكلام، تكن معي في الجنة..))

((يا أبا ذر، بلغني أنك عيرت اليوم رجلاً بأمه، قلت له يا ابن السوداء، يا أبا ذر أرفع رأسك وانظر، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود..))

الناس كلهم سواسية، كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

((يا أبا ذر، بلغني أنك عيرت اليوم رجلاً بأمه، قلت له يا ابن السوداء، يا أبا ذر أرفع رأسك وانظر، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل.

يا أبا ذر إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقعد، وإن كنت قاعداً فاتكئ، وإن كنت متكئاً فاضطجع.))

إياك إذا غضبت أن تتحرك، أو أن تتكلم، لأنك إذا تكلمت وأنت غضبان سوف تؤذي، سوف تفجر، سوف تتكلم بغير وعي، بغير حكمة، سوف تكسر الإناء..

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاج كسرها لا يُجبر

((يا أبا ذَرّ اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ لِحَبَشِيٍّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ..))

[أخرجه البخاري]

نظام ينبغي أن تخضع له..

((اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد رأسه كالزبيبة..))

فلما خرج أبو ذر إلى الربذة وجد فيها غلاماً لعثمان رضي الله عنه أسود اللون، فأذن وأقام، ثم قال هذا الغلام من أدبه الجمّ تقدم يا أبا ذر، فقال **لا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أسمع وأطيع وإن كان عبد أسود، فتقدم وصل أنت إماماً، وصلى أبو ذر خلفه.**

هكذا علمنا الإسلام، أن نكون منضبطين، أن نأتمر بما أمر الله، وأن ننتهي عما نهى الله عنه.

((يا أبا ذر إن العبد المسلم يصلي الصلاة يريد بها وجه الله عز وجل فتتهافت عنه ذنوبه، كما يتهافت هذا الورق عن هذه الشجرة.))

يا أبا ذر، زر غباً تزدد حباً..

لا تكثر الزيارات، كنت معتدلاً في حركاتك الاجتماعية، زر غباً من حين لآخر تزدد حباً.

((يا أبا ذر، هؤلاء الذين تحت أيديكم هم أخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبوهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم.))

هذا الذي عندك، يعمل تحت ظلك، هذا الذي تنفق عليه، إنما هو أخوك في الإنسانية، أو أخوك في الدين، أخوك بكل ما في هذه الكلمة من معنى أطعمه مما تأكل، وألبسه مما تلبس، ولا تكلفه ما لا يطيق، فإن كلفته فأعنه.

((يا أبا ذر لئن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله، خير لك من أن تصلي مائة ألف ركعة (طبعاً نافلة) ولئن تغدو فتتعلم باباً من العلم عُمل به أو لم يُعمل خير لك من أن تصلي ألف ركعة.))

يا أبا ذر

((أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر أجرهم كأجر سبعين، قالوا منا أم منهم، قال بل منكم، قالوا ولِمَ قال لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون.))

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

لعله من خصائص العيد، أي عيد عند المسلمين، عيد الفطر السعيد أو عيد الأضحى المبارك، أن تُزال الخصومات بين الناس، الله جل جلاله يقول:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١))

[سورة الأنفال]

أصلح كل علاقة بينك وبين الآخرين، والعيد مناسبة طيبة جداً لإصلاح ذات البين، زر من قطعك، واعف عمن ظلمك وأعط من حرمك.

افعل المعروف مع أهله ومع غير أهله، فإن أصبت أهله فهم أهله وإن لم تصب أهله فانت أهله، وخير المؤمنين هو الذي يبدأ صاحبه بالسلام.

شيء آخر ـ أيها الإخوة ـ من لوازم العيد إدخال السرور على قلب أهلك وأولادك، لأنهم أهلك، وليس لهم غيرك، بك يرقوا، وبخطئك يسقطوا.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي.))

((من كان له صبي فليتصاب له.))

((أكرموا النساء فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً.))

من خصائص عيد الفطر السعيد هذه الزيارات المباركة، التي تتم بين الأقرباء، ولكن إن تحدث الناس في هذه الزيارات في أمور الدنيا ينطبق عليهم قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه إلا قاموا عن أنتن من جيفة حمار))

أما إذا ذكرتم الله في هذه الأيام المباركة، صليتم ثلاثين يوماً استمعتم إلا كتاب الله كله، أليس في أذهانكم آية تتحدثون عنها، حديث تبينون فضله، حكم فقهي، موقف صحابي، اجعل من ذكر الله موضوع حديثك في العيد، لأن ذكر الله يجمع القلوب، يؤلف القلوب، يضفي البشائر، لكن ذكر الدنيا يميت القلب.

صلة الرحم، أقول هذا كثيراً، وسامحوني في التكرار، صلة الرحم وسيلة، وليست هدفاً، الهدف أن تتفقد أهلك، أن تتفقد أحوالهم المعيشية أحوالهم الاجتماعية، أحوالهم الزوجية، أحوالهم التعليمية، أن تتفقد أحوالهم الدينية، وأن تعاونهم في أمر دينهم ودنياهم، وأن تأخذ بيدهم إلى الله، وقد جعل الله هذه العبادة الكبرى، صلة الرحم، تكافلاً اجتماعياً بين المسلمين، فكل إنسان، هؤلاء الذين يلتقي بهم كل يوم، من الأفضل أن تلتقي بهم في العيد مرةً واحدة، سمعت أن بعض الأسر، هؤلاء الذين يعيشون مع بعضهم دائماً، يجعلوا وقتاً واحداً يلتقون به جميعاً أما هؤلاء الذين لا تراهم إلا في العيد فالعيد لهم، مناسبة وحيدة العيد لهم ينبغي أن تزورهم، لذلك طبقنا هذه القاعدة، نحن عندنا معايدة لكل اخوتنا، ثاني يوم العيد من الساعة العاشرة حتى الساعة الثانية، ومن الساعة الخامسة حتى الساعة التاسعة، وما سوى ذلك العيد لأهلك ولأقربائك، ولرحمك، زرهم، تفقد أحوالهم، أحوالهم المعيشية الاجتماعية، أحوالهم الزوجية، أحوالهم الدينية، عاونهم في دينهم ودنياهم، خذ بيدهم إلى الله عز جل، ألق بذرةً لعلها تنبت لا تيأس من إنسان مقيم على معصية لعله يتوب منها، لا تدر أي كلماتك تحركه، لا تدر، تكلم أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك.

العيد أيها الإخوة مناسبة للدعوة إلى الله، العيد مناسبة لإزالة الخصومات، العيد مناسبة لإدخال السرور على قلب الأهل والأولاد العيد مناسبة أيضاً لصلة الأرحام، العيد مناسبة للدعوة إلى الله.
كل عام وأنتم بخير..

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٠٤ : حلاوة الإيمان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٤-٠٢-١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

ورد في صحيح البخاري عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد]

للإيمان منطق، وللإيمان حلاوة، منطق الإيمان شيء، وحلاوته شيء آخر.. منطق الإيمان كأن تضع على الطاولة خرائط لقصر عظيم خرائط دقيقة جداً، تعبّر عن حجمه، وعن اتساعه، وعن إطلالته وعن موادِّ بنائه، وعن خصائصه، وعن كل المتممات فيه، لكنه ورق على الطاولة، وأنت لا تملك غرفة تسكنها..

هذا منطق الإيمان، حقائق ناصعة، أدلة يقينية، وسائل مقنعة ظواهر تدل على وجود الله، لكن حلاوة الإيمان شيء آخر، حلاوة الإيمان ؛ أن تسكن هذا القصر، أن تستمتع به، أن تتفيأ ظلاله، أن تجلس في شرفته، أن تستمتع بأثاثه، بأبهائه، بغرفه، بإطلالته، بحدائقه.. فرق كبير بين منطق الإيمان، وبين حلاوة الإيمان، أكثر المسلمين يعتقدون أن الإسلام هو الحق، وأن الإيمان هو الصواب، وأن الجنة حق وأن النار حق، وأن لهذا الكون إلهاً عظيماً، هذا منطق الإيمان ولكن حلاوة الإيمان شيء آخر.. حلاوة الإيمان ؛ أن تقبل على الله حلاوة الإيمان أن تذوق طعم القرب من الله، حلاوة الإيمان أن تلجأ إلى الله، أن تحتمي بحماه، أن تركن إلى قوته، أن تستعين بعلمه، أن تستقدر بقدرته، حلاوة الإيمان أن تتوجه إلى الله، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠))

باؤء

[سورة الكهف آية ١١٠]

منطق الإيمان يحتاج إلى تفكير، ولكن حلاوة الإيمان تحتاج إلى عمر منطق الإيمان يحتاج إلى إحكام عقل، ولكن حلاوة الإيمان تحتاج إلى مجاهدة نفس... فرق كبير بين منطق الإيمان، وبين حلاوة الإيمان يقول عليه الصلاة والسلام:

((ذاق طعم الإيمان..))

((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان..))

ما الذي يشدك إلى الإيمان ؟ منطقه أم حلاوته، أغلب الظن أن الذي يشدك إلى الإيمان حلاوته، أغلب الظن أن الذي يدفعك إلى الله عز وجل هو طعم القرب الذي ذقته منه.

يا أيها الإخوة الكرام ـ ما لم نصطلح مع الله، ما لم نحكم استقامتنا ما لم نحكم استقامتنا، ما لم نلغي المنكرات من بيوتنا، ما لم نضبط أمرنا ما لم نحرر دخلنا، ما لم نحرر نيتنا، ما لم نضبط جوارحنا؛ أعيننا آذاننا، ألسنتنا، بيوتنا، زوجاتنا، بناتنا، دخلنا.. ما لم نفعلْ كذلك لم نذوق حلاوة الإيمان، نبقى في منطق الإيمان، نؤمن بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى..

لو أن إنسان مصاب بمرض جلدي، علاجه الشمس، فهل يشفى من مرضه إذا قال: إني أؤمن أن الشمس ساطعة، أنت حينما تقول الشمس ساطعة ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت.. هي ساطعة، اعترفت بذلك أم لم تعترف، هي ساطعة أقررت بذلك أم لم تقر، أما حينما تتجه إلى أشعة الشمس، ويشفى جلدك من هذا المرض، تكون قد استفدت من أشعة الشمس، قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

الذي يحرك الإنسان في أعماله في حياته ليس المنطق وحده فكم من إنسان قانع قناعة لا حدود لها أن الدخان يضره، يضر شرايينه يصلبها يضر رأته، قد يصيبها بورم خبيث، يضر أطرافه قد يصيبها بالموات كم من إنسان يدخن وهو قانع بأن التدخين مضر، فهل الذي يحرك الإنسان قناعته؟ أم هذا الذوق الذي يكشفه حينما يتجه إلى شيء طيب.

أيها الإخوة الكرام:

يجب أن نقف ملياً عند كلمة، ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان حلاوة الإيمان هي التي تدفعك إلى الله، حلاوة الإيمان هي التي تحملك على طاعته، حلاوة الإيمان هي التي تدفعك أن تبذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس في سبيل الله، حلاوة الإيمان هي التي تجعلك تستقيم على أمر الله ولا تعبأ بحد، حلاوة الإيمان هي التي تجعلك تقطف ثمار الإيمان..

في صحيح البخاري عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

حلاوة الإيمان أن تقول: ليس في الأرض من هو أسعد مني، إلا أن يكون أتقى مني، حلاوة الإيمان أن تدافع عن عقيدتك وعن دينك، ولا تأخذك في الله لومة لائم، حلاوة الإيمان أن تأتي أمر الله وأنت في أسعد حال، لا أن تدفع المال وأنت مكره..

يا أيها الإخوة الكرام ـ يغلب على ظنّي أن المسلمين لا ينقصهم منطق الإيمان، ولكن تنقصهم حلاوة الإيمان، ينقصهم طعم القرب، هؤلاء الذين ينغمسون في المعاصي والآثام لماذا هم يفعلون ذلك ؟.. يبحثون عن السعادة، يبحثون عن اللذة، لو علموا أن سعادتهم المطلقة وطمأنينتهم المطلقة في الإيمان، لتحولوا عن هذا الطريق إلى طريق آخر..

ذكرت لكم من قبل كثيراً ؛ أنه ما من مخلوق على وجه الأرض إلا ويبحث عن شيئين ثابتين ؛ يبحث عن سلامته وعن سعادته، سلامته في تطبيق منهج ربه، وسعادته في القرب منه، سلامته في تطبيق تعليمات الصانع، والله جل جلاله هو الصانع، قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨))

[سورة النمل]

سلامته في طاعة الله، وسعادته في القرب منه، طاعته بين أيدينا كتاب الله وسنة رسوله، والقرب منه وسائله بين أيدينا، وهو العمل الصالح، بمطلق تعريفاته، أي عمل صالح يقربك من الله عز وجل ؛ إتقان عملك، خدمة المسلمين، أن ترحمهم في السّعر، أن ترحمهم في الجودة، نوع من العمل الصالح، أن تكون ابناً باراًّ، عمل الصالح، أن تكون أباً رحيماً، عمل صالح، أن تكون المرأة زوجة مخلصة ترعى بيتها وأولادها، عمل صالح، أن يكون الصانع متقن لصنعته، عمل صالح، أن يكون التاجر صدوقاً أميناً، عمل صالح، أن تكون جاراً ودوداً، عمل صالح.. حينما يصلح عملك، يصلح منك القرب من الله عز وجل، لأنه سبحانه وتعالى طيب ولا يقبل إلا طيباً..

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ..))

ما هي هذه الثلاثة ؟: كلام ـ أيها الإخوة ـ كلام النبوة جامع مانع كلام النبوة أعلى كلام بعد كلام الله.

((وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ))

كما قال عليه الصلاة والسلام

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد، من حديث أبو هريرة: نصرت بالرعب]

((أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا..))

ما من مسلم على وجه الأرض إلا ويقول: الله ورسوله أحب إليّ مما سواهما، ليس العبرة أن تقول هذا، مثلاً: حينما تدعوك أمك لأن تزورها في بيتها، هي في حاجة إليك، وحينما يدعوك صديقك لزيارته إن ألغيت طلب أمك، ولبيتك طلب صديقك، قل ما شئت، إنك تحب صديقك أكثر من أمك، الحب هنا يُعبّر عنه بالسلوك العملي، ذكرت هذا كثيراً من قبل أنت حينما تقول الله أكبر ـ مثلاً ـ في العيد، لو أنك أطعت مخلوقاً كائناً من كان، وعصيت الواحد الدّيان، ما قلت الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة.. العبرة بالمواقف لا بالأقوال، أنت حينما تؤثر طاعة إنسان على طاعة الله، فأنت تحب هذا الإنسان، وتقدره، وتخاف عقابه وترجو عطاءه أكثر من الله، هذه حقيقة، والدليل على ذلك قول الله عز وجل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤))

[سورة التوبة]

يعني إن آثرت مبلغاً من المال على طاعتك لله، فأنت تحب المال أكثر من حبك لله، إن سايرت زوجة على معصية، ترجو رضاها وتخشى نقمتها فأنت تحبها وتخشاها وترجو ما عندها أكثر من الله عز وجل.. هذه حقيقة لا ينبغي أن يكون المسلم كالنّعامة يضع رأسه في الرّمل.. إن آثرت مخلوقاً على طاعة الله، فمحبّتك لهذا المخلوق، أو خوفك منه، أو رجاؤك لما عنده، أكثر من محبّتك وحرصك ورجائك من الله.. هذا معنى الآية الكريمة.

في حالات كثيرة، تتوافق رغباتنا مع طاعة ربّنا، هذا ليس امتحاناً متى يكون الامتحان ؟.. حينما تتعارض أوامر الشّرع مع مصالح الفرد.

عند التّعارض يكون الامتحان.

لو أنّ أمّك دعتك إلى زيارتها السّاعة التّاسعة ليلاً، وصديقك دعاك إلى زيارتها السّاعة الخامسة عصراً، ولبيت الدعوتين، أنت لست ممتحناً في هذا، أما حينما تتضارب المواعيد، إما أن تلبّي دعوة أمّك وإما أن تلبّي دعوة صديقك، وتؤثر دعوة صديقك على دعوة أمّك عندئذ يتأكد لك ولغيرك، أنّك تحب صديقك أكثر من حبّك لأمّك، ولو ادّعيت بلسانك أنّك تحبُّ أمّك بلا حدود، هذا كلام لا يقدّم ولا يؤخّر..

ما معنى قوله عليه الصلاة والسلام:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا..))

كيف يكون الله أحبُّ إليه ؟ يعني أمر الله، كيف يكون رسوله ؟ يعني أمر رسوله، عندك الكتاب، وعندك السنّة، فلو جلست جلسة مختلطة، وملأت عينيك من الحرام، ورأيت أن هذه الجلسة مكسب كبير أمضيت وقتاً ممتعاً، مع فلان وأهله، وفلان وأهله، ولم تعبأ بقوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٣٠))

[سورة النور]

لو ادّعيت ألف مرّةٍ، أنّك تحبّ الله ورسوله، وأن الله ورسوله أحبُّ إليك مما سواهما، هذا كلام لا يقدّم ولا يؤخّر.

يا أيها الإخوة الكرام: ينبغي أن نتعامل مع الحقائق، ينبغي أن نكون واضحين مع الله عز وجل، ينبغي أن نكون صادقين، ينبغي أن لا ندخل الدنيا بالدّين، أن لا نَختِل الدين بالشّبهات، ألا نختل الفروع بالأصول..

أنْ يَكُونَ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا..

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤))

[سورة القيامة]

كل واحد بفطرته يعرف الذي يرضي الله، والذي يسخطه، فحينما يسلك في طريق يسخط الله عزّ وجل، هو لا يحبّه، وإذا قال إنّي أحبُّه فهو ادّعاء كاذب:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ذاك لـعمري في المقال بديع

لو كان حبّك صادقاً لأطعتـه إنّ المحبّ لمن يحبُّ يطيـع

***

لن تكون عبادة من دون حب، طاعة ممزوجة بالحب، فمن أطاع الله ولم يحبّه ما عبده، ولا يحبّه، ومن أحبّ الله ولم يطعه هذه حالة لا تكون.

((أنْ يَكُونَ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا..))

في كسب الأموال، في إنفاق الأموال، في العلاقات الاجتماعية، في الأعياد، إن آثرت رضى المجتمع على طاعة الله، أنت لا تحب الله ما تحب المجتمع.

إن آثرت أن تكون لك مكانة أساسها عدم الالتزام بأوامر الدّين وضحّيت ببعض الأوامر حفاظاً على مركزك، أنت لا تحب الله ورسوله، عَنِ الْعَبّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ أَنّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد]

وأن يحب المرء.. الشيء الثاني: ثـــلاث

الأولى:

((أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا..))

دقق إن آثرت لذةً، أو متعةً، أو سمعةً، أو مكانةً، أو جلسةً على مجلس علم، أو على طاعة رب، أو على طاعة رسول، فأنت لا تحب الله ورسوله كما تحب هذا الشيء، هذا كلام دقيق.

الشيء الثاني:

((وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلّا لِلّهِ..))

الإنسان يحبُ الجمال، ويحبُ الكمال، ويحبُ النَّوال، أنت تحبّ من يعطيك، وتحبُ من يمتعك، وتحبُ من تراه كاملاً في نظرك، لكنّ علاقة المؤمن بالآخرين، علاقة أساسها الولاء والبراء.

((وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلّا لِلّهِ..))

لا تحبّه إلا لله ؛ لا لمنفعة، ولا لحظ، ولا لمكسب، ولا لسمعة، ولا لجاه، ولا لثناء، ولا خوفاً، ولا طمعاً.. أبداً، لا تحبّه إلا لله، علاقاتك الاجتماعية، مبنية على ولاء الناس لله، أو بعدهم عنه.. تحبُ فقيراً منيباً، وتكره غنيّاً معرضاً تحبُ إنساناً بعيداً عنك، لكنّه ملتزماً أمر الله وأمر رسوله، وتكره أقرب الناس إليك لو تفلت من أمر الله ومنهجه..

أيها الإخوة الكرام:

أكثر علاقات الناس الاجتماعية، أساسها المصالح والمكاسب، أما إذا استقام الإنسان على أمر دينه، وارتقى إلى ربه يبني علاقاته لا على أساس المصالح، بل على أساس الولاء والبراء، فلا بد من أن توالي أولياء الله، ولابد من أن تعادي أعداء الله، لابد من أن تتبرأ من أعداء الله ـ كي أكون دقيقاً ـ قد لا تستطيع أن تتبرأ منهم، لكن ينبغي أن توالي المؤمنين، وأن تتبرّأ من غير المؤمنين، ينبغي أن تقرّ معروفاً، وأن تنكر منكراً:

((من شهد معصية فأنكرها كان كمن غاب عنها، ومن غاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها))

لابد من أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر، وهو الفريضة السادسة، لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩))

[سورة القصص]

لم يقل وأهلها صالحون، مصلحون، يسعون إلى إصلاح النّاس، هذا الذي ينسحب من المجتمع، ولا يعنيه أمره، ولا يعبأ بفساده، ولا بانحرافه، ولا بضلاله، هذا إنسان لا ينظر الله إليه، الأنبياء العظام الذين هم قمم في المجتمعات البشرية، هؤلاء مشوا في الأسواق وعاشروا النّاس، وخالطوهم، وقد ورد في الحديث الصحيح:

((الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ قَالَ حَجَّاجٌ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد]

هؤلاء الذين يصلحون النّاس إذا فسد الزّمان..

((وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ..))

دقق في علاقاتك الاجتماعية، أساسها المصالح أم المبادئ، أساسها المكاسب، أم الولاء والبراء..

((وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

هناك من يعبد الله على حرف، مقاومته هشّة، لأتفه سبب، لأخ في المسجد أساء إليه يدع دروس العلم كلها، لسبب تافه جدّاً لا يتّصل بجوهر الدّين يدع الدّين كله، هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف لابدّ من أن يُمتحنوا، قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣))

[سورة العنكبوت]

لابد من أن تكون في الأعماق، لابد من أن تكون كالجبل رسوخاً قارب صغير أصغر موجة تقلبه، لكنّ السفينة العظيمة، أمواج البحر تتلاطم على جدرانها وكأنّها لا شيء.

لابد من أن تكون راسخاً في الإيمان، لابد من أن تكون في الأعماق أصحاب النبي ـ رضي الله عنهم ـ عاهدوا الله وعاهدوا رسوله على الطّاعة.. أين ؟ في المنشط والمكره، في السرّاء والضرّاء، في إقبال الدُنيا وإدبارها، في الصّحة والمرض.

الذي عاهد الله على طاعته، قبل الزّواج وبعد الزّواج، قبل أن يستقيم عمله المكسبي، وقبل أن ينمو، قبل العلم، وبعد العلم، قبل الزّواج وبعد الزّواج، في الغنى وفي الفقر، في الصّحة والمرض، في إقبال الدُّنيا وفي إدبارها، هو عاهد الله، قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣))

[سورة الأحزاب]

أما هؤلاء الضعاف، قال أحدهم: **" أيعدنا صاحبكم أن تُفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته "..**

هؤلاء الذين سقطوا، سقطوا في طريق الإيمان، لا ينبغي أن تكون على حرف، ولا على حد، ولا أن تكون على طرف ساحل الإيمان ينبغي أن تكون في الأعماق وفي قمم الجبال.

أيها الإخوة الكرام:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النّارِ))

عودٌ على بدء ؛ منطق الإيمان شيء، وحلاوة الإيمان شيء آخر.. إعمال العقل يوصلك إلى منطق الإيمان، ولكنّ مجاهدة النّفس، وطاعة الله عزّ وجل، توصلك إلى حلاوة الإيمان، وشتّان بين أن تملك خرائط لقصر منيف، وبين أن تملك القصر نفسه.. شتّان بين الحالين..

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: الحصين بن سلام حبر كبير من أحبار اليهود في عهد النّبي عليه الصّلاة والسلام، له قصة سأسمعكم إياها..

يقول هذا الحبر الكبير: لما سمعت بظهور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أخذت أتحرّى عن اسمه ونسبه وصفاته وزمانه ومكانه، وأطابق بينها وبين ما هو مسطور عندنا في الكتب، حتى استيقنت من نبوته وتثبتُّ من صدق دعوته، ثم كتمت ذلك عن اليهود، وعقلت لساني عن التكلّم فيه، إلى أن كان اليوم الذي خرج فيه رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، من مكة قاصد المدينة، فلما بلغ يثرب ونزل بقباء، أقبل رجلٌ علينا، وجعل ينادي بالناس معلناً قدومه، وكنت ساعتئذ في رأس نخلة لي أعمل فيها، وكانت عمّتي خالدة بنت الحارث جالسة تحت الشّجرة فما إن سمعت الخبر، حتى هتفت: الله أكبر، الله أكبر، قالت لي عمّتي حينما سمعت تكبيري: خيّبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى ابن عمران قادماً ما فعلت شيئاً فوق ذلك، قلت لها: أي عمّة، إنّه والله أخو موسى بن

عمران، وعلى دينه، وقد بُعث بما بعث به، فسكتت وقالت: هو النَّبي الذي كنتم تخبروننا أنه يُبعث مصدِّقاً لما قبله، ومتمِّماً لرسالات ربِّه، قلت نعم، قالت: فذلك إذاً، ثم مضيت من توِّي إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فرأيت النَّاس يزدحمون ببابه، فزاحمتهم حتى صرت قريباً منه، فكان أول ما سمعته منه قوله:

((أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة والداري]

فجعلت أتفرَّس فيه، وأتملَّى منه، فأيقنت أن وجهه ليس بوجه كذاب ثم دنوت منه، وشهدت أنَّه لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله فالتفت إلي عليه الصلَّاة والسَّلام، وقال ما اسمك ؟ قلت: الحصين ابن سلام فقال عليه الصلَّاة والسلَّام: بل عبد الله بن سلام، قلت: نعم عبد الله ابن سلام، والذي بعثك بالحق، ما أحب أن لي به اسماً آخر بعد اليوم.

ثم انصرفت من عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، إلى بيتي ودعوت زوجتي وأولادي وأهلي إلى الإسلام، فأسلموا جميعاً، وأسلمت معهم عمَّتي خالدة، وكانت شيخ ةً كبيرة، ثم قلت له اكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود حتى آذن..

في حجرة من حجراتك، ثم تسألني عن منزلتي عندهم، قبل أن يعلموا بإسلامي، ثم تدعوهم إلى الإسلام، فإنَّهم إن علموا أنني أسلمت عابوني ورموني بكل ناقصة، وبهتوني، فأدخلني النَّبي عليه الصلَّاة والسَّلام في بعض حجراته، ثم دعاهم إليه، وأخذ يحضُّهم على الإسلام ويحبِّب إليه الإيمان، ويذكرهم بما عرفوه في كتبهم من أمره، فجعلوا يجادلونه بالباطل، ويمارونه في الحق، وأنا أسمع، فلما يأس من إيمانهم قال لهم: ما منزلة الحصين عندكم، قالوا: سيدنا، وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا وابن حبرنا وابن عالمنا، فقال: أفرايتم إن أسلم أفتسلمون، قالوا: حاشى لله، ما كان له أن يسلم، أعاذه الله من أن يسلم، قال: فخرجت إليه، (الحصين عبد الله ابن سلام) وقلت: يا معشر اليهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به محمد، فوالله، إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، وتجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وبصفته، وإني أشهد إنه لرسول الله، وأؤمن به، وأصدقه وأعرفه. فقالوا: كذبت، والله إنك لشرُّنا، وابن شرِّنا، وجاهلنا، وابن جاهلنا ولم يتركوا عيباً إلا عابوه فيَّ.

فقلت للنَّبي عليه الصلَّاة والسَّلام: ألم أقل لك يا رسول الله إن اليهود قوم بهتانٍ وباطل، وإنَّهم أهل غدرٍ وفجور.

أن تكون منصفاً، شيء من أساس إيمانك، أن تنصف الناس، أكثر الناس، إما لهم إنسان يثنون عليه، فإن خالفهم ينتقصون منه، العبرة أن تكون مع الحق لا أن تكون مع نفسك، العبرة أن تكون مع الحق لا أن تكون مع هواك، العبرة أن تكون مع المنطق، ومع الحكم الموضوعي والموضوعية

ـ أيها الإخوة ـ قيمة من أرقى قيمة العلم، وهي قيمة من أرقى قيم الأخلاق، ولا يلتقي العلم والأخلاق إلاّ في الموضوعية.

وطِّنْ نفسك ؛ على أن تكون منصفاً، على أن تلقي حكماً موضوعياً لا أن تبالغ في المديح، ولا أن تبالغ في الإساءة.

أيها الإخوة الكرام: أعود وأقول، الحق لا يخشى البحث، ولا يُستحى به، ولا يحتاج أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، ولا يحتاج أن تبالغ فيه، ولا أن تقلل من قيمة خصومه، إنّ الحقّ هو الله عزّ وجل، كن مع الحق ولا تبالي:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(٩١))

[سورة الأنعام]

ما أروع أن يكون الإنسان ذا أحكامٍ موضوعية، أن يعرف ما للنّاس وما عليهم، ما لهم.. قال بعضهم ـ وقد أعجبني قوله ـ يجب أن تعرف ما للنّاس، ليس وما عليهم، وما عليك أنت تجاههم، اعرف ما لهم وما عليك تجاههم.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٠٥ : الرضا١.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٢-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

قبل شهر رمضان المبارك، كنت أعالج موضوعاً متسلسلاً، محور هذا الموضوع ؛ الثِمار اليانعة التي يجنيها المؤمن من إيمانه، تحدثت عن نعمة الأمن، التي هي أحد ثمرات الإيمان، تحدثت عن نعمة الثبات في الشدائد، تحدثت عن نعمة العزّة النفسية.. موضوعات كثيرة طُرقت قبل رمضان، وكلها ثمار يانعة من ثمار الإيمان.. نعود لمتابعة هذه الموضوعات.

موضوع الخطبة اليوم، الرضا.

الرضا أحد أكبر مصادر سعادة الإنسان، أن يكون راضياً عن الله أن يكون راضياً عن نفسه، قال تعالى:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨))

[سورة البينة]

أيها الإخوة الكرام:

من الأحاديث الشّريفة الجامعة المانعة، وقد أوتي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم، وقد قال الله عزّ وجل، عن نبيه صلى الله عليه وسلم:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤))

[سورة النجم]

استنبط علماء التوحيد من هذه الآية، أن كلام النبي عليه الصلاة والسلام وحي غير متلو.

من الأحاديث الجامعة المانعة، التي هي محور هذه الخطبة، قول النّبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله عزّ وجل بقسطه، جعل الفرح والروح في الرّضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشّك والسّخط))

سنّة الله عزّ وجل، سنّة واضحة، إنها ربطت بين الشّبع والطعام، وبين الرّي والشّراب، تشعر بالشّبع إذا أكلت، وتشعر بالرّي إذا شربت سنّة الله عزّ وجل قوانينه، اقتضت أن يُربط الشّبع بالطّعام، والرّي بالشراب، واقتضت أيضاً أن يكون الفرح والروح في الرّضا واليقين وأن يكون الشّك والسّخط من ثمار عدم اليقين، وعدم الرّضا عن الله عزّ وجل،

((إن الله عز وجل بقسطه، جعل الفرح والروح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشك والسخط))

الشاكُّ في تسيير الله، الشاكُّ في حكمته، الشّاك في رحمته، يعيش همّاً وحزناً، الشّاك والسّاخط. الإنسان حينما يرضى عن نفسه، لا يرضى عن نفسه كما يتوهم بعض الناس، يرضى عن نفسه أن يقبل قضاء الله وقدره، يقبل قضاء الله وقدره، يرضى عن نفسه لأنه يعتقد أنه ليس في إمكانه أبدع مما أعطاه الله عز وجل، هو راضٍ عن قضاء الله وقدره فيه.

الإنسان حينا يرض عن نفسه، ويرض عن ربه، يرى أن الله سبحانه وتعالى ذو الأسماء الحسنى، يرى عدله ورحمته وحكمته، يرى قدرته، يرى غفرانه ورحمته، حينما يرض عن نفسه، ويرض عن ربّه، يطمئن إلى حاضره، وإلى يومه، أما حينما يوقن بالله عزّ وجل يوقن بالدّار الآخرة، يوقن بعدل الله عزّ وجل، يطمئن إلى غده ومستقبله أنت إذا رضيت عن نفسك وعن الله، اطمأننت إلى حاضرك ويومك وأنت إذا أيقنت بما عند الله عزّ وجل من ثواب كبير لمن أطاعه في الدنيا تطمئن إلى مستقبل، فإذا اطمأننت إلى حاضرك، واطمأننت إلى المستقبل ماذا بقي ؟..

آيات كثيرة في القرآن الكريم، تغطي الماضي والمستقبل معاً، قال تعالى:

(إنّ الّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ألّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠))

[سورة فصلت]

لا تخافوا من أي شيء يأتي في المستقبل، ولا تحزنوا على ما مضى إذا كان الماضي مغطى بعدم الحزن، وإذا كان المستقبل مغطى بعدم الخوف، ماذا بقي من سعادة الدنيا ؟..

(إنّ الّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ألّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠))

(قالَ اهْبِطا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣))

[سورة طه]

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨))

[سورة البقرة]

رضا الإنسان عن نفسه، أي عن قضاء الله وقدره فيه، خلقه الله على نحو معين، على شكل معين، بإمكانات معينة، بقدرات معينة من أبٍ، من أمٍ، في بلدةٍ، في زمنٍ، في بيئة، المؤمن يرى أنه ليس في إمكانه أبدع مما أعطاه الله عزّوجل، راضٍ عن قضاء الله وعن قدره فيه، هذا الرضا مبعث

السعادة.

شيء آخر، هو راضٍ عن مستقبله، لأنه يؤمن بقوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١))

[سورة التوبة]

كتب الله لنا.. فالمؤمن أحد أكبر ثمار الإيمان أنه **راضٍ عن قضاء الله وعن قدره، مطمئن إلى مستقبله.**

الفرح والروح، السّعادة والطمأنينة، في الرّضا واليقين، والغم والحزن في الشّك والسّخط، الشاكُ بعدل الله، الشاكُ برحمة الله بحكمة الله، يعيش في غمٍّ وحزن.

السّاخطون والشاكّون لا يذوقون للسرور طعماً، حياتهم كلها سواد ممتد، وظلام متصل، وليل حالك، لا يعقبه نهار، ولا يُرتقب له فجر صادق، النبي عليه الصلاة والسلام، وهو لا ينطق عن الهوى، ربط الشّك بالسخط، فلا سخط بلا شك، ولا شك بلا سخط، وأحد كبار العلماء ابن القيم يقول: قل أن يسلم السّاخط من شكٍّ يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به، وإن فتّش نفسه غاية التّفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً، يقينه بالدار الآخرة، يقينه بجنّة عرضها السماوات والأرض، يقينه بأن الله عزّ وجل، لا يضيع على مؤمن عمله **ولن يتركم أعمالكم، لا تظلمون فتليلا، ولا نقيراً، ولا قطمير..**

لو فتّش نفسه غاية التّفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً، الرّضا واليقين أخوان مصطحبان، والشّك والسّخط قرينان، أن ترض عن قضاء الله وقدره فيك، لأنك موقنٌ برحمته، وموقن بحكمته، وموقن بعلمه وموقن بعدالته، وأن تطمئن لوعد الله، وعدك بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، وعدك أن لا تُظلم، وعدك أن تسعد في الدنيا والآخرة راضٍ ومطمئن، أحد أسباب الروح والفرح، شاكٌ وساخطٌ، أحد أسباب الهمّ والحزن.

السّاخط دائم الحزن، دائم الكآبة، ضيق الصدر، ضيق بالحياة ضيق بالناس، ضيق بكل شيء، كأن الدنيا على سعتها سمُ خياط، قال تعالى:

وضاقت عليهم الأرض بما رحبت..

تضيق الدنيا على الشّاك والسّاخط، وتتسع الدنيا على الراضي بقضاء الله وقدره، ولكن بشكل واقعي، المؤمن قد تصيبه بعض الكآبة ويعتريه بعض الحزن، لهذا قال الله عزّ وجل مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧))

[سورة النحل]

(فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦))

[سورة يس]

ولكنّ حزن المؤمن لغيره أكثر من حزنه لنفسه، يرى من حوله على غير شاكلته فيتألم، يرى أقرباءه شاردين عن الله فيتألم، يرى أقرب الناس إليه ليس في مستوى إيمانه فيتألم، إذا اعترى المؤمن حزن أو كآبة، فهذا الحزن لغيره لا لنفسه، وإن حزن لنفسه، فإنه يحزن لآخرته يرجو أن يكون في الآخرة من الفائزين، قد يداخله شك في ذلك، قد يخاف أن لا يكون كما أراد الله عزّ وجل، يخاف أن لا يكون مخلصاً يخاف أن لا يكون عمله في سبيل الله، يخاف أن يضيع ساعة لم يذكر الله فيها، إنه يخاف ويحزن، ولكنه يحزن لخير فاته في الآخرة، وإن حزن لدنيا فإنه يحزن من أجل أن يتفرغ منها للآخرة، قد يقل دخله فينهم فيعتريه الهم، هو يحزن لأنه يفوته خير كثير، حينما ينشغل في الدنيا أكثر مما ينبغي، وإن حزن لنفسه ولدنياه، فهو حزنٌ عارض، موقوت كغمامة الصيف، سرعان ما تنقشع إذا هبّت عليها رياح الإيمان.

حتى النفوس التي من طبيعتها الانقباض، ومن طبيعتها التشاؤم، ينشر الإيمان عليها، من ضيائه وإشراقه، فيبدّد كثيراً من ظلامها، ويخفف كثيراً من انقباضها، ويطرد أسباب السّخط والتّشاؤم من وجودها..

من صفات المؤمن أنه **راضٍ عن الله، راضٍ عن قضاء الله وقدره** يعمر قلبه الفرح واليقين، والذي قصّر في طريق الإيمان، يعتريه الحزن والغم، والكآبة، والسوداوية، لأنه ساخط، ولأن سخطه بسبب شكّه، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله عزّ وجل بقسطه، جعل الفرح والروح في الرّضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشّك والسّخط))

المرتاب في الله وفي الآخرة، يعيش في سخط مستمر، وفي مناحة دائمة، ساخط على الناس، ساخط على الدهر، ساخط على كل شيء لذلك قيل، من غضب على الدهر طال غضبة، يقول عليه الصلاة والسلام، في الحديث الصحيح، الذي رواه الإمام أحمد والترمذي:

((من سعادة المرء استخارته ربه، ورضاه بما قضى، ومن شقاء المرء، ترك الاستخارة، وعدم رضاه بعد القضاء))

لذلك كل أمر، من الأمور المباحة يجب أن تستخير الله قبل وقوعه ويجب أن ترضى عن الله بعد وقوعه، والسعيد من يجمع بينهما، يجمع بين الاستخارة قبل وقوع الأمر، وبين الرّضا بعد وقوع الأمر، والشّقي من حُرمهما.

استخر قبل القضاء، وارض بعد القضاء..

دعاء الاستخارة وحده علم دقيق، يقول عليه الصلاة والسلام حينما يتستخير ربه:

((اللهم إن كنت تعلم، أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري))

(ألم تسمعوا دعاء النبي عليه الصلاة والسلام: " اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا " ـ من هنا)

((اللهم إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فيسره لي وبارك لي فيه، فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وإن كنت تعلم أن في هذا الأمر شراً لي في ديني، ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني (وإن كنتُ متعلقاً به ؟!..) واصرفني عنه، وقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به..))

أرأيتم إلى هذا الدعاء، هكذا علمنا النبي عليه الصلاة والسلام، قبل أن نُقدم على زواج، قبل أن نقدم على شراكة، قبل أنقدم على سفر قبل أن نقدم على أمر ذي بال، استخر الله، استعن بعلم الله، استعن بقدرة الله، فإنّك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، والعبرة، أن يكون هذا الشيء فيه خير لك في دينك، وفي دنياك وفي آخرتك، قد يكون الأمر من وجهة نظرك فيه خير في دنياك فقط، ولكن على حساب آخرتك، قد يكون هذا الأمر فيه دخل كبير، لكنْ مع هذا الدخل شبه، قد يكون في هذا السفر دخل كبير، ولكنك حُرمت مجالس العلم، لذلك الشّيء الخير، ما نفعك في دينك ودنياك وآخرتك معاً، ولعل أقل شيء ينبغي أن تنظر إليه أمر الدنيا، ينبغي أن تنتفع في دينك ودنياك وعاقبة أمرك..

المؤمن وحده هو الذي يغمره الإحساس بالرّضا، بعد كل قدر من أقدار الله، ينشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص في نفسه، رضاه عن الوجود العام من حوله، مبعث ذلك رضاه عن مصدر هذا الوجود وهو الله عزّ وجل، وينبوع هذا الرّضا هو الإيمان بالله رب العالمين.

الرّضا ـ أيها الإخوة ـ نعمة روحية جزيلة، هيهات أن يصل إليها جاحد بالله، أو شاكٌ فيه، ومرتاب في جزاء الآخرة، إنما يصل إليها من قوي إيمانه بالله، وحسن اتصاله به، قال تعالى:

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠))

[سورة طه]

ترضى عن الله، واصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك، قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها (هذه الصلوات) **ومن آناء الليل فسبّح وأطراف النهار لعلك ترضى.**

لو سألتني، ما هي الصفة الغالبة على المؤمن ؟.. أنّه راضٍ عن الله ألم يقل عليه الصلاة والسلام في الطائف، وهو في أصعب أيّام الدّعوة ترك مكة إلى الطائف، مشياً على القدمين، ثمانون كيلو متر، طرق وعرة لا تستطيع الآليات أن تصل إليها، وصل إلى أهل الطائف ليكذّبوه وليشتموه، وليسخروا به، وليغروا صبيانهم بإيذائه، ماذا قال:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى لكن عافيتك هي أوسع لي))

أن تكون راضياً عن الله، هذه محصّلة إيمانك، لأنّك موقن بأسمائه الحسنى، موقن بصفاته الفضلى، موقن برحمته، موقن بعدالته، موقن بحنانه..

من لوازم الإيمان أن تكون راضياً عن الله، من لوازم الإيمان أن يعمر قلبك الفرح واليقين، من لوازم ضعف الإيمان أن تكون شاكّاً أو ساخطاً، من نتائج الشّك والسّخط الحزن والغمّ، ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥))

[سورة الضحى]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا))

[مسلم والترمذي وأحمد]

ألم يقل الله عزّ وجل في حقّ أصحاب رسوله الكرام:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨))

[سورة البينة]

أعلى عطاء تصل إليه أن تدخل الجنّة، أعظم عطاء من الله تصل إليه أن تصل إلى الجنّة، ماذا فوق الجنّة ؟.. فيها جنّات تجري من تحتها الأنهار، فيها حور عين، فيها ولدان مخلّدون، **فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ، لهم فيها ما يشاؤون**، الأعلى من ذلك:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦))

[سورة يونس]

قال العلماء الزيادة أن تنظر إلى وجه الله الكريم، يغيب الناظر إلى وجه الله الكريم خمسين ألف عام من نشوة النّظرة.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣))

[سورة القيامة]

ماذا فوق النّظر إلى وجه الله الكريم ؟.. ورضوانٍ من الله أكبر، إذاً أعلى عطاء تصل إليه أن يرضى الله عنك، وأسباب الرّضا بيديك، ألا تستطيع أن تقيم الإسلام في بيتك ؟ هذا مملكتك، ألا تستطيع أن تقيمه في عملك، هذا مملكتك، ولن تُحاسب عن غيرهما، أنت في هذين المجالين سيد، وفي هذين المجالين آمر، وفي هذين المجالين مُطاع، فلو أن كل مسلم أقام الإسلام في بيته، وأقامه في عمله، والله لكنّا في حال غير هذا الحال، لو أن كل واحد اكتفى أن يقيم الإسلام في بيته، وأن يقيمه في عمله، وأن يبلغ آيةً كل أسبوع، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

[أخرجه البخاري والترمذي وأحمد والدارمي]

لكنا في حال غير هذا الحال.

شيء آخر: **المؤمن راضٍ عن نفسه وعن ربّه، راضٍ عن وجوده** بما هو عليه، بإمكاناته، بقدراته، بشكله، من أمه وأبيه، ببيئته، ببلده بزمان ولادته، بمكان ولادته، المؤمن راضٍ عن وجوده، وعن مكانه من الكون، لأنه يعلم علم اليقين، أنه ليس ذرةً ضائعة، ولا كماً مهملاً ولا شيئاً تافهاً، بل هو قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، وخليفة الله في الأرض..

هو راضٍ عن ربه لأنه آمن بكماله وجماله، وأيقن بعدله ورحمته واطمأن إلى علمه وحكمته، أحاط سبحانه بكل شيء علماً، وأحصى كل شيءٍ عددا، ووسع كل شيء رحمة، لم يخلق شيئاً لهواً ولا لعباً، ولم يُترك الإنسان سداً، له الملك وله الحمد،نعمه عليه لا تُعد، وفضله عليه لا يُحد، فما به من نعمة فمن الله، وما أصابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيّئة فمن نفسه، قال تعال:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥))

[سورة الشعراء]

المؤمن ـ أيها الإخوة ـ موقن ؛ أن تدبير الله له أفضل من تدبيره لنفسه ورحمة الله به أعظم من رحمة أبويه به، ينظر في الأنفس والآفاق فيرى آثار برّه تعالى، ورحمته، فيناجي ربّه:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

[سورة آل عمران آية ٢٦]

أيها الإخوة الكرام: ما يظنه الناس شرّاً ليس هو شرّاً في الحقيقة، وإذا كان لابد من تسميته شراً، فهو شر نسبي، موظف للخير المطلق، كيف أن السيّارة صُنعت لتسير، ما شأن المكابح فيها ؟ من أجل سلامتها، المكابح وظيفتها عكس سبب صنع السيّارة، لكن من أجل سلامتها، من أجل صون حياة صاحبها، لابد من المكبح في السيّارة، كما أنه لابد من الشدائد كي يتجه الإنسان إلى الله، كي يُساق إلى باب الله، كي يلتزم أمر الله..

((عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَضْحَكَكَ قَالَ قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ))

[انفرد به أحمد]

إن الشر الذي نراه لا يناقض الخير، بل هو متمم له، أو شرط لازم لتحقيقه، فلا معنى للشّجاعة من دون خطر، الخطر شر، لكن متى يكون الشُجاع شجاعاً ؟.. إذا واجه الخطر.

لا معنى للكرم من دون حاجة، متى يكون الكريم كريماً ؟.. إذا كان بحاجة لهذا المال وأنفقه.. لا معنى للصّبر بدون شدّة، ولا معنى لفضيلة من الفضائل من دون نقيصة تقابلها، وتقاومها، هذا القول ـ أيها الإخوة ـ يطرد في لذاتنا المحسوسة، كما يطرد في فضائلنا النفسية، نحن لا نعرف لذّة الشّبع من دون ألم الجوع، ولا نستمتع بالري، ما لم نشعر قبله بلهفة الظّمأ ولا يطيب لنا منظر جميل، من دون أن طبيعتنا تنفر من المنظر السيئ وبرائحته الكريهة، وبضدِّها تتميز الأشياء.. ما يبدو لنا شرّاً هو سبب تحقق الخير، ما يبدو لنا شرّاً هو متمِّم للخير ما يبدو لنا شرّاً، هو تمهيد للاستمتاع بالخير.

المؤمن راضٍ عن الكون والحياة، لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله عزّ وجل، الذي أتقن كلّ شيء، الذي أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى، كل ذرة في الأرض، أو في السماء، تدلّ على حكمة الحكيم وتقدير العزيز العليم، وتدبير ملك عظيم، ورعاية رب كريم رحيم.

الإمام الغزالي، له في هذا الموضوع قول رائع، يقول: المؤمن كما يصدق تصديقاً يقينياً لا ضعف فيه، ولا ريب فيه، أن الله عزّ وجل لو خلق الخلق على عقل أعقلهم، وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمةً وعقلاً، ثم كشف لهم عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرّفهم دقائق اللطف، وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشّر، والنّفع والضّر، ثم أمرهم أن يدبّروا الملك والملكوت، بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه، أن يُزاد فيما دبّر الله سبحانه، ولا أن يُدفع مرض، أو عيب، أو نقص، أو فقر، أو ضرٌّ، عما ابتُلي به العباد، ولا أن تُزال صحة، أو كمال، أو غنى،أو نفع عمّن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه

الله تعالى من السماوات والأرض، إن أرجعوا فيها البصر، وطولوا فيها النّظر، ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده، من رزق، وأجل، وسرور، وحزن وعجز، وقدرة.

ولو كان قد ادخره الله مع القدرة عليه، ولم يتفضل به لكان بخلاً يناقض الجود الإلهي، وظلماً يناقض العدل الرّباني، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً، والعجز يناقض الألوهية.

يجب أن تعلم علم اليقين أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، أنت حينما ترضى عن ربّك، وترضى عن قضائه وقدره فيك، تنطلق، في مجال رحب، وأفق واسع، أما حينما يقلب عليك الحزن والألم، وتشك في عدالة الله، وفي كماله، وفي حكمته، وفي رحمته، فأنت في غمٍّ وحزن لا ينتهيان، مبعثهما الشكُّ والسّخط.

أيها الإخوة الكرام: عود على بدئ، محور هذه الخطبة، الحديث الصحيح الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام:

((إن الله عز وجل بقسطه، جعل الفرح والروح في الرّضا واليقين وجعل الغمّ والحزن في الشّك والسّخط))

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: يقول عليه الصلاة والسلام، في الحديث الجامع المانع:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

حديث مختصر، موجز، لكنه بليغ.. لا تخفْ إلا ذنبك، ولا ترجو إلّا ربّك، فحينما يكون الذّنب، تكون المعالجة، قال تعالى:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠))

[سورة الشورى]

وحينما تكون المعالجة لا تنجو من قضاء الله وقدره، إلا بطاعته، لا ملجأ منه إلا إليه.

حديث قصير، موجز، لو كان شعار كل منّا، **لا يخافن العبد إلا ذنبه**، إياك أن تذنب **" الذنب شؤم على غير صاحبه..** لو أن لك أخاً مؤمناً وقع في ذنب، فهو شؤم ليس عليه وحده، بل على صديقه، لأنك إن رضيت بهذا الفعل، شاركته في الإثم، وإن عيرته ابتليت به، وإن ذكرته للناس فقد اغتبته،

فكيف بصاحب الذنب، **الذنب شؤم على غير صاحبه**، فإن ذكره فقد اغتابه، وإن عيره قد ابتلي به، وإن رضيه شاركه في الإثم.

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربّه))

(يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

[سورة الأحزاب]

الفوز كل الفوز، والفلاح كل الفلاح، والنجاح كل النجاح، والتفوق كل التفوق، في طاعة الله:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣))

[سورة الحجرات]

وإنّ الله لا يقبل من النوافل إلا إذا أديت الفرائض، الأعمال الصّالحة على العين والرأس، لكن يجب أن تُبنى على استقامة على أمر الله استقم على أمره أولاً، دع ما نهاك عنه أولاً، ثم افعل من الأعمال ما تطيق تصل بها إلى أعلى عليين، أما إذا بُني العمل الصّالح على انحراف وتقصير، وترك للفرائض، هذا العمل لا تستطيع أن تستغلّه، فتصل به إلى الله عزّو جل.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦٠٦ : الرضا٢.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٢-٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: لازلنا في إحدى أكبر ثمرات الإيمان، ألا وهي الرضا، إن كنت راضياً عن الله، راضياً عن قضاء الله فيك، فأنت أسعد الناس، وإن لم تكن كذلك، كان الهمّ والحزن.

إن مما يسخِّط الناس على أنفسهم، وعلى حياتهم، ويحرمهم لذة الرّضا، أنهم قليلوا الإحساس بما يتمتعون به، من نعم غامرة، ربما فقدت قيمتها، لأنهم ألفوها، أو لأنهم يحصلون عليها بسهول، وهم يقولون دائماً، ينقصنا كذا وكذا، ونريد كذا وكذا، ولا يقولون عندنا كذا وكذا.

قبل أن تقول ينقصنا، قل ماذا عندك ؟، ما النّعم التي أنعم الله بها عليك ؟ ما الفضل الذي حباك الله فيه ؟ ما الشيء الذي اختصك الله به قبل أن تنظر إلى نصف الكأس الفارغ، انظر إلى نصفه الملآن، إلا أن المؤمن ـ أيها الإخوة ـ عميق الإحساس بفضل الله عليه، عميق الإحساس بما يحيق به من نعم ظاهرة وباطنة، هي عن يمينه، وعن شماله، ومن بين يديه، ومن خلفه، ومن فوقه، ومن تحته، إنه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان صبياً في المهد، لا سن له تقطع، ولا يد له تبطش، ولا قدم له تسعى، أجرى الله له عرقين، رقيقين في صدر أمه يجريان لبناً خالصاً، كامل الغذاء، دافئاً في الشتاء، بارداً في الصيف ألقى الله محبته في قلب أبويه، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب، ولا يهنأ له نوم ولا عيش، حتى يكفيا ما أهمه، ويدفعا عنه كل ضرر.

المؤمن عميق الإحساس بنعم الله، كان عليه الصلاة السلام تعظم عنده النعم مهما دقت، من خصائص المؤمن، إحساسه بالنعم شديد، لذلك هو راضٍ عن الله عزّ وجل.

المؤمن يرى آثار رحمة الله عزّ وجل، ونعمته في كل شيء حوله يرى نعم الله عليه في شخصه.

أول هذه النعم: نعمة الخلق، ولولا مشيئة الله عزّ وجل، لبقي الإنسان في ظلمة العدم، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١))

[سورة الإنسان]

النعمة الثانية: نعمة الإنسانية، شاء الله عز وجل أن تكون من بني البشر، أن تكون إنساناً سوياً، أن تكون من جملة المخلوق الأول، وهذه نعمة أخرى تُضاف إلى نعمة الخلق..

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠))

[سورة الإسراء]

نعمة الخلق، أو نعمة الوجود، ونعمة أن الله سبحانه وتعالى شاء لك أن تكون من بني البشر، شاء لك أن تكون مخلوقاً أول، سخّر لك السماوات والأرض.

أيها الإخوة الكرام: نعمة ثالثة: نعمة الصورة الحسنة، التي صورك الله بها، كان عليه الصلاة والسلام، إذا نظر في المرآة، كان يقول:

((اللهم كما حسّنت خلقي فحسن خُلقي))

قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤))

[سورة التين]

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤))

[سورة غافر]

النعمة الرابعة: نعمة الإدراك، الله جل جلاله، أودع فيك قوةً إدراكية هي التي ميزتك عن بقية المخلوقات، قال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١))

[سورة العلق]

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨))

[سورة النحل]

نعمة الخلق، ونعمة أنك من بني البشر، ونعمة الصّورة الحسنة ونعمة الصّورة الحسنة، ونعمة القوة الإدراكية، ونعمة البيان النطقي قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤))

[سورة الرحمن]

يعبّر عن حاجاته، يعبّر عن مشاعره، بكلمات لطيفة، يفهمها كل الخلق.

نعمة الرزق:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣))

[سورة فاطر]

هذه النعم، تغيب عن معظم الناس، يبحثون عما ينقصهم، لا عن ما هو في أيديهم.

ومن أجل هذه النعمة ؛ نعمة الهداية إلى الله، عرّفك بذاته، وألهمك طاعته، وأعانك على العمل الصالح، ملايين مملينة في بعض القارات يعبدون البقر، وأناس يعبدون النار، وأناس يعبدون أشخاصاً مثلهم..

كرمك الله، وأنعم عليك بنعمة عظمى هو أنه هداك إليه:

(وَاعْلَمُوا أَنّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنّ اللّهَ حَبّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ (٧))

[سورة الحجرات]

نعمة ثامنة: نعمة الإخوة الإيمانية، هذه نعمة كبرى، قال تعالى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣))

[سورة آل عمران]

دائماً اسأل نفسك هذا السؤال، كم هي النعم التي بين يديك ؟ ولا تسأل كم هي الحاجات التي تنقصك؟..

كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أشدّ الخلق إحساساً بنعم الله عزّ وجل أثر عنه، أنه كانت تعظم عنده النعم مهما دقّت.

كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا تناول طعامه، وهل تعلمون ما طعامه ؟.. كان طعاماً خشناً، طعاماً من الخبز خشناً، وطعاماً من الشعير جافّاً، يتناوله تناول الراضي الشاكر ويقول في ختام الطعام:

((الحمد لله الذي أطعمنا، وسقانا وجعلنا مسلمين..))

كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا شرب الماء يقول:

((الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا.))

كان إذا اكتسى ثوباً، أو عمامة، كان يقول:

((الحمد لله الذي كساني هذا، ورزقنيه، من غير حول مني ولا قوة، اللهم إني أسألك خيره وخير ما هو له.))

[أخرجه أبو داود والدرامي]

كان إذا ركب دابة، يقول:

((سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون..))

[أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود وأحمد والدرامي]

كان إذا استيقظ من نومه، كان يقول:

((الحمد لله الذي أحياني بعد إذ أماتني، الحمد لله الذي عافاني في جسدي، الحمد لله الذي أذن لي بذكره.))

[أخرجه البخاري والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

كان إذا قضى ضرورته البشرية يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأبقى لي ما ينفعني، الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، واذهب عني أذاه..))

كان إذا جاءت الأمور على ما يريد، وعلى ما يتمنى، كان يقول:

((إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ))

[انفرد به ابن ماجة]

كان إذا رأى إنساناً مبتلىً في جسمه، أو بعض حواسِّه، كان عليه الصلاة والسلام يقول فيما بينه وبين نفسه، من دون أن يسمعه هذا المتبلى:

((الحمد الذي عافاني مما ابتلى كثيراً من خلقه.))

كان إذا استيقظ واستقبل الصباح، كان يقول عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني أصبحت بنعمة منك وعافية، وستر، فأتمّ عليّ نعمتك وسترك في الدنيا والآخرة، وإذا أظله المساء قال مثل ذلك.))

هكذا علمنا النبي عليه الصلاة والسلام، أن تنظر إلى ما عندك من نعم نعمة أجهزتك لا تُقدر بثمن، أي خلل يصيب بعض الأجهزة، تدفع مئات الألوف، وبعض الملايين، وقد لا تعود كما كنت، الحمد لله على نعمة الصّحة، الحمد لله على نعمة الكفاية، الحمد لله على نعمة الأهل..

حقيقة المؤمن أنه راضٍ بما قسم الله له من رزق، وما قدر له من مواهب، وما وهب له من حظوظ؛ لأنه مؤمن بعدل الله فيما قسم وبحكمته فيما وزع من مواهب، وبفضله وبرحمته فيما وهب من حظوظ وهذا هو معنى القناعة.

الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء، والدنيا محدودة، وقصيرة وسوف تُوزع في الآخرة، إلى أبد الآبدين، توزيع جزاء، فرق كبير بين ان تُمتحن لسنوات عدّة، فإذا تجحت في الامتحان، نِلت الحظوظ المطلقة إلى أبد الآبدين، الحظوظ في الدنيا ؛ حظُّ المال، وحظ الصحة وحظ الزوجة، وحظ الأولاد، هذه الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف تُوزع في الآخرة توزيع جزاء. القناعة ليست كما يتوهم المتوهمون، ليست أن ترضى بالدون، ليس أن ترضى حياة الهون، ليست ضعف همة عن طلب معالي الأمور ليست هذه هي القناعة، القناعة ؛ أن تملك نفسك، وأن لا تملكك

نفسك أن تكون قادراً على تسييرها وفق منهج الله، لا أن تسيرك إلى شهواتها القناعة أن تملك أمرك، لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم:

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد]

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن روح القدس، نفثت في روعي أن نفساً لن تموت، حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله عباد الله، وأجملوا في الطلب، واستجملوا مهنكم ".))

وفي زيادة على هذا الحديث:

((خذ ما أحل، ودع ما حُرم ".))

الإيمان يحدُّ من هذا الحرص الشديد، والطمع البالغ، يحد من طغيان الشراهة والجزع، فالنفس الشاردة، لا تكتفي بالقليل، ولا تشبع بالكثير القناعة، أن ترضى بما وهبك الله، مما لا تستطيع تغييره، إذا كنت قادراً على تغيير ما أنت فيه، فليس من القناعة أن تقنع به، إلا أن القناعة، أن تكون راضياً، بما وهبك الله عزّ وجل، مما لا تستطيع تغييره، غير القانع يعيش متمنياً ما لا يتيسر له، متطلعاً إلى ما وُهب لغيره.

فالإنسان الأقل حسناً لا ينبغي أن يتطلع إلى أن يكون أكثر حسناً، هذا ليس بيده، ولا يملكه.. طول الإنسان، لون الإنسان، ملامح الإنسان هذه ليست من اختصاصه، إنها قدره، أهله قدره، زوجته قدره، أولاده قدره.

القناعة أن ترضى بشيء لا تستطيع تغييره، أما إذا أردت أن تُحسّن وضعك، هذا ليس محرم عليك. يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٣٢))

[سورة النساء]

الآية الكريمة التي نرددها كثيراً:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧))

[سورة النحل]

الإمام علي كرم الله وجهه، فسَّر الحياة الطيبة، بالقناعة.

الإمام الغزالي يقول: **ليس في الإمكان أبدع مما كان**، ثم فسر هذه المقولة، المطلقة، فقال: ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني..

فكرة دقيقة جداً ؛ القناعة بالقليل من الرزق، ليست مصدر ضعف بالإنسان، بل هي مصدر قوة له، ولا سيما إذا كان من أصحاب المبادئ ومن حملة الرسالات، إنه يعلم أن القليل يكفيه، لذلك لا يعبأ بالدنيا إذا ذهبت من بين يديه، لذلك لا يجامل، ولا ينافق..

أصحاب الدعوات، أصحاب المبادئ، أصحاب الرسالات، ينظرون إلى خزائن الملوك، ورياش المترفين، كما ينظر راكب الطائرة إلى القرى والبيوت المتناثرة، وكأنها علب صغيرة.

حكي عن السيد المسيح، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام أنه قال: **لباسي لباس الصوف، وطعامي الشعير، وسراجي القمر، ودابتي رجلاي ووسادتي ذراعي، أبيت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء، وليس على وجه الأرض من هو أغنى مني..**

احتج إلى الرجل تكن أسيره، واستغن عنه تكن نظيره، وأحسن إليه تكن أميره.

للإمام الشافعي قول رائع:

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبــراً

همتي همة الملوك، ونفسي نفس حرٍّ ترى المذلة كفــراً

وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلماذا أخاف زيداً وعمـــراً

***

الإمام الحسن البصري، سئل ؛ يا إمام، ما سرُّ هذه المكانة التي تتمتع بها بين الناس، قال: **باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي..**

أن ترضى بالقليل، مصدر قوة لك، عندئذ لا تجامل، ولا تداهن ولا تنافق، ولا ترجو أحداً، ولا تخشى أحداً..

دخل الإمام أبو حنيفة على المنصور، فقال المنصور: لو تغشيتنا يا أبا حنيفة، فنأنس بك، قال: **ولِمَ أتغشاكم وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء، قال له وتابع حديثه، إنك إن أكرمتني فتنتني، وإن أبعدتني أزريت بي.**

كلمة أخرى في موضوع القناعة:

القناعة لا تعني أن ترض بالسيء، لا تعني أن تسكت على الباطل إن رضى الإنسان مثلاً عن السيارات وركوبها ليس معناه الرضى عما تسببه من حوادث، المؤمن راضٍ عن ربّه، راضٍ عن شرعه، راضٍ عن نظامه في الكون، لكنه لا يسكت على الخطأ، لا يقبل بالانحراف، هذا من علامات المؤمن..

يقول الله عزّ وجل:

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦))

[سورة هود]

وقد أهلك الله بني إسرائيل، وقد علل الله هلاكهم، بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يصنعون..

القناعة بما أوتيت، مما لا تستطيع تغيره، اعمل لآخرتك، وأصلح دنياك إذا كان بالإمكان أن تصلح دنياك، وأن تحسِّن وضعك المادي وأن تحسن مسكنك، وأن تكفي أهلك وأولادك فافعل، لكنّ القناعة، هي أن ترضى بحظٍ وهبك الله إياه، لا تستطيع أن تزيد فيه، ولا تستطيع تغييره، والقناعة ليست مصدر ضعف، بل هي مصدر قوة، لأنك عندئذ توطن نفسك على الخشن من الثياب والطعام، يقول عليه الصلاة والسلام:

((" اخشوشنوا وتمعددوا فإن النعم لا تدوم ".))

المؤمن يوطِّن نفسه على أقل دخل، عندئذ يعيش لمبدأ، ولا يبيع دينه ولا مبادئه بعرض من الدنيا قليل.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: إليكم هذه القصة البلغية التي وقعت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد من اليمن، ثلاثة عشر رجل مسلماً، فسرّ بهم النبي عليه الصلاة والسلام، وأكرم منزلتهم، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم، وجعلوا يسألون النبي عليه الصلاة والسلام ويتعلمون منه، وأقاموا أياماً، ولم يطيلوا المكث، رغبة في الرجوع إلى قومهم، ليعلموهم مما علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليودعوه،

فأرسل إليهم بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود (أعطاهم مكافآت، هدايا جوائز) ثم قال عليه الصلاة والسلام: **هل بقي منكم أحد ؟**

قالوا نعم، غلام خلفناه على رحلنا، هو أحدثنا سناً.

فقال عليه الصلاة والسلام: **أرسلوه إلينا،** فلما رجعوا إلى رحالهم قالوا للغلام انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاقض حاجتك منه، فإنا قضينا حوائجنا منه وودعناه، فأقبل الغلام حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إني امرؤ من الرهط الذين أتوك آنفاً، قضيت حوائجهم، فاقض حاجتي يا رسول الله.

فقال عليه الصلاة والسلام: **وما حاجتك ؟**

قال: إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي، وإن كانوا قد قدموا راغبين في الإسلام، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم، وإني والله ما أقدمني من بلادي إلا رغبة ورجاء أن تسأل الله عز وجل، أن يغفر لي ويرحمني وأن يجعل غناي في قلبي.

فقال عليه الصلاة والسلام، وقد سر بهذا الغلام وأقبل عليه، قال: **اللهم اغفر له وارحمه، واجعل غناه في قلبه،** ثم أمر له بمثل ما أمر لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهلهم.

وفي العام القادم هؤلاء الذين قدموا على النبي، رجعوا إليه مرةً أخرى وافوه في منى، فسألهم النبي عليه الصلاة والسلام: **ما فعل الغلام الذي أتاني معكم ؟**

قالوا: يا رسول الله، ما رأينا مثله قط، ما رأينا أقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا أمامه، ما نظر إلى واحد منهم، ولا التفت إليهم.

فقال عليه الصلاة والسلام: **الحمد لله، إني لأرجو أن يموت جميعاً.. أن يموت هذا الغلام جميعاً.**

ما فهموا كلامهم.. فقال واحد منهم: يا رسول الله، أليس يموت الرجل جميعاً.

فقال عليه الصلاة والسلام، مبيناً لهم ؛

((أن من الناس من يموت مشتتاً موزعاً، تتشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا.))

(في وادي المال في وادي النساء، في وادي بلوغ المراتب العليا، في وادي العلو في الأرض، في وادي المتع، هذا شرح من عندي..)

قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

((إن من الناس من يموت مشتتاً موزعاً، تتشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل أجله يدركه في بعض تلك الأودية، فلا يبالي الله في أي أوديتها هلك.))

قال هؤلاء: فعاش الغلام فينا على أفضل حال، وأزهده في الدنيا وأقنعه بما رزقه الله عز وجل، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام، قام هذا الغلام في قومه، فذكّرهم بالله، وذكّرهم بالإسلام، فلم يرجع من قومه أحد.. جعل الله تمكين الإيمان في قومه على يديه.

وجعل أبو بكر رضي الله عنه، يذكره ويسأل عنه، حتى بلغه حاله فكتب إلى زياد بن لبيد، يوصيه به خيراً.

في حديث آخر، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قال سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ ".))

[تفرد به ابن ماجة]

((" اعمل لوجه واحد، يكفك الوجوه كلها ".))

((" من آثر دنياه على آخرته، خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ".))

((" أوحى ربك إلى الدنيا، أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه ".))

حديث قدسي، لو تعمقنا في فهمه، واستوعبنا أبعاده، لكنا في حال غير هذا الحال:

((" من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين.))

((عبدي خلقت السماوات والأرض، ولم أعيَ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين.))

((لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي، لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي، إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً.))

((أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد، كفيتك فيما تريد وإن لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم ما يكون إلا ما أريد "))

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين.))

((عبدي كن لي كما أريد، ولا تعلمني فيما يصلح..))

لا تكلف نفسك أن تعلمني بما يصلحك، أنا أعرف ما يصلحك.

كن له كما يريد، ويكون لك كما تريد..

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٠٧ : الأخلاق والدين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٣-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونسترشده، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ولا شريك له، إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جحد به وكفر، وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله، سيد الخلق والبشر، ما اتصلت عين بنظر أو سمعت أذن بخبر، اللهم صل، وسلم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آله، وأصحابه، وعلى ذريته، ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمنا، وأرنا الحـق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الكرام، موضوع الخطبة اليوم، الأخلاق والدّين.. ما موقع الدّين من الأخلاق، وما موقع الأخلاق من الدين..

في الحديث الصحيح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

[أخرجه الترمذي وأحمد والدارمي]

الحيوان كما تعلمون، له غريزة بالغة الدقة، تكفيه لتنظيم شؤون حياته وتدبير أمره، ولا يحتاج لأكثر من الغريزة، فالنّمل والنّحل مثل واضح جداً على حشرات، فيها نظام، وفيها تعاون، وفي مجتمعها تنسيق وفيها قيادة، وفيها طاعة، فيها كل شيء يلفت النظر.

إلا أن غرائز الإنسان ـ أيها الإخوة ـ متعددة، ومتنوعة، ومعقّدة غير سهلة، مركبة غير بسيطة، منها الفردي الذي يدفع إلى الأنانية والأثرة ومنها الاجتماعي الذي يغري بالتعاون والإيثار، ومنها ما يهبط بالإنسان إلى القاع، ومنها ما يرفع الإنسان إلى مراتب السمو.

المخلوق الأول الذي هو الإنسان مركب من جزء أرضي، ومن جزء سماوي، يقول الإمام علي كرم الله وجهه: **(رُكب الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكب الملك من عقل بلا شهوة ورُكب الإنسان من كليهما، من جزء أرضي، ومن جزء سماوي، فإن سما عقله على شهوته، أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله، أصبح دون الحيوان).**

الإنسان جسد ونفس، شهوة وعقل، ملاك وشيطان، قال بعض الفلاسفة: إنه مواطن في عالمين ؛ عالم الأرض، وعالم السماء..

هذه الشهوات قوى، تدفعه إلى حركة هوجاء، لابد من عقل يضبطها لابد من دين ينظّم هذه الشهوة، لابد من هدف يتحرك نحوه، لابد من مقود يضبط عمل هذا المحرك، وإلا كانت الكارثة. الشهوات حيادية ـ كما أقول كثيراً ـ درجات نرقى بها، إلى أعلى عليين، أو درجات نهوي بها إلى أسفل سافلين، وقود سائل متفجر، إذا وُضع في مستودعاته المحكمة، وسال في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، ولد حركة نافعة، أما إذا خرج عن مساره، وأصابت المركبة شرارة، أحرقت المركبة ومن فيها.

ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا ولها قناة نظيفة تسري خلالها ليس في الإسلام حرمان إطلاقاً، في الإسلام تنظيم، هذه الشهوة هذه قناتها، أردت المرأة، تزوج، أردت المال اكسب الحلال، من أين يأتي الحرام ؟ ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله ممن تحرك بدافع من غرائزه وشهواته، من دون منهج، من دون قانون من دون نظام.

كيف نضبط هذه الشهوات، وقد أودعت في كل إنسان، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤))

[سورة آل عمران]

التشريعات الأرضية لا تكفي لضبط السلوك الإنساني

هذه القوى المحركة، كيف نضبطها ؟.. التشريعات الأرضية لا يمكن أن تضبطها، التشريعات الأرضية مهما كانت دقيقة لا يمكن أن تضبطها لأن هذه التشريعات الأرضية سلطانها على الظاهر لا على الباطن تتناول العلاقات العامة، ولا تتناول العلاقات الخاصة، تعاقب المسيء ولا تكافئ المحسن، ممكن التحايل عليها، وهو أمر ميسور، يمكن أن تُطوع للأهواء والشهوات، وهو أمر مستطاع، يمكن أن نهرب من عقوباتها، وهو أمر ميسور.

إذا كانت هذه التشريعات الوضعية عاجزةً عن أن تزجر الإنسان عن الشر والفساد، فهي أشدُّ عجزاً من أن تدفعه إلى الخير والإصلاح.

لو أننا وضعنا روادع لمن يخالف هذه التشريعات الأرضية، قد تكون المكاسب من مخالفتها، أكبر بكثير من الروادع التي وضعت لها، لذلك التشريعات الأرضية، لا تنجح في ضبط غرائز الإنسان، ليس فيها قوة ذاتية، قوتها فيمن يطبقها، فإذا تساهل من يطبقها، فقدت قيمتها إطلاقاً وأي تشريع

أرضي، من دون متابعة، من دون ردع، من دون عمل دؤوب، لا قيمة له، يصبح حبراً على ورق.
قال بعض المستغلين في التربية والتعليم: كل ما نملك من سلطة على المعلم، أن نجعله يدخل الصّف السّاعة الثامنة، إذا دخل إلى صفه السّاعة الثّامنة، من يراقبه في أداء واجبه، أيعلم بإخلاص أم لا يعلم ؟ أيتابع تقدم الطّلاق، أم لا يتابعهم ؟ أيصطفي منهم قلةً يعتني بهم، أم تكون عنايته للكل؟.. هذا شيء لا يمكن أن يُضبط، ملايين الأشياء التي يعجز التّشريع الوضعي عن ضبطها.
الطبيب نضع له تسعيرة، هل نستطيع أن نضبط ما إذا طلب من المريض تحليلاً هو بحاجة لهذا التحليل، أم ليس بحاجة إليه، هذا متروك لمراقبة الله له، هذا لا يمكن أن يُضبط.

امرأة انكشفت أمام الطبيب، من يراقبه في إطلاق بصره، أم غض بصره، لا يمكن لتشريع أرضي أن يضبط حركات النّفس من داخلها.

هذه المهن التي يسميها الناس راقية، من يستطيع أن يضبط قول المحامي، هذه الدعوى رابحة أم خاسرة، قد تكون خاسرة، لكنْ يغري الموكل بأنها رابحة، ويؤخر إبلاغه النبأ بعد حين، هذا لا يُضبط بقانون ولا بتشريع، يعني الحياة من دون دين لا تُعاش !.. لا تنضبط، لا تنتظم.
أضرب لكم بعض الأمثلة، وقد ضربتها كثيراً: إذا أردنا أن نردع السّائقين عن السّرعات الزّائدة، ماذا نعمل، بتشريع أرضي نخترع أجهزة تراقب السرعات الزائدة، هذا الذي يُطبق عليه هذا التشريع ليس أقل ذكاءً من واضع هذا التشريع، قد يخترع جهازاً يكشف عمل هذا الجهاز، ماذا يفعل إذاً ؟ لابد من أن نخترع جهازاً ثالثاً يكشف عمل الجهاز في السيارات، التي تتّقي عمل جهاز الرادار.. إذاً معركة لا تنتهي بين عقلين..

سيدنا عمر ـ رضي الله عن سيدنا عمر ـ سأل راعياً، قال: **بعني هذه الشّاة وخذ ثمنها، قال ليست لي، قال قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذّئب قال ليست لي، أغراه بثمنها، قال: والله إنني لفي أشدّ الحاجة إلى ثمنها لو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذّئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين ولكن أين الله ؟..**

عظمة هذا الدين أن الله معك، معك في خلوتك، وفي جلوتك، معك في خواطرك، وفي رغباتك، وفي نواياك، لا يمكن لتشريع أرضي أن يضبط سلوك الإنسان، إلا أن يكون دين سماوي، لا يمكن لجهة أرضية مهما قويت أن تضبط الناس، إلا أن يكون ربّ الناس، هو الذي يضبطهم، ربّنا عزّ وجل يقول:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

[سورة الطلاق]

حينما يعتقد الإنسان، أن علم الله يطوله، وحينما يعتقد الإنسان، ان قدرة الله تطوله، حينما يعتقد الإنسان أن الله يعلم، وسيحاسب وسيعاقب لابد من أن تستقيم على أمره.

سيدنا عمر، منع امرأة أن تطوف بالبيت، كانت مريضة، فلما توفي رضي الله عنه، قيل لها إن الذي منعك من الطواف قد مات، قالت والله ما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميتاً.

هذا مع بشر، فكيف مع خالق البشر.

في التاريخ الإسلامي قصص لا تُصدق !.. تبين أن الإنسان إذا عرف الله، وعرف أنه يراقبه:

(إنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤))

[سورة الفجر]

(إنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

[سورة النساء]

(وَهُوَ مَعَكُمْ أيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤))

[سورة الحديد]

(يَا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأنّهُ إلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤))

[سورة الأنفال]

إذا علمت أن الله معك، يعلم سرّك وجهرك، وأنت في قبضته ومصيرك إليه، ولابد من أن تعود إليه، لتحاسب عن أعمالك كلها عندئذ تستقيم على أمر الله، وعندئذ تستقيم الحياة، وعندئذ نعيش في مجتمع متعاون، متناصح، متكاتف متضامن.

شيء آخر: أن الذي يضع التشريع الأرضي هو إنسان، يدعي أنه يعلم في جانب، وغابت عنه أشياء، ليس هناك عنده علم شمولي، عنده علم في جانب واحد، قد يلاحظ هذا الجانب، وتغيب عنه جوانب، قد ينظر من هذه الزاوية، وتغيب عنه زواية، إذا تفوق في أحد العلوم غابت عنه بقية العلوم، إذا تناول الشيء من هذه الزاوية، تغيب عنه بقية الزوايا، إنه بشر:

(وَيَسْألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلّا قَلِيلاً (٨٥))

[سورة الإسراء]

أما حينما يضع التشريع خالق البشر، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤))

[سورة فاطر]

هو الخالق، هو الصّانع، وهوالخبير، هو العليم، وهو الحكيم، هو القدير، هو الذي يعلم السرّ وأخفى.

الفلسفات الأخلاقية لا تغني عن الدين

ماذا يحل محل التشريعات الأرضية، الفلسفات الأخلاقية ؟..

الفلسفات الأخلاقية لا تستطيع أن توجه أفراداً معدودين، وبتأثير محدود لا ينفذ إلى الأعماق، وليس لها ذلك الشمول، ولا ذلك الاستمرار والفلسفات فضلاً عن ذلك، متعددة، ومتناقضة، هناك فلسفة المنفعة نادى بها بعض الفلاسفة، هناك فلسفة اللذّة نادى بها فلاسفة آخرون هناك فلسفة الواجب... وبعد ذلك، ما الجزاء الذي يناله المستمسك بهذه الفلسفات، إنه سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، لكن ربّنا جل جلاله يقول:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨))

[سورة الزلزلة]

جاء رجل إلى النّبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((يا رسول الله عظني وأوجز، فتلا عليه هذه الآية، فقال: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شر يره، فقال يا ر سول الله قد كُفيت))

كفته آية في سورة قصيرة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُه الرجل))

قد يقرأ الناس ستّمائة صفحة من كتاب الله، يقول لك ختمته في رمضان ثلاث مرات، جميل جداً!.. ولكن كيف تخالف أحكامه ؟ !.

((ما آمن بالقرآن من استحل محارمه))

((رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

قال:

((كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام فقه الرجل..))

هذا القرآن منهج لحياتنا، ورد عن سيدنا عمر كلمة مفيدة، قال: **إنّما أنزل هذا القرآن ليعمل به.** هو منهج لحياتنا، منهج لشتى مناحي حياتنا، أما إذا اكتفينا بقراءته ولم يعمل به لم نستفد منه. هذا الذي يقرأ بلاغاً بمنع التّجول، تحت طائل إطلاق الرصاص، لو أنه تفنن في فهم الخط، ونوع الحبر، ونوع الورق، ولون خط التوقيع وشكل الختم الذي خُتم به، وغفل عن مضمون البلاغ، أين هو من هذا البلاغ ؟.. مضمون البلاغ تحت طائلة إطلاق الرصاص، غاب عنه مضمون البلاغ، وفكر في حرفه، وفي شكله، وفي توقيع الموقع وفي ختم الذي ختم، وفي نوع الورق، وفي نوع الحبر، ينبغي أن تنظر أول شيء إلى مضمون البلاغ، وأن تعمل به، وإذا بحثت بعد ذلك عن هذه

التفصيلات، لا مانع، أما أن تغفل عن مضمونه، أن تغفل عن أحكامه أن تغفل عن منهجه. الأخلاق ملاك الفرد الفاضل، وقوام المجتمع الراقي، يبقى ويستقر ما بقيت، ويذهب ويتلاشى إن ذهبت..

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً

***

القيم الأخلاقية والدينية لا الفلسفات الأخلاقية

تحتل الأخلاق من الدين محلاً رفيعاً، ومكاناً فسيحاً، القرآن وهو كلام الله، لم يثن على خير الرسل بأكثر من أن قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

[سورة القلم]

ألم يكن النّبي قائداً ؟ ألم يكن مجتهداً ؟ ألم يكن عالماً ؟.. في كل صفة يتصف بها البشر كان قمّةً، عليه الصلاة والسلام ـ وحينما أثنى الله عليه أثنى على خلقه، قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

يقول عليه الصلاة السلام ـ كما قلت في أول الخطبة:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا))

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد]

قد يتفوّق الإنسان في علمه، وهذا التفوق لا يحتاج إلى جهد نفسي يحتاج جهد عقلي، يحتاج إلى إعمال الفكر، وقد يستمتع بهذا التفوق لكن التفوق الأخلاقي يحتاج إلى ضبط للشهوات، يحتاج إلى جهد جهيد لذلك قال بعض العلماء: جاهد تشاهد..

معرفة أمر الله يقتضي المدارسة، ومعرفة خلق الله تقتضي المدارسة لكنّ معرفة الله تقتضي المجاهدة، الأخلاق في الدّين ركن ركين، وفي المجتمع أساس مكين.

لا أخلاق بلا دين

الدين لن يقف عند حدود الدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتوجيهها وتمجيدها، إنه يرسي قواعدها، ويحدد معالمها، ويضبط مقاييسها ويضع الأمثلة للكثير من جزئياتها، ثم يغري بالاستقامة، ويحذر من الانحراف، ويضع الجزاء عقوبة ومثوبة.

قال بعضهم: الأخلاق من غير دين عبث.

وقال بعضهم الآخر: الدين والأخلاق شيء واحد، لا يقبلان الانفصال.

وقال بعضهم: الدّين يغذّي الأخلاق وينميها.

إياك أن تتصور خلقاً حقيقياً أصيلاً من غير دين، هناك خلق نفعي خلق أساسه الذكاء، خلق أساسه المنفعة، هذا ليس بخلق، هذا يُصنف تحت باب السلوك الذكي، قد تصل إلى أهدافك بيسر، بأقل جهد وبأكبر مردود، هذا ذكاء في الإنسان.

أما الخلق الأصيل الذي أراده الله من الإنسان المؤمن لا يكون إلا بالدين، العلم سياجه الأخلاق، والأخلاق مبعثها الدين، ولا أخلاق من دون دين.

الدّين هو المصدر الفذُّ المعصوم الذي يُعرف منه حسن الخلق من قبيحه، والدّين هو الذي يربط الإنسان بمثل أعلى يرنو إليه، ويعمل له والدّين هو الذي يجد من أنانية الفرد، ومن طغيان الغريزة، ومن سيطرة العادات، ويخضعها لأهدافه ومثله.

الدّين أساس الخلق، لأن الدّين يُبنى على الوازع الداخلي، بينما التشريعات الأرضية، تُبنى على الوازع الخارجي.

من الأحاديث الشّريفة، التي هي من أركان السلوك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمّ طُرِحَ فِي النّارِ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النّار، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلّةِ صِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا، وَإِنّهَا تَصَدّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنّةِ))

[انفرد به أحمد]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ هِيَ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والدارمي]

هل من فهم أعمق، وأدق من فهم كبار أصحاب رسول الله لهذا الدين ماذا قال سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، حينما سأله النّجاشي حدثني عن الإسلام، قال: **كنا قوماً أهل جاهلية** (دققوا ؛ من أي زاوية تناول هذا الموضوع، أي تعريف عرف به الإسلام ؟).

((كنا قوماً أهل جاهلية، نأتي الفواحش، ونأكل الميتة، ونعبد الأصنام ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضّعيف...))

هذه مساوئ الأخلاق، هذا هو الانهيار الخلقي، هذا هو السُقوط الأخلاقي، هذا معنى قول الشاعر:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً

***

حتى بعث الله فينا رجلاً، (كيف عرفناه أنه نبي) نعرف صدقه وأمانته وعفافه..

بماذا وصف النبي، بشكله، بخرقه للقواعد ؟.. لا..

نعرف أمانته وصدقه، وعفافه، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحده ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، وحقن الدماء، والكف عن المحارم ".

هذا هو الدّين، يؤكّد هذا قول النّبي عليه الصلاة والسلام:

((بني الإسلام على خمس..))

الخمس هي العبادات، هي العبادات، والإسلام شيء آخر،

((بني الإسلام على خمس..))

هي دعائم، وليست هي البناء، البناء أخلاقي..

أحد كبار العلماء له كلمة رائعة، يقول: الدّين هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين.

هذه حقيقة، فإياك أن تتوهم أنك ديّن إن لم تكن أخلاقياً، أنك ديّن إن لم تكن صادقاً، أنك ديّن إن لم تكن أميناً، أنك ديّن إن لم تكن كريماً.

الدّين هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في الدّين.

وعود على بدئ، يقول عليه الصّلاة والسّلام:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا))

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، أسوق لكم شاهداً تاريخياً يؤكد موضوع هذه الخطبة:

في أمريكا انتشرت عادة السكر، وشرب الخمور انتشاراً كبيراً الأمر الذي أقنع الحكومة وقتها، بضرر ذلك على الفرد والأسرة والمجتمع فأصدرت قانوناً يمنع الخمر، ومما يلفت النّظر أن هذا الحظر أو منع الخمر، لم يكن أمراً ملكياً، أو أمراً من إمبراطور، بل إنه تشريع جاء عن طريق برلمان في بلد ديمقراطي، من شأنه أن يشرّع لنفسه ما يجلب له النّفع، ويدرأ عنه الفساد والضّرر. وبعد أن اقتنع الرأي العام، وتحقق له من الوجوه العلمية والعملية، أن الخمر ضارّة بالصّحة، مفسدة للعقل، محطّمة للحضارة، صدر قانون بتحريم الخمر في عام ألف وتسعمئة وثمانية عشر. ماذا فعلت الحكومة وقتها من أجل تنفيذ هذا القانون:

جُند الأسطول كله لمراقبة الشواطئ منعاً للتهريب.

جُند الطيران كله، لمراقبة الأجواء منعاً للتهريب عن طريق الطائرات الخاصة.

شُغلت أجهزة الحكومة، واستخدمت كل وسائل الدِّعاية، لمحاربة الخمر.

أنفقت الدولة في محاربة الخمر، على المنشورات التي تُحذر من تناوله وتبين أضراره، أنفقت ستين مليون دولار.

وطبعت عشر بلايين صفحة في أربعة عشر عاماً، ووزعت.

وأنفقت على متابعة هذا القانون مئتين وخمسين مليون دولار.

وأعدم ثلاثمئة إنسان اتجروا بالخمر.

وسجن خمسمائة ألف مواطن.

وبلغت الغرامات التي دفعها الذين خالفوا هذا القانون ستة عشر مليون دولار.

وصُودرت من الأملاك، أماكن تصنيع الخمر تهريباً ما قيمته أربعمئة مليون دولار.

وكل هذه الإجراءات، وهذه النفقات، وهذه المطبوعات، وهذه النشرات وهذا الاستنفار، لم يزد الشّعب إلا غراماً في الخمر، وعناداً في تعاطيه.

ففي عام ألف وتسعمئة وثلاثة وثلاثين اضطرّت إلا إلغاء القانون وإباحة الخمر.

في القرآن الكريم آية واحدة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢))

[سورة المائدة]

ما الذي حصل، أن الإنسان أحياناً يضحي بتجارته، ولا يجلس على مائدة فيها خمر، يضحي بمركزه أحياناً، هذا الذي حصل.

هذه الحقيقة تبين الفرق بين التشريع الأرضي، والتشريع الإلهي لذلك الحياة لا تنتظم من دون تشريع إلهي.

الحياة من دون قيم لا تُعاش، والقيم من دون دين لا تكون.

أيها الإخوة الكرام، لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها..

لابد من الصلح مع الله، لابد من التوبة إليه، لابد من الرجوع إليه الله جل جلاله، يفرح بتوبة عبده كما يفرح الضال إذا وجد، والعقيم إذا ولد،

((لله أشد فرحاً بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

ولا تنسوا أن النبي صلى الله عليه وسلم، أعطانا صورة رائعة بلاغية ذلك الذي ركب ناقته وعليها زاده وطعامه، وشرابه، ليقطع بها الصحراء جلس ليستريح، فاستيقظ فلم يجد الناقة، فأيقن بالهلاك، فجلس يبكي ثم يبكي حتى أخذته سنة من النوم، فاستيقظ فرأى الناقة أمامه، من شدة فرحه اختل توازنه، فقال: **يا رب أنا ربّك وأنت عبدي ".**

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((لله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا البدوي بناقته))

ما دام القلب ينبض باب التوبة مفتوح.

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣))

[سورة الزمر]

لا يصلح إنسان، ولا تصلح الأسرة، ولا يصلح مجتمع إلا بتطبيق منهج الله.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦٠٨ : حياة المؤمن وحياة غير المؤمن.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٣-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدّجّالَ فَشَرّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السّاعَةَ فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرّ ".))

[أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب، وأخرجه أحمد]

هذه الدنيا إلى أين ؟..

لو أن الإنسان ـ أيها الإخوة ـ لم يؤمن بالله، لا دين له ولا عقيدة ماغايته من وجوده، ما رسالته في الحياة، لو أن الإنسان أسقط من حسابه الدار الآخرة، إلى أين يتحرك ؟.. ما الهدف الذي يصبوا إليه؟

إن كانت غايته رضوان الله عزّ وجل، أصل هذا الدين لم يؤمن به وإن كانت غايته الخلود في الجنّة، الدار الآخرة من أصلها لم يؤمن بها.

أريد ـ أيها الإخوة ـ في هذه الخطبة، أن أبين لكم الفرق الشاسع والبون الفاضح، بين حياة المؤمن، وحياة غير المؤمن.

قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (١٨))

[سورة السجدة]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦))

[سورة القلم]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١))

[سورة القصص]

لو أن هذا الإنسان الذي شرد عن الله عز وجل، ولم يؤمن بالله، ولم يسعَ إلى الدار الآخرة، كان من النوع الهادئ المسالم، عاش في الحياة الدنيا غافلاً عن نفسه، وعمّا حوله، عاش حياً كميت، موجوداً كمفقود لا يُحسُّ أحد بحياته، ولا يترك فراغاً بعد مماته.

هذا نوع من الناس شردوا عن الله، ولم يؤمنوا به، ولم يؤمنوا بالدار الآخرة، ولم يسعوا إلى تحقيق رسالة، هم غافلون عن أنفسهم، وعن سرّ وجودهم، وعن غاية وجودهم، وعن ربهم الذي خلقهم، هؤلاء يعيشون في غفلة شديدة، يعيش حياً كميت، موجوداً كمفقود، لا يحسُ أحد بحياته، ولا يترك فراغاً بعد مماته، هذا نوع

فذاك الذي إن عاش لم ينتفع به وإن مات لم تبك عليه أقاربه

***

نموذجاً آخر: من الغافلين عن الله، إن كان يغلب على هذا الإنسان الشارد، التائب، الضال، الذي غفل عن ربه وعن الآخرة، إن كان يغلب على نفسه الجانب البهيمي، جرى وراء الشهوات والملذات، يقتحم إلى بلوغها كل حرمة، يسلم من أجلها كل طريق لا حياء يردعه، ولا ضمير يقمعه، ولا عقل يمنعه.

إنما الدنيا طعام وشراب ومدام فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

***

هذا جانب آخر، نموذج بشري آخر، يسعى وراء شهواته، ينغمس في ملذاته الحسية إلى قمة رأسه، ليس فيه شيء يردعه عما يفعل، لا قيمة، ولا هدف، ولا خلق، ولا عقل، ولا ضمير، هذا نموذج آخر نحياه جميعاً، نعيش أولئك الذين يسلكون هذا الطريق.

وهذا الذي شرد عن الله، إن لم يؤمن بالله أصلاً، ولم يؤمن بالدار الآخرة، وكان من النوع العدواني، جعل همّه العلوّ في الأرض والاستكبار على الناس، وإظهار القوة، والتحكم بالرقاب، والفخر بلسانه، والاختيال بفعاله..

بنى مجده على أنقاض الناس، بنى حياته على موتهم، بنى سعادته على شقائهم، بنى غناه على إفقارهم.. هذا نوع عدواني.

الإنسان هو الإنسان، أحد الشعراء في الجاهلية يمثل هذا النموذج:

لنا الدنيا و من أمسى عليها و نبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمين وما ظلمنـــا و لكنا سنبدأ ظالميـــنا

إذا بلغ الرضيع لنا فطامــاً تخرُ له الجبابرة ساجدينــا

***

نموذج آخر، إنسان يعيش ليستعلي في الأرض، وإن كان يغلب على مزاج هذا الإنسان الشارد، الجانب الشيطاني، دبرّ المكائد، وفرق بين الأحبة، ووضع المشكلات للناس، وسمّم الآبار ليقتل،

وعكّر المياه ليصطاد، وزيّن الإثم، وأغرى بالفاحشة، وأوقع العداوة والبغضاء فهذا نموذج ثالث.
نموذج مسالم يعيش حياً كميت، نموذج عدواني، نموذج بهيمي نموذج شيطاني، هذه التقسيمات، قسّمها العلماء من قديم الزمن.

لكنّ المؤمن إنسان آخر، لابد من أن يكون الفرق بين المؤمن وغير المؤمن صارخاً، واضحاً كالشمس، حياة المؤمن حياة كريمة، حياة المؤمن حياة مقدسة، يسعى لهدف كبير، ينضبط بمنظومة قيم، له مبادئ تحكمه، له قيم يحتكم إليها، له مرجع يرجع إليه، له نموذج يحتذي حذوه، له سنة يتبعها، له عقل يحكمه، له شهوة يضبطها.

أيها الإخوة الكرام: المؤمن إنسان آخر ؛ يعيش لرسالة كبيرة، يعمل لهدف رفيع، يحيى في ظل مثل عليا، يعيش لها ويموت عليها، هدفه القرب من الله عز وجل، والتخلّق بأخلاق الله، والسّعي في مرضاته، وفي سبيل مثله هذا يكبح جماح نفسه، ويقمع طغيان هواه، ويضغط على غرائزه وشهواته احتساباً لله، وإيثاراً لما عنده، وابتغاء مرضاته، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦))

[سورة آل عمران]

من هذه الشهوات التي يسعى الناس إليها، في مقدمة الخطبة قلت: بادروا بالأعمال الصالحة، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا.. ثم ماذا ؟..

((هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنًى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشرٌ غائب يُنتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر ".))

قل أؤنبئكم بخير من ذلك، الشهوات محبّبة، الدنيا خضرة نضرة الفتن قائمة، كل شيء في الدنيا محبّب إلى النفس، لكن الله يخبرنا:

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥))

من أبرز صفات المؤمن أنه يتخلق بأخلاق الله، فالله سبحانه وتعالى عليم حكيم، والمؤمن يسعى لطلب العلم، وطلب العلم عنده شيء مقدس إنه يقتطع من وقته الثمين، وقتاً لمعرفة الله، يقتطع من وقته الثمين وقتاً لمعرفة منهج الله، يقتطع من وقته الثمين وقتاً لمعرفة سنة رسول الله إنّ طلب العلم

شغله الشاغل.. إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم..

إن الله عالم يحبُّ كل عالم.

الناس رجلان ؛ عالم ومتعلم، ولا خير في من سواهم.

يتخلّق بأخلاق الله، إن الله رؤوف رحيم، باتِّصاله بالله عز وجل يمتلئ قلبه رحمة وشفقة، وحناناً، إن قلب المؤمن يفيض رحمةً، يفيض شفقة، يفيض رقّة، فرق كبير بين قلب إنسان شارد كالصّخر، بل هو أشدُّ قسوة، وبين قلب مؤمن يكاد يلين، من شدّة رحمته.

إن الله رؤوف رحيم، يتخلّق بأخلاق الله، فيرحم الخلق، وفي الحديث القدسي:

((" إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي ".))

((" ومن لا يرحم لا يُرحم ".))

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢))

[سورة الزمر]

إن الله غني كريم..

والمؤمن يتخلق بأخلاق الله، كريم في عطائه، الدنيا بين يديه وليست في قلبه.

دخل على النبي صلى الله عليه وسلم رجل، سأله لمن هذا الوادي من الغنم، قال هو لك، قال أتهزأ بي، قال لا والله هو لك، قال: أشهد أنك لرسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

يجب أن نعلم أن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، ليس هذه الركعات التي يركعها، فرق أساسي في كل شؤون حياته، في تفكيره، في تصوراته، في عقيدته، في قلبه، في قيمه، في منهجه، في سلوكه في بيته، في عمله، في كل نواحي حياته.. لابد من أن يكون المؤمن إذا وازنته بغير المؤمن، لابد من أن يبدو لك البون شاسعاً، والمفارقة حادةً.

إن الله صبور حكيم، والمؤمن يتخلّق بأخلاق الله، من عامل الناس وصبر على أذاهم، خير ممن لم يخالطهم، ولم يصبر على أذاهم الأنبياء عاشوا بين الناس، ليضعوا أيديهم على جراحاتهم، ليأخذوا بيدهم إلى الله عز وجل، هذا الذي ينعزل، ويهرب، ويتقوقع، ويقول ما لي ومال الناس، وقد ورد في الحديث الصحيح:

((" من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ".))

((" اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله ".))

التخلّق بأخلاق الله، والسُّمو بالنّفس إليه، والسعادة بقربه، هو الفرق الشاسع، والبون الواضح، بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن.

غير المؤمن في الوحول، في الشهوات، في الدركات الدنيا، في الجهل الواضح، في أثرة لا تُحتمل، في كبر لا يُطاق، في علو واستعلاء، في غطرسة واستكبار، بينما المؤمن ؛ ليّن، هيّن، يألف ويؤلف.

قيل: وبضدِّها تتميز الأشياء، ليس الفرق بين المؤمن هذه الصلاة التي نصليها، الصلاة أحد أعمدة الدين، أما الدين كما قال سيدنا جعفر منظومة خلقية **" أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء.**

الدين خُلق، الدين قِيَم، النبي عليه الصلاة والسلام، ألم يكن أكبر قائد عسكري ؟ ألم يكن أكبر خطيب يفحم الناس ؟ ألم يكن أكبر قاضٍ ؟ ألم يكن مجتهد ؟ ألم يوحى إليه ؟ ومع كل هذه الخصائص الفريدة، التي كان يتمتع بها، حينما أثنى الله عليه، أثنى على خلقه، قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

[سورة القلم]

ما الخطر الذي يتهدد الأخلاق اليوم ؟ قال بعض العلماء: إنه متاع الحياة الدنيا، إنها مغريات الحياة الدنيا، إنها زخارف الحياة الدنيا، إنها شهوات الحياة الدنيا، كما قلت قبل قليل في الآية الكريم:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٦))

متاع الحياة الدنيا، هو الذي يهلك الإنسان..

إن البلوغ في حب الدنيا هو رأس كل خطيئة، قال عليه الصلاة والسلام:

((" حب الدنيا رأس كل خطيئة ".))

حبك الشيء يعمي ويصم، كيف يكون القلب مغلقاً ؟ إذا سُدت منافذه الطبيعية، منافذه الطبيعية أن ترى آيات الله، وأن تستمع إلى الحقّ والذي هو في النار يوم القيامة يقول، لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السّعير، لابد من أن نصغي إلى الحق.

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ(٤٣))

[سورة القلم]

إن الغلو في حب الحياة الدنيا، هو رأس كل خطيئة، إن التنافس عليها أساس كل بلية، إن المنافسة من أجل متاعها، وراء كل معصية من أجل الحياة الدنيا، يبيع الإنسان دينه وآخرته بعرض من الدنيا قليل من أجل متاع الحياة الدنيا، التي هي أخطر شيء على الأخلاق يقتل الإنسان أباه أحياناً، من أجل متاع الحياة الدنيا يخون الناس الأمانات من أجل متاع الحياة الدنيا، ينكث الناس بعهودهم، من أجل متاع الحياة الدنيا، يجحد الناس بالحقوق، من أجل متاع الحياة الدنيا، ينسون الواجبات، من أجل متاع الحياة الدنيا، يبغي بعضهم على بعض، من أجل متاع الحياة الدنيا، يعيشون كسباع الغابة، أو أسماك البحر، يأكل قويهم ضعيفهم، يلتهم قويّهم صغيرهم.

الحياة من دون قيم لا تُعاش، الحياة من دون دين يضبط الناس لا تُعاش، إن القوي يأكل الضعيف، والكبير يلتهم الصغير.

من أجل متاع الحياة الدنيا يغشُّ البائعون في بيعهم، من أجل متاع الحياة الدنيا، يطففون في الوزن، من أجل متاع الحياة الدنيا، يتجبر الكبراء، ويستعلون، من أجل متاع الحياة الدنيا، يجور الأقوياء ويتغطرسون، من أجل متاع الحياة الدنيا، يطغى الأغنياء ويترفون ينافق الضعفاء ويتزلفون، من أجل متاع الحياة الدنيا، يكتم العالم علمه، من أجل متاع الحياة الدنيا، يفتي العالم بغير ما يعلم، قد يفتي بدون علم وقد يفتي بخلاف ما يعلم.

كما قال سيد الأنام:

((" حب الدنيا رأس كل خطيئة ".))

ورد في الحديث الصحيح:

((" من أصبح وأكبر همِّه الدنيا، جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قُدر له، ومن أصبح وأكبر همِّه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة ".))

من أجل متاع الحياة الدنيا، يروج الكذب والزور، من أجل متاع الحياة الدنيا تُخفى الحقائق، من أجل متاع الحياة الدنيا، تسُفك الدماء تُستباح الحرمات، تُداس القيم، يُباع الدين والشرف، من أجل امرأة يضيع الإنسان آخرته، **" ألا يا رُبّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً ".**

" ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم"

من أجل امرأة، من أجل قطعة أرض، من أجل بناء، من أجل منصب، من أجل حظوة، من أجل شهرة، من أجل هم بطن، من أجل هم فرج، من أجل جاه، من أجل مال، تُنتهك الحرمات، وينصرف الإنسان إلى طريق مسدود.

العقل ينبغي أن تفكر في مآل الحياة الدنيا، إذا أردت إنفاذ أمر تدبر عاقبته، كفى بالموت واعظاً يا عمر..

أيها الإخوة الكرام: لابد من ساعة تأمل، لابد من وقفة في زحام الحياة، لابد من ساعة تخلو بها مع نفسك، تفكر في علة وجودك، لماذا أنت في الدنيا ؟..

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

[سورة الذاريات]

ما العبادة، كيف أعبد الله ؟.. لابد من جلسة من حين لآخر.. أما هذا الذي يلهث وراء الدنيا، إلى أن يأتيه الموت بغتةً وهو لا يدري خسر خسارةً كبرى، قال تعالى:

(قُلْ أَؤُنَبّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلّذِينَ اتّقَوْا عِنْدَ رَبّهِمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥))

[سورة آل عمران]

قلت كثيراً: الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يأكل ويشرب لابد من أن تعتني بجسمك ؛ لأنه وعاء النفس، ولابد من أن تعتني بقلبك لأنه سرٌ سعادتك، ولابد من أن تغذي عقلك ؛ لأنه الفارق الوحيد بينك وبين المخلوقات، ولابد من ذكر لقلبك، ولابد من طعام يقويك.

حينما ذكرت هذا، ليس قصدي أن أذم الحياة الدنيا، نعم مطيّة المؤمن الحياة الدنيا نعم مطية المؤمن، بالحياة الدنيا تصل إلى الله، بإنفاق المال الحلال ترتقي إلى الله، بضبط الشهوات تسعد بالقرب من الله، أنا حينما أذكر الحياة الدنيا، أذكر أن تغدو أكبر همنا، ومبلغ علمنا ذكرتها لئلا تكون هي كل شيء في حياتنا، ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان حب الدنيا، والأمل فيها، جزء من فطرة الإنسان، ولولا ذلك ما عُمِّرت الأرض، ولا ترعرعت شجرة، لكنّ الخطر، كل الخطر، أن تغدو هذه الحياة القصيرة، أكبر همّ الناس، ومبلغ علمهم، ومنتهى آمالهم.

عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَلّمَا كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ:

((اللّهُمّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلّغُنَا بِهِ جَنّتَكَ وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا وَمَتّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلَا

تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا قالَ أبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غريبٌ.))

[انفرد به الترمذي]

الإنسان عليه أن يراقب نفسه، حينما يفتح عينيه صباحاً، ما أول خاطر يأتيه، إن كانت الدنيا تتبادر إلى خواطره، فهذه مشكلة، أما إذا كانت طاعة الله، والقرب منه، إذا كان قلقاً على إيمانه، قلقاً على سيره قلقاً على وضعه مع الله عز وجل، فهذه بادرة طيّبة، لأنه كما قلت قبل قليل:

((" من أصبح وأكبر همِّه الآخرة، جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة ".))

أيها الإخوة الكرام: الشهوات رُكِّبت فينا جميعاً، لكنّ هذه الشهوات، من خلال الإيمان تضبط، أقول لكم ـ أيها الإخوة: ليس في الإسلام حرمان، ولكنه في الإسلام نظام، كل شهوة أودعها الله فينا، جعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها، ليس هناك كبت في الإسلام، أية شهوة أودعت فينا لها متنفس طبيعي، لها مصرف طبيعي، لها قناة نظيفة، تجري خلالها، الإيمان وحده ـ أيها الإخوة ـ يعطي القدرة على مقاومة إغراء الدنيا وفتنتها.

إن المؤمن يملك الدنيا ولا تملكه، تمتلئ بها يداه، ولكنْ لا يمتلئ بها قلبه، يعيش في الدنيا بروح المرتحل، **" عش في الدنيا كأنك مسافر أو عابر سبيل ".**

المؤمن يعلم علم اليقين ؛ أن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة بربّكم، هل هناك مثل أبلغ من هذا المثل ؟.. بعوضة، ما قيمتها يقتلها الإنسان ولا يشعر بشيء، ما فعل شيئاً، لهوانها، عن سَهل بْنِ سَعْدٍ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ ".))

[رواه الترمذي وابن ماجة]

المؤمن يعلم علم اليقين، أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة إنها قنطرة عبور إلى الدار الآخرة، ركعتان خاشعتان خير من الدنيا وما فيها.

مرّ عليه الصلاة والسلام بقبر، فقال:

((" الميت في هذا القبر إلى ركعتين خفيفتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من دنياكم كلها "))

ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلِّط..

ركعتان في خشوع خير لكم من الدنيا وما فيها..

غدوة وروحة في سبيل الله، خير لك من الدنيا وما فيها..

أن تنطلق من بيتك إلى مجلس علم، أن تنطلق من بيتك لأداء فريضة أن تنطلق من بيتك للإصلاح بين الناس، لخدمة إنسان، لنشر الحق..

موضع قدم في الجنّة خير لنا من الدنيا وما فيها.

أيها الإخوة الكرام: الله جل جلاله، أعطى الملك لمن يحب ؛ لسيدنا سليمان، وأعطاه لم لا يحب ؛ أعطاه لفرعون، إذاً ليس مقياساً.

أعطى المال لمن يحب ؛ لسيدنا عثمان ابن عفان، ولعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وأعطاهما لمن لا يحب ؛ لقارون، إذاً ليس المال مقياساً.. لكنّه ماذا أعطى لأنبيائه وأحبابه ؟.. قال تعالى:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤))

[سورة القصص]

الاستعلاء على الدنيا لا يعني أن نحرم طيباتها، يعني أن نأخذ منها وسيلة لبلوغ الآخرة، شعار المؤمن في هذا الموضوع، قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنّ اللّهَ لَا يُحِبّ الْمُفْسِدِينَ(٧٧))

[سورة القصص]

يعني إن توظف حظوظك من الدنيا في سبيل الحق، آتاك الله مالاً ينبغي أن تنفقه في سبيل الله، آتاك الله علماً، ينبغي أن تنفقه في سبيل الله، آتاك الله جاهاً، ينبغي أن تنصر به الضعيف، آتاك الله طلاقة لسان، ينبغي أن تنشر الحق، حينما توظِّف حظوظك من الدنيا، في خدمة الحق، انقلبت هذه الحظوظ إلى نعم، وحينما توظِّفها في الباطل انقلبت إلى نقم، أنت بين النعم وبين النقم، المال نفسه، يمكن أن يكون نعمة إذا أنفقته في سبيل الله، والمال نفسه، يمكن أن يغدو أكبر مصيبة إذا أُنفق في سبيل الشيطان.

عود على بدء، يقول عليه الصلاة والسلام:

((" بادروا بالأعمال الصالحة، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ".))

لو أن الإنسان جعل الدين وراء ظهره، لو أن الإنسان لم يؤمن بخالق الأكوان، ولم يدخل في حسابه الدار الآخرة، عاش لحظته، عاش وقته عاش لشهواته، عاش لملذاته، عاش لمتاع الحياة

الدنيا، هذا الإنسان ماذا ينتظره ؟.. كل يوم يستمر كما هو إلى ما شاء الله ؟.. أم لابد من مفاجئة في بعض الأيام ؟..

((" بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ".))

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا.

أيها الإخوة: دققوا في هذا الكلام، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا، يعني لابد في أحد الأيام من أن يقرأ الناس نعيك، لابد في أحد الأيام من أن ندخل المسجد ليُصلى علينا ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ـ أيها الإخوة الكرام ـ الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: وسط الدماغ البشري، غدة صغيرة حجمها كحجم حبة الذرة البيضاء اسمها الغدة الصنوبرية، عالم كبير جداً، في بلد متقدم بالمقياس المادي طبعاً، يقول لطلابه، وأحد طلابه مؤلف كتاب عن هذه الغدة، يقول هذا العالم، إن الغدة الصنوبرية، غدة عديمة الفائدة، لا وظيفة لها ولا نشاط، وليس لها أدنى دور في جسم الإنسان، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥))

[سورة الإسراء]

كلام دقيق يلقيه عالم كبير في الطب، في علم التشريح على طلابه ثم اكتُشف، أن هذه الغدة، أول غدة تتكون في الجنين، وآخر غدة تبيح بأسرارها لعلم الطب، بأسرارها لعلم الطب، هذه الغدة تفرز هرموناً، الشيء الذي يدهش ؛ أن هذا الهرمون موجود في كل الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان، حتى وحيدة الخلية، فيها هذا الهرمون ـ كما قال بعض العلماء ـ تماثل هذا الهرمون في كل الكائنات الحية شيء نادر وعجيب، هذا الهرمون لا يُفرَز إلا بالليل، يقول العلماء عنه اليوم في بحث صدر في عام ١٩٩٥ إنه من أكثر المواد فعاليةً في جسم الإنسان ؛ يساعد الجسم على مكافحة الجراثيم والفيروسات، يساعد الجسم على النوم المريح، وعلى تحسين نوعية النوم، يساعد الجسم على الإقلال من حدوث أمراض شرايين القلب يخفف من أعراض السفر البعيد الطويل، يزيد في حيوية الكائن الحي وفي قوة عضلاته، يكاد هذا الهرمون يكون العنصر الأول في حيوية الإنسان، وفي صحته وسلامة وظائف أعضائه.

أردت من هذا أن أخبرك، إن هذا الذي يقول: إن الغدة الصنوبرية غدة عديمة الفائدة، لا وظيفة لها ولا نشاط وليس لها أدنى دور في جسم الإنسان.

ما كل شيء نقرؤه صحيح، ما كل شيء نسمعه صحيح، الصحيح هو ما جاء في كتاب الله، هو ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى.

الآن هذه الغدة تُفرز أهم هرموناً في جسم الإنسان، ولو ألغينا هذا الهرمون لكانت حياته جحيماً لا يطاق.

غدة صغيرة بحجم حبة الذرة البيضاء، في وسط الدِّماغ، اسمها الغدة الصنوبرية، هرمونها متواجد في كل الكائنات الحية، حتى في النبات، وحتى في الحيوانات، أو الأحياء وحيدة الخلية.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥))

[سورة الإسراء]

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة آية ٢٥٥]

يقول بعض العلماء، لم تبتل بعد أقدامنا ببحر المعرفة، لا يزال العلماء كالأطفال يحبون أمام سر هذا الكون وسر هذا الإنسان.

يقول بعضهم إن ثلاثمائة بحث علمي، جادٍ، عميق، نشر حول هذه الغدة في عام واحد، فالإنسان أحياناً يقلِّل من قيمة الشيء لجهله به أما إذا عرف الحقيقة يجب أن يخر ساجداً لله عزو جل، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣))

[سورة الملك]

ليس في الدنيا شيء زائد لا حاجة له ولا فائدة منه.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٠٩ : خ١ - قوة المؤمن١ (أسباب قوة المؤمن) ، خ٢ - الإنسان ضعيف.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٤-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، أحد أكبر حظوظ الدنيا أن تكون قوياً، والإنسان أحياناً أو في أحيان كثيرة يتمنى أن يكون قوياً، لكنَّ النبي عليه الصلاة والسلام وصف القوة بعد الإيمان، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[أخرجه مسلم وابن ماجة وأحمد]

القوة من دون إيمان قوة غاشمة، ظالمة، أما الإيمان هو الذي يسير القوة إلى الوجه الصحيح، وإلى الاستخدام الخير.

أيها الإخوة الكرام، الإنسان في هذه الحياة الدنيا له آمال عريضة، وأهداف كثيرة، ولكن الطريق إلى هذه الآمال، أو إلى تلك الأهداف شائك وطويل، والعقبات متنوعة، والمعوقات كثيرة، والصوارف عديدة، إنسان له أهداف كبيرة وله آمال عريضة، وهناك آلاف المعوقات، وآلاف الصوارف، وآلاف العقبات، ماذا يفعل ؟..

هذه المعوقات بعضها من طبائع الأشياء، وبعضها من سنن الله في خلقه، وبعضها من البشر أنفسهم، فالإنسان في جهاد دائم، وعمل متواصل ليتغلب على هذه المعوقات، وتل العقبات، وليحقق الأهداف والآمال.

لذلك وهو في هذه المحنة، وهو في تلك التجربة، يشعر بحاجة ماسة إلى القوة، يشعر بحاجة ماسة إلى قوة تسند ظهره، وتشد أزره وتأخذ بيده، وتذلل له العقبات، وتقهر أمامه الصعوبات، وتنير له الطريق.

الإنسان في طبيعته الضعيفة مفتقر إلى قوة تدعمه، إلى قوة تحميه إلى قوة تنصره، إلى قوة تؤيده، إلى قوة تنير له الطريق، إلى قوة يركن إليها، إلى قوة يطمئن لها، إلى قوة يزيل بها مخاوفه، هذه طبيعة الإنسان، قال تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (٢٨))

[سورة النساء]

أيها الإخوة الكرام، بين المؤمن وغير المؤمن هذا الفرق الوحيد، المؤمن لا يرى قوياً إلا الله ولا يعتمد إلا عليه، ولا يركن إلا إليه، ولا يلجأ إلا إليه، ولا يثق إلا به، هو القوي، وكل قوة في الأرض مُستمدة من قوة الله عز وجل هذه القوة يجب أن تكون في ظلال العقيدة، وفي رحاب الإيمان بالله..

الإيمان بالله يمدنا بروح القوة، أو بقوة الروح، فالمؤمن لا يرجو إلا فضل الله، ولا يخشى إلا من عذاب الله، ولا يبال في شيء في جنب الله، إنه قوي ولم يكن بيده وسائل القوة، إنه غني ولا تمتلئ خزائنه بالفضة والذهب، إنه عزيز وإن لم يكن وراءه عشيرة ولا أتباع، راسخ إن اضطربت سفينة الحياة، وأحاط بها الموج من كل مكان.

ورد في بعض الأحاديث الشريفة أنه

((لو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال))

إذا كنت مع القوي فأنت قوي، وإذا كنت مع العزيز فأنت عزيز، وإذا كنت مع الغني فأنت غني. هذه القوة في الفرد مصدر قوة الجماعة، وما أسعد المجتمع بالأقوياء الراسخين من أبنائه، وما أشقاه بالضعفاء المهازيل، الذين لا ينصرون صديقاً، ولا يخيفون عدواً، ولا تقوم بهم نهضة، ولا ترتفع بهم راية.

قوة المجتمع من قوة أفراده وقوة الفرد من إيمانه، قد تجد إنساناً يملك كل وسائل القوة، وهو خوار جبان، وقد تجد إنساناً لا يملك من وسائل القوة شيء، ولكنه قوي بالله، معتمد عليه، راغب فيما عنده واثق بما في يديه.

أيها الإخوة الكرام، المؤمن قوي ؛ لأنه يستمد قوته من الله العلي الكبير، الذي يؤمن به ويتوكل عليه ويعتقد أنه معه حيث كان، وأن الله ناصر المؤمنين، وخاذل المبطلين.

المؤمن عزيز، لا يذل ؛ لأنه متوكل على الله، والمؤمن حكيم لا يضل ؛ لأنه مسترشد بهدي الله.

أيها الإخوة الكرام، التوكل على الله هو من ثمار الإيمان، ولكنه عند ضعاف المسلمين استسلام متبطل، واسترخاء كسول، إن التوكل الحقيقي حافز إلى مقاومة العدو، شحنة تملأ المؤمن بروح التحدي والإصرار، لنأخذ شاهداً من كتاب الله:

(إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

[سورة هود]

هذه مقدمة، ولكن لو حلّلنا أسباب قوة المؤمن، نجدها في عدة أسباب:

السبب الأول: أن المؤمن آمن بالحق، والحق هو الله، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتزعزع، هناك أفكار بُنيت على باطل، انهارت كبيت العنكبوت، هناك أشياء كثيرة بُنيت على باطل تداعت كبيت العنكبوت، المؤمن يستمد قوته من الحق الذي يعتقده، ويعتنقه، فهو لا يعمل بشهوة عارضة ولا لنزوة طارئة، ولا لمنفعة شخصية، ولا لعصبية جاهلية، ولا للبغي على أحد من البشر، ولكنه يعمل للحق الذي قامت عليه السماوات والأرض، والحق أحق أن ينتصر له والباطل أولى أن يخذله.

أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، دخل على رستم قادة جيوش الفرس، قال له رستم: من أنت، وما أنتم ؟..

قال ربعي: نحن قوم بعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..

يستمد المؤمن قوته من أنه مع الحق، مع الشيء الثابت، مهما تطورت الحياة، مهما ظهرت النظريات، مهما تفاعلت الأفكار مع الواقع، الحق هو الثابت لا يتغير، الحق لا تزيده الأيام إلا تألقاً، لا تزيده الأيام إلا رسوخاً، لا تزيده الأيام إلا ثباتاً، المؤمن على أرض صلبة، لن يفاجأ في أحد الأيام أن الذي يعتنقه باطل، أن الذي يعتنقه لا أساس له أن الذي يعتنقه تهاوى بعد سبعين عاماً، لن يُفاجأ المؤمن أبداً مصدر قوته إنه مع الحق الثابت الذي استقر ولن يتزحزح.

أيها الإخوة الكرام، المؤمن كما قلت قبل قليل يقف على أرض صلبة، غير حائر ولا مضطرب ؛ لأنه يعتصم بالعروة الوثقى، ويأوي إلى ركن شديد، ليس مخلوقاً ضائعاً كما يتوهم أهل الباطل، ولا كماً مهملاً إنه خليفة الله في الأرض وإن تظاهر عليه أهل الباطل، فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، قال تعالى:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤))

[سورة آل عمران]

هذا أحد مصادر قوة المؤمن، هو مع الحق الثابت الذي لا تزيده الأيام إلا رسوخاً وشموخاً وتألقاً، أما إذا اعتنق الإنسان فكرةً وضعية من وضع البشر لابد من أن يُفاجأ في بعض الأوقات أنها باطل، وإن الباطل كان زهوقاً، كما قال عز وجل.

العامل الثاني: من عوامل قوة المؤمن أنه يؤمن بالخلود، فالموت تذوقه النفس، لكن النفس لا تموت، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥))

[سورة آل عمران]

والموت نقطة على خط بياني صاعد صعوداً مستمراً، المؤمن يستمد قوته من الخلود الذي يوقن به، فحياته ليست هذه الأيام المعدودة في الأماكن المحدودة، إنها حياة الأبد، إنه ينتقل من دار إلى دار، ليس عنده فزع الموت، ليس عنده فزع النهاية، ليس عنده فزع الخروج من الدنيا إلى لا عودة، إنه مؤمن بالخلود، إنه يؤمن بحياة طيبة بعد الموت قال تعالى:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤))

[سورة الفجر]

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

***

العامل الثالث لقوة المؤمن: أنه يؤمن بالقدر، فالإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، كل شيء بقضاء من الله وقدر.

المؤمن يستمد قوته من القدر الذي يؤمن به، فهو يعلم أن ما أصابه من مصيبة بإذن الله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وإن اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وهو يتلو قوله تعالى، وتملأ هذه الآية نفسه:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١))

[سورة التوبة]

ما كتب الله لنا، لا علينا، لصالحنا.

أيها الإخوة الكرام، المؤمن يعتقد أن رزقه مقسوم، وأن أجله محدود، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله عباد الله، وأجملوا في الطلب، واستجملوا مهنكم))

[أخرجه ابن أبي شيبه عن عبد الله بن مسعود، وأخرج ابن مردويه عن الحسن]

المؤمن يعتقد أن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً، يعتقد أن رزقه مقسوم، وأجله محدود، لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يحول بين وبين ما قسم الله من رزق، ولا يستطيع أحد كائناً من كان أن ينتقص ما كتب الله له من أجل.

هذه العقيدة بثبات رزقه، ومحدودية أجله تعطيه ثقةً لا حدود لها وقوةً لا تقهرها قوة البشر، وقد كان الرجل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، يذهب مع رسول الله مجاهداً، فيعترض سبيله المثبطون ويخوفونه من ترك أولاده، ويقول هو علينا أن نطيعه كما أمرنا، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا.

لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨))

[سورة هود]

وكلمة (على) إذا جاءت مع لفظ الجلالة تفيد أن الله ألزم نفسه برزق العباد.

وكان المعوقون، والخاذلون يذهبون إلى زوجته، زوجة هذا الصحابي فيثيرون مخاوفها على رزقها، ورزق عيالها، إذا ذهب زوجها مع رسول الله، فتجيبهم بثقة واطمئنان: زوجي أعرفه أكّالاً، ولا أعرفه رزاقاً، فإذا ذهب الأكال بقي الرزاق.

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر، ما من عقيدة تثبط الهمم، وتجعل النفوس خائرة كأن تعتقد بالجبر، الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر من ثماره الجرأة والإقدام والشجاعة والبسالة والثبات، واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال ويجعل هذا الاعتقاد الصحيح الإنسان قوياً.

أيها الإخوة الكرام، عامل خامس من عوامل القوة: المؤمن يستمد قوته من إخوانه المؤمنين فهو يعتقد ويشعر ـ في وقت واحد ـ يعتقد ويشعر أنه لهم جميعاً، وأنهم جميعاً له، مجتمع المؤمنين أسرة واحدة، كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، المؤمن يعتقد أنه لكل المؤمنين وأن كل المؤمنين له، هذا الشعور الجماعي يبث الثقة بالنفس.

هؤلاء المؤمنون يعينوه إذا شهد، ويحفظونه إذا غاب، ويواسونه عند الشدة، ويؤنسونه عند الوحدة، يأخذون بيده إذا عثر، ويسندونه إذا خارت قواه.

لو أن ألف مؤمن كانوا في مكان ما، هؤلاء الألف يعيشون جميعاً في نفس كل واحد منهم كما يعيش الواحد فيهم جميعاً حباً وحرصاً ما الذي يحصل ؟.. أن هؤلاء الألف هم في الحقيقة مليون، ألف ألف..

ورد أن واحداً من الناس كألف، وأن ألفاً كأف..

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:

((لن تُغلب أمتي من اثني عشر ألف من قلة))

والمسلمون يعدون اليوم ملياراً ومئتا مليون وليست كلمتهم هي العليا.

أيها الإخوة الكرام، إن إيمان المؤمن بالحق الذي لا يتغير، وبالله الذي لا يُغلب وبالخلود الذي لا ينقطع، وبالقدر الذي لا يتحول، وبالأخوة الصادقة، هذا الإيمان هو مصادر قوة المؤمن المادية والمعنوية، وعلى قدر رصيد المؤمن من الإيمان يكون نصيبه من تلك القوة، نرى ذلك بارزاً في أرجح المؤمنين إيماناً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا الصديق رضي الله عنه وأرضاه، تمثلت قوته في مواقف جعلت سيدنا عمر الجبار الشديد يقول: " والله لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح ".

توفي رسول الله.. لأنه بشر، هذا الخبر أذهل الأمة، أخرج الأمة عن وعيها وعن توازنها، حتى قال عمر عملاق الإسلام، من قال إن محمداً قد مات، ضربت عنقه بسيفي.

سيدنا الصديق بوقار مذهل، وقف وقال: أيها الإخوة قبل أن أقول قولته ما من إنسان أحب إنساناً على وجه الأرض كما أحب الصديق رسول الله، ولكن هذا الحب العارم، ولكن هذا الحب الشديد، ولكن هذا الحب المخلص لم يخرجه عن التوحيد، قال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت..

هذا الصديق الوفي، هذا الصاحب، هذا الخليل فصل الحب عن التوحيد من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا عليهم قوله تعالى وكأن لم يستمعوا إلى هذا القول إطلاقاً:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤))

[سورة آل عمران]

ودخل عليه وقبله، وقال له: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً..

والمسلمون بعد وفاة رسول الله كما قالت السيدة عائشة، كالغنم في الليلة المطيرة، حتى قال بعض المسلمين لأبي بكر، ارتدت العرب عن الإسلام، وظهرت الفتن في الجزيرة، وادعى أناس النبوة، واضطربت الأحوال، حتى قال بعض المسلمين لأبي بكر رضي الله عنه: يا خليفة رسول الله لا طاقة لك بحرب العرب جميعاً، الزم بيتك، وأغلق بابك واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

ولكن هذا الرجل الخاشع، البكّاء، الرقيق كالنسيم، اللين كالحرير الرحيم كقلب الأم، ينقلب في لحظات إلى رجل ثائر كالبحر، زائر كالليث، يصيح في وجه عمر: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، أجبار في الجاهلية، خوار في الإسلام ؟.. لقد تمَّ الوحي واكتمل، أفينتقص وأنا حي، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ما استمسك السيف بيدي.. هذا الرجل الوديع، اللطيف الحيي، الصامت، الذي يُرى ضعيفاً مستضعفاً بإيمانه كان أقوى مسلم بعد رسول الله.

أيها الإخوة الكرام، إذا كنت مع الله فأنت الغني إذا كنت مع الله فأنت العزيز، ليس بينك وبين أن تكون قوياً إلا أن تطيع الله فيما أمر، وإلا أن تتوكل عليه ؛ لأنه يحب المتوكلين، وإلا أن تعتز به، الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله.

أيها الإخوة الكرام للموضوع بقية.

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، طبيعة الإنسان أنه ضعيف، قال تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (٢٨))

[سورة النساء]

لأن الله لو خلقه قوياً لاستغنى بقوته عن الله، وحينما يستغني بقوته عن الله يشقى باستغنائه، خلقه ضعيفا ليفتقر إلى الله في ضعفه فيسعد بافتقاره، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

[سورة المعارج]

تعريف الهلوع: إذا مسه الشر كان جزوعاً، وإذا مسه الخير كان منوعاً.

إلا المصلين..

المصلي ليس هلوعاً، ولا جزوعاً، ولا منوعاً ؛ لأنه استمد القوة من الله، من دون أن تتصل بالله فأنت ضعيف، وأنت هلوع، وأنت جزوع، وأنت منوع، هذا شأن الإنسان، أي إنسان في أي مكان وزمان، إن الإنسان.. الإنسان قبل أن يعرف الله، قبل أن يتصل به قبل أن يستمد منه القوة، إن الإنسان خُلق هلوعاً، شديد الخوف تخور قواه لأدنى تهديد، ينهار لأدنى ضغط، إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين، هؤلاء الذين اتصلوا بالله عز وجل استمدوا منه القوة، استمدوا منه الشجاعة، والثبات، ما من وقت المسلمون في أمسِّ الحاجة إلى هذه المعاني كهذه الأيام، التي يتغطرس فيها العدو ويستعلي ما من وقت نحن في أشد الحاجة إلى معاني القوة من هذه الأوقات.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦١٠ : قوة المؤمن٢ (ثمار القوة في حياة المؤمن) ، خ٢ - ليس كل مصل يصلي.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٤-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في الخطبة السابقة تحدثت عن أسباب القوة في المؤمن، المؤمن قوي بالله، غني بالله، عالم بالله، أسباب قوته بالله أنه آمن بوحدانيته، وأنه آمن بالقدر، وأنه آمن بالخلود، وأنه آمن بالحق وأنه آمن بالخير والأخوة الإيمانية.

واليوم نتحدث عن ثمار هذه القوة في حياة المؤمن، حينما يؤمن المؤمن بالله عز وجل، ويؤمن بأنه على حق، ويؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى، ويؤمن بالخلود وبالحياة الآخرة، ويؤمن بالأخوة الإنسانية، ما الثمار اليانعة التي يقطفها من هذا الشعور الذي يفتقر إليه المؤمنون حينما يقصرون في حقِّ ربِّهم، وفي أداء عباداتهم وفي استقامتهم على أمر ربهم.

أيها الإخوة الكرام، أول هذه الثمار أن المؤمن يلتزم بالحق مع القريب والبعيد، يصدق في كل حال، يعدل في كل حين، يعترف بالخطأ إذا زلت به قدمه غير جاحد ولا مكابر، ولا يبرر خطأه بخطأ آخر، ولا يلقي التهمة على الآخرين، تهرباً من الاعتراف بالخطأ، يقول الحق ولو كان مرًّاً يقوم بالله شهيداً بالقسط ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين، يعدل مع العدو عدله مع الصديق، لا يعرف التحيُّز ولا المحاباة.

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢))

[سورة المائدة]

يجرمنكم: يحملنكم

شنآن: هو البغض

ومن هو العدو التقليدي للمؤمن ؟ إنَّه الكافر..

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢))

لا يخشى في الله لومة لائم، لا يحابي أحداً، لا يداهن أحداً ؛ لأنه آمن بالله، وآمن بالحق، وآمن بالدار الآخرة، وآمن بالخلود، وآمن بالأخوة الإيمانية، إذاً يلتزم الحق مع القريب والبعيد، سيدنا عمر أقام الحد على أحد أبنائه، وقال له: أخبر رسول الله أن أبي هو الذي أقام عليَّ الحد.

بلغ عمر بن عبد العزيز أنَّ ابناً له اشترى خاتماً فصه بألف درهم فبعث إليه يقول: أما بعد فقد بلغني أنك اشتريت خاتماً فصه بألف درهم، فإذا بلغك كتابي هذا فبعه، وأطعم بثمنه ألف جائع، واشتر خاتماً فصه من حديد، واكتب عليه رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

بعث النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة إلى خيبر ليقوم بتقدير ثمر النخل فيها، إذا كان للمسلمين النصف، والنصف لأهل خيبر، قام عبد الله بالمهمة، وقال في هذا كذا، وفي هذا كذا فجمع اليهود له حلياً من حلي نسائهم، وقالوا له هذا لك، وخفف عنا في القسمة، وتجاوز، فقال يا معشر اليهود، جئتكم من عند أحبِّ الخلق إلي، ولأنتم عندي أبغض خلق الله إلي، وما ذلك بحاملي على أن أحيف عليكم، أما الذي عرضتم له من الرشوة فإنها سحت، وإنا لا نأكلها، فلم يملك اليهود إلا أن قالوا، بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

أيها الإخوة الكرام، من ثمار القوة في حياة المؤمن أنه يلتزم الحق، ولا يحيد عنه، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

ومن مظاهر هذه القوة في حياة المؤمن شجاعته في مواطن البأس وثباته في موضع الشدة، لا تتزلزل له قدم، ولا يتزعزع له ركن ولا يخشى الناس، قلوا أو كثروا، ولا يبالي بالأعداء أرغوا وأزبدوا انسدت أبواب الخوف كلها على نفسه فلم يعد يخاف إلا من ذنبه ومن سخط ربه.

وفي الحديث الصحيح:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

[وكيع في الغرر، والدينوري، حل، ونصر في الحجة، وابن عبد البر في العلم]

فالمؤمن الذي اتصل بالله عز وجل انسدت عليه أبواب الخوف والشيطان هو الذي يخوف أعداءه، قال تعالى:

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥))

[سورة آل عمران]

إذا قيل له إن الأعداء أكثر عدد، يتلو قوله تعالى:

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

قالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩))

[سورة البقرة]

وإذا قيل له إن الأعداء أكثر أموالاً، تلا قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦))

[سورة الأنفال]

وإن قيل له إن الأعداء يمكرون ويكيدون، تلا قوله تعالى:

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤))

[سورة آل عمران]

إن قيل له إنَّ الأعداء أمنع حصوناً، تلا قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢))

[سورة الحشر]

إنَّ المؤمن القوي يسير بمعونة الله، وينظر بنور الله، ويرمي بقوة الله قال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧))

[سورة الأنفال]

أيها الإخوة الكرام، لقد كان خصوم المؤمنين ينظرون إلى الروح العالية التي يتمتع بها المسلمون فينازلون العدو الكثير هم قليل، يتحدون السلاح والاستعداد والقوى غير المتكافئة بل غير المتقاربة، فيظنون بهذا غروراً بالمسلمين وما هو بالغرور وإنَّما هي قوة الإيمان بالله والتوكل عليه قال تعالى:

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (١٢))

[سورة الأحزاب]

أيها الإخوة الكرام، ما أحوجنا إلى هذه المعاني وعدونا يتغطرس علينا، ما أحوجنا إلى هذه المعاني وشعورنا بأننا أقل من غيرنا شعور مدمر.

من ثمار هذه القوة: الإخلاص في القول والعمل والنية لوجه الله تعالى.

ترى المؤمن يعمل الخير ويقاوم الشر، وإن لم يكن له نفع مادي إن له هدفاً كبيراً، إنه يسعى لمبدأ عظيم، إنَّ منظومة من القيم تنظم حركته في الحياة، إنَّه يعمل الخير في كل وقت، وفي أي مكان وفي أي زمان، إنَّه يدعو إلى الله، إنَّه ينصر الحق، إنَّه ينصر الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام، ليس له هوى شخصي يحققه، ولا يسعى إلا شهوة ليمارسها، ولا إلى محمدة ليدغدغ أحلامه بها، ولا يسعى إلا رضى الناس فإنَّ رضى الناس غاية لا تدرك، يؤثر الخفاء على الشهرة، لا يستجدي المديح، لا يذل من أجل أن يُمدح، يؤثر الخفاء على الشهرة، ويؤثر عمل السر على عمل العلانية، تجنباً للرِّياء، وبعداً للنفس عن مزالق الشرك الخفي متمنياً أن يكون ممن يحبهم الله عز وجل من الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا حضروا لم يُعرفوا، وإذا غابوا لم يُفتدوا.

يحاول المؤمن أن يكون كالجذر من الشجرة، يمدها بالغذاء وهو في باطن الأرض لا تراه العيون، يحاول أن يكون كالأساس في البنيان يختفي في الأعماق وهو الذي يمسك البناء من أن يزول.
أيها الاخوة الكرام، الناس كلهم ضعاف والله وحده هو القوي، إذا أخلص الإنسان لله وافتقر إليه، واستقام على أمره، أمده الله بقوة منه، وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك.
الإنسان ـ أيها الإخوة ـ إذا أخلص لربِّه أشد الإخلاص كان أشد قوةً من الجبال المرساة في الأرض كالأوتاد، أشد من الحديد القوي الذي يقطع الجبال، كان أشد من النار المتأججة التي تذيب الحديد، كان أشد من الماء المتدفق الذي يطفئ النيران، كان أشد من الريح العاصف الذي يسوق المياه.
أيها الإخوة الكرام، من مظاهر قوة المؤمن وضوح خطته، واستقامة طريقته، وثباته عليها لا يغريه وعد، ولا يثنيه وعيد، لا ينحرف به طمع متسلط، ولا هوى جائر، ولا شهوةٍ طاغية، هو دائماً داعٍ إلى الخير ثائر على الشر آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر، هادٍ إلى الحق والعدل مقاوم للمنكر والظلم يغير المنكر بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.
من مظاهر قوة المؤمن التحرر من الخوف، فلا شيء يضعف الإنسان كالخوف، وكحرصه على الحياة، وإن تكن ذليلة، المؤمن قوي بالله دائماً وأبداً، لا يخاف إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربَّه، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

[سورة هود]

سرُّ قوته توحيده ؛ لأنَّه يعلم علم اليقين، أنَّ الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وإن اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وأن الله سبحانه وتعالى بيده مقاليد السماوات والأرض، وإليه يُرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، مالكم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً.

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠))

[سورة الفتح]

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧))

[سورة الأنفال]

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢))

[سورة فاطر]

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣))

[سورة الشعراء]

يا أيها الإخوة الأكارم، أن تؤمن بأنَّ الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض هذا إيمان لا يرقى بك إلى أن تتصل به وأن تسعد بقربه، لكنك إذا آمنت بأن الأمر كله بيد الله، وأنه لا معطي ولا مانع، ولا رافع ولا خافض، ولا معز ولا مذل، ولا مغني ولا مفقر، إذا آمنت أن الله بيده كل شيء وأنه هو الفعَّال الذي يفعل ما يشاء، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، إن آمنت هذا الإيمان حملك هذا الإيمان على أن تستقيم على أمر الله، لذلك ورد في القرآن الكريم:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

[سورة الطلاق آية ١٢]

إن أيقنت أنَّ الله على كل شيء قدير، وأنَّ الله قد أحاط بكل شيء علماً إن آمنت أنّ علم الله يطولك، وأنَّ قدرته تطولك، وأنَّه لا إله غيره عندئذ استقمت على أمره، وسعدت بهذه الاستقامة، وأقبلت على الله رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، هذا شأن الإيمان إذا كان عميقاً في النفس، هذا شأن الإيمان إذا كان عميقاً في النفس، هذا شأن الإيمان إذا كان قوياً على النفس، هذا شأن الإيمان إذ يمد صاحبه بيقين لا يضعف، وهمة لا تنثني، ويمده بأمل لا يخبو، بدافع لا يتوقف، بعزم لا يخور، المؤمن الذي اتصل بالله، واستمد منه القوة يملك الدنيا، ولكنها لا تملكها، يجمع المال ولكنه لا يستعبده، تحيط به النعمة ولكنها لا تُبْطره، ينزل به البلاء ولكن لا يقهره، لا تزيده الشدائد إلا عزيمة مع عزيمته، وقوةً مع قوته كالذهب الأصيل، لا تزيده النار إلا نقاءً وصفاءً، هذا التاريخ الإسلامي انظروا إليه، اقرؤوا صفحاته المشرقة، من كان يصدق أن مجموعة قليلة العدد ضئيلة العدد، من جزيرة العرب، لم يكن لها فلسفة اليونان، ولا مدنية الرومان، ولا حكمة الهند، ولا صنعة الصين، تملك الدنيا، وترث ملك الأكاسرة، وتحطم إمبراطورية القياصرة، وتنشر ديناً جديداً وحضارة جديدة في الآفاق في أقل من

ربع قرن، هذا شيء يشبه المعجزة وقد وقعت، وربَّنا هو هوَ، إلههم إلهنا، وربَّهم ربّنا، وخالقهم خالقنا، وكتابهم كتابنا، دينهم ديننا..

أيها الإخوة الكرام، لابد من الصلح مع الله، لابد من أن نقيم الإسلام في بيوتنا، لابد من أن نقيم الإسلام في أعمالنا، أقم الإسلام فيما تملك، يكفك الله فيما تملك قال تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

[سورة الرعد]

الخلاص في طاعة الله، الخلاص في الإقبال عليه، في الصلح معه، في العودة إليه، في الإنابة إليه، وإلا هناك محن كثيرة، وبلاء كبير وفتن يتبع أولها آخرها.

أيها الإخوة، الإيمان هو الذي جعل القلة تنتصر على الكثرة، والأميين يغلبون المتحضرين، هو الذي دفع العرب البداة، ويقينهم في قلوبهم ومصاحفهم في يد، وسيوفهم في يد أخرى، ومساكنهم على ظهور خيولهم، يقولون لملوك الفرس، وأباطرة الرومان: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.

أيها الإخوة الكرام،

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥))

[سورة النور]

نخشى أن يكون قول الله عز وجل قد انطبق علينا:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (٥٩))

[سورة مريم]

أقيموا أمر الله، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣))

[سورة الأنفال]

قال علماء التفسير أنت فيهم: أي سنتك مطبقة في حياتهم، فهل بيوتنا وهل أعمالنا، وهل تجارتنا، وهل حركاتنا، وسكناتنا، هل احتفالاتنا هل نشاطاتنا وفق سنة رسول الله، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣))

هل يستغفر الإنسان ربَّه إذا أخطأ، هل يرجع إليه، من صفات المؤمن أنه أوَّاب، صيغة مبالغة، أي كثير التوبة، يرجع إلى الله دائماً.

أيها الإخوة الكرام، إذا كان الزمن قد تغيَّر على المسلمين فانكمشوا بعد امتداد، ووهنوا بعد قوة فلأن الإيمان لم يعد مسيطراً على أنفسهم، ولم يعد الموجه لأخلاقهم وسلوكهم، لقد أصبح إيمانهم إيماناً جغرافياً، بحكم ولادتهم في بلاد المسلمين كانوا مسلمين، وأصبح إيمانهم إيماناً وراثياً يأخذونه عن آبائهم كما يرثون الدور والعقارات، أصبح إيمانهم مخدراً نائماً لا تأثير له ولا حيوية، يقول عليه الصلاة والسلام، وهذا الحديث من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)).

[أخرجه أحمد وأبو داود]

هذا مبعث الوهن الحقيقي، هذا سرُّ الضعف الأصيل أن يخلد الإنسان إلى دنياه الخاصة يعيش عبداً لها مطواعاً، يعيش عبداً لأوضاعها الرتيبة أسيراً لقيودها الثقيلة، تحركه الشهوات كالخاتم في الإصبع تسيِّره الرَّغائب كالثور في الساقية، يتحرك في مدار محدود فاقد الهدف معصوب العينين. إنّ كراهية الموت هي التي تجعل الأفراد والجماعات يؤثرون حياةً ذليلة على موتٍ كريم، يؤثرون حياةً يموت الإنسان فيها الإنسان كل يوم موتات على موت يحيون بعدها حياة القلوب.

أيها الإخوة الكرام، هناك أناس يتمسَّحون بالدِّين، يدعون الانتساب إليه، يبدوا عليهم الضعف والتماوت، والتخشُّع والتذلُّل، والدُّبول، والحقيقة أن الإيمان بريء من هؤلاء، رأى عمر رضي الله عنه وهو عملاق الإسلام رجلاً متماوتاً في الصلاة، مطأطئاً رقبته، مبدياً التذلل والتخشع فعلاه في الدرة، فقال يا هذا لا تموت علينا ديننا أماتك الله، ارفع رأسك فإن الخشوع في القلوب لا في الرقاب، وكان من أدعية هذا الصحابي الجليل:

اللهم إني أعوذ بك من خشوع النِّفاق، قيل وما خشوع النِّفاق، قيل أن يرى البدن خاشعاً، والقلب ليس بخاشع.

مرةً سمع رجلاً في أثناء الطواف يرفع صوته ويقول، من صاحب هذه اللوزة، رأى لوزة، فقال عمر رضي الله عنه: كلها يا صاحب الورع الكاذب.

تتحدث السيدة عائشة عن هذا الخليفة العظيم، كانت تقول: رحم الله عمر، ما رأيت أزهد منه، كان إذا قال أسمع، وإذا أطعم أشبع وإذا سار أسرع، وإذا ضرب أوجع.

أيها الإخوة الكرام، أردت من هذه الخطبة أن أبين لكم أن الإنسان عليه ألا يضعف أمام عدو متغطرس، عليه أن يشعر أن المؤمن قوي، وأن المؤمن وعده الله وعوداً رائعة، فلو أدى ما عليه لطالب الله بما له، ألم تسمعوا أيها الإخوة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان معاذ رديفه على الدابة قال: يا معاذ ما حق الله على عباده، قال: الله ورسوله أعلم، ثم سأله ثانية، يا معاذ ما حق الله على عباده ؟ قال: الله ورسوله أعلم، ثم سأله ثالثة، يا معاذ ما حق الله على عباده ؟ فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يا معاذ حق الله على عباده أن يعبدوه وأن لا يشركوا به شيئاً، ثم سأله ثانية، يا معاذ ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه قال الله ورسوله أعلم، سأله ثانية وثالثة ثم قال له، يا معاذ حق العباد على الله إذا هم عبدوه أن لا يعذبهم.

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد]

لقد أنشأ الله للمؤمن الذي يعبده حقاً عليه، وهو أن لا يعذبه.

أيها الإخوة الكرام، إن آمنت أن الأمر كله بيد الله، وأن الله وحده هو الفعَّال، وأن الأمر راجع إليه، عندئذ ليس عليك إلا أن تطيعه، فإن أطعته لك عليه حق طالبه به، اللهم انصرنا كما وعدتنا.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، من الآثار القدسية التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله متحدثاً عن ربه:

ليس كل مصل يصلي.. هناك عبادات تعاملية، وهناك عبادات شعائرية، حينما تصح العبادات التعاملية عندئذ نقطف ثمار العبادات الشعائرية، ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي.. لابد من أن نعرف الله، من خلال آياته الكونية والتكوينية والقرآنية، لابد من أن نعظمه، لابد من أن نقدره حق قدره، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧))

[سورة الزمر]

ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي إنَّما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي

لابد من أن نستقيم على أمره، لابد من أن نعرفه وأن نستقيم على أمره، وهذا جوهر الدين.

((ولم يصرَّ على معصيتي)) المؤمن كثير التوبة، أواب إلى الله.

((ولم يصرَّ على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب))

.. له أعمال طيبة ترقى به إلى الله، طاعته لله تعافيه من كل بلاء، بالطاعة يسلم، وبالعمل الصالح يسعد والسلامة والسعادة مطلبان ثابتان لكل مؤمن.

((ولم يصرَّ على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي))

هذا هو الإخلاص،

((وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس))

.. الصلاة نور يقذف الله في قلبه النور، فيرى الخير خيراً والشرَّ شرّاً، ويرى الحق حقاً والباطل باطلاً..

((وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً))

كل الصفات الذميمة، كل أدران النفس تُمحى، تحلُّ محلها الفضائل،

((على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، أكلؤه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يُمس ثمرها، ولا يتغير حاله))

نحرص أشد الحرص على قطف ثمار الدين، وثمار الدين هذه الطمأنينة، وهذا الإحساس بالتفوق، وهذا الشعور بالقوة، وهذا الشعور بالأمن:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢))

[سورة الأنعام]

هذه الثمار نقطفها إذا عرفنا الله، وإذا استقمنا على أمره..

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦١١ : ثمار الإيمان (الرحمة).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٤-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: موضوع الخطبة اليوم، الرحمة أثر من آثار الإيمان، تبدو جلية واضحة في المجتمع الإسلامي.

الإنسان ـ أيها الإخوة ـ من غير قلب رحيم، أشبه بالآلة الصماء والحجر الصلد، حقيقة الإنسان ليست في هذا الغلاف الطيني، من لحم ودم وعظم، إنما هي تلك اللطيفة الربانية، والجوهرة الروحية، التي بها يحسُّ ويشعر، وينفعل، ويتأثر، ويتألم ويرحم، إنها القلب، ليس الإنسان جسماً بعضه القلب، ولكنَّ الإنسان قلب غلافه الجسم، حينما قالوا المرء بأصغريه ؛ قلبه ولسانه، رفعوا من شأن اللسان إذ قرنوه بالقلب، ووضعوا من قيمة القلب إذ قرنوه باللسان.

إن القلب به يعقل الإنسان، قال تعالى:

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩))

[سورة الأعراف]

إن القلب ليقرأ ما رسمه الله على السماء والأرض، ولا يسمح منها للسان إلا بالقليل القليل، لعلك ـ أيها الأخ الكريم ـ إن فتشت عن أعجب ما خلق الله في السماء والأرض، لن تجد أعجب ولا أروع ولا أدق ولا أجمل من قلب الإنسان.. تصلح أوتاره، فيفيض رحمة، وشفقة، وحباً وحناناً، ومعاني لطافاً، وشعوراً رقيقاً، حتى يتجاوز في سموه الملائكة المقربين، وتفسد أوتاره، فينضح قسوةً، ولؤماً، وسوءً، حتى يهوي بصاحبه إلى أسفل سافلين.

هذا القلب الصغير، قلب النفس، حوى على دقته كنه العالم، فما أدقه وما أجله، وما أصغره وما أعظمه، يكبر القلب لا نرى كبره فيتضاءل أمامه كل كبير، ويصغر القلب ولا نرى صغره، فيتعاظم عليه كل حقير اتحد شكل القلب، واختلفت معانيه.. قلب كالجوهر الكريم صفا لونه وراق ماؤه، وقلب كالصخر، قوي متين، ينفع ولا يلمع، وقلب هواء خفّ وزنه، وحال لونه، وقلب، مما لا يحصيها إلا خالقها.

يموت القلب، ثم يحيى، ويحيى ثم يموت، ويرتفع إلى الأوج ويهبط إلى الحضيض، وبينما يساوي النجوم رفعة، إذا به يلامس القاع ضعة إن من وجد كل شيء، وفقد قلبه لم يجد شيئاً، وأن من جُرد من قلبه لا ينطوي على إيمان، ولا يعرف صداقةً، ولا أخوةً، ولا رحمة، ولا يشعر بحنان.

من أدق خصائص المؤمن، الرحمة، ومن أبرز صفات الكافر، قسوة القلب، ربنا سبحانه تعالى يقول:

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢))

[سورة الزمر]

من أدق صفات المؤمن رحمة استقرت في قلبه، يقول الله عز وجل يصف النبي صلى الله عليه وسلم، يقول:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

[سورة آل عمران]

أي بسبب رحمة استقرت في قلبك، لنت لهم، كنت ليناً، كنت رحيماً كنت عطوفاً، كنت مسامحاً.. اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، كذبوه في الطائف، وسخروا منه، وأغروا سفهاءهم أن يضربوه، وجاءه جبريل، وقال: أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، فقال: اللهم اهد قومي إنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده.

من أخص أوصاف المؤمن، أنه يتميز بقلب حي، مرهف لين رحيم يتجاوب مع الأحداث والأشخاص، هذا القلب يرق للضعيف، ويألم للحزين، ويحنو على المسكين، ويمدُّ يده إلى الملهوف، بهذا القلب الرحيم، ينفر من إيذاء الآخرين، وينبو عن إيقاع الأذى بهم، هذا القلب الرحيم يصبح مصدر خير وبرٍّ وسلام، لما حوله، ولمن حوله.

المؤمن إنسان ذو قلب رحيم، لأن مثله الأعلى أن يكون له حظ من أسماء الله الحسنى، ولعل اسم الله الأعظم هو الرحمن، فرحمته وسعت كل شيء، وشملت المؤمن والكافر، والبر والفاجر، واستوعبت الدنيا والآخرة، وقد قرّب النبي صلى الله عليه وسلم، لأصحابه هذا المعنى حينما رأى امرأة ترضع وليدها، فعَنْ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّه عَنْه:

((قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا ".))

[متفق عليه]

حتى إن أرحم الخلق بالخلق على الإطلاق، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد وصفه الله عز وجل فقال:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

جاءت كلمة الحرمة نكرة.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

أما حينما وصف ذاته العلية قال:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨))

[سورة الكهف]

في مائة وثلاث عشرة سورة، من القرآن الكريم، مفتتحة بسم الله الرحمن الرحيم، وأنت في الصلاة، تردد الرحمن الرحيم، أربع وثلاثين مرة، في اليوم والليلة، **بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين**، إذا بدأت الفاتحة بالبسملة، ترددها فوق السبعين مرة، ما معنى ذلك ؟..

أيها الإخوة الكرام: الإمام الغزالي يقول: **حظ المؤمن من هذا الاسم، الرحمن، أن يرحم عباد الله الغافلين، أن يصرفهم عن طريق الغفلة،** إلى الله جل جلاله بالموعظة الحسنة، وباللطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة نظرة رحمة، يعينهم على الشيطان، ولا يعين الشيطان عليهم.

وحظ العبد من اسم الرحيم، أن لا يدع فاقة لمحتاج، إلا ويسدها بقدر طاقته، ولا يدع فقيراً في جواره، أو في بلده، إلا ويقوم بتعهده، ودفع فقره، إما بماله، أو جاهه، أو الشفاعة إلى غيره، فإن عاجز عن جميع ذلك، يعينه بالدعاء، ويظهر الرحمة رقةً عليه وعطفاً.

من أخص خصائص المؤمن، هذه الرحمة التي تشع منه.

من لا يَرحم، لا يُرحم، يقول عليه الصلاة والسلام:

(("... وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وأحمد من حديث أسامة ابن زيد]

ويقول في حديث آخر: عن جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد]

وفي حديث ثالث، عنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الرّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السّمَاءِ الرّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللّهُ قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ".))

[أخرجه الترمذي وأبو داود]

وفي الحديث القدسي:

((" إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي ".))

إن أردت رحمة الله، التي هي عطاء الله، تبدأ من الماديات وتنتهي بالأحوال الراقية، إن أردت رحمة الله، فارحم عباد الله.

أيها الإخوة الكرام: دققوا فيما سأقول، رحمة المؤمن، لا تقتصر على إخوانه المؤمنين، وإن كان دافع الإيمان المشترك، يجعلهم أولى الناس بها إنما رحمته ينبوع يفيض على الناس جميعاً، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((" لن تؤمنوا حتى ترحموا، قالوا يا رسول الله، كلنا رحيم، قال عليه الصلاة والسلام: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة "))

كلٌ منّا يرحم أولاده، كلٌ منا يرحم من يلوذ به، كلٌ منا يرحم من أودع الله في فطرته رحمة له، أية أم على الإطلاق ترحم أولادها، أي أبٍ على الإطلاق ـ عدى فئة قليلة شاذة لا تنقض الحكم العام ـ أي أب يرحم أولاده ولكنّ رحمة المؤمن، هي رحمة عامة..

أيها الإخوة الكرام: قال عليه الصلاة والسلام:

((.. ولكنها رحمة عامة ".))

إن كنت في عمل، وفي هذا العمل أحد أولادك، وفي هذا العمل شابٌ غريب، فهل ترحم هذا الشابُ كما ترحم ابنك، إذاً أنت مؤمن، أما إذا خصصت ابنك بالرحمة، وقسوت على الغريب، ليست هذه الحرمة التي أرادها الله منك، وليست هذه الرحمة، التي ميزك الله بها على بقية العباد إنها رحمة عامة، أن ترحم الناس جميعاً.

رحمة المؤمن، تتجاوز الإنسان الناطق، إلى الحيوان الأعجم، فالمؤمن يرحمه، ويتقي الله فيه، ويعلم أنه مسؤول أمام ربه، عن هذه العجماوات، وقد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم، أن بغي سقت كلباً فغفر الله لها..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيِ اللّه عَنْه عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ قَالَ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ فَنَزَعَتْ خُفَّهَا فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد]

شرّاح الحديث، وقفوا عنده وقفة متأنية، سقته في الصحراء، لا أحد يعلم بها، إذاً عامل إظهار العمل الصالح، قد انتهى، بدت رحمة وبدا إخلاص، غفر الله لها.

وامرأة أخرى دخلت الناس في هرة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض..

لو أننا تصورنا إحساناً يشمل أكثر من الكلب العطش، لو أن الإنسان أحسن إلى خلق الله جميعاً، أحسن إليهم، دلهم على الله، مد لهم يد المساعدة خفف الآلام عنهم، وفق بين متخاصميهم، هذا الذي يفعل الخير، له عند الله مقام كبير، وهذا الذي يسيء إلى ما فوق الهرة، له حساب عند الله شديد.

((عن قُرّة بن إياس أَنّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ وَأَنَا أَرْحَمُهَا أَوْ قَالَ إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا فَقَالَ وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ ".))

[انفرد به أحمد]

رأى عمر رجلاً، يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال له رضي الله عنه **ويلك، قدها إلى الموت قوداً جميلاً..**

رأى النبي صلى الله عليه وسلم، رجلاً يذبح شاةً أمام أختها فقال عليه الصلاة والسلام:

((" هلا حجبتها عن أختها، أتريد أن تميتها مرتين".))

يروي المؤرخون، أن عمرو بن العاص، نزلت حمامة بفسطاطه (أي خميته) فاتخذت في أعلاه عشاً، وحين أراد عمر الرحيل رآها، فلم يشأ أن يهيجها بتقويض الخيمة، فترك الخيمة، وتكاثر العمران من حول هذه الخيمة، فكانت مدينة الفسطاطس.

وفي سيرة الخليفة الراشد، سيدنا عمر بن عبد العزيز، أنه نهى عن إجهاد الفرس إلا لحاجة، وألا يوضع عليها لجاماً ثقيلاً يرهقه، وألا ينخس الفرس بمنخسة في أسفلها حديدة، وكتب إلى واليه على مصر أن إبل النقالات، يُحمل عليها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا تحملوا عليها أكثر من ستمائة رطل.. هذه رحمة المؤمنين، هذه الرجمة الدافقة الشاملة أثر من آثار الإيمان في النفس والمجتمع..

سيدنا عمر، عملاق الإسلام، يقول: **لو يعلموا الناس ما في قلبي من الحرمة، لأخذوا عباءتي هذه.**

خاطب مرةً بطنه، قال: **قرقر أيها البطن أو لا تقرر، فوالله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية**

المسلمين.

كان إذا لقي أحد ولاته في الأمصار، كان أول سؤال يسأله، كيف الأسعار عندكم ؟

امتحن والياً مرةً، **فقال ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟.**

قال أقطع يده، قال: **إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك**، قال: **إن الله قد استخلفنا عن خلقه، لنسد جوعتهم ونوفر لهم حرفتهم، ونستر عورتهم، فإن وفينا لهم ذلك، تقاضيناهم شكرها إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة، قبل أن تغشلك بالمعصية.**

قال مرةً: **لو تعثرت بغلة في العراق، لحاسبني الله عنها، لمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر..** سيدنا عمر، كان مع عبد الرحمن ابن عوف، يتجولان في المدينة يتفقدان أحوال الرعية، فرأيا قافلة حطت في ظاهر المدينة، فقال عمر لعبد الرحمن رضي الله عنهما، تعال نحرس هذه القافلة، سمع غلاماً يبكي، فتوجه إلى أمه، وقال: أرضعيه، فبكى ثانية، فتوجه إلى أمه وقال: أرضعيه، بكى ثالثة فغضب.

توجه إلى أمه وقال لها: يا أمة السوء أرضعيه.

قالت هذه المرأة: وما شانك بنا ؟.. إنني أفطمه.

قال: ولمَ ؟

قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام..

يروي كتّاب السيرة، أن عمر ضرب رأسه وصرخ وقال: **ويحك يا ابن الخطاب، كم قتلت من أطفال المسلمين،** وحينما صلى الفجر، لم يستطع أصحابه، أن يسمعوا قراءته، من شدة بكائه، كان يقول: **ربِّ هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها.**

هذه الرحمة أثر من آثار الإيمان، في الفرد والمجتمع.

سيدنا الصديق، الذي ما طلعت شمس بعد نبي أفضل منه، يودع جيش أسامة ابن زيد، ويقول: **لا تقتلوا امرأة، ولا شيخاً، ولا طفلاً ولا تعقروا نخلاً، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً، وستجدون رجالاً فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..**

أحد كتاب التاريخ يقول: **ما عرف التاريخ فاتحاً، أرحم من العرب.**

إذا تراحمنا رحمنا الله عز وجل، أما إذا كنا قساةً على بعضنا، معنى ذلك أن الإيمان ضعيف جداً، وأننا بعيدون عن منهج ربنا.

المجتمع المسلم، تسوده عواطف كريمة، ومشاعر نبيلة، كلها تفيض بالرقة والرحمة، وتتدفق بالبرِّ والخير، بدافع الرحمة التي قُذفت في قلوب المؤمنين، من خلال اتصالهم بالله عز وجل، ورغبة منهم، أن لا ينقطع عملهم الطيب بعد موتهم، فقد وقفوا أموالهم، أو بعضها على إطعام الجائع، وسقاية الضمآن وكسوة العريان، وإيواء الغريب وعلاج المريض، وتعليم الجاهل، ودفن الميت، وكفالة اليتم، وإعانة المحروم.

ورد في الحديث القدسي:

((" ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي وكف شهواته عن محارمي، ولم يصرّ على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي، إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه ويقسم عليه فأبرُه، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس، لا يُمسُ ثمرها، ولا يتغير حالها ".))

أمثلة تفصيلية من الرحمة التي كانت بين المسلمين، في العهود السابقة كان هناك وقف اسمه وقف الزبادي، أي غلامٍ، أو أي خادم كسر آنية ثمينة، ويخاف بطش سيده، يأخذ قطعة منها، ويعطيها لصاحب هذا الوقف، فيعطيه مكانها، إناءً كاملاً، لئلا تقع المشكلات في البيوت وفي المصانع.. وقف الكلاب الضالة، كان هناك وقف للكلاب الضالة التي لا تجد ما تأكل.

كان هناك وقف للأعراس، العروس والعريس الفقيرين، يذهبان إلى هذا الوقف، فيأخذان ألبسة جديدة، يتزينان بها يوم العرس.

كان هناك وقف الأزواج ؛ المرأة التي تُطلق، وليس لها مأوى، تأوي إلى هذا البيت، فيه كل حاجاتها الأساسية.

كان هناك وقف يؤنس المرضى، أصحاب الأصوات العذبة، كانوا يؤنسون المرضى طوال الليل، يتقاضون أجرةً من صاحب هذا الوقف.

كان هناك وقف لتطمين المريض، يقف اثنان أمام المريض، ذي المرض الخطير والعضال، يطمئنانه، يمثلا دور الممرض، ماذا قال الطبيب، وكيف طمأن الطبيب، هذه الرحمة التي كانت في قلوب المؤمنين، تفجرت على شكل أوقاف، ومن هنا سُميت وزارة الأوقاف الأوقاف الخيرية، حتى

إن ساحة الشهداء، مركز المدينة، كانت أرضاً موقوفة للدواب المريضة، تأكل وتشرب وتستريح.
هذه بعض أمثلة الرحمة، التي تفجر بها قلب المؤمن، في العهود السابقة إن لم نرحم لا نُرحم..

((" إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي ".))

الرحمة شعور طبيعي، يحوزه المسلم حينما يتصل بالله عز وجل اسـم الله الأعظم ـ عند بعض العلماء ـ هو الرحمن الرحيم، فإذا كنت رحيماً كنت قريباً من الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام:

لنجعل هذه المعاني واقعاً، لنترجم هذه المعاني إلى سلوك يومي..

((" ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.. ".))

المؤمنون كما وصفهم الله عز وجل:

((" أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ".))

[سورة المائدة]

أما إذا كانوا قساةً على بعضهم، لينين مع الآخرين، فهذه حالة مرضية عضالة، ينبغي أن نتراحم، ينبغي أن نتعاون، ينبغي أن نتضامن ينبغي أن نتناصح.

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((" وَجَبَتْ مَحَبّتِي لِلْمُتَحَابّين فِيّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيّ وَالْمُتَزَاوِرينَ فِيّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيّ، والمتحابون في جلالي على منابر من نور يغبطهم عليها الأنبياء يوم القيامة ".))

ملخص الخطبة ؛ المؤمن حينما يتصل بالله يشتق منه الرحمة فالرحمة التي في قلبه، علامة اتصاله بالله، وغير المؤمن، حينما ينقطع عن الله عز وجل، يصبح قلبه كالصخر الأصم، لا ينطوي على الرحمة فالرحمة مؤشر على اتصالك بالله، والقسوة دليل على انقطاع الإنسان عن الله عز وجل، من لا يرحم لا يُرحم..

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: مجلة علمية رصينة عرضة بحثاً عنوانه الضغوط العالية، وبدأت بتعريف وحدة الضغط هو الضغط الجوي الذي يساوي ألفاً وثلاثاً وثلاثين غراماً على السنتمتر مربع هو

وزن ستة وسبعين سنتمتر مكعب من الزئبق على مساحة سنتمتر واحد، هذا الضغط الجوي، هو وحدة قياس الضغط، الإنسان مساحة جسمه من متر إلى مترين، يتحمل ضغطاً فوقه من عشرة إلى عشرين طن دون أن يشعر، نحن جميعاً في قاع بحر ماؤه الهواء، فكل إنسان يحمل فوقه من عشرة إلى عشرين طن من الضغط الجوي، هذه وحدة الضغط.

العلماء قالوا، ضغط باطن الأرض ثلاثة آلاف وستمائة مليون ضغط جوي، وضغط باطن الشمس مائة بليون ضغط جوي، وهناك نجم نتروني كان بحجم الشمس فصار قطره أربعة عشر كيلوا متراً، ضغطه مليون مليون بليون ضغط جوي. هذه الضغوط العالية.

أقسى عنصر في الأرض مضغوط هو الألماس، مضغوط أربعة ملايين ضغط جوي، بل هو أكثر من ضغط مركز الأرض، لكن بعض الهيئات العلمية استطاعت أن تضغط الفحم العادي خمسة آلاف ضغط جو بحرارة ألفي درجة فجعلته ألماساً صناعياً، والألماس الصناعي الذي في الأسواق هو فحم ضُغط خمسة آلاف ضغط جوي بحرارة ألفين.

ثم اكتشف علماء الطب أن الأدوية السائلة أنفع من الأدوية المضغوطة لأن الضغط قد يؤثر على بنية المادة بعضها.

أيها الإخوة الكرام: حقيقة أضعها بين أيديكم نستفيد منها في الأمور النفسية: أكبر جوهرة في العالم ثمنها مائة وأربعين مليون دولار، لو جئت بفحمة في حجمها، ووازن بينهما، الضغوط العالية تحيل الفحم إلى ألماس.

المؤمن إذا آمن بالله وآمن برسوله وعاش لقضية كبرى وتمل ضغوطاً عالية أن هذه الضغوط تحيله إلى إنسان متألق.

فحم عادي لا تساوي القطعة منه قرشاً واحداً، بالضغوط العالية تصبح قطعة ألماس لا تقدر بثمن. الاسترخاء والاستجمام والانسياق وراء الشهوات واللذائذ هذه لا تصنع إيماناً، ولا تصنع بطولة ولا تصنع تفوقاً، ولكن الضغوط في سبيل الله هي التي تجعل الإنسان متألقاً، يمكن أن نستفيد من هذا المثل الفيزيائي في علاقاتنا مع الله عز وجل.

النبي عليه الصلاة والسلام عاش حياةً مفعمة بالضغوط هاجر وذاق كل شيء، وكلما ذاق شيئاً ازداد قرباً من الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦١٢ : الإيمان والعمل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٥-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: موضوع الخطبة اليوم ؛ الإيمان والعمل، لأن هناك أوهاماً، أشاعها الجهّال، أو أعداء الدين، من أن الإيمان بالله، وباليوم الآخر، يؤخر نوعية العمل، وحجم العمل، حينما يميت في النفس حب الحياة، وبما يلقيه في نفوس الناس، من أن الإنسان مسيّر لا مخيّر، وأن الحياة الدنيا لا تستحق العمل والاهتمام، هذه الأوهام أشاعها الجهّال بالدين، أو أشاعها أعداء الدين، والحقيقة عكس ذلك..

الإيمان ـ أيها الإخوة ـ أعظم دافع للعمل والإنتاج، لو تأمل الناس وأنصفوا، لوجدوا أن العمل لا يرقى ويزداد، إلا بما يبذل الناس من جهد وعمل، وما يصحب هذا العمل من إحكام وإتقان، ولا يتحقّق ذلك إلا في جوٍّ من الأمانة والإخلاص..

جهد وعمل، إحكام وإتقان، أمانة وإخلاص، هذا كله لا يكون إلا بباعث قوي، وحافز غلاّب، وهل هناك من باعث أقوى، ومن حافز أشد من الإيمان بالله، لذلك الإيمان بالله، أقوى حافز، وأشد باعث على العمل، وإتقانه، والإخلاص في عمله.

إن الإيمان الصادق، ليس مجردَ إدراك ذهني، أو تصديق قلبي، غير متبوع بأثر عملي في الحياة، إن الإيمان الحقيقي، اعتقاد، وعمل وإخلاص، أي ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن، حتى تُعبر هذه الحقيقة عن ذاتها بعمل، إياكم أن تتصوروا أن هناك إيماناً بلا عمل الحقيقة الإيمانية، يجسدها العمل، من هنا، قال عليه الصلاة والسلام:

((" ليس الإيمان بالتمنّي ولا بالتحلِّي، ولكنْ ما وقر في القلب وصدقه العمل ".))

هذا كلام سيد المرسلين..

أيها الإخوة الكرام: مهما اختلف العلماء في علاقة العمل بالإيمان، أهو جزء من الإيمان أم شرط له، أم ثمرة من ثمراته، إن العلماء متفقون جميعاً على أن العمل جزء لا يتجزأ من الإيمان الكامل..

تعالوا بنا إلى كتاب الله، ربنا سبحانه وتعالى ذكر الإيمان مقروناً بالعمل الصالح، في قريب من مئة آية:

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢))

(إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَأقامُوا الصّلَاةَ وَآتَوُا الزّكَاةَ لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٧٧))

[سورة البقرة ـ البقرة ـ النساء]

وكلمة عملوا الصالحات، عدّها المفسرون، كلمةً جامعة من جوامع القرآن الكريم، إذ أنها تشمل ما يصلح به الدين، وما تصلح به الدنيا وما يصلح به الفرد، وما يصلح به المجتمع، وما تصلح به المادة، وما تصلح به الروح..

(الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

وصف الله الأعمال بأنها صالحة، بمعنى أنها، تشمل الدين والدنيا، والفرد والمجتمع تشمل المادة والروح..

المؤمن الحق يندفع إلى العمل بحافز من نفسه، وباعث من ذاته وبإيحاء ينبعث من داخله، ولا يُساق إلى العمل سوق القطعان، ولا يدفعه إليه، قهر قوي، ولا ضغط خارجي، هذا الباعث الذاتي، هو الإيمان بالله، وبرسالة السماء، وبمهمة الإنسان في إعمار الأرض..

المؤمن يعمل..

إن المؤمن يعتقد ؛ أن السعادة في الآخرة، والنجاح في الدنيا موقوف على العمل، الجنّة في الآخرة ليست جزاءً لأهل البطالة، والكسل والفراغ، بل هي لأهل الجدِّ والعمل والإتقان، وهذا شاهد من كتاب الله دققوا في هذه الآية:

(وَتِلْكَ الْجَنّةُ الّتِي أورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢))

[سورة الزخرف]

لقد وقف البيان الإلهي، الموقف نفسه من المسلمين أنفسهم، الذين يتبعون أنفسهم هواها، ويتمنون على الله الأماني، ويظنون أن النُطق بكلمة الإسلام، أو التسمي بأسماء المسلمين، يكفي لتفتح له أبواب الجنان، فيبين لهم القرآن الكريم، أن قانون الجزاء عام لعباده قاطبة، لا محاباة عنده، ولا فرق بين طائفة وأخرى، يدعي كل أتباع دين أن الجنة لهم فنزلت آية محكمة، فاصلة قاضية، عادلة تخاطب المسلمين في صراحة ووضوح، قال تعالى:

(لَيْسَ بِأَمَانِيّكُمْ وَلَا أَمَانِيّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء]

يخاطب النبي ابنته العزيز، فاطمة، يقول لها:

((".. يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد والدارمي من حديث أبي هُرَيْرَةَ]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم..))

((" من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه.. "))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي من حديث أبي هُرَيْرَةَ]

هذا القانون، هذه الحقيقة الراسخة، تنطبق على الآخرة، كما أنها تنطبق على الدنيا، ربُّ الدنيا هو ربُّ الآخرة، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠))

[سورة الكهف آية ٣٠]

من كان عمله حسناً، هذا الإطلاق على إطلاقه، إنا لا نضيع أجره..

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(٧٤))

[سورة الزمر]

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨))

[سورة الزلزلة]

سنة الله ـ أيها الإخوة ـ لا تتبدل، ولا تتحول، ولا تسمح لفارغ أو قاعد، أو متبطل، أو كسول، أن يظفر بما يريد، أو أن يحقق ما يأمل بل إن سنن الله تعالى في الدنيا والآخرة، لا تفرق في الجزاء عن العمل بين إنسان وإنسان، فمن عمل أجر، ومن قعد حُرِم، ولو طبق إنسان ملحد منهج الله عز وجل، لقطف ثماره في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق..

منهج تفصيلي، منهج انطباق نتائجه على مقدماته حتمي.

أيها الإخوة الكرام: دعونا ننتقل إلى موضوع آخر، هو إتقان العمل..

المؤمن الحق لا يكتفي بالاندفاع إلى العمل، بل يهمه أن يجوده ويتقنه ويبذل جهده لإحسانه، وإحكامه، لشعوره العميق، واعتقاده الجازم أن الله يراقبه في عمله، ويراه في مصنعه، أو في مزرعته، أو في أي حال من أحواله.

أحد الصحابة توفي، فحضر النبي دفنه، الذي حفر القبر ترك فُرجة فقال عليه الصلاة والسلام:

((" إن هذه لا تؤذي الميت، ولكنها تؤذي الحي، إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه".))

فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان في العبادة، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، المؤمن الحق، يطبق هذا على أعماله كلها، هناك خلقان أصيلان، يتوقف عليهما جودة العمل؛ هما الأمانة والإخلاص.

العمل الذكي، يلتقي في نتائجه مع العمل الإيماني، لكنهما يختلفان عن بعضهما في البواعث.

سيدنا عمر أرسل والياً، وقال له: **خذ عهدك، وانصرف إلى عملك واعلم أنك مصروف رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك: إن وجدناك أميناً ضعيفاً، استبدلناك لضعفك، وسلمتك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً، استهنا بقوتك، وأحسنّا أدبك وأوجعنا ظهرك، وإن جمعت الجرمين، جعلنا عليك المضرتين، وإن وجدناك أميناً قوياً، زدناك في عملك، ورفعنا لك ذكرك، وأوطأنا لك عقبك.**

من أين استنبط هذا الخليفة العملاق هذه الحقيقة ؟.. من قوله تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦))

[سورة القصص]

الكفاءة والإخلاص، القوة والأمانة، شرطان أساسيان لنجاح العمل هذان الخلقان هما في المؤمن على أكمل صورة، وأروع مثال، قال تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥))

[سورة التوبة]

كثيراً ما نقرأ أو نشاهد، عن أجهزة وضعت للنفع العالم، توقفت على جدتها، وخُرّبت على متانتها، كثيراً ما نقرأ أو نسمع، عن مصالح تعطلت، ومشروعات نافعة فشلت، وجهوداً مخلصة تبعثرت، وأموالاً طائلة ضاعت، بسبب فقد الأمانة والإخلاص.. لا تستقيم الحياة إلا بالأمانة والإخلاص.

حينما بُعث النبي عليه الصلاة والسلام، قال عنه سيدنا جعفر لملك الحبشة: **" كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه".**

من منا يصدق ـ وهذا قلته كثيراً ـ إن عملك الذي تعمله، إن حرفتك التي تحترفها، إن مهنتك التي تمتهنها، تجارة، أو صناعة، أو زراعة أو وظيفة، أو خدمات، إن هذا العمل وحده، إذا كان في الأصل مشروعاً، وسلكت في حركتك فيه الطرق المشروعة، وأردت منه كفاية نفسك، وأهلك، وخدمة المسلمين، ولم يشغلك عن فريضة، ولا عن عمل صالح، هذا العمل الحرفي، المهني، الذي

ترتزق منه، إتقانه وأداؤه على وجه صالح، هو قربة من الله عز وجل، وهو عمل صالح يستحق صاحبه دخول الجنة.

من عوامل نجاح الأعمال عند المؤمنين، أن المؤمن الذي يتمتع بسكينة النفس، وطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، يتمتع ببسمة الأمل ونعمة الرّضا والأمن، وروح الحبّ والصّفاء، هذا الإنسان، بسكينة نفسه، وطمأنينة قلبه، وانشراح صدره، والأمل الذي يعمر قلبه والرّضا الذي يغمر فؤاده، والأمن الذي يتمتع به، والحبّ والصّفاء اللذان يشعّان منه، هذا الإنسان أقدر على العمل وعلى إتقانه من أي إنسان آخر، ولا سيما إذا كان شارداً عن منهج الله، مضطرباً، قلقاً، يائساً، حاقداً وهذا قلما يحسن عملاً يوكل إليه، أو ينتج إنتاجاً يقنع أو يرضي.

عامل آخر من عوامل نجاح المؤمن في أعماله، المؤمن الصادق الإيمان، يقف عند حدود الله، وينتهي عمّا نهاه الله، وينأى بنفسه عن ارتكاب الموبقات، والانغماس في أوحال المحرمات، وإرسال العنان إلى الشهوات، إن إيمانه يأبى عليه، أن يفرّغ طاقاته في سهر عابث أو لهو حرام، إيمانه يأبى عليه، أن يجري وراء كوب خمر، أو مائدة قمار، أو سهرة حمراء، لذلك، يظل المؤمن، محتفظاً بحيويته وطاقته الجسدية، والعصبية، والعقلية، والنفسية، فلا يصرفها إلا في العمل الصالح، وهذا كسب كبير، للفرد نفسه، ولأسرته، ولأولاده وللمجتمع الذي يعيش فيه، وللحياة الإنسانية عامة.

لو أحصينا بعض ما تستهلكه الشّهوات المحرّمة، والموبقات المحظورة، والملاهي الآثمة، التي يجتنبها المؤمنون الصّادقون، لو أحصينا ما تستهلك هذه البؤر الفاسدة، والأماكن الساقطة، من الطاقات الإنسانية، والمادية، لبلغت حداً هائلاً، يفوق ما تبتلعه الحروب المدمِّرة والأوبئة الفتاكة، والكوارث المخرّبة..

اثنان وسبعون مليون إنسان في أمريكا مدمنون على الخمر..

عشرين مليون من هؤلاء، يكلفون الدولة، بليوني دولار ضياعاً لأعمالهم، وإنفاقاً على علاجهم.. لو أن المجتمع كان نظيفاً، وكان مستقيماً، لوفرت هذه الطاقات وهذه الأموال، وهذه الجهود، لبناء أصرحته، وإنعاش أبنائه.

شيء آخر يعين على إتقان العمل، وتجويده، هو أن المؤمن يحسٌ بقيمة الوقت، إن الله سائل الإنسان يوم القيامة، يوم الجزاء ؛ عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه.. لذلك المؤمن الحق يضن بوقته، من أن يضيع في عبث، أو أن يُبعثر سداً، إن الوقت رأس مالك الوحيد، إن الوقت نعمة كبرى، يجب أن تُشكر بالانتفاع بها، وينبغي أن لا تُكفر بالتفريط فيها.

الزمن لهذا الإنسان الضعيف الذي هو في حقيقته زمن، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (٣))

[سورة العصر]

لذلك المؤمن الحق، لا يؤخر عمل اليوم إلى الغد، لأن للغد عملاً لا يتسع لغيره، المؤمن الحق، حريص على أن يكون يومه خيراً من أمسه وأن يكون غده خيراً من يومه، وأن يطيل حياته، بالعمل الصالح لأن النبي صلى الله عليه وسلم، يقول:

(("عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنّ أَعْرَابِيًّا قَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ مَنْ خَيْرُ النّاسِ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ ".))

[أخرجه الترمذي وأحمد]

المؤمن الحق حريص وهذا أدق ما في الخطبة، على أن يخلف من عنده علماً نافعاً، أو عملاً طيّباً، أو مشروعاً مثمراً، أو صدقة جارية أو ذرية صالحة، أبو الدرداء صابي جليل، رأوه وهو في أواخر حياته يغرس جوزةً، وهو في الشوط الأخير من حياته، فتعجبوا فقال: ومالي لا أغرسها ولي ثوابها، ولغيري ثمرها..

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسْلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا ".))

[انفرد به أحمد]

الإيمان يعني العمل، واليد العمل خير من اليد السفلى، والعمل عبادة بشروطه الدقيقة، أن يكون مشروعاً، وأن تمارسه بالأساليب المشروعة وأن تبتغي به كفاية نفسك وأهلك، وأن تنفع به المسلمين، وأن لا يشغلك عن طلب علم ولا عن أداء واجب، والحمد لله رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: كتاب علمي عنوانه الشفاء الذاتي، ألّفه عالم كبير وطبيب ماهر وقد ترجم إلى اللغة العربية ثم نشر ملخصه في مجلة شهرية، وها أنا ذا أقتطف لكم بعض الفقرات من ملخص الكتاب المترجم، وفي هذه الفقرات من الحقائق ما يدهش.

يقول مؤلف الكتاب، إن الترسانة الطبية دواءً وتقنيةً لا تمكِّن الأطباء من علاج أكثر من ربع الأمراض، وبقية الأمراض إما أن تشفى بنفسها أو لا علاج لها.

الحقيقة الثانية: لا يوجد طبيب لم ير أو يسمع عن حالات شفاء مرض عضال دون سببٍ طبي واضح، إن الشفاء الغامض لكثير من الأمراض المستعصية كان يحدث دوماً منذ أن وجد الطب، لكن الطب لم يتوقفْ عندها لأن بعضهم يرجعها لأسباب غير علمية، أو هي الحقيقة ترجع إلى رحمة الله بعباده، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآَخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥))

[سورة الشعراء]

الكتاب محوره الشفاء الذاتي.

ويقول هناك جهاز خاص للشفاء الذاتي لم تأتِ على ذكره فهارس كتب الطب أو قواميسه، وهناك حالات مرضية مستعصية شفيت بكل غامض ودون سبب واضح، من هذه الأجهزة التي أوكل إليها الشفاء الذاتي جهاز المناعة، يقول مؤلف الكتاب هو من الأجهزة الرائعة التي أبدعها الخالق، ليس لها مكان تشريحي ثابت، جهاز جوال وهو مبرمج ليتعرف على أية خلية غير خلايا الجسد غريبة عنه ليقوم بتدميرها وأهم ما في هذا الجهاز ذاكرته العجيبة، فهو لا ينسى أبداً أي سلاح واجه به عدواً من أمد طويل، ولولا هذه الذاكرة العجيبة لجهاز المناعة المكتسب ليس هناك فائدة إطلاقاً من التلقيح ضدّ الأمراض، هذه الخلايا خلايا جهاز المناعة، تصنع في نقي العظام وتعد إعداداً خاصاً وقوياً في الغدة الصعترية تحت عظمة الصدر، وكأن هذه الغدة معهد إعداد المصارعين هذه الخلايا هي خط الدفاع الأول في الجسم، كما تقوم هذه الخلايا بحماية الجسم من مرض السرطان ولعل هذا من أبرز خصائصها، وإن من هذه الخلايا ما هو خلايا مستطلعة تتعرف إلى الجرثوم أو إلى الخلية الغريبة تأخذ شِفرتها وتذهب بهذه الشفرة إلى الخلايا المصنعة كي تصنع سلاحاً مدمراً لها، وبعض هذه الخلايا تصنع الدواء المضاد أو المصل المضاد، وبعض هذه الخلايا خلايا مقاتلة تحمل هذا السلاح وتذهب إلى أرض المعركة لتقضي على هذا الجرثوم وبعض هذه الخلايا خلايا ملتهمة، هذه الخلايا يهاجمها فيروس الإيدز يدمِّرها لذلك أخطر مرض يصيب البشرية اليوم هذا المرض، الذي يسبب تدمير جهاز المناعة المكتسب الذي يحقق الشفاء الذاتي.

من أطرف وظائف هذه الخلايا، وهذه بشارة لمن يمتنع عن التدخين من وظائف هذه الخلايا للذي يمتنع عن التدخين أن بعضها يذهب إلى الرئتين ويلتهم بعض ما علق بالشعب الهوائية من آثاره وما علق بهما من شوائب التدخين.

والجديد في هذا الجهاز، أن هناك خلايا من مكونات جهاز المناعة المكتسب اكتشفت في أواخر السبعينات، قاتلة بالفطرة، بمعنى أنها تستطيع التعرف على الخلايا الشاذة قبل أن يبدأ شذوذها أو تلك التي تسبب ورماً.

إلا أن أخطر ما في الموضوع هذه الجملة، قال مؤلف الكتاب ثبت أن وراء جهاز المناعة قوةً خارج الجسم لا علاقة لها بالمناعة تشكله وتطوره وتأمره، القوة المسيطرة عليه لا من داخل الجسم بل من خارج الجسم ولا يعلم مؤلف الكتاب من هي هذه القوة، إنها الله.

والحقيقة العملية أن الاكتئاب والحزن والتوتر والشدة النفسية تضعف من قوة هذا الجهاز، وأن الأمل والحب والهدوء تقوي إمكانات هذا الجهاز لذلك الشرك بالله يضعف هذا الجهاز، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣))

[سورة الشعراء]

أما المؤمن:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣))

[سورة هود]

لو أن الناس اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو أنهم اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك.

التوحيد صحة، لأن الرضى والطمأنينة والأمن والثقة بالله والتفاؤل بالمستقبل هذا يقوي جهاز المناعة وجهاز المناعة هو الذي أوكل الله إليه الشفاء الذاتي، بينما القلق والخوف والحقد هذا يضعف جهاز المناعة وهذا الجهاز هو عصب صحة الإنسان.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦١٣ : الهجرة (الدروس المستفادة من الهجرة).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٥-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: تتميز حياة النبي صلى الله عليه وسلم عن حياة العظماء من القادة والمصلحين بان حياته صلى الله عليه وسلم، كل ما فيها من أقوال أو أفعال أو إقرار أو مواقف تُعد قدوةً وتشريعاً، حياة العظماء شيء وحياة الأنبياء شيء آخر.. فقد عصمه الله جل جلاله عن الخطأ في أقواله وفي أفعاله وفي مواقفه فهو لا ينطقُ عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى لذلك أمرنا الله جل جلاله بالأخذ عنه، قال تعالى:

(مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧))

[سورة الحشر]

وجعل إتباع النبي صلى الله عيه وسلم، وتطبيق سنته دليلا عمليا على محبة الله قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

[سورة آل عمران]

لهذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم مهمتان كبيرتان، مهمة التبليغ والتبيين، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧))

[سورة المائدة]

والمهمة الثانية أن يكون قدوة و أسوة للمسلمين من بعده، قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١))

[سورة الأحزاب]

إن الظروف التي أحاطت بالنبي صلى الله عليه وسلم، والأحداث التي واجهها، هي ظروفٌ وأحداثٌ، خُلقت وقُدرت بعنايةٍ تامةٍ وبحكمةٍ بالغة ؛ ليقف النبي صلى الله عليه وسلم منها الموقف الكامل، مشرعاً وقدوةً، لقف النبي منها، الموقف الكامل، الذي ينبغي إن يقفه الإنسان ليؤكد إنسانيته وليحقق غاية وجوده، إن هذه الظروف وتلك الأحداث من شأنها أنها تكرر، الفكرة دقيقة جداً، إن الظروف التي أحاطت بالنبي والأحداث التي واجهها، هي ظروف خُلقت وقدرت بعناية تامةٍ، ولحكمة بالغة ؛ ليقف النبي منها الموقف الكامل الذي ينبغي أن يقفه الإنسان ليؤكد إنسانيته، وليحقق

غاية وجوده، إن الظروف التي أحاطت بالنبي والأحداث من شأنها أنها تتكرر، بسبب أن طبيعة النفس واحدة، قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آَتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩))

[سورة الأعراف]

وبسبب أن معركة الحق والباطل، والخير والشر، والإيمان والكفر معركة قديمة، ومستمرة، وأن الإنسان هو الإنسان في أي زمان ومكان أنه يكرر نفسه في ارتفاعه وانحطاطه، في قوته وفي ضعفه، في إيمانه وفي كفره لذلك ؛ كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الظروف التي أحاطت به ومن الأحداث التي واجهته هو الموقف الذي يريدنا الله أن نقفه إذا أحاطت بنا مثل تلك الظروف وواجهتنا مثل تلك الأحداث.

إذاً الهجرة درس متكرر، درس ينبغي أن نستقي منه حقيقة، تعيننا على السلوك القويم، في أي مكان وزمان.

والإنسان فُطر على حب الأرض التي وجد فيها، والتعلق بالمعالم التي لابست نشأته، وحينما يُنتزع من بيئته التي ترعرع فيها ويخرج من أرضه التي أحبها، تتمزق نفسه ويعظم همُه، وربما آثر الموت على هذا الخروج الذي هو اقتلاع من جذوره، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً(٦٦))

[سورة النساء]

والإنسان فضلاً عن أنه متعلق بأرضه مُكلفٌ أن يعبد ربه، من خلال معرفته ومعرفة منهجه، ومن خلال أدائه فروض العبودية، من صيام وصلاة وحج ومن خلال التزامه بالأمر والنهي، ومن خلال الأعمال الصالحة التي هي ثمن سعادته في الآخرة الأبدية قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

[سورة الذاريات]

إذاً هو متعلق بالأرض، مُكلف بعبادة الله، ما الذي يحصل ؟..

والإنسان إذا وُجد في أرض حالت قوى الشر فيها بينه وبين أن يستجيب لنداء فطرته في عبادة ربه وحالت بينه وبين أن يصغيَ لصوت العقل في تطبيق منهج خالقه، وهو من الضعف بحيث لا يستطيع أن يقنع هذه القوى بالكف عنه ولا أن يقف في وجهها فيلزمها ماذا يفعل ؟.. مفطور على حب أرضه، مُكلف بعبادة ربه.

لو أن الظرف الذي أحاط بالنبي تكرر، وجد الإنسان بأرض حالت قوى الشر فيها بنيه وبين أن يستجيب لفطرته في عبادة ربه، وأن يصغي إلى صوت العقل في تطبيق منهج خالقه، لا يستطيع أن يقنع هذه القوى بالكف عنه ولا أن يقف في وجهها فيلزمها ماذا يفعل ؟..

أيخسر سعادته الأبدية من أجل النوازع الأرضية ؟.. قال تعالى ودققوا في هذه الآية ؛

(إِنّ الّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرّجَالِ وَالنّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً (٩٩))

[سورة النساء]

هذا هو الجواب، إذن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لذلك أرقى أنواع السفر، سفر طلب العلم، وسفر الفرار بالدين، وسفر كسب الرزق.

هذا أصل الهجرة، إذا حالت قوى الشر بينك وبين أن تعبد الله، وأنت مستضعف، ينبغي أن تحقق سعادتك الأبدية في عبادة ربك، في أي مكان.

تُعَلِمنا الهجرة أولاً: إن الإنسان إذا تنازعت فيه النوازع الأرضية والنداءات السماوية، عليه أن يُؤثِر الجانبَ الأسمى والأبقى فلا أحدٌ يستطيع أن ينجيه من عذاب الله ولا عذر له فيما يرديه.

إن الهجرة في حقيقتها موقفٌ نفسي قبل أن تكون رحلة جسدية، إنها هجران للباطل وانتماء للحق، إنها ابتعاد عن المنكرات، وفعل للخيرات إنها ترك للمعاصي، وانهماك في الطاعات، ثم إنها فضلاً عن ذلك انتقالٌ من دار الكفر إلى دار الإسلام، قال علية السلام فيما رواه الإمام البخاري ومسلم، عن بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

عن عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللّه عَنْهمَا عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللّهُ عَنْهُ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وأحمد والدارمي]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ".))

[أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد]

يا أيها الإخوة الكرام: إذا كان باب الهجرة من مكة إلى المدينة، قد أُغلق بعد الفتح، عن عبد الله بن عباس رضي اللّه عَنْهمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدرامي]

فان باب الهجرة مفتوحٌ، بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة زمن الهجرة، بل إن أبواب الهجرة من مجتمع الكفر إلى مجتمع الإيمان مفتوحةٌ على مصاريعها إلى يوم القيامة، بل إن عبادة الله في زمن كثرت فيه الفتن، واستعرت فيه الشهوات، وعمّ فيه الفساد، إن عبادة الله المخلصة، والصادقة في هذه الأجواء الموبوءة، تُعد هجرة خالصة إلى الله ورسوله، وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أن النَّبِيِّ صَلَّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيّ ".))

[رواه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد]

هذا هو الدرس الأول..

وتعلمنا الهجرة ثانياً: من خلال الخطة المحكمة التي رسمها النبي صلى الله عليه وسلم، أن استحقاق التأييد الإلهي، لا يعني التفريط قيد أنملة في استجماع أسبابه، وتوفير وسائله، لقد وضع النبي صلى الله عليه وسلم خطةً محكمةً لهجرته، حيث كتم تحركه، وقصده واستأجر دليلاً ذا كفاءة عالية، واختار غار ثور، الذي يقع جنوب مكة تضليلاً للمطاردين، وحدد لكل شخص مهمةً أناطها به، فمن واحد لتقصي الأخبار، وآخر لمحو الآثار، وثالث لإيصال الزاد، ثم إنه كلف سيدنا علياً كرم الله وجهه أن يرتدي برده، وينام على سريره تمويها على المحاصرين الذين أزمعوا قتله.

لقد أعد النبي صلى الله عليه وسلم لكل أمرٍ عدتَه ولم يدعْ مكاناً للحظوظ العمياء، لقد اتخذ الأسباب وكأنها كل شيء في النجاح، ثم توكل على الله وكأنها ليست بشيء ؛ لأنه لا قيام لشيء إلا بالله.

إن هذه التدابير التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم على كثرتها ودقتها ليست صادرةً عن خوف شخصي، بل طاعة لله عز وجل، عن طريق الأخذ بالقوانين التي قننها الله، والسنن التي سنها الله، وتشريعاً لأمته من بعده، ثم إنه في الوقت نفسه، لم يعتمد عليها بدليل ؛ أنه كان في غاية الطمأنينة حينما وصل المطاردون إلى الغر، لو أنه اتخذها واعتمد عليها، لشعر بالإحباط الشديد.

الحقيقة التي ينبغي أن تكون مع كل مؤمن، يجب أن تأخذ بالأسباب دون أن تعتمد عليها، يجب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تعتمد على الله وكأنها ليست بشيء.

أنت في طريق على يمينه وادٍ، وادي الشرك، وعن يساره وادي المعصية، فإن أخذت بالأسباب واعتمدت عيها، نزلت في وادي الشرك وإن لم تأخذ بها، واعتمدت على الله جهلاً، وقعت في وادي المعصية.

حينما فهم المسلمون الأوائل، التوكل هذا الفهم الصحيح، رفرفت راياتهم في مشارق الأرض ومغاربها، واحتلوا مركزاً قيادياً بين الأمم والشعوب، واليوم إذا أراد المسلمون، أن ينتصروا على

أعدائهم، وأن يستعيدوا دورهم القيادي بين الأمم ؛ لينشروا رسالة الإسلام الخالدة رسالة الحق والخير والسلام، عليهم أن يستوعبوا جيداً هذا الدرس البليغ الذي علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم، من خلال هجرته، وهو أن التوكل في حقيقته أخذ بالأسباب، من دون الاعتماد عليها، وافتقار إلى تأييد الله وحفظه وتوفيقه، من دون تقصير في استجماع الوسائل.

والدرس الثالث من دروس الهجرة: أنه من خلال النتائج الباهرة التي حققها المهاجرون ؛ أنه من يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغماً كثيراً وسعة.. وأنه ما ترك عبد شيئاً لله عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، وأنه من شغلته طاعةُ الله عن تحقيق مصالحه، أعطاه الله خير الدنيا والآخرة وقد ورد في الحديث القدسي:

((" عبدي أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد وان لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد ".))

هذا هو الدرس الثالث..

الدرس الرابع، هناك هجرة في سبيل الرحمن، وهجرة في سبيل الشيطان، وكثيرهم الذين يهاجرون في سبيل الشيطان، فمن الهجرة في سبيل الرحمن: عقبة بن عامر الجهني، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة (هكذا يقول عتبة) وأنا في الفلوات أرعى غنيمات لي، فما إن تناهى إلي خبر قدومه، حتى تركتها ومضيت إليه لا ألوي على شيء فلما لقيته قلت له: تبايعني يا رسول الله، قال: فمن أنت ؟

قال أنا عقبة بن عامر الجهني ؟

قال عيه الصلاة والسلام: **أيهما أحب إليك ؛ تبايعني بيعة أعرابية أم بيعة هجرةٍ ؟**

قلت: بل بيعة هجرة.. وكنّا اثني عشر رجلاً ممن أسلموا نقيم بعيداً عن المدينة ؛ لنرعى أغنامنا في بواديها، فقال بعضنا لبعض ـ وهذه قصة تتكرر آلاف المرات كل يوم ـ: كانت لنا أغنام نرعاها في البوادي فقال بعضنا لبعض: لا خير فينا إذا نحن لم نقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بعد يوم ليفقهنا في ديننا، ويُسمعنا مما ينزل عليه من وحي السماء، فليمض كل يوم واحد منا إلى يثرب، وليترك غنمه لنا فنرعاها له، فقلت اذهبوا أنتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً بعد آخر، وليترك لي الذاهب غنمه، قال: لأني كنت شديد الإشفاق على غنيماتي من أن أتركها لأحد، اذهبوا أنتم جميعاً، وأنا عند الغنيمات ثم طفق أصحابي يغدو الواحد منهم بعد الآخر، على النبي صلى الله عليه وسلم، ويترك لي غنمه أرعاها له، فإذا جاء أخذت منه ما سمع وتلقيت عنه ما فقه. الآن.. يقول سيدنا عقبة: لكنّني ما لبثت أن رجَعت إلى نفسي وقلت: **ويحك يا عقبة.. أمن أجل**

غنيمات لا تُسمن ولا تغني تفوّتي عليك صحبة رسول الله، والأخذ عنه مشافهة من غير واسطة؟.. ثم تخليت عن غنيماتي ومضيت لأصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لم يكن، يخطر على بال عقبة، أنه حينما اتخذ هذا القرار الحاسم ؛ أنه سيغدو بعد عِقد من الزمان، عالماً من أكابر علماء الصحابة وقارئاً من شيوخ قرّائها، وقائداً من قوّاد الفتح المرموقين، ووالياً من ولاة الإسلام المعدودين، ولم يكن يخطر له على بالٍ أيضاً، وهو يتخلى عن غنيماته ويمضي إلى رسول الله، أنه سيكون طليعة الجيش الذي يفتح أمّ الدنيا دمشق، ويتخذ لنفسه داراً بين رياضها النضرة عند باب توما، ولم يكن يخطر له على بال أنه سيكون أحد القادة الذين سيفتحون مصر، وأنه سيغدو والياً عليها، ويتخذ لنفسه فيها داراً في سفح جبلها المقطن، وبعدها اشترك في قيادة حملة بحرية لفتح جزيرة رودس في البحر الأبيض المتوسط.

لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما قال:

((" ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه "))

وقد ورد في الحديث القدسي:

((" من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين ".))

ألا يتكرر هذا الدرس، يقول أحدهم لسبب تافه جداً، شغلتنا أموالنا عن حضور مجالس العلم، لأتفه الأسباب يدع طلب العلم، ويدع صحبة الإخوة الكرام، ويدع ارتياد المساجد لأتفه سبب.. عقبة ابن عامر لو أنه بقي مع غنيماته لما كان شيئاً مذكوراً..

هذا هجرة في سبيل الرحمن، أما الهجرة في سبيل الشيطان:حينما يرفض المرء الحق وأهله، وينضم إلى الباطل وأهله.

حينما يؤثر المرء الدنيا الفانية، على الآخرة الباقية.

حينما يفضل الرجل مصالحه على مبادئه، وحاجاته على قيمه.

حينما تكون الهجرة ابتغاء دنيا يصيبها الرجل، أو ابتغاء مال وفير يحصله على حساب مصيره الأبدي.

حينما تكون الهجرة بذلاً للخبرات والطاقات، لغير بلاد المسلمين.

وحينما تكون الهجرة إضعافاً للمسلمين، وتقوية لأعدائهم.

حينما تكون الهجرة هروباً من تحمل المسؤولية، وفراراً من البذل والتضحية.

حينما تكون الهجرة تمكيناً للعدو من احتلال الأرض، واستثمار خيراتها.

حينما تكون الهجرة من بلد تُقام فيه شعائر الدين، إلى بلد فرّغت منه كل القيم.

وحينما تكون الهجرة تضييعاً للعرض والدين، وكسباً للدرهم والدينار فهي هجرة في سبيل الشيطان، وما أكثرها اليوم.

يمثل هذه الهجرة ملك غساني اسمه جبلة ابن الأيهم..

قدم على سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، معلناً إسلامه، وقد رحب به عمر أشد الترحيب، وفيما هو يطوف حول الكعبة، داس بدوي من فزارة خطأً على طرف ردائه، فأزاحه عن كتفه، والتفت إليه جبلة وضربه ضربةً هشّمت أنفه، فشكاه الفزاري إلى عمر، فاستدعى عمر جبلة، فقال عمر: **يا ابن أيهم، جاءني هذا الصباح مشهد يبعث في النفس المرارة بدوي من فزارة، بدماءٍ تتظلم، بجراح تتكلم، مقلة غارت وأنف قد تهشّم وسألناه، فألقى فادح والوزر عليك، بيديك، أصحيح ما قاله هذا الفزاري الجريح ؟**

قال جبلة: **لست ممن ينكر أو يكتم شيئا، أنا أدّبت الفتى أدركت حقي بيدي.**

قال عمر: **أي حق يا ابن أيهم، عند غيري يقهر المستضعف العافي ويظلم، عند غيري جبهة بالإثم بالباطل تلطم، نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية، قد دفنّاها، وأقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً.**

أرضِ الفتى، لابد من إرضائه، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه أو يُهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك.

قال جبلة: **كيف ذاك يا أمير المؤمنين، هو سوقة وأنا صاحب تاج كيف ترضى أن يخرّ النجم أرضاً، كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعزُّ، أنا مرتدٌّ إذا أكرهتني.**

فقال عمر: **عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه كل صدع فيه بشبا السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى.**

هذه القصة ذكرتها لكم كثيراً، ولها تتمة، ورأى عمر ؛ أن التضحية بفرد، أهون من التضحية بمبدأ.. ارتد جبلة، وأخذته العزة بالإثم وأبى أن يخضع لحكم الله، وتسلّل في جنح الظلام من المدينة، مُتَّجهاً نحو الشمال، هذه هجرة في سبيل الشيطان.. وحينما دنا أجله، تقطع قلبه ندماً على ما فعل، فقد باع عينه الصحيحة بالعور، وقلت لكم قبل قليل كثيراً ما تقع هذه الهجرة، يذهب إلى بلاد الغرب، يقيم هناك، يعجبه فيها كل شيء، فإذا تقدمت به السن، رأى بناته متفلتات، يصحبن أناساً

منحرفين، لا يستطيع ضبط الأمر، يصيبه من الألم ما لا يوصف حينما يضيع أولاده وأهله، حينما يرى بناته على شواطئ البحار، يسبحن كاسيات عاريات، ماذا يفعل وهو مسلم ؟..

حينما يتزوج ابنته رجل غير مسلم، يضعها في أقذر موضع.

قال جبلة، حينما أدركه الهرم، وندم على هجرته في سبيل الشيطان قال:

يا ليت أمي لم تلدني وليتنتــي رجعت إلى الأمر الذي قاله عمــر

ويا ليتني أرعى الشياه بقفــرة و كنت أسيراً في ربيعة أو مضــر

ويا ليت لي بالشام أدنى مـعيشة أجالس قومي ذاهب السمع والبصــر

***

نعوذ بالله أن نهاجر في سبيل الشيطان، نعوذ بالله أن نترك بلداً طيبا تُقام فيه شعائر الله، مساجده غاصة في طلاب العلم، تعيش بين أهلك المؤمنين، تعيش مع أناس يفهمون عليك، وتفهم عليهم، تعيش مع أناس قيمهم من قيمك، مبادئهم من مبادئك، نعوذ بالله أن تكون هجرتنا في سبيل الشيطان، أو أن نعين في هجرتنا أعداء الإسلام..

أيها الإخوة الأكارم: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وازنو أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة المؤمنون: قصة قصيرة، جرت مع سيدنا الصديق، لكن علاقتها بالمسلمين الذين يعدون مليار ومائتي مليون..

سيدنا خالد ابن الوليد عملاق الإسلام وسيف الله المسلول، لما ذهب إلى بلاد فارس ؛ ليفتحها أيام خلافة الصديق، نظر إلى جيشه وجيش العدو، فوجد ميزان القوى مختلاً، غير متكافئ، العدو على رأس مائة وعشرين ألفاً.. وجيشه ثلاثون ألف..

أرسل هذا القائد العظيم، إلى سيدنا الصديق كتاباً يطلب فيه النجدة..

سيدنا الصديق بكم أمده ؟ بكم ألف أمده، بكم جيش أمده، بكم فرقة أمده ؟..

أرسل له المدد رجلاً واحداً، يُسمى القعقاع بن عمرو، ومع الرجل رسالة يحملها إلى خالد، ونظر خالد على مرمى البصر ينتظر الآلاف المؤلفة، المدد.. تتحرج لنجدته، فلم يجد أمامه إلا رجلاً واحداً، يهز يديه ويأتي فرداً، ولم التقى بخالد عجب خالد !..

قال: **ألم يرسل خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم سواك ؟..**

قال: بل أرسل معي رسالة إليك يا خالد..

ولما فض الرسالة وقرأها فإذا فيها النص التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أبي بكر الصديق، إلى خالد بن الوليد، أما بعد، فإذا وصلتك رسالتي هذه، فلعلك تعجب لأني أرسلت إليك رجلاً واحداً هو القعقاع بن عمرو، ولكنِّي أقسم بالله لك، أن جيشاً في القعقاع بن عمرو لا يهزمه أحد.. واحد، أمده برجل واحد..

ودارت المعركة، وكانت من عادة الجيش في الإسلام، ان القائد يكون أول من ينزل في الميدان، ليبارز قائد الأعداء، وقال قائد الفرس لجنوده سأبارز خالد ابن الوليد، وعندما أشغله بالمبارزة، يلتفت أحدكم من خلفه ويطعنه، فإذا قتلنا خالداً انتهت المعركة..

ونزل خالد أرض المعركة، ونزل قائد العدو ليبارزه، وإذا بأحد رجال الفرس يريد أن يأتي خلف خالد ليطعنه، فإذا بالقعقاع بن عمرو يضرب عنق هذا الخائن، فينجو خالد من القتل، وتنتهي المعركة بالنصر..

إن جيشاً فيه القعقاع بن عمرو لا يمكن أن يهزمه أحد..

واحد.. هل تُقبل هذه القصة ؟ ! هل تُقبل في ميزان المنطق ؛ أن قائداً على رأس ثلاثين ألفاً، أمام عدو متقدم عليه عدةً وعتاداً على رأس مائة وعشرين ألفاً، يطلب المدد من خليفة المسلمين، فإذا هو أمام رجل واحد معه كتاب يقول: **لا تعجب يا خالد، إن جيشاً فيه القعقاع ابن عمرو لا يهزمه أحد.**
أيها الإخوة الكرام: نحتاج إلى قوة إيمان، نحتاج إلى إيمان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين، وذكرت كثيراً أن المعركة بين الحقين لا تكون ؛ لأن الحق لا يتعدد، وبين حق وباطل لا تدوم ؛ لأن الله مع الحق، أما إذا كانت بين باطلين فلا تنتهي.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦١٤ : إن الله يحب المحسنين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٥-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونسترشده، ونعوذ به من شرور أنفسنـا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ولا شريك له، إقراراً بربوبيته وإرغامـاً لمن جحد به وكفر.

وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله سيد الخلق والبشر، ما اتصلت عين بنظر أو سمعت أذن بخبر.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين.

اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمنا، وأرنا الحـق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممـــن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الكرام: ربنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وفي آية قطعية الدلالة يبين أن الله سبحانه وتعالى يحب عباده المؤمنين، وعباده المؤمنون يحبونه قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤))

[سورة المائدة]

السؤال أيها الإخوة، هل من سبيل إلى أن نصل إلى محبة الله ؟ هل من وسيلة توصلنا إلى أن يحبنا الله، ويبدو أن محبة الله للمؤمن أعظم شيء على الإطلاق، أن تكون محبوباً من خالق السماوات والأرض، أن يحبك الله، وإذا أحبك الله ألقى حبك في جميع قلوب الخلق.

في القرآن الكريم آيات كثيرة، تبين الطريق إلى أن يحبك الله هذه الآيات الكثيرة، لو حذفنا المتكرر منها لوجدناها لا تزيد عن تسع آيات، من أبرز هذه الآيات:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣))

[سورة المائدة]

فإذا كنت محسناً وصلت إلى محبة الله لك، وموضوع الخطبة اليوم الإحسان، كيف تكون محسناً، الإحسان ماذا يشمل ؟..

قال بعض العلماء: إن مجال الإحسان رحب الدائرة، يعني ما من عمل تتسع دائرته حتى تشمل كل شيء كالإحسان.

إن الإحسان رحب الدائرة، ينتظم عمل الإنسان كله، من المهد إلى اللحد، والمحسن في التعريف الدقيق، هو الذي يتقن كل عمل يقوم به في حياته، سواء أكانت أعمال دينية، أو دنيوية، قال تعالى:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ إِنّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠))

[سورة الكهف آية ٣٠]

هذه الآية ـ أيها الإخوة ـ تشير إلى إتقان العمل وإحسانه، والنبي عليه الصلاة والسلام سئل فأجاب.

((" سئل يا رسول الله ما الإحسان فقال عليه الصلاة والسلام أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".))

[متفق عليه]

والحقيقة هذا الحديث فيه لفتة رائعة، سئل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإحسان فلم يجب إجابة بقدر السؤال بل حدثنا عن طريق الإحسان، كيف تكون محسناً ؟.. اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، المحسن هو الذي يبالغ في إتقان عمله وإجادته، فإن لم يبلغ المرء هذه المرتبة من معرفة الله، فلابد من المرتبة الثانية اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

إما أنك ترى أن الله يراك، وإما أنك تعلم أن الله يراك، إن لم تكن في المرتبة الأولى فلا أقل من أن تكون في المرتبة الثانية المرتبة الثانية، هي الشعور بإشراف الله تعالى ورقابته عليك، وعلى كل شيء، قال تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥))

[سورة التوبة]

جاء في الخبر، **" لو أن رجلاً عمل في صخرة لا باب لها، ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً من كان، لا يخفى شيء على الله، ولا على من حولك.**

وقفة ثانية عند قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((" أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه كأنه يراك.))

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث، هذا من جوامع الكلم التي أوتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، **لو قدرنا أن أحدنا قام بعبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى، لم يترك شيئاً مما يقدر عليه، من الخضوع، والخشوع، وحسن السمت، واجتماع ظاهره وباطنه على**

الاعتناء بتتميمها على أحسن وجه إلا أتى به، لو أنك تصلي وراقبت أن الله يراك، لو أنك في الحج لو أنك في الصيام.

هذا التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله عليه، فلا يحصل منه تقصير أبداً.

مرةً سئل عليه الصلاة والسلام عن الإدام، فقال عليه الصلاة والسلام: نعم الإدام كأنك تنتظر أن يقول النبي اللحم، أو السمن أو الدهن، قال عليه الصلاة والسلام:

((نعم الإدام الجوع "))

ترك وصف الإدام، ووصف حالة الآكل، فإذا كنت جائعاً ترى كل شيء لذيذ الطعم، وهذا من بلاغة النبي، ما الإحسان: قال أن تعبد الله كأنك تراه، ترك تعريف الإحسان وهو إتقان العمل، وحدثك عن طريق الإحسان، كيف تغدو محسناً ؟ إذا شعرت برقابة الله عليك.

هذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فإن لم تكن تراه فينبغي أن تعمل بمقتضاه، إن رأيت أن الله يراك، هذه مرتبة عالية جداً، هذه مرتبة الشهود، فإن لم تكن تراه فاعلم أنه يراك، والمرتبة الثانية مقبولة، وتعين على إتقان العمل وإحسانه.

أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يحثنا على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع، لذلك ندب أهل الحقائق، ندب المؤمنين إلى مجالسة الصالحين، ليكون ذلك مانعاً من تلبسهم بشيء من النقائص، احتراماً لهم واستحياءً منهم فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعاً عليه، في سره وعلانيته.

راقب نفسك، إذا كنت في حضرة إنسان كبير، وقور، متفوق أخلاقي من أقربائك، أو ممن يلوذ بك، أو ممن تعمل معهم، كيف تنتقي أجمل العبارات، كيف ترتدي أجمل الثياب، كيف تتصرف أحكم التصرفات، إنك تعامل إنساناً بهذا الأدب الجم، وهذا الانضباط الرائع، فكيف إذا علمت أن الله مطلع عليك دائماً.

النبي عليه الصلاة والسلام حثنا على طريق إن سلكناه وصلنا إلى الإحسان.

الوسيلة إلى الإحسان أن يكون العامل في عمله كأنه يرى الحق سبحانه وتعالى رأي العين، ولا ريب من أن يكون كذلك ليكون عمله من أحسن الأعمال، وحاله من أكمل الأحوال قلباً وقالباً، مرةً ثانية وإن لم يصل إلى هذه المرتبة فلا بد من أن يوقن أن الله سبحانه وتعالى يراه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((" أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان ".))

إن علمت أن الله يعلم استقمت على أمره وأحسنت عملك وأتقنته لذلك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً(١٢))

[سورة الطلاق آية ١٢]

يعني حينما تعلم أن الله يعلم حُلت مشكلاتك مع الله، إنك لن تعصيه، ولن تجرؤ أن تعصيه، كيف لا وأنت لا تجرؤ أن تخالف أمراً لقوي ترى أنه يراقبك، يعلم ماذا تفعل، وهو قادر على إيقاع الأذى بك، أنت لن تخالف أمر إنساناً قوياً علمه يطولك، وقدرته تطولك فكيف إذا كنت تحت رقابة خالق السماوات والأرض.

علمك برؤية الله تعالى إياك يبعثك على أن تكون في معاملته بحال تشبه رؤيتك إياه، ذلك أن عناية العامل بإتقان العمل حينما يرى الرقيب عليه، ليس مبعثها في الحقيقة رؤية العامل ذلك الرقيب، بل مبعثها علمه برؤية الرقيب.

لو أن موظفاً وضع فوق رأسه آلة تصوير، تنقل حركاته وسكناته إلى رب العمل، هو هذا الموظف لا يرى رب العمل وهو يراقبه لكن علمه أن هذه الآلة تنقل لرب العمل كل حركاته وسكناته تراه منضبطاً أشد الانضباط.

أحياناً تقف لا أحد لماذا تضطرب، لا ترى أحداً، لكن تعلم أن الناس جميعاً يرونك من خلال هذه الآلة التصوير، فلذلك أحياناً علمك بأنك مُراقب يؤدي الغاية نفسها، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، إن علمت أنه يراك فهذا يكفي أن تستقيم على أمره.

لذلك أيها الإخوة الكرام إن أردتم أن تكونوا من أهل الإحسان في منتك، في حرفتك في تجارتك، في صناعتك، في زراعتك، في حرفك المهنية الراقية، في عيادتك، في مكتبك الهندسي، في مكتب المحاماة، في أي مكان، إن علمت أن الله يراقبك استحييت منه وسلكت منهجه القويم، وصراطه المستقيم.

من أروع الأحاديث، هذا الحديث الشريف من جوامع الكلم، بل هو من أصول الدين، لن تكون محسناً إلا إذا أيقنت أن الله يراقبك وأن هؤلاء جميعاً عباده، وأنه سيحاسبك عنهم واحداً واحداً.

إن أردت أن تكون من أهل الإحسان فأشعر نفسك أن الله يراقبك في سرك وجهرك، وفي خلوتك وجلوتك، وأنه لا تخفى عليه منك خافية، لذلك إلى كتاب الله:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧))

[سورة المجادلة]

آية ثانية:

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١))

[سورة يونس آية ٦١]

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤))

[سورة الفجر]

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

[سورة النساء]

هذا هو التفسير الصحيح العلمي لإتقان العمل وإحسانه، أن تشعر أن الله معك، وأن الله يراقبك، إما أن ترى رأي العين، وإما أن توقن يقيناً قطعياً أن الله لا يخفى عليه شيء من أحوالك.

الإنسان إذا شعر بمراقبة الله له يستحيي منه على قدر عظمته فلا يجعله أهون الناظرين إليه، هذا القول أيها الإخوة لو أن الإنسان وعاه لا تجعل الله أهون الناظرين إليك، أنت تستحي من طفل صغير أن تكون أمامه بوضع مشين، من طفل صغير، ولا تستحي من الله.

إنسان اغتسل عرياناً وقد علم بفعلته النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((خذ أجارتك لا حاجة لنا بك، فإني أراك لا تستحيي من الله ".))

شيء آخر: الله جل جلاله قال عن ذاته:

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧))

[سورة السجدة]

وأنت من عباده، وقد جعلك خليفته في الأرض، ألا ينبغي أن تتقن عملك، إذاً يجب أن تتقن كل شيء يصدر عنك، وهذا سبب لمحبة الله لك.

الشريعة الغراء ترشدنا إلى الإحسان، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ:

((اثْنَتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ ".))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأحمد والدرامي]

القتل إنهاء حياة، أعطاك حالة حادة، أعطاك حالة نادرة، حتى في هذه الحالة الحادة، النادرة، التي قد تتهم أنها عكس الإحسان..

أنت مكلف أن تحسن حينما تذبح غنمة من أجل أن تأكلها.

في الحديث الصحيح وقد يعد العلماء هذا الحديث أيضاً من أصول الدين:

((" إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ".))

إتقان العمل جزء من الدين، لو أن كافراً بالله أتقن عمله لاكتسب مكانةً ومالاً وفيراً، وأهل الدنيا، المتفوقون في دخولهم، يتقنون عملهم فينالون بها مكانةً وثروةً.

((" إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ".))

هناك آية دقيقة جداً أيها الإخوة قد تغيب عن بال معظم الناس، قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١))

[سورة الملك]

قد لا ننتبه لمعنى هذه الآية، لا ليبلونا أنحسن أم نسيء، ينبغي أن نحسن دائماً، أما الابتلاء من أجل مدى الإحسان، تفوقنا في الإحسان قد تجري امتحاناً لتعرف من يرسب ومن ينجح، أما أنت تعتقد أن كل الطلاب ينبغي أن ينجحوا، وكلهم في مستوى النجاح، لكن من هو الأول، من هو الثاني، من هو الثالث، هناك امتحان لفرز الكسالى من الناجحين، وهناك امتحان لترتيب الناجحين:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (٤))

[سورة الملك]

المفروض أن نكون جميعاً أصحاب عمل حسن، فالابتلاء لا من أجل عمل حسن يظهر أو عمل سيئ يظهر، من أجل ترتيب الأعمال الصالحة.

رأى عمر بن الخطاب رجلاً يقود شاةً من رجلها ليذبحها، فأنبه ووبخه، وقال **له هلا قدتها إلى الموت قوداً حسناً.**

أنا رأيت بعيني بعض من يذبح الدجاج يذبحها ويغمسها في ماء يغلي فوراً، ولا تزال تحس بكل شيء، هناك عمل بعيد عن منهج الله عز وجل، هناك من يصطاد سمكة وينظفها فوراً، ولا تزال تحس بكل شيء.

سيدنا عمر علا بدرته جمالاً، فقال له لمَ تحمل على بغيرك مالا يطيق.

سيدنا عمر رضي الله عنه ضرب رجلاً بدرته لأنه أحد شفرته على مرأى من ذبيحته، قبل أن يذبحها، قال **أتعذب الروح مرتين، هلا فعلت هذا قبل أن تأخذها للذبح.**

ابن عمر رأى راعي غنم في مكان قبيح، وقد رأى مكاناً أمثل منه فقال ابن عمر **ويحك يا راعي، حولها إلى المكان الأحسن،** فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته ".))

[متفق عليه]

لن يبلغ المرء درجة الإحسان في العمل حتى يستوعب الأحوال الخاصة، والأصول الثابتة لهذا العمل، كل عمل له أصول، له طرائق، له خصائص، له أسباب، فإذا أردت أن تتقن تعلم أصول هذا العمل، كم من ضحية، كم من عمل سبب مشكلة كبيرةً لأن الذي قام به لم يتقن أصوله، ولم يتعلم مبادئه، ولم يحسن إنجازه، ولم يتقن تفاصيله، المؤمن بدافع من إيمانه قبل أن يقدم على عمل يتقن أصوله النظرية، وتدريباته العملية.

إن أردت أن تتكلم لابد من أن تستوعب قواعد اللغة، ولابد من أن تجود الكلام، وتستخدم العبارة الأدبية، إتقان اللغة يعني إتقان قواعدها، وإتقان أساليبها، وإتقان نماذجها، إن أردت أن تصلي لابد من أن تؤدي الصلوات كما شرعها رسول الله، ولابد من أن تجعل الخشوع هدفاً في الصلاة، يجب أن تستوعب الأصول وأن تجود وأن تحسن.

العبادات مقطوع في تفاصيلها، لا تحتمل أن تزيد عليها، لكن مسائل الحياة تركها الشرع مفتوحة، **فقد قال عليه الصلاة والسلام أنتم أعلم بأمور دنياكم ".**

يعني أحدنا إذا اتخذ حرفة ينبغي أن يتعلم أصولها، وهذا من الدين أما إذا مارستها من دون علم بالأصول، ووقعت في أخطاء فاحشة كم من مركبة روجعت مراجعة غير أصولية، فأودت بأصحابها، كم من آلة لم يراعى فيها القواعد الصحيحة في صيانتها فتلفت، ودمرت فالأخطاء الناجمة عن الجهل مؤاخذ عنها الإنسان أيما مؤاخذة.

بقي شيء مهم، الإمام الشاطبي قال: الله خلق الخلق غير عالمين بوجود مصالحهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، يؤيد ذلك قوله تعالى:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨))

[سورة النحل]

فربنا علمنا، كيف علمنا ؟ علمنا طوراً بالغريزة، وطوراً بالإلهام وطوراً بالتعليم البياني النظري، وطوراً بالتعليم العملي، فالطفل الذي يولد لتوه أودع الله فيه فعل شرط انعكاسي، أو غريزة فطرية هي منعكس المص، ولولا هذا المنعكس الذي أودعه مع الإنسان المولود لتوه ما عاش إنسان على ظهر الأرض، فإذا كبر هذا الإنسان أودع فيه عقلاً يكشف له الحقائق ويعينه على ممارسة أعماله الدنيوية والأخروية.

لكن الله سبحانه وتعالى جلت حكمته جعل الناس متفاوتين في ميولهم واستعداداتهم، وقدراتهم، ورغباتهم، وطموحاتهم، فينبغي أن نضع الإنسان المناسب في المكان المناسب، والإنسان ذا الخصائص المعينة، في عمل تحتاجه هذه الخصائص.

ينبغي أن نوزع الأعمال وفق استعداد الناس النفسي والعقلي، مثلاً قال الشاطبي: الغني الذي بلغ ماله الكثرة، صدقته وإيثاره، وإنفاق ماله أفضل عند الله من قيامه الليل وصيامه النهار.

أقامه الله غنياً، عمله الصالح في إنفاق ماله، والشجاع القوي وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل عند الله من حجه وصومه وصدقته التطوع، والعالم الذي عرف الحلال والحرام وطرق الخير والشر، مخالطته للناس، وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة والتسبيح وقراءة القرآن.

ولي أمر المسلمين الذي نصبه الله تعالى للحكم بين عباده جلوسه للنظر في المظالم، وإنصاف المظلوم وإقامة الحدود، ونصرة المحق وقمع المبطل، أفضل من عبادته من عبادة سنين من غيره.
لذلك قيل العدل حسن لكن في الأمراء أحسن، والسخاء حسن لكن في الأغنياء أحسن، والحياء حسن لكن في النساء أحسن، والصبر حسن لكن في الفقراء أحسن، والتوبة حسن لكن في الشباب أحسن والورع حسن لكن في العلماء أحسن.

الإحسان أن يكون العمل موافقاً لقدراتك، ولخصائصك، ولما أودعه الله فيك.

النبي عليه الصلاة والسلام تطبيقاً لهذه القاعدة، طلب منه أبو ذر الغفاري أن يوليه عملاً، قال:

((يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحبه لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم.))

رجل آخر أمره النبي بالصيام، قال إنه لا عدل له.

رجل ثالث، قال له لا تغضب.

رجل رابع، قال لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله.

إذاً أن تكلف الإنسان بعمل يتوافق مع خصائصه، ومع قدراته ومع ميوله، ومع إمكاناته، هذا هو الإحسان بعينه، يعني أن تضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

بقيت فكرة دقيقة، إذا لم تستطع أن تبرز العمل بهذه الصفة المتقنة الرائعة، فلا تدع العمل، ترك العمل خطأ كبير، بل سر في طريق الإحسان والإتقان، لذلك قال بعض العارفين ابن عطاء الله السكندري لا تترك الذكر بعدم حضور القلب مع الله فيه، فإن غفلتك عن ذكره أشد من غفلتك في أثناء ذكره، فعسى الله أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع رغبة عما سوى المذكور.

فلا تهمل شيئاً لم تقطف ثماره بعد.

روى معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن رجلاً سأل فقال يا رسول الله: أي المجاهدين أعظمهم أجراً ؟ قال أكثرهم لله تعالى ذكراً، قال فأي الصالحين أعظم أجراً قال أكثرهم لله تعالى ذكراً، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك ويقول عليه الصلاة والسلام أكثرهم لله ذكراً، فقال أبو بكر لعمر يا أبا حفص، ذهب الذاكرون بكل الخير، فقال عليه الصلاة والسلام أجل "

خطة واضحة جداً، أعظم شيء تصل إليه على الإطلاق أن يحبك الله، ومحبة الله لها ثمن، أول أثمانها أن تكون محسناً.

إذا وصلت إلى أحد مرتبتين الأولى أن تعلم أن الله يراك، والثانية فإن لم تكن تراه فإنه يراك.
لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان ".))

إن أشعرت نفسك موقناً أن الله معك، يراقبك، يحصي حركاتك وسكناتك، مطلع على سرك وعلى جهرك، على باطنك وعلى ظاهرك، هو معك في خلوتك، ومعك في جلوتك، معك في إقامتك معك في سفرك، معك وأنت في بيتك، وأنت مع الناس، إن علمت أن الله يعلم استقمت على أمره وسعدت بقربه والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

من آيات الله الدالة على عظمته هذا الهيكل العظمي الذي هو قوام جسمنا، نسيج متين، يقاوم قوى الشد، ونسيج قاس يقاوم قوى الضغط، هذا النسيج المتين، أحد وظائفه الكبرى أنه يحمي الأجهزة النبيلة، فالدماغ من أنبل الأجهزة موضوع في كرة عظمية، والنخاع الشوكي جهاز نبيل، موضوع

في العمود الفقري، والقلب أخطر أجهزة الجسم موضوع في القفص الصدري، والرحم موضوع في عظم الحوض، ومعامل كريات الدم الحمراء موضوعة في داخل العظام، لولا الجهاز العظمي لكان الإنسان كومة من الجلد واللحم لا شكل لها.

هذا الجهاز مؤلف من مائتي قطعة، بنيتها قاسية ومحكمة من الخارج، ومسامية إسفنجية من الداخل، لو أن بنيتها من الداخل كما هو من الخارج لكان وزن أحدنا أربع أمثال، وزنك الآن سبعين يعني مائتين وأربعين، تسعين مائتين وسبعين، مائة أربعمائة، لو كان العظم من الداخل من الداخل كما هو من الخارج، من الخارج يبدو أنه محكم، مستمر صقيل، من الداخل إسفنجي مسامي. يقول العلماء هذا القول الرائع، في بنية العظم يتحقق حد أقصى من النتائج، بحد أدنا من اللوازم، يعني هناك توازن رائع بين البنية المقاومة، والوزن الخفيف.

يعني الطائرة التي نركبها تزن مائة وخمسين طن، وقودها يزن مائة وخمسين طن، يكفيها أربعة عشر ساعة، لو أنها ثلاثمائة طن من الحديد صنعت لاحتاجت إلى ثلاثمائة طن.

فالعظم في حد أقصى من تحقيق النتائج مع حد أدنى من اللوازم في توازن رائع بين البنية المقاومة والوزن الخفيف.

لو كان وزننا أربع أمثال ما نحن عليه، هناك مشاكل جمالية وهناك هدر للطاقة بلا مبرر.

أغرب ما في هذا الجهاز أن هناك هدم وبناء مستمرة، بحيث أن الإنسان يتجدد هيكله العظمي خمس مرات في عمر متوسط، يعني كل ست أو سبع سنوات لك هيكل عظمي جديد كلياً بفعل عملية الهدم والبناء.

الهدم والبناء المستمر هو الذي يعين على التئام الكسور، وهذه من نعمة الله الكبرى، والهدم والبناء المستمر هو الذي يجعل العظم مخزن للكلس، فإذا احتاجت الأم بتشكيل عظم وليدها إلى كلس لوم يكن غذاؤها كافياً من هذه المادة، فيأخذ الجنين من عظم أمه ما يشكل به عظمه، فعملية، الهدم والبناء المستمرة من أجل أن يكون العظم مخزناً للكلس الاحتياطي.

قالوا هناك هرمونات تنظم نمو العظم، وتنظم إيقافه عند حد معين لولا هذه الهرمونات لكان الإنسان قزماً، أو كان عملاقاً، أقصر إنسان طوله خمس وخمسون سنتمر، يزن خمسة كيلو غرامات عمره ثلاث وعشرون عاماً، وأطول إنسان مائتين وأربعين سنتمر العملقة والقزمية لها علاقة بهرمون النمو، وهذا شيء دقيق.

الشيء الآخر أن هيكل العظمي عند الجنين غضروفي، فإذا خرج إلى الدنيا بدأت خلايا العظم تحل محل خلايا الغضروف شيء طيب من المنتصف إلى الأطراف، ويبقى في أطراف العظام طبقة غضروفية هي عند علماء الميكانيك ماصة للصدمات، أطراف مشاشات العظام كلها غضروفية القوام، وهي مادة لامتصاص الصدمات كقطع الكوشوك بين قطع الحديد، وبين كل فقرتين من فقرات الظهر قرص غضروفي ليعمل على امتصاص الصدمات وكسب الإنسان حياة مريحة.

شيء آخر مدهش أنه عند المفاصل هناك سائل لزج، ينزلق عليه سطح لزج من أجل راحة حركة المفاصل، وهذا السائل يتجدد تلقائياً من حين لآخر، هذا الهيكل العظمي آية من آيات الله الدالة على عظمته.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦١٥ : إن الله يحب التوابين ......التوبة١.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٥-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

في الخطبة السابقة بينت لكم أن الله سبحانه وتعالى يحب عباده المؤمنين، والمؤمنون يحبونه، وأن أسباب محبته جل جلاله تنعقد في آيات عدة، الآية الأولى:

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣))

[سورة المائدة]

وقد أشير إلى بعض ما تنطوي عليه هذه الآية في الخطبة السابقة واليوم السبب الثاني الذي يدعو إلى محبة الله لك التوبة لقول الله عز وجل:

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ التّوّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهّرِينَ (٢٢٢))

[سورة البقرة]

والتوّاب: صيغة مبالغة، يعني كثير التوبة، كثير التوبة عدداً ونوعاً.

لقد انعقد الإجماع بين الأمة على وجوب التوبة، فرض على كل مؤمن، لأن الذنوب مهلكة، وتبعد العبد عن الرب، فيجب التخلص منها على الفور، ولن يكون ذلك إلا بالتوبة.

انعقد إجماع الأمة على وجوب التوبة لأن الذنوب مهلكة، يجب التخلص منها على الفور، ولا يكون ذلك إلا بالتوبة، والأدلة، ربنا جل جلاله يقول:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفّرَ عَنْكُمْ سَيّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللّهُ النّبِيّ وَالّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨))

[سورة التحريم]

كل أمرٍ في القرآن يقتضي الوجوب.

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)

كل أمر في القرآن يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، والآية الثانية:

(وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١))

[سورة النور]

والآية الثالثة:

(إنّ اللّهَ يُحِبُّ التّوّابينَ ويُحِبُّ الْمُتَطهّرِينَ (٢٢٢))

وعن ابْنَ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((يَا أَيُّهَا النّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبّكُمْ فَإِنّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرّةٍ ".))

[أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود]

وفي الصحيحين:

((" لَلّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوّيّةٍ مَهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمّ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَاللّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ ".))

[متفق عليه]

وفي رواية لمسلم:

((" فأخذ بخطامها (أي بزمامها) ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك ".))

أخطأ من شدة الفرح.

كم يكون فرح هذا الأعرابي بناقته، لله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته.

التوبة النصوح استغفار باللسان، وإقلاع عن الذنب، والعزم على أن لا يعود إليه إطلاقاً، هذا بعض تعاريف التوبة النصوح.

والتوبة النصوح في تعريف آخر: التوبة المقبولة، ولا تُقبل إلا في ثلاثة شروط، الشرط الأول: أن يخاف التائب أن لا تُقبل، والشرط الثاني: أن يرجو أن تُقبل، والشرط الثالث: أن يدمن على الطاعات.

وفي تعريف ثالث للتوبة النصوح:

أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، وتضيق عليك نفسك، وتكون كالثلاثة الذين خُلفوا.

هذا من تعاريف التوبة النصوح.

ومن تعاريف التوبة النصوح أن يكون لصاحبها دمع مسفوح وقلب عن المعاصي جموح.

ومن تعاريف التوبة النصوح قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي:

((" عن أنس كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ".))

الأنبياء وما سوى الأنبياء غير معصومين، غير المعصوم ماذا عليه أن يفعل، عليه أن يكون تواباً.. كثير التوبة، كلما أخطأ بلسانه، وكلما أخطأ بيده، وكلما أخطأ بجوارحه عليه أن يتوب إلى الله من فوره.

الإنسان إذا وقع في خطيئة، وفُتح له باب التوبة على مصاريعه ووعده الله بقبولها ماذا ينتظر.. لأن الله عز وجل يقول:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصّدَقَاتِ وَأَنّ اللّهَ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ(١٠٤))

[سورة التوبة]

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرّاحِمِينَ (١١٨))

[سورة المؤمنون]

نقطة دقيقة جداً في موضوع التوبة ؛ التوبة التي ينبغي أن تكون هي التوبة السريعة التي تأتي بعد الذنب مباشرةً.

قال تعالى:

(إِنّمَا التّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلّذِينَ يَعْمَلُونَ السّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(١٧))

[سورة النساء]

أقصر وقت بين الذنب وبين التوبة، لذلك المسارعة إلى التوبة من شروط قبولها، أما الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وإذا قسا القلب فقد جاء كساد الران، قال تعالى:

(كَلّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤))

[سورة المطففين]

النادم ينتظر من الرحمة، والمعجب ينتظر المقت، ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي يشير إلى المسارعة إلى التوبة:

((" النادم ينتظر من الله الرحمة، والمعجب ينتظر المقت، واعلموا عباد الله، أن كل عامل سيقدم على عمله، وإنما الأعمال بخواتيمها والليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة، واحذروا التسويف فإن الموت يأتي بغتة، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شرك نعله، ثم قرأ قوله تعال فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ".))

يعني من أسباب قبول التوبة، ومن أسباب سهولة التوبة أن تتوب من قريب، أن تتوب فور وقوع الذنب مباشرةً، أن لا تجعل أمداً طويلاً بين الذنب وبين التوبة، عندئذ يقسو القلب، والإنسان بشكل

أو بآخر يُطبق عليه قانون العطالة، قانون العطالة قانون فيزيائي الأجسام ترفض الحركة إذا كانت ساكنة، وترفض السكون إذا كانت متحركة فمن ألف معصية واستمر عليها، يصعب عليه تركها، أما حينما تقع المعصية بغفلة من صاحبها، وسرعان ما يصحوا ويتوب إذا جاءت التوبة عقب الذنب شعر التائب أن الله قد قبله، وأن توبته مقبولة عند الله عز وجل.

المسارعة إلى التوبة والندم ألزم وأحزم من الانتظار إلى الغد والغد قد لا يأتي، ومن عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت.

صاحب مطعم حج بيت الله الحرام، وكان يبيع الخمر في مطعمه فلما عاد من الحج تاب من بيع الخمر فانخفضت الغلة انخفاضاً شديداً فعاد إلى بيع الخمر، وبعد عشرة أيام وافته المنية وهو مقيم على معصية بيع الخمر.

من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، وفي الأثر هلك المسوفون، الذي يقول أتوب غداً، وبعد غد وبعد أن ينتهي العام الدراسي، وبعد أن ينتهي الصيف، وبعد أن أتزوج، وبعد أن أشتري البيت، وبعد أن أؤسس هذا المشروع، هؤلاء المسوفون هلكوا لأن الدهر كله غداً.

ومن الأدلة النبوية على وجوب سرعة التوبة قول الله عزو جل في الحديث القدسي عَنْ أَبِي مُوسَى عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللّيْلِ حَتّى تَطْلُعَ الشّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا و حَدّثَنَا مُحَمّدُ بْنُ بَشّارٍ حَدّثَنَا أَبُو دَاوُدَ حَدّثَنَا شُعْبَةُ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَهُ ".))

[أخرجه مسلم وأحمد]

وفي الحديث القدسي الذي رواه النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه وهذا الحديث من أرجى الأحاديث في التوبة:

((" يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك يا بان آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني عفرت لك يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة ".))

أيها الإخوة الكرام: لماذا لا نطير إلى الله بأجنحة الشوق والمحبة بدلاً أن نُساق إليه بسياط الشدة والرحمة، لابد من أن تصل إليه، فإما أن تأتيه طائعاً على أجنحة الشوق والمحبة، وإما أن تأتيه على بسياط الشدة والرهبة الطريق الأول أسلم وأكمل.

الشيء الدقيق جداً هو أن الإسلام دين الفطرة، وأنه دين الواقع وكل شهوة أودعها الله في الإنسان جعل لها قناة نظيفة تجري خلالها، إذاً ليس هناك حرمان لك أن تتزوج، ولك أن تأكل وتشرب، ولك أن تنام وتستريح، ولك أن تأكل ما تشتهي لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((" أشدكم لله خشية أنا، أنام وأقوم، أصوم وأفطر، أتزوج النساء آكل اللحم، هذه سنتي فمن رغب عنها فليس من أمتي ".))

ليس في الإسلام حرمان، في الإسلام تنظيم، هناك منهج دقيق يلبي حاجات الجسد، وحاجات النفس، وحاجات العقل، هؤلاء الذين يسقطون في المعاصي والآثام يسقطون في الوحول، يسقطون في القاذورات، هؤلاء الذين يرتادون أماكن اللهو يبحثون عن سعادة موهومة، ولو علموا أن سعادتهم بالقرب من الله، وأن سعادتهم بتطبيق منهج الله.

شيء آخر في هذا الموضوع، ربنا سبحانه وتعالى ينتظرنا كي نتوب إليه، يقبل علينا أكثر من إقبالنا عليه، نحن مطلوبون عنده أكثر مما نحن طالبين له، وفي الحديث الصحيح:

((" أنا عند ظن عبدي بي، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن آتاني يمشي أتيته هرولة ".))

يعني بمجرد أن تنعقد التوبة في نفس المؤمن يرى راحة لا توصف يرى ثقلاً أزيح عن كاهله، وكان كابوساً عليه، يشعر بطمأنينة يشعر أن الله قبل توبته.

أبواب التوبة مفتوحة على مصاريعها، ولا نستفيد من هذه الأبواب المفتوحة إلا ونحن في الدنيا، فإذا اقترب الإنسان من ساعة مغادرته الدنيا عندئذ لا تنفعه التوبة.

علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أدعية كثيرةً يحضنا فيها على التوبة، من أدعيته صلى الله عليه وسلم:

((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي (أي أعترف بذنبي) فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.))

في هذا الموضوع تتمة نطرحها في الخطبة القادمة إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

قبل شهر تقريباً عدت أخاً مريضاً له باع طويل في التأليف، روى لي قصة الحجاج بن علاط السلمي، وتأثر بها تأثراً بالغاً واستنبطت منها أشياء كثيرة تعيننا على أمر ديننا، وأهداني هذا الأخ

الكريم الكتاب بأجزائه التي وردت فيه هذه القصة، أحببت في هذا الأسبوع ان أعرضها على مسامعكم.

قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح خيبر الحجاج بن علاط السلمي فأسلم، وكان هذا الرجل غنياً كثير المال، فقال يا رسول الله إن مالي عند امرأتي أم شيبة بنت أبي طلحة بمكة، ومتفرق في تجار مكة، فأذن لي أن آتي مكة لآخذ مالي قبل أن يعلموا بإسلامي، فإن علموا بإسلامي لا أقدر على أخذ شيء منه، أذن له النبي صلى الله عليه وسلم أن يذهب إلى مكة ليجمع ماله المتفرق بين تجار مكة، ثم قال: يا رسول الله، لابد من أن أقول شيئاً، كلام موجز، فهم عليه النبي عليه الصلاة والسلام، أي لابد من أن أتقول عليك، وأذكر ما هو خلاف الواقع، أي ما أحتال به لأسترد مالي

فقال صلى الله عليه وسلم بطيب نفس: **قل ما بدا لك.**

قال الحجاج: فخرجت حتى قدمت مكة وجدت بثنية البيضاء (مكان) رجالاً من قريش يستمعون الأخبار، ويسألون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز المنيعة، وهم يتجسسون الأخبار من الركبان، وكان بينهم تراهن عظيم وتبايع منهم، منهم من يقول يظهر محمد وأصحابه ومنهم من يقول يظهر الحليفان ويهود خيبر.

فلما رأوا الحجاج قالوا: الحجاج عنده والله الخبر، ولم يكونوا قد علموا بإسلامه، قالوا: يا حجاج بلغنا أن القاطع ـ هكذا كانوا يلقبون النبي عليه الصلاة والسلام أخزاهم الله ـ يا حجاج بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر.

فقال الحجاج: عندي من الخبر ما يسركم، فاجتمعوا يقولون: إيه يا حجاج فقال الحجاج: لم يلق محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتل غير أهل خيبر، فهزم هزيمة لم يسمع بمثلها قط، وأسر محمد وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فنقتله بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم فصاحوا وقالوا لأهل مكة قد جاءكم الخبر، هذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم، قال الحجاج: فقلت لهم أعينوني على غرمائي، أريد أن أقدم فأصيب من غنائم محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك، فجمعوا لي مالي على أحسن ما يكون ففشا ذلك بمكة، وأظهر المشركون الفرح والسرور وانكسر من كان بمكة من المسلمين، وسمع بذلك العباس ابن عبد المطلب، ماذا حصل ؟

فجعل لا يستطيع أن يقوم من مرقده من شدة الألم والحزن، ثم بعث العباس إلى الحجاج غلاماً، قال قل له: يقول لك العباس إن الله أعلى وأجل من أن يكون الذي جئت به حقاً، (هذا حسن الظن بالله)

فقال الحجاج للغلام: اقرأ على أبي الفضل السلام وقل له ليخل لي بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره، واكتم عني، فأقبل الغلام وقال أبشر أبا الفضل، فوثب العباس فرحاً.

خبر واحد أقعده عن القيام، شُلت قواه، وخبر وآخر جعله يثب من الفراش، أبشر أبا الفضل فوثب العباس فرحاً كأنه لم يصبه شيء وأخبره بذلك فأعتقه العباس، وقال لله علي عتق عشر رقاب، فلما كان ظهراً جاء الحجاج فناشده الله أن يكتم عنه ثلاثة أيام، وقال إني أخشى الطلب، فإن مضت ثلاث فأظهر أمرك، فوافقه العباس على ذلك وقال الحجاج إني قد أسلمت وإن لي مالاً عند امرأتي وعند غرمائي في قريش، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إليه، إني تركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح خيبر، وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها، وتركته عروساً بابنة ملكهم حيي ابن أخطب فلما أمسى الحجاج غادر مكة.

وطالت على العباس تلك الليالي الثلاث، فلما مضى الحجاج ومضت الثلاث، عمد العباس إلى حلة جديدة لبسها، وتخلق بخلوق (تعطر) وأخذ بيده قضيباً ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، هذا والله التجلد بحرّ المصيبة، قال كلا والله الذي حلفتم به لم يصبني إلا خير بحمد الله، لقد أخبرني الحجاج أن خيبر فتحها الله على يد رسوله وجرت فيها سهام الله وسهام رسوله، واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية بنت ملكهم حيي بن أخطب لنفسه، وأنه تركه عروساً بها وإنما قال لكم ذلك ليخلص إلى ماله، وإلا فهو ممن أسلم، فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين.

فقال المشركون: ألا يا عباد الله، أنفلت عدو الله ـ يعنون حجاجاً ـ أما والله لو علمنا الحقيقة لكان لنا وله شأن، ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر الصحيح.

أيها الإخوة الكرام: دققوا في حسن ظن العباس بالله، (إن الله أجل وأكرم من أن يكون هذا الخبر صحيحاً) إن الله لا يتخلى عن عباده المؤمنين، لا يتخلى عن رسوله، ولا عن أنبيائه ولا عن المؤمنين الذين آمنوا به واستقاموا على أمره.

وشيء آخر هي رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه والمال قوام الحياة.

وشيء ثالث هو أن الخبر السيئ يشل القوى، بينما الخبر الطيب يبعث النشاط.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦١٦ : ان الله يحب التوابين ......التوبة٢.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٥-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: بدأت موضوعاً متسلسلاً وهو أن الله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه الكريم أن الله يحب المؤمنين، ومحبة الله للمؤمنين لها أسباب في القرآن الكريم، إن الله تعالى يحب المحسنين، فإذا كنت محسناً فقد قدمت ما يوجب محبة الله لك، وإن الله يحب التوابين، فإذا كنت كثير التوبة إلى الله فقد قدمت سبباً لمحبة الله لك.

وتحدثت في الخطبة الماضية عن التوبة، وها أنا ذا أتابع هذا الموضوع لأنني وعدتكم أن للموضوع بقية.

للتوبة أنواع كثيرة، من هذه الأنواع أن يتوب المرء عن المعاصي والتقصيرات التي بينه وبين الله، هذا ذنب بينك وبين الله، ما كان بينك وبين الله يغفر، وما كان بينك وبين العباد لا يُترك إلا بالأداء أو المسامحة، أما ذنب الشرك لا يُغفر ما لم تتب منه.

فالتوبة عن المعاصي التي بينك وبين الله قوامها الندم والاستغفار والضراعة، والإكثار من الطاعات والقربات، وهو أهون أنواع التوبات.

وأما التوبة عن المعاصي التي بينك وبين الخلق كالاعتداء على النفس، والاعتداء على الأموال بالغصب والخيانة والتلبيس في المعاملات، والاحتيال، والاستغلال وما شاكل ذلك، فهذا لا تقع التوبة منه إلا بالأداء أو المسامحة.

فهذه الأموال تُرد إلى صاحب المال الذي اغتصب منه، أو تُرد إلى ورثته، وحينما لا تعلم صاحب المال، ولا تعلم ورثته ينبغي أن تتصدق به، لا تصح توبة من مال مغصوب إثماً إلا برد الأموال إلى أصحابها، أو إلى ورثتهم، أو التصدق بها في حال لا يعلم التائب من صاحب هذا المال.

وأما العدوان على الأعراض والعدوان على القلوب بالغيبة والنميمة فهذا لابد من الاستحلال والاعتذار والمسامحة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ قَالَ إِنّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمّ طُرِحَ فِي النّارِ ".))

[أخرجه مسلم والترمذي]

أيها الإخوة الكرام: لكن الشيء الذي أقف عنده طويلاً هو ظني الحسن بأن الإخوة الكرام رواد المساجد المؤمنين الصادقين هؤلاء لا يأكلون مالاً حراماً ولا يعتدون على الناس بلسانهم بالغيبة والنميمة، إنما هناك مجموعة من الذنوب يقع بها المؤمنون الذين يتوهمون أنهم صادقون.

لا يتوهمن المرء أن التوبة مقصورة على المخطئين العصاة، بل إن أهل الطاعات محتاجون إلى التوبة، ومن ظن أنه ليس عنده ما يتوب منه، أو ظن أنه مستغن عن التوبة، فقد زلّ وضلّ.

الحديث الآن عن أهل الطاعات، عن رواد المساجد، عن الملتزمين، عن المؤمنين هؤلاء الذين يظنون أنهم ليس عندهم ما يتوبون منه، والحقيقة عكس ذلك.

من هذه الذنوب التي ينبغي أن يتوب منها المؤمنون الملتزمون طالبوا العلم، الخلل الذي يقع في الطاعات نفسها، فإن المرء قلّ ما يأتي بالطاعة، والعبادة مبرأةً من كل عيب، فقد تخلو الصلاة من حضور القلب، وخشوع الجوارح، وكذلك الصيام والحج، فهذه التقصيرات، وذاك الخلل في العبادات التي أمرنا بها، يجب أن تتوب منه.

شيء آخر ؛ من ظن بأن هذه الطاعات هي منتهى حق الله علينا وأن من أداها فقد فرغ ذمته، ودفع لله ثمن نعمته، وثمن جنته وبقي أن يبعث الله ملائكته ليسلم هذا المغرور مفاتيح الجنة التي استحقها بعمله، هذا ذنب يجب أن تتوب منه، لأن الله سبحانه وتعالى جعل الجنة محض فضل، وجعل النار محض عدل.

والنبي عليه الصلاة والسلام ذكر أنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، قيل ولا أنت يا رسول الله، قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ولهذا الحديث شرح طويل.

هذا الإنسان الذي توهم هذا الوهم قد يظن أو قد يغيب عن ظنه أن النعمة الواحدة من نعم الله عز وجل ترجح بعمله كله يوم القيامة النعمة الواحدة من نعم الله عز وجل، ترجح بكل أعماله يوم القيامة وأن أحداً لن يدخل الجنة بعمله ما لم تشمله رحمة الله عز وجل فقد روى الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ فَقِيلَ وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي رَبِّي بِرَحْمَةٍ".))

[متفق عليه]

أضرب لكم مثلاً يوضح معنى هذا الحديث:

لو أن أباً وعد ابنه بدراجة غالية الثمن إذا هو نجح، ما إن نجح هذا الابن حتى توجه إلى بائع الدراجات يعطيه الجلاء ليأخذ منه الدراجة هذا شيء غير صحيح، لولا أن الأب تكفل بدفع الثمن

لما كان جلاء هذا الابن كافياً لشراء هذه الدراجة، فالعمل الصالح سبب وليس ثمناً قد تدخل بيتاً ثمنه خمسون مليون، بمفتاح ثمنه ستة عشر ليرة هل هذا المفتاح هو ثمن هذا البيت، أم هو سبب لدخول هذا البيت، فرق كبير بين المفتاح وبين الثمن، أعمال الإنسان الصالحة كلها ليست ثمناً للجنة ولكنها سبب بدخول الجنة، وفرق كبير بين السبب، وبين الثمن **" الجنة محض فضل، والنار محض عدل".**

هناك ذنب هو أن يتمسك الإنسان ببعض القربات وغيرها أوجب منها وألزم، فيستمسك بالحسن ويترك الأحسن، وربما كانت الضرورة ملحة جداً بالأخذ بالأحسن، مثال ذلك الغني الذي يستكثر من الصلوات النافلة، ويمسك عن الإنفاق في سبيل الله، والبذل في حين أن المحتاجين والمعوزين يئنون حوله من ألم الحرمان، هذا الغني الذي يكثر من الصلوات والنوافل، ويمسك ماله عن أن ينفقه ينبغي أن يتوب من هذا المسلك، لأن الواقع يحتاج إلى غير هذا السلوك، هذا نمط من أهل الطاعات.

العالم البليغ الذي يصوم يوم الاثنين والخميس، ويكثر من الأوراد والأذكار، ويلوذ بالصمت في مواطن الزجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان الحق، يجب أن يتوب من هذا المسلك.
والقوي الذي يكثر من قراءة الكتب الدينية، ويحجم عن نصرة المظلوم، يجب أن يتوب من هذا المسلك.

والمحسن الذي يعطي، ثم يمن، أو يطلب بعطائه الصدارة بين الناس، رجل يحبط بهذا المسلك عمله، ويضيع أجره، ويجب أن يتوب من هذا المسلك.

المستقيم الذي يتيه باستقامته على الناس، ويظن أن الناس هالكون وأنه وحده هو الناجي، وأنه فوقهم جميعاً، يجب أن يتوب من هذا الوهم، وهذا المسلك.

((" لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر (ما الذي هو أكبر من الذنب) قال عليه الصلاة والسلام العجب ".))

والمتفوق في أحد الاختصاصات الدينية، كعلم التفسير، وعلم الحديث والفقه، وعلوم اللغة، هذا الذي يعظم اختصاصه، ويجعله الدين كله، ويزدري اختصاصات الآخرين، لا لشيء إلا لأنهم لم يعظموا اختصاصه، هذا يجب أن يتوب من هذا المسلك.

هناك ازدراء متبادل، بين من يسمون أنفسهم علماء الحقيقة، وبين علماء الشريعة، هذا الازدراء ذنب من الذنوب ينبغي أن يتوب الناس منه.

الحقيقة أن كل صاحب اختصاص في الدين سد ثغرة في هذا الدين العظيم، وله عند الله أجر عظيم، والذي يعتقد أن الدين حكر على شخص، أو جماعة، أو طائفة، أو مذهب،أو مدينة، أو بلد، أو

مصر، أو جيل، أو حقبة يجب أن يتوب من هذا الوهم، وهذا المسلك، يجب أن يعتقد أن الدين كالهواء، يحتاجه الناس جميعاً في شتى العصور والأمصار، وأن جنة الله، هي لكل المؤمنين الصادقين المستقيمين، في كل العصور والأقاليم.

والذي يظن أن الله لا ينصر عباده المؤمنين، بل يقوي أعداءهم ليجعلهم تحت رحمتهم، وأن الله كما يتوهم هذا الإنسان يمكن الكفر من الإيمان تمكيناً مستمراً ومستقراً فقد ظن بالله ظن غير الحق ظن الجاهلية، وأنه عليه أن يتوب من هذا الوهم وهذا الذنب.

قال: **يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك، قال أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك، قال ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي.**

الذي لا يحمل هموم المسلمين، الذي لا يفقد إخوانه المؤمنين، الذي لا يعنيه أمر المسلمين، ولا يلقي بالاً لمشكلاتهم، ولا لما يعانونه، هو إنسان مذنب ينبغي أن يتوب من هذا الذنب، **" من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم "**.. يجب أن تتوب من هذا الذنب، يجب أن تحمل هموم المسلمين، يجب أن تشغلك مصالح المسلمين بعامة عن مصالحك بخاصة.

والذي يظن أن الله أجبر عباده على المعصية، وسيحاسبهم عليها وسيدخلهم النار، وأن الإنسان لا اختيار له، إنه كريشة في مهب الريح،

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيّاك إياك أن تبتل بالماء

***

وينسى قوله تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨))

[سورة الأنعام]

هذا الذي يظن أن الله أجبر عباده على المعصية، وأن المعاصي التي يقترفها العباد، لا خيار له في اقترافها، وأن الله سيحاسبهم وسيدخلهم النار عقاباً لهم على ما لم تقترف أيديهم، هذا الذي يظن هذا الظن، ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية، ينبغي أن يصحح عقيدته ويتوب إلى الله عز وجل.

والذي يعظم أهل الكفر، ويثني على ذكائهم، يذهب إلى بلادهم يرى أبنيتهم، حدائقهم، محلاتهم، الرفاه الذي يحيونه، يثني لغيهم وعلى ذكائهم، وعلى قوة شخصيتهم، ويحتقر أمته، وينسى أن هذا

الذي يعيشونه على أنقاض الشعوب الأخرى ينسى انحلالهم الأخلاقي ينسى كفرهم، ينسى ظلمهم لشتى الشعوب، **" من هوي الكفرة حُشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً "** وهذا ذنب من الذنوب أن تثني على الكفار، وأن تسبغ عليهم كل صفات العقل والحكمة والذكاء والقوة وتنسى أنك مسلم عندك دين عظيم لو طبقت تعاليمه لكنت أول الأمم.

شيء كثير يحتاجه رواد المساجد، يحتاجه المؤمنون كي يتوبوا منه ورد في الحديث الشريف:

((" الذنب شؤم على غير صاحبه))

(على صاحبه شيء مفروغ منه المذنب ملام ومحاسب ومعاتب، ولكن الحديث يشير إلى أن هناك إنساناً لم يذنب، لكنه أصابته جريرة ذنب أخيه، ما هذه الجريرة)

((الذنب شؤم على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن عيره ابتلي به، وإن رضي به شاركه في الإثم ".))

أيها الإخوة الكرام: إن كثيراً من الأعمال الطيبة، يأتي بها بعض الناس، ويؤثرونها على غيرها، لأنها أقرب إلى الهوى، وأقرب إلى السلامة، أو أن أصحابها يجنون فوائد دنيوية، إن هذه الأعمال ينبغي أن توضع على ميزان دقيق.

أنا أخاطب المؤمنين، أخاطب طلاب العلم، أخاطب رواد المساجد أخاطب الذين ابتعدوا عن الكبائر، أخاطب الذين يرجون رحمة الله أخاطب الذين أرادوا الآخرة، هناك مزالق خطيرة.

المستقيم مثلاً الذي ظن أن استقامته بسبب قوة إرادته وعزيمته وحزمه لا بتوفيق الله تيسيره واهم ومخطئ، ويجب أن يتوب من هذا الوهم، وهذا الاعتقاد وهذا المسلك، ماذا قال سيدنا يوسف:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣))

[سورة يوسف]

هذا الذي ينتسب إلى جماعة، أو إلى مسجد، ويظن أن وحده، أو جماعته هي الفرقة الناجية، وأن بقية الجماعات الذين لم يعتقدوا اعتقاده، هؤلاء ليسوا ناجين، وأنهم هالكون، عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاةٍ وَقُمْنَا مَعَهُ فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ ".))

[أخرجه البخاري والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

جميل جداً أن يكون لك مسجد، وأن يكون لك جماعة تأنس بها وتستفيد من علمها، ومن أخلاقها، ومن روحانيتها، ولكن القبيح أن تظن أن الجماعات الأخرى ليسوا على شيء.

الذي ينصب نفسه وصياً على المسلمين، يوزع ألقاب الإيمان والكفر والشرك، على الناس كافة، وكأنه أوحي إليه بعد رسول الله أو كأنه اطلع على اللوح المحفوظ، يتألى على الله، ويجب أن يتوب من هذا المسلك، ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لامرأة قالت لصحابي جليل، كان ميتاً، والنبي عليه الصلاة والسلام جاء ليودعه قبل الدفن.

((قالت هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، فقال عليه الصلاة والسلام: ومن أدراك أن الله أكرمه، قولي أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ماذا يُفعل بي ولا بكم "))

هذا الذي يسيء إلى غير المسلمين، ظناً منه أن هذا يرضي الله عز وجل واهم ومخطئ، ويجب أن يتوب من هذا الذنب، وهذا المسلك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آَمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢))

[سورة المائدة]

يعني إذا توهمتم أن إيذاء غير المسلمين، وأن ظلمهم يقربكم إلي أنتم واهمون ومخطئون، اعدلوا معهم، فإن عدلكم معهم يقرّبهم إليكم ولعلهم يتوبون من ذنوبهم، إن عدلهم معكم يقربهم إلى الله عز وجل

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢))

أيها الإخوة الكرام: سيدنا أبو ذر الغفاري خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم، قال:

((" يا أبا ذر خفف الأثقال فإن العقبة كؤود، أكثر الزاد فإن السفر طويل، أحكم السفينة فإن البحر عميق، أخلص النية فإن الناقد بصير))

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠))

[سورة الكهف آية ١١٠]

الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم، والذي يبين فيه قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((" أنه قد يؤتى بالعالم، يقال ماذا عملت بعلمك يقول يا رب علمت الناس، يقال له علمتهم ليقال عنك عالم وقد قيل يأتي بالذي يقرأ القرآن، يقال له ماذا فعلت بالقرآن.. يا رب أقرأته الناس، يقال له قرأت ليقال عنك قارئ وقد قيل خذوه إلى النار"))

أخلص النية فإن الناقد بصير.

يا أيها الإخوة الكرام: ليس وسام شرف أن يقول المسلم أن لا أفعل الكبائر، هذا شيء بديهي، هذا شيء مفروغ منه، يقول عليه الصلاة والسلام:

((" إن الشيطان يأس أن يُعبد في أرضكم، ولكنه رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم".))

هذه الصغائر إذا أصر المسلم عليها واستمر عليها انقلبت إلى كبائر انقلبت إلى حجب كثيفة بين العبد وربه.

يا أيها الإخوة الكرام: يجب أن نحاسب أنفسنا حساباً دقيقاً، يجب أن نلحظ عقائدنا هل هناك عقائد غير صحيحة، تتناقض مع القرآن الكريم، ومع سنة سيد المرسلين، هل هناك مشاعر غير صحيحة مشاعر العجب والكبر ؟ هل هناك تعصب أعمى ؟.. هل هناك انتقاص من أقدار الآخرين ؟ واحد سأل النبي عليه الصلاة والسلام أحدنا يحب الثوب الحسن هل هذا من الكبر ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((الكبر بطر الحق وغمص الناس ".))

[أخرج مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة]

أن ترد الحق، وأن تزدري الناس، وأن تحتقرهم، وأن تنكر عليهم فضلهم، وأن تزهو بنفسك وعلمك على الآخرين.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((" لن تُغلب أمتي من اثني عشر ألف من قله ".))

هذه الملايين المملينة، في شتى القارات، لماذا كلمتهم ليست هي العليا، لماذا للكفار عليهم ألف سبيل وسبيل، أين التمكين الذي وعدنا الله به، أين الاستخلاف الذي وعدنا الله به، أين التطمين الذي عدنا الله به، أين الدفاع عن المؤمنين الذي وعدنا الله به، أين النصر الذي وعدنا الله به:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧))

[سورة الروم]

يجب أن نتوب من هذه الصغائر وهذه الذنوب التي نتوهمها صغائر وهي عند الله كبائر.

حينما نخاطب الكفار المتفلتين نقول لهم آمنوا بالله، نقول لهم آمنوا بالقرآن الكريم، أما حينما نخاطب المؤمنين إيمانهم مفروغ منهم ومنهجهم هو القرآن وسنة النبي العدنان، ولكن هناك دقة بالغة في بعض ما يعتقدون وبعض ما يسلكون.

شيء آخر في هذا الموضوع هو التعجيل بالتوبة، وأن تكون التوبة عقب الذنب مباشرة، لأن الإنسان إذا طال عليه الأمد قسا قلبه وإذا قسا قلبه ابتعد عن التوبة بعد الأرض عن السماء.

وشيء آخر أن هناك من الذنوب ما يعجل الله عقابه في الدنيا قبل الآخرة، إنه البغي والعدوان، وعقوق الوالدين..

اثنان لا تقربهما، الإشراك بالله، والإضرار بالناس.

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: من الآيات المدهشة، التي تلفت النظر وتعظم خالق الإنسان، هذا اليد التي نملكها، قال العلماء، في اليد خمسة أصابع، وفي كل أصبع ثلاث سلاميات إلا الإبهام، فهو مكون من سلاميتين، وهنا السرٌ.

قد لا تصدق أن حضارة الإنسان التي يزهو بها متعلقة بهذا الإبهام قد لا تصدق، الإبهام مما يتفرد به الإنسان على بقية المخلوقات..

على السلامة الثانية في هذا الإبهام يرتكز وتر مع عضلة قابض طويل يطوي السلامة الثانية، فيعطي الإبهام رشاقته، ودقته التي يتفوق بها الإنسان على سائر المخلوقات.

بسبب دقة بناء اليد انطلقت هذه اليد لتؤدي مهمات لا حصر لها.

أيها الإخوة الكرام: لعب الإبهام...

الاتجاهات، هذا مفصل دقيق جداً، لولا هذا الإبهام وحده لما كان لهذه الأصابع من قيمة، جرب أن تكتب من دون إبهام، أو أن تخيط من دون إبهام، أو أن ترتدي ثيابك من دون إبهام، أو أن تعمل على آلة من دون إبهام، جرّب.. إنك لن تستطيع شيئاً، هذه صنعة الله التي أتقنها:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨))

[سورة النمل]

مفصله الكروي يعطيه المرونة الفائقة، والسلاميتان الاثنتان مزودتان بما لا يقل عن خمسة أوتار، يمنحه الحركة برشاقة في كل الاتجاهات، من البسط، والقبض، والتبعيد، والتقريب، والدوران والإمساك، والمقابلة.

لو أن ضارباً على جهاز الكومبيوتر، جلس ست ساعات على هذا الجهاز يضرب على أزراره لبذل هذا الإبهام جهداً يساوي أن يمشي على قدميه أربعين كيلو متر، وهو لا يدري.

أحد العلماء الغربيين قال: هذا الإبهام العجيب هو الذي فتح لنا هذا العالم العجيب، فزاد معرفتنا بالله عز وجل، وعظمته ووحدانيته إن هذه الأداة المذهلة اليد، فيها مجموعة من العظام، والأوتار والعضلات، والأعصاب، والشرايين، والأوردة، والعروق اللمفاوية.

في اليد سبعة وعشرون عظماً، وثمانية وعشرون مفصلاً، وثلاث وثلاثون عضلة.

عظام الرسغ سبع، وهذا الرسغ أيضاً يعطي اليد الحركة في كل الاتجاهات، ولولا هذا الرسغ لما كان لهذه اليد من معنى، ولو أنها باتجاه واحد، فقدت معظم خصائصها.

تمر شبكة سقي وتروية دموية من أبدع ما خلق الله عز وجل تصب هذه الشبكة في نهرين عظيمين على حافتي الرسغ، في شلالين متعانقين متظافرين، وريد وشريان، يتوزع عنهما شبكة دقيقة جداً في اليد، ففي أي مكان وضعت رأس إبرة يخرج الدم، معنى ذلك أن هاك شبكة دقيقة جداً.

وأما المنظم، فهي شبكة عصبية محكمة، متدفقة من ثلاث كبلات أعصاب المتوسط، والزندي، والعكبري، تستقبل الحس، وتوجه الحركة، وهناك نظام إرادي، ونظام لا إرادي، مرتبط بالفعل المنعكس الشطي، لو درسنا هذه اليد لوجدناها آية من آيات الله عز وجل.

هذه الحضارة، هذا المسجد، هذه الصناعات، هذه الآلات، لا معنى لها من دون يد، الله جل جلاله كرم الإنسان بهذه اليد، وهذه من أقرب الآيات إلينا، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١))

[سورة الذاريات]

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦١٧ : أحاديث شريفة (ما من مسلم١).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٦-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: في كتب الحديث الصحاح التسعة مائة حديث شريف تبدأ بقوله صلى الله عليه وسلم ؛ ما من مسلم، وقبل أن أعرض عليكم بعضاً من هذه الأحاديث لابد من أن أضع بين أيديكم حقيقة هذه (من).. ما من مسلم.. قال علماء اللغة: إنها تفيد استغراق أفراد النوع، أيْ أيُّ مسلم على الإطلاق، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي ورد في صحيح البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد]

لأنه حقق ما يُسمى اليوم بالأمن الغذائي، أحياناً يحقق الإنسان مصلحته الفردية، ولكن مع تحقيق هذه المصلحة الفردية تتحقق مصلحة الجماعة، تتحقق مصلحة المسلمين فالعمل الذي تعمله إذا كان حلقة في سلسلة تحقق مصالح الأمة، فهذا العمل ينبغي أن تلزمه وينبغي أن تحرص عليه.

أيها الإخوة الكرام:

((كاد الفقر أن يكون كفراً..))

ما ذهب الفقر إلى بلد إلا قال الكفر خذني معك..

الإنسان كما ورد **" إذا أحرزت النفس قوتها اطمأنت "** فالذي يضع بين أيدي الناس محاصيل زراعية، خضاراً فواكه، أشياء تعينهم على قوام حياتهم، فضلاً عن أنه حقق مصلحته الشخصية، بأن كسب رزقاً حلالاً، هو حقق مصلحة الجماعة، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيم استعملك، هناك من يعيش على ما يناقض مصلحة الجماعة هناك من يكسب رزقه على ما يناقض مصلحة الجماعة، وهناك إنسان يكسب رزقه وفي الوقت نفسه يحقق مصلحة الجماعة، الجماعة المؤمنة..

((" مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ وَقَالَ لَنَا مُسْلِمٌ حَدَّثَنَا أَبَانُ حَدَّثَنَا قَتَادَةُ حَدَّثَنَا أَنَسٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ".))

حديث ابن مسعود قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي:

((" إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب واستجملوا مهنكم"))

[أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف]

ابحث عن حرفة ترضي الله، ابحث عن حرفة تحقق مصالح المسلمين ابحث عن حرفة قوامها العطاء لا الأخذ، ابحث عن حرفة تسهم بها في بناء الإنسان لا في هدمه، في تطمينه لا في إخافته، في إغنائه لا في إفقاره.

يد الله مع الجماعة، ويد الله على الجماعة، ومن شَذّ شذّ في النار ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وهذا الحديث الصحيح في صحيح البخاري:

((" مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ".))

هنيئاً لمن كانت حرفته تتوافق مع مصالح المسلمين، هنيئاً لمن كانت حرفته تبني ولا تهدم، تطمئن ولا تخيف، تعطي ولا تأخذ تصلح ولا تفسد، كم من إنسان يكسب رزقه على إفساد الشباب، كم من إنسان يبني رزقه على إفساد دين الناس، كم من إنسان يبني رزقه على إشاعة المنكرات بين الناس، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، شيئان لصيقان بك، زوجتك وحرفتك، يجب أن تختار حرفتك بعناية فائقة، لأنها سبب رقيك عند الله، أو سبب حجابك عن الله عز وجل.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا قَالَ أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ قُلْتُ ذَلِكَ أَنّ لَكَ أَجْرَيْنِ قَالَ أَجَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والدرامي]

كل ما يزعج المسلم، كل ما يؤلم المسلم، كل ما يحرج المسلم كل ما يضيق به المسلم كفارات لذنوبه، حتى يلقى الله كيوم ولدته أمه.

((" وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه أو مصيبةً في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه".))

لا تضجر من مصيبة حلت بك، لا تضجر من تضييق ضيقه الله عليك، لا تضجر من هم تسرب إلى قلبك، اعلم علم اليقين أن هذه المزعجات مكفرات، اعلم علم اليقين أن هذه الشدائد تشدك إلى الله فما من شدة إلا وراءه شَدَّةً إلى الله.

قَالَ عُثْمَانُ:

((حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ انْصِرَافِنَا مِنْ صَلَاتِنَا هَذِهِ قَالَ مِسْعَرٌ أُرَاهَا الْعَصْرَ فَقَالَ مَا أَدْرِي أُحَدِّثُكُمْ بِشَيْءٍ أَوْ أَسْكُتُ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ خَيْرًا فَحَدِّثْنَا وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَطَهَّرُ فَيُتِمُّ الطُّهُورَ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهَا ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدرامي]

وهذه بشارة أيضاً ـ أيها الإخوة ـ الصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينها إذا اجتنبت الكبائر.

أيها الإخوة الكرام، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا قَالَتْ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ فَقُلْتُ إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ فَقَالَ أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا وَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ ".))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك]

هكذا علمنا النبي عليه الصلاة والسلام..

إذاً الدعاء الذي علّمنا إيّاه النّبي عليه الصلاة والسلام، ما من مسلم دعا به عند المصيبة إلا آجره الله عزّ وجل وأخلفه خيراً منها.

أيها الإخوة الكرام: لازلنا في الأحاديث الصحيحة التي تبدأ بكلمة ما من مسلم.

عن عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ ".))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

عيادة المريض طاعة لله عز وجل، عيادة المريض عبادة من أجل العبادات، سنة من أجل السنن، لماذا ؟.. لأنك إن عدت مريضاً اقتربت أنت من الله، وقربته من الله، وقد ورد في الحديث القدسي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ".))

[أخرجه مسلم وأحمد]

يعني إذا سلب الله من إنسان بعض صحّته عوّضه عليه قُرباً وإشراقاً، وطمأنينة وسعادة أضعاف الذي أخذه منه، فإن زرت مريضاً، هذه الزيارة تقربك من الله عز وجل، وإن عدّته أيضاً هذه العيادة ترفع من معنوياتك، فمن عاد ميضاً فكأنما يخوض في الرحمة خوضاً.

عن ابن عباس قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا إِلّا كَانَ فِي حِفْظٍ مِنَ اللّهِ مَا دَامَ مِنْهُ عَلَيْهِ خِرْقَةٌ ".))

[انفرد به الترمذي وقال حديث حسن غريب]

إذاً من الأعمال الطيّبة أن تستر عورات المسلمين، أن تستر عوراتهم بإهدائهم كسوةً، أن تلبسهم ثوباً، أن تجعلهم يفرحون بما عليهم من ثياب.

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا ".))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة]

هذه المودّة، وهذه الطّلاقة، وهذه البشاشة، هذا السلام، وهذه المصافحة تمتن ما بين المسلمين، تجعلهم كتلة واحدة، تبعد عنهم الشيطان.

من علامة الإيمان أن تكون علاقتك طيبة جداً بإخوانك المؤمنين لا حسد، ولا حقد، ولا ضغينة، ولا طعن، ولا نميمة، ولا بغض:

((" كفى بالمرء إثماً أن يحقر أخاه المسلم ".))

((" مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا ".))

عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنْظَلَةَ قَالَ صَحِبْتُ شَدّادَ بْنَ أَوْسٍ رَضِيَ اللّه عَنْهم فِي سَفَرٍ فَقَالَ أَلَا أُعَلِّمُكَ مَا كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُعَلِّمُنَا أَنْ نَقُولَ:

((اللّهُمّ إنِّي أسْأَلُكَ الثّبَاتَ فِي الْأمْرِ وَأسْأَلُكَ عَزِيمَةَ الرُّشْدِ وَأسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ وَأسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا وَقَلْبًا سَلِيمًا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ مَا تَعْلَمُ وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ مِمّا تَعْلَمُ إنّكَ أنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ قالَ وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَأْخُذُ مَضْجَعَهُ يَقْرَأُ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللّهِ إلّا وَكّلَ اللّهُ بِهِ مَلَكًا فَلَا يَقْرَبُهُ شَيْءٌ يُؤْذِيهِ حَتّى يَهُبّ مَتَى هَبّ".))

[أخرجه الترمذي وأحمد]

إن أردت أن تنام ليلاً مريحاً، نوماً سليماً، نوماً آمناً، نوماً معافى من كل مشكلة، فقرأ سورةً من القرآن الكريم، عندئذ يوكل الله لك ملك يحفظك وأنت نائم.

الآن حديث من سلسلة هذه الأحاديث:

عن شُعَيْبٍ عَنْ أبيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَا تَنْتِفُوا الشّيْبَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِي الْإسْلَامِ قَالَ عَنْ سُفْيَانَ إلّا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".))

[أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة]

القصد من هذا الحديث الثبات، يعني تعرف إلى الله وعاهده على الطاعة واستمر على هذه الطاعة إلى أن شاب شعره.. الثبات الديمومة

((".... أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ "))

[متفق عليه]

أن تشيب على طاعة الله، أن تشيب على طاعة الله، أن تموت على طاعة الله، أن تُحشر على طاعة الله، الاستمرار، العامة يقولون: (الثبات نبات) والثبات في الإيمان هو الذي يملأ الوعاء نقطة من حين لآخر لا تملأ وعاءً، سرعان ما تجف، لابد من الديمومة، لابد من الثبات.

عَنْ أبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إنّ مِنْ إجْلَالِ اللّهِ إكْرَامَ ذِي الشّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ وَإكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ ".))

[انفرد به أبو داود]

يعني نشأ وترعرع، ونما وشبّ، واكتمل وشاخ وهو في طاعة الله:

((إنّ مِنْ إجْلَالِ اللّهِ إكْرَامَ ذِي الشّيْبَةِ الْمُسْلِمِ.))

ما من مسلم يبيت على ذكر طاهراً، ما أكثر الحاجات التي يحتاجها الإنسان، ما أكثر الأزمات التي يعيشها الإنسان، ما أكثر الأخطار التي قد يتعرض لها الإنسان، ما أكثر ما تحتاج الله عز وجل، إنك تحتاجه في كل شيء.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ عَلَى ذِكْرٍ طَاهِرًا فَيَتَعَارُّ مِنَ اللَّيْلِ فَيَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ ".))

[رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد]

وعن عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ مَا صَلَّى عَلَيَّ فَلْيُقِلَّ الْعَبْدُ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ ".))

[انفرد به ابن ماجة]

من معاني الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أن تذكره دائماً، أن تذكر فضله، أن تذكر شمائله، أن تذكر كمالاته، أن تذكر سنته، أن تقتفي أثره، أن تطيعه فيما أمر، أن تطبق ما أعطاك، أن تنتهي عما عنه نهاك، هذا مما تعنيه الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا حديث لم عليه دين، عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مَيْمُونَةَ قَالَتْ:

((كَانَتْ تَدَّانُ دَيْنًا فَقَالَ لَهَا بَعْضُ أَهْلِهَا لَا تَفْعَلِي وَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا قَالَتْ بَلَى إِنِّي سَمِعْتُ نَبِيِّي وَخَلِيلِي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدَّانُ دَيْنًا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَدَاءَهُ إِلَّا أَدَّاهُ اللَّهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا ".))

[أخرجه ابن ماجة والنسائي]

إن كان عليك دين أنوي أن تؤدّيه لصاحبه، هذه النية وحدها تجلب لك التيسير، تجلب لك وفاء الدين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ ".))

[أخرجه البخاري وابن ماجة وأحمد]

شيء آخر متعلق بالذي يقرض الناس:

((عَنْ قَيْسِ ابْنِ رُومِيٍّ قَالَ: كَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ أُذُنَانٍ يُقْرِضُ عَلْقَمَةَ أَلْفَ دِرْهَمٍ إِلَى عَطَائِهِ فَلَمَّا خَرَجَ عَطَاؤُهُ تَقَاضَاهَا مِنْهُ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ فَقَضَاهُ فَكَأَنَّ عَلْقَمَةَ غَضِبَ فَمَكَثَ أَشْهُرًا ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ أَقْرِضْنِي أَلْفَ دِرْهَمٍ إِلَى عَطَائِي قَالَ نَعَمْ وَكَرَامَةً يَا أُمَّ عُتْبَةَ هَلُمِّي تِلْكَ الْخَرِيطَةَ الْمَخْتُومَةَ الَّتِي عِنْدَكِ فَجَاءَتْ بِهَا فَقَالَ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّهَا لَدَرَاهِمُكَ الَّتِي قَضَيْتَنِي مَا حَرَّكْتُ مِنْهَا دِرْهَمًا وَاحِدًا قَالَ فَلِلَّهِ أَبُوكَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ بِي قَالَ مَا سَمِعْتُ مِنْكَ قَالَ مَا سَمِعْتَ مِنِّي قَالَ سَمِعْتُكَ تَذْكُرُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ

صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قالَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقْرِضُ مُسْلِمًا قَرْضًا مَرّتَيْنِ إلّا كَانَ كَصَدَقَتِهَا مَرّةً قالَ كَذَلِكَ أَنْبَأَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ ".))

[انفرد به ابن ماجة]

إن أقرضته مرتين إحدى المرتين صدقة، وفي بعض الأحاديث نصف قيمة القرض لك صدقة تُكتب عند الله، هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا ينطق عن الهوى.

ما كل إنسان يأخذ منك صدقة، هناك إنسان لا يأخذ إلا دين، فإذا أُغلق باب الدين وقع أناس كثيرون في صعوبات كثيرة، يجب أن تفتح باب الدين وباب الصدقة، أن تفتح باب الزكاة، وباب الصدقة، وباب الدين، هناك نفقات تُحسب من الزكاة، وهناك نفقات ترضي الله عز وجل، ولكنها تُحسب من الصدقات، وهناك نفقات هي دين، نصف قيمته تُحسب صدقةً لك.

عَنْ أَبِي سَلّامٍ خَادِمِ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ إِنْسَانٍ أَوْ عَبْدٍ يَقُولُ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ رَضِيتُ بِاللّهِ رَبّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمّدٍ نَبِيّا إِلّا كَانَ حَقّا عَلَى اللّهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".))

ورضيت بمحمد نبياً: يعني وسعته السنة، ولم تستهوه البدعة رضي بالقرآن منهجاً، رضي بالسنة الشريفة منهجاً تفصيلياً، رضي بالإسلام ديناً، ملأ الإسلام قلبه، رضي بالله رباً، جعل صلاته وصيامه وكل نسكه لله عز وجل..

((" مَا مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ إِنْسَانٍ أَوْ عَبْدٍ يَقُولُ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ رَضِيتُ بِاللّهِ رَبّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمّدٍ نَبِيّا إِلّا كَانَ حَقّا عَلَى اللّهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".))

أنت رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وحق على الله عز وجل أن يرضيك يوم القيامة..

لو أن الإنسان أذنب ذنباً ماذا يفعل، عَنْ أَسْمَاءَ ابْنِ الْحَكَمِ الْفَزَارِيّ قال سَمِعْتُ عَلِيّا يَقُولُ:

((إِنّي كُنْتُ رَجُلًا إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَدِيثًا نَفَعَنِي اللّهُ مِنْهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ وَإِذَا حَدّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ اسْتَحْلَفْتُهُ فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدّقْتُهُ وَإِنّهُ حَدّثَنِي أَبُو بَكْرٍ وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمّ يَقُومُ فَيَتَطَهّرُ ثُمّ يُصَلّي ثُمّ يَسْتَغْفِرُ اللّهَ إِلّا غَفَرَ اللّهُ لَهُ ثُمّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ

(وَالّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)

إِلَى آخِرِ الْآيَةِ".))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة واحمد]

بقي حديث أخير، هذا الحديث الأخير يقصم الظهر، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ الْتَقَيَا بِأَسْيَافِهِمَا إِلَّا كَانَ الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ ".))

[انفرد به ابن ماجة]

هذا الذي نسمعه في أقصى الشرق، عن معارك طاحنة، دامت سنوات طويلة بين المسلمين..

((مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ الْتَقَيَا بِأَسْيَافِهِمَا إِلَّا كَانَ الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ))

إذاً هما يتخاصمان على الدنيا، لو تخاصما على الآخرة لما تخاصما، لأن المعركة بين حقين لا تكون الحق لا يتعدد، وبين حق وباطل لا تدوم لأن الله مع الحق، أما إذا طالت وامتدت فهي معركة بين باطلين.

((" مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ الْتَقَيَا بِأَسْيَافِهِمَا إِلَّا كَانَ الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ ".))

هناك أحاديث أخرى يسأل أصحاب رسول الله نبيهم صلى الله عليه وسلم..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ "))

[متفق عليه]

يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً.

لهذا الموضوع تتمة في الأسبوع القادم إن شاء الله..

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: بفضل الله ورحمته، قبل عام أو أكثر تم تأسيس وإنشاء صندوق العافية، وهذا عمل طيب وجليل بادر إلى إنشائه وتأسيسه إخوة كرام معظمهم من رواد هذا المسجد، هذا الصندوق يعني أن كل فقير في مدينة دمشق حصراً إن أصيب بمرض عضال، هذا الصندوق يتكفل له أن يجري أية عملية في أي بلد على الإطلاق، وفيما أعلم ولا أزكي على الله أحد القائمون على هذا الصندوق ممن يخافون الله عز وجل، إداريين وأطباء، وهذا الصندوق أعطي صلاحيات واسعة

بإمكانه أن يأخذ حسومات من معامل الأدوية، ومن شركات الطيران ومن المؤسسات الاقتصادية، ومن أية جهة رسمية ؛ لأنه أسس بمرسوم، وله صلاحيات، وله ضبط دقيق جداً.

من نشاطات هذا الصندوق أنه يجبي من المساجد، وسف أبلغكم أن المال الذي تدفعونه إلى الصندوق اليوم يمكن أن يُحسب من الزكاة ليس لإنشاء مسجد هذا من الصدقة، أما أن تجري عملية جراحية لإنسان مسلم فقير، لا يقوى على إجراء هذه العملية، وهناك عمليات جراحية تكلف الإنسان ثمن بيت، أو ثمن كل ما يملك، فيا أيها الإخوة الكرام، أرجو الله سبحانه وتعالى، أن تبادر بقية المحافظات في بلدنا الطيب إلى تأسيس مثل هذه الصناديق.

خبرني أخ كريم جزاه الله خيراً، وهو حاضر معنا، أنه تمت في هذه الفترة التي لا تزيد عن سنة مئتا عملية جراحية، فأي إنسان مصاب بمرض عضال، ولا يملك ثمن العملية الجراحية، ما على هذا الأخ الكريم إلا أن يتوجه إلى صندوق العافية في الميدان في إتحاد الجمعيات الخيرية، يقدم طلب ويحول إلى جمعيته التي يسكن قربها تؤخذ التحقيقات اللازمة، ويُعرض على الأطباء الاختصاصين وبعدها يقرر أن تجرى العلمية له في أي مكان بحسب مصلحة مرضه.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦١٨ : أحاديث شريفة (ما من مسلم٢).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٦-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: في الأسبوع الماضي تحدثت عن بضعة أحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم تبدأ بقوله ما من مسلم، ووعدتكم أن أتابع هذا الموضوع في هذه الخطبة، فقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه أحمد:

عَنْ خَوْلَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَظْعَنَ مِنْهُ".))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد]

الاستعاذة بالله باب كبير من أبواب السلامة، وسبب عظيم للنجاة من أخطار الدنيا، ومن مطباتها، ومن المواقف التي يشتد فيها الألم ويعظم فيه المصاب.

الدعاء مخ العبادة، والدعاء أعلى درجة من درجات الاتصال بالله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

[سورة البقرة]

إن الله يحبُّ من عبده أن يسأله ملح طعامه، إن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، إن الله يحبُّ من عبده أن يسأله حاجته كلها، إن الله يحبُّ الملحين في الدعاء، من لا يدعني أغضب عليه، الدعاء مخ العبادة، والدعاء أقوى سلاح بيد الإنسان، إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك.

الإنسان في الأصل ضعيف، وفقير، وجاهل، فإذا استعان بالله عزوجل صار أقوى الأقوياء، وإذا استلهم من علم الله عزوجل صار أعلم العلماء، يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَظْعَنَ مِنْه..))

قد تنام في فندق، قد تنام عند صديق لا تدري ما في هذا البيت من مشكلة، أيها الإخوة الكرام الاستعاذة بالله عز وجل تقي الإنسان أشرار الخلق، وفي حديث آخر، عن أبي أمامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، ما من مسلم (وتشتد الحاجة في هذه الأيام إلى هذا الحديث):

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ أَوَّلَ مَرَّةٍ ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلَّا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا ".))

[انفرد به أحمد]

نكاد نقول إن هناك عبادة هي عبادة غض البصر، وليس في قوانين الأرض قانون ينهاك عن النظر، إلا أن هذا الأمر الإلهي متميز عن كل أمر وضعي، فإذا فعلته كنت مخلصاً لله عز وجل، لو أن نهياً ينهى عنه القرآن الكريم، أو تنهى عنه سنة النبي عليه الصلاة والسلام، والقوانين الوضعية تنهى عنه، أنت إذا تركت ذلك لا ندري أفعلت هذا طاعة لله، أو رغبة فيما عنده، أو تجنباً لمتاعب مع الخلق لكنك حينما تغض بصرك عن محاسن امرأة لا تحل لك إنما تفعل هذا ابتغاء رضوان الله وحده، لأنه ليس في الأرض كلها إنسان يأمرك أن تغض البصر، على العكس، الناس يأمرونك أن تطلق البصر ويعدون هذا من سمات العصر.

عن ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً ".))

أنت لا تبالي، تقول أصلي ركعتين نفلاً.

((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً))

السجود.. أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

يا أيها الإخوة الكرام: الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين، إنها غرة الطاعات، وسيدة القربات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، إنها نور، تملأ قلبك نوراً، إنها طهور إنها حبور، إنها ميزان، فمن وفّى استوفى، إنها عقل، **" ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها "** قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً (٤٣))

[سورة النساء]

فالذي لا يعلم ما يقول هو في حكم السكران..

الصلاة مناجاة.

((" مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً.))

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا ".))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة]

إن لقيت أخاك المسلم، سلم عليه بسلام الإسلام، وصافحه بمودة بالغة، وابتسم له، والقه بوجه طلق، إن هذا من العمل الصالح، إن هذا يزيد العلاقة بين المؤمنين متانة، إن هذا يجعل المؤمنين صفاً واحداً، لأن يد الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ في النار، وحسن علاقة المؤمن مع أخوانه من عبادته ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال ما من شيء يقرّب بين المؤمنين، ويمتّن العلاقة بينهم، ويجعلهم صفاً واحداً، وجسداً واحداً إلا أمر به، أمرك أن تعود المريض أمرك أن تطرح السلام على أخيك، أمرك أن تشيعه إذا مات، أن تعوده إذا مرض، أن تعاونه إذا طلب، نهاك أن تغتابه، نهاك أن تنقل إليه ما قاله الناس فيه، من أجل أن لا تقع فرقة بين المؤمنين، ما من شيء يقرّب ويمتّن.. أمرك أن تلبي دعوته، أمرك أن تعوده، ما من شيء يمتن العلاقة بين المؤمنين إلا أمر به، وما من شيء يفتت العلاقة بين المؤمنين إلا نهانا النبي عنه، نهى عن الغيبة، وعن النميمة، وعن السخرية، وعن المحاكاة، وأن تنظر إلى أخيك نظرة ازدراء..

((" بحسب امرئ من الشر أن يحقّر أخاه المسلم ".))

نهى وأمر من أجل أن يكون المؤمنون صفاً واحداً، أن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

مرةً ثانية ـ أيها الإخوة ـ إن حسن علاقتك بالمؤمنين جزء من عبادتك، لذلك كل شيء أمرك النبي أن تفعله افعله، كل شيء نهاك أن تفعله لا تفعله، تجد نفسك مع المؤمنين وكأنك في الجنة، بل إن حسن العلاقة بالمؤمنين ينسي مصاعب الحياة، ينسي متاعب الحياة أجمل شيء في الحياة الدنيا أن يكون لك أخ في الله، تنصحه وينصحك، تكرمه ويكرمك، تأخذ بيده ويأخذ بيدك، تبثه شكواك ويبثك شكواه، هذا الأخ في الله لا يُقدر بثمن.

أيها الإخوة الكرام:

((" وَسَلَّمَ مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا ".))

احرص على طرح السلام، احرص على إجابة السلام، احرص على أن تلقى أخاك بوجه طلق، احرص على أن تكلمه أحسن الكلام قال تعالى:

((" وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ".))

[سورة البقرة]

فكيف للمؤمنين.

الحديث المشابه، عن البراء بن عازب قالَ:

((إنّهُ لَقِيَنِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَفَعَلَ بِي مِثْلَ الّذِي فَعَلْتُ بِكَ فَسَأَلَنِي فَقُلْتُ مِثْلَ الّذِي قُلْتَ لِي فَقَالَ مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيُسَلّمُ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُهُ إِلّا لِلّهِ عَزّ وَجَلّ لَا يَتَفَرّقَانِ حَتّى يُغْفَرَ لَهُمَا ".))

[أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجة]

يسلم عليه ويأخذ بيده بمودة بالغة، لا يتفرقان إلا وقد غُفر لهما.

عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ وَلَا مُسْلِمَةٍ وَلَا مُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ يَمْرَضُ مَرَضًا إِلّا حَطّ اللّهُ عَنْهُ مِنْ خَطَايَاهُ ".))

[انفرد به أحمد]

وهذه بشارة لمرضى المؤمنين، عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ وَلَا مُسْلِمَةٍ وَلَا مُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ يَمْرَضُ مَرَضًا إِلّا حَطّ اللّهُ عَنْهُ مِنْ خَطَايَاهُ ".))

معنى ذلك أن المرض يقرب العبد من الله، المرض نافذة إلى السماء، المرض يأخذ الله بعض صحة المؤمن ليعوضه أضعافاً مضاعفة من القرب منه، لذلك ورد في الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ".))

[أخرجه مسلم وأحمد]

هذا الحديث يدعونا إلى حسن الجوار.. عَنْ أَنَسٍ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَشْهَدُ لَهُ أَرْبَعَةُ أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْأَدْنَيْنَ إِلّا قَالَ قَدْ قَبِلْتُ فِيهِ عِلْمَكُمْ فِيهِ وَغَفَرْتُ لَهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ".))

[انفرد به أحمد]

هؤلاء الجيران المؤمنين الأدنَين، القريبين منك، إذا أثنوا عليك وشهدوا لك بالصلاح، الله سبحانه وتعالى أجلُ وأكرم من أن يرد شهادتهم، يغفر لك، ويغفر ما لا يعلمون عنك، هل هناك من حديث

يدعونا إلى حسن الجوار كهذا الحديث، عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ ".))

[متفق عليه]

والجار مطلق الجار، له عليك حق الجوار، والجار المسلم له عليك حقان، حق الجوار وحق الإسلام، والجار المسلم القريب له عليك ثلاثة حقوق، حق الجوار، وحق الإسلام، وحق القرابة وأربعون داراً من جهة اليمين من الجوار، وأربعون داراً من جهة الشمال من الجوار، وأربعون داراً من الجهات الأربع من الجوار ولعله أربعون داراً نحو الأعلى والأسفل من الجوار..

لو أن الجيران المؤمنين تعاونوا وتكاتفوا لكان المسلمون في حال غير هذا الحال.

((" قال عليه الصلاة والسلام أتدرون ما حق الجار اذا استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته وإن مرض عدته، وإن مات شيعته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها ".))

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا قَالُوا إِذًا نُكْثِرُ قَالَ اللَّهُ أَكْثَرُ ".))

[انفرد به أحمد]

فمعنى ذلك أن أي دعاء من مسلم بإخلاص واضطرار هذا الدعاء مستجاب ما لم تكن هذه الدعوة قطيعة رحم أو ارتكاب إثم.

شيء آخر متعلق بهذا الدعاء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْصِبُ** (يعني يصلي الليل ويناجي ربه، يسأله شيئاً من خيري الدنيا والآخرة، شيء، شيئاً وفق المنهج لا خلاف المنهج)

((ما من مسلم ينصب وَجْهَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَسْأَلَةٍ إِلَّا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَهَا لَهُ وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ ".))

[أخرجه أحمد والترمذي]

فيا أيها الإخوة الكرام: هذا يدعونا إلى أن نعتني بالدعاء ؛ لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام مخُّ العبادة.

شيء آخر في سلسلة هذه الأحاديث، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا طَيِّبٌ إِلَّا كَأَنَّمَا يَضَعُهَا فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي الرَّجُلُ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى إِنَّ التَّمْرَةَ لَتَعُودُ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ ".))

[متفق عليه]

أعيد عليكم هذا الحديث:

((" مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا طَيِّبٌ))

(بإخلاص واستقامة، الكسب طيب والعمل مخلص، لأن الفضيل بن عياض يقول: **العمل لا يُقبل إلا بشرطين، إلا إذا كان خالصاً وصواباً،** خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، فإن كنت مخلصاً، ولم يأت عملك مطابقاً للسنة، هذا العمل لا يُقبل، إن كان عملك مطابقاً للسنة، ولم تكن به مخلصاً فإن هذا العمل أيضاً لا يُقبل، لا يُقبل إلا بشرطين، الإخلاص، وموافقة المنهج الإلهي.

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا طَيِّبٌ إِلَّا كَأَنَّمَا يَضَعُهَا فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي الرَّجُلُ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى إِنَّ التَّمْرَةَ لَتَعُودُ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ يوم القيامة ".))

لذلك يعجب الإنسان من هؤلاء الذين ينفقون أموالهم تبذيراً وإسرافاً وقد أتيح لهم أن يصلوا بهذه الأموال إلى أعلى درجات الجنّة، وإلى أن تغدو التمرة كجبل أحد، ينفقون أموالهم بلا طائل، لك أن تأكل ولك أن تشرب ولك أن تسكن، ولك أن تنفق بالمعروف، لذلك وصف الله المؤمن بأنهم:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (٦٧))

[سورة الفرقان]

فالمسرفون في المباحات، والمبذرون في المعاصي هؤلاء سيندمون أشد الندم يوم القيامة ؛ لأن هذا المال الذي أنفقوه جزافاً ربما نقلهم إلى أعلى مراتب الجنة ؛ عن عَبْدِ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا ".))

[متفق عليه]

أيها الإخوة الكرام، عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ:

((كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ زَيْدِ بْنِ عَلِيّ بِالْمَدِينَةِ فَمَرّ شَيْخٌ يُقَالُ لَهُ شُرَحْبِيلُ أَبُو سَعْدٍ فَقَالَ يَا أَبَا سَعْدٍ مِنْ أَيْنَ جِئْتَ فَقَالَ مِنْ عِنْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَدّثْتُهُ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَأَنْ يَكُونَ هَذَا الْحَدِيثُ حَقًّا أَحَبُّ إِلَيّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي حُمْرُ النّعَمِ قَالَ حَدّثْ بِهِ الْقَوْمَ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبّاسٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُدْرِكُ لَهُ ابْنَتَانِ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَتَاهُ أَوْ صَحِبَهُمَا إِلّا أَدْخَلَتَاهُ الْجَنّةَ".))

[أخرجه أحمد وابن ماجة]

يعني أي بيت من بيوتكم، إذا كان فيه بنتان أحسن إليهما وربيتا تربية إسلامية، وحُملتا على طاعة الله، وعلى تلاوة القرآن وعلى غض البصر، وحملتا على الالتزام الكامل، هاتان البنتان ضمان لوالديهما بدخول الجنة، هل هناك من بشارة قريبة كهذه البشارة ؟..

أي بيت إذا كان فيه بنتان هاتان البنتان وسيلتا أبويهما لدخول الجنة.

يقول سيدنا عمر:

((لَأَنْ يَكُونَ هَذَا الْحَدِيثُ حَقًّا أَحَبُّ إِلَيّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي حُمْرُ النّعَمِ قَالَ حَدّثْ بِهِ الْقَوْمَ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبّاسٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُدْرِكُ لَهُ ابْنَتَانِ فَيُحْسِنُ (والإحسان إليهما بهدايتهما إلى الله، وحملهما على طاعة الله وتربيتهما التربية الإسلامية) فيحسن إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَتَاهُ أَوْ صَحِبَهُمَا إِلّا أَدْخَلَتَاهُ الْجَنّةَ ".))

((" وعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ عَادَ أَخَاهُ فَيَدْخُلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ))

(دققوا في هذا الحديث، كم هي العلاقة بين المؤمنين لها قيمة عند الله عز وجل ويرعاها، ويحفظها، ويلبي دعوة أحدهما بالآخر)

((" مَا مِنْ مُسْلِمٍ عَادَ أَخَاهُ فَيَدْخُلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ فَقَالَ أَسْأَلُ اللّهَ الْعَظِيمَ رَبّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَ فُلَانًا مِنْ وَجَعِهِ سَبْعًا إِلّا شَفَاهُ اللّهُ عَزّ وَجَلّ مِنْهُ ".))

[أخرج الترمذي وأحمد وأبو داود]

يعني إذا أخ مؤمن صادق، زار أخاً مريضاً، وكان هذا المريض لم يحضر أجله، ودعا بهذا الدعاء الذي علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفي فلاناً من وجعه سبعاً إلا شفاه الله عز وجل منه إكراماً لأخيه، وتأكيداً لحسن العلاقة بين المؤمنين. كل هذه الأحاديث تبعث على التفاؤل، كل هذه الأحاديث مبشرة كل هذه الأحاديث تضع المسلم أمام فهم دقيق لما يجري حوله.

عَنْ فَاطِمَةَ ابْنَةِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَبِيهَا الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيّ عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ وَلَا مُسْلِمَةٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَذْكُرُهَا وَإِنْ طَالَ عَهْدُهَا قَالَ عَبّادٌ قَدُمَ عَهْدُهَا فَيُحْدِثُ لِذَلِكَ اسْتِرْجَاعًا إِلّا جَدّدَ اللّهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَأَعْطَاهُ مِثْلَ أَجْرِهَا يَوْمَ أُصِيبَ بِهَا ".))

[أخرجه أحمد وابن ماجة]

طال عهدها: قدم عهدها

استرجاعاً: يعني أصابته مصيبة قبل عشرين عاماً فلما ذكرها قال إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا هو الاسترجاع عند المصيبة.

كلما ذكرت ـ لا سمح الله ولا قدر ـ مصيبة ألمت بك، فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون ربنا جل جلاله، يعطيك أجر المصيبة عند وقوعها عند قولك إنا لله وإنا إليه راجعون، العبرة أن تكون مع الله دائماً في السرّاء شاكراً، وفي الضراء صابراً، وفي الدعاء منيباً، وفي كل حركاتك وسكناتك.
وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفّانَ رَضِيَ اللّه عَنْه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ يُرِيدُ سَفَرًا أَوْ غَيْرَهُ فَقَالَ حِينَ يَخْرُجُ بِسْمِ اللّهِ آمَنْتُ بِاللّهِ اعْتَصَمْتُ بِاللّهِ تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إِلّا بِاللّهِ إِلّا رُزِقَ خَيْرَ ذَلِكَ الْمَخْرَجِ وَصُرِفَ عَنْهُ شَرُّ ذَلِكَ الْمَخْرَجِ ".))

[أخرجه أحمد]

لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا سافر يدعو ويقول: اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد.

أرأيتم ـ أيها الإخوة ـ إلى هذا المنهج القويم، هذا المنهج الإلهي الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم، يدور معك في كل شؤون حياتك، في إقامتك، وفي سفرك، في أفراحك وفي أتراحك، في علاقاتك وفي زياراتك، في كل شيء يحدث لك هناك موقف يقفه المسلم فيكون هذا الموقف سبب سعادته وسلامته في الدنيا والآخرة.

هذه الأحاديث الصحيحة التي ذكرتها في هاتين الخطبتين ينبغي أن ترفع من قوة إيمان المؤمن، وأن تجعله على تطبيق السنة ؛ لأن فيها نجاته وسعادته في الدنيا والآخرة:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: في مجاري المياه العذبة في البرازيل وفي حوض نهر الأمازون تعيش وحوش مائية غريبة، تُسمى ثعابين الماء الكهربية، وهي مشحونة بكهرباء قوية جداً، إذ يكفي أن يلمسها الإنسان مرةً واحدة ليصاب بصدمة كهربائية لا ينساها طوال حياته.

هذا الثعبان ـ أيها الإخوة ـ طوله يزيد عن مترين، أربعة أخماس جسمه مليء بأجهزة توليد الكهرباء وتخزينها، وتُحشر معدته، وأعضاؤه الحيوية في القسم الأمامي من جسمه، له ثلاثة أزواج من المولدات الكهربائية، وكلها مجهزة بألواح تؤدي نفس الوظيفة التي تكون للتخزين في السيارة مرصوفة إلى جانب بعضها بعضاً، كل مولد معه من ثلاثين إلى ست وثلاثين لوح بتخزين الكهرباء.

قال: ليس في المخلوقات كلها إلا ستة أنواع تولد الطاقة الكهربائية وجميع هذه الأنواع من الأسماك، وثعبان الماء الكهربي يعطي أقوى تيار كهربائي يصل إلى خمسمئة فولت، وكلكم يعلم أن البيوت فيها ١١٠ أو ٢٢٠ ومع ذلك تسبب صدمة، وقد تكون قاتلة، بينما هذا الثعبان يطرح تياراً شدته خمسمئة فولت.

قال الثعبان الكهربائي يولد أقوى تيار حيث يصل إلى عدة مئات من الفولتات.. أما الشيء الغريب أن هذا الثعبان يتحكم في قوة التيار فإذا أراد أن يهدد حيواناً بالابتعاد عنه يرسل له تياراً ضعيفاً من أضعف مولداته الكهربائية ـ البطارية الضعيفة ـ أو إذا أراد أن يحدد موقع حيوان عدو، يرسل له تيار ضعيف، ويرجع التيار منعكساً على الحيوان كفعل الرادار تماماً، فمن خلال التيار الضعيف يعرف موقع العدو، أو يحذر العدو، أما إذا أراد قتل العدو يعطيه التيار القوي فهذا الثعبان يتحكم بشدة التيار.

قال: صدمة واحدة من التيار القوي تكفي لقتل عدو له بحجم إنسان وتكفي لإحداث صدمة ربما تكون مميتة بحجم الفرس، لشدة هذا التيار

أيها الإخوة الكرام: الإنسان يزعم أنه اخترع الكهرباء، الأنواع الأخرى التي تولد التيار الكهربائي بعض هذه الأسماك جسمه مكهرب، فإذا مسكه الإنسان أصيب بصدمة كهربائية، فيضطر إلى إطلاقه، هذا نوع من الأسماك، بعض هذه الأسماك لها القدرة على إشعال أضواء وإطفائها على جسمها مصابيح، تتألق وتنطفئ، بعض هذه الأسماك يبعث ضوءً أحمراً تارة، وأبيضاً تارة، وأزرق تارةً أخرى.

بعض الحيتان ولها اسم غريب على جسمها صف متصل من المصابيح كبعض الشاحنات التي نراها في الطرقات ليلاً.

وبعض هذه الأسماك إطفاء الأضواء أحد وسائل الدفاع عن ذاتها فإذا اقترب منها عدو أطفأت الأنوار وغابت عن نظره.

أغرب شيء في هذا الموضوع العلمي أن الإنسان حينما يولد الضوء عن طريق استهلاك الطاقة، يُستهلك جزء كبير من الطاقة فيشع حرارة، وهذه الحرارة طاقة مهدورة، لذلك ما من تألق مصباح إلا وفيه حرارة كبيرة جداً، هذه الحرارة طاقة مهدورة، إلا أن الأسماك تصدر هذه الأضواء من دون أن يسخن جسمها إطلاقاً فلو أن الإنسان توصل إلى تصنيع ضوء عن طريق تحويل الطاقة إلى ضوء مباشرة من دون حرارة لكان هذا كسباً كبيراً في صناعة الأضواء.

أيها الإخوة الكرام:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١))

[سورة لقمان]

يقولون إن في البحار مليون نوع من الأسماك وإن في البحار تنوعاً في المخلوقات يدهش العقول، وهذا كله من خلق الله، وهذا كله مسخر للإنسان، وهذا الإنسان الذي سخرت له كل هذه المخلوقات في غفلة عن ربه، قال تعالى:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً(٤٤))

[سورة الإسراء]

بينما الإنسان الذي سخرت له كل هذه المخلوقات في غفلة عن ربه من جهة، ومعصية له من جهة أخرى.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦١٩ : إسلوب المثل في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٦-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

العلم شيء، والتعليم شيء آخر..

النبي عليه الصلاة والسلام كان سيد المربين، وإمام المعلمين، فلو استنبطنا من أساليبه العالية، في نقل الحقائق للناس، وفي تبيان حقائق هذا الدين العظيم، لنجحنا في دعوتنا إلى الله.

النبي عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم، وأوتي الأساليب الحكيمة، والأطر الدقيقة والفعالة في توضيح الحقائق.

محور الخطبة اليوم أسلوب المثل عند النبي صلى الله عليه وسلم من خلال بضعة أحاديث من صحيح البخاري، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّه عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة وأحمد ومالك]

يعني إن أردت أن تحافظ على حفظك لكتاب الله، يجب أن تتعاهد محفوظاتك، كمن يملك إبلاً معقلة، إن عقلها وحافظ على تعقيلها أبقاها معه، وإن أطلقها ذهبت، فلابد من تعهد حفظ القرآن الكريم، حتى تبقى محفوظاتك معك.

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالْأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ أَوْ خَبِيثٌ وَرِيحُهَا مُرٌّ ".))

[البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدارمي]

الأترجة: ثمرة طيبة الرائحة والمذاق.

هذا نموذج من أمثلة النبي صلى الله عليه وسلم، شبه المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة، الذي لا يقرأه بالتمرة، شبه المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحانة، الذي لا يقرأه بالحنظلة..

فالتشبيه أسلوب من أساليب النبي صلى الله عليه وسلم في توضيح الحقائق ينبغي أن ننتبه إلى الأساليب النبوية التي استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم في تبيان الحقائق، وتوضيحها، وتقريبها، فالقدرة على بيان الحقائق شيء، ومعرفة الحقائق شيء آخر، هو سيد المربّين وإمام المعلمين.
عَن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد]

مجتمع المؤمنين، علاقاتهم، تعاونهم، محبتهم، تزاورهم، تبادلهم ائتلافهم، هؤلاء المؤمنون كمثل الجسد الواحد، الجسد وحدة متكاملة إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى..
لو أن سنّ أحدنا أصابه خلل، وتبع الخلل ألم، تعطلت كل الأجهزة وانصرف صاحب السنّ المريض إلى إصلاح سنه، فالعلاقة بين المؤمنين علاقة ترابطية، علاقة تكافل وتضامن، فالمؤمنون بأكملهم وحدة، إذا اشتكى منهم واحد، تداعى سائر المؤمنين لمعاونة هذا الأخ.

ورد في بعض الأحاديث:

((أن النبي صلى الله عليه وسلم، اشتكت شدة تعبها في أعمال البيت، وطلبت منه خادمة، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم والله لا أؤثرك على فقراء المسلمين ".))

جعل النبي نفسه وأهل بيته، ومجموع المؤمنين جسداً واحداً، فإذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

عن ابن عُمَرَ رضي الله عنه قالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَلَا يَتَحَاتُّ فَقَالَ الْقَوْمُ هِيَ شَجَرَةُ كَذَا هِيَ شَجَرَةُ كَذَا فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ هِيَ النَّخْلَةُ وَأَنَا غُلَامٌ شَابٌّ فَاسْتَحْيَيْتُ فَقَالَ هِيَ النَّخْلَةُ.. وعَن ابْنِ عُمَرَ مِثْلَهُ وَزَادَ فَحَدَّثْتُ بِهِ عُمَرَ فَقَالَ لَوْ كُنْتَ قُلْتَهَا لَكَانَ أَحَبّ إِلَيّ مِنْ كَذَا وَكَذَا ".))

شبّه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن بالنخلة، دائمة الأوراق، يانعة الثمار، ثمارها غذاء أساسي في حياة الإنسان، شجرة معمرة، بعض الصفات التي في النخلة، شبّه بها المؤمن، عن ابن عُمَرَ رضي الله عنه قالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ))

يعني عطاؤها دائم، الشجر الآخر في فصل الشتاء حطب، وفي فصل الربيع مزهر، وفي فصل الصيف مثمر وفي فصل الخريف تتساقط أوراقه، أما عطاء المؤمن ثابت ومستمر، من هنا قال

عليه الصلاة والسلام: أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.. فالمؤمن كالنخلة، دائمة الاخضرار، عطاؤها مستمر..

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد]

شدة حرص النبي ورحمته، جعلته يبعد أمته، عن أسباب دخول النار هم يقتحمون هذه النار بمعاصيهم، بتقصيرهم، بمخالفاتهم، بخروجهم عن منهج الله، وهو يحرص عليهم ويرحمهم، ويبين لهم، فكأنما يأخذ بحجزهم عن أن يُلقوا أنفسهم بالنار، وهم يقتحمون هذه النار عن طريق المعاصي والآثام..

((" إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا ".))

" عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل ".

تقريب الحقائق، توضيح الحقائق، تبيين الأمور، النبي عليه الصلاة والسلام كان أعلى إنسان في البيان، أرسله الله إلينا ليدلنا على الخير ويقربنا من الجنة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((قَالَ مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ يَفِيءُ وَرَقُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا فَإِذَا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ (يعني نبتة بسيطة، تأتيها الريح فتميل معها، فإذا وقفت الريح اعتدلت) وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد]

المؤمن يعالجه الله معالجة مستمرة، فهو بين اعتدال وميل، نبتة ضعيفة تأتيها الرياح فتميل بها يمنة أو يسرة، تهدأ الرياح تعود مستقيمة بينما الشجرة العظيمة، تأتيها رياح عاتية، فتقصمها، وتقتلعها من جذورها.

لذلك المؤمن يُعالج، المؤمن يُتابع.

" إذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن شكر اقتناه ".

" إذا أحب الله عبده عجّل له بالعقوبة ".

أن يتابعك الله عز وجل، على كل كلمة، وعلى كل حركة، وعلى كل سكنة، فهذه نعمة عظمى، أما أن يدعك الله بلا تربية، كقوله تعالى:

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥))

[سورة الأنعام]

المؤمن كالنبات يميل مع الرياح، فإذا سكنت استقام، أما الكافر كالسنديانة في بعض الأحاديث، تأتيها رياح عاتية فتقتلعها من جذورها يعني ذنوب الكافر تُجمع إلى أن تتراكم، فيستحق عندئذ القصم.

لذلك قال بعض العلماء: هناك مصائب قصم، وهناك مصائب ردع وهناك مصائب دفع، وهناك مصائب رفع، وهناك مصائب كشف.

مصائب القصم والردع للعصاة الآثمين، ومصائب الدفع والرفع للمؤمنين ومصائب الكشف للأنبياء والمرسلين.

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((إِنّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ يَا قَوْمِ إِنّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيّ وَإِنّي أَنَا النّذِيرُ الْعُرْيَانُ (النذير العريان مصطلح عربي يعني أنني صادق في ما أخبركم به) فَالنّجَاءَ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا (أي ساروا ليلاً) فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا وَكَذّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقّ".))

[أخرجه البخاري ومسلم]

النبي عليه الصلاة والسلام أرسله الله نذيراً وبشيراً، فمن صدقه نجى ومن لم يعبأ بهذا الإنذار هلك وأهلك غيره.

أيها الإخوة الكرام:

الدنيا محسوسة، لكنّ الوعد والوعيد خبر في القرآن الكريم، وفي سنة النبي عليه الصلاة والتسليم، خبر، من صدق الخبر نجا، ومن كذبه هلك.

لو أن الوعد والوعيد محسوس كما هي الدنيا محسوسة، لبطل الثواب والعقاب، ولنتفى الوعد والوعيد، لكن الله شاءت حكمته، أن تكون الدنيا تحت سمعنا وأبصارنا، أما الوعد والوعيد، خبر

تقرأه في كلام الله عز وجل، وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام، فالسعيد من صدق رسول الله، والشقي من ابتعد عن منهج الله.

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا (يعني علاقة المؤمن مع الهدي المحمدي، والأمثلة الأربعة دقيقة جداً) فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ (هذا نوع من المؤمنين، يستمع إلى الحق فيقبله، ويُعجب به، ويعظمه، ويعمل به، فيعطيه الله عطاء لا نهاية له في الدنيا والآخرة، هذه الأرض قبلت الماء فأنبتت الكلأ، تلقى العلم وعلم العلم، تعلم الإحسان وأحسن إلى خلق الله، يعني ثمار الإيمان كانت يانعة بين يديه، ونموذج آخر) وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا (لا تُنبت، ولكنها قبلت الماء، أصبحت هذه الأرض مستودع للماء، هي لم تُنبت، لكنها أمسكت الماء فنفعت الناس "ألا يا رب مبلَغ أوعى من سامع ") نَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ (أرض ملساء لا تُنبت) لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ قَالَ أَبو عَبْد اللَّهِ قَالَ إِسْحَاقُ وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَيَّلَتِ الْمَاءَ قَاعٌ يَعْلُوهُ الْمَاءُ وَالصَّفْصَفُ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد]

يعني هذه الأراضي أنواع ثلاث، نوع قبلت الماء وأنبتت الكلأ، ونوع أمسك الماء فانتفع الناس به، ونوع لم يمسك الماء، ولم ينبت الكلأ فالله سبحانه وتعالى، أرسل النبي ؛ لينفع الناس بهدايته، والعبرة من هذا المثل أن نكون من الصنف الأول، الذين قبلنا هدى الله عز وجل وانتفعنا به، وانقلب القبول إلى عطاء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَفَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ وَمَثَلُ الْمُهَجِّرِ كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي بَدَنَةً ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَةً ثُمَّ كَبْشًا ثُمَّ دَجَاجَةً ثُمَّ بَيْضَةً فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طَوَوْا صُحُفَهُمْ وَيَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد ومالك والدرامي]

مثل النبي عليه الصلاة والسلام بهؤلاء الذين يأتون مبكرين، كمن قدّم بدنة، أي بعيراً، بعد هؤلاء كمن قدم بقرة، بعد هؤلاء كمن قدم شاةً كبشاً، بعد هؤلاء كمن قدم دجاجة، بعد هؤلاء كمن قدم بيضة، فإذا صعد الخطيب المنبر، طووا صحفهم واستمعوا الذكر.

أيها الإخوة الكرام:

لا زلنا في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام المتعلقة بالمثل.

عن عبد الله بن قيس رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً ".))

[رواه البخاري ومسلم وأحمد]

الجليس الصالح خير من الوحدة، إن كنت مع مؤمن، لابد من أن تنتفع به، أن تنتفع بحديثه، أن تنتفع بسمته، أن تنتفع بسلوكه، أن تنتفع بموقفه، لابد من أن تستقي من علمه، من حكمته، من سمته، أما إذا التقيت مع إنسان شارد، لابد من أن يؤذيك، بتعليق خبيث، أو نظرة خبيثة، أو جهل فاضح، أو إغراء بمعصية، أو تزهيد في الآخرة، أو دعوة إلى الدنيا، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((" لا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ ".))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد]

وعَن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِي اللَّه عَنْهمَا عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا ".))

[أخرجه البخاري والترمذي وأحمد]

يعني المؤمنون في سفينة واحدة، سلامتهم واحدة، وهلاكهم واحد فإن أخذ بقية المؤمنين على يد من انحرف وشذ نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا، ما في مثل أروع من هذا المثل في المسؤولية الجماعية، لذلك حينا يدع القوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يستحقون من الله الهلاك جميعاً، لأن هذه الفريضة السادسة، لذلك قال الله تعالى:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥))

[سورة الأنفال]

الإنسان إذا قعد عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هلك قومه وهلك معهم، واستحق الهلاك معهم، لأنه قصّر في واجبه، بل إن التواصي بالحق فرض عين على كل مسلم، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

[سورة العصر]

فالمسلمون في سفينة واحدة، لو أن أحدهم أخذ مكاناً في هذه السفينة وأراد أن يأخذ الماء مباشرةً، فحفر في حصته، إن تركوه هلك وهلكوا وإن أخذوا على يديه نجا ونجوا، فهذا الموقف المنسحب من الاهتمام بالجماعة، هذا الموقف لا يرضاه النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا تساهلت، لم تأمر بالمعروف، ولم تنه عن المنكر، استشرى الشر وتوسعت دوائره، وأهلك الناس جميعاً، قال عليه الصلاة والسلام:

((" بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ".))

[أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة]

خاصة نفسك: يعني أولادك، أهلك، وجيرانك، ومن حولك وإخوانك هؤلاء من خاصة نفسك، وعليك أتنصحهم، وعليك ان تين لهم، وعليك أن تأخذ بيدهم، وعليك أن تعظهم، من أجل النجاة جميعاً لهؤلاء المؤمنين.

وعن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ تَقَعُ فِي النَّارِ وَقَالَ كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ وَقَالَتِ الْأُخْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا فَقَالَتِ الصُّغْرَى لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاللَّهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ إِلَّا يَوْمَئِذٍ وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلَّا الْمُدْيَةَ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد]

أيضاً النبي عليه الصلاة والسلام أخبرنا عن حكم قضاه سيدنا داود ووضحه سيدنا سليمان، فكان هذا أيضاً من أمثاله.

الحديث الأخير: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إنّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد]

يعني في بعثته صلى الله عليه وسلم اكتملت الشرائع، وبعثته صلى الله عليه وسلم للناس أجمعين. أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام:

من بعض الحكم، كتب رجل إلى بن عمر رضي الله عنه يسأله عن العلم، فأجابه:

" إن العلم أكثر من أكتب به إليك، ولكنْ إن استطعت أن تلقى الله كافّ اللسان عن أعراض المسلمين، خفيف الظهر من ظلاماتهم، خميص البطن من أموالهم، لازماً جماعتهم فافعل ".

هذه نصيحة بلغية.

وقيل، قال حاتم الأصم، إذا رأيت من أخيك عيباً، فإن كتمت عينه فقد خنته.. وهذا ما يفعله معظم الناس، لا يتناصحون، لا يتناهون عن منكر فعلون، لا يعبأ بعضهم بمكانة بعض، قال سيدنا عمر: **" أحب ما أهدى إليّ أصحابي عيوبي "**

قال حاتم الأصم، إذا رأيت من أخيك عيباً، فإن كتمت عينه فقد خنته وإن قلته لغيره فقد اغتبته، وإن واجهته به أوحشته، قال ماذا أصنع إذاً قال: **تكني عنه، وتعرض به، وتجعله في جملة الحديث".**

إن أردت أن تنصح أخاك، إن أردت أن تلفت نظره إلى عيب هو فيه إن أردت أن تنقي أخاك من عيب لازمه، فافعل هذا.

شكا رجل إلى جعفر الصادق أذية جاره، فقال اصبر عليه، قال ينسبني إلى الذل (يعني يستضعفني) فقال الإمام جعفر الصادق، إنما الذليل من ظلم الناس..

والفضيل يقول: لو كانت لي دعوة مستجابة، لادخرتها لأولي الأمر ؛ لأن في صلاحهم صلاح الأمة.

أيها الإخوة الكرم:

الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها..

يقول ابن عمر: **" البرّ شيء هين، وجه طليق، وكلامٌ لين "**

وقيل لابن سيرين ما أشد الورع، فقال: ما أيسره..

إذا شككت في شيء فدعه، هذا هو الورع..

وقال أحدهم: الأصدقاء ثلاث ؛ نوع كالغذاء لا يُستغنى عنه، ونوع كالداء لا يُحتاج إليه أبداً، فتوفيق المؤمن في حسن اختياره لأصدقائه، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ ".))

[الترمذي وأبو داود وأحمد]

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦٢٠ : الأخوة الإيمانية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٦-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، إن أثمن شيء في الحياة الدنيا، هذه الأخوة الإيمانية التي تربط بين المؤمنين، ففي كل شخصية واحد منّا، سمات، وصفات، وتطورات وقيم ومبادئُ، وأهداف، وطباع، وأخلاق، وعادات، وتقاليد، وعواطف ومشاعر، وميول، ورغبات، ونوازع، واتجاهات.. هذه مكونات شخصية الإنسان، ويمكن أن ينطوي ـ أيها الإخوة ـ تحت كل بند من هذه البنود، بضع عشرات من الفروع والأقسام، وما شخصية الإنسان إلا مجموع هذه الملامح والصفات..

الآن ؛ بما أن الإيمان الحقيقي، يطبع الإنسان، بطابع عميق، وطابع راسخ، وصارخ، ومتميز، في تطوراته، ومبادئه، وأهدافه، وقيمه وأخلاقه، وطباعه، وعاداته، وعواطفه، ومشاعره، وميوله، ورغباته ونوازعه، واتجاهاته..

وأنه كلما كثرت الصفات المشتركة، والملامح المتوافقة بين شخصيتين ازدادت الألفة بينهما، لأن كلاً منهما يرى ذاته، وصفاته في أخيه لذلك قالوا: في حياة كلٍ منّا شخصية تكون، وهي شخصيتنا، وشخصية نحبها، وهي التي تتوافق صفاته مع شخصيتنا، وشخصية نتمنى أن نكونها، وهي الشخصية القدوة، التي نصبوا إليها..

في شخصية الإنسان ملامح كثيرة، كلما اتحدت الملامح في شخصيتين، كان التوافق، والحب، والألفة بينهما..

الإيمان يطبع الإنسان بطابع عميق، وسمات دقيقة، واضحة، متميزة لذلك من الطبيعي جداً، أن تجد هذا التوافق، والحب، والألفة بين المؤمنين، القرآن الكريم ـ أيها الإخوة ـ أثار هذه الحقيقة فقال:

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الّذِي أَيّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنّ اللّهَ أَلّفَ بَيْنَهُمْ إِنّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٣))

[سورة الأنفال]

هذه المودة، وهذا الحب بين المؤمنين، وهذا التواصل، وهذا التزاور وهذا التباذل (من البذل)، لن تجد له مثيلاً في غير المؤمنين.

في الأحاديث الصحيحة، إشارات دقيقة جداً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لهذه الحقيقة القرآنية، ففي سنن أبي داود:

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ قَالَ قَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنّ مِنْ عِبَادِ اللّهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللّهِ تَعَالَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ ؟ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ - لأنه من الطبيعي أن يتواصل الناس على أرحام بينهم، ومن الطبيعي أن يتواصل الناس على مصالح مشتركة بينهم، لكنّ هؤلاء الذين ليسوا أنبياء ويغبطهم الأنبياء، على مكانهم من الله، هؤلاء) تَحَابُّوا بِرُوحِ اللّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللّهِ إِنّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنّهُمْ عَلَى نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النّاسُ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ:

(أَلَا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)))

[انفرد به أبو داود]

إن أثمن شيء في الحياة الدنيا، هذه الأخوة الخالصة بين المؤمنين ليس هناك أرحام تجمع، ولا مصالح تغري، اجتمعوا على الله وتفرقوا عليه، من هنا ورد في الحديث القدسي:

((وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتباذلين فيّ والمتزاورين فيّ، والمتحابون في جلالي على منابر من نور، يغبطهم عليها النبيّون يوم القيامة))

وفي لفظ:

((وَجَبَتْ مَحَبّتِي لِلْمُتَحَابّينَ فِيّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيّ، وَالْمُتَزَاورِينَ فِيّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيّ))

(أخرجه الترمذي ومالك وأحمد)

وفي سنن النسائي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللّهُ فِي ظِلّهِ يَوْمَ لَا ظِلّ إِلّا ظِلُّهُ، الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابّا فِي اللّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنّي أَخَافُ اللّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدّقَ أَخْفَى حَتّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد ومالك]

لا زلنا في المحبة الخالصة بين الإخوة المؤمنين، وهي أثمن شيء في الحياة الدنيا..

وفي صحيح الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ

((أَنّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللّهِ عَزّ وَجَلّ، قَالَ: فَإِنّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكَ بِأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَبّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ))

[أخرجه مسلم وأحمد]

إذاً أن تحب أخاً في الله، هذا يوجب محبة الله لك، أن تحب أخاً في الله، من غير أرحام بينك وبينه، ومن غير مصالح مشتركة، تحبه لا تحبه إلا لله، للتوافق بينكما، للتصورات المشتركة، والمبادئ المشتركة والقيم المشتركة، والأنماط السلوكية المشتركة، هذه مما تدعو إلى أن يحبنا الله جميعاً.
وفي مسند الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ))

[أخرجه الترمذي وأحمد والدارمي]

وخير تعني الأفضلية..

يعني إذا تعاملت مع أخيك، وتفوقت عليه في العمل الصالح، فأنت خير منه، إن تعاملت مع أخيك، وعفوت عنه فأنت خير منه، إن تعاملت مع أخيك وأعطيته من مالك فأنت خير منه..

وفي مسند الإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك]

ما هذا الحديث الجامع المانع، لو طبقه المسلمون ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ لأغلقت المحاكم أبوابها..

ولهذه الحقيقة، وقفة تاريخية ؛ سيدنا عمر ـ رضي الله عن عمر ـ تولى القضاء في عهد سيدنا الصديق، سنتين كاملتين، ولم يطرق بابه أحد !.. قاضٍ ينتظر من الناس أن يأتوا إليه ؛ ليتحاكموا عنده، لم يطرق بابه أحد..

((لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ))

التناجش ـ أيها الإخوة ـ أن يشتري الإنسان شراء صورياً ؛ ليحمل أخاه على الشراء بسعر مرتفع..
وفي مسند الإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((مَنْ أَحَبَّ ـ وَقَالَ هَاشِمٌ ـ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ فَلْيُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أخرجه انفرد به أحمد]

الإيمان له منطق، وله طعم، منطقه شيء، وطعمه شيء آخر، أن تقتنع بحقائق الإيمان شيء، وأن تعيش حالة الإيمان شيء آخر، أن تقتنع بمبادئ الإسلام شيء، وأن تذوق طعم القرب من الله شيء آخر لذلك ورد في أحاديث كثيرة، إشارات عن حلاوة الإيمان، وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((مَنْ أَحَبَّ - وَقَالَ هَاشِمٌ - مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ فَلْيُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[انفرد به أحمد]

يؤكد هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد]

وفي مسند الإمام أحمد، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْسَطُ ؟ قَالُوا: الصَّلَاةُ، قَالَ: حَسَنَةٌ، وَمَا هِيَ بِهَا، قَالُوا: الزَّكَاةُ، قَالَ: حَسَنَةٌ، وَمَا هِيَ بِهَا، قَالُوا: صِيَامُ رَمَضَانَ، قَالَ حَسَنٌ، وَمَا هُوَ بِهِ، قَالُوا: الْحَجُّ، قَالَ: حَسَنٌ، وَمَا هُوَ بِهِ، قَالُوا: الْجِهَادُ، قَالَ: حَسَنٌ، وَمَا هُوَ بِهِ، قَالَ: إِنَّ أَوْسَطَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ))

[انفرد به الإمام أحمد]

العروة: هي التي تربطك بالإسلام، هي التي تشدك إليه، هي التي تدفعك إلى التمسك به، هي التي تثبتك على منهجه.. الشيء الذي يثبتك ويشدك ويربيك..

إن أكثر شيء، إن أقوى شيء يشدك إلى الدين، أن تحب لله، وأن تبغض لله، الولاء والبراء، أن تنتمي إلى مجموع المؤمنين، أن تكون معهم، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

[سورة الكهف]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩))

[سورة التوبة]

أوثق عرى الإسلام أن تحب لله، وأن تبغض لله، هذا هو الولاء وذاك هو البراء..

يا رب فعلت كذا وكذا من أجلك ـ ورد في بعض الأحاديث فيما معناه ـ يقول: " أما زهدك فقد تعجلت فيه الراحة لقلبك، أما كذا ففعلته لمصلحتك، ولكن ماذا فعلت من أجلي، قال يا رب وماذا أفعل من أجلك قال: هل واليت فيّ ولياً ؟ هل عاديت فيّ عدواً...

الذي يشدك في الدين الولاء، أن توالي المؤمنين، أن تكون معه في خندق واحد، أن ترى مصلحتك مصلحتهم..

أيها الإخوة الكرام، إن أوثق عرى الإيمان أن تحب لله وأن تبغض لله..

وفي مسند الإمام أحمد عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَحَبّ عَبْدٌ عَبْدًا لِلّهِ عَزّ وَجَلّ إِلّا أَكْرَمَ رَبّهُ عَزّ وَجَلّ))

[انفرد به الإمام أحمد]

إنك إن أحببت أخاك، فقد كرّمت هذا الدين، فقد متنت عرى هذا الدين، فقد ثبّت َقواعد هذا الدين، أما إذا رأيت بين المسلمين العداوة والبغضاء، والحسد، والخصومات، والطعن والشتم، هؤلاء مسلمون؟ هؤلاء في مستوى أن يحبهم الله عز وجل ؟.. هؤلاء الذين يتحاسدون ويتناجشون، ويباغضون، ويتلاسنون، هؤلاء ليسوا عند الله في المستوى الذي يريد..

وفي مسند الإمام أحمد عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوّامِ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((دَبّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ، الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الدِّينِ، لَا حَالِقَةُ الشّعَرِ، وَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتّى تَحَابُوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السّلَامَ بَيْنَكُمْ))

[أخرجه الترمذي وأحمد]

شيء خطير جداً هذه البغضاء بين المؤمنين، هذا الحسد، هذه الشحناء، هذا الطعن المتبادل، هذه المهاترات، هذه هي الحالقة، ليست حالقة الشعر، ولكنْ هي حالقة الدين.. تصور كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي صحيح مسلم عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنْهم قَالَ:

((بَيْنَمَا أَنَا وَالنّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَارِجَانِ مِنَ الْمَسْجِدِ فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدّةِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ مَتَى السّاعَةُ ؟ قَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ فَكَأَنّ الرّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ، وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنّي أُحِبُّ اللّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد]

إذا كنت تحب الله ورسوله فأنت مع من أحببت..

وفي مسند الإمام أحمد عَنْ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِجَدِّهِ يَزِيدَ بْنِ أَسَدٍ:

((أَحِبّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ))

[انفرد به أحمد]

وفي حديث آخر:

((أَتُحِبُّ الْجَنَّةَ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَأَحِبَّ لِأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ))

[انفرد به الإمام أحمد]

لو أن المسلمين طبقوا هذين الحديثين:

((أَحِبّ لِأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ))

أو الحديث المشهور:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد والدارمي]

وطبقوا الحكمة القائلة: (عامل الناس كما تحب أن يعاملوك) لانتهت كل مشاكل المسلمين. أيها الإخوة الكرام، وفي مسند الإمام مالك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا))

[أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك والدرامي]

ما دام بين أخوين شحناء وبغضاء، فالمغفرة محجوبة عنهما معاً.

وفي سنن الترمذي عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة]

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِحَدِيثٍ يَرْفَعُهُ قَالَ:

((النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا، وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد ومالك والدرامي]

لازلنا في الأخوة الإيمانية، التي هي أثمن شيء في الحياة، والتي هي أوثق عرى الإسلام، والتي تشدك إلى الدين، والتي تعينك على طاعة الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد]

أنت على دين من تخالل، من تصاحب، من تحب، فإذا أحببت أناساً مؤمنين كنت معهم، إن أحببت أهل الحق كنت معهم، إن أحببت أهل الفضل كنت مع الفضل.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَا بُنَيّ، إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا بُنَيّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ))

[أخرجه مسلم والترمذي]

وهذا حديث خطير..

أيها الإخوة الكرام، والله الذي لا إله إلا هو، لا يسعدني شيء كأن أرى الإخوة المؤمنين متحابين، متعاونين، متسامحين، متناصرين، متكاتفين، متزاورين متباذلين، ولا يؤمن المسلم شيء، كأن يرى الإخوة المؤمنين متباغضين متحاسدين، يحقر بعضهم بعضاً، يطعن بعضهم ببعض، هذا الذي يفتتنا وهذا الذي يضعفنا.

وما من وقت نحن في أمسّ الحاجة إلى هذه الإخوة الصادقة، إلى أن نتعاون، نتضامن، لأن أعداء المسلمين ينتظرون هذه الفرصة ينتظرون هذا التشرذم، ينتظرون هذا البغض، بأخطائنا ينالون منا، بالشرخ الذي بين المسلمين يسيطرون علينا.

عَمْرو بْن الْعَاص قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ لَتَلْتَقِيَانِ عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا رَأَى وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ))

[انفرد به أحمد]

هذه الأحاديث الكثيرة، التي عرضتها على مسامعكم، وهي لا تحتاج إلى شرح، واضحة وضوح الشمس، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول، تركتكم على بيضاء نقية، ليلها كنهارها..

هذه الأحاديث، أين نحن منها ؟، هذا الموقف الجاد، إن أردت النجاة في الدنيا والآخرة، قل أين أنا من هذه الأحاديث ؟..

ما علاقاتي مع أخوتي المؤمنين ؟..

الله جل جلاله يقول:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١))

[سورة الأنفال]

قال بعض العلماء: أصلحوا أنفسكم بالإقبال على الله، هذا المعنى الأول.

والمعنى الثاني: أصلحوا كل علاقة بينكم وبين الآخرين.

المعنى الثالث: أصحلوا كل علاقة بين مؤمنين.

مهمة المؤمنين الإصلاح، إصلاح ذات البين، الآية الكريمة:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠))

[سورة الحجرات]

فإن لم يكن المؤمنين كذلك فأصلحوا بين أخويكم،

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠))

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، من أمثلة الإخوة الحقيقية بين المؤمنين، التي تنعدم فيها الفوارق الكبيرة بين الطبقات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، ما فعله سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين مر بأمية بن خلف وهو يعذب بلالاً الحبشي، قال له: ألا تتقي الله عز وجل في هذا المسكين إلا متى تعذبه ؟ فقال أمية: أنقذه مما ترى، قال أبو بكر: أفعل، خذ أكثر من ثمنه واتركه حراً. نقَدَ أبو بكر أمية الثمن، وحرر بلالاً من رق العبودية، وتأبط ذراعه إشعاراً المساواة بينهما.

قال أبو بكر: بل ابق، وأذن لنا يا بلال

قال بلال: إن كنت أعتقتني لأكون لك فليكن ما تريد، وإن كنت أعتقتني لله فدعني وما أعتقتني له.

فقال أبو بكر: بل أعتقتك لله يا بلال، فامض لما أردت.

وتتجلى ـ أيها الإخوة الكرام ـ الأخوة الحقيقة بين المؤمنين مع البون الشاسع بين مراكزهم الاجتماعية، فقد كان سيدنا الصديق، كان له جيران عجائز، مات أزواجهن، أي استشهدوا في سبيل الله، وكان رضي الله عنه، يؤم بيوت جيرانه فيحلب لهن الشياه، وهو أعلى صحابي بين أصحاب رسول الله، ولمّا آلت الخلافة إليه، تناهى إلى سمع هؤلاء العجائز أنه صار خليفة المسلمين، وأنه لن يحلب لهن الشياه بعد اليوم، ولكنه أخلف ظنونهن، وفي اليوم التالي من توليه الخلافة يُقرع باب إحدى تلك الدور، وتسارع فتاة صغيرة لتفتح الباب، ولا تكاد ترى أبا بكر الصديق حتى تصيح يا أماه، جاء حالب الشاة..

من هو حالب الشاة ؟ سيدنا الصديق خليفة المسلمين..

هذه أمثلة للأخوة الحقيقية بين المؤمنين، ولقد وصف الله المؤمنين بأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وخير ما يجسد هذا الوصف القرآني للمؤمنين ما رواه حذيفة العدوي: **" قال انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى، ومعه شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى فقلت له أسقيك، فأشار إلي أن نعم، فسمع رجلاً يقول: آه.. فأشار إلي ابن عمي أن انطلق واسقه، فإذا هو هشام ابن العاص، قلت أسقيك فأشار إلي أن نعم، فسمع هشام آخر يقول: آه.. فأشار إليّ أن انطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات، رجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، رجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.."**.

والجريح أيها الإخوة، لاشيء يحرص عليه كشربة ماء، هكذا كان أصحاب رسول الله، وحينما نكون كذلك، ينظر الله إلينا بعين العطف وينصرنا، ويقوينا، ويأخذ بيدنا.

ما من وقت المسلمون في أشد الحاجة إلى هذا التعاون وهذا التكاتف وهذا التناصر، وهذا الحب، وهذا التسامح، وذاك التزاور، والتباذل، وأن يضحي كل منا لأخيه بشيء من الدنيا..

أيها الإخوة الكرام ـ هكذا كان حال أصحاب رسول الله، الذين شرفهم الله عز وجل بنصرة نبيه.. لمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون..

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٢١ : إعدلوا بين أولادكم (ما ورد في السنة عن العدل ....).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٧-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

في هذا الأسبوع الذي سبق هذا اليوم استمعت إلى عدة قصص عن آباء لم يعدلوا بين أولادهم، فكانت النتيجة سيئة جداً ؛ عداوة بين الأبناء وهضم للحقوق، وحقد على الأب.

أردت في هذه الخطبة أن أضع بين أيديكم، ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم، عن قيمة العدل بشكل مطلق، وعن العدل بين الأولاد بشكل خاص.

ورد في صحيح مسلم عَن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ قَالَ:

((انْطَلَقَ بِي أَبِي يَحْمِلُنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْهَدْ أَنِّي قَدْ نَحَلْتُ (نحلت أي أعطيت بلا مقابل) النُّعْمَانَ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَالِي فَقَالَ أَكُلَّ بَنِيكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ النُّعْمَانَ قَالَ لَا قَالَ فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي فإني لا أشهد على جور ثُمَّ قَالَ أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً قَالَ بَلَى قَالَ فَلَا إِذًا "))

أي فلا تفعل إذاً..

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك]

هذا الحديث ورد في روايات كثيرة، ورد **فأرجعه**، أي أرجع هذا المال إليك، وفي رواية **فاردده**، وفي رواية **أفعلت هذا بولدك كلهم وفي رواية اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**، وفي رواية **فلا تشهدني إذاً فإني لا أشهد على جور**، وفي رواية **لا تشهدني على جور**، وفي رواية **فاشهد على هذا غيري**، وفي وراية **فإني لا أشهد** وفي رواية **فليس يصلح هذا وإني لا أشهد إلا على حق..**

أيها الإخوة الكرام:

هذا حديث يُعدُّ أصلاً في هذا الباب، عن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ قالها ثلاث ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد ومالك]

النبي عليه الصلاة والسلام، فيما ورد في صحيح مسلم يقول:

(("إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا ".))

[أخرجه مسلم والنسائي وأحمد]

قد يفهم بعض الأخوة الكرام أن العدل يحتاجه القضاة فقط، والأمراء فقط، ولكنّ كل واحد من المسلمين، يحتاج إلى أن يعدل، يحتاج إلى هذه الأحاديث، لأنك تكون قاضياً شئت أم أبيت بين أولادك، أو بين أولادك وبناتك، أو بين زوجة ابنتك وابنتك، فالأب دائماً مرجع في بعض القضايا الخلافية، فالأحاديث التي تتعلق بالعدل كل مسلم في أمسّ الحاجة إليها، لأنك إن لم تعدل بين أولادك، على دعوى أن هذا بارٌّ وهذا عاقٌّ، زدت العاقّ عقوقاً، والبارُّ حين رآك لم تعدل صغرت في نظره، أما إذا عدلت بين أولادك، هم في البرّ لك سواء، ولا يسع الأولاد إلا العدل..

((" إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ))

(يمين الرحمن، نفوض تفسير هذا إلى الله عز وجل، أو نفسره بما يليق بجلاله، يعني في مكان عليّ عند الله عز وجل)

((وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا في حكمهم ".))

إنسان تولى أمر عشرةٍ، يبغي أن يعدل بينهم، إنسان تسلم إدارة مدرسة إدارة مستشفى، إدارة معمل، إنسان في مركزه التجاري عنده موظفون، ينبغي أن يعدل بينهم، والعدل قيمةٌ أساسية من قيم الدين..

أيها الإخوة الكرام:

ورد أيضاً في سنن النسائي:

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتِ: اسْتَعَارَتِ امْرَأَةٌ عَلَى أَلْسِنَةِ أُنَاسٍ يُعْرَفُونَ وَهِيَ لَا تُعْرَفُ حُلِيًّا فَبَاعَتْهُ وَأَخَذَتْ ثَمَنَهُ فَأُتِيَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَعَى أَهْلُهَا إِلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُكَلِّمُهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ إِلَيَّ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَالَ أُسَامَةُ اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشِيَّتَئِذٍ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا هَلَكَ النَّاسُ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ فِيهِمْ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ثُمَّ قطع تِلْكَ الْمَرْأَةَ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدارمي]

الحد: هو العقاب المقدر في الشرع على بعض المعاصي.

وفي سنن أبي داود، عن أبي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيّ صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ:

((مَنْ طَلَبَ قَضَاءَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَنَالَهُ ثُمّ غَلَبَ عَدْلُهُ جَوْرَهُ فَلَهُ الْجَنّةُ وَمَنْ غَلَبَ جَوْرُهُ عَدْلَهُ فَلَهُ النّارُ ".))

[انفرد به أبو داود]

أن تكون قاضياً، وألاّ تحكم بالعدل، فالنّار مصير هذا الإنسان أن تكون قاضياً، وتحكم بالعدل، فلهذا الإنسان الجنّة، وما ينطبق على القضاء ينطبق على آحاد المسلمين، فلا بد من أن تكون في موقف ما قاضياً..

وفي سنن أبي داود، عن قَيْس بْن عُبَادٍ قالَ: **انْطَلَقْتُ أنَا وَالْأَشْتَرُ إلَى عَلِيّ عَلَيْهِ السّلَام فَقُلْنَا هَلْ عَهِدَ إلَيْكَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ شَيْئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إلَى النّاس عَامّةً قالَ لَا إلّا مَا فِي كِتَابي هَذَا قالَ مُسَدّدٌ قالَ فَأخْرَجَ كِتَابًا وَقالَ أحْمَدُ كِتَابًا مِنْ قِرَابِ سَيْفِهِ فَإذَا فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ (أي تتساوى في القصاص) وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ (مجتمعون على عدوهم وليسوا متفرقين) وَيَسْعَى بِذِمّتِهِمْ أدْنَاهُمْ (يسعى بوفاء عهدهم) وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أقْصَاهُمْ (أي يعطي عهداً بالمنع والحماية) وَيَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ (قويهم من يملك الرواحل) وَمُتَسَرّيهِمْ (أي مقاتلهم) عَلَى قاعِدِهِمْ ".**

موطن الشاهد في هذا الحديث (تتكافأ دماؤهم) أي تتساوى في القصاص، في الدماء المسلمون والمؤمنون دماؤهم متكافئة، أي من قتل من منهم فجزاء قاتله القتل، والقتل:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (١٧٩))

[سورة البقرة]

وفي سنن ابن ماجة عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ قالَ قالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إذَا وَزَنْتُمْ فَأَرْجِحُوا ".))

[أخرجه مسلم وابن ماجة]

وأن ترجح الوزن من أجل أن تبرئ ذمتك، فقد يكون هناك عوامل تؤدي إلى ألا تعطي الإنسان حقه، فإذا أرجحت الميزان أخذت جانب الأمان.

عَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ قالَ قالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((أفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أوْ أمِيرٍ جَائِرٍ ".))

[أخرجه أبو داود وأحمد]

يعني أن تنطق بالحق..قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩))

[سورة الأحزاب]

وكلمة الحق ـ كما قال العلماء ـ لا تقطع رزقاً، ولا تقرِّب أجلاً..

أيها الإخوة الكرام:

لازلنا في الأحاديث التي تؤكد قيمة العدل في حياة المسلم.. هذا الحديث من ألصق الأحاديث بواقعنا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:

((أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ (هذه الأمراض التي تظهر حديثاً، والتي تُعجز العالم بأسره عن أن يجدوا لها مصلاً شافياً هذه الأمراض التي أقلق مضاجع العالم كله، هذه الأمراض التي تحدث الهيئات العلمية، والجامعات، والإمكانات كلها، هذه الأمراض هي عقاب وليست ابتلاء) يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا (يعني صار من المألوف أن يقول الواحد أمام الناس: أنا أمارس هذا الانحراف هذا نسمعه أحياناً من أشخاص لهم مكانة في مجتمعاتهم) الَّذِينَ مَضَوْا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ ".))

[انفرد به ابن ماجة]

أيها الإخوة الكرام:

النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، إلا أن يُعلمه الله، وهذا الحديث من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام:

((" يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ ".))

إذا ظهر السبب بطل العجب، والإنسان مادام قلبه ينبض فهو في بحبوحة التوبة، وإذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه.

عن أبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ".))

[البخاري ومسلم وأحمد]

السلامة: العظمة الصغيرة.. كل عظمة من عظام بني آدم عليها صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس.. فهذه الأعمال التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام، نوع من الصدقات تؤديها على ما أنعم الله به عليك، من صحة، ومن حركة ومن سلامة أجهزة وأعضاء.

عَن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((قَارِبُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ يَعْنِي سَوُّوا بَيْنَهُمْ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد ومالك]

وهذا أمر نبوي، وكل أمر يقتضي الوجوب، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَدُ اللَّهِ مَعَ الْقَاضِي حِينَ يَقْضِي وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْقَاسِمِ حِينَ يَقْسِمُ ".))

[انفرد به أحمد]

يعني إذا أراد القاضي الحقَ فالله يعينه، وإذا أراد الذي يقسم الحقَ فالله يعينه، هو معك إذا أردت العدل، يلهمك الصواب، والإنسان قد يصل بإلهامات الله له إلى أشياء قد لا يحصّلها بخبرته، فحينما يريد القاضي أن يعدل، فاللّه سبحانه وتعالى يلهمه ذلك، ويلهمه الأسباب أسباب العدل.

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يُكَذِّبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ قَالَ يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمُ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ قَالَ فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حبة من

خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فقالَ الرّجُلُ وَاللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا أجِدُ لِي وَلِهَؤُلَاءِ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ أشْهِدُكُمْ أنّهُمْ أحْرَارٌ كُلُّهُمْ ".))

[أخرجه الترمذي وأحمد]

خرج من المشكلة، يُستفاد من هذا الحديث أنك إذا عاقبت عقاباً أكبر من الذنب كنت مؤاخذاً عند الله عزّ وَجل، إن عاقبت أقلّ من الذنب كان فضلاً لك عليهم، وإن عاقبت عقاباً يكافئ الذنب لا لك ولا عليك، أمّا إذا عاقبت عقاباً يزيد على حجم الذّنب كنت ظالماً.. ولا تتوهم أنك تعاقب والله سبحانه وتعالى أمرك أن تعاقب، ولكن قال:

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرينَ (١٢٦))

[سورة النحل]

(وَجَزَاءُ سَيّئَةٍ سَيّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ إِنّهُ لَا يُحِبُّ الظّالِمِينَ (٤٠))

[سورة الشورى]

وهناك أناس كثيرون، يواجهون الأخطاء بعقوبات لا تُحتمل، ولا تُقبل هذا نوع من الظّلم، فإذا كان عندك من يعمل في محلك، وأخطأ خطيئة لا يبغي أن تكيل له الصاع عشرة أصوع، كل له الصاع صاعاً، لا لك ولا عليك، إن عفوت عنه، وكان عفوك عنه يقرّبه إلى الله عزّ وجل ينبغي أن تعفو عنه، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَالّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩))

[سورة الشورى]

(وَجَزَاءُ سَيّئَةٍ سَيّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ إِنّهُ لَا يُحِبُّ الظّالِمِينَ (٤٠))

[سورة الشورى]

إذا غلب على يقينك أن عفوك عنه يقرّبه إلى الله، ينبغي أن تعفوَ عنه والله سبحانه وتعالى يتولى مجازاته.

((عَنِ الْحَسَنِ بن يسار أَنّ عُبَيْدَ اللّهِ بْنَ زِيَادٍ عَادَ مَعْقِلَ ابْنَ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ الّذِي مَاتَ فِيهِ فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ إِنّي مُحَدّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَوْ عَلِمْتُ أَنّ بِي حَيَاةً مَا حَدّثْتُكَ إِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللّهُ رَعِيّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌ لِرَعِيّتِهِ إِلّا حَرّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنّةَ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والدارمي]

وهذا الحديث ينطبق على كلّ واحدٍ منكم، كيف ؟..

الرّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيّتِهَا، والموظف الذي تحت يديه عشرة أشخاص راعٍ عليهم، وهو مسؤول عن هؤلاء الرعية، وكل من ولاه أمر عشرة فهو راعٍ ومسؤول عن رعيتهم.

أيها الإخوة الكرام:

هذه بعض الأحاديث الصحيحة التي وردت في الكتب الصحيحة عن قيمة العدل التي هي من أكبر القيم الدنيوية التي على المسلم أن يتمسك بها لأنه ورد.

أن العدل حسن ولكن في الأمراء أحسن، وأن السخاء حسن ولكن في الأغنياء أحسن، وأن الصبر حسن لكن في الفقراء أحسن، وأن الحياء حسن لكن في النساء أحسن، وأن التوبة حسن لكن في الشباب أحسن، وأن الورع حسن لكن في العلماء أحسن.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام:

مرةً ثانية: هذه النصوص الصحيحة التي سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يبغي أن تدفعنا إلى موقف عملي، فكل واحد منّا يراجع حساباته، ماذا أعطى أبناءه، هل فضّل بعضهم على بعض ؟ هل خصّ أحدهم بشيء لم يخصّ الباقين به ؟

أيها الإخوة الكرام:

حينما تلقى الله عزّ وجل وقد ونفذت وصية رسول الله: اعدلوا بين أولادكم، اعدلوا بين أولادكم، اعدلوا بين أولادكم، تكون قد نجوت من حساب يسير، وعقاب أليم، فإن الرجل يعبد الله ستين عاماً ثم يظلم في الوصية، يلقى الله تجب له النار كما ورد في بعض الأحاديث.

قضية العدل قضية مهمة جداً، وعدل ساعة ـ كما ورد في بعض الآثار ـ أفضل من أن تعبد الله ثمانين عاماً، عدل ساعة..

هناك في حياة كلٍ منا آيات صارخة دالة على عظمة الله عزّ وجل جمعت بعضها.

جسمنا الذي هو أقرب شيء إلينا معجزة، في رأس كلٍ منا ثلاثمائة ألف شعرة، لكل شعرة بصلة، ووريد، وشريان، وعضلة، وعصب وغدة دهنية، وغدة صبغية.

وفي شبكية العين عشر طبقات، في آخرها مائة وأربعون مليون مستقبل للضوء، ما بين مخروط وعصية، ويخرج من العين إلى الدماغ عصب بصري، يحوي خمسمئة ألف ليف عصبي.

وفي الأذن ما يشبه شبكة العين فيها ثلاثون ألف خلية سمعية ؛ لنقل أدق الأصوات، وفي الدماغ جهاز يقيس التفاضل الزمني لوصول الصوت إلى كلٍ من الأذنين، وهذا التفاضل يقل عن جزء من ألف وستمائة جزء من الثانية، وهو يكشف للإنسان جهة الصوت.

وعلى سطح اللسان تسعة آلاف نتوء ذوقي، لمعرفة الطعم الحلو والحامض والمر والمالح، وإن كل حرف ينطقه اللسان، يسهم في تكوينه سبعة عشر عضلة، فكم حركة.

وتوسط العمر المتوسط ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم، وفي دماغ الإنسان أربعة عشر مليار خلية قشرية، ومائة مليار خلية استنادية لم تُعرف وظيفتها بعد، بل إن دماغ الإنسان، هو أعقد ما في الإنسان وهو عاجز عن فهم ذاته.

وفي جدار المعدة مليار خلية تفرز من حمض كلور الماء ما يزيد عن عدة ألتار في اليوم الواحد، وقد جهد العلماء في حل هذا اللغز، لمَ لا تهضم المعدة نفسها، أليست المعدة معجزة ؟ !.

وفي الأمعاء ثلاثة آلاف وستمائة زغابة معوية للامتصاص في كل سنتمتر مربع، وهذه الزغابات تتجدد كلياً كل ثمانٍ وأربعين ساعة.

وتحت سطح الجلد يوجد ستة عشر مليون مكيف لحرارة البدن، هي الغدد العرقية، وفي الكبد ثلاثمائة مليار خلية، يمكن أن تُجَدد كلياً خلال أربعة أشهر، ووظائف الكبد كثيرة، وخطيرة ومدهشة، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات.

وفي الكليتين مليونا وحدة تصفية، طولها مجتمعة مائة كيلو متر يمر فيها الدم في اليوم خمس مرات.

هذا جسمنا الذي نحن نعيش معه، هذا جسمنا أقرب شيء إلينا، هذه حقائق مسلم بها، عرفها الأطباء من عشرات السنين، وليست خاضعة للمناقشة إطلاقاً، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١))

[سورة الذاريات]

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٢٢ : الإيمان (أحاديث تتحدث عن الإيمان).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٧-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

من طبع الإنسان أن يتملق نفسه، من طبع الإنسان أن يركن إلى وهم مريح، وأن يرفض الحقيقة المرّة، من طبع الإنسان أن يستسهل الأهداف بأقصر الوسائل، فكل من المسلمين، يظن أنّه مؤمن كما يريد الله عزّ وجل.. لو رجعنا إلى أقوال النّبي صلى الله عليه وسلم في موضوع الإيمان، يمكن أن نوازن بين قول النّبي، وبين واقعنا، فإذا انطبق واقعنا على تعريف النّبي صلّى الله عليه وسلم للإيمان، فهذه نعمة عظمى، أما إذا كان هناك بون شاسع، وبين تعريف النّبي للإيمان وبين ما نحن فيه، فينبغي أن نشمِّر، لنجدّد إيماننا، ولنستكمل كماله.

أيها الإخوة الكرام:

ورد في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

النبي عليه الصلاة والسلام يحدد شُعب الإيمان ببضع وسبعين شعبة والبضع كما يقول العلماء عدد مبهم فيما بين الثلاث إلى التسع في الأعم الأغلب..

والحياء شعبة من الإيمان، الحياء: كما قال العلماء، تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به، يعني يحجم عن فعل لئلا يُعاب في موضوع ما، هذا هو الحياء.. يُطلق على مجرد الترك، ترك أي شيء لأي سبب، هذا معناه الواسع.

الترك - أيها الإخوة - من لوازم الحياء، الحياء ترك، أما في التعريف الشرعي، الحياء الشرعي: هو خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق كل ذي حق..

خلق يمنعك من أن تفعل قبيحاً، خلق يمنعك من أن تقصر في حق إنسان..

النّبي عليه الصلاة والسلام في حديث آخر عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد]

إلا أن بعض العلماء يقول، الحياء طبع في الإنسان، فكيف نفرق بين حياء هو طبع فيه، لا كسب له فيه، وبين حياء شرعي يرقى به إلى الله عزّ وجل ؟..

أجاب بعض العلماء عن هذا التّساؤل، حينما يُستخدم الحياء، أو حينما يُستعمل الحياء وفق الشّرع، يحتاج إلى اكتساب علم، ونية، وإيمان فحينما تستخدم الحياء في ترك ما نهى الله عنه، وفي فعل ما أمر الله به هذا الحياء اقترن بكسب، إيمانك وعلمك، وسلامة نيتك، أضفت هذا كله إلى الحياء فكان حياءً شرعياً، إذاً هو من الإيمان.

الحياء الشرعي باعث على فعل الطّاعة، وحاجز عن فعل المعصية أما الحياء الذي يمنعك من أن تقول كلمة الحق، أما الحياء الذي يمنعك من أن تؤدي حق الله عزّ وجل، هذا ليس الحياء الذي قصده النبي عليه الصلاة والسلام، إنما هو طبع لا علاقة له بهذا الحديث الشريف والأصح أن نسميه خجل، والخجل مرض نفسي، بينما الحياء فضيلة إيمانية..

المؤمن يخاف على سمعته، يخاف على صلته بالله، يخاف على مكانته الاجتماعية، يخاف من يوم تُفتضح فيه السرائر، فالحياء بهذا المعنى، الذي يوظف في حقل الإيمان، هو الحياء الشرعي الذي أراده الله عزّ وجل.

بعض العلماء تكلّفوا حصر هذه الشعب عن طريق الاجتهاد، فهذه الشعب، شعب الإيمان التي عدها النّبي عليه الصلاة والسلام، تزيد عن بضع وستين شعبة، بعض العلماء اجتهدوا في تعدادها، فقسموها إلى أعمال قلب، وأعمال لسان، وأعمال بدن..

فأما الإعمال بالقلب، فهي المعتقدات والنيات..

ذكرت قبل أيام في درس سيرة أن النّبي عليه الصلاة والسلام حينما عرض على عمِّه أبي طالب، أن ينطق بكلمة الإيمان قال له يا عمُّ قل لا إله إلا الله، أحاجُّ له بها عند الله، فرفض أن يقولها، ومات على الكفر.. كم من خدمة قدمها هذا العمُّ لابن أخيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كم من موقف دافع عنه فيه، ولأن عقيدته لم تصح مات على الكفر، فالمعتقدات ؛ شيء كبير جداً في حياة المؤمن، المعتقدات والنيات، وقد صنفها بعضهم ؛ الإيمان بالله، والإيمان بذاته، والإيمان بصفاته، والإيمان بتوحيده، وبأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب، والإيمان بالرسل، والقدر خيره وشرّه، والإيمان باليوم الآخر، والمسألة في القبر، والإيمان بالبعث، والنّشور، والحساب، والميزان، والصِّراط، والجنّة، والنّار ومحبة الله، والحب والبغض في الله، ومحبة النّبي عليه الصلاة والسلام، واعتقاد تعظيمه، والصلاة عليه، واتباع سنّته، والإخلاص له ويدخل في هذا أيضاً، ترك الرّياء والنِّفاق، والتوبة، والخوف والرّجاء والشّكر والوفاء، والصّبر،

والرّضا بالقضاء والتوكّل، والرّحمة والتّواضع، وتوقير الكبير ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب، هذه أعمال القلب، هذه شعب الإيمان في القلب، بينما شعب الإيمان في اللِسان..

شعب الإيمان في اللِسان:

التلفظ بكلمة التّوحيد، تلاوة القرآن، تعلم العلم، الدعاء، الذكر الاستغفار، اجتناب اللّغو، هذه شعب الإيمان المتعلِّقة باللّسان.

وأما شعب الإيمان المتعلقة بالأبدان:

التطهُّر حسّاً وحكماً، اجتناب النّجاسات، ستر العورات، الصّلاة فرضاً ونفلاً، أداء الزكاة، فك الرّقاب، الجود، إطعام الطعام، إكرام الضّيف، الصّيام فرضاً ونفلاً، الحج والعمرة، الطّواف والاعتكاف التماس ليلة القدر، الفرار بالدين، ويدخل فيه الهجرة من دار الشّرك إلى دار الإيمان، والوفاء بالنذر، وتحري الإيمان، وأداء الكفّارات والتعفّف بالنّكاح، والقيام بحقوق العيال، وبرّ الوالدين، واجتناب العقوق وتربية الأولاد، وصلة الرّحم، والرفق بالعبيد، والقيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..
هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((" الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ ".))

شيء آخر، هناك رواية لإمام مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

التّوحيد أعلى شيء تصل إليه، التوحيد نهاية العلم، والتّقوى نهاية العمل، فمن جمع بين التّوحيد والتّقوى فقد جمع الإيمان من أطرافه كلها أفضلها قول لا إله إلا الله، أن لا ترى في الكون إلا الله، أن لا ترى معطياً، ولا مانعاً، ولا قابضاً، ولا باسطاً، ولا معزّاً، ولا مذلاً ولا رازقاً، ولا مسعداً إلا الله عزّ وجل، هذا هو التّوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التّوحيد، وأن تميط الأذى عن الطّريق، هذا نوع من الإيمان، ما الذي دفعك إلى أن تُزيح الحجر عن طريق المسلمين ؟.. طلبك الثّواب من الله، وخوفك من أن يُؤذى به مسلم، فهذا الحديث الشريف ـ أيها الإخوة الكرام ـ من الأحاديث التي هو أصول الدين:

((" الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ ".))

هذه رواية الإمام البخاري، رواية الإمام مسلم:

((" الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ ".))

أيها الإخوة الكرام، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد]

حلاوة الإيمان: طعم الإيمان:

((" وذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا ".))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد عن العباس]

الإيمان له طعم، الإيمان مجموعة حقائق، قد تزيد هذه المجموعة بسماع خطبة، بقراءة كتاب، بسماع شريط، بحضور محاضرة بحضور مجلس علم، هذه الحقائق والقناعات، تزداد بهذه النّشاطات، ولكنْ أن تذوق حلاوة الإيمان شيء آخر، حلاوة الإيمان ثمنها مجاهدة النفس والهوى، حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٢٤))

[سورة التوبة]

قال بعض العلماء: محبة الله على قسمين ؛ محبة فرض، ومحبة ندب، فمحبة الفرض، هي المحبة التي تبعث على امتثال أوامر الله عزّ وجل، والانتهاء عن معاصيه، يعني الحد الأدنى في المحبّة، هي المحبّة التي تحملك على طاعة الله، والمحبّة التي تحجزك عن معاصي الله، فإن كنت مطيعاً لله مجتنباً لما نهى الله عنه، فأنت محبّاً لله ورب الكعبة، أما إذا كان العلم يتناقض مع محبّتك لله، إذا كان العمل لا يطابق منهج الله عزّ وجل، فمحبّتك لله مشكوك فيها، وأقوى دليل على ذلك هو أن الله سبحانه وتعالى طالب خلقه بدليل على محبته، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣١))

[سورة آل عمران]

اتِّباع سنّة النّبي دليل محبّة الله، أما دعوى محبّة الله، من دون اتِّباع سنّة النّبي، فدعوى لا قيمة لها، ولا يُخذ بها إطلاقاً..

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ذاك لعمري في المقال شنيعُ

لو كان حبّك صادقا لأطعتـه إن المحبّ لمن يحبّ يطيـعُ

***

قال بعض شرّاح الحديث ـ أيها الإخوة ـ المحبّة التي أرادها النّبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث:

((" ثَلَاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلّا لِلّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النّارِ ".))

قال: المحبّة التي تبعث على امتثال أوامره، والانتهاء عن معاصيه والرّضا بما يقدره، فمن وقع في معصية، من فعل محرّم، أو ترك واجباً، فلتقصيره في محبّة الله، حيث قدّم هوى نفسه على طاعة الله..

معادلة واضحة جداً، حينما تؤثر هوى نفسك على طاعة الله، ففي محبّتك نقص خطير، محبّتك لا تنجيك، محبّتك من النوع الذي لا يكفي ما لم تحملك محبّتك على طاعة الله عزّ وجل، إيّاك أن تدّعي المحبّة.

أحياناً الإنسان يسترسل في المباحات، ويستكثر منها، فتورثه الغفلة المقتضية للتوسّع مع الرّجاء، أحياناً الإنسان يرجو رحمة الله دون أن يدفع ثمنها، والنّبي عليه الصلاة والسلام، يقول: اللهم إنّا نسألك موجبات رحتمك، هذا الذي يرجو رحمة الله دون أن يدفع ثمنها كالمستهزئ بالله، هذا الذي يطلب الجنّة بلا عمل يرتكب ذنباً كبيراً فمحبّة الله يدعيها كل مسلم، فلو سألت مليار مائتي مليون مسلم على وجه الأرض: أتحبّ الله ؟ يقول لك نعم أحبّه.. هذه المحبّة دعوى خاضوا بحار الهوى دعوى وما ابتلوا، هذه دعوى لا يؤكدها إلا طاعة الله، وطاعة رسوله وامتثال أمريهما..

فيا أيها الإخوة:

الإنسان حينما يرجو رحمة الله ولا يقدّم شيئاً، لا يقدّم واجباته، إنّما في محبّته خلل، وأو في محبّته نقص خطير، لذلك المؤمن حينما يواظب على النوافل، ويتجنّب الوقوع في الشُبهات، يوثق بأنّه محب لله عزّ وجل، ما الذي ينقلك إلى المخالفة ؟.. أن تتوسع في المباحات وأن تسترسل بها، وأن تستكثر منها، هذه المباحات من لوازمها أنها تحملك على الغفلة، التي من لوازم هذه الغفلة، أن يكون رجاؤك برحمة الله واسعاً دون أن تقدّم الثّمن لهذه الرّحمة، ما العلاج في هذه الحالة أن تواظب على النوافل، وأن تتجنب الوقوع في الشُبهات.

المؤمن لا يتلقى أمراً إلا من الله عزّ وجل، ولا ينتهي إلا عن ما نهى الله عز وجل، ولا يسلك إلا طريق المؤمنين، لا يتبع غير منهج الله عز وجل، من جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان.

حلاوة الإيمان سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، هذه السعادة تحملك على بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، هذه السعادة تحملك على بذل تحمل المشاق في الدّين، تحملك على إيثار طاعة الله على أعراض الدنيا، هذه المحبّة لله تحصل بفعل طاعته، وترك مخالفته.

أيها الإخوة الكرام:

تتمة هذا الحديث:

((وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ ".))

ومن أدق ما شُرح به هذا الحديث، أن الحب في الله ضابطه الشرعي أن لا يزيد بالبرِّ، وأن لا ينقص في بالجفاء..

كل منا إن أحسن أحد إليك تحبّه، هل هذا الحب في الله ؟.. الجواب لا، **إن النفوس جُبلت على حب من أحسن إليها،** وبغض من أساء إليها.. هل أنت من الإيمان أن المؤمن لو نصحك نصيحة وحجّمك تبقى على محبّته ؟ وأن المنحرف لو أعطاك أعطية وبالغ بها، هل تبقى على جفوته، علامة الحب في الله، والبغض في الله ؛ أن لا يزيد هذا الحب بالبرّ والصلة، وأن لا ينقص بالنصيحة والجفاء، هذا الحب في الله ؛ تحب مؤمناً ولو قسى عليك في النصيحة، وتُبغض منافقاً ولو وصلك ببرّه وعطائه.. هذا هو الحب في الله الذي هوأكمل شيء في حياة المؤمن.

((" ثَلَاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ ".))

وعن عبد الله ابن جبير قال:

((سمعت أنساً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار ".))

هؤلاء الذين نصروا النبي، هؤلاء الذين هاجر إليهم النّبي، هؤلاء أحبهم النبي، هؤلاء الذين أثنى عليهم النّبي، هؤلاء الذين رفع مقامهم النبي، هؤلاء يجب أن تحبهم، فإن لم تحبهم فأنت منافق.

((آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار "))

أناس نصروا النّبي، وبذلوا الغالي والرّخيص والنّفس والنّفيس، وقدّموا كل شيء، والنّبي عليه الصلاة والسلام كان ممتناً منهم، وقد أثنى عليهم، الأنصار أدوا ما عليهم بقي الذي لهم، فالذي يأتي بعد حين، وبعد سنين طويلة، وبعد قرون طويلة، ويبغض من أحب النّبي، فهذه من علامات النِّفاق.
من علامات الإيمان ؛ أن تحب الأشخاص الذين أحبّهم النّبي، وأن تحب الأماكن التي أحبّها النّبي، حينما خرج النبي مهاجراً قال:

((اللهم إني خرجت من أحب البلاد إليك، فأسكني أحب البلاد إليك ".))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة وأحمد]

فالذي يذهب إلى بلاد الله المقدّسة، إلى مكة والمدينة، وترتاح نفسه هناك، هذه من علامة الإيمان، علامة الإيمان أن تحب هذا المكان الذي كان مكان ظهور رسالة الإسلام..

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا ".))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد الدارمي]

وهذا الحديث الخامس، من أصول الدين، الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ الطهور نقاء وكمال، الطهور أن تكون نفسك صافية من كل كدر، من كل انحراف، من كل ضغينة، من كل حقد، من كل سلوك منحرف، من كل سلوك غير نظيف، هذا بالمعنى الواسع، والشطر الثاني أن تتحلّى بالمكارم الأخلاقية، يعني تخلية وتحلية.

((وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ...))

قال العلماء: نور في الوجه، ونور في البصيرة.. المصلي يُقذف في قلبه نور يرى به الخير خيراً، والشرّ شرّاً، والحق حقاً، والباطل باطلاً المصلّي عنده رؤية صحيحة، المصلّي ينظر بنور الله، وينطق بتوفيق الله، المصلي يسدّد الله خطاه، ويلهمه رشده،

((وَالصَّلَاةُ نُورٌ.))

((وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ))

لأن المال زُين حبُه للناس، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤))

[سورة آل عمران]

فحينما تُنفق مالك، تخالف طبعك، وحينما تخالف طبعك ترقى إلى ربّك.

((فالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ.))

((وَالصّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ))

إن كنت مع أوامره فهو حجّة لك، وإن خرجت عن منهجه فهو حجّة عليك.

((كُلُّ النّاسِ يَغْدُو))

يخرج من بيته.

((فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

إما أن يبيع نفسه لله فيعتقها من النّار، ويسعد في الدّارين، أو أن يبيعها للشيطان، فيهلك في الدنيا ويشقى في الآخرة..

((.. كُلُّ النّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا ".))

أيها الإخوة الكرام:

لازلنا في الأحاديث التي تتحدّث عن الإيمان، وهذه الأحاديث ؛ وصف ومقياس في وقت واحد ؛ لأنّ النّبي عليه الصلاة والسلام يصف لك حقيقة الإيمان، وهي مقياس، قسْ نفسك بهذه الأحاديث، أين أنت منها ؟..

قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

الحد الأدنى في الإيمان أن تنكر منكراً بقلبك، ولن يُقبل منك ذلك إذا كان بإمكانك أن تنكره بلسانك، ولن يُقبل منك إنكارك بلسانك إن كان بإمكانك أن تُنكره بيدك.

((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ".))

أما هذا الذي لا ينكر المنكر، لا بيده، ولا بلسانه، ولا بقلبه أين هو من الإيمان ؟ !.. هذه حقائق أيها الإخوة.

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ..))

أعظم الأعمال أن تؤمن بالله، لأنك إن آمنت بالله، كل حركة لك في حياتك الدنيا ستغدو صحيحة، وتثاب عليها، وكل حركة مهما تكن محكمة، إن لم يسبقها الإيمان لا قيمة لها، بل تُحاسب عليها. فيا رسول الله أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ هذا الإيمان الجانب الأول، وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ..

إذا انتقلت إلى أعلى تنقلك إلى أعلى، وهكذا تأخذ بيدك هذه الفضائل ولو بدأت بالسلبيات منها ـ إلى جنّة الله عزّ وجل.

أيها الإخوة المؤمنون:

المنافق يبقى في حال واحد أربعين عاماً، أما المؤمن فيتقلب في اليوم الواحد بأربعين حالاً ؛ بين الرّجاء، والخوف، بين الاستغفار، بين الطمأنينة، بين القلق، لشدة خوفه من الله، ولعظم حق الله عليه ولشدّة تعظيمه لله، ولحرصه على الآخرة، يتنقل من حال إلى حال.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْوَسْوَسَةِ قَالَ تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ ".))

[انفرد به مسلم]

يعني مهتم.. أما هذا الذي لا تأتيه الوساوس أبداً، أنى لها أن تأتيه وهو كما يريد الشيطان، قال تعالى:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦))

[سورة الأعراف]

يعني حينما يسلكون الصراط المستقيم يبدأ عمل الشيطان، أما إذا كان الإنسان تائهاً، وشارداً، وبعيداً، وغافلاً، وغارقاً في المعاصي والآثام الشيطان يتركه.. عمل الشيطان مع هؤلاء الذين سلكوا طريق الإيمان:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧))

[سورة الأعراف]

عن أيمانهم بالوسوسات، والغلوّ في الدّين، ونقل فروعه إلى كلياته والمخاصمة من أجل فرعيات الدّين، وترك جوهر الدّين، هذا عن أيمانهم، يوقع بين المسلمين العداوة والبغضاء، يحرش بينهم:

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(١٧))

كل شيء حديث، كل شيء جديد، يعظمه الناس، ولو كان فيه تعظيماً لأخلاقهم، ولو كان فيه سحقاً لسلوك أبنائهم، شيء جديد، انظر إلى السطور تعرف معنى قولي هذا..

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(١٧))

التقاليد التي ألفها الناس عن آبائهم وأجدادهم ولو كانت مخالفةً للشرع إما أن يأتيهم الشيطان من بين أيديهم ؛ الحداثة والجدة، والعلم، وما إلى ذلك، أو تقاليدهم وعاداتهم التي تنافي منهج الله عزّ وجل ؛ هكذا نشأنا هكذا علمنا أبونا، هكذا ألفنا، هذا الاختلاط:

ولآتينهم عن أيمانهم، بالغلوّ في الدّين، **وعن شمائلهم** بالمعاصي والآثام، **ولا تجد أكثرهم شاكرين..**

فالوسوسة متعلقة في أنك تسير فعلاً في طريق الإيمان، فالوسوسة قال عنها عليه الصلاة والسلام محض الإيمان، وأحد التابعين قال: التقيت بأربعين صحابياً، ما منهم واحد إلا وهو يظن نفسه منافقاً، وأكبر دليل على ذلك أن سيدنا عمر، عملاق الإسلام، سأل سيدنا حذيفة بن اليمان قال: بربّك هل وجدت اسمي مع المنافقين ؟..

أيقولها تمثيلاً ؟.. لا والله، يقولها خوفاً من الله، يقولها حرصاً على طاعته، حرصاً على رضوانه..
أيها الإخوة الكرام:

ذكرت لكم بعض الأحاديث، وهي كثيرة جداً، لكن الإنسان مهمته مع هذه الخطبة، أن يقرأ الحديث، وأن يوازن بين حاله وبين مضمون هذا الحديث، فإن كان حاله مطابقاً لمضمون هذا الحديث، فهذه نعمة عظمى لا تعدلها نعمة، وإن لم يكن كذلك، فليسع إلى أن يزيد من إيمانه، وأن يرقى بإيمانه، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢))

[سورة آل عمران آية ١٠٢]

فسّر بعض العلماء هذه الآية: بأن تطيعه فلا تعصيه، وأن تشكره فلا تكفره، وأن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره ولا تنساه.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام:

يقول الله عز وجل:

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرِ (٤٩))

[سورة القمر]

من الثابت في علوم الطب ؛ أن دم الإنسان إذا زادت ميوعته، نزف دمه كله من جرح صغير، عندها يموت الإنسان، ولو زادت لزوجته عن الحدِّ المعقول، تجمّد الدم في العروق كالوحل في الطرقات، فإذا وصلت خثرة منه إلى القلب أو الدِّماغ قضى الإنسان نحبه، لذلك يفرز الجسم هرموناً يميع الدم، وهرموناً يجلطه، ومن التوازن الدقيق، بين إفراز الهرمونين، يحافظ الدم على مستوى من السيولة تسمح له بالحركة، عبر الأوعية الدقيقة، ليحافظ الدم على مستوى من اللزوجة تمنع نزيفه من أدق الجروح..

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرِ (٤٩))

ومن الثابت أن الغدّة النُّخامية، ملكة الغدة الصماء، من مفرزاتها ما يحث الغدة الدّرقية المسؤولة عن الاستقلاب، أي تحويل الغذاء إلى طاقة وأن من مفرزات الغدّة الدّرقية، ما يثبت الغدّة النُّخامية، ومن خلال التأثير المتبادل الحكيم، بين الغدتين، يستقيم التوازن بين حاجة الإنسان إلى الغذاء وحاجته إلى الطاقة.

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقدَرِ (٤٩))

لذلك قالوا: الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، فالكون كله يترجم آيات القرآن، والقرآن يجسد حقائق الكون، والنبي عليه الصلاة والسلام بخلقه، كان خلقه القرآن.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٢٣ : شمائل النبي صلى الله عليه وسلم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٧-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

لا زلنا في شهر ربيع الأول شهر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، النبي صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة والهدى، وللنبوة والأنبياء في عقيدة المسلم قصة.

لفقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه أعظم تكريم، حمّله أمانة التكليف وأعطاه مقوّمات هذا التكليف ؛ كوناً ناطقاً بوجود الله ووحدانيته وكماله، وإكرامه، وعقلاً يتفق في مبادئه، مع سنن الكون وهو أداة معرفة ومناط مسؤولية، وفطرةً سليمةً تكشفُ للإنسان خطأه وشهوة دافعة رافعة، وحرية اختيار مقومةٍ مثمّنة، وقوةً محققةً للكسب كاشفة للطوية، ومنهجاً تفصيلياً يقي الزلل ويحقق الهدف.

ومع كل هذا فقد يغفل الإنسان عن مهمته، وينسى ما كُلف به وتغلبه شهواته، وتُرديه رغباته، ويسير في طريق الهاوية، وهو يحسب أنه يُحسن صنعاً، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً (١٠٦))

[سورة الكهف]

لأن الله خلق الإنسان، هو أرحم بالإنسان من نفسه خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض " **فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** " فلا بد وهو أرحم الراحمين من أن يخاطب البشر، من حين إلى حين، مذكراً بمهمتهم، مبيناً لمنهجهم، محذراً عواقب غفلتهم وإعراضهم، وبما أنه يستحيل أن يخاطب الله كل البشر لأن تحمُّل الخطاب وتلقي الوحي عن الله لا يستطيعه، ولا يستأهله إلا نخبة من صفوة البشر، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣))

[سورة آل عمران ٣٣]

من أجل هذا كان الأنبياء والمرسلون، وكان من بعدهم الأئمة والداعون والهداة والمهديون ؛ لأن النبي لا يستطيع تحقيق رسالته، إلا إذا كان من بني البشر ليبلغَهم بلسانهم، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤))

[سورة إبراهيم]

ولا يستطيع نبي أيضاً أن حقيقة رسالته إلا إذا جرت عليه كل خصائص البشر حتى يكون انتصاره على بشريته، قدوةً ومثلاً لك البشر وبهذا يُحقق النبي الكريم مهمة القدوة، تكميلاً لمهمة التبليغ، لذلك يُعدُّ من سنة النبي صلى الله عليه ولسلم: أقواله، وأفعاله، وإقراره وصفاته، قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

[سورة القلم]

هذا الخلق العظيم منهج لأمتك..

وقال:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

[سورة آل عمران]

حينما يأتي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بعقيدة، ومنهجٍ يُسقِه بها ضلالات البشر، وانحرافاتهم، يظهر المعارضون المتضررون من تطبيق منهج الله، هؤلاء المعارضون الذين حدّت رسالات السماء من انحرافهم وطغيانهم، ما يكون منهم إلا أن يكذبوا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣))

[سورة الرعد]

لذلك لا بد من أن يشهد الله لكل البشر، أن هذا الإنسان الذي خصه الله بالنبوة والرسالة هو رسوله، وهو صادق فيما يقول، وتكون شهادة الله للبشر بأن يؤيد رسوله بمعجزة، يعجز عن الإتيان بمثلها كل البشر وينبغي أن يكون موضوع المعجزة مما نبغ فيه القوم ليصح التحدي ولتقوم الحجة.

لقد كانت معجزات الأنبياء حسية، محدودة في مكان، وزمان، تألقت مرة واحدة كعود الثقاب، ثم أصبحت خبراً يصدقه مصدق ويكذبه مكذب أما معجزة نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو خاتم النبيين فهي معجزة مستمرة لكل البشر ؛ لأنها بين يدي البشر في كل عصر وفي كل مصر إلى يوم القيامة، إنها معجزة عقلية بيانية، إعجاز علمي، وإعجاز تشريعي وإعجاز إخباري، وكلما تقدم البحث العلمي كشف عن جانب من إعجاز القرآن، قال تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣))

[سورة فصلت]

أي القرآن..

بالعقل يحكم الإنسان بأنه لا بد لهذا الكون من خالق موجد ورب ممد ومسير حكيم واحد في ذاته، واحد في أسمائه، وأفعاله.

وبالعقل يحكم الإنسان أن هذا القرآن هو كلام الله جل وعلا من خلال إعجازه، وبالعقل يحكم الإنسان بأن الذي جاء بالقرآن المعجز هو رسوله وبعدئذ يأتي دور القرآن ليخبر الإنسان عمّا لا يستطيع العقل أن يدركه بذاته، من هذه الموضوعات التي يعجز العقل عن إدراكها بذاته، والتي أخبر بها القرآن ؛ قصة خلق السماوات والأرض، حقيقة الحياة الدنيا حقيقة الدار الآخرة، خلق الإنسان، أين كان وإلى أين المصير، وما سر وجوده على هذه الأرض، وما المهمة التي كُلف بها وما المنهج الذي ينبغي أني سير عليه، ليحقق ذاته، وليدرك السعادة، في الدنيا والآخرة ؟.

الدين في اختصار شديد: عقل ونقل.. عقلٌ لمعرفة الله، وللتحقق من صحة النقل عنه ولفهم هذا النقل، ونقل يُبين للعقل ما خفي عنه، وما عجز عن إدراكه، وما يضمن سلامته وسعادته، من خلال التشريع الإلهي.

باختصار شديد هذه قصة النبوة والأنبياء، ونحن في شهر ربيع الأول شهر مولد النبي عليه الصلاة والسلام، فمن أي الجوانب يكون الحديث عن النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟..

إن أبرز هذه الجوانب هي شماله الشريفة، لأننا مكلفون أن نقتدي به قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١))

[سورة الأحزاب]

ماذا يعني الحديث عن شمائل الني صلى الله عليه وسلم ؟.. ولا سيما وقد جعله الله أسوةً صالحةً لنا.. يعني أن هناك تلازماً ضرورياً بين التدين الصحيح والخلق القويم، فالنبي صلى الله عليه وسلم حدد الغاية الأولى من بعثته، والمنهج الأمثل في دعوته، فقال فيما رواه الإمام مالك:

((" إنما بُعثت معلماً، إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق ".))

فالهدف الأكبر من رسالة السماء إلى الأرض ؛ هو إرساء البناء الأخلاقي للفرد والمجتمع، هذا البناء الأخلاقي هو ثمن الجنة التي خُلق الناس من أجلها.

شيء آخر: والوسيلة هي التعليم والمتتبع لنصوص القرآن الكريم وللسنة المُطهرة الصحيحة، يجد ذلك التلازم الضروري بين التدين الصحيح والخلق القويم، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧))

[سورة الماعون]

وقال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠))

[سورة القصص]

وقال صلى الله عليه وسلم:

((" ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له.. ".))

[جزء من حديث طويل أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((" الإيمان والحياء قُرناء جميعاً، فإذا رُفع أحدُهما رُفع الآخر ".))

[أخرجه الحاكم]

فالإيمان إذاً ؛ أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر.

مما يؤكد هذا التلازم الحتمي بين التدين الصحيح والخلق القويم ما أورده الإمام أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي الْجَنَّةِ ".))

[تفرد به الإمام أحمد]

ورد في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا

وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ ".))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد]

لقد بين النبي عليه الصلاة والسلام، في الأحاديث الصحيحة ؛ أن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً، وأن أكملهم إيماناً أحسنهم خلقاً، وأن من أحبِ عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً، وأن من أقرب المؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنهم خلقاً، وأن خير ما أُعطي الإنسان خلق حسن، وأنه ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وأن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، بل إن العبد ليَبلغُ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، والخلق الحسن يُذيب الخطايا كما يُذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل.

هذه مقتطفات من شمائل النبي صلى الله عليه وسلم:

فمن عنايته بأصحابه، وتواضعه لهم ما رواه الحاكم بإسناد أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته، فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس بأهله، وامتلأ فجاء جرير البجلي فلم يجد مكاناً فقعد على الباب فنزع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه إليه، فأخذه جرير ووضعه على وجهه، وجعل يقبله ويبكي، وأعاده إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله ما كنت لأجلس على ثوبك، أكرمك الله كما أكرمتني فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يميناً وشمالاً فقال:

((" إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ ".))

[تفرد به ابن مادة عن ابن عمر]

وعن عدي بن حاتم قال: **دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فألقى إلي وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقال: اجلس عليها، قلت: بل أنت قال: بل أنت فقال عدي: فجلست عليها وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض، فقلت أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً، وأسلم عدي بن حاتم.**

وروى البيهقي في الدلائل: أنه وفد وفدُ النجاشي على النبي صلى الله عليه، وسلم فقام النبي صلى الله عليه وسلم فخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: يا رسول الله نحن نكفيك القيام بضيافتهم وإكرامهم فقال صلى الله عليه وسلم:

((إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأنا أحب أن أكافئهم بنفسي ".))

ومن رحمته بالخلق: ما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال:

((" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ قَالَ فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ (أي تُتعبه)".))

[أخرجه مسلم وابن ماجة وأبو داود وأحمد والدارمي]

ومن عدله صلى الله عليه وسلم: ما رواه الشيخان واللفظ للبخاري عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ:

((أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ فَفَزِعَ قَوْمُهَا إِلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَسْتَشْفِعُونَهُ قَالَ عُرْوَةُ فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيهَا تَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ قَالَ أُسَامَةُ اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ خَطِيبًا فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ فَقُطِعَتْ يَدُهَا فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ قَالَتْ عَائِشَةُ فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد والدارمي]

ومن صبره صلى الله عليه وسلم: ما رواه الإمام أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((" لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ ".))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة]

ومن شجاعته صلى الله عليه وسلم: ما قاله سيدنا علي كرم الله وجهه، كنا معشرَ الصحابة، إذا حمي البأس، واحمرت الحِدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقربَ إلى العدو منه.

ومن خشيته لله: أنه غضب صلى الله عليه وسلم ذات مرة من غلام وكان بيده سواك فقال له: والله لولا خشية القصاص، لأوجعتك بهذا السواك.

ومن هيبته صلى الله عليه وسلم: أنه كان فخماً مفخماً يتلألأ وجهه صلى الله عليه وسلم ـ تلألؤ القمر ليلة البدر، من رآه بديهة هابه ومن خالطه أحبه، دخل، عليه رجل فأصابته رعدة شديدة، فقال له النبي عليه الصلوات الله وسلامه:

((" هوّن عليك فأنا لست بملك ولا جبار وإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة".))

وكان صلى الله عليه وسلم، أعظم الناس حياءً، لأنه أعظمهم إيماناً وقد قال صلى الله عليه وسلم: عن عَبْدِ اللَّهِ بن عمر رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد ومالك]

فكان أشد حياءً من العذراء في خدرها، وقد بلغ من حيائه أنه لا يواجه أحداً بما يكره. ورحم الله من قال في مدح خير الأنام:

يا من له الأخلاق ما تهوى العُلا منها وما يتعشق الكبـــاء

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى وفعلت ما لا تفعل الأنـــواء

وإذا عفوت فقادراً ومقـــدراً لا يستهين بعفوك الجُهـــلاء

وإذا رحمت فأنـت أم أو أب هذان في الدنيا هما الرحمـــاء

وإذا غضبت فإنما هي غضبـــة في الحق لا ضغن و لا بغضاء

وإذا خطبت فللمنابر هـــزةٌ تعرو الندي و للقلوب بكـاء

يا أيها الأميُّ حسبك ربتـــة في العلم أن دانت لك العلمـاء

***

الأنواء: السحب

أيها الإخوة المؤمنون، هذه بعض شمائل النبي نعرضها على مسامعكم لتتأسوا بها، وليكون النبي عليه الصلاة والسلام قدوةً لكم.

أذكركم: بأن مهمة النبي عليه الصلاة والسلام مهمتان: مهمة التبليغ ومهمة القدوة، ولعل مهمة القدوة، أكبر بكثير من مهمة التبليغ، إن كل إنسان يستطيع أن يبلغ، لكن ما كل إنسان يستطيع أن يتمثل مكارم الأخلاق، فإذا بلّغ كان قدوةً حسنة ومثلاً يحتذى.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: " لقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جمّ التواضع، وافر الأدب، يبدأ الناس بالسلام، وينصرف بكله إلى محدثه، صغيراً كان أو كبيراً، ويكون آخر من يسحب يده إذا

صافح، وإذا تصدق وضع الصدقة بيده في يد المسكين، وإذا جلس جلس حيث ينتهي به المجلس لم يُرَ ماداً رجليه قط، ولم يكن يأنف من عمل لقضاء حاجته، أو حاجة صاحب، أو جار، كان يذهب إلى السوق، وهو سيد الخلق وحبيب الحق، ويحمل حاجته بيده ويقول: أنا أولى بحملها، وكان يجيب دعوة الحرّ، والعبد والمسكين، ويقبل عذر المعتذر، وكان يرفو ثوبه ويخصف نعله، ويكنُس داره، ويخدم نفسه، ويعقل بعيره، وكان في مَهنة أهله، وكان يأكل مع الخادم ويقضي حاجة الضعيف والبائس وكان يمشي هوناً، خافض الطرف متواصل الأحزان، دائم الفكرة، لا ينطق من غير حاجة، طويل السكوت، إذا تكلم، تكلم بجوامع الكلم، كان دمثاً ليس بالجافي، ولا المهين، يعظم النِّعم وإن دقت، ولا يذمُّ منها شيئاً، ولا يذمُّ مذاقاً (يعني ما عاب طعاماً قط) ولا يمدحه أيضاً، ولا تُغضبه الدنيا، ولا ما كان منها، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها إذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، كان يؤلِّف ولا يُفرق ويُقرب ولا يُنفر، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس يُحسّن الحسن ويصوبه، ويُقبّح القبيح ويوهِّنه لا يُقصِّر عن حق، ولا يتجاوزه، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو ما يَسرُه من القول، كان دائم البشر، سهل الخُلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخّاب ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مزّاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يُخيّب فيه مؤمله، وكان لا يذم أحداً، ولا يعيّره ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يُرجى ثوابه، يضحك مما يضحك منه أصحابه، ويتعجب مما يتعجبون، ويصبر على الغريب وجفوته في مسألته ومنطقه، لا يقطع على أحدٍ حديثه حتى يجوزه ".

والحديث عن شمائله صلى الله عليه وسلم لا تتسع له المجلدات ولا خطب في سنوات، ولكن الله جل في علاه لخصها في كلمات فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٢٤ : مولد الرسول صلى الله عليه وسلم (أهمية طلب العلم).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٨-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

لا زلنا في شهر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا زلت ألح وأكرر، على أن حقيقة الاحتفال بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أن نتبع سنته، وأن نقتفي أثره، وأن نجعله قدوةً ومثلاً.. إن فعلنا ذلك فقد احتفلنا بذكرى مولده صلى الله عليه وسلم.

لم تعرف البشرية ديناً مثل الإسلام، عني بالعلم أبلغ العناية وأتمها دعوةً إليه، وترغيباً فيه، وتعظيماً لقدره، وتنويهاً بأهله، وحثاً على طلبه، ودعوةً إلى تعلمه وتعليمه، وبياناً لآدابه، وتوضيحاً لآثاره وترهيباً من القعود عنه، والازورار عن أصحابه، أو المخالفة بهدايته أو الازدراء بأهله.

إن أخص خصائص هذا الدين العظيم، العلم.. إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم.

في القرآن الكريم قريب من ألف آية تتحدث عن العلم ومشتقاته: علم يعلم، يعلمون، اعلموا، عليم، علام.. في القرآن الكريم ما يقرب من ألف آية تتحدث عن العلم ومشتقاته، والعقل ومرادفاته: كأولي الألباب وأولي النهى، والفكر، والفقه، والحكمة، والبرهان، والحجة، والنظر والتفكر.. قريب من ألف آية في كتاب الله، تتحدث عن العلم، وعمّا يتبع العلم من فقه، وحجة، وبرهان، وتفكر، وتأمل، ويقين ومعرفة.

وفي السنة الصحيحة، ما يقابل هذا العدد، ولا سيما في كل كتب الحديث الصحيحة، أول باب أو ثاني باب بعد باب الإيمان، باب العلم.

ذكرت هذا من أجل أن تعلموا أن من أخص خصائص سنة النبي عليه الصلاة والسلام، طلبَ العلم، والمؤمن ما لم يطلب العلم، وما لم يبذل وقتاً في سبيل طلب العلم، وما لم يحرص على طلب العلم، وما لم يقلب هذا العلم إلى واقع، فإنه بعيد عن روح الإسلام وعن جوهر الإيمان.

في الحديث المتفق عليه بين البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن مُعَاوِيَة قال: سمعتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ.. ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة وأحمد ومالك الدارمي]

ربنا عز وجل أعطى المال لمن لا يحب، وأعطاه لمن يحب، أعطاه لسيدنا عبد الرحمن بن عوف، وأعطاه لقارون، إذاً ليس مقياساً.

أعطى القوة لمن يحب، لسيدنا سليمان وهو نبي كريم، وأعطاها لمن لا يحب لفرعون، إذاً ليست مقياساً.

أما مقياس محبة الله عز وجل، حينما يؤتي عبداً العلم والحكمة، قال تعالى:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤))

[سورة القصص]

في صحيح مسلم يقول عليه الصلاة والسلام:

((".. وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهّلَ اللّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنّةِ (نتابع الحديث) وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ (المكان بيت من بيوت الله، الموضوع تلاوة القرآن الكريم، ومدارسة معانيه وأحكامه) إِلّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السّكِينَةُ (في قلب طالب العلم من السكينة والطمأنينة، ما لو وزع على أهل بلد لكفتهم) وَغَشِيَتْهُمُ الرّحْمَةُ وَحَفّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ (أنت في حفظ الملائكة، أنت في رعاية الملائكة، الملائكة تحفك، الملائكة تسدد خطاك) وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ(رحمة من الله، تغشى طالب العلم، وسكينة من الله وهي أساس السعادة النفسية، تستقر في قلبه، وحفظ من الملائكة بأمر من الله عز وجل، كل ذلك لأنك أردت أن تعرف الله، أردت أن تطلب العلم) وَمَنْ بَطّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ ".))

[أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدارمي]

بالمقابل:

((" وما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، إلا قاموا عن أنتن من جيفة حمار ".))

هل هناك من مؤمن، من مسلم ؟ هل هناك من رجل ليس له أقارب وأصدقاء وجيران، وزملاء، وأصحاب، ألا يلتقي بهم في الأسبوع مرةً أو مرتين ؟ ما منا واحد إلا وله لقاءات عدة في الأسبوع، ماذا تتحدثون في هذه اللقاءات، إن كان الحديث عن الله عز وجل، نزلت عليكم السكينة، وحفتكم الملائكة، وغشيتكم الرحمة، وذكركم الله فيمن عنده.

وإن كان موضوع الأحاديث دنيا، والموضوع الفلاني والعلاني وفلان وعلان، قاموا عن أنتن من جيفة حمار.

وفي حديث الإمام أحمد الذي رواه في مسنده عن أبي الدرداء قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنّةِ وَإِنّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتّى الْحِيتَانُ فِي

الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنّمَا وَرّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ ".))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

هذه الأحاديث الصحيحة، الشريفة، تدل على فضل العلم، وبخاصة فضل العلم بالدين ؛ لأن العلم مطلقاً حرفة من الحرف، قد تكون في أعلى درجة من اختصاص نادر، ولست مطيعاً لله عز وجل، فأنت ذكي ولست عاقلاً.. قد تكون في أعلى اختصاص من الاختصاصات النادرة، من التي يُعول عليها في الدنيا، ومع ذلك قد لا تتصل بالله وقد لا تذوق حلاوة القرب منه، فأنت ذكي في اختصاصك، ولست عاقلاً ؛ لأنك ما اهتديت إلى أصل الوجود، وإلى الحقيقة العظمى، وإلى غاية السعادة والتوفيق.

هذه الأحاديث الصحيحة، التي تدل على فضل العلم، وبخاصة العلم بالدين، أو الفقه في الدين، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر الفقه في الدين:

((" من يرد الله به خيراً يفقه في الدين ".))

الحقيقة أن الفقه في الدين أخص وأعمق من مجرد العلم بالدين، فالعلم معرفة بالظاهر فحسب، والفقه معرفة بالظاهر واللب معاً، العلم أكثر ما يتصل بالعقل وحده، والفقه يتصل بالعقل والقلب معاً.

مجرد العلم بالأحكام الشرعية الجزئية، كأحكام الطهارة والنجاسة والرضاع والطلاق، والبيع والشراء، كما هو مدلول الفقه في اصطلاح الخلف، لا يُنشئ الفقه المراد بالحديث الذي هو دليل إرادة الله الخير لصاحبه، لذلك حينما سأله إعرابي، قال يا رسول الله: عظني وأوجز تلا عليه النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " قال الأعرابي قد كفيت فقال عليه الصلاة والسلام فَقُهَ الرجل، لم يقل فَقِه، بل قال فقُه، أي صار فقيهاً.

حسب هذا العلم فضلاً، أن مجالسه تحفها الملائكة، تحفها ملائكة الله وتنزل عليها السكينة، وتغشاها الرحمة، ويذكرها الله في الملأ الأعلى هذه الملائكة، التي تحث مجالس العلم، تضع أجنحتها لطالبيه، فالوضع تواضع، وتوقير وتبجيل، الملائكة تضع أجنحته تواضعاً لطالب العلم، وتوقيراً لطالب العلم.

والحفُّ: حفظ، وحماية، وصيانة.. وتعظيم الملائكة له، وحبها إياه وحمايتها له، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً.

هذه الأحاديث، ومثلها كثير، بجوار ما جاء في القرآن الكريم من آيات عزيزة، وغزيرة، ووفيرة، جعلت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن تبعهم بإحسان على مر القرون، يشيدون بشأن

العلم وينوهون بقدر العلماء، تحريضاً على طلب العلم، والزيادة منه وتحذيراً من الجهل، وما يجره على أهله من شؤم في الدنيا والآخرة.

سيدنا عمر، يقول: **" أيها الناس، عليكم بطلب العلم، فإن لله رداء محبة، فمن طلب باباً من العلم، رداه الله بردائه ذاك".**

وسأل رجل ابن عباس، رضي الله عنهما، عن الجهاد، فقال له: **ألا أدلك على ما هو خير لك (خاص بالسائل) من الجهاد تبني مسجداً تعلم فيه القرآن، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، والفقه في الدين.**

بعض العلماء تساءلوا فيما بينهم، أي العبادات أفضل ؟ أهي الأشد مشقة ؟ أهي الأكثر نفعاً ؟ أم هي الأكثر اتساعاً مكاناً وزماناً ؟ ثم استقر رأي هؤلاء على أن أعظم العبادات، العبادة التي تناسب وقتها، وتناسب صاحبها، فإذا مرض الأب، فالعبادة تمريضه، وإذا جاءك ضيف فالعبادة إكرامه، وإذا كنت ذا مال، فالعبادة إنفاق المال، وإذا كنت ذا جاه، فالعبادة إنصاف الناس بجاهك، وإذا كنت ذا حكم، فالعبادة أن تعدل بين الناس.

سيدنا خالد ابن الوليد، لم يرو عنه ولا حديث شريف، لكنه خاض مائة معركة أو زهاءها، وما في بدنه موطن شبر، إلا وفيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح.

سيدنا أبو هريرة، روى عن رسول الله آلاف الأحاديث.

سيدنا عمر حكم بين الناس بالعدل.

العبادة المقيدة مرفوضة، أما العبادة المطلقة، كل بحسب حاله وبحسب ما أقامه الله عز وجل، طبعاً مع تأدية العبادات التي هي فرائض، هذه أصل في الدين، لكن بعد أن تؤدي ما عليك من فرائض كفرض عين، الآن تحرك وفق ما أقامك الله عز وجل.

الذي أوتي علماً عبادته إنفاق هذا العلم، والذي أوتي مالاً عبادته إنفاق هذا المال، والذي أوتي حكمة، عبادته التوفيق بين الناس، والذي أوتي جاهاً، عبادته إنصاف المظلوم، والذي أوتي مكانة أو سلطة، عبادته الحكم بين الناس بالعدل.

ألم يقل الله عز وجل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

والهاء تعود على القرآن الكريم، أي إن الله جل جلاله، جعل من تعلم القرآن وتعليمه بإخلاص شديد، ودقة متناهية، جعله جهاداً كبيراً بل إنه جهاداً متاح الآن في هذه الأيام.

ابن مسعود رضي الله عنه، يقول: **نعم المجلس مجلس تُنشر فيه الحكمة، وتُنشر فيه الرحمة.**

وقال معاذ بن جبل وهذا النص موقوف على سيدنا معاذ بن جبل يقول: **" تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين والنصير في السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الأقرباء ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادةً وسادةً يُقتدى بهم، أذلة في الخير، تُقتفى آثارهم، ترمق أفعالهم ترغب الملائكة في صحبتهم، كل رطب ويابس يستغفر لهم، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها... إلى أن قال سيدنا معاذ: به يُطاع الله، وبه يُعبد، وبه يوحد، وبه يمجد وبه يتورع وبه توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه يُلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء ".**

الحسن رضي الله عنه يقول: **" لولا العلم، لصار الناس مثل البهائم ".**

أي أن العلم يخرج الناس من حد البهيمية، إلى حد الإنسانية.

يحيى بن معاذ يقول: **العلماء أرحم بأمة محمد من آبائهم وأمهاتهم** قيل كيف ؟ قال **ذلك بأن الآباء والأمهات يحفظون أبناءهم من نار الدنيا والعلماء يحفظون أتباعهم من نار الآخرة، لهذا قيل لك آباء ثلاثة ؛ أب أنجبك، وأب زوجك، وأب دلك على الله.**

سئل ابن المبارك، من الناس ؟ قال العلماء، قيل فمن الملوك، قال الزهّاد.

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، شرح هذه المقولة، قال لم يجعل ابن المبارك غير العالم من الناس، لأن الخاصة التي يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات هي العلم، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس لشيء آخر، ليس هو شريفاً بقوة جسمه، فالجمل أقوى منه، ولا بعظمه فالفيل أعظم منه، ولا يجامع، فإن أخس العصافير أقوى على الفساد منه بل لم يُخلق إلا للعلم، فأنت لست إنساناً إلا إذا طلبت العلم، أنت شريف بما أنت خُلقت له.

أحمد ابن حنبل يقول: **" حاجة الإنسان إلى العلم، أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب ".**

يقول سيدنا علي كرم الله وجهه: **" يا بني العلم خير لك من المال لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تُنقصه النفقة، والعلم يزكوا على الإنفاق، يا بني، مات خزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".**

ويقول الإمام علي كرم الله وجهه: **" قوام الدين والدنيا أربعة رجال ؛ عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيع العالم علمه، استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله، باع الفقير آخرته بدنيا غيره ".**

العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظل الإنسان عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.. طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً.

هذا جانب كبير ومهم جداً من جوانب شخصية النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا أردنا أن نحتفل بذكرى مولده ـ ونحن في شهر المولد ـ فليكن احتفالنا اقتفاءً لسنته، وهي طلب العلم.

اطلب العلم، إن أخطر شيء تفعله في حياتك طلب العلم.. إن طلب العلم لا يعلو عليه شيء في حياتك، لأن طلب الحلال فريضة بعد الفريضة، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، أي على كل شخص مسلم.

أيها الإخوة الكرام، هل تصدقون أن علة وجودنا أن نعرف الله..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً(١٢))

[سورة الطلاق آية ١٢]

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام:

تنبيه بسيط، هو أن العلم الديني شيء، والدعوة إلى الله شيء آخر العلم تتبع لجزئيات الاختصاص، وبحث عن الأدلة والبراهين، وتقييم لهذه الأدلة والبراهين، والبحث في أدلة الطرف الآخر، وتقييمها وتفنيدها.. هذا هو العلم، لكنّ الدعوة إلى الله يجب أن تستند إلى علم غزير، ولكنها شيء آخر، نقل هذه الحقائق، عرض هذه الحجج بأسلوب رشيد، بطريقة مؤثرة، بتقريب عن طريق مثل أو قصة، أو مشهد، أو وصف، من أجل أن نوجد عند الناس قناعة بحقائق الدين هذه القناعة إذا تمكنت وترسخت انقلبت إلى مواقف.

لذلك أيها الإخوة العالم عمله مخبري، لكنّ الداعية إلى الله عز وجل عمله دعائي، بمعنى أنه يأخذ حقائق الدين، ويعرضها بثوب قشيب بأسلوب محبب، بطريقة مثيرة، بعرض رائع، حتى يقنع الناس بحقائق الدين أولاً، فإذا أقنعهم، قناعةً متينة قوية، حملتهم قناعتهم تلك على أخذ مواقف، على تغيير سلوك، على قلب العادات والتقاليد التي ألفوها إلى سنن نبوية يطبقونها.

أيها الإخوة الكرام: كل مؤمن يجب أن يدعو إلى الله، أنا لا أقصد مشاهير الدعاة، أنا أقول: كل مؤمن يجب أن يدعو إلى الله، والدليل، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨))

[سورة يوسف]

فإن لم تدع على بصيرة فلست متبعاً لرسول الله، هذه واحدة.

الشيء الثاني، حينما قال الله عز وجل:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

[سورة العصر]

التواصي بالحق أحد أركان النجاة من الخسارة المحققة، فهذه الدعوة إلى الله، أشار النبي إليها، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ".))

[أخرجه البخاري والترمذي وأحمد والدارمي]

ماذا سمعت في خطبة الجمعة ؟.. ماذا سمعت في درس الحديث الشريف ؟.. ماذا سمعت في درس الفقه، ماذا سمعت في درس السيرة؟ هذا الذي سمعته يجب أن تنقله لأقرب الناس إليك، لخاصة نفسك، هذه هي الدعوة إلى الله المبسطة، التي هي فرض عين، عن ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ".))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة]

كفى بالذي يدعو على الله، وإن أردتم أن تحتفلوا حقيقة بذكرى مولد نبيكم، نبينا عليه الصلاة والسلام دعانا إلى طلب العلم، وإلى تعليم العلم، وهل تصدقون أن النبي عليه الصلاة والسلام، جعل الخيرية المطلقة، في تعلم القرآن وتعليمه ؛ لأنه منهج الإنسان في الحياة، بل إن الله عز وجل يقول:

(الرّحْمَنُ (١) عَلّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلّمَهُ الْبَيَانَ (٤))

[سورة الرحمن]

لماذا قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان، قال علماء التفسير: ليس هذا التقديم تقديماً زمنياً بل هو تقديم رتبي، أي أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦٢٥ : لوازم طلب العلم ، خ٢ المسواك وأهميته العلمية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٨-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، ذكرت في الخطبة السابقة، أن من معاني الاحتفال بذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن نقتفي سنته الشريفة، ومن أبرز سننه الشريفة طلب العلم، فقد كان موضوع الخطبة السابقة، حول فضل طلب العلم، ولكنِّي أيها الإخوة، وجدت من المناسب أن أتبع الخطبة السابقة بخطبة (من لوازم طلب العلم) عن لوازم طلب العلم.

ذكرت من قبل أننا في بيوت الله عز جل لسنا معنيين بأمراض الشاردين، ولكنّا معنيون بأمراض طلاب العلم، بأمراض الذين يرتادون المساجد، بأمراض الذين يعملون في حقل الدعوة، بأمراض هؤلاء الذين عند الناس قدوة، وعند الناس مثل.

هذا الموضوع اليوم متمم لفضل طلب العلم.

من أخلاقيات العلم الأصيلة في الإسلام، العمل بمقتضى العلم، على معنى أن يكون هناك صلة بين العلم والإرادة، فإن آفة كثير من الناس أن يعلم الرجل ولا يعمل، وأن يعمل بضد ما يعلم، هذه أكبر آفة عند طلاّب العلم.

كالطبيب الذي يعرف ضرر الدخان على صحته، ولا يفتأ يشرب الدخان، وكعالم الأخلاق، الذي يرى سلوكاً معيناً رذيلة وهو مقيم عليه وكعالم الدين الذي يرى عملاً ما منكراً، وينهى الناس عنه، ويقترفه.

هذا أكبر مرض يصيب العاملين في حقل العلم الشرعي، هذا مرض يصيب طلاّب العلم، يصيب رواد المساجد، يصيب من يتصدى لتعليم العلم، ومن يتلقى العلم.

بادئ ذي بدء، إن هذا النوع من العلم النظري البحت لا يرضى عنه الإسلام إطلاقاً، علم نظري بحت، مقطوع الصلة بالواقع، هذا العلم النظري البحت لا يرضى عنه الإسلام إطلاقاً، وربما كان الجهل في تلك الحال خيراً منه.

هناك مقولة رائعة: إن العلم ما عمل به، فإن لم يُعمل به كان الجهل أولى، لأن العالم مسؤول، لأن الذي طلب العلم وعرف الحكم الشرعي صار عند الله مسؤولاً.

إن العلم الحق هو الذي ينير بصيرة صاحبه، ويجسد أمام عينيه الجزاء، فيبدو البعيد قريباً، والغائب حاضراً، والآجل ناجزاً، فتقوى الله عزيمة على البر.

جاء في حديث أبي كَبْشَةَ الْأَنَّمَارِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ ؛ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ))

[رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وأحمد، وابن ماجة]

من هنا نرى، أثر العلم واضحاً في سلوك صاحبه، في ماله، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله حقاً فيه، هذا هو الغني الشاكر، وهو بأفضل المنازل، فإذا حُرم المال ورُزق العلم، عاش والخير ملئ جوانحه، لا يمارسه عملاً، ولكنْ يعيشه نية وأملاً، فهو بنيته، فأجره وأجر الغني سواء.

أما من حرم العلم، سواء رُزق مالاً أم لم يُرزق، فعاقبته ما ذكر الحديث بأخبث المنازل، سواء عاش في السوق، أو عاش بنيته في السوق.

أرأيتم ـ أيها الإخوة ـ إلى أثر العلم العملي في حياة المسلم.

العلم بشكل دقيق ليس تحصيل معلومات سطحية من هنا وهناك ولكنه نور يقذفه الله في قلب عبده، فيمنحه اليقين والرسوخ، ويُبعد به عن القلق والاضطراب، وهذا هو العلم النافع.

والعلم النافع هو الذي يرى الناس أثره على صاحبه، نوراً في الوجه وخشية في القلب، واستقامة في السلوك، وصدقاً مع الله، ومع الناس ومع النفس.

أما مجرد التشدق بكلام مزخرف، والثرثرة بكلام معسول، من طرف اللسان، دون أن يصدق القول العمل، فهذا شأن المنافقين، الذين يقولون ما لا يفعلون، يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون كتاب الله، يقرؤون الأحاديث، ويتلون كتاب الله، ولا يعملون بما يعلمون.

هذا الذي أنكره القرآن على بني إسرائيل، قال تعالى:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤))

[سورة البقرة]

كأنما يشير القرآن إلى مناقضة العلم للعمل، والقول للفعل، هذا ضرب من الجنون، أو لون من الفصام، هناك مرض خطير اسمه انفصام الشخصية، شخصية تعظ، وشخصية متفلتة، هذا مرض خطير جداً.

من قرأ الأحاديث النبوية في هذا الباب ينخلع قلبه، من هول الوعيد الذي يتهدد به النبي هذا الصنف من حملة العلم، الذين سماهم الإمام الغزالي علماء الدنيا، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ، أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ))

[انفرد به أحمد]

نعالج في هذا المسجد أمراض طلبة العلم، أمراض المتصدين للدعوة إلى الله، أخطر ما في العلم الشريف أن تتخذه حرفة.

يقول الإمام الشافعي: **" لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين ".**

هؤلاء الذين يحسنون الكلام ولا يحسنون العمل، ينتسبون إلى العلم ولا يقومون بحقه، هؤلاء يكونون فتنة على الأمة، لأنهم موضع قدوة.

هناك صنفان من الناس، إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس الأمراء والعلماء.

يا أيها العلماء يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد

***

إذا تصدى الإنسان للدعوة، ولم يكن في مستوى دعوته، يعطي خصوم الدين حجة قوية، يعطيهم حجة يدفعون ثمنها مئات الملايين، هذا الذي يدعو إلى الله ليس في مستوى دعوته.

هذا الذي كان يخافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إنّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ))

[تفرد به أحمد]

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً:

((إني لا أتخوف على أمتي مؤمناً، ولا مشركاً، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون))

المؤمن الصادق يحجزه إيمانه، والذي يعلن الكفر لا تخشاه على الناس؛ لأن كفره الظاهر يقمعه عن الناس، ما الذي يخاف النبي على أمته من بعده ؟..

((ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون))

وعَن الْحَسَن قالَ: **الْعِلْمُ عِلْمَانِ فَعِلْمٌ فِي الْقَلْبِ فَذَلِكَ الْعِلْمُ النّافِعُ وَعِلْمٌ عَلَى اللّسَانِ فَذَلِكَ حُجّةُ اللّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ ".**

[تفرد به الدارمي]

علم المرء ـ أيها الإخوة ـ إما حجة له إذا عمل به، أو هو حجة عليه إذا أصبح مجرد حامل له، شان هذا شأن اليهود، الذين حملوا التوراة كلاماً، ولم يحملوها عملاً والتزاماً، فكانوا كما قال تعالى:

(مَثَلُ الّذِينَ حُمّلُوا التّوْرَاةَ ثُمّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الّذِينَ كَذّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ(٥))

[سورة الجمعة: الآية ٥]

مثل الذين حملوا التوراة (كلاماً يعني) ثم لم يحملوها (تطبيقاً) كمثل الحمار يحمل أسفاراً. أو كالذي آتاه الله آياته فنسلخ منها، لم يرتفع بها من حضيض المادية في التفكير، والحيوانية في السلوك، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث، قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الّذِينَ كَذّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ (١٧٦))

[سورة الأعراف]

ومن ثمّ كان النبي صلى الله عليه وسلم، يستعيذ من العلم الذي لا ينفع وهو الذي ينفصل عن الأخلاق، ينفصل عن العمل به، لأنه يصبح وبالاً على صاحبه.

ورد في الأثر، أن كل علم وبال على صاحبه ما لم يُعمل به.

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ كَانَ يَقُولُ:

((اللّهُمّ إنّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللّهُمّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللّهُمّ إنّي أعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي]

هذا النوع من طلبة العلم الذين تكذب أفعالهم أقوالهم، وتكذب سريرتهم علانيتهم، يمثلون فتنة لجمهور الناس، لأن الناس يتأثرون بالحال أكثر من تأثرهم بالمقال، الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم، حتى قيل ـ ودققوا في هذه المقولة ـ: حال رجل في ألف رجل، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل.. حال رجل صادق، في ألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل في رجل..

العبرة بالتطبيق.

مهما حاولت أن تقول للناس، خذوا عن العالم علمه ودعوا عمله، كما قال الشاعر:

اعمل بعلمي وإن قصرت في عملي ينفعك علمي لا يضرك تقصيري

فإن الناس لن يسمعوا إلى هذا الكلام، ولن يستجيبوا له.

يروى أن الإمام أبا حنيفة رأى غلاماً أمامه حفرة، فقال: **احذر يا غلام أن تسقط، كان هذا الغلام نابغاً في ذكائه، قال: بل احذر أنت يا إمام أن تسقط، إني إن سقطتُ سقطتُ وحدي، وإنك إن سقطت سقط معك العالم.**

روي عن سيدنا علي كرم الله وجهه، **قصم ظهري رجلان، جاهل متنسك، وعالم متهتك..** ذاك يغرهم بتنسكه وهو جاهل، وذاك يضلهم بتهتكه وهو عالم.

أيها الإخوة الكرام، أنا لا أنطلق من فراغ، أستمع من حين إلى آخر، إلى طالب علم يلزم مسجداً، له دروس، يسمع الحق، يعرف الأحكام الشرعية، يفعل شيئاً لا يُصدق، ما أردت أن أعمم هذا، ولكن أردت أن تكون هذه الخطبة ردعاً لأولئك الذين يطلبون العلم للدنيا، الدنيا يمكن أن توجد ضمن حلقات العلم.

عن أبي هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدّينِ يَلْبَسُونَ لِلنّاسِ جُلُودَ الضّأْنِ مِنَ اللّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذّئَابِ، يَقُولُ اللّهُ عَزّ وَجَلّ: أَبِي يَغْتَرُّونَ، أَمْ عَلَيّ يَجْتَرِئُونَ ؟ فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا))

[تفرد به الترمذي]

كن مع الله صادقاً، وكن مع نفسك صادقاً، وكن مع المؤمنين صادقاً العلم في الإسلام، العلم المجرد، العلم النظري البحت، العلم للعلم كما يقول بعضهم، لا قيمة له في الإسلام إطلاقاً، أنت من الممكن أن تستفيد من أي علم دنيوي، ولا تعبأ بأخلاقية صاحبه، لكنك إذا طلبت العلم ولم تكن في المستوى المطلوب، زعزعت ثقة الناس بالدين.

كيف أن هناك داعية إلى الله، هناك بالمقابل منفر من الدين، الداعية يقرب، وهذا الذي يقول ولا يعمل يبعد، الداعية يحبب، وهذا الذي يقول ولا يعمل يبغض، الداعية يعين على الطاعة، وهذا الذي يقول ولا يعمل يعين على التفلت، من هنا قال الإمام علي رضي الله عنه:

((قوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره))

أيها الإخوة الكرام، نحن في أشد الحاجة، لا إلى معلومات، المعلومات كثيرة جداً المكتبة الإسلامية مليئة، كل شيء ميسر لك، كتب، أشرطة محاضرات ندوات، نشرات، العلم الآن ميسور بشكل مذهل، ولكنّ مشكلة المسلمين اليوم في التطبيق، في التفلت من منهج الله عز وجل، هم في أمس الحاجة إلى دعاة صادقين، أكثر من حاجتهم إلى علماء متبحرين في دقائق علمهم.

نحن الآن بحاجة إلى مسلم يقرأ آية واحدة فيطبقها، ينتقل إلى غيرها وكان أصحاب النبي رضوان الله عليهم، يقرؤون عشر آيات، فإذا طبقوها انتقلوا إلى غيرها.

أضع بين أيديكم حقيقة ذكرتها مئات المرات، قال له يا رسول الله عظني ولا تطل، تلا عليه آية واحدة، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.. يقول هذا الأعرابي، الذي لا يملك مكتبة إطلاقاً، ولا مجموعة أشرطة، وليس له مجلس علم داوم عليه عشرين عاماً، أعرابي التقى النبي أول لقاء، قال له، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.. قال كفيت، هذه الآية تكفي، فقال عليه الصلاة والسلام فقه الرجل.

إخواني الكرام، القرآني ستمائة صفحة، بعض آياته تكفي الإنسان طوال حياته، ألا تكفيكم آية قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

[سورة النساء]

ألا تكفي هذه الآية:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨))

[سورة الزلزلة]

ألا تكفينا هذه الآية وهي قوله تعالى:

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧))

[سورة سبأ]

آيات كثيرة جداً، لو قرأتها، وتأملتها، وتدبرتها، وتعمقت في فهمها لوجدتها منهجاً كاملاً، وفي السنة الصحيحة أيضاً أحاديث شريفة تكفي الإنسان طوال حياته، نحن لا نريد علماً غزيراً وتطبيقاً قليلاً، نريد علماً مطبقاً، هذا الذي يوسع دائرة المسلمين، هذا الذي يقوي من شأنهم، هذا الذي يرفع مكانتهم، هذا الذي يغري الناس أن يتبعوا هذا الدين العظيم.

العالم الغربي، هكذا يقول، نريد مجتمعاً يطبق الإسلام، لا نريد كتباً تتحدث عن الإسلام، نريد مجتمع يطبق هذا المنهج الإلهي ويقطف ثماره حتى يكون قدوةً لنا.

أيها الإخوة الكرام، ما أردت أن أقسو على من يعمل في حقل الدعوة، والله هناك عدد كبير مخلص أشد الإخلاص، مطبق أشد التطبيق، هو قدوة لإخوانه أردت من طلبة العلم، الذين يتوهمون أن العلم يدر عليهم رزقاً وفيراً اتخذوا الدين مطية إلى الدنيا، هؤلاء الذين طلبوا العلم، لا أهمس بآذانهم ولكني أصرح بأعلى صوت: العلم لأجل العلم في الدين لا قيمة له إطلاقاً، العلم من أجل العمل، والذي يوسع دائرة المؤمنين، تطبيق هذا الدين، وليحرص كل منا، على مراجعة حساباته، على مراجعة بيته على مراجعة عمله، أفي عمله وفي بيته ما يخالف منهج الله عز وجل ولو أن كلاً منا ـ أيها الإخوة ـ ضبط بيته وعمله، والله الذي لا إله إلا هو لكنّا في حال غير هذا الحال:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

[سورة الرعد]

حتى يغيروا، ليس حتى يعلموا، حتى يغيروا ما في أنفسهم، غير حتى يغير الله، معظم الناس يقولون: كان الله تخلى عن المؤمنين أو تخلى عن المسلمين، الله لا يتخلى عن المؤمنين، ولكنهم حينما يتخلون هم عن أنفسهم، وعن مصلحتهم، وعن منهجهم، وعن دينهم القويم طبعاً يتخلى عنهم ليردعهم، إذا هان أمر الله على المسلمين هانوا على الله، يقول لك الناس: ما مررنا بحالة أصعب من هذه الحال، أعداؤنا كثر، يتحدونا، صحيح، ولكنْ اقرأ قوله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥))

[سورة النور]

استخلاف، وتمكين، وتطمين، بشرط أن يعبدونني، فإن قصر الفريق الثاني فيما عليه، فالله جل جلاله في حل من وعوده الثلاث.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩))

[سورة مريم]

وقد لقي المسلمون، أو معظم المسلمين هذا الغي: لأنهم تفلتوا من منهج الله عز وجل.

نحن في أمس الحاجة إلى التطبيق، إلى تجارة يُتعامل فيها بالإسلام بالأحكام الشرعية، إلى مشاريع منهجها منهج الإسلام، من أجل أن يرضى الله عنا، من أجل أن يوفقنا، من أجل أن ينصرنا على أعدائنا.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، ورد في مجلة مشهورة، تصدر في بعض البلاد العربية الشقيقة، ورد في هذه المجلة مقال، لعالم متخصص بعلم الجراثيم والأوبئة بألمانيا، يقول هذا العالم في هذه المجلة، وقد تُرجمت مقالته إلى اللغة العربية، يقول في هذه المقالة: قرأت عن السواك، الذي يستعمله العرب كفرشاة للأسنان، في كتاب لرحالة زار البلاد العربية، وعرض الكاتب الأمر بأسلوب ساخر لاذع، اتخذه دليلاً على تأخر هؤلاء الناس، الذين ينظفون أسنانهم بقطعة من الخشب في القرن العشرين، قرأ هذا الكتاب لرحالة غربي زار البلاد العربية، وتحدث عن السواك مستهزئاً، وغامزاً ولامزاً، من العرب الذين وهم في القرن العشرين يستخدمون عودا لتنظيف أسنانهم.

يقول هذا العالم الألماني: ولكني أخذت هذه المسألة من وجهة نظر أخرى، وفكرت، لماذا لا يكون وراء هذه القطعة من الخشب، والتي أسميتها فرشاة الأسنان العربية، حقيقة علمية ؟ وتمنيت لو استطعت إجراء التجارب عليها، ثم سافر زميل لي إلى السودان، وعاد ومعه مجموعة منها، وفوراً بدأت إجراء تجاربي عليها، سحقتها، وبللتها، ووضعت المسحوق المبلل، على مزارع الجراثيم، فظهرت لي المفاجأة التي لم أكن أتوقعها، ظهرت على هذه المزارع، مزارع الجراثيم الآثار نفسها

التي يؤثر بها البنسلين، البنسلين مادة فعالة في قتل الجراثيم، مسحوق هذا السواك بلله وسحقه، ووضعه على مزرعة للجراثيم، فكان أثر مسحوق هذا السواك كأثر البنسلين تماماً، هذا ما قاله العالم الألماني المتخصص، في علم الجراثيم والأوبئة، ونشر هذا في مجلة تصدر في بعض الأقطار العربية الشقيقة.

أيها الإخوة الكرام، يجب أن تعلموا دائماً، الذي يقوله النبي عليه الصلاة والسلام ليس من عنده، إنه من عند الخالق.

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥))

[سورة النجم]

من هنا نذكر قول سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول: **" ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، من هذه الثلاثة، وما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى.. ".**

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٢٦ : الرزق من حيث الترتيب الإلهي.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٨-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: لعل أكثر شيء يقلق الإنسان بعد سلامة وجوده رزقه، وقد ورد في الأثر القدسي:

((" عبدي خلقت لك السماوات والأرض، ولم أعي بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة، ولك علي رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك ".))

قضية الرزق تغطيها آيات كثيرة، وأحاديث عديدة، من هذه الآيات قوله تعالى:

((١٥) وألو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً(١٧))

[سورة الجن]

فالاستقامة أحد أكبر أسباب زيادة الرزق، آية أخرى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦))

[سورة الأعراف]

آية ثالثة يقاس عليها:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ(٦٦))

[سورة المائدة]

آية رابعة:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (١٨))

[سورة نوح]

آية خامسة:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢))

[سورة طه]

حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

((" صلة الرحم تزيد في الرزق ".))

هذه توجيهات إلهية، وتوجيهات نبوية، وقد يسأل سائل، هل طبقت هذه التوجيهات في عصر من عصور الإسلام ؟ إذا كانت قد طُبقت فهل قطفت ثمارها ؟.. هذا محور خطبة اليوم، هذه التوجيهات طُبقت وقطفت ثمارها كاملة، فإذا كان بعض الناس، يؤمنون بالوقائع العملية أكثر من إيمانهم بالمبادئ النظرية، فإننا نسوق هنا بعض الأمثلة الحية التي سجلها التاريخ، لانتصار منهج الله عز وجل على الفقر والخوف وتحقيق الرخاء والأمن لأهله، في ظل الحرية، وتحت راية العدل. العجيب أن هذا الرخاء والأمن، وسعة العيش، فضلاً عن أنها وقعت فقد أخبر عنها النبي قبل وقوعها، وهذا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، لقد عرفها النبي بوحي من ربه.

طبيعة منهج الله الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام هدىً ورحمة ونعمة، لا يمكن إلا أن يأتي بأطيب الثمرات، لابد من أن يأتي بأفضل النتائج، إذا أحسن الناس تطبيقه، والانتفاع بأحكامه ووصاياه.

لقد بشر صلى الله عليه وسلم، أمّته بثمرة هذا المنهج القويم، من غنىً دافق، وأمنٍ غامر، ورفاهية شاملة، حتى إن الصدقة، لا تجد في حقبة طُبق فيه المنهج كاملاً من يستحقها، بل لا تجد من يقبلها وذلك حينما استقر منهج الله في الأرض، وتوطدت دعائمه في المجتمع.

روى الإمام البخاري، في صحيحه عن عدي بن حاتم الطائي، أنه كان عند النبي صلى الله عليه وسلم، إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم آتاه آخر، فشكا إليه قطع السبيل، (يعني قاطع طريق، وإنسان شكا له الفاقة) وكان عدي بن حاتم قد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل في الإسلام، فخشي النبي صلى الله عليه وسلم، لحرصه الشديد على أصحابه، خشي النبي الكريم، أن تفت هذه الشكوى وتلك في عضده، وأن تُثبط همّته، لما يرى من ضعف أهله وفقرهم، وعدم انتشار الأمن في الأرض، فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة ؟ (وهي بلد قديم في العراق يحكمه المناذرة) قال لم أراها، وقد أُنبئت عنها، قال إن طالت بك الحياة يا عدي، لترين الظعينة، (المرأة في الهودج المرأة المسافرة) ترتحل من الحيرة، حتى تطوف الكعبة، لا تخاف إلا الله.

وفي رواية: يا عدي، إنه لا يأتي عليك قليل، حتى تخرج العير إلى مكة، بغير خفير (من دون حراسة) قال عدي راوي الحديث، فقلت فيما بيني وبين نفسي، أين قطاع الطرق من طي الذين سعروا البلاد (أي أوقدوا فيها الفتن).

وأكمل النبي صلى الله عليه وسلم حديثه فقال: ولئن طالت بك حياة يا عدي، لتُفتحن كنوز كسرى، قال: كسرى بن هرمز، قال عليه الصلاة والسلام: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة، لترين الرجل يخرج ملئ كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله، فلا يجد أحداً يقبله منه..

ولقد أسلم عدي، وحسن إسلامه، ورأى بنفسه ما بشره النبي صلى الله عليه وسلم.

قال عدي: رأيت الظعينة، ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت، فيمن افتتح كنوز كسرى، ولئن طالت بكم الحياة، لترون أيها الإخوة هكذا قال عدي، ما قال النبي صلى الله عليه وسلم، ما قال أبو القاسم، يخرج ملئ كفه من الذهب والفضة لا يجد من يأخذه.

أيها الإخوة الكرام: بما أننا مؤمنون بكلام سيد الخلق، نعتقد أن الذي قاله النبي لعدي بن حاتم، حق لا يداخله شك، ولا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

أيها الإخوة الكرام: هذا ما حدث في حياة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، البشارة الثالثة.

الأولى والثانية، أدركها عدي بنفسه، لكن البشارة الثالثة، أن يخلد الرجل ملئ كفيه من الذهب، يبحث عن واحد يقبل هذا المال منه فلا يجده، هذا وقع في عهد سيدنا عمر بن عبد العزيز، الخليفة الراشد الخامس.

وقد تتابعت الأحاديث النبوية، بكثرة، تنبئ بالغنى الذي سيفيض على الأمة فيضاً، حتى ينعدم فيها من يستحق الصدقة، ومن يقبل الصدقة.

ولا شك أن النص على ذلك من رسول معصوم لاينطق عن الهوى أمر له دلالته، وإيحاؤه، وأثره البالغ، في دفع المسلمين، إلى مطاردة الفقر أملاً في محوه والقضاء عليه، عن طريق تطبيق منهج الله في الأرض لا عن طريق استيراد نظريات من الشرق تارة ومن الغرب، واحدة تعمم الفقر، والثانية تزيد الفقير فقراً والغني غنىً، ولكن عن طريق تطبيق منهج الله عز وجل.

روى الإمام البخاري عن حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((تَصَدَّقُوا فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا يَقُولُ الرَّجُلُ لَوْ جِئْتَ بِهَا بِالْأَمْسِ لَقَبِلْتُهَا فَأَمَّا الْيَوْمَ فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد]

ويروي البخاري أيضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ وَحَتَّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ لَا أَرَبَ لِي ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ ثُمَّ لَا يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ.. ".))

[أخرجه البخاري ومسلم]

هذه بشارات النبي صلى الله عليه وسلم، وقد وقعت بحذافيرها، في عهد سيدنا عمر بن عبد العزيز، أقول هذا للذين يعنيهم الواقع العملي ولا يعنيهم المبادئ النظرية.

ولم يطل الزمن كثيراً حتى أدرك المسلمون هذا الغنى، ولم يوجد في مجتمعهم من يستحق الصدقة. روى البيهقي في الدلائل، عن عمر بن أسيد قال لما ولي عمر بن عبد العزيز، بقي في الخلافة ثلاثين شهراً، لا والله ما مات، حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول **اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله ".**

أيها الإخوة الكرام: يقولون، لقد أغنى عمر الناس، والأصح أن نقول لقد أغنى الإسلام الناس، لقد أغنى تطبيق هذا المنهج الإلهي الناس.

قال البيهقي بعد رواية هذا الخبر، هذا الخبر فيه تصديق، لما روي من حديث عدي بن حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال يحيى بن سعيد، **بعثني عمر ابن عبد العزيز، على صدقات إفريقيا، فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم، فلم نجد فقيراً، ولم نجد من يأخذها منا، فقد أغنى عمر ابن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتها.**

ولم يكن هذا الرخاء في إفريقيا فحسب، بل في كل أقاليم الدولة الإسلامية.

روى أبو عبيد أن عمر بن عبد العزيز، كتب إلى عبد الحميد ابن عبد الرحمن، وهو في العراق، أن أخرج للناس أعطياتهم، أي رواتبهم فكتب إليه عبد الحميد، إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال، أي فائض في الخزانة، فكتب إليه، انظر كل من أدان من غير سفه ولا سرف، فاقض عنه (يعني كل مدين استدان من غير سفه ولا سرف فاقض عنه) فكتب إليه، إني قد قضيت عنهم، وبقي في بيت المال مال، فكتب إليه، انظر كل بكر أي عزب ليس له مال وشاء أن يتزوج وأصدق عنه (أي ادفع عنه المهر) فكتب إليه أن فعلت هذا ثم كتب إليه رابعة، انظر من

كانت عليه جزية، أي خراج، (ضريبة زراعية) فضعف عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام أو عامين.

وهكذا بلغ الرخاء والغنى، في ظل عدل الإسلام حداً استطاع معه كل ذي حق أن يحصل على حقه، بلا تظلم ولا شكوى ولا طلب، واستطاع كل دَين، أن يجد في المال العام ما يوفي منه دينه، ويبرئ ذمته واستطاع كل عزب، أن يجد في بيت المال، ما يتزوج به.

بل إن هذا المال الفائض، سوهم به في زيادة الإنتاج الزراعي وتحسينه، بمعونة صغار المزارعين، من أصحاب الأرض، على زراعة أرضهم وتحسينها، وذلك بتسليفهم من خزانة الدولة، ما يقويهم على هذه المهمة، وقبل أن تعرف الدنيا، مصارف التسليف الزراعي بمئات السنين.

وقد بلغت سعة النعمة، وكثرة الطيبات، وتدفق الخيرات على الناس مبلغاً عظيماً، يكفينا في تصور مداه، أن والي عمر ابن عبد العزيز على البصرة، كتب إليه يقول: إنه قد أصاب الناس من الخير خير حتى لقد خشيت أن يبطروا، فكتب إليه عمر: إن الله تبارك وتعالى حين أدخل أهل ا لجنة الجنة، وحين أدخل أهل النار النار، رضي من أهل الجنة قولهم:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(٧٤))

[سورة الزمر]

((١٥) وأَلَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً(١٧))

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦))

[سورة الأعراف]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ(٦٦))

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (١٨))

وأسبق من عهد عمر بن عبد العزيز، أن بعض الأقاليم، التي سعدت بحكم الإسلام وعدله، في عهد عمر بن الخطاب، أدركت حظاً عظيماً من الغنى، الذي عمت بركته أهل هذه الأقاليم، لم يجد معاذ

بن جبل مبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى اليمن، بعد سنواتٍ قليلة من حكم الإسلام، لم يجد واحداً يأخذ منه ا لزكاة، مما جعله يبعث بها إلى عاصمة الخلافة، وحاضرة الدولة في المدينة المنورة، ولندع أبا عبيدة يروي هذا الخبر عمن أسنده إليه، قال: **" إن معاذ بن جبل، لم يزل بالجند إذ بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، حتى مات النبي صلى الله عليه وسلم، ومعاذ فتح اليمن وحكمها، وأبو بكر أيضاً، ثم قدم على عمر بن الخطاب، فرده على ما كان عليه، أعاده إلى اليمن، فبعث معاذ بن جبل بثلث الصدقة (صدقة الناس، أي زكاة أموالهم) فأنكر عليه عمر أشد الإنكار، قال يا معاذ، لم أبعثك جابياً ولا آخذ جزية، ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس، فتردها على فقرائهم، فقال معاذ: والله ما بعثت إليك بشيء وأنا أجد أحداً يأخذه، فلما كان العام الثاني بعث إليه بنصف الصدقة فتراجعا بمثل ذلك، فلما كان العام الثالث، بعث إليه بالزكاة كلها، فراجعه عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك، فقال معاذ: والله يا أمير المؤمنين، ما وجدت أحداً يأخذ مني شيئاً ".**

أخبرني أخٌ كريم، جاء من بعض البلاد الإسلامية، لدمشق مصطافاً قال: لو أن رجلاً توفي، وله خمسة أولاد، وعنده محل تجاري، إن ضريبة التركات تأخذ نصف هذا المحل، فإذا أرادوا أن يبيعوا من أجل أن يسددوا هذه الضريبة، ضريبة نقل الملكية تستهلك النصف الآخر ماذا فعلت هذه الأسرة، مات الزوج وترك أيتاماً خمسة، فخسروا محلهم التجاري.

أخبرني أحد آخر، أن في بعض البلاد الإسلامية، تفكير لترتيب ضريبة على الزواج.

كيف كان المسلمون حينما طبقوا منهج الله عز وجل، وكيف أصبحوا؟

حتى قال بعض العلماء: إن الله ينصر الأمة الكافرة العادلة على الأمة المسلمة الظالمة.

في أسترالية، قبل عدة أعوام، تم إعدام عشرين مليون رأس غنم أعدمت بالرصاص، ودفنت تحت الأرض، للحفاظ على سعر اللحم المرتفع، بينما أمم تموت من الجوع، في شرق آسيا، وفي أفريقيا.
ماذا يفعل الاقتصاديون اليوم، في بعض العالم المتقدم، يحرقون الإنتاج الزراعي، يضعون حوله أسوار منيعة لئلا يباع، فيتلف، فإذا تسلل الزنوج ؛ ليأكلوا بعض الفاكهة، سممت الفاكهة في العام القادم لئلا يأكلها أحد، ويبقى السعر مرتفعاً.. تمتلئ الأرض كما أخبر عليه الصلاة والسلام ظلماً وجوراً..
المشكلة الاقتصادية، ليست مشكلة في المنهج الإسلامي، ما إن تطبق أحكام الدين تماماً، ما إن تؤدي زكاة مالك، ما إن تكسب الرزق الحلال فالله سبحانه وتعالى يغنيك، وتنعم بالأمن، قال تعالى:

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(٤))

[سورة قريش]

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: قال تعالى:

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٤٥))

[سورة الأنعام]

ماذا يقول العلماء عن الدم ؟..

يحمل الدم سموماً وصدمات كثيرة، ومركبات ضارة، ذلك لأنّ إحدى وظائفه هي ؛ نقل فضلات الجسم، وسمومه ؛ ليصار إلى طرحها، وأهم المواد التي يحويها الدم، هي البولة وحمض البول، وهي المستقلبات النهائية، الناتجة عن تقويض البروتينات، ويحمل الدم بعض السموم التي ينقلها من الأمعاء إلى الكبد بغية تعديلها، فإذا ما تناول الإنسان كميات من الدم فإن هذه المركبات، تُمتص، ويرتفع مقدارها في الجسم، إضافة إلى المركبات التي تنتج عن هضم الدم ذاته، مما يؤدي إلى ارتفاع نسبة البولة الدموية، وبالتالي إلى حدوث اعتلال دماغي، ينتهي بالسبات.

هذا ما يقوله العلماء حول الدم !..

حينما حرمه الله عز وجل، حرمه لحكمة بالغة بالغة..

ويعتبر الدم وسطاً ملائماً جداً، لنمو أنواعاً كثيرةً من الجراثيم، استُفيد من هذه الخاصة في صنع مزارع الجراثيم من الدم، ولا يمكن أن يُعد الدم غذاءً، لذلك الذبيحة غير المذكاة لا يجوز أكلها، لأن دمها فيها... الذبيحة التي لم تُذبح وفق الشريعة الإسلامية، لا يجوز أن تأكلها بحال والدم فيه كل هذه السموم، وهذه الفضلات، وهذه الأشياء المؤذية شيء آخر هذا الحكم الشرعي المأخوذ من هذه الآية الكريمة، يجب أن يكون واضحاً في أذهان المسلمين، إذا سافروا إلى بلاد الغرب، فالذبيحة التي لم تُذبح وفق الطريقة الإسلامية، لا يجوز أكلها، أما إن لم يسمِّ عليها هناك رأي لبعض الفقهاء،

سم أنت عليها وكل، ولا شيء عليك، أما إن لم تُذبح بطريقة الذبح الشرعي، بطريقة إخراج الدم كله إلى خارج الذبيحة، هذا يؤذي الإنسان أشد الأذى، ويقع في معصية لله عز وجل.

شيء آخر، يجب أن يعيد مربو الأنعام، النظر في إطعام مواشيهم طحين الجيف، والدم المجفف، وما جنون البقر، الذي كلف بعض البلاد، ثلاث وثلاثون مليار جنيه إسترليني، ولابد من أن يحرقوا ثلاثة عشر مليون بقرة، من أجل أن ينجوا المجتمع من خطر مرض جنون البقر، وما هذا المرض الخطير عنا ببعيد، السبب ؛ أنهم أطعموا البقر طحين اللحم المجفف، طحين اللحم الميت، وأطعموه الدم، فيجب أن يُعاد النظر فيما نطعم به مواشينا، وأنعامنا، لأنّ هذا خطر على صحتنا.

وأحياناً منهج الله يجب أن يُطبق على الحيوان، فهذا الحيوان الذي أكل ما حرم الله أكله على الإنسان أصيب بالجنون، بل إن بعضهم قال: ما جنون البقر، إلا من جنون البشر !..

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٢٧ : الفقر١ (معالجة الفقر في المجتمع الإسلامي عن طريق الروابط الأسرية).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٨-٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: ظاهرة الفقر في المجتمع الإسلامي، ظاهرة ينبغي أن تُعالج، ولمنهج الإسلام القويم، طرائق فعالة في علاج هذه المشكلة الكبيرة، فمن الوسائل الفعّالة، أن الإسلام حث المسلم على العمل المتقن، على العمل الجاد، وأيضاً جعل الزكاة جزءً من حل لهذه المشكلة، بل إن كفالة بيت مال المسلمين علاج أخر لمشكلة الفقر، ثم إن الصدقات الاختيارية والإحسان التطوعي أيضاً من جملة هذه الحلول، وهذه الخطبة محورها كفالة الموسرين من الأقارب، هذا أحد الحلول الإسلامية لمشكلة الفقر.

الأصل الأصيل في شريعة الإسلام، أن يحارب كل امرئ الفقر بسلاحه هو، وسلاح الإنسان المسلم، السعي والعمل، لكنْ ما ذنب العاجزين، الذين لا يستطيعون أن يعملوا ؟ ما ذنب الأرامل اللواتي مات عنهن أزواجهن، ولا مال لهن ؟.. ما ذنب الصبية الصغار والشيوخ الكبار ؟.. ماذ نب المرضى والمقعدين ؟.. ما ذنب من أصابتهم الكوارث فأفقدتهم رزقهم، أو منعتهم من الكسب ؟.. أيتركون للفقر المدقع فيدوسهم بحوافره..

إن الإسلام عمل على إنقاذهم، وعمل على مواساتهم، وعلى تأمين حاجاتهم الضرورية، وعمل على إغنائهم من ذل السؤال، وأول ما شرعه لذلك ؛ هذا موضوع الخطبة.. تضامن أعضاء الأسرة الواحدة هذا جزء لا يتجزأ من المنهج الإلهي، في معالجة قضية الفقر.

الزكاة لها خطبة خاصة، وكفالة بيت مال المسلمين له خطبة خاصة والسعي والعمل له موضوع خاص، والصدقات الاختيارية، والصدقات التطوعية، لها بحث خاص، واليوم نتحدث عن موضوع محدد تضامن أعضاء الأسرة والواحدة..

لقد جعل الإسلام ذوي القربى متضامنين، متكافلين، يشد بعضهم أزر بعض، يحمل قويهم ضعيفهم، يكفل غنيهم فقيرهم، ينهض قادرهم بعاجزهم، فإن العلائق بينهم أشد قوةً، وبواعث التعاطف والتراحم والتساند، أوثق عروةً، لما بينهم من الرحم الواصلة، والقرابة الجامعة هذه هي الحقيقة الكونية، التي أيدتها الحقيقة الشرعية، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧٥))

[سورة الأنفال]

لقد أكد الإسلام حق ذوي القربى، وحث في آيات كتابه، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم، على برهم، وصلتهم، والإحسان إليهم وتوعد من قطع رحمه، أو أساء إلى ذوي قرباه، بالعذاب الشديد، فمن الآيات الكريمة قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ (٩٠))

[سورة النحل]

نصاً..

أية ثانية:

(وَاعْبُدُوا اللّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنّ اللّهَ لَا يُحِبّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (٣٦))

[سورة النساء]

وبذي القربى بعد الوالدين..

الآية الثالثة:

(يَا أَيّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتّقُوا اللّهَ الّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

[سورة النساء]

الآية الرابعة:

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السّبِيلِ وَلَا تُبَذّرْ تَبْذِيراً (٢٦))

[سورة الإسراء]

الآية الخامسة:

(فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨))

[سورة الروم]

خمس آيات في كتاب الله العزيز، تحث المؤمن على أن يبر ذوي القربى، هذا ما يُسمى بالتضامن الأسري، وهذا أحد حلول مشكلة الفقر.

وأما السنة المطهرة، فعن النبي صلى الله عليه وسلم، في الحديث الصحيح، المتفق عليه، الذي رواه البخاري ومسلم:

((" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه".))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد]

وفي حديث آخر متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد]

وفي حديث ثالث، يقول عليه الصلاة والسلام، لمن سأله من أبرُّ:

((قَالَ أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ وَمَوْلَاكَ الَّذِي يَلِي ذَاكَ حَقٌّ وَاجِبٌ وَرَحِمٌ مَوْصُولَةٌ ".))

[انفرد به أبو داود]

آيات كثيرة، وأحاديث صحيحة، تحث كلاً منا على أن يتفقد أهله على أن يصل هله، على أن يصلهم أن يزورهم، وأن يتفقد أحوالهم وأن يمد لهم يد العون، ثم ليأخذ بيدهم إلى الله عز وجل. هذه النصوص تؤكد أن للقريب على قريبه حقاً، أكثر من غيره من الناس، لما بينهما من روابط النسب، والرحم، فما هو هذا الحق ؟..

يعني هل يُعقل أن يكون هذا الحق، أن تتصل به هاتفياً، وتسأله عن صحته فقط ؟.. هل يُعقل أن يكون هذا الحق أن تزوره في العيد ؟..

أنت في بحبوحة ما بعدها بحبوحة، وهو في فقر مدقع، أيعقل أن تكون صلى الرحم، أن تطل عليه في السنة مرةً واحدة ؟! وتسأله عن صحته وانتهى الأمر ؟!.. أهذه هي صلة الرحم ؟ !. هذه النصوص تؤكد أن هناك حقاً يجب أن ترعاه، وأن هناك واجباً عليك يجب أن تؤديه، نقطة دقيقة جداً، إذا كان القريب يرث قريبه بعد موته فيغنم، فمن العدل، أن ينفق عليه عند عجزه فيغرم، والغرم بالغنم.

ربنا عز ودل يقول:

(وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦))

حقه.. له عليك حق، يا أيها الموسرون، لأقربائكم الفقراء، حقٌ عليكم، بل إن الفقهاء يقولون: لا تُقبل زكاة مسلم، وفي أقربائه محاويج يجب أن يبدأ الغني بأقربائه، من أجل تحقيق ما يُسمى بالتضامن الأسري وهو أحد الحلول الناجحة لمشكلة الفقر.

أسمع ـ أيها الإخوة ـ عن أخوة كرام، كرام كرام، لا يدعون شاباً في أرهم، إلا ويتعهدونه، بتأمين عمل له، وبيت له، وزوجة صالحة هذا من أعظم الأعمال، ولو أن كل أسرة، التفتت إلى فقرائها، إلى ذوي الحاجة فيها فكفتهم، كانت هذه الأسرة عند الله في شأن خاص.

قال بعضهم: وقد أخطأ في هذا القول، **آت ذا القربى** حقه أي ينبغي أن لا تدع زيارته، أجاب أحج العلماء الكبار وهو ابن القيم فقال: أي قطيعة أعظم من أن يراه يتلظى جوعاً عطشاً، ويتأذى غاية التأذي بالحر والبرد، ولا يُطعمه لقمة، ولا يسقيه جرعة، ولا يكسوه ما يستر عورته ويقيه الحرّ والبرد، ولا يُسكنه تحت سقف يظله، وهو أخوه وابن أمه وأبيه، أو عمه صنو أبيه، أو خالته التي هي أمه..

ألا تستمعون إلى أسر، بعض أفرادها يتمتعون ببحبوحة ما بعدها بحبوحة، وبعض أفرادها الآخرين، يتضورن جوعاً، أهذه أسرة يحبها الله ؟ **!.** أهذه أسرة يرضى الله عنها ؟..

إنسان يحار في إنفاق المال، وإنسان يحار في تأمين غرفة يزوج بها ابنه في أطراف دمشق..
أيها الإخوة الكرام: إياكم أن تفهموا أن صلة الرحم، أن تذهب إلى قريبك في العيد، يقدم لك ضيافة، وتسلم عليه، وانتهى الأمر، وأنت في بحبوحة ما بعدها بحبوحة وانتهى الأمر، وهو في فقر مدقع، ليست هذه صلة الرحم، وهذه الصلة لا يقبلها الله عز وجل، إن لم نتراحم، إن لم نتعاون، إن لم نتكاتف، إن لم نتضامن..

والله لولا أنني سمعت عشرات القصص، في هذه البلدة الطيبة أن أغنياء، ينسون أقرب الناس إليهم، هم في واد، وأقربائهم في واد، لا يلين لهم قلب، ولا يتحركون بالمساعدة، مع أن الله سبحانه وتعالى كما سمعتم، في خمس آيات محكمات، وفي آحاديث صحيحة، ترقى إلى أعلى مستوى، يحثنا ربنا جل جلاله، ونبينا عليه أتم الصلاة والتسليم على معاونة الأقارب..

كم أطرب حينما أستمع إلى أسرة، شكلت لجنة لتفقد أحوال أفرادها هناك طالب يحتاج إلى قسط جامعي، هناك شخص يحتاج إلى عملية جراحية، هناك شاب يزمع الزواج، لو أن أغنياء كل أسرة، شكلوا مجلساً، وتفقدوا أحوال أفراد أسرهم، لكانوا عند الله مرضيين.

يقول ابن القيم: **إن لم تكن هذه قطيعة، فإنا لا ندري ما هي القطيعة المحرمة، والصلة التي أمر الله بها.**

النبي صلى الله عليه وسلم، قد قرن، حق الأخ والأخت، بالأب والأم، كم من أبٍ يموت، ويدخل أولاده المحاكم، يتنافسون على حطام الدنيا، على شيء يسير، لا يرحم بعضهم بعضاً.

كم من أسرة، فيها قطيعة من عشرين عاماً، سببها البخل، وسببها القسوة، وسببها قطيعة الرحم.
يا أيها الإخوة الكرام: لقد قرن النبي صلى الله عليه وسلم، حق الأخ والأخت بالأب والأم فقال:

((" أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك ".))

لذلك أجمع فقهاء المسلمين، بالإجماع، على أن الزوجة، يُجبر على الإنفاق على زوجته، وأن الوالد يُجبر على الإنفاق على ولده الصغير وعلى ابنته الأنثى، والابن يُجبر على الإنفاق على والدين، واختلفوا بعد ذلك في بقية فروع الأقرباء..

الزوج على زوجته، والابن على أبيه، والأب على ابنه..

بل إن القاضي، له سلطة في إجبار القريب على أن ينفق على قريبه أما الصلة، ديناً فهي واجبة بإجماع الفقهاء، أما الصلة شرعاً واجبة في عامود النسب، وموضع اختلاف في بقية الأقرباء. أبو داود رحمه الله تعالى، أورد في سننه حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

((قال أحد أصحاب النبي يا رسول الله، من ابرُّ ؟ قال أمك وأباك، وأختك وأخاك، ومولاك الذي يلي ذلك، حق واجب ورحم موصولة ".))

وروى النسائي عَنْ طَارِقٍ الْمُحَارِبِيِّ قَالَ:

((قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ النَّاسَ وَهُوَ يَقُولُ يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ ".))

[أخرجه النسائي وأحمد]

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة وأحمد]

لو أن كل أسرة رعت هذه الأحاديث، وتفقهت في أحكام هذه الأحاديث وطبقت هذه الأحاديث، والله لكنا في حال غير هذا الحال.

عن معاوية القشيري قال:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبَرُّ قَالَ أُمَّكَ قَالَ قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ أُمَّكَ قَالَ قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ أُمَّكَ قَالَ قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبَاكَ ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ ".))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد]

رواية ثانية عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ".))

[أخرجه النسائي والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدارمي]

يعني أطيب شيء تأكله، أن تأكل من كسبك، أو من كسب ابنك لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((" أنت ومالك لأبيك".))

[رواه أحمد وابن ماجة]

من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم، فكلوه هنيئاً مريئاً..

وروى النسائي:

((" قالَ ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا يَقُولُ فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ ".))

[رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد]

موضوع دقيق جداً في هذا البحث، قال تعالى:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمّ الرّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنّ وَكِسْوَتُهُنّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلّفُ نَفْسٌ إِلّا وُسْعَهَا لَا تُضَارّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة البقرة آية ٢٣٣]

وعلى المولود له: يعني على الأب، **وعلى الوارث مثل ذلك:** أوجب الله تعالى على الوارث، مثلما أوجب على المولود له.

ولننتقل الآن إلى أحكام بعض أصحاب رسول الله..

سيدنا عمر رضي الله عنه، حبس عصبة صبي على أن يُنفقوا عليه الرجال دون النساء، حبس: يعني سجن عصبة صبي على أن ينفقوا عليه.

ويقول سعيد بن المسيب، **جاء ولي يتيم إلى عمر بن الخطاب، فقال أنفق عليه،** ثم قال: **لو لم أجد إلا أقصى عشيرته لفرضت عليهم.**

وعن زيد بن ثابت، **إذا كان أمّ وعمّ، فعلى الأمّ بقدر ميراثها، وعلى العم بقدر ميراثه..**

لو أن طفلاً يحتاج إلى ألف ليرة بالشهر، له أمّ وله عمّ، لو أن هذا الطفل مات وترك إرثاً، من يرثه، بقدر نصيب أمه تنفق عليه في حياته وبقدر نصيب عمّه ينفق عليه في حياته.

وقال العلماء: ولا يُعرف لعمر رضي الله عنه، وزيد رضي الله عنه مخالفٌ من الصحابة البتة.. إن من اشد المذاهب تشددا في موضوع الإنفاق، مذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى، أبو حنيفة رحمه الله تعالى يرى ؛ أن النفقة تجب على كل ذي رحم محرم لذي رحمه، فإن كان من عامود النسب، ما معنى عامود النسب ؟.. الآباء مهما علو، والأبناء مهما نزلوا.. فإن كان من عامود

النسب، أي الأولاد وأولادهم، والآباء وآباؤهم، وجبت نفقتهم مع اتحاد الدين واختلافه، أي ولو كانوا كفاراً.

يعني تجب على المسلم نفقة أبيه ولو كان كافراً، وتجب على الأب الإنفاق على ابنه ولو كان كافراً، وإن كان من غيرهم لم تجب إلا مع اتحاد الدين.

ومن شروط وجوب النفقة ـ أيها الإخوة ـ فقر من تجب له نفقته، فإن استغنى بمال أو كسب، لم تجب نفقته، لأنها تجب على سبيل المعونة والمواساة، وأن يكون للمنفق فضل مالٍ ينفق عليهم، زائد على نفقة نفسه وزوجته وعياله، لما روى الترمذي عن جابر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((" ابدأ بنفسك ثم بمن تعول.. ".))

السؤال الآن ـ أيها الإخوة ـ ماذا يعني الإنفاق ؟.. الحقيقة الإسلام لحكمة بالغة لم يقدر حداً معلوماً لا يتجاوزه من المال، فإن الناس ـ كما قال العلماء ـ تختلف حاجاتهم باختلاف الزمان والمكان والحال والعرف والمنفقون تختلف قدراتهم المالية، ما بين موسر مبسوط له في الرزق وبين متوسط الحال، الإسلام راعى قدرة المنفق، وحاجة المنفق عليه وأن تُسد هذه الحاجة بالمعروف، والمعروف: ما تقره الفطرة السليمة والعقول الرشيدة، وعرف الفضلاء من الناس، قال تعالى:

(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمّا آتَاهُ اللّهُ لَا يُكَلّفُ اللّهُ نَفْساً إِلّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً(٧))

[سورة الطلاق]

(لَا يُكَلّفُ اللّهُ نَفْساً إِلّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (٧))

آية ثانية:

(لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلّقْتُمُ النّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسّوهُنّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنّ فَرِيضَةً وَمَتّعُوهُنّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦))

[سورة البقرة]

(وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنّ وَكِسْوَتُهُنّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلّفُ نَفْسٌ إِلّا وُسْعَهَا لَا تُضَارّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة البقرة آية٢٣٣]

وأما مع شيء من التفصيل، فقد أورد العلماء: أن النفقة تعني أن تقدم له الغذاء والماء، والكسوة في الشتاء وفي الصيف، والمسكن وما يتبعه من مرافق، ومن ماء وكهرباء، وأساس وفراش، وأن تزوج من تاقت نفسه إلى الزواج، هذا من الإنفاق الواجب، ثم أن تنفق على زوجته وعياله، ثم أن تؤمن له خادماً إن كان يعجز عن خدمة نفسه، وأضاف العلماء بعد أن أصبح للطب قواعد واضحة،

ثم أن تعالجه إذا مرض فإن في ترك المعالجة، تعذيباً له.. ما دام المرض واضحاً، والتشخيص سهلاً، والدواء معروفاً، فلا بد من معالجته.

غذاء وماء، وكسوة صيفاً وشتاءً، ومسكن وما يتبعه، وتزويج من يتوق للزواج، والإنفاق عليه وعلى زوجته وأولاده، وأن تؤمن له خادماً إن عجز عن خدمة نفسه، وإن تعالجه إذا مرض.. هذا مضمون الإنفاق.

النبي عليه الصلاة والسلام في موضوع المعالجة يقول:

((" يا عباد الله، تداووا فإن الذي خلق الداء، خلق الدواء ".))

أيها الإخوة الكرام: هذا موضوع كل ما أرجوه من الله عز وجل، أن ينقلب من كلام يُلقى على الناس، أن ينقلب إلى واقع ملموس، فكل إنسان عليه أن يتفقد أقرباءه، أن يتفقد ذوي رحمه، أن يتفقد من يمت إليه بصلة، فلو فعلت كل أسرة هذا، لكان المسلمون في حال غير هذا الحال.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: موضوع يظنه الناس، من ضلالات العوام، وهو الإصابة بالعين يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١))

[سورة القلم]

يقول عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاري:

((" العين حق ".))

وفي صحيح الجامع الصغير:

((" العين تدخل الرجل في القبر، وتدخل الجمل في القدر ".))

ربنا عز وجل يقول:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥))

[سورة الفلق]

من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((" لا تصاحب إلى مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي ".))

لأنك إن صاحبت غير مؤمن حسدك، وقد تؤذيك عينه، إن صاحبت غير مؤمنٍ أساء إليك:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ(٥٠))

[سورة التوبة]

ماذا فعل قارون، خرج على قومه بزينته.

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

ورد في بعض الكتب العلمية، أن سيدة في لينغراد، في الاتحاد السوفيتي سابقاً، أجريت عليها تجربة فريدة، فقد تم فحصها بالأشعة غير المرئية، للتأكد من أنها لا تُخفي حتى في داخلها أي مؤثر تستطيع الاستعانة به في تجربتها، ثم بدأت التجربة، وأجلست هذه السيدة على رأس مائدة، وفي وسطها بوصلة عادية، اختُبرت بكافة الوسائل بوصلة تعمل بشكل منتظم، وهذه السيدة، ركزت عينيها على هذه البوصلة وأشارت بيديها، وامتقع لونها...

بوصلة بالحركة، بعيداً عن اتجاه الشمال الجغرافي، ثم أخذت هذه المرأة، تدير الإبرة بحركة عينيها كيف تشاء، ولقد صُورت هذه التجربة وعممت على المراكز العملية، لأن العين حق.

بل إن هناك سيدة من الصين، إذا نظرت إلى شيء جامد كسرته علم بعد ذلك، أنها ينطلق من عينها، شحنة خاصة، من أشعة أكس، يكفي نظرتين متتابعتين لتحطيم جسم صلب، فالعين حق، **تضع الجمل في القدر والرجل في القبر**، وربنا عز وجل يقول:

(وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥))

(وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١))

والنبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح في البخاري ويقول:

((" العين حق ".))

وفي صحيح الجامع الصغير:

((" العين تدخل الرجل القبر، وتضع الجمل في القدر ".))

يُستفاد من هذه الحقيقة أنه لا ينبغي أن تصاحب إلا مؤمناً، وينبغي أن لا يأكل طعامك إلا تقي، لأن غير المؤمن وغير التقي، يحسدك، وقد تكون له عين نفاذة.

حقيقة أخرى تضاف إلى هذه الحقيقة ؛ الحاسد لا يؤثر في المحسود إلا إذا كان المحسود غافلاً عن الله عز وجل، فإذا كان مستعيذاً بالله من شر حاسد إذا حسد، لا يؤثر فيه الحسد.

هؤلاء الذين، يعرضون على الناس بيوتهم، وأثاث بيوتهم، ويتحدثون عن أولادهم، وعن شهاداتهم، وعن بناتهم، وعن حظوظهم الرائعة وعن دخلهم الكبير، وعن سياحتهم، وعن إنفاقهم في سياحتهم، هذه عادة لا ينبغي أن يفعلها المسلم، إن كنت في بحبوحة فاشكر الله عز وجل دون أن تُشعر الآخرين أنهم دونك، إن كنت في بحبوحة فلا تستعلي على خلق الله، لعلك تجد فيهم حسوداً، فيكون من هذا الحسد شر كبير.. لعلك تكون غافلاً بعض الغفلة، وهذا الذي تتحدث عنه، عن رحلتك وعن إقامتك في الفنادق، وعن تجارتك العريضة، وعن دخلك الكبير وعن، وعن، أن يصيبك بالعين، والعين حق، وقد وردت فيها آيتان وحديثان، وتجربتان علميتان، فالمؤمن ينبغي أن يؤلف لا أن يفرق أن يجلب القلوب إليه، لا أن ينفر الناس منه، فالحديث عن الذات، وعما حول الذات، من ممتلكات، هذا ينفر القلوب، إن جلستم في مجلس فاذكروا الله عز وجل: **" ما جلس قوم في مجلس، لم يذكروا الله فيه إلا قاموا عن أنتن من جيفة حمار ".**

هناك أناس لا يلاحظون، جلسة، فيها الفقير وفيها ذوي الدخل المحدود، يتحدث عن دخله، وعن تجارته، وعن إمكاناته، وعن حظوظه الدنيوية، وكأن الآخرين صخر.. إنسان يتمنى أن يكون مثلك له مشكلة يعاني منها، لا تستفزه، لا تُشعره أنه فقير:

((" يا عائشة، إذا أردت اللحوق بي، فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ولا تستخلقي ثوباً حتى ترقعيه، وإياك والدخول على الأغنياء ".))

وقال عمر رضي الله عنه: **" من دخل على الأغنياء(والمقصود الأغنياء غير المؤمنين) خرج من عندهم وهو على الله ساخط ".**

لا تصاحب من لا يرى لك مثلما ترى له، هذه حقيقة، ينبغي أن نعيها.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦٢٨ : الفقر٢ (معالجة الفقر في المجتمع الإسلامي طريق الجوار).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٨-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: في الخطبة السابقة، بينت بفضل الله تعالى، أن في الإسلام حلولاً كثيرةً لمشكلة الفقر، من هذه الحلول التضامن الأسري، وقد بينت لكم الآيات الكثيرةَ، والأحاديث الصحيحة الغزيرة، حول هذا الموضوع واليوم هناك حلٌ آخر، لا على أساس العلاقات الأسرية، بل على أساس العلاقات المكانية، فالنبي عليه الصلاة والسلام، حدثنا كثيراً عن حق الجار، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (٣٦))

[سورة النساء]

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ سَمِعَتْ أُذُنَايَ وَأَبْصَرَتْ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ قَالَ وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك والدارمي]

أرأيتم ـ أيها الإخوة ـ إلى هذا الترابط، بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين إكرام الجار، يعني من لوازم الذي يؤمن بالله واليوم الآخر أن يكرم جاره، أن يكرم جاره بأن يتصل به، بأن يزوره، بان يتفقد أحواله بأن يمد له يد العون، بان يواسيه.

((" مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ.. "))

الذي لا يكرم جاره، في إيمانه خلل، لأن من لوازم الإيمان الحق بالله أولاً، وباليوم الآخر، أن تكرم جارك، والجار هنا مطلق، أي جار على الإطلاق.

وفي حديث آخر رواه ابن ماجة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((" أحسن إلى جارك تكن مسلماً ".))

إذا كان الحديث الأول، ربط الإيمان بالله واليوم الآخر بإكرام الجار فالحديث الثاني ربط الإسلام بالإحسان إلى الجار..

فهذا الذي يسيء إلى جواره، يعتدي عليهم، ينغص حياتهم، يقلق معيشتهم، يخافون من شره، يتحسبون لحركته أي حساب، هذا ليس ممن يؤمن بالله واليوم الآخر، وليس من الإسلام في شيء.
في حديث آخر ثالث متفق عليه، عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

ما قيمة أن نؤدي العبادات، إن لم نكن في المعاملات وفق ما أمر به النبي عليه الصلاة والسلام، ما معنى أن تكون أنت مسلماً ؟ ما معنى أن تكون مؤمناً ؟ إن تأتمر بما أمر النبي، وإن لم تنته عما نهى عنه النبي ما معنى أن تكون مؤمناً وأنت تتلو قوله تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (٣٦))

في حديث آخر، رواه الإمام البيهقي، يقول عليه الصلاة والسلام:

((" ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم ".))

يقول لك أنا لا أعلم، نقول له: من لم يتفقد أمور المسلمين فليس منهم ينبغي أن تتفقد أحوال جيرانك، من أجل أن تعلم ما إذا كانوا بحاجة إلى شيء من مساعدتك "

((" ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم "))

بل إن أهل الحي كلهم، إذا قصروا في تفقد من في حيهم من الفقراء، يأثمون جميعاً، يقول عليه الصلاة والسلام في حديث صحيح:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرِئَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ وَأَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى ".))

[انفرد به أحمد بن حنبل]

عرصة: يعني حي.

برئت منهم ذمة الله: يعني يأثمون جميعاً.

هذا هو التضامن على أساس الجوار، في الأسبوع الماضي تحدثت عن التضامن على أساس القرابة، واليوم تضامن جغرافي، أهل هذا الحي جيرانك، الأقربون الأبعدون، يميناً، شمالاً، جنوباً.
وقد ورد في رعاية الجار ما جاء في الأثر:

((" أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعانك أعنته، وإن استنصرك نصرته وإن استقرضك أقرضته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عن الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك (رائحة طعامك) إلا أن تغرف له منها ".))

لا تستطيع أن تعطي ابنك فاكهة غالية الثمن، يأكلها أمام أطفال الجيران، لا تستطيع أن تصنع طعاماً له رائحة فواحة، ولا تعطي جارك من هذا الطعام شيئاً، لا تستطيع أن تدخل بالفاكهة مكشوفة وبالحلويات مكشوفة أمام جيرانك دون أن تقدم لهم شيئاً، إذا اشتريت فاكهة فأهد لهم، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها.
قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، **أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم، إذا طبخت فأكثر المرق، ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها**، وهذه عادة طيبة جداً، كانت مطبقة في بلاد الشام قبل سنوات وسنوات، كل جار يقدم إلى جاره شيئاً من طعامه.

ليس الجار هو الذي يلاصق بيتك فحسب، كما يظن بعض الناس روي في الآثار، أن أربعين داراً جار، وفي آثر آخر إن ستين داراً جار وفسر بعضهم، أن هذه الأربعين، وتلك الستين، من كل جهة، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، يُفهم من هذا أن سكان الحي هم جيران، سكان الحي الواحد، أربعون بيتاً يميناً، وأربعون بيتاً شمالاً، وأربعون بيتاً جنوباً، وأربعون بيتاً يساراً، وقد نضيف أربعين بيتاً نحو الأعلى، وقد نضيف أربعين بيتاً نحو الأسفل في الأبنية ذات الطوابق الأرضية، فكل من حولك، من كل الجهات الست، هؤلاء جيرانك، ولو أن كل أهل حي تفقدوا جيرانهم، تفقدوا من في هذا الحي، تفقدوا مريضهم، تفقدوا عائلهم، تفقدوا فقيرهم، مسكينهم، تفقدوا بيتاً لا رجل فيه، لكنا في حال غير هذا الحال، إذا كانت العلاقة الأسرية تقتضي التضامن، فعلاقة الجوار أيضاً تقتضي التضامن.
السيدة عائشة تقول: **يا رسول الله، إن لي جارين، أحدهما مقبل علي ببابه، والآخر ناءٍ ببابه عني ـ جار قريب، وجار بعيد ـ وربما الذي كان عندي لا يسعهما ـ لا يكفيهما معاً ـ فأيهما أعظم حقاً علي فقال عليه الصلاة السلام: المقبل عليه ببابك ".**

إذاً في مجال التمايز، نبدأ بالجار الأقرب، والجار القربى، الجار الجنب، والصاحب بالجنب. الإسلام يريد أن يجعل كل حي متكافلاً متضامناً متعاوناً على السراء والضراء، بحيث يحمل أهل

هذا الحي ضعيفهم، ويطعمون جائعهم ويكسون عاريهم، وإلا برئت منهم ذمة الله، وذمة رسوله، ولم يستحقوا الانتماء إلى مجموع المؤمنين.

من الجميل في آداب الإسلام أنه صلى الله عليه وسلم جعل للجار حقاً ولو كان غير مسلم، أي جار له حق عليك، يروى أن أبا حنيفة النعمان كان له جار مغنٍ، وقد أقلق راحته، لسنوات وسنوات، وكانت أغنيته المشهورة، أضاعوني وأي فتىً أضاعوا..

فمرةً لم يسمع صوته، فعلم أنه في مشكلة، سأل عنه فإذا هو في السجن، ذهب إلى مدير السجن وتوسط له، في طريق العودة إلى البيت قال له يا فتى: هل أضعناك ؟ تقول أضاعوني وأي فتىً أضاعوا.

أنت لا تعلم أنك إذا أحسنت إلى جارك، قد يكون هذا الإحسان سبب هدايته، وسبب توبته، وسبب إقباله على الإسلام، الجار مطلق الجار له حق عليك، كائناً من كان، من أية ملة، من أي دين، هذا جار، فإذا كان جاراً مسلماً فله عليك حقان، حق الجوار وحق الإسلام، وإذا كان جاراً مسلماً قريباً له عليك ثلاثة حقوق، حق الجوار، وحق الإسلام وحق القرابة.

كم من المشكلات في بلدتنا بين الجيران، كم من الخصومات بين الجيران، كم من المضايقات بين الجيران، كم الظلم بين الجيران، كم من العدوان بين الجيران، أهذا هو الإسلام، أهذا هو الدين، أهذا هو منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، أهكذا يحبنا الله ورسوله، أن تكون الخصومة والعداوة والبغضاء والشحناء بين الجيران.

قال مجاهد: كنت عند عبد الله بن عمر، وغلام له يسلخ شاةً، فقال: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا فلان، وهو غير مسلم، حتى قال ذلك مراراً، فقال له الغلام، كم تقول هذا، فقال: **إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.**

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبّ لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد والدارمي]

وكلما ارتقى الإيمان عند الناس، ارتقت العلاقة بين الجيران، ولاسيما في هذه البيوت التي بعضها فوق بعض، لاسيما في هذه البيوت المتلاصقة، التي نوافذ بعضها على بعض، كلما اشتد القرب بين الجيران اشتدت الحاجة إلى الود بينهم، وإلى المعاونة، وإلى غض البصر وإلى الإحسان.

((" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ (يا أيها الإخوة كلام خطير، ينفي النبي الإيمان عن الإنسان كلياً)حَتَّى يُحِبّ لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ "))

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ ".))

[أخرجه أحمد والدارمي]

المحسن العفو المسامح الذي يتفقد جيرانه، الذي يرعى شؤونهم الذي يعطف على أولادهم، الذي يحسن إليهم، هذا هو الأقرب عند الله عز وجل، وهذا هو الأفضل عند الله عز وجل.

((" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تَهَادَوْا فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ وَلَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ شِقَّ فِرْسِنِ شَـاةٍ".))

[أخرجه والترمذي وأحمد ومالك]

بالحقد، البغضاء الحقد الحسد، تذهبها الهدية.

((تَهَادَوْا فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ وَلَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ شِقَّ فِرْسِنِ شَـاةٍ ".))

في مسند الإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ ".))

[أخرجه ابن ماجة والترمذي]

يروى أن بعض الصالحين الأمراء في هذه البلدة الذين عاشوا فيها قبل مائة عام، له جار فقير، عرض بيته للبيع، دُفع له مبلغ قليل، فاستقل المبلغ، فقال: والله لا أبيع جوار الأمير بهذا المبلغ، فجاء من أوصل هذا الكلام إلى الأمير، فاستدعاه جاره الأمير وقال: خذ هذا المبلغ وابق جاراً لنا، إن كنت لا تبيع جوارنا بهذا المبلغ نحن لا نبيعك إطلاقاً.

يعني هناك قصص ـ أيها الإخوة الكرام ـ من السلف الصالح شيء لا يُصدق، من الإكرام، أنت في جنة إذا كنت بين جيران مؤمنين، كل واحد يرعى حق الآخر، كل واحد يفكر كيف يكرم الآخر، كيف يعتني بأولاده.

حدثني رجل، قال كنت مسافراً، وقد أصيب ابني بحادث، ماذا فعل جارنا، أخذ ابني إلى المشفى، وأسعفه، وضمد جراحه، واعتنى به وأشرف على تمام التضميد، وأعاده إلى البيت، ولا يعلم بهذا أحد.

أنت حينما تسافر، حينما تغادر البيت، لك جيران مؤمنون، محبون صادقون، محسنون، أنت في بحبوحة، وأنت في جنة، لذلك من الخطأ الكبير، عد للمليون قبل أن تسئ لجارك.

قال: **أتعرفه ؟ قال نعم، قل: هل سافرت معه ؟ قال: لا، قال: هل حاككته بالدرهم والدينار ؟ قال: لا، قال: هل جاورته ؟ قال لا، لا تعرفه لا يعرفك إلا جارك.**

((".. كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ ".))

حديث خطير جداً، رواه الإمام أحمد في مسنده، عن أنس ابن مالك:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ "))

[انفرد به أحمد]

هذا الجار الذي يخاف جيرانه منه، يخافون منهم أن يشتكي عليهم يخافون منه أن يسبب لهم إزعاجاً، هذا الجار المؤذي الذي يخافه جيرانه لا يدخل الجنة، ولا يدخل رجل الجنة، لا يأمن جاره بوائقه.

جارك، يجب أن يرتاح إليك، أن يطمئن إليك، أن لا يخاف منك، أن يرتاح في غيبته إلى حسن جوارك.

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا:

((إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة والدارمي وأحمد]

حدثني أخٌ كريم، له قريب تُوفي، له محل من كرم أخلاقه، قال له أحد موظفيه، يعني أتغضب إذا اشتريت محلاً إلى جنبك ؟ قال: لا قال: هل يمكن أن تتوسط لي في شراء هذا المحل ؟ قال: نعم، فذهب إلى صاحب المحل، وفاوض صاحب المحل، قال: كم معك يا بني، قال عشرون ألف، ثمن المحل تسعون، أعطاه الباقي هديةً لموظفه، وقال خذ بضاعة من عندي وبعها، فإذا بعتها ادفع لي ثمنها، هذا الذي يفعل هذا مع موظفيه، مع جيرانه، مع أقرب الناس إليه، هذا في أعلى عليين. الآن تجد في قصر العدل آلاف مؤلفة من الدعاوى الكيدية، لسبب بسيط، لمخالفة بسيطة، يشتكي الجار على جاره، ويُهلكه، ويحبط عمله، فيكف يرضى الله عنا ؟ كيف يرضى الله عنا إن لم نتحابب؟ إن لم نتعاون ؟ إن لم يعن بعضنا بعضاً.

صلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار، يعمران الديار ويزيدان في الأعمار.

إن أردت أن تعيش في بحبوحة، وفي رفعة شأن بين الناس، وأن تعمر مديداً، وأن تلهم العمل الصالح الغزير، فأحسن إلى جارك وحسّن خلقك، وصل رحمك.

مما ورد في الأثر: **الجار قبل الدار، الرفيق قبل الطريق، والزاد قبل الرحيل.**

البيت يرخص الآن لجار سوء، ويغلو لجار طيب، وكم من جار نغص على أهل البناء حياتهم، جار واحد، نغص على كل من حوله حياتهم، لذلك البيت يغلو بحسن الجوار، ويرخص بسوء الجوار.

حرمة الجار على جاره، كحرمة دمه.. جار الدار أحق بدار الجار حق الشفعة، قبل أن تبيع بيتك، لعل لهذا الجار مصلحة في هذا البيت لعله يحب أن يوسع داره، أن يزوج ابنه إلى جانبه، في بعض المذاهب الفقهية، يبطل البيع إن لم يعرض البائع على جاره حصته، يبطل البيع لأن الجار أحق بدار الجار.

ثلاث خصال من سعادة المرء في الدنيا ؛ الجار الصالح، والمسكن الواسع، والمركب الهنيء، الجار الصالح من سعادة المرء في الدنيا.

تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام، فإن الجار البادي يتحول عنك.

اللهم إني أعوذ بك من جار سوء، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ".))

[أخرجه مسلم وأحمد]

عبادة الله في حسن الجوار، من أخطر العبادات، هذه عبادة، عبادة تعاملية، كما أنك تصلي وتصوم، وتحج البيت، وتؤدي الزكاة، من العبادات التعاملية، أن تكون حسن الجوار، أن تُحسن إلى جارك، من أجل أن تكون مسلماً، ومؤمناً.

هذا الكلام كلام سيد الأنام، فلا ينبغي إلا أن نأخذه على أنه وحي يُوحى، وعلى أنه توجيه إلهي، وعلى أنه منهج رباني، والإسلام لا يتفوق، والمسلمون لا يصلح حالهم إلا بطاعة نبيهم، والمسلمون في بحبوحة من عذاب الله، مادامت سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم مطبقة في حياتهم، وموضوع اليوم، كان عن حسن الجوار، وأرجو الله تعالى أن تترجم هذه الخطبة إلى سلوك يومي، إلى مصالحة بين الجيران إلى تقارب بين الجيران، إلى النصح بين الجيران، إلى المعاونة بين الجيران، إلى التآلف.

سمعت عن بعض الأبنية، يجتمعون كل أسبوع مرةً في بعض البيوت يلتقون، يتدارسون أمر البناء، يتعاونون، يتسامرون.

سمعت عن أهل بناء آخر، يجتمعون جميعاً قبل صلاة الجمعة ليحضروا خطبة في جامع واحد، مجتمعين.

بعض الأبنية كانوا يجلسون مع بعضهم بعضاً كل يوم الاثنين، ويدعون بعض الدعاة للإلقاء درساً عليهم، ما أجمل أن تكون العلاقة بينك وبين جارك علاقة مثمرةً، علاقة طيبة.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يلهمنا الخير.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يَتَنَفّسُ فِي الْإِنَاءِ ثَلَاثًا وَيَقُولُ هُوَ أَمْرَأُ وَأَرْوَى ".))

[أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة، وأحمد والترمذي]

يعني إذا شرب كأس الماء، يشربه على ثلاث دفعات، يتنفس بين كل شربتين، إذاً يتنفس إذا شرب الإناء ثلاثاً، ويقول إنه أروى، وأبرأ وأمرأ.. أروى: أشد رياً، وأبرأ: أقرب إلى العافية، وأمرأ: أسهل مروراً..

((وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشرب في ثلاثة أنفاس، إذا أدنى إلى فيه الإناء يقول بسم الله فإذا أخره حمد الله، يفعل ذلك ثلاثاً ".))

[رواه ابن ماجة]

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((مصوا الماء مصاً، ولا تعبوا عباً فإن الكباد من العب "))

[رواه البيهقي]

والعب: شرب الماء دفعة واحدة.

والكباد: مرض في الكبد.

الشيء الذي لا يصدق، أن في الإنسان عصباً، يُسمى العصب الحائر هذا العصب مربوط في المعدة، والقلب معاً، فلو جاء تنبيه لهذا العصب عنيف، والماء البارد الذي يُلقى في الجوف دُفعة واحدة، لا يُمص مصاً من التنبيهات الشديدة لهذا العصب الحائر، وهذا العصب الحائر ربما نبه القلب فأوقفه عن العمل، وهناك حالات كثيرة، حالات موت مفاجئ بسبب تنبيه شديد جداً، لهذا

العصب الحائر، سماه العلماء النهي العصبي الذي يؤدي إلى توقف القلب، وقد يحدث الموت فجأة. فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((مصوا الماء مصاً، ولا تعبوا عباً فإن الكباد من العب))

هذا توجيه من قبل الله عز وجل، وهذا العصب الذي يرتبط بين المعدة والقلب، اسمه العصب المبهم أو العصب الحائر، ربما أدى تنبيهه الشديد إلى نهي عصبي أدى إلى وفاة مفاجأة.

شيء آخر، أن الإنسان حينما يكون في حالة حر شديد، في حالة جهد عالٍ جداً، الآلات المعدنية، لو صببت عليها الماء لتفطرت، ولانشقت فكيف الإنسان، قال تعالى:

(فَلَمّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنّ اللّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنّهُ مِنِّي إِلّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ

قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الّذِينَ يَظُنُّونَ أَنّهُمْ مُلَاقُو اللّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصّابِرِينَ (٢٤٩))

[سورة البقرة]

في حالات الحرّ الشديد، وفي الجهد العالي، ينبغي أن تشرب الماء القليل، وأن تشربه مصاً، لا أن تعبه عباً.

هذه بعضٌ من توجيهات النبي الصحية، أرجو الله تعالى أن ينفعنا بها.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦٢٩ : الفقر٣ (معالجة الفقر في المجتمع الإسلامي طريق العمل١).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٩-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: في خطبتين سابقتين، تحدثت عن أن الفقر يُعالج بكفالة الأسر بعضها ببعض، وهو ما يُسمى بالضمان الأسري، ويُعالج الفقر جغرافياً بحقوق الجوار، والحقيقة أنني عرضت الحلول عرضاً تصاعدياً، لكن الحل الأول، والحل الأكبر لمعالجة الفقر هو العمل.

إن كل إنسان ـ أيها الإخوة ـ في مجتمع المسلمين، مطالب أن يعمل وقد ورد عن سيدنا عمر رضي الله عنه، أنه قال: **"إني أرى الرجل، ليس له عملٌ فيسقط من عيني ".**

وقد بينت لكم كثيراً، أن عمل الإنسان، حرفته، مهنته، إن كان في الأصل مشروعاً، ومارسه المسلم وفق المنهج الإلهي، لا كذب، ولا غش ولا خداع، ولا تدليس، ولا احتكار، ولا استغلال، ومارسه المسلم وفق منهج الله عز وجل، وابتغى به كفاية نفسه وأهله، وابتغى به خدمة المسلمين، ولم يصرفه هذا العمل لا عن فريضة دينية، ولا عن طلب علم، ولا عن عمل صالح.. حرفتك، مهنتك، وظيفتك عيادتك، مكتبك الهندسي، قاعة التدريس، انقلب إلى عبادة، لأن العبادة في فهمها العميق، هي أن تؤدي الواجب الذي أناطه بك، وهو أن تقوم بما وكلك الله به خير قيام.

لذلك إن كل إنسان في مجتمع المسلمين مطالب أن يعمل، مأمور أن يمشي في مناكب الأرض، وأن يأكل من رزق الله، قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥))

[سورة تبارك]

في آية أخرى يقول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥))

مهيأة لكسب الرزق.

(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥))

من تعريف العمل ـ أيها الإخوة ـ أنه ذلك المجهود، الذي يقوم به الإنسان، وحده أو مع غيره، لإنتاج سلعة، أو تقديم خدمة، إن هذا العمل هو السلاح الأول لمحاربة الفقر.

سيدنا عمر رضي الله عنه، كان في جولة تفقدية، فإذا بلدة إسلامية كل أصحاب النشاطات الاقتصادية ليسوا مسلمين، فتألم أشد الألم وعنفهم أشد التعنيف، وقال لهم: **كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم.**

والحقيقة الصارخة، أن العالم اليوم، منقسم لا إلى شرق وغرب، ولا إلى شمال وجنوب، ولا إلى يمين ويسار، ولكن العالم اليوم، منقسم إلى منتج ومستهلك، فالمنتج قوي متحكم، والمستهلك ضعيف مُستَحكم.

إن العمل هو السلاح الأول لمحاربة الفقر، هو السبب الأول في جلب المال، هو العنصر الأول في عمارة الأرض، التي استخلف الله فيها الإنسان، وأمره أن يعمرها، قال تعالى:

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١))

[سورة هود]

أمركم أن تُعمروها، لتتخذوا هذه العمارة مطيةً إلى الجنة.

المؤمن يبتغي وجه الله، يبتغي خدمة المسلمين، يبتغي تحقيق مصالحهم، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢))

[سورة المائدة]

قال علماء التفسير: البر والتقوى صلاح الدنيا وصلاح الآخرة.. صلاح الدنيا بتأمين بيوت للشباب المتزوجين، صلاح الدنيا بتأمين الأعمال..

يا فلان ـ سيدنا عمر ـ **ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب** قال: أقطع يده، قال: **إذاً فإن جاءني من رعيتك، من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه، لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفيناهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً**، إن من أجل الأعمال، أن توفر فرص العمل للشباب المسلم، هذا الشاب إن أمنت له عملاً فكر بالزواج، فكر في تأسيس أسرة، فكر بخطبة فتاة، دخل في عالم العمل، في عالم الإبداع، في عالم المنافسة الشريفة، في عالم اليد العليا، لا اليد السفلى، في عالم النشاط.. والعمل الشريف يشغله عن آلاف الانحرافات.

هناك حقائقُ أضعها بين أيديكم، إن الإسلام يفتح أبواب العمل أمام المسلم، على مصاريعها، ليختار منها، تؤهله كفايته، وخبرته وميوله ولا يُفرض عليه عمل معين، إلا إذا تعين ذلك لمصلحة المسلمين.

ولا يُسدُّ باب العمل في وجه مسلم، إلا إذا كان عملاً يحقق ضرراً للفرد أو المجتمع، وكل الأعمال المحرمة في الإسلام من هذا القبيل لا تستطيع أن تفتتح دكان لبيع الخمر، لا يسمح لك الإسلام أن تفتتح ملهى وتجلب الراقصات، لا يسمح لك الإسلام أن تتاجر بالطريق الربوي كل عمل مخالف لمنهج الله ممنوع في مجتمع المسلمين.

حقيقة ثانية:

لا يُحرم عامل في الإسلام جزاء عمله، وثمرة جهده، بل يُعطى أجره قبل أن يجفّ عرقه، الحديث الشريف، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفّ عَرَقُهُ ".))

[انفرد به ابن ماجه]

لو أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: أعطوا الأجير أجراً، أي أجر قد يكون هذا الأجر ليس في مستوى عمله، ولكن أعطوا الأجير أجره يعني الأجر الذي يستحقه، الأجر الذي يكافئ عمله، الأجر الذي يكافئ جهده، الأجر الذي يكافئ إتقانه.

((أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه.))

كما أمر الإسلام، أن يُعطى المسلم الأجر المناسب لجهده، وكفايته وخبرته النادرة، وحاجته، بالمعروف، فلا بخس ولا شطط، لأنه إذا أعطي أقل مما يستحق فقد ظلم، والظلم من أشد المحرمات في الإسلام كما أن المسلم لا يُحرم من التملك، إذا توافر معه من النقود ما يشتري عقاراً، أو منقولاً، يدر عليه دخلاً يرفع من مستوى معيشته، أو ينفقه في مرضه، أو شيخوخته، أو تنتفع به ذريته من بعده.

الإسلام وهو دين الله عز وجل، عالج كل البواعث النفسية والمعوقات العملية، التي تثبط الناس عن العمل، والسعي، والمشي في مناكب الأرض.

المرض الأول، المتفشي بين المسلمين، وهو محور هذه الخطبة وفي خطبة قادمة ـ إن شاء الله ـ أعالج بعض الأمراض الأخرى.

المرض الأول: أن من الناس من يعرض عن العمل والسعي بدعوى التوكل على الله، بشكل صريح أو مبطن، بشكل واضح، أو غير واضح، وانتظار الرزق من السماء، وهؤلاء قد خطأهم الإسلام، فإن التوكل على الله لا ينافي العمل واتخاذ الأسباب، وشعار المسلم، ما قاله:

((النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي ترك ناقته سائبة، وجاء النبي فسأله يا رسول الله: أأعقلها، أم أتوكل على الله (وكأنه تصور هذا الأعرابي أن عقلها يتناقض مع التوكل)، فقال عليه الصلاة والسلام اعقلها وتوكل "))

[انفرد به الترمذي]

هذا هو الموقف الكامل:

((اعقلها وتوكل.))

سيدنا عمر رأى جماعة يتكففون الناس في موسم الحج، قال من أنتم ؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: **كذبتم المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله ".**

قصة طريفة، تُروى عن شقيق البلخي أحد الصالحين، أنه ذهب في رحلة تجارية، يضرب في الأرض، ويبتغي من فضل الله، وقبل سفره ودع العالم الزاهد المعروف ابراهيم ابن الأدهم، ولم تمض أيام قليلة حتى عاد شقيق، ورآه إبراهيم في المسجد، فقال له متعجباً: ما الذي عجل في عودتك يا شقيق !..

قال: رأيت في سفري عجباً، وعدلت عن الرحلة.

قال إبراهيم: خيراً ماذا رأيت ؟

قال شقيق: أويت إلى مكان لأستريح فيه من وعثاء السفر، فوجت في هذا المكان طائراً كسيحاً أعمى، فعجبت، دخلت، قلت في نفسي كيف يعيش هذا الطائر في هذا المكان النائي وهو لا يُبصر ولا يتحرك، ولم ألبث قليلاً حتى أتى طائر آخر يحمل له الطعام في اليوم مرات، حتى يكتفي، فقلت في نفسي، إن الذي رزق هذا الطير في هذا المكان، قادر على أن يرزقني، وعدت من توي وألغيت رحلة التجارة.

فقال إبراهيم ابن الأدهم متعجباً: عجبت لك يا شقيق، لماذا رضيت لنفسك، أن تكون ذلك الطائر الكسيح الأعمى، الذي يعيش على معونة غيره، ولم ترض لها أن تكون ذلك الطائر الآخر الذي يسعى على نفسه وعلى غيره من العميان والمقعدين، لماذا اخترت هذا الطائر مثلاً أعلى لك، ولم تختر الطائر الثاني الذي يسعى ويكسب رزقه ويطعم هذا الطائر الأعمى الكفيف ؟.. أما علمت أن اليد العليا خير من اليد السفلى.

فقام شقيق، وقبل يده، وقال أنت أستاذنا يا إسحاق، وعاد إلى تجارته.

في حياة المؤمن ليس فيها إثنينية، فيها توحد، زواجه عبادة، عمله عبادة، تأديبه لأولاده عبادة، إكرامه للضيف عبادة، تعليمه عبادة، أن يدخل الفرح على قلب أهله وأولاده عبادة، أن يرتدي ثوباً يستر نفسه أمام الناس عبادة.

المؤمن الصادق الذي عرف الله عز وجل، وطبق منهجه، كل حركاته وسكناته، وكل نشاطاته ضمن عبادة ربه.

أيها الإخوة الكرام: استدل بعض القاعدين، بحديث النبي صلى الله عليه وسلم، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ أَنّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكّلُونَ عَلَى اللّهِ حَقّ تَوَكّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا".))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد]

لعل هذا الحديث في ظاهره يدعو إلى عدم السعي، لأنه لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً (جائعة) وتروح بطاناً، وفي اللغة غدا بمعنى ذهب إلى عمله قبل الشمس.

((" بورك لأمتي في بكورها "))

وراح عاد إلى بيته بعد الغروب.

الحديث نفسه يرد على هؤلاء، إن النبي عليه الصلاة والسلام، حينما قال تغدو خماصاً، وتروح بطاناً، لم يضمن لهم الرواح والطيور بطان ملأى البطون إلا بعد أن غدت ساعية على رزقها، غدت خرجت من عشها، خرجت من مكوناتها، تسعى وتطلب الرزق، عادت ملأى شبعانة، إذاً هي تحركت، ذهبت والله جل جلاله أكرمها ورزقها.

قيل لأحمل ابن حنبل رحمه الله تعالى، ما تقول فيمن جلس في بيته أو في المسجد وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي، فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((" جُعل رزقي تحت ظل رمحي ".))

[أخرجه البخاري وأحمد]

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يتَّجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، والقدوة بهم أليق.

شيء آخر في الموضوع: الله جل جلاله، وعز نواله، حين خلق الأرض بارك فيها، وقدر فيها أقواتها، وأودع في بطنها، وعلى ظهرها من البركات المذخورة، والخيرات المنشورة، ما يعيش به العباد في رغد، كما قال تعالى.

أقول لكم هذه الكلمة، إن رأيتم ربكم يقنن عليكم، هذا تقنين تأديب لا تقنين عجز، الإنسان يقنن تقنين عجز، لكن الله جل جلاله، يقنن تقنين تأديب، قال تعالى:

(وألَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١٦)

[سورة الجن]

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦))

[سورة الأعراف]

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْكِتَابِ آَمَنُوا وَاتّقَوْا لَكَفّرْنَا عَنْهُمْ سَيّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنّاتِ النّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنّهُمْ أَقَامُوا التّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦))

[سورة المائدة]

ونقيس على ذلك القرآن..

الله جل شأنه، حين خلق الأرض، بارك فيها، وقدر فيها أقواتها وأودع في بطنها وعلى ظهرها من البركات المذخورة، والخيرات المنشورة، ما يعيش به العباد في رغد كبير، قال تعالى:

(وَلَقَدْ مَكّنّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (١٠))

[سورة الأعراف]

ما معنى المعايش: أسباب لكسب الرزق.

آية ثانية:

(وَلَقَدْ كَرّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطّيّبَاتِ وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠))

[سورة الإسراء]

آية رابعة:

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسّمَاءَ بِنَاءً وَصَوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطّيّبَاتِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبّكُمْ فَتَبَارَكَ اللّهُ رَبّ الْعَالَمِينَ(٦٤))

[سورة غافر]

آية خامسة:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلّا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦))

[سورة هود]

آية سابعة:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنّ اللّهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ (٥٨))

[سورة الذاريات]

ولكنْ اقتضت سنة الله في الخلق، أن هذه الأرزاق التي ضمنها الله عز وجل، الرزق مضمون، الرزق مكفول، ولكنْ له ثمن هو السعي.

هذه الأرزاق التي ضمنها، والأقوات التي قدرها، والمعايش التي يسرها، لا تُنال إلا بجهد يبذل، وعمل يُؤدى، ولهذا رتب الله الأكل من رزقه، بعد المشي في مناكب أرضه، قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥))

فمن مشى أكل، ومن كان قادراً على أن يمشي ولم يمش، كان جديراً إن لا يأكل، هذه سنة الله في خلقه، أما من ليس قادراً على المشي يجب أن يُطعم.

روي عن سيدنا عمر، أنه رأى بعد الصلاة قوماً قابعين في المسجد بدعوى التوكل على الله، فعلاهم بدرته، وقال كلمته المشهورة: **لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة**، وأن الله عز وجل يقول:

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠))

[سورة الجمعة]

لذلك أنت إذا دخلت المسجد، هناك دعاء مأثور للنبي عليه الصلاة والسلام:

((" بِسْمِ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ "))

[أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة]

عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ "))

[وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد بهذا اللفظ]

يعني وأنت تصلي، وأنت تستمع إلى خطبة، إلى درس علم، ترجو الله عز وجل أن يتجلى عليك برحمته، لتكون هذه ضيافتك **" إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحُق على المزور أن يكرم الزائر "**

ضيافة الله لكم وأنتم في بيته أن يرحمكم، وكلمة يرحمكم واسعة جداً جداً، ابتدأ من السكينة، إلى الطمأنينة، إلى الرضى، إلى الشعور بالأمن، إلى الشعور بالتفوق، إلى الشعور بالفوز، إلى الشعور بالفلاح إلى التيسير، هم في مساجدهم والله في حوائجهم، إلى التوفيق، إلى التمكين، إلى الدعم، إلى السرور إلى السعادة، إلى زوجة صالحة إلى أولاد أبرار، إلى رزق وفير، هذه رحمة الله، شيء يحير، واسعة إلى درجة لا تعقل، كل شيء يلقي في قلبك السرور من رحمة الله عز وجل هذه

ضيافة الله لمن يأتيه في بيته، إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر..

أما إذا خرجت من المنزل ـ هناك دعاء آخر ـ **وَإِذَا خَرَجَ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ ".**

من الأدعية الجامعة المانعة للنبي عليه الصلاة والسلام الموجزة **" اللهم ارزقني طيباً، واستعملني صالحاً "**

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ".))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد والدارمي]

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: اطلعت على بحث علمي، متعلق بالكلاب، هذا البحث مصدر بثلاثة أحاديث شريفة، وردت بصحيح الجامع الصغير يقول عليه الصلاة والسلام عَنْ أَبِي الْحَكَمِ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنِ اتَّخَذَ كَلْبًا إِلَّا كَلْبَ زَرْعٍ أَوْ غَنَمٍ أَوْ صَيْدٍ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ ".))

[رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك والدارمي]

وفي حديث آخر:

((" قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنِ اقْتَنَى كَلْبًا لَا يُغْنِي عَنْهُ زَرْعًا وَلَا ضَرْعًا نَقَصَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ عَمَلِهِ قِيرَاطٌ ".))

[رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي وأحمد ومالك والدارمي]

وحديث ثالث: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ:

((إنّي لَمِمّنْ يَرْفَعُ أغْصَانَ الشّجَرَةِ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَهُوَ يَخْطُبُ فَقالَ لَوْلَا أنّ الْكِلَابَ أمّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأمَرْتُ بِقتْلِهَا فَاقْتُلُوا مِنْهَا كُلّ أسْوَدَ بَهِيمٍ وَمَا مِنْ أهْلِ بَيْتٍ يَرْتَبِطُونَ كَلْبًا إلّا نَقصَ مِنْ عَمَلِهِمْ كُلّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ إلّا كَلْبَ صَيْدٍ أوْ كَلْبَ حَرْثٍ أوْ كَلْبَ غَنَمٍ ".))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

مؤلِف هذا البحث العلمي، ذكر ستاً وثلاثين مرضاً، ليس لكم شأن أن تستمعوا إلى أسمائها باللغة العربية والأجنبية، هناك ست وثلاثون مرضاً يسبب العدوى بها الكلب.

اكتشف العلم، أن أمراضاً كثيرةً، وهي ست وثلاثون حتى الآن يكون الكلب هو واسطة نقل العوامل الممرضة لها، وليس من طريقة للتخلص من هذه الأمراض، إلا أن نتخلص من الكلاب نفسها، إلا أن هناك مرض خطير جداً، هو مرض الكلب الشهير، الذي يؤدي إلى التهاب دماغي مميت، خلال خمسة أيام من ظهور الأعراض، مرض قاتل والمدة سريعة جداً خمسة أيام.

طبعاً قد تنتقل بعض هذه الأمراض عن طريق الحيوانات الأخرى كالقطط مثلاً، ولكن النسبة، أكثر الحيوانات سبعة بالمائة ثلاثة خمسة إلا الكلب اثنتان وتسعون بالمائة.

في فرنسا وحدها سبعة ملايين كلب عام ١٩٧٦وعدد سكانها ٥٢ مليون العالم الغربي يعتني بالكلاب إلى درجة غير معقولة إطلاقاً، وكأنه استغنى عن الأولاد بالكلاب.

دخل رجل شرقي إلى مجمع للسلع، فلفت نظره المعلبات والأطعمة الشهية، والتي غُلفت بأغلفة راقية، فاشترى كميات كبيرة، وفي أثناء المحاسبة، سُئل: أعندك كلب، قال لا، قال: كل هذا طعام الكلاب.

لهذه الكلاب ذات العدد الكبير، في ظل الفراغ الروحي دور قذر في الشذوذ الجنسي في أوروبا وأمريكا.

هذا إسلامنا، وهذا ديننا، كلب صيد لا بأس، كلب حراسة لا بأس لغير هذه الأهداف الثلاثة لا يجوز أن تقتني كلباً.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٣٠ : الفقر٤ (معالجة الفقر في المجتمع الإسلامي عن طريق العمل٢).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٩-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: لازلنا في الموضوع المتسلسل كيف عالج الإسلام الفقر، وقد ورد في الأثر أنه كاد الفقر أن يكون كفراً.. والمال كما وصفه القرآن الكريم جعل الله به قوام الحياة.

في خطب سابقة بيّنت أن التكافل الأسَري، أحد الوسائل التي اعتمدها الإسلام في معالجة الفقر، ثم بيّنت أنّ التكافل الجغرافية (الجوار) أن يرعى كل جار جاره، وسيلة أخرى من وسائل معالجة الفقر في الإسلام ثم بيّنت في خطبة سابقة، أنّ العمل هو السلاح الأول الذي يُحارب به الفقر، وقد كان موضوع الخطبة، كيف أن توهم التوكل على الله بالمفهوم المغلوط الذي ما أراده الله عز وجل، قد يدفع الإنسان إلى الكسل وإلى ترك العمل، لكنّ التوكل محله القلب، والعمل محله الأعضاء.

نتابع هذا الموضوع وفق الخطبة السابقة، من الناس من يدع العمل بحجة التبتل لطاعة الله عز وجل، والانقطاع الكامل لعبادته التي من أجلها خُلق الإنسان، فلا يجوز في نظر هؤلاء أن يشتغل الإنسان بحظ نفسه عن عبادة ربه، ولابد عندهم من أداء حق من التفرغ التام لعبادته كالرهبان في الأديرة، والعبّاد في الخلوات.

هؤلاء الذين يفهمون هذا الفهم الخاطئ، ويظنون أن الإسلام قعود وكسل، هؤلاء غاب عنهم أنّه قال عليه الصلاة والسلام:

((" لا رهبانية في الإسلام ".))

وأن العمل الدنيوي، العمل الحرفي إذا أُتقن، وصحت فيه النية وروعيت فيه أحكام الإسلام، هو عبادة في نفسه، وأن سعي الإنسان على معاشه ؛ ليعفّ نفسه، أو يعول أهله، أو يُحسن إلى أرحامه وجيرانه، أو يعاون على عمل الخير، ونصرة الحق، إنما ذلك ضرب من الجهاد في سبيل الله، ولهذا قرن الله بينهما في قوله تعالى:

(إِنّ رَبّكَ يَعْلَمُ أَنّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الّذِينَ مَعَكَ وَاللّهُ يُقَدّرُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللّهِ وَآَخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصّلَاةَ وَآَتُوا الزّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً)

[سورة المزمل آية ٢٠]

رفع الله جل جلاله، طلب الكسب الحلال إلى مستوى الجهاد في سبيل الله.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: **" ما من حال يأتيني عليها الموت بعد الجهاد في سبيل الله، أحب إلي من أن يأتيني وأنا ألتمس من فضل الله ثم تلا هذه الآية:**

(وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآَخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

النبي عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى، وهو المشرع الذي أمرنا الله أن نأخذ منه، وأن ندع ما نهانا عنه، يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي بإسناد حسن، حاثّاً على العمل ولاسيما التجارة، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((قَالَ التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ".))

[أخرجه الترمذي والدارمي]

لماذا ؟.. لأنه يحقق للناس مصالحهم، ويؤمِّن لهم حاجاتهم، بطريقة شريفة، وبصدق شديد، وبإخلاص تام، وبإتقان، وبمعاملة طيبة، فهو داعية إلى الله من دون أن يدري، لذلك يُعد أكبر قطر إسلامي على الإطلاق (إندونيسيا) الذي يعد مائة وخمسين مليون، هذا القطر الإسلامي وصلت إليه الدعوة عن طريق التجّار فقط، ولم يُفتح بالسيف، لذلك **التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يوم القيامة**، إنه بعمله، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((" استقيموا يُستقم بكم ".))

استقامتك دعوة، عفتك دعوة، صدقك دعوة، أمانتك دعوة إخلاصك دعوة وأنت ساكت، هذا الذي لا يُحسن أن ينطق بكلام فصيح، ولا أن يأتي بالحجج الدامغة، ولا أن يأتي بأقوال متعددة يؤكد بها رأيه، هذا الذي لا يُحسن أن يقول هو داعية من دون أن يدري.

صعد أحد الخلفاء الراشدين وأظنه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه المنبر، فأُرتج عليه، فقال: **" أنتم إلى إمام عامل، أحوج منكم إلى إمام قائل ".**

لغة العمل أبلغ من لغة القول..

ورد في الأثر:

((" أن خير الكسب كسب التجّار، الذين إذا حدّثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطري، وإذا كان لهم لم يعسِّروا، وإذا كان عليهم لم يُمطلوا".))

فالنبي عليه الصلاة والسلام حثنا على الكسب المشروع، وعلى التجارة الصادقة، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ قَالَ أبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ".))

[أخرجه الترمذي والدارمي]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد والدارمي]

صدقة.. مادام قد زرع زرعاً عمّ الرخاء، وتوافرت حاجات الناس ورخصت الأسعار، ومن كان في خدمة المسلمين كان في عبادة عالية جداً.

وورد في الجامع الصغير، ورمز له السيوطي بعلامة الصحة: **" من بات كالاً في طلب الحلال بات مغفوراً له ".**

وسئل إبراهيم النخعي أحد أئمة التابعين، عن التاجر الصدوق أهو أحبُّ إليك، أم المتفرغ للعبادة، فقال: **" التاجر الصدوق أحبُّ إلي ؛ هو في جهاد، يأتيه الشيطان عن طريق المكيال والميزان، ومن قِبَل الأخذ والعطاء فيجاهده ".**

والنبي عليه الصلاة والسلام، حثّ على الصناعات والحرف، فقال فيما رواه الإمام البخاري، عَن الْمِقْدَامِ رَضِي اللَّه عَنْه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ".))

[رواه البخاري وابن ماجة وأحمد]

وكان الإمام الشعراني، وهو من دعاة التصوف، كان يفضل الصناع على العبّاد، لأن نفع العبادة مقصور على صاحبها، وأما نفع أصحاب الحرف، فنفعها لعامة الناس، بشرط أن ينوي بها صاحبها خدمة المسلمين، وتحقيق مصالحهم، والتخفيف من أعبائهم وتبعاتهم، وكان يقول: **" ما أجمل أن يجعل الخياط إبرته سبحته، وأن يجعل النجار منشاره سبحته "**

هؤلاء الذين يدعون العمل، بدعوى أنهم منقطعون للعبادة، عملهم وفق منهج الله، وفي طاعة الله، ولخدمة المسلمين، وإتقانهم صنعتهم وتحرير نواياهم، وطلب خدمة الآخرين، هذه عبادة من أجلّ العبادات.

ومن الناس من يدع العمل استهانة به، واحتقاراً له، كما كان الحال عند العرب في الجاهلية، الذي يحتقرون الحرف والعمل اليدوي، حتى أن أحد الشعراء كان يهجو غريمه بأن أحد أجداده كان حداداً، فكأنما وضع بهذا وصمة عار على جبين القبيلة إلى الأبد، وربما يُفضل أحده سؤال الناس

عن أن يعمل بيده عملاً، يعدُّه غير لائق به، فلما جاء الإسلام بدل هذه المفاهيم المغلوطة، ورفع من قيمة العمل.

سيدنا ابن مسعود كان يعمل بيده، وكانت يده خشنة من عمله القاسي رفعها النبي يوماً أمام أصحابه وقال:

((" إن هذه اليد يحبها الله ورسوله ".))

وكان عمر بن الخطاب يقول، **إني لأرى الرجل لا عمل له فيسقط من عيني،** فلما جاء الإسلام ـ أيها الإخوة ـ بدل هذه المفاهيم المغلوطة، ورفع من قيمة العلم أياً كان نوعه، وحقّر من شأن البطالة، والاتكال على الآخرين، وبين لهم أن كسب الحلال عمل شريف، وأن نظرة بعضهم إلى العمل، تلك النظرة التي تنطوي على الاستهانة، هذه نظرة خاطئة، ولا أصل لها.

روى الإمام البخاري عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلًا فَيَأْخُذَ حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ فَيَبِيعَ فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهِ وَجْهَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أُعْطِيَ أَمْ مُنِعَ ".))

[أخرجه البخاري وابن ماجة وأحمد]

بين النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الحديث الشريف ؛ أن حرفة الاحتطاب، على ما فيها من مشقة، وعلى ما يَحوطها من نظرات الازدراء، وعلى ما يُرجى منها من ربح ضئيل، خير ألف مرة من البطالة وتكفف الناس.

يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ فَقَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ".))

[أخرجه البخاري وابن ماجة]

سيد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم المبعوث رحمة للعالمين، عمل عملاً لا يرضاه الآن أحد أن يعمل به، عمل راعي غنم.

وعَنِ الْمِقْدَامِ رَضِي اللَّه عَنْه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ".))

[أخرجه البخاري وابن ماجة وأحمد]

((" مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ".))

وذكر الحاكم، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن سيدنا داود كان زرّاداً، (يصنع الزرد والدروع) وكان آدم حرّاثاً، وكان نوح نجّاراً وكان إدريس خياطاً، وكان موسى راعياً، هذه الحرف جزء من العبادة.

أيها الإخوة الكرام: لا عجب إن رأينا أئمة الإسلام، وأكابر علمائه، الذين سارت بذكرهم الركبان، والذين خلدتهم آثارهم، ومؤلفاتهم، كانوا يُنسبون لا إلى آبائهم وأجدادهم، بل إلى حرفهم وصناعاتهم، التي كانوا يتعيشون منها، ولم يجدوا هم، كما لم يجد مجتمعهم الإسلامي على مر العصور أية غضاضة في ذلك، أو أية مهانة في الانتساب إلى تلك الحرف والصناعات، (البزّاز، الجصاص، الخواص، الخياط، الصبان القطان) كلهم من كبار العلماء، الذين سارت بذكرهم الركبان، وخلدتهم مؤلفاتهم، وإنتاجهم العلمي.

ولعل من السلف الصالح من علماء دمشق، من كان نجاراً، ومن كان قصّاباً وهو من أئمة القرّاء، ومن كان حداداً، هذا شيء يرفع من قيمة العلم، بل إن الإمام أبا حنيفة النعمان كان تاجر أقمشة.
من الناس أيضاً من يدع العمل والسعي في مناكب، الأرض اعتماداً على مساعدات الآخرين، لكنْ يجب أن أوضح لكم، أن طلاّب العلم الذين يتعلمون ليعلموا، يجتهدون ليكونوا دعاةً إلى الله، طلاّب العلم مستثنون من هذا الموضوع، لأن الذي يطلب العلم، يطلبه لنفع الآخرين ويجب أن يُفرّغ، يجب أن تُؤمن له حاجاته، ولعل من أعظم الأعمال الصالحة، أن تُفرّغ طالب العلم ليتعلم العلم المتين، وليكون حصناً للمسلمين، هذا الإنسان الذي يطلب العلم، مستثنى من هذا الموضوع وهذا كلام دقيق..
شكا رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام شريكه طالب العلم، شكا إليه قلة جهده، فقال عليه الصلاة والسلام:

((" لعلك تُرزق به ".))

وكنت أقول دائماً يا أيها الإخوة الذين أنعم الله عليهم بالمال ؛ إما أن تكون داعية إلى الله، وإما أن تتبنى داعية، هذا الذي جاء بلدنا يطلب العلم، لو فرّغته، لو أكرمته، لو هيأت له مسكناً، لو هيأت له راتباً شهرياً، لو أرحته من طلب الرزق، ليتفرغ كلياً لطلب العلم، أنت شريكه في الأجر، وكل من اهتدى عن طريقه، في صحيفتك أيها الأخ الكريم، فهذا الأمر مستثنى من هذا الموضوع، أنا أتحدث عن أولئك الذين لا يعملون، كما أنهم لا يطلبون العلم، رأوا أن في أخذ أموال الناس راحة لهم، لماذا يعملون ؟ هناك من يعطيهم، هناك من يدع العمل والسعي في مناكب الأرض اعتماداً على مساعدات الآخرين، التي تُجبى إليهم، من دون تعب ولا عناء، وفي سبيل ذلك، يستبيح مسألة الغير

ومد يده إليه، على ما فيها من ذل النفس، وإراقة ماء الوجه، هذا مع أنه قوي البنية، سليم الأعضاء، قادر على الكسب، كأكثر الذي نشاهدهم من المتسولين، وكأكثر الذين نجدهم عند الملوك والأثرياء يتضعضعون أمامهم، ليكسبوا من أموالهم، من المستجدين، والمدّاحين وطالبي المنح والعطايا، هؤلاء قد بين الإسلام أنهم ليسوا أهلاً للزكاة ولا لغيرها من الصدقات، ما داموا أقوياء مكتسبين، أو مستطيعين للكسب.

((" لاحظ للزكاة والصدقة فيها لغني ولا لقوي مكتسب "))

هكذا قال عليه الصلاة والسلام، فيما رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي..

وفي حديث آخر عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ ".))

المرة: هي القوة، والسوي: سوي الأعضاء

[أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد والدرامي]

لذلك لم يجعل ـ النبي عليه الصلاة والسلام ـ المتبطل الكسول، لم يجعل له حقاً من صدقات المسلمين، وذلك ليدفع القادرين إلى الكسب والعمل الشريف.

روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((" مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد]

وروى ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه:

(("عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ ".))

[أخرجه مسلم وابن ماجة وأحمد]

معنى سأل الناس تكثراً: أي ليكثر ماله، لا لضرورة ألجأته إلى السؤال.

أقول لكم هذه الحقيقة: إنسان طيب كريم عزيز النفس، مرضت زوجته يحتاج إلى استعمال جهاز كلفة هذا الجهاز خمسة آلاف ليرة، لا يملك هذا المبلغ، فرفض المعالجة، بعد حين، تبين أن زوجته، مصابة بمرض خبيث وصل إلى الكبد، لو أنه عالجها في الوقت المناسب، وكان في الأمعاء ـ استئصال الأمعاء سهل جداً، ويبقى المرض في مكانه ـ هذا الإنسان يجب أن يسأل، فإن لم يسأل فقد أثم، لأن المسلمون متضامنون متعاونون أقول هذا لا لأجعل الذين يحتاجون إلى المال حاجة قصوى وبالغة، يكفون عن السؤال، إنهم خاطئون، هذا الإنسان باختياره، نقل زوجته من مرض يمكن أن يُعالج، إلى مرض لا يمكن أن يُعالج بدعوى أنه عفيف ولا يسأل أحداً، لا.. إن كنت في ضرورة،

فينبغي أن تسأل وأنت مستثنى من هذا الموضوع، إن كنت في ضرورة ملحة، وحاجة ملجئة..
" مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا (ليتسع في بيته، ليشتري الأثاث، هذا الذي نهى عنه النبي) فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ ".

تكثراً ليكثر ماله، لا لضرورة ألجأته إلى السؤال، والله تقطع القلب على هذه المرأة، من أجل خمسة آلاف انتقل مرضها من مرض يُعالج إلى مرض لا يُعالج، يجب أن يسأل زوجها إخوته المؤمنين الموسرين يجب أن يسأل وهو عزيز النفس ولا شيء عليه، وهناك آلاف المؤمنين الصادقين، يدفعون مئات الألوف لإنقاذ حياة إنسان، فهذا ليس تعففاً وليس عدةً بل هو اجتهاد خاطئ.

أيها الإخوة الكرام، في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ وَالْمَسْأَلَةَ:

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى فَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وأحمد ومالك والدارمي]

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَتَصَدَّقَ بِهِ وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ مِنَ النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له والترمذي والنسائي وأحمد ومالك]

من الأدعية التي أدعو بها على المنبر: اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسأل شرار خلقك ونُبتلى بحمد من أعطى وذم من منع، وأنت وحدك من فوقهم ولي العطاء وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء.

روى الإمام أحمد عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ سَأَلَ مَسْأَلَةً وَهُوَ عَنْهَا غَنِيٌّ كَانَتْ شَيْنًا فِي وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".))

[أخرجه أحمد والدارمي]

وروي أيضاً من حديث عبد الرحمن بن عوف:

((".. وَلَا يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ ".))

[انفرد به أحمد]

يعني الإنسان إذا كان مخيراً بين أن يعمل، وبين أن يسأل ليعمل، أما إذا كان لا يستطيع أن يعمل فليسأل، ولا شيء عليه، وإن لم يسأل فهو آثم أما إذا كان بإمكانه أن يعمل، وترك العمل عندئذ يأثم.

((روى النسائي عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو أَنّ رَجُلًا أَتَى النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَسَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ فَلَمّا وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى أُسْكُفّةِ الْبَابِ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِي الْمَسْأَلَةِ مَا مَشَى أَحَدٌ إِلَى أَحَدٍ يَسْأَلُهُ شَيْئًا".))

[انفرد به النسائي]

القصة التي تعرفونها جميعاً، أن الصديق رضي الله عنه كان يركب ناقته وقد وقع زمامها على الأرض، فنزل من على ظهر الناقة ـ وليس من السهل أن تنزل عن ظهر الناقة ـ ليتناول زمام ناقته، وحوله أصحابه فتعجبوا، نكفيك ذلك !! قال سمعت حبيب رسول الله يقول: **لا تسألوا الناس شيئاً "**

لا تسألن بني آدم حاجــة وسال الذي أبوابه لا تُحجبُ
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضب

***

أيها الإخوة الكرام، روى أبو داود والنسائي والترمذي عَنْ سَمُرَةَ عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((الْمَسَائِلُ كُدُوحٌ يَكْدَحُ بِهَا الرّجُلُ وَجْهَهُ فَمَنْ شَاءَ أَبْقَى عَلَى وَجْهِهِ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَ إِلّا أَنْ يَسْأَلَ الرّجُلُ ذَا سُلْطَانٍ (لأن الله وكله بالرعية، وكله بالإنفاق عليه وكله بمعالجة مرضاهم، وكله بتأمين الأعمال لهم، أولي الأمر يُسألون لأنها هذه مهمتهم) إلا أَنْ يَسْأَلَ الرّجُلُ ذَا سُلْطَان أَوْ فِي أَمْرٍ لَا يَجِدُ مِنْهُ بُدًّا ".))

ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ يرى أن مسألة الناس ظلم في حق الربوبية وظلم في حق المسؤول، وظلم في حق السائل، أما التفاصيل فهي كما يلي: أما أنها ظلم في حق الربوبية، فلأن السائل بذل سؤاله وعرض فقره وعرض ذله، واستعطاءه لغير الله، وهذا نوع من العبودية وضعها في غير موضعها، وأنزلها بغير أهلها، وظلم توحيده وإخلاصه.

وأما أن السؤال ظلم في حق المسؤول، فقد عرضه لمشقة البذل، أو للوم المنع، فإن أعطاه أعطاه على كراهة، وإن منعه منعه على استحياء وإغماط فقد ظلم المسؤول.

وأما أنها ظلم في حق السائل فهو ظلمه لنفسه، فلأنه أراق ماء وجهه وذله لغير خالقه، وأنزل نفسه أدنى المنزلتين، ورضي لها بأبخس الحالين ورضي بإسقاط شرف نفسه، وعزة تعففه، وباع صبره ورضاه وتوكله واستغناءه عن الناس بسؤالهم، وهذا عين ظلمه لنفسه.

أيها الإخوة الكرام: هذه الخطبة معالجة لمشكلة الفقر: **" كاد الفقر أن يكون** كفراً ".

والمال الذي وصفه القرآن الكريم، بأنه قوام الحياة، يجب أن نكسبه من طريق مشروع، ويجب أن نسأل الله من فضله، ويجب أن لا نقعد وأن نعمل، لأن المنهج الإلهي، ليس فيه ازدواج، إن عملت العمل المشروع وسلكت به الطرق المشروعة، ونويت به خدمة نفسك وكفاية أهلك، وخدمة المسلمين، ولم يمتعك من طاعة ولا طلب علم ولا بذل معروف، انقلب العمل إلى عبادة، فلو أن كل المسلمين فهموا العمل هذا الفهم لكنا في حال غير هذا الحال.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام:

((ورد في سنن أبي داود عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَسْأَلُهُ (قصة دقيقة جداً، ويُستنبط منها أحكام فقهية كثيرة) فَقَالَ أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ قَالَ بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ (فقط ليس في بيته إلا حلس وقعب) قَالَ ائْتِنِي بِهِمَا قَالَ فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِيَدِهِ وَقَالَ مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ قَالَ مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا (استنبط العلماء أنه يجوز أن تبيع حاجة بمزايدة علنية، أو أن تشتري بمناقصة، وكلاهما جائز)قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيّ وَقَالَ اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ (لماذا ؟.. الإنسان لا يستطيع أن يعمل إذا كان أهله في ضائقة، إذا كان مضطرباً عليهم، إذا كان مشوشاً على وضعهم فمن أجل أن تُبدع، أو أن تنجز، أو أن تعمل، لابد من أن تكون مطمئناً على أهلك) وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدّ فِيهِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ عُودًا بِيَدِهِ ثُمّ قَالَ لَهُ اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلَا أَرَيَنّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا فَذَهَبَ الرّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلّا لِثَلَاثَةٍ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ ".))

[أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة]

معنى ذلك أن الإنسان حينما يسأل الله من فضله، وحينما يرجوه في قيام الليل، **" إذا كان ثلث الليل الأخير، نزل ربكم إلى السماء الدنيا فيقول هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من طالب حاجة فأقضيها له، هل من تائب فأتوب عليه، حتى ينفجر الفجر ".**

فلو سألت الله مباشرةً أن يرزقك طيباً وأن يستعملك صالحاً، الله جل جلاله أجل وأكرم من أن يخيب ظنك **" أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما يشاء ".**

شاب في مقتبل العمر، لو سأل الله من فضله، لو سأل الله عملاً يدر عليه بعض المال يتزوج به، لو سأل الله حرفة، ولو سأل الله وظيفةً لو سأل الله عملاً يرتزق منه، الله يسمعه، ويستجيب له، ويكرمه بشرط أن يوحده، وأن يقطع أمله من الناس.

فكل إنسان يشكو من ضيق ذات يده، عليه أن يراجع نفسه، عليه أن يستقيم مع ربه، وعليه أن يسأل الله وحده، فالله جل جلاله لا يخيب ظنه، **ويُعاب أن تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم.**

أيها الإخوة الكرام، ما أشد حاجة المسلمين إلى العمل المتقن، الذي تعمر به أرضهم وترقى به همتهم، ويصلحون من شأن دنياهم، وفي الدعاء الصحيح:

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

أيها الإخوة الكرام، السلاح الأول في معالجة الفقر هو الزكاة، هذا موضوع آخر يُترك إلى شهر رمضان إن شاء الله تعالى.

فأول معالجة للفقر التضامن الأسري، وثاني معالجة تضامن الجوار وثالث معالجة العمل، ورابع معاجلة أداء الزكاة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه..

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٣١ : الضرورات تبيح المحظورات١.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٩-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

ما من موضوع في دنيا المسلمين ساح وماع، وتجاذبته الأهواء كموضوع الضرورة الشرعية، فما أكثر الذين لا يؤدون الفرائض في أوقاتها بسبب وجودهم في حفل عام، أو اجتماع خاص، ويزعمون أنها ضرورة شرعية، وما أكثر من يقدمون المشروبات المحرمة لضيوفهم التجاريين، بدعوى أن الضرورات تبيح المحظورات، وهناك من يستبيح المعاصي والآثام بسبب وجودهم في بلاد غربية، أو بعدهم عن زوجاتهم هناك من يروجون بضاعتهم بإعلانات محرمة، ويقولون الضرورات تبيح المحظورات، قد يبادر بعض التجار إلى التعامل الربوي، ويقولون الضرورات تبيح المحظورات، وقد يلجأ بعض الناس إلى اقتراض بفائدة ربوية ويقولون، ويقولون الضرورات تبيح المحظورات، ما من قاعدة دارت على ألسنة الناس، وتقاذفتها الأهواء، ولعبت بها المصالح كهذه القاعدة.

يا أيها الإخوة الكرام إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم !

" ابن عمر دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا ".

كلمة حق ؛ الضرورات تبيح المحظورات، ولكن ما حدود هذه الضرورات، ما ضوابط هذه الضرورات، ما ضوابط المصالح التي من أجلها تباح المحظورات، هذا أيها الإخوة موضوع سلسلة من الخطب أبدأها بهذه الخطبة إن شاء الله تعالى.

أيها الإخوة الكرام: من المسلمات في دين الإسلام أن الله وحده هو المشرع، هو وحده مصدر الشرائع والأحكام، سواء أكانت طريقة معرفة الحكم هو النص الصريح المباشر في القرآن والسنة أم اجتهاد المجتهدين، وما غير المجتهد من كبار الفقهاء إلا إبراز حكم الله والكشف عنها بطريق الاستنباط ضمن مقاصد الشريعة وبحسب روح النص.

أيها الإخوة الكرام: الله جل جلاله كتب على نفسه الرحمة، فلا يشرع لنا إلا ما يكون متفقاً مع الحكمة، ومحققاً للمصلحة، فما أباحه فهو نافع طيب، وما حرمه فهو ضار خبيث.

قال بعض العلماء: الشريعة مصلحة كلها، رحمة كلها، عدل كلها فأية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة، ومن الرحمة إلى ضدها، ومن العدل إلى الجور، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل.

أيها الإخوة الكرام: قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧))

[سورة الأنبياء]

النبي رحمة، والقرآن رحمة، وشريعة النبي عليه الصلاة والسلام رحمة، وقال تعالى:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧))

[سورة الأعراف]

يُستنبط من هذه النصوص القرآنية أن العلاقة بين الأمر ونتائجه، وبين النهي ونتائجه علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة، لأن المشرع هو الله، والله هو الخبير، وهو وحده يعلم ما ينفعنا وما يضرنا، وما يصلحنا وما يفسدنا.

أيها الإخوة الكرام: لو أنشأنا مدرسة، وهناك مربون كبار واختصاصيون في التربية والمناهج، فهل نَكِلُ أمرَ وضع النظام الداخلي للطلاب أنفسهم أم لهؤلاء الخبراء الكبار في التربية والتعليم. لو أوكلنا إلى الطلاب وضع النظام الداخلي لألغوا الامتحان، ولجعلوا معظم العام الدراسي عطلاً، ولجعلوا المواد الترفيهية هي الأصل، أم يجب أن نوكل أمر وضع البرامج والمناهج وقواعد النجاح والرسوب بيد الخبراء المربين.

أيها الإخوة الكرام: لا يمكن أن يقدر النفع والضر إلا الخالق، لا يمكن أ ن يقدر المصلحة والمفسدة إلا خالق الإنسان، لا يمكن أن يقدر الحسن والقبيح إلا خالق الإنسان لذلك المصلحة والمفسدة، والحسن والقبيح، وما هو جائز وما هو غير جائز، وما ينبغي وما لا ينبغي، والخير الشر، وهذا كله موكول إلى خالق البشر، ذلك أن الله سبحانه وتعالى بعلمه المطلق وخبرته المطلقة، ورحمته المطلقة يشرّع لهذا الإنسان ما يصلحه ويحرم عليه ما يفسده، قال تعالى:

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)

أيها الإخوة الكرام: إذا اعتقدنا اعتقاداً جازماً أن الله وحده هو المشرع، نرى أن شرعه ثابت وخالد، وفيه ضمان أكيد لمصلحة الفرد والجماعة، وتهيئة كاملة للإنسان لسلامته في الدنيا والآخرة، وسعادته في الدنيا والآخرة، أما إذا ارتبط تقدير النفع والضرر والخير والشر، والمصلحة والمفسدة والحسن والقبح إلى الإنسان، عندئذ تكون التشريعات عرضة للعبث والتلاعب والإخلال بالمصلحة العامة، لأن الإنسان يتخيل ويتوهم أن هذا نافع وهذا ضار، وهو كثيراً ما يتأثر بأهوائه، ومصالحه الخاصة وكثيراً ما يكون محصوراً في دائرة ضيقة، أو ناظراً من زاوية معينة، أو نظره قاصر غير شامل، مما يجعل تشريع الإنسان مطعوناً فيه بالنقص والانحراف، وهو معرض للتغيير

والتبديل، والتعديل والإلغاء، وقد يرى الإنسان ما هو ضار يراه نافعاً كالسرقة والخمر والزنا، وقد يرى ما هو نافع يراه ضاراً، كدفع الزكاة وأداء العبادات.

أيها الإخوة الكرام: بشكل مختصر الإنسان ليس مؤهلاً أن يشرع، لأن إدراكه ناقص وأهواءه فعالة في نوع قراره، لذلك ينبغي أن نستسلم إلى الله عز وجل فيما أمر وفيما عنه نهى وزجر، وينبغي أن نستسلم لرسوله صلى الله عليه وسلم المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، والذي أمرنا أن نأخذ منه وأن ندع ما نهانا عنه، وأن نجعله قدوةً وأسوةً لنا.

أيها الإخوة الكرام:

التشريعات الأرضية أحياناً في بعض البلاد تقر الشيء المحرم إذا ارتضاه المجتمع، وهذا ما حدث في بريطانيا، حيث أُقر في مجلس العموم البريطاني قانون يبيح اللواط.

إذا جعلنا المجتمع مصدراً للتشريع فهي طامة كبرى، فالمجتمع قد يقر الوحل الذي يتخبط فيه. والتشريعات الوضعية في بعض البلدان تحمي الغاصب إذا استمر وضع يده على ما اغتصب مدةً معينة، يصبح هذا الشيء المغتصب مشروعاً له.

والتشريعات الوضعية في بعض البلدان تسقط الحق إذا سها صاحبه عن المطالبة به، وهذا ما يُسمى بالتقادم المسقط.

أيها الإخوة الكرام: أحياناً التشريعات الوضعية يهمها الدخل الكبير، ففي بعض البلاد الإسلامية شمالاً، مُنح أرفع وسام لامرأة تدير أكبر شبكة دعارة في بلادها، وعدوا هذه المرأة قد خدمت الدولة، فقدمت أكبر دخل في ميزانيتها، هذه التشريعات الوضعية.

في بعض البلدان ؛ حينما يطلق الرجل زوجته يجب أن يعطيها نصف ما يملك **!**.. بارت سوق الزواج، وراجت سوق السفاح.

حدثني بعض الأصدقاء، ممن زوج ابنته لتلك البلاد في شمال إفريقيا أن والد الفتاة يقدم لخاطب ابنته سند أمانة بالملايين، من أجل أن يقبل أن يخطب ابنته، فإن تذرعت الزوجة بنصف ما تملك، تذرع أنت بسند الأمانة **!**.. توقف سوق الزواج.

وفي بعض البلدان ألزمت الأسرة أن تُنجب ولداً واحداً، وهم في تلك البلاد يحبون الذكور، فإذا أنجبت زوجاتهم بنتاً خنقوها، فإذا أنجبت ذكراً سجلوه كطفل وحيد، في عام ألفين هناك خمسين مليون نقص من الفتيات شُكلت الآن عصابات لخطف الفتيات في سن الزواج.

الإنسان حينما يشرع، هو أولاً يجهل خبايا النفس البشرية، ثانياً يعيش في أفق ضيق، ثالثاً ينظر من زاوية محددة، رابعاً، تتلاعب أهواؤه ومصالحه، يأتي تشريعه ناقصاً، يأتي تشريعه مضحكاً أحياناً، يأتي متناقضاً، هذا التشريع يحتاج إلى تعديل وإلى تعديل وإلى تعديل ثم إلى إلغاء !.

أما حينما يشرع خالق الإنسان العليم الخبير، تشريعاً أصيلاً دائماً مستمراً لأنه متوافق مع خبيئة النفس.

أيها الإخوة الكرام: شيء آخر من المسلمات في ديننا أن المباح هو ما أذن الشارع في فعله أو خير بين فعله وتركه، دون أن يتعلق بفعله ولا بتركه مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب، والأصل في الأشياء الإباحة، ما لم يأت نص يحرم بعضها، والأصل في العبادات الحظر ما لم يأت نص يثبت هذه العبادة.. هذه أيضاً من الحقائق المسلم بها.

أيها الإخوة الكرام: الحرام هو ما طلب الشرع الحنيف تركه حتماً، بحيث يذم فاعله ويعاقب على ارتكابه في الآخرة، وقد ينضم إليها عقاب في الدنيا، مثل أكل أموال الناس بالباطل، وقتل النفس بغير حق، وإيذاء الناس بالقول أو العمل.

والحرام ـ أيها الإخوة ـ يتناول كل ما يضر الجسم والعقل، كاقتراف الفواحش، وانتهاك الأعراض، فالحرام يتناول الأقوال كالغيبة والنميمة ويتناول الأعمال القلبية كالحقد والحسد، والفرح بشيوع الفاحشة بين المؤمنين، ويتناول أفعال الجوارح، كالسرقة وشرب الخمر والزنا.

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣))

[سورة الأعراف]

وأشد شيء حرمه الله:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣))

أن تقول الضرورات تبيح المحظورات، وتستعمل هذه القاعدة الأصولية في غير ما أراد الله عز وجل، تستعملها لأكل المال الحرام، تستعملها لترك الفرائض العبادية، تستعملها، لانتهاك المحرمات، تستعملها لزيادة الثروات، وتقول دائماً: الضرورات تبيح المحظورات !.

ما من قاعدة أصولية راجت بين الناس، وساخت وسالت وماعت وساحت حتى دخلت في كل قالب كهذه القاعدة، يقولها الإنسان عشرات المرات في اليوم الواحد، وكأن هذه القاعدة أحلت له كل شيء، تحلل من كل شيء، وهو يقول الضرورات تبيح المحظورات، وما أروع سيدنا علي حينما قال هذه كلمة حق (ليست هذه طبعاً) هذه كلمة حق أريد بها باطل.

أيها الإخوة الكرام:

الحرام نوعان، حرام لذاته، وحرام لغيره، فالحرام لذاته كأكل لحم الخنزير، وشرب الخمر والزنا، والحرام لغيره، أن تصليَ بثوب مغصوب، أو أن تأكل طعاماً حلالاً دون أن تدفع الثمن، هناك أمثلة وشواهد كثيرة جداً لا مجال إلى ذكرها كلها.

أيها الإخوة الكرام:الحرام له وسائل، وسائله محرمة أيضاً، فمن المبادئ المقررة في الشريعة الإسلامية، أن وسيلة المحرم حرام، وأن وسيلة الواجب واجبة بناءً على القاعدة الأصولية: **" ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ".**

الزنا حرام ـ شيء بديهي ـ الخلوة قد تفضي إلى الزنا فهي حرام إطلاق البصر في المحرمات، العين بريد الزنا، إطلاق البصر حرام أن تصحب الأراذل حرام، أن تخلو بامرأة أجنبية حرام، أن ترتاد الأماكن التي لا ترضي الله حرام، أن تفعل بعض المنكرات التي توصل إلى الفاحشة حرام، فالحرام حرام، والوسيلة إليه حرام، هذا شيء بديهي في قواعد الحرام والحلال.

القاضي حينما يقضي بعلمه يُحاسب عند الله، لأنه إذا قضى بعلمه قد يظهر المتقاضيين في حكمه، لا يقضي القاضي بعلمه، أن يقضي بعلمه وسيلة هذا الحكم الظالم حرام أيضاً.

بيع السلاح في الفتنة حرام، لأنه يؤدي إلى مزيد من الشرور، تحريم كل التسهيلات المؤدية إلى المعاصي، فالخمرة حرام، وبيعها حرام ونقلها حرام، وعصرها حرام، والإعلان عنها حرام، وأي شيء يتصل بها حرام، وسيلة الحرام محرمة.

العز بن عبد السلام من العلماء الأجلاء، قال: من وسائل أحكام المقاصد والوسيلة إلى أفضل المقاصد هي أفضل الوسائل، والوسيلة إلى أرذل المقاصد هي أرذل الوسائل.

فالذي يساهم في بناء ملهى، يساهم في تمديداته، في مرافقه، في تزيينه، ماذا يجري في هذا الملهى، يجري الفعل الحرام، فكل من ساعد على إنشائه تناله الحرمة.

هذه الحقيقة الثانية..

الحقيقة الأولى الحرام ما ألزمك الشرع بتركه على وجه قطعي والحقيقة الثانية أن وسيلة الحرام محرمة، والحقيقة الثالثة عموم الحرام.

فالحرام يتصف بصفة الاطراد والشمول والتعميم ـ دققوا في هذا الكلام ـ لا فرق بين شخص وشخص، ولا فئة و فئة، ولا مكان ومكان ولا قوي وضعيف، ولا ما كان في بلاد المسلمين، أو في غير بلاد المسلمين الحرام يتصف بالاطراد والشمول والعموم، قال الإمام الشافعي: **الحلال في دار**

الإسلام حلال في بلاد الكفر، والحرام في دار الإسلام حرام في دار الكفر، فمن أصاب حراماً حده الله على ما شاء منه ولا تضع عنه بلاد الكفر شيئاً.

أي ـ أيها الإخوة ـ ليس في الإسلام سوى ذات خاصة، وقف النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق وقف وقد دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وقف وهو في أعلى درجات القوة قال:

((" من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليقتد منه ولا يخشى الشحناء فإنها ليست من شأني ولا من طبيعتي ".))

أيها الإخوة الكرام: المرأة التي سرقت من بني مخزوم.

((فعَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدارمي]

هذا هو الدين، هذا هو الحرام، الحرام على كل الناس، وفي كل مكان وزمان، وفي كل ظرف وملابسة، ليس هناك امتيازات خاصة.

سيدنا سعد بن أبي وقاص، الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم:

((" هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ ".))

[انفرد به الترمذي وقال حديث حسن غريب]

والذي فداه بأمه وأبيه ؛

((" قال علي رضي الله عنه مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفَدِّي رَجُلًا بَعْدَ سَعْدٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد]

سعد بن أبي وقاص نفسه، خاطبه عمر رضي الله عنه، قال له **يا سعد، لا يغرنك أنك خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له، الخلق جميعاً في ذات الله سواء.**

الحرام حرام في كل ظرف وفي كل مناسبة.

أيها الإخوة الكرام: الاحتياط في الحرام

على المسلم أن يحتاط في أمر الحرام، فيجنب نفسه الوقوع فيه أو الانزلاق في مدارجه، وإذا التبس عليه الأمر اعتبره حراماً، أخذاً بمبدأ سد الذرائع، النعمان ابن البشير رضي الله عنه، قال ـ وهذا الحديث الشريف أصل في هذا الموضوع، يقول عليه الصلاة والسلام:

عَن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ:

((إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو داود وأحمد والدارمي]

أيها الإخوة الكرام: الضابط ـ هذا مصطلح فقهي، المعيار يعني المقياس ـ الضابط فيما يخفى من المصالح والمفاسد من غير تعبد، أنه مهما ظهرت المصلحة الخالية عن المفسدة تسعى في تحصيلها، ومهما ظهرت المفاسد الخالية عن المصالح، تسعى في درئها، وإن التبس علينا الأمر احتطنا للمصالح في تقدير وجودها، وفعلناها، واحتطنا للمفاسد بتقدير وجودها وتركناها.

يعني لو أردت أن تعلم بنتاً درساً خصوصياً في خلوة مع رجل احتمل المفسدة ودعها، ما دامت الخلوة المحرمة فلا مجال إلى فعلها إطلاقاً.

أيها الإخوة الكرام: عَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ قَالَ قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ ".))

[أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد والدارمي]

((إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء لكم غير نسيان رحمة بكم فلا تبحثوا عنها.))

أيها الإخوة الكرام: الحكمة من الأشياء التي أمرنا الله بها جلية واضحة، والحكمة من الأشياء التي نهانا الله عنها جلية واضحة، والحكمة من الأشياء التي تركها الشرع الحنيف، تركها بلا تحريم ولا تحليل، الحكمة من هذه الأشياء لا تقل عن الحكمة التي أمرنا الله بها ونهانا عنها، فلا تبحثوا عنها.

" ما أمرتكم فأطيعوه وما نهيتكم عنه فانتهوا والذي سكت عنه الشرع فلا تبحثوا عنه ".

وفي حديث آخر: عن أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ".))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد]

المنهيات لا يمكن أن تساوي عليها، أما أمرك أن تدفع الصدقة ادفع ما تستطيع، أمرك أن تفعل الخير، افعل منه ما تستطيع، أما الذي نهاك عنه لا يمكن أن تقول أنا أنتهي عنه ما أستطيع، لأن المستودع موضوع إحكامه له حالة واحدة، إما أنه محكم أو غير محكم.

أما إذا كان غير محكم، عدم الإحكام نسبي، أما الإحكام حدي لذلك الذي نهى عنه النبي لا يقبل الاختلاف أبداً، والذي أمر به النبي تطوعاً افعل منه ما تستطيع، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((" مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ.."))

أيها الإخوة الكرام: لهذا الموضوع تتمة إن شاء الله تعالى تكون في خطب قادمة فهو من اخطر الموضوعات المتعلقة بالحلال والحرام، الإنسان يظل في خير ما دام مستقيماً على أمر الله، يكون مستجاب الدعوة ما كان ماله حلالاً ويكون بعيداً عن أن يكون الله راضياً عنه ما دام عمله حراماً أو دخله حراماً، أما هذه القاعدة التي ساحت وماعت وسالت وجرت على كل لسان أن الضرورات تبيح المحظورات لها شروط دقيقة جداً، ولها ضوابط نبحث فيها إن شاء الله في الخطبة القادمة. أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: أخ كريم قد م لي قصاصة من جريدة صدرت في الواحد والعشرين من الشهر الثاني في عام ألف وتسعمائة وسبعة وتسعين، عنوان هذه القصاصة الأطباء يتخلون عن الفصل بين العلم والدين والصلاة جزء من العلاج في أمريكا.

في غرفة معاينة في المركز الطبي التابع لإحدى الجامعات الكبرى استمعت الطبيبة إلى مريضتها وهي في الرابعة والخمسين من العمر تعرضت مؤخراً لأزمة قلبية، وتشكو من ضيق دائم في التنفس، ولكن بعد المعاينة بدا واضحاً للطبيبة أن مريضتها لا تحتاج إلى دواء إطلاقاً وبدلاً من ذلك اقترحت الطبيبة علاجاً أثبت أن له قوة شفاء كبيرة في كثير من الدراسات، ما هو هذا الدواء،

اقترحت الطبيبة على مريضتها أن تصلي لله عز وجل، وعلى هذا تصافحت المرأتان وأحنتا رأسيهما وتمتمتا بالصلاة.

قال كان هذا اللقاء وهذا العلاج دليلاً على تغير بطيء وهادئ تشهده مهنة الطب، أن تصف لمريض أن يصلي، أن يتصل بالله، أن يتوب إلى الله، أن يصطلح مع الله، وهذا جزء من العلاج، هذا اكتشف لا من باب التعبد، ولا من باب تطبيق منهج الله، اكتشف من التجارب.

قال ولا أحد يعلم كم من الأطباء يأمرون مرضاهم بالصلاة، لكن عددا متزايدا من الأطباء في كل أنحاء الولايات المتحدة يتخلون عن الفصل التقليدي بين الدين والعلم، ويكتشفون الفوائد الشفائية بالصلاة.

وأظهر استطلاع أجري في تشرين الأول في اجتماع سنوي ضم أكثر من مائتي وخمسين طبيب، هذا الاستطلاع انتهى إلى أن تسعة وتسعين بالمائة من الأطباء وجدوا أن هناك فائدة ملموسة واضحة عند مرضاهم حينما يدعونهم إلى الصلاة.

أيها الإخوة الكرام: وفي جامعة أخرى حضر مؤتمراً أكثر من ألف شخص يعملون في مجال الصحة، هؤلاء أكدوا أيضاً العلاقة بين الشفاء وبين الصلاة.

وقال بعض الأطباء إن الرأي الغالب كان أن العلم لا يتناسب مع الدين أضاف قائلاً إن الشجاعة ما زالت غير كافية للاعتراف بقوة تأثير الصلاة وأن هناك فراغ فيما يتعلق بالعناية الكاملة لمرضانا.
هذا المريض حينما يصطلح مع الله، حينما يتصل بالله يقوى جهاز مناعته، وهذه حقيقة علمية.

جهاز المناعة هو الجهاز الرائع المدهش، الذي خلقه الله في الإنسان ليكافح المرض، ليكافح السرطان، ليكافح كل خلل في جسم الإنسان هذا الجهاز الخطير المبدع، هذا الجهاز يقوى في الاتصال بالله، يقوى بالحب، يقوى بحالة الأمن، يقوى بالطمأنينة، يقوى بالثقة.

وهذا الجهاز يضعف بالقلق، فالإيمان صحة، بالمعنى الدقيق للكلمة بالمعنى الاصطلاحي، الإيمان صحة.

أيها الإخوة الكرام: وقال طبيب آخر وهو مدير معهد وطني للأبحاث العلمية، قال نشعر أن إثارة موضوع الدين مع مرضانا هو ضد آداب المهنة، سابقاً !. ضد آداب المهنة أن توجه المريض إلى طاعة الله، أن توجه المريض إلى الاصطلاح مع الله، قال هذا ضد آداب المهنة سابقاً، أما الآن أصبح ضرورة تمليها طبيعة المهنة، وحاجة النفس.

أيها الإخوة الكرام: الدافع لاهتمام الأطباء بالدين هو أن المرضى يريدون من أطبائهم أخذ توجيهات روحية في المعالجة، ذلك أن بعض الإحصاءات الأخيرة تبين أن ألف إنسان سئلوا عن

علاقة الشفاء بالصلاة، أربعة وستون بالمائة من المشهورين في هذا الاستطلاع أكدوا أن هناك علاقة قوية بين الشفاء وبين التدين الصحيح أو الاتصال بالله عز وجل.

تقول بعض المريضات، تقول أنا أشعر بثقة لا حدود لها حينما أشعر أن الطبيب موصول بقوة عليا، وأنه يعطيني توجيهات من عند الخالق تطمئن له وترتاح له، وقد تعين هذه الفكرة جسمها على الشفاء.

وتظهر بعض الدلائل العلمية بشكل متزايد أن الصلاة يمكن أن تساعد في تخفيف كثير من الأمراض، حتى الأمراض التي تبدو أنها عضالة لا شفاء لها، وأظهرت الدراسات الأخيرة وهي في الإجمال على أكثر من مائتين أن المتدينين يكون ضغط الدم عندهم أخف، وقلوبهم أكثر صحة.

لأن ضغط الدم أساسه ضغط الهم، وهم المؤمن هو الله، اجعل الهموم هماً واحداً يكفك الهموم كلها، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها.

وأظهرت الدراسات أيضاً أن الصحة العقلية تتحسن بشكل أكبر لدى المرضى الذين يصلون، فهم أقل عرضة للإحباط، وأقل من أن يصبحوا مزمنين، أو أن يبادروا إلى الانتحار.

الإنسان الدين ضغطه جيد طبيعي، وقلبه قوي، السبب مطمئن لله عز وجل، مستسلم لأمره :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١))

[سورة التوبة]

يقيم منهجه ويستسلم له:

" يا معاذ ـ دققوا في هذا الحديث الصحيح ـ عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ:

((كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا ".))

[أخرجه البخاري ومسلم]

الله عز وجل أنشأ لنا حقاً عليه، أن لا يعذبنا، فالمؤمن حينما يتصل بالله ويطيعه في كل شؤون حياته يشعر بالأمن، قال تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١))

((الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢))

[سورة الأنعام]

هؤلاء من باب الدراسات والتجارب والبحوث وصلوا إلى أن المريض المتدين، المريض الموصول بالله عز وجل، المريض الذي يأوي إلى ركن شديد، هذا المريض أسرع شفاءً وأكثر صحة من الذي قُطع عن الله عز وجل بقواطع الذنوب، هؤلاء الأجانب يبحثون عن الحقيقة وقد وصلوا إلى طرفها مؤخراً، ولكن بعد فوات الأوان.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٣٢ : الضرورات تبيح المحظورات٢.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠٩-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، لازلنا في موضوع القاعدة الأصولية (الضرورات تبيح المحظورات) ونظراً لأن هذه القاعدة ساحت و ماعت وسالت، حتى قُصد منها عكس أصلها، فلذلك أردت أن تكون بفضل الله عز وجل وتوفيقه مجموعة خطب تبين حدود الضرورة، فنحن في الخطبة السابقة وصلنا إلى أن الشريعة مبناها، وأساسها، على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله أتم دلالة وأصدقها.

قال هذا ابن القيم في إعلام الموقعين عن رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، وصلنا في الخطبة السابقة إلى حقيقة أساسية شُرحت بإيجاز شديد وجدت من المناسب أن أبسط هذه القاعدة في هذه الخطبة تمهيداً للحديث عن الضرورات تبيح المحظورات.

وصلنا إلى أن الأصل في المعاملات الإباحة ما لم يرد نص في التحريم، وأن الأصل في العبادات الحظر ما لم يرد نص بالوجوب هذه شرحتها شرحاً مقتضباً ووجدت من المناسب جداً أن أفصلها في هذه الخطبة.

قال بعض الشافعية: الأصل في الأشياء النافعة الإباحة، وفي الأشياء الضارة التحريم، والأرجح أن كل الأشياء والأفعال التي لم يرد نص بشأنها حكمة الإباحة، ولا يُحرم شيء إلا بنص صريح واضح الدلالة صحيح.

والأدلة، دققوا في هذه الآيات الكريمة:

(هُوَ الّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَاءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩))

[سورة البقرة]

لغير العاقل تفيد التعميم والشمول.

(هُوَ الّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً)

ولكم: تفيد الاختصاص، أي ما في الأرض جميعاً خُلق خصيصاً لكم هذه الأدلة أصل القاعدة.

آية ثانية، قال تعالى:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢))

[سورة الأعراف]

هذه من استفهام إنكاري، أي إنكار التحريم، وإنكار التحريم يعني إثبات الإباحة:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢))

آية ثالثة:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥))

[سورة المائدة]

لكم.. خصيصاً لكم.

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ)

الطيبات كما قال العلماء مخصصة بنا، والطيبات ما تستطيبه النفس ويستحسنه الطبع.

آية رابعة:

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٤٥))

[سورة الأنعام]

فالأصل الإباحة، والاستثناء هو التحريم.

هذه الآيات تؤكد أن الأصل في الأشياء الإباحة، ما لم يرد نص في التحريم، وأما السنة المطهرة الصحيحة، فقد روى الإمام البخاري ومسلم وأحمد من حديث سعد بن أبي وقاص، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ))

وفي حديث آخر أخرجه الترمذي وابن ماجة عن سلمان الفارسي: قالَ

((سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّمْنِ وَالْجُبْنِ وَالْفِرَاءِ فَقَالَ: الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ))

حكمة الذي سكت عنه لا تقل عن حكمة الذي أمر به، حكمة الذي سكت عنه لا تقل عن حكمة الذي نهى عنه، فأمر بأشياء لحكمة بالغة مطلقة، ونهى عن أشياء لحكمة بالغة مطلقة، وسكت عن أشياء لحكمة بالغة مطلقة.

أو أي شيء أمر به يقربنا إلى الله وإلى الجنة، وأي شيء نهانا عنه يبعدنا هذا الشيء عن الله وعن جنته، أو يقربنا إلى النار، أما الذي سكت عنه فهو حيادي، ليس له قيمة إيجابية ولا سلبية، هذا مما سكت عنه.

شيء آخر في هذا الموضوع ؛

((الْحَلالُ مَا أَحَلّ اللّهُ فِي كِتَابِهِ، وَالْحَرَامُ مَا حَرّمَ اللّهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمّا عَفَا عَنْهُ))

يعني يكفي أن تعرف ما حرم الله عز وجل، وما سواه مباح.

حديث آخر، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها))

الفرائض يجب أن تأخذها، أما الحدود يجب أن تقف بعيداً عنها مسموح إلى هذا الحد،

((.. وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها))

فدل على أن المسكوت عنه مباح معفو عنه.

أيها الإخوة الكرام، لو ناقشنا الموضوع مناقشة عقلية، الانتفاع بما سكت عنه الشارع الحكيم انتفاع بما لا ضرر فيه على المالك ولا على المنتفع.

لو أن مصباحاً في الطريق متألق، ودخل هذا الضوء إلى غرفتك فقرأت على مصباح الطريق، هل تضرر المالك، انتفعت ولم يتضرر هذا مما سكت عنه الشارع.

لو أنك استظللت بظل جدار، هل يتضرر صاحب البيت ؟ لا يتضرر فالشيء الذي لا يؤذي المالك وينفع المملوك سكت عنه الشارع الحكيم.

شيء آخر قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦))

[سورة الأنبياء]

والآية الثانية:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥))

[سورة المؤمنون]

فربنا عز وجل في هاتين الآيتين نفى العبثية، أي كل شيء خلقه له مقصد عظيم ونفع كبير، فالإنسان حينما ينتفع بما خلق الله عز وجل يحقق أمر الله عز وجل.

ثمة شيء دقيق جداً في الموضوع ؛ إن تكليف الناس من دون بيان أو أمر، أو تحريم أشياء من دون بيان أو تحريم، هذا لا يُطاق، واللهُ جل جلاله منزه عن ذلك.

أنت كموظف في مؤسسة، أعطاك المدير الأوامر والنواهي وقال لك هناك أوامر لن أذكرها لك، وهناك نواهي لن أذكرها لك فاحذر أن تقع في ما نهيتك عنه مما لم أذكره لك، وإياك أن تقصر فيما أمرتك به مما لم أذكره لك، هذا ظلم شديد، لا يليق بالله عز وجل، وهو منزه عن أن يأمرنا بأمر لم يرد في الكتاب والسنة، وعن أن ينهانا عن شيء لم يرد في الكتاب والسنة، يؤكِد هذا قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥))

[سورة التوبة]

لا يُحكم على الضال أنه ضال إلا إذا ترك شيئاً قد كُلف به، لا يُحكم على الضال بالضلال إلا إذا وقع في شيء نهي عنه، أما من دون نهي ومن دون أمر لا يكون هناك ضلال ولا معصية.

المسكوت عنه في الشريعة مباح حلال، سواء كان في الأشياء أو الأعيان أو الأفعال أو التصرفات، فالأصل فيها عدم التحريم، قال تعالى:

(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩))

[سورة الأنعام]

أما العبادات فلها صفة دينية محضة، لا يُشرع شيء إلا بما يرضى به المشرع الحكيم، ومن هنا قال العلماء هذه القاعدة: لا تُشرع عبادة إلا بشرع الله.

دققوا في هذا الكلام، أنت مكلف أن تعبد الله وفق ما أمر الله لا أن تخترع عبادات من عندك ما أنزل الله بها من سلطان، تكلف الناس مالا يطيقون، تحملهم على ترك الدين، على النفور من أحكام الشريعة.

أنت مُكلف أن تعبد الله، والأهم من ذلك مكلف أن تعبده وفق ما يريد وفق ما شرع، لذلك القاعدة الدقيقة (لا تُشرع عبادة إلا بشرع الله، ولا تُحرم عادة إلا بتحريم الله).. العادة ما اعتاده الناس، في حياتهم مما يحتاجون إليه، لكن ما ثبت ضرره فهو حرام، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ

((أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَضَى أنْ لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ))

[أخرجه ابن ماجة وأحمد]

تروي كتب السيرة أن الذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في موقعة أحد، صلى عليهم النبي، العلماء ماذا قالوا: قالوا: هؤلاء عصوا أمراً تنظيمياً، ولم يعصوا أمراً تشريعياً، لأن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله.

أيها الإخوة الكرام، من الأصول المقطوع بها، والمبادئ الأساسية في الشريعة الإسلامية مبدأ اليسر والتسهيل والتسامح والاعتدال، ودفع الحرج والمشقة في الأحكام التشريعية، فخاصية الإسلام السماح، وشأن هذه الشريعة بالناس الرفق، هذا هو الأصل، اليسر والرفق، ودفع الحرج والحرج والتضييق والمشقة، هذا أصل في الشريعة كبير.

الأدلة على ذلك، قال تعالى:

(وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاسِ فَأَقِيمُوا الصّلَاةَ وَآَتُوا الزّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النّصِيرُ (٧٨))

[سورة الحج]

(يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدّةَ وَلِتُكَبّرُوا اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥))

[سورة البقرة]

(يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُخَفّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (٢٨))

[سورة النساء]

الرابع:

(لَا يُكَلّفُ اللّهُ نَفْساً إِلّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة آية ٢٨٦]

إلا أن هذا الوسع يحدده الله لا أنت، كل من أراد أن يخفف عن نفسه شيئاً يقول لك يا أخي:

(لَا يُكَلّفُ اللّهُ نَفْساً إِلّا وُسْعَهَا)

هذه تشبه الضرورات تبيح المحظورات، تُتخذ هذه الآية حجة لتخفيف التكاليف التشريعية فيما لا مسوغ له، هذه لها موضوع آخر، من يحدد وسع الإنسان هو الله الواحد الديان لا أنت، أنت بدافع من أهوائك ومصالحك ورغباتك وميولك تقول: هذا فوق طاقتي، أما الذي يحدد أنه فوق طاقتك هو الشرع الحكيم، فما حسنه الشرع فهو حسن وما قبحه الشرع فهو قبيح، يقول الإمام الشاطبي: إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع.

يعني أعلى درجة للصحة، عندنا وهم بثلاثين في المائة، عندنا شك بخمسين في المئة، هناك ظن بثمانين، غلبة ظن بتسعين، قطع مئة بالمئة.

يقول هذا الإمام الكبير: **إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع.**

هذه أدلة كتاب الله، فما أدلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

أخرج الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((بُعث بالحنفية السمحة))

فيها سماح، ويسر، وفيها رفع حرج، وقد ورد من أفعال النبي عَنْ عَائِشَةَ رَضِيِ اللَّه عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ:

((مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاس مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا))

[رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد ومالك]

وفي حديث ثالث:

((إن الله يحب أن تُؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه))

[عن ابن مسعود موقوفا]

وحديث رابع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وأحمد]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: يَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلا تَخْتَلِفَا))

[رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

أما الذي يخص الدعاة فهو:

((تَطَاوَعَا وَلا تَخْتَلِفَا))

تطاوعا، ليطع كل منكما الآخر، يعني أطعه أنت وليطعك هو، يعني تعاونوا ولا تنافسوا، يعني تعاونوا على نشر الحق، لا تنافسوا الحق، الحق لا يحتمل تنافس لا يحتمل حظوظ نفسية، لا يحتمل مصالح شخصية، وكل الذي يفضل مصلحته الخاصة على مصلحة الأمة فهذا دليل نقص في إيمانه

وإخلاصه وكل من يفضل مصلحة المسلمين العامة على مصلحته الخاصة فهذا دليل إيمانه وإخلاصه.

((تَطَاوَعَا وَلا تَخْتَلِفَا))

هذه نصيحة النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري، ولو أن الدعاة أخذوا بهذه الكلمة، بهاتين الكلمتين من رسول الله.

((تَطَاوَعَا وَلا تَخْتَلِفَا))

أطعه تارةً، وليطعك تارةً، ولا تحدثا في الإسلام انشقاقاً، ولا تحدثا في الإسلام انهداماً، ولا تحدثا في الإسلام عداوةً، ولا تكثرا الاتجاهات فإنها تمزق الأمة، وتضعف قوتها، قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦))

[سورة الأنفال]

وعن أبي هريرة رضي الله

((أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ))

[أخرجه البخاري والترمذي والنسائي وأبو داود وابن مادة وأحمد]

الداعية الصادق يعتمد على حاجات الإنسان الأساسية، ويوظفها في دعوة الناس إلى الله. بين للناس ؛ أنك إذا استقمت على أمر الله يرزقك الله، ائته بالدليل:

(وأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١٦))

[سورة الجن]

بين لهم أن المؤمن وحده يتمتع بالأمن، قال تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢))

[سورة الأنعام]

أيها الإخوة الكرام، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّه عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى))

[أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجة وأحمد ومالك]

شيء آخر: ما ثبت من مشروعية الرخص، في قصر الصلاة والجمع بين الصلاتين، والفطر في رمضان في حال السفر والمرض، وتناول المحرمات حال الضرورة، هذا يدل قطعاً على أن الشريعة الإسلامية رفعت الحرج عن المؤمنين.

قال بعض العلماء محللاً الحكمة البالغة التي من أجلها رُفع الحرج عن المؤمنين ؛ أولاً: رُفع الحرج عن المؤمنين خوف أن يسقط المرء وهو في طريقه إلى الله.

لو أن التكليف فوق طاقته ربما سقط في طريق الإيمان، ونحن نريده أن لا يسقط، نريده أن يصل إلى الله.

ثانياً: خوف أن تصبح الشريعة بغيضة ومكروهة.

الإنسان إذا مرض، وكان يقتضي أن يأكل، أو أن يأخذ الدواء، ومنعته الشريعة أن يأخذ الدواء أصبحت الشريعة بغيضةً في نظره، خوف أن تكون الشريعة بغيضة ومكروهة.

وخوف إدخال الفساد على المكلف في جسمه أو ماله أو حاله.

وخوف التقصير في وظائف العبد الأساسية، كرعايته أهله وأولاده وإتقانه لعمله، المراد من الإنسان أن يقوم بجميع وظائفه وأعماله على وجه لا يُخل بواحدة منها ولا بحال من أحواله.

روى البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيِ اللَّه عَنْهَا

((أنّ النّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يَحْتَجِرُ حَصِيرًا بِاللّيْلِ فَيُصَلّي عَلَيْهِ وَيَبْسُطُهُ بِالنّهَارِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ فَجَعَلَ النّاسُ يَثُوبُونَ إِلَى النّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَيُصَلّونَ بِصَلاتِهِ حَتّى كَثُرُوا فَأَقْبَلَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنّ اللّهَ لَا يَمَلُّ حَتّى تَمَلّوا وَإِنّ أَحَبّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلّ))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وأحمد ومالك]

أحب الأعمال إلى الله، داومت على مجلس علم الزمه، داومت على صلاة جماعة الزمها، داومت على صدقة تابعها، داومت على دعوة إلى الله تابعها.

((وَإِنّ أَحَبّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلّ))

حتى في المهن في الحرف، من حرفة إلى حرفة، هذا لا يفلح ولا في حرفة أما الذي يبدأ صغيراً في حرفة، تتنامى خبراته، وتعلوا معلوماته هذا يتفوق في نهاية المطاف.

وفي حديث رواه الإمام مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى))

هذا المسرع، لأن تصل متأخراً خير لك من أن لا تصل، فإن المنبت الذي أرهق الناقة فوق طاقتها، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

وفي حديث آخر رواه الإمام مسلم عن عبد اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْن الْعَاص رَضِي اللَّه عَنْهما قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّكَ لَتَصُومُ الدَّهْرَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ لَهُ الْعَيْنُ، وَنَفِهَتْ لَهُ النَّفْسُ، لَا صَامَ مَنْ صَامَ الدَّهْرَ، صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ، قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدارمي]

هذا ليس بصيام..

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم الوصال، وعن قيام الليل كله وعن الترهب.

كنت قرأت قصة عن سيدنا عمر، جاءه رسول من أذربيجان، وصل المدينة في منتصف الليل، كره أن يطرق باب أمير المؤمنين ليلاً فذهب إلى المسجد، فإذا برجل يصلي ويقول: **رب هل قبلت توبتي فأهنئ نفس أم رددتها فأعزيها**، قال من أنت يرحمك الله، طبعاً في ظلام، قال **أنا عمر**، قال أمير المؤمنين ؟.. يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل، قال: **إني إن نمت ليلي أضعت نفس أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي.**

معنى ذلك أنه لا ينام أبداً.. والله أيها الإخوة أحجمت عن هذه القصة سنوات طويلة، إلى أن عثرت على رواية لهذه القصة، إني إن نمت ليلي كله أضعت نفس أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي. معقول..

شيء آخر، نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن صيام الوصال وعن قيام الليل كله وعن الترهب.. فهذه التي تمتنع عن الزواج بدافع أنها تريد أن تتبتل لله عز وجل وأن تقوم الليل وأن تحفظ القرآن، هذه دعوة إلى الرهبنة والإسلام منها بريء، إذْ لا رهبانية في الإسلام، فالتي تمتنع عن الزواج بحجة انقطاعها إلى الله، وإلى تلاوة القرآن، وإلى قيام الليل، وتخالف منهج الله عز وجل، وتخالف التصميم الإلهي للأنثى أنها زوجة، هذه تبتعد:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

مجاهدة، والجهاد ذروة سنام الإسلام، ومن تحسن تبعل زوجها والعناية في أولادها، وتقيم في بيتها شرع ربها فهي كالمجاهدة في سبيل الله.

إذاً نهى عليه الصلاة والسلام عن صوم الوصال، وعن قيام الليل كله وعن الترهب.

ويقول في حديث صحيح رواه البخاري ومسلم عن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنْه قال:

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد]

رأى رجلاً يقف في الشمس وهو صائم، سأل عن حاله قيل له نذر أن يقف في الشمس ونذر أن يصوم، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أتمم صومك ولا تقف في الشمس))

[رواه البخاري]

العلماء استنبطوا قاعدة مهمة جداً، المشقة في الإسلام ليست مقصودةً بذاتها، لكنها مشروعة إذا كانت سبيلاً وحيداً لطاعة أو أداء لواجب.

طواف الحج، من أركان الحج ولاسيما طواف الإفاضة وقد يكون هناك ازدحام شديد، هذه مشقة لابد منها، أما أن أذهب إلى الحج ماشياً هذا لا مبرر له، هذه مشقة افتعلتها أنت، المشقة في الإسلام ليست مطلوبةً لذاتها، أما حينما تفرضها علينا الطاعة، أو القيام بالواجب يا مرحباً بها. عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، قَالَهَا ثَلَاثًا))

[أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد]

المتنطعون: المتشددون في غير موضع الشدة.

يعطي عن الدين صورةً غير مقبولة، يعطي عن الدين صورة منفرة والنبي عليه الصلاة والسلام حكم بعصيان من تمسك بالعزيمة وترك العمل بالرخصة، ولاسيما وقت الشدة، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّه عَنْهمَا:

((أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكّةَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ حَتّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ فَصَامَ النّاسُ ثُمّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ حَتّى نَظَرَ النّاسُ إِلَيْهِ ثُمّ شَرِبَ فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنّ بَعْضَ النّاسِ قَدْ صَامَ فَقَالَ أُولَئِكَ الْعُصَاةُ أُولَئِكَ الْعُصَاةُ))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي]

من هم الذين صاموا في السفر، سماهم النبي عصاةً، لأنهم أبوا رخصة الله عز وجل.

أيها الإخوة قاعدة أصولية، في الرخاء خذ بالأحوط، وفي الشدة خذ بالأسهل، أما الذي يأخذ بالأسهل في وقت الرخاء فهذا رقة في دينه وضعف في ورعه.

في الرخاء خذ بالأحوط، وفي الشدة خذ بالأسهل.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، روى الإمام البخاري: بَاب:

((مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً))

وفي حديث آخر عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ قَالَ:

((قَالَتِ الْأَعْرَابُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَدَاوَى ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، أَوْ قَالَ دَوَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُوَ ؟ قَالَ: الْهَرَمُ))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجة]

الهرم يشيب شعرك، ينحني الظهر، يضعف البصر تضع نظارة تتلف الأسنان فتضع الأسنان الاصطناعية، تتأذى المفاصل ليس بالإمكان أن تسرع على الدرج المرتفع، تشعر بآلام معينة، هذه الأعراض ؛ ضعف البصر، وضعف السمع، وانحناء الظهر، وشيب الشعر، هذه من رحمة الله، هذه إشارات لطيفة من الله، أن يا عبدي قد اقترب اللقاء، ممهدات اللقاء فهل أنت مستعد له، هل حاسبت نفسك قبل أن تحاسب، فهذا الهرم يعني إشعار من الله أن اللقاء اقترب.

شيء آخر، روى ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ما خلق الله من داء إلا وخلق له شفاءً، علمه من علمه وجهله من جهله))

هذه (من) تفيد استغراق كل الأمراض.

يعني إذا قال الطبيب: هذا المرض لا دواء له، هذا نقص في علمه، فابحث عن الدواء، النبي هو الصادق المصدوق، هذا تقصير في العلم ابحث عن الدواء، وكم من داء مستعصٍ كشف له دواء،

((ما خلق الله من داء إلا وخلق له شفاءً، علمه من علمه وجهله من جهله إلا الموت))

إن الطبيب له علم يدل بــه   إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انقضت أيام رحلته   حــار الطبيب وخانته العقاقير

***

هذه سنته القولية، أما سنته العملية.

((فإنّ النبي عليه الصلاة والسلام احتجم وهو محرم في رأسه، من شقيقة انتابته))

[رواه البخاري عن ابن عباس]

احتجم من شقيقة كانت في رأسه، من ألف في رأسه وهو محرم والتداوي أيها الإخوة سنة، لأن عموم هذه الأحاديث يرفعها إلى الندب والندب ما كان فوق المباح وأقل من الفرض، هذا حكم الفقهاء في التداوي.

لكن بعضهم قال: التداوي ينسحب على كل الأحكام، فهو مباح إذا لم يغلب على الظن فائدته، ومندوب إذا غلب على الظن فائدته، وواجب تجاه الأدوية القطعية في فائدتها، بإفادة طبيب مسلم حاذق ورع.

وإذا خاف المريض أو طبيبه أن يقعد الإنسان عن القيام بواجباته الشرعية، أو خافوا على حياته، أو تلف بعض أعضائه، يرتفع أمر التداوي إلى الواجب، وهو مكروه عند استعمال الأدوية المكروهة مع توافر الأدوية المباحة، والتداوي محرم عند استعمال الأدوية المحرمة دون الاضطرار إليها، وهذا موضوع الخطبة القادمة إن شاء الله.

الآن الحكم المستخلص ؛ المريض إذا علم يقيناً أو بغلبة الظن بحصول الشفاء من المداواة، وقد حكم الأطباء بأن حالته خطرة، وأن حاجته إلى الدواء أصبحت أمراً ضرورياً كحاجته إلى الطعام والشراب، بحيث لو تركه فقد جعل نفسه معرضاً للهلاك، فإن إقدامه على المداواة يُعتبر واجباً شرعياً يأثم بتركه.

والإمام البغوي يقول: **إذا عُلم الشفاء في المداواة وجبت.**

وبعض الأئمة الكبار يقول: وقد يكون منه ما هو واجب، وهو ما يُعلم أنه يحصل به بقاء النفس لا بغيره، فإنه واجب عند الأئمة الأربعة وجمهور الفقهاء.

هذه سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت، فإنك تقضي بالحق، ولا يُقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت تباركت ربنا وتعاليت، لك الحمد على ما قضيت، نستغفرك ونتوب إليك.

اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك.

اللهم أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا، آثرنا ولا تؤثر علينا أرضنا، وارض عنا، اقسم لنا من خشيتك، ما تحول به بيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك، ومن اليقين ما تهون علينا مصائب الدنيا، ومتعنا اللهم بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا، مولانا رب العالمين.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر، مولانا رب العالمين.
اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك.

اللهم لا تؤمنا مكرك، ولا تهتك عنا سترك، ولا تنسنا ذكرك يا رب العالمين.

اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، وآمنا في أوطاننا، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخياً، وسائر بلاد المسلمين.

اللهم بفضلك وبرحمتك أعل كلمة الحق والدين، وانصر الإسلام المسلمين، وأعز المسلمين، وخذ بيد ولاتهم إلى ما تحب وترضى، إنك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٣٣ : الضرورات تبيح المحظورات٣ (عدد آيات الضرورة ٥ حصراً).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١٠-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، لا زلنا في موضوع الضرورة، وقد بينت في خطب سابقة، أن هذه القاعدة الأصولية، وهي أن الضرورات تبيح المحظورات، توسع الناس في فهما توسعاً غير معقول، حتى ماعت، وساخت، بل وتبخرت، وأصبحت هذه القاعدة ذريعة إلى أي خرق لحدود الله، ذريعة إلى ارتكاب المحظور، ذريعة إلى أكل المال الحرام.

للضرورة حدود دقيقة جداً، وها أنا ذا قد وصلت في هذا الموضوع المتسلسل إلى أصل الضرورة في الكتاب والسنة، وإلى حدودها الدقيقة كما رسمها الفقهاء العاملون.

أيها الإخوة الكرام، في القرآن الكريم خمس آيات فقط تتحدث عن الضرورة، قال تعالى:

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٧٣))

[سورة البقرة]

الآية الثانية:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣))

[سورة المائدة]

قبل أن أتابع الآية:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)

الكمال نوعي.

(وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

الإتمام عددي، أي أن مجموع القضايا التي عالجها الدين تام، وأن طريقة المعالجة كاملة، فأية إضافة، أو أي حذف هو اتهام ضمني للدين بالنقص أو الزيادة.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه الآية الثانية، والآية الثالثة:

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٤٥))

[سورة الأنعام]

دققوا في كلمة:

(أَوْ دَماً مَسْفُوحاً)

هذا كلام خالق الكون، الدم في الإنسان يطهر عن طريق الكليتين، ويطهر عن طريق الرئتين، ويطهر عن طريق الغدد العرقية، فثلاثة أجهزة لتصفية الدم، الرئتان تنقي الدم من غاز الفحم، والكليتان تنقي الدم من حمض البول، وكذلك الغدد العرقية، أما إذا كان دماً مسفوحاً صار نجساً.

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٤٥))

هذا الشرع العظيم كما قلت في الخطبة السابقة، الشريعة مصلحة كلها والمصلحة لها ضوابط، والشريعة عدل كلها، والعدل غير المساواة، والشريعة رحمة كلها، والشريعة حكمة كلها، فأي قضية خرجت من الرحمة إلى خلافها، من الحكمة إلى ضدها، من المصلحة المفسدة فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل.

هذا دين الله عز وجل، هذا دين خالق الكون، هذا دين الخبير، هذا دين الرحيم، الله عز وجل علمه مطلق، وقدرته مطلقة، وحكمته مطلقة وخبرته مطلقة، وقال تعالى:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤))

[سورة فاطر]

الآية الرابعة:

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٧٣))

[سورة البقرة]

(وَمَا لَكُمْ أَلّا تَأْكُلُوا مِمّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصّلَ لَكُمْ مَا حَرّمَ عَلَيْكُمْ إِلّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنّ كَثِيراً لَيُضِلّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩))

[سورة الأنعام]

أيها الإخوة الكرام، لأن الله عز وجل قال وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ولأن السنة مصدر ثانٍ للتشريع، فقد أضاف النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع، وأكل كل ذي مخلب من الطير ونهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، ونهى عن تناول كل شيء فيه ضرر.

هناك تعليق علمي، الإنسان حينما يكون جائعاً جوعاً شديداً جداً، وهو على مشارف الموت، إن جهازه الهضمي يمكن أن يهضم أي شيء ضار حتى الضرورات التي أباحت المحظورات لها تفسير علمي، سأل رجلاً من أهل العلم، لماذا نزكي الحيوان ؟ نذبحه ليخرج الدم منه لأن الدم نجس، سأله فما بالنا نأكل السمك من دون ذبح ؟ ! إن كانت القضية متعلقةً بحقيقة علمية كيف أُبيح لنا السمك من دون ذبح، وإن كانت القضية لا علاقة لها بالعلم فماذا نُقنع الناس إذا أثبتوا أنه لا ضرر من أكل ذبيحة لم تُذكى ؟.

أيها الإخوة الكرام، المؤمن الذي آمن بالله عز وجل خالقاً ومربياً ومسيراً، المؤمن الذي آمن بحكمة الله المطلقة، يكفيه أن يقال له إن الله حرم عليه هذا، حتى إن بعض العلماء كان في بلد غربي، وهو يقنع المسلمين هناك في حكمة تحريم لحم الخنزير، تكلم وأفاض، وشرح وبين وفصل، فقام أحدهم، وقد أسلم حديثاً، وتغلغل الإسلام في أعماقه، قال: يكفيك أيها الأستاذ الجليل أن تقول لنا: إن الله حرم علينا لحم الخنزير، لأن علة أي أمر إلهي هو أنه أمر أو نهي، ولكن اكتشف العلماء أيها الإخوة أن السمكة حينما تُصطاد ينتقل دمها كله إلى غلاصمها، وكأنها ذُبحت، حتى الضرورات التي تبيح المحظورات، وحتى الاستثناءات لها تعليل علمي دقيق يأخذ بالألباب، ولكنّ الانتفاع في الشيء ليس أحد فروع العلم به بمعنى أنك لو أخذت الأمر وطبقته دون أن تدري حكمته، ولو تركت النهي وابتعدت عنه دون أن تعي تفاصيل ضرره تقطف الثمار كلها دون أن تصل إلى تفاصيل الشيء، ولكنك إذا أردت أن تدعو إلى الله عز وجل إنك تحتاج إلى بعض التعديلات وبعض المفهومات، كيف أن إنساناً أمي لا يقرأ ولا يكتب يضع يده على زر مكيف ويأتيه الهواء البارد وينتفع به أشد الانتفاع دون أن يعي طريقة التبريد ولا مبدأ الغاز، ولا آلية العمل، إن الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، إنك إن طبقت الشريعة قطفت كل ثمارها، فأنت عابد، أما إنك إن عرفت التحليلات الدقيقة، والعلل الحقيقية، واستطعت أن ترد على الأدلة المعارضة فأنت عالم، وفرق بين العالم والعابد.

الضرورة كما قالها العلماء مشتقة من الضرر الناجم بما لا مدفع له (ليس له دافع) والضرورة

خوف الضرر، هي ضرر واقع أو ضرر متوقع.. خوف الضرر أو الهلاك على النفس أو بعض الأعضاء والضرورة في المخمصة، لو امتنع الإنسان عن تناول الطعام يخاف تلف نفسه أو أحد أعضائه، والضرورة أن يصل المرء إلى حد إن لم يتناول الممنوع هلك، أو قارب على الهلاك، والضرورة عند المالكية ؛ الخوف على النفس من الهلاك، علماً ؛ أي قطعاً، أو ظناً، أو غلبة الظن. وعند الشافعية، من خاف من عدم الأكل على نفسه موتاً أو مرضاً أو زيادةً في المرض، أو طول مدته، أو انقطاعه عن رفقائه، أو خوف ضعفه عن المشي، ولم يجد حلالاً يأكله، ووجد محرماً يباح له أكله.

وبعض العلماء المعاصرين يقول: الخشية على الحياة، إن لم يتناول المحظور، أو الخشية من ضياع المال كله، أو تهديد مصلحته الضرورية، ولا تُدفع إلا بتناول محظور لا يمس حق الغير. وفي بعض التعريفات ؛ أن يهلك الإنسان هو وأهله جوعاً أو عرياً أو تشرداً.

وهناك تعريف يجمع كل أطراف الضرورة ؛ هو أن تطرأ على الإنسان حالة من الخطر أو المشقة الشديدة، بحيث يخاف حدوث ضرر أو يخاف أذىً في النفس، أو بالعضو، أو بالعرض، أو بالعقل، أو بالمال وتوابع المال، ويتعين أو يباح عندئذ ارتكاب الحرام، أو ترك الواجب، أو تأخيره عن وقته، دفعاً للضرر في غالب ظنه ضمن قيود الشرع، هذا تعريف من أجمع التعاريف على الضرورات.
أما الناس وسعوا هذه القاعدة حتى صار الإنسان إذا اضطر إلى مكيف في الصيف يشتريه بمال مشبوه، أو بقرض ربوي ويقول هو ضرورة هذا الذي أريد أن لا يكون في المسلمين.

أيها الإخوة الكرام، أدق ما في هذا الموضوع ضوابط الضرورة، أن تكون الضرورة قائمةً لا منتظرةً، لا بعيدةً، أن تكون الضرورة قائمة، بحيث يحصل في الواقع خوف هلاك أو تلف على النفس أو المال، وذلك بغلبة الظن بحسب التجارب، أو أن يتحقق المرء من وجود خطر حقيقي على إحدى الضروريات الخمس.. الضروريات الخمس: هي الحفاظ على الدين والحفاظ على النفس، والحفاظ العرض، والحفاظ على العقل، والحفاظ على المال.

الشرائع السماوية جاءت لتحفظ هذه الضرورات الخمس، لذلك نبذل النفس رخيصة من أجل الحفاظ على الدين، وهذا هو الجهاد، وقد نذب عن أعراضنا بأموالنا، وقد يباح للمرأة أن تكشف عن جسمها للطبيب صوناً للنفس، فهناك ضرورات خمس الشرع كله يسعى لصونها، والحفاظ عليها، الدين، النفس، العرض، العقل، المال.

لذلك يجوز من أجل الحفاظ على هذه الضرورات العمل بالقاعدة الاستثنائية التي هي مناط خطبة اليوم (الضرورات تبيح المحظورات).

شيء آخر أيها الإخوة، إذا تعارضت مفسدتان رُوعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما ؛ فسدتان واقعتان، لابد من أن تقع إحداهما، ماذا نعمل ؟ نراعي أشد هاتين المفسدتين، ونرتكب أخف هاتين المفسدتين، وهذا مبدأ في الشريعة.

هددك إنسان، إما أن يخطف زوجتك، وإما أن يأخذ كل مالك هناك مفسدتان واقعتان، انتهاك العرض، أو سلب المال، أيهما أخف ضرراً ؟ سلب المال، هذه قاعدة، لك أن تطبقها في أحوال كثيرة فليس الفقيه هو الذي عرف الخير، ولا الذي عرف الشر، ولكنه الذي عرف الشرين ففرق بينهما، واختار أهونهما، وفي بعض الأزمنة الصعبة يحتاج الإنسان أن يوازن بين الشرين، وبين المفسدتين، وبين الضررين فيتجنب أشدهما بارتكاب أخفهما.

أيها الإخوة الكرام، الضابط الأول لقاعدة الضرورات تبيح المحظورات ؛ أن تكون الضرورة قائمة واقعة، وليست متخيلة ولا منتظرة.

القاعدة الثانية: حينما يتعين على المضطر أن يخالف الأمر أو أن يقع في النهي يجب ألا يكون لدفع هذا الضرر وسيلة أخرى.

إذا كان هناك وسيلة أخرى مباحة لا يُباح له أن يقع فيما نهى الله عنه أو أن يترك ما أمر الله به.
إذا كان هناك من يقرضه قرضاً حسناً لا يجور له أن يقترض قرضاً ربوياً، إذا كان هناك بديل مباح أو بديل حلال، إذا كان هناك من يطعمه، لا ينبغي أن يأكل لحم خنزير.

إذا كان هناك من يستطيع أخذ ماله، ثم أن يطلب مسامحته لا ينبغي أن يشرب الخمر عند شدة العطش.
حينما يتعين على المضطر مخالفة الأوامر أو النواهي يجب أن لا يكون لدفع الضرر وسيلة أخرى من المباحات، حتى لو كان هذا الشيء الذي هو بديل المحرم مملوكاً للغير، ينبغي أن تشتريه منه، بنقد عاجل أو مؤجل، أو أن يبذله لك.

هناك حالة ثالثة: هناك شيء محرم، وهناك شيء مباح، ولكن هناك إكراه، أو تهديد أو وعيد بقتل أو تلف عضو، في الحالة الثالثة فيها تهديد، عندئذ نقول له الضرورات تبيح المحظورات، هناك شيء محرم مأمور أن يأكله وهناك إلى جانبه شيء مباح حلال، ولكن قوةً قاهرة تهدده، ويغلب على ظنه أنها تفعل ما تقول.

أيها الإخوة الكرام، شيء آخر حينما يكون التهديد بالموت، أو تلف بعض الأعضاء أو العجز عن المشي والهلاك، أو الانقطاع عن الرفقاء والهلاك، أو العجز عن الركوب والهلاك، هذه ضرورات تبيح المحظورات.

لكن القاعدة الرابعة وهي دقيقة جداً: هو أن هذا المضطر ينبغي أن لا يخالف بحال مبادئ الشريعة الأساسية في حفظ حقوق الآخرين، فليس هناك قتل بالضرورة، لأنه لابد من أن تزهق إحدى النفسين، لا يجوز أن تحفظ نفسك بتضحية بنفس أخرى، فالقتل والزنى والكفر والغصب إذا كان هناك خيار صعب بين أن يُغتصب مالك، أو أن يُغتصب مال أخيك تقول: أنا مضطر، تلافيت غصب مالي بإتاحة الغصب لغيري، لا.. غصب المال إذا كان الخيار لمالك، أو مال أخيك، أو العرض، أو الكفر، أو القتل، هذه مبادئ الشريعة الأساسية، حفظ الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال.

هناك ضرورات تبيح المحظورات في الأحكام الشرعية، أما في المقاصد الأساسية، العلماء قالوا: ما خالف قواعد الشرع لا أثر في الضرورة فيه.

ما خالف قواعد الشرع، كثير ما يتلافى الإنسان إتلاف ماله بإتلاف مال غيره، هذه ليست ضرورة، لابد من أن يتلف أحد المالين، مالك أولى، أن تتلف بصيانته مال أخيك، لابد من أن يُقتل أحد الرجلين لا يمكن أن تتلافى موتك بموت أخٍ مؤمن.

القاعدة الخامسة في الضرورات: أن يُقتصر ما يباح تناوله للضرورة على الحد الأدنى.. إذا كانت لقمة تكفيك، ينبغي أن تكتفي باللقمتين، إذا كانت شَربة تكفيك أو شربتان ينبغي أن تكتفي بالشربة أو الشربتين ؛ أن يُقتصر ما يُباح تناوله للضرورة على الحد الأدنى أو القدر اللازم، لأن إباحة الحرام ضرورة ولا ضرورة تُقدر بقدرها، على الحد الأدنى.

أما في أمور الصحة، هذا الذي يتعلق بأي نصيحة من أي طبيب العلماء نصوا: على أنه لابد من أن يكون الطبيب مسلماً حاذقاً ورعاً عدلاً ثقةً في دينه وفي علمه.

هذا الذي يقول لك أفطر في رمضان، هذا الذي يقول لك: لا يجور لك أن تذهب إلى الحج لأن جسمك لا يحتمل، هذه النصائح التي يأخذها عامة المسلمين من أي طبيب غير ملتزم، لا يعرف حدود الشرع ولا قيمة العبادات، هذه ليست ضرورات.. الطبيب المسلم الحاذق الورع العدل الثقة في دينه وعلمه هو الذي تُعد نصيحته ضرورة ملجئة لترك بعض العبادات.

لكن بعض الناس على ظنهم الضعيف أو على وهنهم أو على استشارة طبيب متفلت، أو طبيب غير مسلم، يفطر في رمضان، يترك فريضة أساسية.

في أمور الطعام والشراب عند بعض العلماء لابد من أن يمر يوم وليلة دون أن يجد الإنسان ما يتناوله من المباحات، أما لتوهم الضرورة يأكل الحرام، لابد من أن تمضي يوم وليلة بأكملها، وليس في بيته شيء يأكله هناك رأي آخر: حينما يحمله الجوع على أن يعجز عن المشي هذه ضرورة،

حينما يحمله الجوع على أن ينقطع عن رفاقه فيهلك، أو أن يعجز عن الركوب فيهلك، هذه الضرورات تبيح المحظورات.

ما ذكرت هذا الموضوع إلا لأنني وجدت كثيراً من الناس، يتعلقون بأتفه الأسباب، وأضعف العلل، فيبيحون لأنفسهم ما حرمه الله عز وجل، وهم يقولون ضرورة، يسافرون، ويخالطون، وينتهكون حرمات الله، ويعتدون على شرع الله، ويأكلون المال الحرام تحت غطاء من الضرورات تبيح المحظورات، هذه القاعدة ماعت، وساحت، وسالت، وتبخرت، وأصبحت ذريعة إلى المعاصي والآثام، لا تقل ضرورة، الضرورة هذا تعريفها، وهذه حدودها، والشرع حكيم، وهو من عند رب العالمين، والشرع لكل الناس أجمعين، يسع حالاتهم السوية والاستثنائية، يسع حالاتهم اليسيرة والعسيرة، لأنه منهج إلهي ودستور ربانية، لابد من أن يسع كل الحالات.

أيها الإخوة الكرام:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧))

[سورة الأنبياء]

أنت ماذا تفعل ؟ حينما تشير رجلاً تثق بعلمه وورعه، ماذا فعلت بهذا السؤال، أنت أخذت كل علمه بسؤال لطيف، إنك لن تستطيع أن تسأل أصحاب الخبرة في الدنيا إلا بأجر إلا بتعويض إلا بأتعاب، لن تستطيع أن تدخل على طبيب إلا والأجر بجيبك، لكنك إذا ذهبت إلى من تثق بعلمه وورعه فسأله.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩))

[سورة الفرقان]

لماذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو السيد المعصوم لماذا أمر نبيه أن يشاور أصحابه، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

[سورة آل عمران]

أنت بالسؤال تستعير عقول الرجال، والناجحون في الحياة يستشيرون من هم أقل منهم سناً، من هم أضعف منهم خبرةً، لأن الإنسان تحت ضغط الضرورة الموهومة قد يختل توازنه، فإذا سأل إنساناً ليس خاضعاً لهذا الضغط يعطيه الفكرة الصحيحة.

الناجحون بأعمالهم يكثرون استشارة من حولهم، لأن المستشار مؤتمن ومن استشير فليشر ما هو صانع لنفسه، عود نفسك أيها الأخ الكريم أن تسأل، مفتاح العلم السؤال،

((دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

أضع لكم هذه الحقيقة ذكرتها كثيراً، في شأن الدين يكفي أن تسأل أي إنسان له زي ديني، في أي جامع صغير يصلي إماماً، تقول سألته فأفتى لي، لماذا في أمر دنياك إذا أردت أن تبيع بيتاً تسأل مئة دلاّل لماذا في أمر دينك لم تتحقق من علم هذا الذي تسأله ؟ لم تتحقق من ورعه ؟ لم تتحقق من اختصاصه ؟ يكفي أنك سألته سؤالاً عابراً دون تفاصيل، فأفتى لك، فاتخذت هذا حجة، وارتاحت نفسك، لماذا لا تعامل دنياك كما تعامل آخرتك ؟.. لماذا إن أردت أن تبيع بيتاً تسأل مئة دلال، وتنتظر، وتتريث، وتقول: دعوني أفكر، أعطوني مهلة، هل يُعقل أن يكون البيت أغلى عليك من دينك ؟ ! هل يُعقل أن تكون دنياك أغلى عليك من آخرتك ؟ !.

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩))

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧))

في شأن أكثر الناس، ماذا يفعلون ؟ يأخذون أرباحاً على أموالهم ثابتة وهي عين الربا، من دون ما يسأل، هذا الذي أخذ مالك لا يجري حسابات، الحسابات متعبة، يعطيك على الألف مبلغ ثابت، ما الفرق بينهم وبين الربا ؟ سيان، أكثر الناس لا يسألون، وكأنهم يخافون إن سألوا أن لا تيسر أمورهم.

أعطي رجل أراض، وفرح بها أشد الفرح، وكاد يختل توازنه من الفرح، ذهب إلى شيخه وقال هذه الأرض أعطيت إياها من أموال فلان، من أراضيه الواسعة، أعطيتها وأنا بإمكاني أن أتملكها، فقال يا بني هذه ليست لك هذه أرضاً مغتصبة، وكأن جمرةً متوقدةً صب عليها كأس ماء، أحبط هذا الإنسان، فقد كل الأمل، قال هذا مال حرام لا تأخذه، قال ما الحل يا سيدي، قال اذهب إلى صاحب الأرض لعله يبيعك إياها بأقساط يسيرة على أمد طويل، بعْ ذهب زوجتك، أعطته الدفعة الأولى، هذا هو الطريق المشروع.

ذهب إليه، قال يا سيدي، أعطوني من أرضك عشرون دنماً، فسألت شيخاً لي فقال: هي حرام، فماذا أصنع، قال يا أخي الكريم لم يفعل أحد مثلك، هي هدية لك، تملكها وهي حلال لك، ازرعها واقطف ثمارها لقد سامحتك بها.

لأنه وقف وقفة متأنية، لأنه طلب الحلال، فكانت له، فالإنسان:

((ما ترك عبد شيئاً لله، إلا عوضه الله خيراً منها))

هذه الدنيا فانية، سريعاً ما تنقضي، تذهب الدنيا ويبقى الحساب تذهب اللذائذ، وتبقى التبعات، تذهب المكاسب، وتبقى نار جهنم.

أما الإنسان حينما يتحرّى الحلال يعينه الله سبحانه وتعلى على الحلال.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، و عمل لما بعد الموت،والعاجز من أتبع نفسه هواها،وتمنى على الله الأماني،والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَ عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، عاملهم فلم يظلمهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته ووجبت أخوته، وحرمت غيبته ".))

هذه العدالة، العدالة في الإنسان أن يكون ورعاً، أن يكون مستقيماً فمن حدث فكذب، سقطت عدالته، من عامل فظلم سقطت عدالته، من ائتمن فخان سقطت عدالته.

ولكنّ العلماء أشاروا إلى أشياء كثيرة تجرح العدالة ؛ أكل لقمة من حرام، يجرح العدالة، تطفيف بتمرة، تجرح العدالة، من مشى حافياً من بال في الطريق، من تحدث عن النساء، من تنزه في الطرقات، من أطلق لفرسه العنان، السرعات الزائدة، من قاد برذوناً، من صحب الأراذل، من علا صياحه في البيت، هذه كلها تجرح العدالة.

الإنسان المؤمن شخصية فذة، متميز، الإيمان درجة علمية، **" ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه ".**

درجة خلقية، النبي عليه الصلاة والسلام أثنى الله عليه فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

[سورة القلم]

ولا يمكن أن يكون المؤمن إلا على خلق، وإلا ليس مؤمناً، لأن حسن الخلق هو الإيمان:

((إن فلانة تذكر أنها تكثر من صلاتها وصيامه وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال هي في النار))

فالإيمان مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، فالمؤمن سعيد بقربه من الله، سعيد بشعوره أن الله يحبه، سعيد بطمأنينته بالمستقبل، سعيد لأن الله وعده بالجنة:

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١))

[سورة القصص]

إن كنت مؤمناً حقاً لابد من أن تشعر أنك على علم، وأنك على خلق وأنك على مستوى من التذوق الجمالي بعيد عن أن يكون في الناس.

إن الله يعطي الصحة، والذكاء والقوة والمال للكثيرين من خلقه، هناك في العالم أغنياء يملك أحدهم ثلاثين مليار، يسكنون في أجمل القصور يركبون أرفه المراكب.. إن الله يعطي الصحة الذكاء والقوة والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينة خاصة بالمؤمنين، قال تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢))

[سورة الأنعام]

لولا أن المؤمن يتمتع بميزات لا يمكن أن يمتع بها غير المؤمن لما كان للإيمان معنىً، قال تعالى:

(أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (١٨))

[سورة السجدة]

(أفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦))

[سورة القلم]

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١))

[سورة القصص]

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠))

[سورة القصص]

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٣٤ : تغير الأحكام بتغير الأزمان (الثبات).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١٠-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، أمضينا وإياكم في موضوع الضرورات تبيح المحظورات، وكان محور هذه الخطب أن هذه القاعدة الصحيحة فهمها الناس فهماً مغلوطاً، وتوسعوا بها حتى انقلب معناها الذي فهموها منها إلى ضد أصلها، فأباحوا لأنفسهم كل شيء تحت غطاء الضرورات تبيح المحظورات.
ولكن هناك حالات لهذه الضرورات، ترد على وجه تفصيلي كضرورة الغذاء والدواء، وكضرورة الإكراه الملجئ، وكضرورة النسيان، وكضرورة الجهل، وكضرورة عموم البلوى، وكضرورة السفر، وكضرورة المرض، وكضرورة النقص الطبيعي، والدفاع الشرعي، واستحسان الضرورة، والمصلحة المرسلة بالضرورة والعرف، وسد الذرائع وفتحها، والظفر بالحق.
هذه موضوعات تفصيلية، لا تتسع لها خطبة الجمعة، إن شاء الله تعالى سأعالجها في درس الأحد تباعاً، لأن المسلمين هم في أمس الحاجة إلى هذه التفاصيل، فإن العلم الصحيح هو الدين:

((يا ابن عمر دِينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

أيها الإخوة الكرام إلى موضوع جديد، منطلق هذا الموضوع أن الطرف الآخر الذي يعادي الدين، لم يستطع أن يواجه الدين مواجهة صريحة، ولا أن يقف في وجهه وقفة جلية ولكنه احتال على محاربة الدين باختراع أفكار ومبادئ تصل إلى صلب الدين فتفتته، وإلى جوهر الدين فتزيفه، وإلى قيمة الدين فتضيعها.

من هذه الأفكار المدمرة مقولة (التغيّر)، الأحكام تتغّير بتغيّر الأزمان، هذه كلمة حق، وهذه قاعدة صحيحة، ولكن لها ضوابطُ كثيرة، فإذا تحللت هذه القاعدة من ضوابطها توصلنا من خلال هذه القاعدة الأصولية إلى التحلل من منهج الله عز وجل، والتفلت منه، ووصلنا إلى اتباع منهج أهل الكفر والفسوق والعصيان، عندئذ حدَثَ شرخ كبير في حياة المسلمين، دينهم في المسجد، أما بيتهم وعملهم وحرفتهم وتجارتهم ودكانهم، أما نشاطاتهم، لهوهم وفرحهم، أحزانهم وأتراحهم فعلى منهج الكفار والعصاة والمفسدين.

أيها الإخوة الكرام، موضوع دقيق جداً، هو أن تغير الأحكام بتغير الأزمان قاعدة صحيحة، لكن لها ضوابطُ كثيرة، فإذا ألغينا ضوابطها كانت هذه القاعدة عبئاً على الإسلام والمسلمين، وسبيلاً إلى تدمير الإسلام، وإفساد العقيدة.

لاشك أن الأحوال تتبدل، ولا شك أن الظروف تتبدل، ولا شك أن البيئات تختلف من مكان إلى مكان، ولاشك أن المعطيات في تغير مستمر ولكن في الإنسان ثوابت، في الإنسان ثوابت هي فوق المكان والزمان في الإنسان ثوابت هي مناط التكليف، في الإنسان ثوابت هي علة التشريع، فالإسلام العظيم بنصوص قطعية الدلالة غطى الثوابت في الإنسان، وبنصوص ظنية الدلالة غطى المتغيرات في الإنسان.

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أخرجه أبو داود وأحمد]

أيها الإخوة الكرم:

بادئ ذي بدء ؛ أول حقيقة ناصعة في موضوع الثبات في الإسلام منهج ثابت، قيم ثابتة فوق المكان والزمان، أما الأشياء المتبدلة لها تشريع خاص، وقد لحظها الإسلام لحظاً واسعاً في بعض النصوص ذات الدلالة الظنية.

الآية الأولى في موضوع الثبات هي قوله تعالى:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥))

[سورة الأنعام آية ١١٥]

كلمة الله هي الوحي القرآني.

(تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)

قال بعض العلماء في تفسير هذه الآية: كلام الله لا يزيد عن أن يكون خبراً أو أمراً، الخبر صادق، والأمر عادل، وبكلمتين اثنتين وصف الله كلامه بأن الأخبار فيه صادقة، وأن الأوامر فيه عادلة.

قال بعض العلماء:

(تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً)

فيما قال:

(وَعَدْلاً)

فيما حكم، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه، وكل ما أمر به عدلٌ الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه باطل، فهو لا ينهى إلا عن مفسدة:

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)

[سورة الأنعام]

هذا جزء من عقيدة المسلم، كل شيء أمرنا الله به حق ناصع، وكل شيء نهانا عنه باطل، حق نافع وباطل ضار.

أيها الإخوة الكرام، ومعنى قوله تعالى:

(لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)

أي ليس لأحد أن يعقب على حكم الله عز وجل، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهو السميع العليم ؛ السميع بأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

آية موجزة قصيرة من كلمات عدة فيها وصف جامع مانع لكلام الله عز وجل:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥))

شرع الله عز وجل هو الحق، والصدق والعدل، وهو الثابت الكامل التام الذي لا مبدل له، والذي تمثله هذه الشريعة الربانية، يقابله الضلال والظنون والباطل الذي تحمله شرائع البشر وأهواؤهم، قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ)

هذا الظن والوهم باطل لا قرار له ولا ثبات.

لابد من أن تعتقد أن في الإنسان ثوابت فوق البيئات، وفوق الأمكنة وفوق الأزمنة، وفوق المتغيرات، هذه الثوابت هي مناط التكليف والقرآن العظيم تشريع حكيم لكل البشر في كل الأزمنة وفي كل البيئات.

قال أحد المفسرين في تفسير قوله تعالى:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥))

لقد تمت كلمة الله فيما قال وقرر، وعدلاً فيما شرع وحكم، فلم يبق بعد ذلك قول لقائل في عقيدة، أو تصور، أو أصل، أو مبدأ، أو قيمة، أو ميزان، ولم يبق قول لقائل في شريعة، أو حكم، أو عادة، أو تقليد.

ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج هذا الإنسان الذي صممه خالقه على منهج قويم إلا بخروج هذا الإنسان عن منهج الله القويم، وما من خروج عن منهج الله القويم إلا بسبب جهل عميم، والجهل من أعدى أعداء الإنسان، الناس أعداء ما جهلوا، الإنسان بحكم فطرته، وحكم حبه لوجوده، وحبه لسلامة وجوده، وحبه لكمال وجوده وحبه لاستمرار وجوده ينطلق إلى ما يسعده، وما يسلمه من الآفات والأخطار، فإذا علِم علم اليقين أنّ سلامته وسعادته في تطبيق منهج ربه بادر إلى هذه الطاعة حرصاً على سلامته، وطلباً لسعادته.

المجتمع الإسلامي ـ أيها الإخوة ـ ليس ذلك الذي تتغير أشكاله ومقوماته المادية ـ، والتغير حق ـ لكن لا تتغير معها قيمه وأحكامه، هناك في المجتمعات غير الإسلامية قيم وأخلاق للمجتمع الزراعي، وقيم وأخلاق للمجتمع الصناعي، وقيم وأخلاق للمجتمع الذي يقدس الفرد، وقيم وأخلاق للمجتمع الذي يقدس المجموع، ولكن الإسلام نظام واحد كامل شامل لكل البيئات، والأزمان فيما هو ثابت.

الإسلام له قيم ذاتية قررها الله عز وجل في كتابه الكريم، وهذه القيم تثبت مع تغير المجتمعات، ابحث في ذهنك.. الإساءة للوالد أليست قيمة سلبية في كل المجتمعات ؟ الإساءة للأم أليست قيمة ثابتة سلبية في كل المجتمعات في كل الأزمان والأماكن ؟ أن تأخذ مال غيرك من دون استحقاق أليست هذه قيمة ثابتة في كل المجتمعات ؟..

لو بحثت عن الثوابت في حياة الإنسان لوجدتها كثيرة جداً، ولوجدت الشرع الحكيم هو الذي يغطي كل هذه الثوابت.

أيها الإخوة الكرام، عقب بعض الحروب في بعض المجتمعات شجعوا الإنجاب، ولو كان من طريق الزنا، وأعطوا على المرأة التي تنجب مولوداً بأي شيء مكافأة، فحينما يغيب منهج الله عن الحياة ترى في التشريعات الوضعية أشياءَ مضحكة.

ذكرت هذا من قبل في بعض البلاد التي في أقصى الشرق ألزمت الأسرة بمولود واحد، وهؤلاء يحبون الذكور، فإن أنجبت الأنثى بنتاً خنقوها أو قتلوها، فإن أنجبوا ذكراً سجلوه، النتيجة أن في الصين في عام ألفين خمسين مليون شاب لا يقابله فتاة يتزوجها، صارت هناك عصابات لخطف الفتيات في سن الزواج، حينما يشرع الإنسان تختل الموازين.

أيها الإخوة الكرام، العليم الحكيم، الخبير الرحيم يدعو خلقه، وهو العليم بهم، وبمن حولهم من خلق السماوات والأرض، يدعوهم إلى الكلمة الثابتة والمنهج المستقر التام، الذي شرعه لنفوسهم، وعقولهم، وأرواحهم وأبدانهم ومجتمعاتهم، يكفل لهم، ولفطرهم، ولهذه الحياة والأحياء العدل

والصدق في العقيدة والشريعة، فلا ظنون، ولا أهواء، ولا جهل، ولا ضلال، ولا ضياع، ولا تغيير، ولا تبديل:

(وَتَمّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥))

أيها الإخوة الكرام، دققوا في هاتين الآيتين:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨))

[سورة البقرة]

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣))

[سورة طه]

إن اتبعت هدى الله عز وجل، لا يضل عقلك، ولا تشقى نفسك، ولا تندم على ما فات، ولا تخشى مما هو آت، فماذا بقي من سعادة الدنيا والآخرة ؟..

أيها الإخوة الكرام، مرة ثانية ؛ الفرية التي افتراها بعض المستغربين، ليصلوا من خلالها إلى تقويض دعائم الدين، هو التغَيُّرُ والتَبَدُّل، هناك تغير وهناك تبدل ولكن هناك ثوابت أساسية في حياة الإنسان، الإسلام غطى الثوابت بنصوصه قطعية الدلالة، وغطى المتغيرات بنصوصه ظنية الدلالة، فقد تعطي فقيراً في الريف كيس قمح يكون مؤونة له مدة الشتاء، يطحنه، ويعجنه، ويخبزه، أما إن أعطيت إنساناً في المدينة كيس قمح فماذا يفعل به ؟ هذه من المتبدلات، لذلك الفقهاء شرعوا أن تُعطى الزكاة عيناً إن كانت هذه العين تنفع الفقير، أو أن تُعطى نقداً إذا كان هذا النقد في مصلحة الفقير، تبدل الحكم من أن تكون الزكاة عينية، أو أن تكون الزكاة نقدية، فالمتغيرات لحظها الشرع، لكن الثوابت هي التي غطاها القرآن الكريم، والنبي عليه أتم الصلاة والتسليم بالنصوص القطعية التي لا مجال فيها للاجتهاد.

أيها الإخوة الكرام، هذه الشريعة التي قال عنها بعض العلماء: إنها مصلحة كلها، رحمة كلها حكمة كلها، فأية قضية خرجت من العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الحكمة إلى خلافها، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل.

لو تتبعت التكاليف في القرآن الكريم، وفي سنة النبي عليه أتم الصلاة والتسليم لوجدت هذه الأحكام في معظمها معللة.

وقال الإمام الشافعي **التكاليف معللة بمصالح الخلق**، قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣))

[سورة التوبة]

التطهير والتزكية علة دفع الزكاة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

[سورة البقرة]

علة الصيام أن تتقي الواحد الديان.

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥))

[سورة العنكبوت]

علة الصلاة أو حكمة الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧))

[سورة الأعراف]

تتبع العلماء الأوامر والنواهي في القرآن الكريم فوجدوا معظمها معللاً بمصالح الخلق، هذه الحقيقة لا يستطيع أن ينازع فيها أحد، قال تعالى:

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٦٥))

[سورة النساء]

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧))

[سورة الأنبياء]

حتى العقوبات التي يقف منها أعداء الإسلام موقفاً سلبياً، قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩))

[سورة البقرة]

إذا كان الإحصاء الفدرالي في أمريكا في عام سبعين ؛ أنه كل ثلاثين ثانية تُرتكب جريمة سرقة، أو قتل أو اغتصاب، كل ثلاثين ثانية، الآن الإحصاءات على مستوى الثواني، لا على مستوى الدقائق.

أما حينما يشرّع الإسلام عقوبة رادعة للسرقة، قد لا يُطر المجتمع الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه أن يستعمل هذه العقوبة إلا مرةً أو مرتين لأنها عقوبة رادعة، قال تعالى:

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢))

[سورة النور]

قال تعالى في كلام حكيم بليغ:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩))

حينما تطبق شريعة الله عز وجل، تنتفي السلبيات المقيتة التي تهدم المجتمع.

سأل بعض العلماء الإمام الشافعي، قال:

يد بخمس مئين عسجدٍ وُدِيَتْ ما بالها قُطعت في ربع دينار

****

أي أن هذه اليد لو قُطعت بحادث ديتها خمسمئة دينار ذهبي..

يد بخمس مئين عسجدٍ وُدِيَتْ ما بالها قُطعت في ربع دينار

****

فأجاب الإمام الشافعي:

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

****

لمّا كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

أيها الإخوة الكرام، للإمام الشاطبي، وهو عَلَمٌ من علماء الأصول، يقول هذا الإمام: **" لو أن الشريعة وضعت على غير حالة الثبات لأدى ذلك إلى تغييرها، فإذا تغير منها شيء اختلت، ولم تبق هذه الشريعة مطلقةً في نفعها".**

الله جل جلاله وصف نفسه فقال:

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١))

[سورة الشورى]

فسر بعض العلماء هذه الآية على أن كمال الله مطلق..

كمال البشر نسبي ؛ قد يحكم القاضي مائة حكم فيعدل في تسع وتسعين منها فيُسمى قاضٍ عادل، أما ربنا جل جلاله، كل أحكامه عدل مطلقاً صفاته كمالٌ مطلقاً، فلذلك:

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١))

إذا كان الله كامل كمالاً مطلقاً، فشريعته يجب أن تكون كاملة كمالاً مطلقاً، كلامه يجب أن يكون كاملاً كمالاً مطلقاً، فكل شيء من الله عز وجل يأخذ ذاته الكاملة بالكمال المطلق، لذلك ربنا عز وجل ختم هذه الشريعة حينما قال:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣))

[سورة المائدة]

ختمها، وأخبرنا بحفظها، وجعل نبيها معصوماً بمفرده، وجعل أمته وهي مجتمعة معصومة بمجموعها، فقال عن كتابه الكريم:

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢))

[سورة فصلت آية٤٢]

وقال عن كتابه الكريم:

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١))

[سورة هود]

وقال عن نبيه الكريم:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))

[سورة الحج]

وقد استنبط العلماء من هذه الآية أن الله عز وجل حفظ سنت نبيه كما حفظ كتابه.

من لوازم حفظ الكتاب حفظ السنة، لو أن قانوناً صدر بسبعة وعشرين مادة، وفي المادة الأخيرة قال وسيصدر مرسوم تشريعي يبين تفاصيل هذه المواد، فهل إذا ضيعنا المرسوم التشريعي المفسر لهذا القانون نكون قد حفظنا هذا القانون، أن نحفظ تفسيره، والسنة جاءت مبينة لكتاب الله فإذا تولى الله حفظ قرآنه الكريم، من لوازم هذا الحفظ أن يتولى حفظ سنة نبيه، الذي أمرنا أن نأخذ منه وأن ننتهي عما نهانا عنه:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧))

[سورة الحشر]

أيها الإخوة الكرام:

السلف من الأئمة مجمعون على دوام التكليف إلى يوم القيام، هذا قول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، ولا يتحقق ذلك إلا بثبوت الشريعة وسلامتها من التغيير والتبديل، وإلا فإنها لو تغيرت وتبدلت لانقطع التكليف بها، ولو أنها تغيرت كيف نكلف بها إلى يوم القيامة ؟..

سيدنا عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، بعد أن تولى الخلافة وقف في خطبة الخلافة الأولى، بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: **" أيها الناس ؛ ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد كتابكم كتاب، ولا بعد سنتكم سنة، ولا بعد أمتكم أمة، ألا وإن الحلال ما أحله الله في كتابه على لسان نبيه حلالٌ إلى يوم القيامة، ألا وإن ما حرمه الله في كتابه على لسان نبيه حرامٌ إلى يوم القيامة، ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا وإني لست بقاضٍ ولكني منفذ، ألا وإني لست بخازن ولكني أضع حيث أمرت أن أضع، ألا وإني لست بخيركم ولكني أثقلكم حملاً ألا وإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ".**

أيها الإخوة الكرام، هذه بعض النصوص من كتاب الله، ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تتحدث عن الثبات في هذه الشريعة العظيمة، فهي شريعة من عند خالق الكون، من عند الذات الكاملة، من عند المطلق.

هذا منهج يسير عليه الإنسان، والبشرية في كل شتى بقاع الأرض تتخبط لأنها تفتعل تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان.

أيها الإخوة الكرام، في خطبة قادمة إن شاء الله تعالى أتحدث عن موضوع متعلق بهذا الموضوع، ألا وهو الشمول، الثبات والشمول في شريعة الإسلام والله سبحانه وتعالى يوفق المؤمنين الصادقين إلى معرفة دينهم القويم، وإلى معرفة هذه الشريعة التي هي الحرز الأمين من كل مشكلة يعاني منها الإنسان.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، في صورة الصافات آية يقول الله عز وجل فيها:

(وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦))

[سورة الصافات]

على سيدنا يونس..

عن أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الدُّبَّاءَ - قَالَ حَجَّاجٌ الْقَرْعَ - قَالَ: فَأُتِيَ بِطَعَامٍ أَوْ دُعِيَ لَهُ قَالَ أَنَسٌ: فَجَعَلْتُ أَتَتَبَّعُهُ فَأَضَعُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِمَا أَعْلَمُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة ومالك والدارمي]

وعَنْ أَنَسٍ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ:

((رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِمَرَقَةٍ فِيهَا دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ، فَرَأَيْتُهُ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ يَأْكُلُهَا))

[صحيح البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك والدارمي]

وثبت في الصحيحين من حديث أنس ابن مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنْه يَقُولُ:

((إِنَّ خَيَّاطًا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَذَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ذَلِكَ الطَّعَامِ، فَقَرَّبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُبْزًا وَمَرَقًا فِيهِ دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالَي الْقَصْعَةِ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك والدارمي]

وعَنْ أَبِي طَالُوتَ:

((قَالَ دَخَلْتُ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَهُوَ يَأْكُلُ الْقَرْعَ وَهُوَ يَقُولُ يَا لَكِ شَجَرَةً مَا أَحَبَّكِ إِلَيَّ لِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاكِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك والدارمي]

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يا عائشة، إذا طبختم قدراً فأكثروا فيه من الدباء، فإنها تشد القلب الحزين))

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية الأولى:

(وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦))

إن الدباء يتميز بسرعة نباته، وتظليل ورقه، وأن ورقه لا يقربه الذباب أبداً، وجودة تغذيته. وقال ابن قيم الجوزية: **بارد، رطب، ماؤه يقطع العطش ويذهب الصداع، ملين للبطن، شديد النفع للمحمومين، من ألطف الأغذية وأسرعها هضماً.**

وهو غني بالسكريات ـ هذا كلام الأطباء المحدثين ـ غني بالسكريات والفيتامينات، الألف وباء، وفيه حديد وكلس، وفيه عناصر فعالة كالقرعين، وفيه حوامض أمينية كاللوسين، وهو غير مهيج، وهو هاضم مسكن مرطب ملين مدر للبول، يطرد سوائل الوزمات والانصبابات، مطهر للصدر والمجاري التنفسية، مطهر للمجاري البولية، يفيد في معالجة التهاب المجاري البولية، والبواسير والإمساك والأسر البولية (انحباس البول) ويفيد في معالجة الوهن وعسر الهضم والتهابات الأمعاء، ويفيد المصابين بالعلل القلبية، والأرق ومرضى السكري، ويفيد في آفات المستقيم.

والقاعدة الذهبية تقول: أفضل دواء ما كان غذاءً، وأفضل غذاء ما كان دواءً.

هذه قصة اليقطين.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٣٥ : تغير الأحكام بتغير الأزمان (شمولية الشريعة).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١٠-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في الخطبة السابقة بينت بتوفيق الله عز وجل أن هذه الشريعة التي هي من عند الله رحمة كلها، وعدل كلها، ومصلحة كلها، وحكمة كلها وأنها ثابتة على مدى العصور والأزمان، وأن هذه الشريعة شاملة لكل أحوال الإنسان.

هي ثابتة على مدى العصور والأزمان، وشاملة لكل أحوال الإنسان.

أيها الإخوة الكرام، بشكل مختصر، الإنسان أعقد آلة في الكون ولهذه الآلة المعقدة صانع عليم خبير، فتعليمات الصانع هي التعليمات التي ينبغي أن يُؤخذ بها، ولا يمكن أن نأخذ بتعليمات جهة أخرى غير الجهة الصانعة.

شمول الشريعة لكل ما يحتاجه الناس على الإطلاق، فلا تخلو حادثة واحدة عن حكم الشريعة في جميع الأعصار، وفي جميع الأقطار وفي جميع الأحوال، حينما يعتقد المؤمن أن هذا الشرع القويم يغطي كل حاجاته، ويتجاوز مع كل متطلباته، وأنه ثابت ثبات هذا الكون، عندئذ يشعر أنه يمشي بتعليمات الصانع، وأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤))

[سورة فاطر]

المعاني أيها الإخوة - التي تضمنتها الشريعة تعم جميع الحوادث وتسعها إلى يوم القيامة..

أضع بين أيديكم هذه المقولة: فضل كلام الله على خلقه كفضل الله على خلقه..

كم هي المسافة كبيرة بين كلام خالق الكون وبين كلام المخلوق كذلك هي المسافة نفسها بين شريعة خالق الأكوان وين شريعة الإنسان.

لا يمكن أن توازن شريعة خالق الأكوان بشريعة الإنسان، بأنظمة الإنسان.

أيها الإخوة الكرام، الدليل الأول على هذا المنطلق ألا وهو شمول الشريعة لكل الأزمان والأعصار، والأقطار، والأحوال.

والمؤمن حينما يستمع لقول الله عز وجل يعلم علم اليقين أن هذا القول هو الحق، ولا حق سواه، الحق لا يتعدد، يقول الله عز وجل:

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩))

[سورة النحل]

هل هناك من آية أشمل من هذه الآية:

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩))

معنى ذلك أن الله جل جلاله لم يترك شيئاً إلا وبينه للناس، وجعل في هذا الكتاب دلالة عليه ؛ إما دلالة مبينة مشروحة، أو مجملة يُتلقى بيانها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من الإجماع أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب، ألم يقل الله عز وجل:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ(٣٨))

[سورة الأنعام]

من تفيد استغراق أفراد النوع، من شيء مهما بدا لك الشيء صغيراً، هذا القرآن الكريم ما فرط فيه إطلاقاً، القرآن الكريم معنى هذه الآية فيه بيان كل شيء.

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩))

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: **فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها**، والدلالة هنا إما نصاً أو جملة.

ما من مشكلة إطلاقاً تنزل بإنسان إلا وفي كتاب الله سبيل الهدى فيها، سبيل الخلاص منها، طريق الرشد في معالجتها، لكن هذا الكتاب يجهله أكثر المسلمين، يجهلون ما فيه من منهج قويم، وصراط مستقيم وحبل من الله متين.

أيها الإخوة الكرام، الإمام الطبري له في هذه الآية شرح لطيف، يقول: **" إن الله نزل هذا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بياناً لكل ما بالناس إليه حاجة من معرفة الحلال والحرام، والثواب والعقاب، وهدى من الضلالة، ورحمة لمن صدق به، وعمل بما فيه من حدود الله وأمره، ونهيه، وحلاله، وحرامه، إنه إن حرم حرامه كان بشارةً له، بشارةً لمن أطاع الله، وخضع له بالتوحيد، وأذعن له بالطاعة، يبشره بجزيل ثوابه، ثوابه بالآخرة وعظيم كرامته في الدنيا ".**

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩))

أيها الإخوة الكرام، هذه الآية تدل دلالة قاطعة على شمول هذه الشريعة بجميع ما يحتاجه الناس في جميع المجتمعات على مر العصور وتغير الأحوال.

أما هؤلاء المسلمون ضعيفو الثقافة، الذين لم يستقوا العلم من مصادره الصحيحة، الذين لم يبنوا إيمانهم على علم، هم عرضة لسوء الظن بشريعتهم، يظنون أن شريعتهم لا تكفي هذا العصر الحديث يبحثون عن أشياء من هنا ومن هناك، يستوردونها ليحلوا مشكلاتهم وغاب عن ذهنهم أنهم زادوا هذه المشكلات مشكلاتٍ إلى مشكلاتهم.

أيها الإخوة الكرام، هذا القرآن الكريم الذي بين أيدينا، والذي أنزله الله على نبيه الكريم تبياناً لكل شيء، سُمي فرقاناً، يفرق بين الحق والباطل، سُمين هدىً تهتدي به، سُمي برهاناً دليلاً قطعياً على صواب ما فيه، سُمين بياناً شرحاً تفصيلياً، سُمي تبياناً وتبياناً لكل شيء، وهو حجة الله على الخلق على الجملة والتفصيل والإطلاق والعموم، هذا هو الدليل الأول قال تعالى:

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً)

وأما الدليل الثاني ففي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢))

[سورة الأعراف آية ٥٢]

فيه تفصيلات، فيه ذكر للجزئيات، فيه أدق الأحكام، قال تعالى:

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢))

أي مفصلاً، مبيناً فيه الحق، مبيناً فيه الحلال والحرام والخير والشر وكل ما يحتاجه الإنسان، وفيه آية أخرى تدعم هذه الآية:

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢))

[سورة الإسراء]

جاء الكتاب لا بجمل الأحكام بل بتفاصيل الأحكام، وفي آية ثالثة:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١١١))

[سورة يوسف]

أيها الإخوة الكرام، عندك آلة بالغة التعقيد، عظيمة النفع غالية الثمن، أصابها عطب إلي أين تذهب ؟ لا شك أنك تذهب إلى صانعها، أو إلى من أرسله صانعها ليصلح هذه الآلة، لا تذهب أبداً إلى إنسان لا يعلم خصائصها ولا دقائقها ولا أسلوب تشغيلها ولا صيانتها.

حفاظاً على آلة بين يديك تبحث عن الخبير، حفاظاً على آلة بين يديك تبحث عن العليم، حفاظاً على آلة بين يديك تبحث عن وكيل الشركة وعن الخبير الذي يعلم دقائق عملها، ألست أنت أعظم آلة، ألا ينبغي أن تبحث عن تعليمات الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً.

أيها الإخوة الكرام،

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١١١))

[سورة يوسف]

قال الإمام القرطبي في شرح هذه الآية: **تفصيل كل شيء مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والشرائع والأحكام.**

أي شيء في الحياة الدنيا، لو أن له أثراً طفيفاً جداً، واحد بالمليار إيجابياً أو سلبياً، في علاقتك بالله، وفي معرفتك بالحق، وفي سعادتك الأبدية، أي شيء في الدنيا لو كان أثره واحد بالمليار سلباً أو إيجاباً فيما يتعلق بحياتك الدنيوية والأخروية، الشرع الحكيم بينه وفصله.

أما الشيء الذي سكت عنه كلياً، هذا لا يتعلق به حلال ولا حرام، ولا خير ولا شر، ولا حق ولا باطل، هناك أشياء كثيرة سكت عنها الشرع لأنه ليس لها أثر إيجابيّ ولا سلبيّ، في قربك من الله وبعدك عنه.

أيها الإخوة الكرام، اعتماداً على هذه الحقيقة يقول الله عز وجل:

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤))

[سورة الأنعام]

نحن أمام مشكلة، كيف نحلها ؟ المؤمن يبحث عن حلها في الكتاب والسنة وغير المؤمن يبحث عن حلها في التشريعات الأرضية، إذا كنت مؤمناً حقاً لا ينبغي أن تبحث عن حل مشكلة خارج الكتاب والسنة إنك إذاً بعيد عن شرع الله عز وجل، بعيداً عن حقيقة السنة:

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤))

أي ليس لي أن أبتعد أو أن أتعد حكم الله عز وجل ولا أن أتجاوزه لأنه لا حكم أعدل من الله من حكم الله عز وجل، ولا قائل أصدق منه:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً)

أيها الإخوة الكرام، آية كريمة يغفل عنها معظم الناس:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً (٣٦))

[سورة الأحزاب]

في موضوع ما، الشرع الحكيم له حكم، حكم الشرع في هذا أنه حرام، أو أنه حلال، أو أنه مندوب، أو أنه مستحب، أو أنه مباح، إذا كنت مؤمناً حقاً لا يمكن أن تفكر في حكم غير حكم الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً (٣٦))

أي لا نحتاج، حكماً في شؤون حياتنا غير حكم الله عز وجل، لأنه لا كتاب غير هذا الكتاب، ولا شريعة غير هذه الشريعة، ولا نظام غير هذا النظام، هذا منهج الله عز وجل، وهذا دين الله، وهذا حبل الله المتين، كل من تمسك به نجا، وكل من تركه هلك.

أيها الإخوة الكرام، بقي دليل ثالث على أن هذه الشريعة شاملة لكل زمان ومكان، شاملة لكل الأعصار ولكل الأقطار ولكل الأحوال، يقول الله عز وجل:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣))

[سورة المائدة]

يقول ابن عباس رضي الله عنه: **(إن الله أتم لعباده هذا الدين وأكمله فلا يحتاجون إلى غيره أبداً ـ وأبداً كما تعلمون لاستغراق المستقبل ـ ولا يحتاجون إلى غيره أبداً، ولا يحتاجون إلى زيادة فيه أبداً).**

(أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)

الإكمال نوعي.

(وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

والإتمام عددي.

(وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا)

وحينما يرضى الله عن شيء فهو الرضا المطلق، فإذا كان الله قد أكمل دينه إذاً أي زيادة عليه اتهام له ضمنياً بالنقص، أو أي حذف منه اتهام ضمني بالزيادة.. لا زيادة ولا نقص، لذلك لا يمكن، ولا يُعقل أن يكون هناك منهج أكمل من هذا المنهج ونظام أحكم من هذا النظام، وتشريع أصدق من هذا التشريع.

يقول الإمام الطبري في شرح هذه الآية: **" اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون فرائضي عليكم، وحدودي، وأمري إياكم، ونهيي، وحلالي، وحرامي، وتنزيلي من ذلك، ما أنزلت فيه بوحي على لسان رسولي والأدلة التي نصبتها لكم على جميع ما بكم هي الأدلة الكافية الكاملة من أمر دينكم فأتممت لكم جميع ذلك فلا زيادة فيه بعد اليوم ".**

يقول بعض أئمة علم الأصول: **" تعريف القرآن بالأحكام الشرعية، أكثره كلي لا جزئي، وبالاستقراء نجد أنه من استقرأ السنة، وجدها على كثرة نصوصها، وكثرة مسائلها بياناً لكتاب الله عز وجل "**، يؤكد هذا قوله تعالى:

(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤))

[سورة النحل]

فالقرآن جمع الكليات، لذلك احتاج الناس إلى السنة لأن فيها بياناً للتفصيلات.

من كليات القرآن الكريم مثلاً: الصلاة، والزكاة، والصوم، والنكاح والعقود، والقصاص، والحدود، وبيانها إنما جاء في السنة، أما السنة فقد أمر القرآن أن نأخذ بها، قال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧))

[سورة الحشر]

وأما الإجماع فقد قال الله عز وجل:

(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً(١١٥))

[سورة النساء]

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

هذه الآية أصل في مشروعية الإجماع وهو الدليل الثالث بعد الكتاب والسنة.

وأما القياس، فأصله في القرآن الكريم:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥))

[سورة النساء]

تقيس حادثة لم يرد بها نص على حادثة أخرى ورد بها نص، إن التقت العلتان تسحب حكم الثانية على الأولى.

أيها الإخوة الكرام، القرآن أوجب اتباع السنة، لأن السنة كما قلت قبل قليل تفسر الكتاب وتبينه، وإذا قلنا: إن القرآن فيه بينان لكل شيء، أي أن القرآن وما أمر به أن نتبع سنة رسوله، أو أن نتبع الإجماع والقياس، كل هذا مجموعاً بعضه على بعض، كل هذا ينتج عنه أن القرآن فيه كل شيء وبيان لكل شيء.

أيها الإخوة الكرام، ورد في الصحاح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود:

**((قَالَ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ لِخَلْقِ اللَّهِ فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ قُلْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ قَالَ وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَالَتْ إِنِّي لَأَقْرَأُ مَا بَيْنَ لَوْحَيْهِ فَمَا وَجَدْتُهُ قَالَ إِنْ كُنْتِ قَرَأْتِهِ فَقَدْ وَجَدْتِهِ أَمَا قَرَأْتِ (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)
قَالَتْ بَلَى قَالَ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ نَهَى عَنْهُ قَالَتْ فَإِنِّي لَأَظُنُّ أَهْلَكَ يَفْعَلُونَ قَالَ اذْهَبِي فَانْظُرِي فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولِينَ مَا جَامَعَتْنَا))**

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد والدارمي]

إذاً السنة وحي غير متلو، والقرآن وحي متلو، والسنة مبينة ومفصلة فمن لوازم اتباعك أمر الله عز وجل أن تتبع أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، أو أمر الإجماع أو أمر القياس.

العبرة أن يطمئن المؤمن إلى أن منهجه الإلهي منهج كامل، ومنهج تام وكماله مطلق:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣))

[سورة المائدة]

وأي تطلع إلى منهج آخر، إلى تشريع وضعي آخر، إلى نظام آخر إلى غير ما هم عليه أهل السنة والجماعة، هذا التطلع دليل جهل في الدين، دليل فجاجة في الإدراك، دليل قصور في الفهم، إذا تمكنت من هذا الدين القويم، وجدته المرجع لكل مشكلة يعاني منها الإنسان.

أيها الإخوة الكرام، لاشك أن أهل الشرق وأهل الغرب شاؤوا أم أبوا، أعجبهم أم لم يعجبهم، يعودون إلى أحكام هذا الدين مكرهين، لا عودة عبادة وتوبة ولكن عودة قهر وإلزام، فكلما تقدم

الزمان وجد أهل الشرق والغرب أن الخلاص في منهجي وسطي هو منهج الإسلام، ألم تحرم بعض التشريعات بعض الكتل الكبرى في الشرق الخمر قبل سنوات.

هناك جامعات في أمريكا ليس فيها اختلاط، سوف يصل العالم إن عاجلاً أم آجلاً إلى أن هذا الدين هو الشرع القويم والصراط المستقيم وأن خلاص البشرية فيه، ولكن المشكلة أن الإنسان أحياناً قد يعرف الحقيقة بعد فوات الأوان، ما كل معرفة للحقيقة تأتي في حينها، في حينها حينما تستفيد منها، وحينما يخرج الأمر من يدك، وتتفاقم الأمور، وتعلم الحقيقة، هذا علم لا قيمة له، لأن أكثر كفار الأرض حينما أدركه الغرق قال:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠))

[سورة يونس]

أيها الإخوة الكرام، خيارك مع الإيمان خيار وقت، لا خيار قبول أو رفض، لأنه ما من إنسان على وجه الأرض، مهما كان كفره شديداً إلا وسيعرف الحقيقة عند الموت، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، ولكن ما قيمة هذه الحقيقة بعد فوات الأوان، ما قيمة أن تعرف جواب هذا السؤال بعد أن تخرج من الامتحان، وبعد أن تقدم الورقة بيضاء، ما قيمة معرفة الجواب إن عدت إلى الكتاب ورأيت الجواب ولكنك قدمت الورقة بيضاء ما قيمة هذه المعرفة، هل بإمكانك أن تقول: أنا عرفت الصواب، أعيدوا الامتحان ؟ انتهى الأمر، فلذلك خيارك مع الإيمان خيار وقت، إما أن تؤمن في الوقت المناسب، إما أن تؤمن فتنتفع بإيمانك واستقامتك، وإما أن تكون المعرفة متأخرةً جداً وجاءت بعد فوات الأوان، وعندئذ لا ينفع الندم، ولا ينفع التحسر.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، في بحث علمي أجراه عدد من أساتذة كلية الطب في بلد عربي مسلم أكد هؤلاء الباحثون أن الإنسان يتوضأ في اليوم خمس مرات، ينظف أنفه من الجراثيم والأتربة والمعلقات، وقالوا إن الذي لا يتوضأ يتعرض أنفه إلى عدد من الجراثيم قد يصل عددها إلى أحد عشر جرثوماً. وإن الوضوء يكفل للمتوضئ الوقاية من نمو الفطريات بين أصابع القدمين، كما يمنع إصابة الجلد بالالتهابات والتقيحات والتجمعات الصديدية، ويقلل من احتمال حدوث سرطان الجلد، لأنه يزيل

المواد الكيماوية قبل أن تتراكم وقبل أن تتجمع على سطح الجلد، لذلك حقيقة ثابتة تقل الإصابة بسرطان الجلد في البلاد الإسلامية.

كذلك دلك الأعضاء ينبه الدورة الدموية، فينشط تغذية الأعضاء بالدم وبذلك تزداد حركة الدماء إلى المخ والكليتين، ويخفف الوضوء من اختناق الجهاز العصبي المركزي فينشط الذاكرة، والإسلام كما تعلمون اشترط لصحة الصلاة طهارة البدن، وطهارة الثوب، وطهارة المكان معاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي]

في إحصاء أجرته منظمة الصحة العالمية، كان الرقم مخيفاً ثلاثمئة مليون إنسان مصاب بأمراض القذارة، والمسلمون بشكل بسيط وعفوي عن علم أو عن غير علم، ما داموا يتوضؤون فهم ناجون من أمراض القذارة، ثلاثمئة إنسان مليون في العالم، هذا إحصاء منظمة الصحة العالمية، مصابون بأمراض سببها القذارة فقط، والوضوء يسبب الوقاية من هذه الأمراض.

لذلك قالوا: الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، يعني ممكن أن تتوضأ مؤدياً للطاعة، فتقطف ثمار الوضوء التي تعلمها، والتي لا تعلمها، وأنت لا تعلم، يكفي أن تنصاع لأمر الله عز وجل معتقداً أن الله سبحانه وتعالى أمره خير مطلقاً، عندئذ تقطف ثمار هذا الأمر.

حينما يطبق الإنسان منهج الله عز وجل فهو في خير ما بعده خير وهو في سعادة ما بعدها سعادة، وهو في وقاية ما بعدها وقاية، وهو في أمن ما بعده أمن، إن الخير كله، والفوز كله، والنجاح كله، والتفوق كله، والعقل كله في طاعة الله عز وجل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

[سورة الأحزاب]

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٣٦ : الاقتصاد الإسلامي قال تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس....).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١٠-٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، من أوسع نشاطات الإسلام في حياته الدنيا كسبه للمال، والمال عصب الحياة، والله سبحانه وتعالى جعله للناس قياماً.

الإنسان حينما يتحرك لكسب المال وإنفاقه، لابد من أن ينطلق من مبادئ من قيم، وهذا الذي يفرق بين كسب المال من زاوية إنسان شاردٍ عن منهج الله، بعيد عن معرفة الحق، وبين إنسان يعرف الله جل جلاله، ويعرف المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه.

لذلك يصح أن نقول هناك اقتصاد أساسه الإسلام، أساسه قيم الإسلام أساسه المقصد البعيد للمسلم، يبتغي وجه الله عز وجل والدار الآخرة، وهناك اقتصاد أساسه تجميع الأموال وإنفاقها، فيا أيها الإخوة الكرام حينما يتحرك الدارسون لاستخدام مصطلحات الاقتصاد الوضعي الذي هو رؤية بشرية ليبنوا عليه اقتصاداً إسلاميا، هذا الاقتصاد ليس إسلامياً وليس وضعياً.

الإسلام أيها الإخوة ؛ نظام متكامل، منهج قويم لا يحتاج أن يتكئ على أي منهج، ولا أن يعتمد على أي مصطلح، إنه بناء قائم بذاته.

أهم شيء في هذا الاقتصاد الإسلامي على مستوى فرد وعلى مستوى مجموع أنه متوازن. قال الله جل جلاله حينما:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(٧٧))

[سورة القصص]

فيما آتاك الله من حظوظ، والمال أحد هذه الحظوظ، والمؤمن يبتغي من المال الذي آتاه الله إياه الدار الآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا ربنا عز وجل يقول:

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنّ اللهَ لاَ يُحِبّ الْمُفْسِدِينَ)

لعل هذه الآية تنظم العلاقة بين الإنسان وأخيه، وبين الإنسان وربه اقتصاد ليس اقتصاداً تبذيرياً، وليس اقتصاداً تقنينياً، قال تعالى:

(وَالّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (٦٧))

[سورة الفرقان]

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩))

[سورة الإسراء]

أيها الإخوة الكرام، هناك خطأ ارتُكب في التاريخ الإسلامي هو أن العلماء درسوا الفلسفة الإغريقية، وأرادوا أن يبنوا عليها فلسفة إسلامية، فهذه الفلسفة التي جاؤوا بها ليست إسلامية وليست إغريقية، إنها هجين، الإسلام له فلسفة خاصة، لا يحتاج الإسلام إلى منطق أرسطو، لا يحتاج إلى فلسفة أخرى ليعتمد عليها، هذا الشأن في العقيدة والشأن في الاقتصاد.

أيها الإخوة الكرام، الإحسان إلى البائسين والمحتاجين جزء من نشاط المؤمن، الله جل جلاله جعل المجتمع الإنساني مجتمع متكامل، يأخذ بعضه بيد بعض لذلك النظرة الصحيحة للمال أن تبتغي به الدار الآخرة، أن توظفه للحق لذلك المال الذي تؤدى زكاته، ويوظف للحق لا يُسمى كنزاً بلغ ما بلغ، أما المال الذي لا تؤدى زكاته، ويحرم منه الضعفاء والمحتاجون يُسمى كنزاً.

أيها الإخوة الكرام، قد نفهم نحن أحياناً أن الإحسان إلى البائسين إطعامهم فقط، والحقيقة الإحسان له معنى شمول، يجب أن تحسن إليه بتعريفه بالله عز وجل يجب إذاً أن تعتني بالتعليم، يجب أن تعتني بطلبة العلم، يجب أن تعتني بهؤلاء الذين ينشرون الحق في الآفاق، فالإنسان إذا أطعمته وبقي جاهلاً ما قيمة هذا الإطعام، لابد من أن تحسن إليه من كل الزوايا، أن تهدي عقله إلى الله، أن تهدي روحه إلى ذكر الله، أن تغذي جسمه بالطعام والشراب.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ)

لا تعني أن تطعمه فقط، أناس كثيرون لا يعنيهم من الفقير إلا إطعامه، يجب أن تعلمه، يجب أن تعلم أولاده يجب أن تعرفهم بالله عز وجل، يجب أن تسعده في الدنيا والآخرة، إن أطعمته بالدنيا وانتهى الأمر، لم ينتهي الأمر، هذا الإنسان لم يشكرك حق الشكر إلا إذا دللته على الله، لعلك تطعمه من أجل أن تدله على الله لعلك تعاونه من أجل أن تأخذ بيده إلى الله.

أيها الإخوة الكرام، هذه الآية على إيجازها ترسم حدوداً للاقتصاد الإسلامي:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(٧٧))

[سورة القصص]

هذا الاقتصاد يتنافى مع التبذير، هناك في عقلية بعض الناس أنه إذا جمع المال الكثير عليه أن ينفقه على شهواته وعلى حظوظه، هذه العقلية عقلية بعيدة عن منهج الله عز وجل:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(٧٧))

الله جل جلاله وعز نواله، خلق الإنسان ليسعده في الدنيا والآخرة أعطاك نعمة الوجود، وأعطاك نعمة الإمداد، وأعطاك نعمة الهدى والرشاد، أنت في التعريف المختصر من إحسان الله إليك، إحسان الله إليك تمثل بوجودك، وإحسان الله إليك تمثل بإمدادك بما تحتاج وإحسان الله إليك تمثل بهدايتك، فما عساك أن تفعل ؟..

عليك أن تحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، لعل الغنى البعيد عن معرفة الله، البعيد عن منهج الله، البعيد عن الرؤية الصحيحة من لوازمه الطغيان، طغيان فردي وطغيان جماعي، الدول العظمى حينما تغتني تطغى، وتتحكم بالدول الصغرى، الإنسان حينما يغتني يتكبر، قال تعالى:

(أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (٧))

[سورة العلق]

لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدّجّالَ فَشَرٌ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السّاعَةَ فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُ قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ))

[أخرجه الترمذي وأحمد]

يجب أن توظف ما آتاك الله من حظوظ والمال في مقدمة هذه الحظوظ أن توظفه للآخرة، ولخدمة الخلق، لإطعامهم ولهدايتهم، وللأخذ بيدهم ولتعريفهم بربهم، ولحل مشكلاتهم، هذه فلسفة المال في الإسلام، المال قوة، والمنصب قوة، والعلم قوة و:

((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف ...))

[أخرجه مسلم وابن ماجة وأحمد]

لكن هذا المؤمن إذا قوي بالمال عليه أن يتحرك تحركاً سليماً، عليه أن يوظفه لحياة أبدية لا تنقضي، عليه أن يجعله في نفع المسلمين جميعاً لذلك المؤمن القوي لكل المؤمنين، والمؤمنون كلهم لواحد، الواحد للكل والكل لواحد:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللّهُ الدّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُ الْمُفْسِدِينَ(٧٧))

الموقف الأساسي، والموقف المبدئي والثابت في حركتك في حياتك الدنيا أن تحسن إلى خلق الله عز وجل، كما أنك حسنة من حسنات الله عز وجل، كما أن وجودك إحسان وإمدادك إحسان وهدايتك إلى الله إحسان.

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ)

لذلك المؤمن ينطلق من ذاته لخدمة الخلق، بينما غير المؤمن يتمحور حول ذاته، المؤمن غيري وغير المؤمن أناني، ذاتي، مصلحته فوق كل مصلحة، تحقيق شهواته فوق كل شيء، نيل مطالبه فوق كل شيء، يبحث عن هدف محدود في الدنيا ولا يعبأ بالوسيلة.

أيها الإخوة الكرام، عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ))

[أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأحمد]

إذا تحرك المؤمن نحو الزراعة، يبتغي منها وجه الله عز وجل عجيب أمر المؤمن الحركة الطبيعية التي لابد منها، الحركة الاعتيادية التي لابد منها تنقلب عند المؤمن إلى عبادة، إن أراد أن يزرع فزراعته عبادة، عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ))

أيها الإخوة الكرام، لأن توافر السلع في السوق يخفض أسعارها، ويحقق مصالح المسلمين من هنا حرم الإسلام أن يلد المالُ المالَ، المال يجب أن يولد من الأعمال لا من الأموال، إن ولد المالُ المالَ تجمع المال في أيدٍ قليلة، وحُرمت منه الكثرة الكثيرة، أما الأعمال إذا ولدت المال، هذه الكتلة النقدية توزعت بين معظم الناس.

ولا أدل على ذلك من قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها فليفعل))

لا ينبغي أن تعرف الإسلام من خلال المسلمين، هذا خطأ فادح، وخطأ قاتل، إذا أردت أن تعرف الإسلام من خلال المسلمين المقصرين الشاردين عن دينهم وجدت الإسلام نظاماً متهافتاً، أما إن عرفت الإسلام من أصوله، من الكتاب والسنة، وقست به واقع المسلمين وجدت البون شاسعاً بين حقيقة الإسلام الذي هو منهج الله عز وجل، وبين واقع المسلمين الذين ما تخلفوا إلا لأنهم تركوا منهج الله عز وجل، أرادوا أن يقلدوا الغرب فلم يحسنوا، ولم يحسنوا العودة إلى أصل دينهم، فضاعوا بين هؤلاء وهؤلاء، لا هم أحسنوا أن يكونوا مع القيم المادية المتقنة ولا مع القيم الروحية الحيوية.

أيها الإخوة الكرام،

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠))

[سورة البقرة]

الإنسان خليفة الله في الأرض، لذلك على المسلم أن يقوم بهذا الدور الخطير والفعال، لتحقيق خلافته في الأرض، عليه أن يكون بناءً لا مخرباً، عليه أن يكون في خدمة الخلق لا عبئاً على الخلق، عليه أن يكون عنصراً نافعاً لا عنصراً ضاراً، عليه أن يعطي لا أن يأخذ، عليه أن يبث كل فضيلة لا أن يفسد في الأرض.

الاقتصاد الإسلامي إن صح التعبير حضاري، بنائي، قيمي.

أيها الإخوة الكرام:

(وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

الإنسان الشارد البعيد عن الدين متمحور حول ذاته، يعبد شهواته من دون الله، والشهوات تحتاج إلى مال وفير، والمال الوفير قد لا يعبأ بطريقة كسبه، قد يأخذه حلالاً أو حراماً، ليحقق شهواته التي يسعى من أجلها، أما المؤمن يتحرك ليحقق الهدف الذي من أجله خلق:

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

أيها الإخوة، علة وجودك في الحياة الدنيا أن تعمل عملاً صالحاً يصلح للعرض على الله، يصلح أن تلقى الله به، يصلح أن تسعد في الآخرة إلى أبد الآبدين بهذا العمل الصالح.

قارون كما وصفه الله عز وجل:

(إِنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦))

[سورة القصص]

ينبغي أن تفرح بفضل الله، ينبغي أن تفرح بتوفيق الله، ينبغي أن تفرح أنك حققت الهدف من وجودك، ينبغي أن تفرح بحجم العمل الصالح الذي أناطه الله بك، ينبغي أن تفرح بحجم الأعمال التي تقربك من الله عز وجل:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقّاهَا إِلّا الصّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١))

[سورة القصص]

أيها الإخوة الكرام، الاقتصاد الوضعي، المنطلقات النظرية بكسب المال وإنفاقه بعيداً عن منهج الله له هدف واحد هو الغنى، والغنى من لوازمه الطغيان، كما حذر النبي عليه الصلاة والسلام من الغنى المطغي، والآية الكريمة تؤكد هذه الحقيقة:

(أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (٧))

[سورة العلق]

إذا رأى نفسه قد استغنى يطغى، والطغيان من لوازم الغنى بعيداً عن معرفة الله عز وجل.

منطلق المسلم إصلاح الأرض وليس أن يفسدها، إصلاح الأرض وما عليها من مخلوقات، لذلك حركة المؤمن حركة نافعة خيرة في كل شؤون حياته.

المسلم يسعى لبناء الأفراد بناءً صحيحاً، بناءً متوازناً، بناءً حضارياً بناءً خيراً، بناءً تحكمه القيم، تحكمه المبادئ، بناءً يهدف إلى خيري المجتمع، وخير المجتمعات كلها، لذلك في الحديث الصحيح عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد والدارمي]

لمجرد أن تغتني على حساب الناس، وأن تعيش لشهواتك فهذا فساد وأي فساد، ينبغي أن تحب لأخيك، وعلماء الحديث لهم عند هذا الحديث وقفة متأنية، المطلق على إطلاقه، وأوسع أنواع الأخوة هي الأخوة الإنسانية، وقد نجد بعض الشعوب تعتني بأفرادها عناية بالغة، بل تعتني بكلاب أفرادها عناية تفوق الخيال، على حساب بقية الشعوب، هذا الحديث يحل هذه المشكلة.

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

وكأن النبي عليه الصلاة والسلام ربط الإيمان بأن تكون إنسانياً هذا الذي أمامك بصرف النظر عن انتمائه هو إنسان، هو مخلوق من مخلوقات الله، تنطلق إلى مساعدته، وإلى العناية به، وإلى أن تحب له ما تحب لنفسك، لك أن تنصره ظالماً أو مظلوماً، تنصره ظالماً بأن تأخذ على يده، وتنصره مظلوماً بأن تعيد إليه حقه.

أيها الإخوة الكرام، الإنسان أخٌ للإنسان أحب أم كره:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً(٥٣))

[سورة الإسراء]

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣))

[سورة البقرة آية ٨٣]

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠))

[سورة فاطر]

الوصف الإلهي وصف جامع مانع، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥))

[سورة إبراهيم]

الكلمة الطيبة، ما معنى كلمة طيبة: قال بعض العلماء هي كلمة الحب، هي كلمة العلم، هي كلمة المواساة، هي كلمة النصيحة وصفت بوصف جامع مانع، كلمة الحب تطيب النفس، إن قلت لأخ كريم والله إني أحبك في الله تطمئنه، ويأنس بك وتأنس به.

كلمة الحب كلمة طيبة، وكلمة العلم كلمة طيبة، وكلمة المواساة كلمة طيبة، وكلمة النصيحة كلمة طيبة، قال تعالى:

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦))

[سورة إبراهيم]

بماذا جاء الأنبياء ؟ هل جاؤوا بالمخترعات، جاؤوا بالصواريخ جاؤوا بالكومبيوتر، جاؤوا بكلمة طيبة، كانت سبب سعادة الشعوب التي آمنت بهم، الكلمة الطيبة صدقة، ولكن الواقع حينما انفصل عن الكلمة كفر الناس بالكلمة، إن كان الواقع لا يؤيد هذه الكلمة تفقد الكلمة مدلولها تفقد معناها، تفقد قوة تأثيرها، تفقد روعتها، تفقد فضائلها، فضائل الكلمة أن تكون مطابقة للواقع، فضائل الكلمة أن يؤكدها الواقع، فضائل الكلمة أن تعبر عن شيء حقيقي لا عن شيء وهمي.

أيها الإخوة الكرام، كسب المال عند المسلم يخضع لقيم أخلاقية لا لقيم مادية، هناك ألف سبيل وسبيل لكسب المال ولكن على حساب دينك، على حساب قيمك على حساب مبادئك، هذا المال الذي يأتيك من مخالفة منهج الله عز وجل لا خير فيه ولا بركة فيه، وهذا المال يُدمر لأن الله سبحانه وتعالى يؤدب الإنسان في الدنيا قبل الآخرة.

أيها الإخوة الكرام، المال الذي يكسبه المؤمن لا ينفقه إنفاقاً تبذيرياً، كما أنه لا ينفقه إنفاقاً تقتينياً، ولكنه ينفقه إنفاقاً يهدف منه إلى إرضاء الله عز وجل.

يقول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (٦٧))

[سورة الفرقان]

إن كل القيم الأخلاقية والمبادئ الدينية تتحكم في كسب المال وفي إنفاقه إذاً هو اقتصاد منضبط، وليس اقتصاداً متفلتاً يتحرك حركة عشوائية يستهدف إلى تجميع أكبر كتلة نقدية في أيدي الناس.
أيها الإخوة الكرام، من الآيات الكريمة التي تشير إلى حقيقة كسب المال، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٩))

[سورة الحشر]

يعني الحركة الأساسية في المؤمن أنه يؤثر أخاه المؤمن ولا يؤثر ذاته والآية الثانية، يقول الله عز وجل:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢))

[سورة المائدة]

يعني قوام الاقتصاد الإسلامي التعاون، وقوامه المؤاثرة، وقوامه الاعتدال في الإنفاق، الاعتدال والتعاون والمؤاثرة، هذه المبادئ الثلاث تنظم حركة الإنسان في كسب ماله وفي إنفاقه، ولكن قد نعجب أن الاقتصاد الإسلامي اقتصاد تعبدي، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد ومالك والدارمي]

يعني تصور أن الإنسان ينفق المال وهو يعبد الله، ينفق المال تعبداً اقتصاد في كسبه تعبدي وفي إنفاقه تعبدي وفي وسطه تعبدي.

شيء آخر، الإنسان حينما يكسب الرزق ليس كسب الرزق مطلباً آنياً لسد مصلحة آنية، بل هو تحقيق لمرضاة الله عز وجل، قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥))

[سورة الملك]

طلب الحلال فريضة بعد الفريضة، هذا الذي يعبد الله ولا يعمل..:

سئل من يطعمك، قال أخي: قال أخوك أعبد منك..

((اليد العليا خير من اليد السفلى...))

أمسك النبي عليه الصلاة والسلام بيد ابن مسعود فرآها خشنة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

والإنسان بين حالين، بين أن يكون في المسجد يطلب رحمة الله عز وجل، وبين أن يكون خارجه يطلب فضل الله عز وجل:

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠))

[سورة الجمعة]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ عَنْ جَدَّتِهَا فَاطِمَةَ الْكُبْرَى قَالَتْ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد]

هو بين الفضل والرحمة دائماً.

وعن الْمِقْدَامِ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))

[أخرجه البخاري وابن ماجة وأحمد]

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم:

((يَا رَسُولَ اللهِ أيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ ؟ قَالَ: عَمَلُ الرّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ))

[انفرد به أحمد بن حنبل]

لذلك المؤمن يقمع الهوى، الهوى يدعوك إلى التبذير، الهوى يدعوك إلى أن تتمتع بالمال وحدك، الهوى يدعوك إلى كسب المال بأية طريقة المؤمن يقمع هوى نفسه، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١))

[سورة النازعات]

شيء آخر يقمع هوى نفسه ويسارع في الخيرات..

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ(٩٠))

[سورة الأنبياء]

أما الرجل الشارد التائه، في كسب ماله وفي إنفاق ماله فيعبد هواه:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣))

[سورة الجاثية]

أيها الإخوة الكرام، والاقتصاد الإسلامي اقتصاد حركي يتعايش، وينمو في كل الأزمنة والأمكنة، ويستهدف تحقيق السعادة لأفراد المجتمع الإسلامي والمجتمعات الإنسانية الأخرى، عن طريق تقديس العمل، وعن طريق وضع الحلول المنهجية للمشكلات الطارئة، نضع الحل المنهجي، وليس حلاً مستقىً من مخالفة منهج الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام، بشكل تلمسنا ملامح حركة المال في حياة المسلم، إنه اقتصاد حركي واقتصاد تعبدي، واقتصاد مقيد بالمبادئ أساسه التعاون، أساسه المؤاثرة أساسه الاعتدال في الإنفاق، إنه اقتصاد أخلاقي تحكمه القيم الأخلاقية وليست القيم المادية.

أحياناً يأتيك ربح وفير من عمل لا يرضي الله عز وجل، فإن كانت تحكمك المبادئ الأخلاقية تركل هذا العمل بقدمك.

تجارة المخدرات في العالم أعلى نسب الأرباح في العالم، لكنها مبنية على إفساد الشعوب، على إفساد المجتمعات على إنهاء الإنسان.

حينما تنظر إلى الاقتصاد على أنه قيمة أخلاقية لا تكسب المال إلا من طريق مشروع، إلا من طريق يعود النفع فيه على كل الناس.

وفوق كل هذا وذاك هو اقتصاد متوازن يوازن بين المادة والروح والدنيا والآخرة، هذه بعض الملامح التي يمكن أن ينطلق الإنسان منها في كسب المال، كل إنسان له فلسفة ولو كان جاهلاً، كل إنسان ينطلق من فلسفة، قد تأتيه من حركة الحياة، قد تأتيه ممن حوله، ولكن المؤمن ينطلق في أوسع حركة يتحركها، وهي كسب المال وإنفاقه، من مبادئ من قيم من منهج من قرآن من سنة، لذلك يوفقه الله عزوجل، ويوظف المال الذي هو قوام الحياة يوظفه توظيفاً للدار الآخرة:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(٧٧))

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، أثبتت الدراسات الطبية الحديثة أن الإنسان الذي ينام ساعات طويلة على وتيرة واحدة يتعرض للإصابة بأمراض القلب بنسب عالية جداً تعليل هذه الظاهرة أن شحوم الدم تترسب على جدران الشرايين الإكليلية للقلب، بنسبة أكبر إذا طالت ساعات النوم، مما يؤدي إلى تعطيل عمل هذه الشرايين، وفقدها لمرونتها، فلا تصلح بعدئذ لضخ كميات الدم المناسبة لتغذية عضلة القلب، كل شريان قلب فيه مرونة، المرونة كالمطاط، فحينما يأتيه نبض القلب يتسع الشريان، بحكم مرونته يجب أن يعود إلى ما كان عليه، فإذا عاد إلى ما كان عليه دفع الدم إلى القسم الآخر من الشريان، فكل شريان يعاون القلب في ضخ الدم، هذه اسمها المرونة، حينما تترسب الشحوم على جدران الشرايين تفقد الشرايين مرونتها.

النوم المديد لساعات طويلة هذا يضعف حركة القلب يجعله بطيئاً ومع بطء الدم تترسب هذه الشحوم على جدران الشرايين فيفقد الشريان مرونته، وهذه الرسبات الدهنية أيضاً تضيق لمعة الشريان يعني قطره وهذا يؤدي أيضاً إلى نقص التروية على عضلة القلب، وهذا النقص في التروية يؤدي إلى متاعب لا يعلمها إلا الله.

الآن استمعوا: هؤلاء العلماء الأجانب البعيدون عن منهج الله الذين لا يعرفون عن الإسلام شيئاً. ينصح الباحثون أن يقوم الإنسان من نومه بعد أربع أو خمس ساعات لإجراء بعض الحركات الرياضية، أو المشي لربع ساعة، للحفاظ على مرونة الشرايين القلبية ووقايتها من الترسبات الدهنية، وبالتالي لتجنب الإصابة بأمراض القلب.

إذا نمت أربع أو خمس ساعات يجب أن تستيقظ، وتجري بعض الحركات الرياضية، يعني إذا نمت الساعة الحادية عشرة يجب أن تستيقظ الساعة الخامسة لصلاة الفجر، إما أن تمشي ربع ساعة إلى المسجد، وإما أن تؤدي بعض الحركات الرياضية، هي الصلاة..

شيء دقيق، عالم غربي قال: الوقاية من الإصابة بتصلب الشرايين ولاسيما الإكليلية بالقلب، أن تستيقظ بعد أربع أو خمس ساعات وأن تجري بعض الحركات الرياضية أو أن تمشي لربع ساعة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ:

((ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقِيلَ مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ مَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ فَقَالَ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وأحمد]

وفيما رواه الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصّلَاةِ فَتُقَامَ ثُمّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنّاسِ ثُمّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصّلَاةَ فَأُحَرّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك والدارمي]

((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح))

أرأيتم ـ أيها الإخوة ـ أن قيامك لأداء صلاة الفجر وقاية لقلبك، وقاية لقلبك من الاحتشاء والذبحة وما إلى ذلك، وقاية لشرايينك من التصلب وقاية لشرايينك من الانسداد.

هذا يقوله علماء ما عرفوا الإسلام إطلاقاً.

النوم المديد يدعو إلى بطء حركة القلب، الإنسان في نوم مديد قد ينبض قلبه خمسين نبضة أو ستين نبضة، هذا البطء في النبض يسبب ترسب الشحوم على جدران الشرايين، الترسب يسبب التصلب وضيق اللمعة، وهذا يسبب ضعف التروية والاحتشاء، فالصلاة صحة هي فضلاً عن أنها عبادة وقرب من الله:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤))

[سورة طه]

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩))

[سورة العلق]

فضلاً عن أنها تقرب إلى الله عز وجل هي صحة ما بعدها صحة.

أيها الإخوة الكرام، هذا منهج الله، هذه تعليمات الصانع، هذا ليس من عند النبي عليه الصلاة والسلام لأنه ما نطق عن الهوى، إن هوى إلا وحي يوحى.

ولكن الإنسان يعجب كيف أن عالماً غربياً بعيداً عن الإسلام كل البعد يكتشف بشكل دقيق أن الإنسان يجب ألاّ ينام نوماً مديداً، بل عليه أن يقطع نومه ليتحرك، أن يقطع نومه ليصلي، والحديث الشريف:

((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح))

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٣٧ : الرأي والوحي.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١١-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، موضوع الخطبة اليوم موضوع أساسي جداً في الدين، هناك أناس يمكن أن يسموا أهل الرأي، أي أن رأيهم هو دينهم، وأن النصوص في خدمتهم، وأنهم يتخيرون من النصوص ما يروق لهم، فيعتمدون بعضها ويرفضون بعضها الآخر، لأن الأصل رأيهم.
ينحرف الدين عن مساره الصحيح، وتشوه حقائقه، حينما يدلي الإنسان الجاهل برأي في أمور الدين دون أن يتخذ الدليل من كتاب الله وسنة رسوله.
فموضوع الخطبة اليوم أنه لا يجوز أن يكون لنا رأي فيما قطع الله به فيما قضى الله بها، مسار الخطبة - أيها الإخوة - الآيات العظيمة الكريمة التي تبين بوضوح أن الوحي هو الأصل والأحاديث الشريفة وأقوال بعض الصحابة الكبار أمثال سيدنا أبي بكر وعمر.
أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠))

[سورة القصص]

هناك خطان، لا ثالث لهما، هناك طريقان لا ثالث لهما، هناك اتجاهان لا ثالث لهما، إما أن تستجيب لرسول الله، والاستجابة له عين استجابتك لله، وإما أن تتبع الهوى، فالذي يقابل الاستجابة لرسول الله هو الهوى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠))

إن لم تكن على خط السنة فأنت مع الهوى حتماً، إن لم تكن على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق بالهوى فأنت على منهج الهوى.

قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠))

الذي يتبع هواه بغير منهج الله عز وجل هو ظالم لنفسه، وما من ظلم أشد من أن تظلم نفسك وتحرمها سعادة الآخرة الأبدية.

من هذه الآية الكريمة أن الأمر قسم إلى أمرين لا ثالث لهما، إما أن تستجيب إلى الله وإلى رسوله، وما جاء به، وإما أن تتبع الهوى فكل ما لم يأت به رسول الله من الهوى.

سؤال محرج، يضع الإنسان في زاوية ضيقة، إما أنك مستجيب لسنة النبي، وإما أنك متبع للهوى، والله عز وجل يقول:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠))

لن ترى أشد ضلالاً من الذي ينبع هواه بغير هدى من الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام هذه الآية الأولى، الآية الثانية:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٥))

[سورة ص]

إما أن تحكم بين الناس بالحق الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام وإما أن تحكم بالهوى، ربنا عز وجل بهذه الآيات يضعنا في مفترق طرق، الحق لا يتعدد، الحق واحد، فإن لم تكن على الحق ـ لا سمح الله ولا قدر ـ فأنت على الباطل قطعاً، إن لم تتبع الهدى أنت متبع للهوى وليس هناك موقف ثالث.

بل إن الله جل جلاله لم يقبل دعوى محبته إلا بالدليل، لم يقبل دعوى محبته إلا بالدليل، والدليل اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ربنا عز وجل يقول:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

[سورة آل عمران]

الآية الثالثة:

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨))

[سورة الجاثية]

إن كنت تعلم تتبع شريعة الله عز وجل الذي كان النبي عليها وأصحابه فإن كنت لا تعلم تتبع الهوى:

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨))

(أَنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩))

[سورة الجاثية]

قسم الله جل جلاله الأمر بين ان تكون على منهج الله وبين أن تتبع الهوى.

آية رابعة:

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٣))

[سورة الأعراف]

الآية الرابعة تؤكد المعنى نفسه، الأمر خطير لذلك وردت تسع آيات في هذا الموضوع،

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٣))

إن لم تتبع ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من تشريع فأنت تتخذ أولياء من دون الله وهذا هو عين الشرك.

سيدنا الصديق في أول خطبة خطبها قال: **(إنما أنا متبع ولست بمبتدع).**

وقال بعضهم: ثلاث نصائح لإيجازها تُكتب على ظفر: **" اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع".**

أما الآية التي فيها تفاصيل كثيرة فهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩))

[سورة النساء]

أولاً أطيعوا الله: أجمع العلماء على أن طاعة الله عز وجل هي تنفيذ أوامره في القرآن الكريم.. أطيعوا الله.

وأطيعوا الرسول: تنفيذ سنته المطهرة بعد موته وفي حياته.

وأولي الأمر منكم: قال الشافعي، **أولي الأمر هم العلماء، الذين يعرفون أمر رسول الله، وأولي الأمر هم الأمراء الذين ينفذون أمر رسول الله.**

الله جل جلاله أمر بطاعته وأمر بطاعة رسوله، ولكن في شيء في الآية دقيق جداً، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩))

أعاد الفعل، ما قال أطيعوا الله والرسول، قال:

(أطِيعُوا اللهَ وَأطِيعُوا الرّسُولَ)

إعلاناً لنا بأن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجب استقلالاً من غير غرضها على ما أمر الله في كتابه، لأنه معصوم ولأنه مشرع، ولأنه لا ينطق عن الهوى.

أنت مع أي أمر من بني البشر أنت ينبغي أن تعرض هذا الأمر على كتاب الله وعلى سنة رسوله، فإن وافقه تطيعه، وإن خالفه لا تطيعه أما إذا أمرك النبي عليه الصلاة والسلام بأمر يجب أتطيعه استقلالاً لأن الله قال:

(أطِيعُوا اللهَ وَأطِيعُوا الرّسُولَ)

أعاد الفعل إعلاماً لنا بأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تجب استقلالاً من غير عرضها على ما في كتاب الله، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواءً ما أمر به في الكتاب أو لم يكن في الكتاب، لأنه مشرع، ولأنه لا ينطق عن الهوى، ولأنه معصوم، ولأنه مُكلف أن يبين ما في الكتاب.

النبي عليه الصلاة والسلام يقول، أوتيت الكتاب ومثله معه، مثله معه السنة، فهو مشرع.. كما أن القرآن الكريم فيه كليات الدين، النبي عليه الصلاة والسلام أعطى التفصيلات وبين ووضح. أما طاعة أولي الأمر.

(أطِيعُوا اللهَ وَأطِيعُوا الرّسُولَ وَأولِي الأمْرِ مِنْكُمْ)

فهذه الطاعة ضمن طاعة رسول الله، إيذاناً لأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول فمن أمر منهم بطاعة رسول الله وجبت طاعته، ومن أمر منهم بخلاف ذلك فلا سمع له ولا طاعة، كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزّ وَجَلّ))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود]

لو أن أباك وهو الذي أنجبك ورباك، أمرك أن تأكل الربا، الجواب لا طاعة المخلوق في معصية الخالق..

سيدنا سعد بن أبي وقاص، أمرته أمه وأعظم النساء حقاً على الرجل أمه، أمرته أن يكفر بمحمد، أو تدع الطعام والشراب حتى تموت، قال يا أمي، لو أن لك مائة نفس فخرجت واحدة واحدةً ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئت أوْ لا تأكلي".

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والآمر ضامن..

(قالَا رَبّنَا إنّنَا نَخَافُ أنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أوْ أنْ يَطْغَى (٤٥))

[سورة طه]

أحد ولاة البصرة، كان عنده سيد التابعين الحسن البصري، جاءه توجيه من يزيد، يبدو أن هذا التوجيه لا يرضي الله عز وجل، وقع في حيرة من أمره ماذا يفعل ؟ إن نفذ هذا التوجيه أغضب الله عز جل وإن لم ينفذه أغضب يزيد، فاستشار الحسن البصري، فقال كلمة تُكتب بماء الذهب، قال له الحسن البصري: **إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.**

عَنْ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود]

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِي اللَّه عَنْه

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ جَيْشًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا وَقَالَ ادْخُلُوهَا فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا وَقَالَ آخَرُونَ إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَالَ لِلْآخَرِينَ لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[أخره البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

فيما جاء عن رسول الله من سنة مطهرة هذا هو المعروف، فالطاعة في معروف، يعني إذا أمرك أبوك أن تصلي وجبت طاعته، لأن طاعته من طاعة رسول الله، إذا أمرك أن تكون صادقاً وجب أن تكون صادقاً إذا أمرك أن تكون أميناً وجب أن تكون أميناً، إنك تطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال أمر أبيك.

أيها الإخوة الكرام، شيء آخر ؛ قد يتنازع المؤمنون.

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

إذا تنازعتم فيما بينك، أو تنازعتم مع علمائكم، أو أمرائكم، ما هي المرجعية التي ترجعون إليها، إذا تنازعتم فيما بينكم حول قضية في الدين، حول قضية في السلوك، حول قضية في المجتمع، حول قضية في كسب المال حول قضية في إنفاق المال، إذا تنازعتم فيما بينكم، حول قضية ما من قضايا الدين، أو من قضايا الدنيا، ما المرجعية التي ترجعون إليها، ما المآل الذي تؤولون إليه ؟.

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

وهذا الشيء نكرة، جاءت في سياق الشرط، وعند علماء الأصول النكرة التي تأتي في سياق الشرط.

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

تفيد الشمول يعني في أي شيء من قضايا الدنيا والدين، صغيره وكبيره، جليله وحقيره، جليه وخفيه، في أي قضية إذا تنازعتم في شيء..

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ)

أيها الإخوة الكرام، يُستنبط من هذا حقيقة خطيرة جداً، لو لم يكن في كتاب الله وفي سنة رسوله بيان حكم ما تنازعتم فيه، أو لم يكن البيان كافياً لم يأمر الله عز وجل بالرد إليه، إله عظيم يقول: أيها المؤمنون إلى يوم القيامة ـ إن تنازعتم في أي شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول، معنى ذلك أن الله جل جلاله أمرنا أن نرد كل موضوع مختلف فيه إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله.

لو أن كتاب الله أو سنة رسوله ليس فيها حكم فصل بهذا الموضوع، ليس فيها جواب شافٍ لهذا الموضوع، كان هذا الأمر من الله لا معنى له، وهذا لا يليق بجلاله ولا بكماله، ولا بكلامه الذي لا يأتيه الباطلة من بين يديه ولا من خلفه.

مستحيل أن يأمر الله المؤمنين بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع.

ألم يقل الله عز وجل:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣))

[سورة المائدة]

الإكمال نوعي، والإتمام عددي، أي أن القضايا التي عالجها الدين تامة من حيث العدد، كاملة من حيث طريقة المعالجة.

أجمع العلماء على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، وعلى أن الرد إلى رسوله هو الرد إلى نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته، وإنما جُعل هذا الرد من موجبات الإيمان، من موجبات الإيمان أن ترج أي موضوع خلافي إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله هذا من موجبات الإيمان، فإذا انتفى الرد انتفى الإيمان.

يعني إذا حكمت مذهباً وضعياً، إذا حكمت إنساناً بعيداً عن الدين في قضية خلافية في الدين فأنت لست مؤمناً إطلاقاً.

إذا نفيت رد الأمر المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله فقد نُفي عنك الإيمان أصلاً.

أيها الإخوة الكرام، هذا الرد هو خير لكم، وعاقبته هي العاقبة الحسنة لكم، ذلك خير وأحسن تأويلاً.

استنبطَ شيء آخر من هذه الآية ؛ أن تنازع المؤمنين فيما بينهم في بعض الأحكام لا يخرجهم بذلك عن الإيمان، شيء طبيعي.

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ)

أثبت الله لهم الإيمان، ووصف بأنهم إذا تنازعوا في شيء فيما بينهم، أو مع أولي الأمر العلماء والأمراء حول قضية في الدين فالمرجعية إلى كتاب الله وسنة رسوله، ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله الحكم الفيصل في أي موضوع فهذا الأمر بالرد إلى كتاب الله لا معنى له، ولا يليق بالله عز وجل أن يأمر بأمر لا معنى له.

أيها الإخوة الكرام، آية أخرى في هذا الموضوع، يقول الله عز وجل:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨))

[سورة القصص]

ليس للمؤمن أن يتخير بعد قضاء الله وقضاء رسوله شيئاً آخر، يعني إذا قال الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٣٠))

[سورة النور]

لا يجوز أن تدلي برأي آخر، أنه في زمن صعب، الإنسان لا يستطيع أن يستقيم، هذه الآية غير واقعية، ليست لهذه الأيام.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً (٣٦))

[سورة الأحزاب]

يا أيها الإخوة الكرام، يقو الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً (١٣٦))

[سورة النساء]

الذي يدل بدلو برأي موازٍ لما في القرآن الكريم، والذي يأتي بحكم يخالف حكم الله عز وجل، ذلك كما يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً (٣٦))

[سورة الأحزاب]

آية أخرى، يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١))

[سورة الحجرات]

أي لا تقولوا شيئاً خلاف ما يقول، لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه، ولا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، نهوا عن أن يتكلم بين يدي كلامه.

إذا كان خالق الكون قد أمر، أو نهى، أو حكم انتهى الأمر.

عُقِدت ندوة حول تعدد الزوجات، سئلت امرأة على مستوى رفيع من الثقافة: ما رأيك في تعدد الزوجات ؟ قالت: أنى يكون لي رأي، وقد سمح الله به.

المؤمن الصادق إذا كان هناك حكم في كتاب الله، أمر، أو نهي، أو وصف، أو حكم في سنة رسول الله، انتفى رأيك الشخصي،

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ فمن أنتم حتى يكون لكم عندُ

***

أنت مشرع، الله هو المشرع، هل هناك في الأرض إنسان يحق له أن يشرع، المشرع هو الله عز وجل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ)

أي لا تقدموا رأياً، ولا حكماً، ولا وصفاً خلاف وصف الله عز وجل.

الإله وصف إنساناً أنه فاسق، لا تقل أنت عنه لبق، لا تقل مرن إذا قلت عنه مرن وهو فاسق، إذا قلت عنه لطيف وهو منحرف، فهذا وصف يناقض وصف الله عله.

أيها الإخوة الكرام، استنباط لطيف، قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢))

[سورة الحجرات]

إذا كان رفع أصوات الصحابة الكرام وهم على ما هم فيه من رفعة القدر فوق صوت النبي سبباً لحبوط عملهم، فيكف إذا قدمت أمته من بعده آراء، وعقائد، وأذواق ومعارف تعلوا على ما جاء به

النبي عليه الصلاة والسلام، هذا سبب أكبر لإحباط العمل، إذا كان رفع صوتك العادي، إذا قلت له يا رسول الله بصوت عالٍ حبط عملك، فكيف إذا جئت بآخر الزمان بأفكار، وبمعارف وبأساليب في الحياة خلاف سنة النبي عليه الصلاة والسلام، هذا سبب أوجه لإحباط العمل.

ثم إن هناك استنباط لطيف آخر:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢))

[سورة النور]

فكيف إذا ذهبوا بعقيدتهم وسلوكهم، وأنماط أفراحهم وأنماط أحزانهم وتجارتهم، وبيعهم وشرائهم وسفرهم وإقامتهم، وترويج سلعهم، إذا ذهبوا مذهباً آخر لا يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا كانوا معه على أمر جامع لا يستطيع الصحابي أن يذهب مذهباً إلا أن يستأذن النبي، أين ذهبت أمته من بعده ؟ أين ذهبوا مذاهب شك، ما بقي من الإسلام إلا اسمه، ولا بقي من القرآن إلا رسمه، الإسلام يجب أن يكون في بيوتنا، وفي أعمالنا، وفي أسواقنا، وفي تجارتنا، وفي بيعنا وشرائنا، وفي سفرنا وفي إقامتنا، أما أن يبقى الإسلام في المساجد صلوات تؤدى، وشعائر تقام، وحياتنا بعيدة عن منهج الله كل البعد.

أيها الإخوة الكرام، هذه الآيات، فماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ في الحديث الصحيح عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمُوهُ انْتِزَاعًا وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي]

((يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ))

يفكر قليلاً ويقول لك لا شيء هذا مسموح به، المنطق يقول ذلك، اعتمد على عقله وعلى منطقه ولم يعتمد على سنة رسوله،

((يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ))

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم، يحرمون به ما أحل الله، ويحلون ما حرم الله))

هذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضوع أهل الرأي الذين يعتمدون الرأي ويقدمونه على النص وعلى الوحي.

أيها الإخوة الكرام، بكلمة جامعة مانعة ؛ الدين في الأصل نقل، نقل عن الله، لك أن تقول وحي، ولك أن تقول نقل، ولك أن تقول نص، هذا هو الدين خطاب السماء للأرض، وحي عن الله، نقل عن الله، نص عن الله ونص النبي وحي ثانٍ، لأن هناك وحيين، وحياً متلواً ووحياً غير متلو هو السنة:

عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد]

وطاعة رسول الله طاعة مستقلة، لأن الله عصمه وأيده بالوحي وأمرنا أن نطيعه، بينما طاعة أي إنسان آخر مقيدة بمنهج الله، فإذا توافق أمره مع منهج الله فعلى العين والرأس، وإلا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

سيدنا الصديق رضي الله عنه، الذي لو وزن إيمان الخلق بإيمانه لرجح، الذي كان من أول المؤمنين إيماناً:

((ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، إلا أخي أبا بكر))

هذا الصديق يقول: **(أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إن قلت في آية من كتاب الله برأي، أو بما لا أعلم).**

وقال العلماء عن هذا الصحابي الصديق: **" لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبي بكر".**

شيء إذا لم يعلمه تهيبه، ولم يكن أحداً بعد أبي بكر أهيب بما لا يعلم من عمر، وإن أبا بكر نزلت به قضية، فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً، ولا بسنة نبيه أثراً، فاجتهد برأيه، ثم قال: هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني وأستغفر الله..

أرأيتم إلى هذا الأدب ؛ هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني وأستغفر الله.. سيدنا عمر رضي الله عنه، قال: **يا أيها الناس، إنما الرأي إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً، إن الله كان يريه، وإنما هو منا الظن والتكلف.**

رأي النبي وحيٌ من الله، معصوم، أما رأي الإنسان ظن وتكلف..

وتلا قوله تعالى:

(إنّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاس بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥))

[سورة النساء]

فلم يكن له رأي غير ما أراه الله جل جلاله..

كتب كاتب لعمر رضي الله عنه، قال: **هذا ما رأى الله ورأى عمر فقال بئس الكاتب أنت، قل هذا ما رأى عمر فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأً فمن عمر.**

ولعمر رضي الله عنه وهو عملاق الإسلام أقوال رائعة في هذا الموضوع، يقول: **(السنة ما سنه الله ورسوله، ولا تجعلوا خطأ الرأي سنة لأمة).**

أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، وتفلتت منهم أن يعوها، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا: لا نعلم، فعارضوا السنن برأيهم، فإياكم وإياهم.

أيها الإخوة الكرام، الإنسان مخلوق ضعيف محدود العلم، محدود التجربة، محدود الرؤية محدود البصيرة، كيف نقيسه بكلام الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ أردت من هذه الخطبة أن ينتفي عن الإنسان كل وهم أو كل تفكير بأن رأياً كائناً من كان يصلح لمجتمعنا، لا يصلح لمجتمعنا إلا منهج الله لا يصلح لمجتمعنا إلا كتاب الله وسنة رسوله، خالق الكون أنزل هذا الكتاب، والمعصوم سن هذه السنن، فنحن نفلح إذا اتبعنا القرآن والسنة ونخطئ خطأً جسيماً، ونرتكب إثماً عظيماً، ونقع في ظلم شديد حينما نحيد عن منهج الله كتاباً وسنةً، ونتبع الهوى، وكما قلت في مطلع الخطبة ليس هناك حل وسط، إن لم نكن على الوحي فنحن على اتباع الهوى:

(إنّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاس بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥))

[سورة القصص]

أيها الإخوة، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى خيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، بعد معرفة الله عز وجل، بعد أن تستقر حقيقة الإيمان في نفس الإنسان ليس هناك أعظم وأجل من أن يعرف أمره ونهيه، تطبيقاً لموضوع الخطبة الأولى، ليس هناك عمل أجل

وأخطر وأعظم فائدة للمؤمن بعد أن استقرت حقيقة الإيمان في قلبه من أن يتعرف إلى الأمر والنهي، لأن حاجة الإنسان إلى معرفة الأمر والنهي حاجة مصيرية.

قلت لكم قبل خطبتين: المظلي قد يجهل شكل المظلة، مربع أم دائري، وقد يجهل نوع قماشها، وقد يجهل لونها، وقد يجهل نوع تركيب خيوطها، وقد يجهل نوع الحبال وأقطار الحبال وعدد الحبال، ونزل سالماً، أما إذا جهل طريقة فتح المظلة ينزل ميتاً، فمعرفة طريقة فتحها معرفة أساسية وضرورية، وينبغي أن تُعلم بالضرورة، هذا هو الحلال والحرام، وهذا هو الأمر والنهي، وهذا معنى قول بعض العلماء افعل أو لا تفعل فأنت بعد أن تعرف الله من خلال الكون لابد من أن تنفذ منهجه، كيف تنفذ منهجاً، لا تعرفه، إذاً ما من عمل أعظم للمؤمن بعد معرفة الله من أن يعرف الحكم الشرعي في كل شيء، إذاً طلب الفقه فريضة بعد الفريضة.

أيها الإخوة الكرام، كلكم يعلم ماذا أصاب هذه البلدة الطيبة من أمطار غزيرة قبل عدة أيام هذه الأمطار أتلفت أو هدمت بيوتاً كثيرةً جداً، وأصحاب هؤلاء البيوت مشردون ليس لهم مؤوى، تهدم بيتهم وطُمِر أساس البيت، وأصبحوا هم وأولادهم على قارعة الطريق، وهناك مآسٍ لا يعلمها إلى الله، هذه الجمعة اختيرت في كل مساجد دمشق كي نجمع التبرعات لهؤلاء المنكوبين المتضررين بالسيول.

اتحاد الجمعيات الخيرية، وبعض إخوتنا الأكارم أعضاء في هذا الاتحاد، ولا أزكي على الله أحداً إن الأموال التي تُجبى لهذا المشروع مشروع إغاثة المتضررين في أيدٍ أمينة، وهذا المشروع خيري وإنساني.

((ومن نفس عن مؤمن كربة نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة))

((والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه))

((أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))

((عبدي أنفق أنفق عليك))

وأفضل المعروف على الإطلاق إغاثة الملهوف.

تصور أنك في الطريق بلا بيت بلا مأوى، بلا فراش، أنت وأهلك بعض الناس يعلمون ماذا حل بسكان الجادات العليا، بيوتهم متداعية من الطين، هذه الأمطار الشديدة التي نزلت في عشرين دقيقة هدمت عشرات البيوت، وشردت مئات الأسر، فالله سبحانه وتعالى يحبنا إذا تعاونا، قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢))

[سورة المائدة]

أنت مأمور، وقال بعض العلماء كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢))

وهذا المسجد المتواضع، محسوب عند أولي الأمر من المساجد التي يُجبى فيها الأموال بسخاء، وهذا لعمق إيمانكم فيما أعلم، ولحرصكم على العمل الصالح، ولكرمكم في بذل المال.

تساءلت مرةً، هؤلاء الإخوة المصلون، أليس فيهم مائة بإمكان كل واحد منهم أن يدفع ألف ليرة، مائة من كل الحضور، بعض الأشخاص الكرام الألف ليرة لا تقدم ولا تؤخر، ولا تغير شيئاً من مصروف البيت، فإن كان في المسجد مائة بإمكانهم أن يدفعوا ألف ليرة جمعنا مائة ألف، وإن كان في المسجد خمسمائة بإمكانهم أن يدفعوا خمسمائة فليدفعوا، وإذا كان بالمسجد خمسمئة أخرى بإمكانهم أن يدفعوا مئتي فليدفعوا، مئة مقبول، خمسون ليرة مقبولة، خمس ليرات مقبولة، رب درهم سبق ألف درهم.. وهذا يمكن أن يكون من مال الزكاة، ولبعض الإخوة الذين يدفعون الزكاة ترتيب رائع، وهو يدفع على مدار العام ويسجل على الزكاة، لأنه هناك مناسبات ضرورية جداً هناك أمور قاهرة، هناك أمور طارئة، فهذه المرة أنا مكلف من قبل هذه اللجنة أن تكون الجباية مضاعفة، وأنا أبدأ بنفسي بدفع ألف ليرة لهذا المشروع الذي لعل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا به، فادفعوا يدفع الله عنكم كل مكروه، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٣٨ : العفو والصفح.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١١-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

الله جل جلاله، عفو كريم، يعفو عن السيئات، ويعفو عن كثير فإذا تاب العبد توبة نصوحة، أنسى الله حافظيه، وجوارحه، وبقاع الأرض جميعها خطاياه وذنوبه.

فالعفو كما يقول علماء اللغة أبلغ من المغفرة لأن الغفران يُشعر بالستر، بينما العفو يشعر بالمحو، والمحو أبلغ من الستر، وقد أمر الله جل جلاله نبيه الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم بالعفو والصفح، فقال تعالى:

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩))

[سورة الأعراف ١٩٩]

وقال أيضاً:

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥))

[سورة الحجر]

وقد فهم النبي عليه الصلاة والسلام العفو بأن تعطي من حرمك وأن تصل من قطعك، وأن تعفو عن من ظلمك، وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال جل جلاله:

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩))

[سورة البقرة]

أيها الإخوة الكرام: أجمع علماء التفسير على أن قوله تعالى:

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢))

[سورة النور]

أجمع علماء التفسير على أن المقصود بكلمة أولي الفضل سيدنا الصديق رضي الله عنه، كان يعطي مسطحاً، فهو من أقربائه الفقراء الذين هاجروا في سبيل الله.. حينما أشاع في المدينة حديث الإفك امتنع عن العطاء، فعاتبه الله جل جلاله وقال: **فليعفوا واليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم..**

يعني إذا كنت مكلفاً من قبل الحق جل جلاله، أن تعفوا عمن أشاع في المدينة حديث الإفك الذي لا

يحتمله أب، فكيف بما دون ذلك من الذنوب إذا كان هذا الذنب الذي لا يُحتمل قد أمر المؤمن أن يعفو عن قائله فكيف فيما سوى ذلك من الذنوب.

أيها الإخوة الكرام: سؤال يطرح نفسه أمامنا، لماذا يعفو أناس وينتقم آخرون ؟

الجواب الإنسان إذا اتصل بالله العفو الكريم اشتق منه بعضاً من هذا الخلق العظيم، وإذا استقرت الرحمة في قلب الإنسان فإنها تفيض على خصومه بالعفو والغفران، فيصبح العفو أحبَ إليه من الانتقام، وإذا علم الإنسان أن خصمه بشكل أو بآخر أخٌ له في الإنسانية فإذا انتقم منه خسره وإذا عفا عنه ربحه، ولأن يربح الإنسان أخاه خير له من الدنيا وما فيه عندئذ يرى في العفو غُنْماً وفي الانتقام غُرْماً.

أيها الإخوة الكرام: إذا أيقن الإنسان أن العفو سلم يرقى به إلى عز الدنيا والآخرة، وأن الانتقام دركات يهوي بها إلى ذلٍّ ومقت يلاحقانه حتى الممات آثر العفو على الانتقام، وإذا علم أبناء المجتمع الواحد أنه بالعفو تتسع دائرة الصداقات والمودات فيصبح المجتمع كالبنيان المرصوص، وبالانتقام تفشو العداوات والأحقاد حتى تصل بالمجتمع إلى أحط الدركات صار العفو ديدنهم.
يا أيها الإخوة الكرام: تعالوا بنا إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم أسوتنا الحسنة وقدوتنا الصالحة، ومثلنا الأعلى الذي بعثه الله معلماً للبشرية، ورحمة للإنسانية النبي علمنا بلسانه وعلمنا بأفعاله، ولعل أفعاله بالغة التأثير لأنها حقيقة مع البرهان عليها.

تعالوا بنا لنرى النبي صلى الله عليه وسلم لنرى نبينا الأكرم ومعلمنا الأعظم وهو يدخل مكة فاتحاً، يدخل مكة التي ائتمرت على قتله، مكة التي أخرجته، مكة التي عذبت أصحابه، مكة التي نكلت بهم، مكة التي قاطعته، مكة التي كذبته، مكة التي قاتلته في بدر وأحد والخندق، ومكة التي ألبت عليه العرب جميعاً.

لقد ألقى أهلها السلاح، ومدوا إليه أعناقهم ليحكم فيها ما يرى، إنهم في قبضته، أمره نافذ في رقابهم، حياتهم جميعاً معلقة بين شفتيه، وهذه عشرة آلاف سيف، تتوجه يوم الفتح فوق ربى مكة، تأتمر بأمره وتنتظر إشارةً منه، إنها تستطيع أن تهلكهم في لمح البصر.

لقد دخلها عليه الصلاة والسلام يوم الفتح الأعظم دخول المتأدبين الشاكرين، معترف بعظم الفضل، ولم يدخلها دخول المتكبرين المتجبرين ثملاً بنشوة النصر.

لقد سار النبي عليه الصلاة والسلام في موكب النصر يوم فتح مكة حانياً رأسه حتى تعذر على الناس رؤية وجهه، وحتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره، مردداً بينه وبين نفسه ابتهالات الشكر المبللة بالدموع.

سأل أعداءه بعد أن استقر به المقام: **يا معشر قريش، ويا أهل مكة فاشرأبت إليه الأعناق، وزاغت الأبصار، سألهم ما تظنون أني فاعل بك، وصاحت الجموع الوجلة بكلمة واحدة، كأنما كانوا على اتفاق في ترديدها، قالوا خيراً، أخٌ كريم وابن أخٌ كريم، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء.**

أيها الإخوة الكرام: لقد غُمر المذنبون الذين كانوا ينتظرون القصاص، ويستحقونه بأنبل عفو، وأجمل صفح، حتى قال أبو سفيان الذي ناصب رسول الله العداء أعواماً طويلة، قال: **بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أرحمك وما أحلمك وما أحكمك وما أوصلك وما أكرمك ".**

يا سيدي يا رسول الله ؛ ما أجمل عفوك عند المقدرة، وما أعظم نفسك التي سمت كل هذا السمو فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام، لقد ترفعت عن كل عاطفة دنيا، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان، لم تكن تعرف العداوات، بل لم تكن تريد أن تقوم بين الناس، لقد مكنك الله من عدوك فقدرت وعفوت، فضربت بذلك للعالم كله ولأجياله مثلاً أعلى في العفو والصفح، فلم تجعل من يوم فتح مكة يوم تشفٍ ولا انتقام بل جعلته يوم برٍّ ورحمة وسلام.

أيها الإخوة الكرام:

عفوه صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة يذكرنا بعفوه عن أهل الطائف الذين كذبوه أشد التكذيب، واستخفوا بدعوته واستهزؤوا بها، بل أغروا به سفهاءهم وصبيانهم.

جاءه جبريل الأمين يستأذنه أن يطبق عليهم الجبلين، فما زاد عن أن قال:

((لا يا أخي، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله.))

لم يتخل عن قومه، لقد عفا عنهم، والتمس لهم العذر، وتوسم بأبنائهم الخير، هذا عن عفوه الجماعي، فماذا عن عفوه الفردي.

يتجلى عفوه الفردي بالصفح عن نفر من المشركين، بالغوا في عداوتهم وأذيتهم، ويوم فتح مكة، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وهاموا على وجوههم، ومن هؤلاء صفوان بن أمية، الذي شد رحاله صوب جدة، ليبحر منها إلى اليمن، واشتد إشفاق عمير بن وهب عليه، وصمم أن يسترده من يد الشيطان بكل وسيلة وذهب مسرعاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال له يا نبي الله، إن صفوان ابن أمية سيد قومه قد خرج هارباً منك ليقذف بنفسه إلى البحر فأمنه صلى الله عليك، فقال عليه الصلاة والسلام هو آمن، قال يا رسول الله هو آمن ؟ قال يا رسول الله أعطني آية يعرف بها أمانك أعطاه النبي عليه الصلاة والسلام عمامته التي دخل بها مكة.

فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر، قال ياصفوان فداك أبي وأمي، الله اللهَ في نفسك أن تهلكها، هذا أمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جئتك به، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس، عزه عزك وشرفه شرفك.

قال صفوان: إني أخاف على نفسي.

قال: هو أحلم من ذلك وأكرم.

فرجع معه حتى دخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صفوان للنبي عليه الصلاة والسلام: إن هذا يزعم أنك أمنتني، فقال عليه الصلاة والسلام: صدق.

قال صفوان: فاجعلني في الخيار شهرين.

فقال عليه الصلاة والسلام: أنت في الخيار أربعة أشهر.

وفيما بعد أسلم صفوان، وسعه عفو النبي.

وروي أن أعرابياً جاء النبي صلى الله عليه وسلم يطلب شيئاً، فأعطاه ثم قال: أأحسنت إليك يا أعرابي، قال: لا ولا أجملت.

فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم صلى الله عليه وسلم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله فأرسل إليه وزاده شيئاً، ثم قال له: أأحسنت إليك، قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك.

قال: نعم.

فلما كان الغد جاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم، إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك يا أعرابي؟.

قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

أما التعليق، تعليق النبي عليه الصلاة والسلام على هذه الحادثة، قال عليه الصلاة والسلام:

((" مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عنه، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً، فقال لهم خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم بها، فتوجه لها بين يديها، فأخذ من قُمام

الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها، وقال عليه الصلاة والسلام: إني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه دخل النار ".))

إن الرسول الحليم صلى الله عليه وسلم، لم تأخذه الدهشة لجحود الأعرابي أول الأمر، وعرف من طبيعة صنف من الناس، مردوا على الجفوة، في التعبير، والإسراع بالشر، وأمثال هؤلاء، لو عولجوا بالعقوبة، لقضت عليهم، ولَمَا كانت ظلماً، ولكن العظماء أصحاب القلوب الكبيرة، لا ينتهون بمصائر العامة إلى هذا الختام الأليم، إنهم يفيضون من رحمتهم وحلمهم على ذوي النزق، حتى يلجئونهم إلى الخير إلجاءً، إن هذا الأعرابي الذي اشترى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم رضاه بهذا المال لا يبعد أن تراه بعد أيام، وقد كُلِف بعمل خطير، أن يقدّم فيه الغالي والرخيص عن طيب خاطر، وما المال إلا قمام الأرض تُستناخ به الرواحل الجامحة، لتقطع عليها المفازات الشاسعة.

روى الإمام مسلم، عن عائشة أم المؤمنين، أنها قالت:

((" مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك والدارمي]

وقد أثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه لم ينتقم من أحد لنفسه قط.

وقد تخلق الصحب الكرام، بأخلاق نبيهم العدنان في العفو والصفح فقد روى البخاري عن أبن عباس، عن عيينة بن حصن، نقال لعمر بن الخطاب: يا ابن الخطاب، ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل فغضب عمر، حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه:

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩))

[سورة الأعراف ١٩٩]

وإن هذا من الجاهلين فقال ابن عباس: فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل.

أورد السيوطي في، في الجامع الصغير، حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه أبو هريرة:

((" من كظم غيظه، وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ".))

انظروا إلى ثمار العفو التي نوه بها النبي صلى الله عليه وسلم، إنها الأمن والإيمان، المن مع الخلق، والإيمان مع الحق.

فهذا الذي يؤثر الانتقام على العفو، يجعل الجو المحيط به ضاغطاً وعلاقاته مع الآخرين متوترة، ويكون انتقامه تربة خصبة لانتقام مضاد فيتوقع المنتقم الشر، وتوقُّع الشر شرٌّ من وقوعه، وهكذا يفقد الأمن يفقد أثمن ما في الحياة النفسية، قال تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢))

[سورة الأنعام]

أما إذا آثر الرجل العفو على الانتقام، فقد جعل الجو المحيط به ودياً وجعل علاقاته بالآخرين مريحة، وجعل من أعدائه الألداء أصدقاء حميمين، قال تعالى:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤))

[سورة فصلت ٣٤]

هذا عن أول ثمرة من ثمار العفو، فماذا عن ثمرة الإيمان ؟

إن الإنسان إذا عفا عن أخيه، كان أقرب إلى ربه، مما لو انتقم منه لأن الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، وفي الحديث القدسي:

((" إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي ".))

[رواه البخاري]

إذا كانت إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان، فما بالك بالعفو عن إنسان حيث بالعفو عنه يبدل خوفه أمناً، وضيقه فرجاً ويأسه أملاً.. إن العفو يدل على الإيمان ويؤكده، ويزيد فيه ويجدده فالإنسان بنيان الله وملعون من هدم بنيان الله.

حينما تصح التوبة، ويتحقق الندم، وتصدق العزيمة على ترك الذنب عندئذ يصبح العفو حياة للمذنب، كما كان القصاص حياة للمجتمع ويغدو فرصة ثمينة ينالها المذنب، ليؤكد صحة توبته وعظيم ندمه، وصدق عزيمته على ترك ما اقترفت يداه، وليؤكد أيضاً الجانب الخير في الإنسان وربما كان هذا المذنب الذي عُفي عنه علماً من أعلام الأمة ومصلحاً من كبار مصلحيها، وقائداً فذاً من قادتها، والتاريخ الإسلامي حافل بمثل أولئك الذين أصبحوا من قادتها الأبطال وعلمائها الأعلام وأوليائها المقربين كعكرمة بن أبي جهل.

مَنْ عكرمة بن أبي جهل ؟ هو الذي عادى النبي صلى الله عليه وسلم أشدّ العداء، وآذى أصحابه أفدح الإيذاء، وهو أحد صناديد قريش المعدودين وأبرز فرسانها المرموقين، وهو ابن أبي جهل،

وجبّار مكة الأول وزعيم الشرك الأكبر، ولم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بالعفو عنه بل وجه أصحابه قائلاً:

((" سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل، مؤمناً مهاجراً فلا تسبُّوا أباه فإن سبّ الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت "..))

وقد عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصدِّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً قاتلته صداً عن سبيل الله، إلا قاتلتُ ضعفه في سبيل الله. وفي اليرموك لما اشتدّ الكرب على المسلمين نزل عن جواده، وكسر غُمد سيفه، وأوغل في صفوف الروم، فبادر إليه خالد بن الوليد، وقال: لا تفعل يا عكرمة فإن قتلك سيكون شديداً على المسلمين، فقال: **إليك عني يا خالد، لقد كان لك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة أما أنا وأبي فقد كنّا من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعني أكفِّر عما سلف مني.. لقد قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواطن كثيرة وأفرُّ من الروم اليوم، إن هذا لن يكون أبداً..**

إن الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة الصحيحة، التي تحضُّ على العفو ـ هذه ملاحظة مهمة جداً ـ لا تعني، ولا تريد، أن يكون العفو مرتعاً للمجرمين يسرحون ويمرحون في رحابه، ولا تعني ولا تريد أن يكون العفو حصناً لهم يحميهم من حكم العدالة فيهم، ولا تعني ولا تريد أن يكون العفو منطلقاً جديداً للعدوان على دماء المسلمين، وأموالهم وأعراضهم قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩))

[سورة البقرة ١٧٩]

كان أبو عزة الجمحي الشاعر، من أسارى بدر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد مبلغ أربعة آلاف درهم فداءً لكل أسير، فكلم أبو عزّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، لقد عرفتَ ما لي من مال، وإني لو حاجة، وذو عيال، فامنن عليّ، فمنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه، وأخذ عليه العهد ألا يظاهر عليه أحداً لكنه نقض العهد، وعاد إلى ما كان عليه من سب النبي صلى الله عليه وسلم، وهجاء أصحابه، وحضّ الناس على قتاله.

وفي يوم أحد ظفر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله لا تقتلني وامنن عليّ ودعني لبناتي، وأعاهدك ألا أعود، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

((" لا والله لا أدعك تمسح عارضيك بأستار الكعبة وتقول للناس: خدعت محمداً مرتين، إن المؤمن لا يُلدغ من جُحر مرتين".))

ولم يعف عنه.

أيها الإخوة:لهذا ليس من العفو أن نستسلم لعدو غاصب، سلب الأرض، وانتهك الحرمات، وأفسد العقائد وأفرغ القيم وزور التاريخ، فالمؤمنون الصادقون إذا أصابهم البغي هو ينتصرون.

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام: **عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم جالس، إذ رأيناه ضحك، حتى بدت ثناياه، فقيل له: مم تضحك يا رسول الله ؟**

قال:

((رجلان من أمتي جثيا بين يدي ربي عز وجل فقال أحدهما: خذ مظلمتي من أخي. قال الله تعالى: أعظ أخاك مظلمته.. فقال: يا رب إنه لم يبقَ من حسناتي شيء، فقال صاحبه: يا رب فليحمل من أوزاري. ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدموع، ثم قال: إن ذلك اليوم ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يُحمل عنهم أوزارهم. ثم قال الله تعالى للطالب لحقِّه: ارفع بصرك فانظر إلى الجنان فيرقع رأسه فيرى ما أعجبه من الخير والنعمة. فقال: لمن هذا يا رب ؟ فقال الله تعالى: لمن أعطاني ثمنه. قال: ومن يملك ذلك يا رب ؟ قال: أنت قال: بماذا ؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: أشهدُكَ يا رب أني قد عفوت عنه فقال الله تعالى: خذ بيد أخيك، ثم أدخِله الجنة.))

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((" فاتقوا الله وأصْلِحُوا ذاتَ بينكم "))

فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة ".

الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نصلح ذات بيننا، وقد فهم بعض العلماء هذه الآية على ثلاثة مستويات ؛ المستوى الأول: أن نصلح أنفسنا التي بين جوانحنا، بتعريفها ربها، وحملها على طاعته والتقرب إليه لتسعد بقربه.

والمستوى الثاني: أن نصلح كل علاقة بيننا وبين الآخرين والأقارب منهم والأباعد، عن طريق معرفة الحقوق والواجبات والوقوف عند حدود الشرع واعتماد العدل والإحسان.

والمستوى الثالث: أن نصلح فيما بين الناس، بحملهم على العفو والترغيب فيه، وبيان ثماره اليانعة، ونتائجه الطيبة، ولو كلّفنا وقتاً وجهداً ومالاً لأننا إن فعلنا ذلك، فإنما نطبّق قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١))

[سورة الأنفال ١]

أيها الإخوة الكرام: في ختام هذا الموضوع طوبى لمن كان مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر وطوبى لمن أصلح بين الناس ووفق بينهم، وطوبى لم استعمله الله في الخير..

إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك.

من عادة الكريم أنه إذا قدر غفر، وإن رأى زلّة ستر، فلا سؤدد مع الانتقام، وأولى الناس بالعفو أقدرهم عليه، وأقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب، وكفى بالمرء إثماً أن يغضب إذا قيل له اتـق الله ولا يُعرف الحليم إلا عند الغضب، وقال خليفة عُرف بالحلم:

إني آنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي.

وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة فقال: **ترك الغضب.**

وقال الأحنف: **إياكم ورأي الأوغاد** فقيل له: وما رأي الأوغاد ؟

فقال: **الذين يرون الصفح والعفو عاراً وحمقاً**، وقال بعضهم:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف وتاب عما قد جناه واقترف

***

لقوله:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٣٩ : خ١ - من نفس عن مؤمن كربة١ (الجزاء الرباني من جنس العمل) ، خ٢ - وجوب خدمة المرأة زوجها.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١١-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، ورد في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد والدارمي]

أيها الإخوة الكرام، هذا الحديث الشريف الصحيح أصل في المعاملات بين المسلمين أصل هذا الحديث النبوي الشريف يؤكد قاعدةً كلية من كبريات قواعد الجزاء الرباني الذي يعتمد على مبدأي العدل والفضل.

من خلال هذا الحديث، ومن خلال أحاديث أخرى، وآيات كثيرة جداً نستنبط قاعدة كبرى من قواعد الجزاء الرباني، هذا الجزاء الرباني يعتمد على مبدأي العدل والفضل، أما السيئة فبمثلها، وأما الحسنة فيضاعف الله الجزاء عليها، إلى عشرة أضعاف في الحد الأدنى، ثم إلى سبعمائة ضعفٍ في المقدار المعدود، ثم إلى ما يشاء الله من فضل في المقدار غير المحدود.

أيها الإخوة الكرام، دققوا في هذه الآيات:

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧))

[سورة الأعراف]

الجزاء بقدر العمل:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩))

[سورة النمل]

آية ثالثة:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(١٦٠))

[سورة الأنعام]

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦))

[سورة يونس]

(وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧))

[سورة يونس]

آية سادسة:

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠))

[سورة غافر]

أيها الإخوة الكرام، قانون الجزاء الرباني، يقوم على مبدأي العدل وعدم الظلم، ومبدأ الفضل من عشرة أمثال إلى ما لا نهاية له من فضل الله عز وجل الإنسان إذا أيقن أن لكل سيئة عقابها، وأن لكل حسنة ثوابها، تعامل مع الله عز وجل وفق هذا القانون، لا يُعد عندئذ المسيء ذكياً، ولا المنحرف شاطراً، عندئذ يحاسب الإنسان نفسه حساباً عسيراً.

أيها الإخوة الكرام، هذا الحديث الشريف الذي هو أصل في التعامل بين المؤمنين، يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)).

أيها الإخوة، هذه القضية الأولى في هذا الحديث، مساعدة المؤمن لأخيه المؤمن بتنفيس كربته، إذا وجده في كربة، هذه المساعدة من فضائل الأخلاق العملية ومن أعمال البر والإحسان، يعني من أجل الأعمال الصالحة من أعظم الأعمال التي تتقرب بها إلى الله عز وجل، أن ترى بأخيك المؤمن كربةً فتزيلها عنه، تنفس عنه كربته.

أيها الإخوة الكرام، لكل كربة من كرب الحياة تنفيس بحسبها، فالكربة التي سببها الفقر تنفيسها ببذل المال، أو بتيسير السبل إلى تحصيله.

إذا كان عند مؤمن كربة، أساسها حاجته إلى المال، أساسها اضطراره إلى مبلغ من المال، لينتفع به بنحو أو بآخر، أو ليحقق مصلحته، أو ليدرأ خطراً أكبر، إذا كانت كربة المؤمن، من حاجته إلى

المال فتنفيس هذه الكربة بإعطائه المال، أو بتيسير سبله له، هذا وجهٌ من وجوه الكرب التي تدعو الله في تنفيسها قربة إليه.

والكربة التي سببها رغبة الوصول إلى مطلوب مأذون به شرعاً ؛ عندك رغبة ملحة، كي تصل إلى شيء مأذون به شرعاً، عند ذي سلطان تنفيس هذه الكربة، ببذل الجاه والشفاعة الحسنة ؛ إنسان له حاجة عند رجل، عند ذي سلطان، ولك علاقة به طيبة، ولك صلة به متينة وبإمكانك أن تأمره فيأتمر بأمرك، لا تبخل أن تذهب إلى هذا الإنسان شافعاً له، شافعاً لأخيك عنده، فهذا من تنفيس الكرب.
هناك إنسان كثيرون يضنون أن يضعوا مكانتهم عند شخص له قيمة اجتماعية، وبهذا العمل يحققون مصالح إخوانهم، لا يفعلون هذا، هذا الذي يبخل بجاهه، أو يبخل بمكانته، أن يحل مشكلة مؤمن، وأن ينفس عنه كربة من كرب الدنيا، لعل الله سبحانه وتعالى، يحجب عنه رحمته يوم يكون في أشد الحاجة إليها.

الكربة التي سببها رغبة الوصول إلى شيء مطلوب، مأذون به شرعاً عند ذي سلطان، تنفيس هذه الكربة بذل الجاه، والشفاعة الحسنة.

والكربة التي سببها الرغبة في الزواج الذي لم تتوفر أسبابه، يكون تنفيسها بالمساعدة على بلوغها بالوسائل المأذونة شرعاً.

والكربة التي سببها الخوف من ظالم على النفس والأهل والمال يكون تنفيسها بالمساعدة على تحقيق أسباب الأمن لهذا الإنسان.

ابحث عن هذا العمل، إنه من أجل الأعمال ؛ مؤمن صادق واقع في أزمة واقع في ورطة، بحاجة إلى شيء، بحاجة إلى مساعدة، بحاجة إلى معالجة، عنده كربة تسحقه، من أجل الأعمال عند الله جل جلاله ومن أعظمها، تقريباً لك عنده أن تنفس عن هذا المؤمن هذه الكربة.

أيها الإخوة الكرام، الجزاء الرباني من جنس العمل، المكافأة بتنفيس كربة من جنس هذه الكرب، هي مكافأة الله جل جلاله لهذا الإنسان ولكن متى، يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، لذلك ورد في الحديث، عن عَبْد اللَّهِ بْن عُمَرَ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد]

أيها الإخوة الكرام، أصل حياة المؤمن قائمة على العطاء، أصل حياة المؤمن قائمة على البذل أصل حياة المؤمن، قائمة على إشاعة الأمن بين الناس، على إشاعة الطمأنينة، على حل مشكلات الناس، على تطمينهم، على إسعادهم على رأب الصدق، على تحقيق آمالهم.

المؤمن بنى حياته على العطاء، والذي قدم لكتاب عن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال في مقدمة هذا الكتاب.

يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ..

حياة المؤمن عطاء، وحياة غير المؤمن أخذ واستغلال، حياة المؤمن بذل وعطاء، وحياة غير المؤمن أخذ واستجداء.

أيها الإخوة الكرام، هذا باب من أبواب العمل الصالح، وما أكثر الكرب التي تحيق بالمؤمن كن معواناً لهم على حياتهم قدم لهم يد المساعدة، المادية والمعنوية، ارحمهم ارحم ضعفهم، ارحم ما هم في من مشكلة، أبعد القلوب عن الله عز وجل القلب القاسي، علامة اتصالك بالله رحمة في قلبك، وعلامة انقطاع الإنسان عن الله قسوة في قلبه، القسوة من علامات الانقطاع عن الله والرحمة من علامات القرب منه، والله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

((إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي)).

عنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

[أخرجه الترمذي وأبو داود]

لا تعبأ بكلام بعيد عن منهج الله عز وجل، إن رحمت من في الأرض رحمك من في السماء، وأنت في قبضته، وأنت تحتاجه في كل شيء.

أيها الإخوة الكرام، القضية الثانية في هذا الحديث:

((وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ))

التيسير على المعسر بوجوه متعدد، فالتيسير على المدين المعسر بانتظاره إلى وقت يساره، هناك من يوجه له مذكرة قضائية، هناك من يحجز على ماله، هنالك من يسحقه إذا ثبت لديك أنه فقير معسر لا يملك أن يؤدي لك الحقوق، انتظر، فانتظارك رحمة، وانتظارك قربة وانتظارك على هذا المعسر صدقة تُضاف إلى أعمالك الصالحة.

أيها الإخوة الكرام، التيسير على المدين المعسر يكون بانتظاره إلى وقت يساره، وبتجزئة الأقساط عليه حتى يؤدي ما عليه براحة.. ألا ترجوا رحمة الله، ألا ترجو حفظ الله، ألا ترجو إكرام الله، أكرم أخاك، بتخفيف العبء عنه.

وهناك من يحط عنه بعض الدين، هناك من يحط عنه كل الدين هناك من ينتظره، هناك من يقسط له، هناك من يحط عنه كله أو بعضه.

أيها الإخوة الكرام، قال بعض العلماء: أن تنتظر أخاك المعسر، أو أن تجزئ له الأداء أقساطاً أو أن تحط له بعض الدين، أو أن تسامحه بكل الدين، هذا من أفضل الصدقات الخفية، لأنه ثبت إليك أنه لديك أنه محتاج لهذا المال، وليس بإمكانه أن يؤديه لك.

أيها الإخوة الكرام، ((وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ)).. من معانيها الأخرى ؛ التيسير على من هو مُلزم بعمل يعسر عليه القيام به.. كلفت إنساناً بعمل فوق طاقته، فإن لم يؤده في الوقت المناسب حملته من الغرامات فوق ما يطيق، فمن باب التيسير أن تتساهل مع هذا الإنسان الذي ثبت لك أنه معسر، قد لا يجد المواد الأولية لإنجاز ما تفق معك عليه، فإذا كنت متساهلاً معه، رحمته، وضعت نفسك مكانه، فالله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عمل.

وكأن هذا الحديث يعني بعض الموظفين، الذين يتعلقون بالشكليات الورقية فإذا جاء إليهم من يحبون أن يكرمون تساهلوا معه بكل هذه الأوراق، إذن بإمكانك أن تتساهل، فإذا وضعت العراقيل والعقبات وكلفت هذا الإنسان ما لا يطيق، من تقديم هذه الوثائق، وبإمكانك أن تغض النظر عن بعضها وأنت قانع أنه محق في طلبه، هذا الحديث يحتاجه الموظفون الذين يتعاملون مع المواطنين تعاملاً واقعياً لا تعاملاً شكلياً.

أيها الإخوة الكرام، هذا كله مقيد بالحدود المأذون بها شرعاً، ومن عمل ذلك أثابه الله ثوابين يسر الله عليه في الدنيا أموره، إن يسرت على معسر يسر الله عليك في الدنيا، ويسر الله عليك في الآخرة ؛ في الآخرة يسر عليك حسابك، من عمل على خدمة الخلق في الدنيا، حاسبه الله حس ابا ً يسيراً، ومن شدد على الخلق في الدنيا، حاسبه الله في الآخرة حساباً عسيراً.

لا زلنا في هذه القاعدة الكلية من قواعد الجزاء الرباني ؛ (الجزاء من جنس العمل)..

إن يسرت ييسر الله عليك، إن نفست كربة من كرب الدنيا نفس الله عليك كربة من كرب يوم القيامة.

أيها الإخوة الكرام، القضية الثالثة: ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ستر المسلم لأخيه المسلم في زلاته وأخطائه التي يستتر هو بها، ولا يُجاهر ولا تضر بمصالح المسلمين العامة، في شؤون أمنهم وسياستهم واقتصادهم وأخلاقهم ودينهم..

هناك أعمال لا يجوز السكوت عليها، هناك أعمال تؤذي مجموع المسلمين هذا ليس ستراً بل هو تآمر وخيانة، إذا كان هناك انحراف خطير ؛ طعام فاسد، طعام فيه فساد كبير، لا ينبغي أن تستر على هذا المسلم، هو يؤذي صحة المسلمين عامةً، لكن أقول هذا الكلام الدقيق من ستر على مسلم في زلاته وأخطائه التي يستتر هو بها، ولا يجاهر ولا تضر بمصالح المسلمين، لا شؤون أمنهم، ولا في شؤون اقتصادهم ولا في شؤون أخلاقهم ودينهم، فالله عز وجل، يحب من المؤمنين أن يستروا فضائح ومعاصي الآخرين، إذا استتروا هم بها، ولم يجاهروا ؛ الإنسان حينما يفعل سيئةً ويستحي بها فيه خير، لا تفضحه، مادام قد استحيى بها مادام قد أخفاها، مادام قد تألم من إظهارها، هذا إنسان ينبغي أن تستره.

أيها الإخوة الكرام، ماذا ينتج عن فضح الآخرين، ينتج خطرين كبيرين.

الخطر الأول: إشاعة أنواع الفساد والفواحش بين الناس.. فلان منحرف وفلان منحرف وفلان منحرف، ترى الانحراف هو الأصل فإذا فضح الإنسان أحوال الناس المستورة، وأشاعها بين الناس جرأ من لم يقترف هذه الفاحشة أن يقترف، جعل الفاحشة هي الأصل، ليس من صالح الدعوة إلى الله، وليس من صالح المسلمين أن تشيع الفاحشة في مجتمع المسلمين ينبغي أن تستر.

شيء آخر هذا الذي اقترف ذنباً وبقي في ستر الله عز وجل عودته إلى الله سهلة، أما إذا فضحته وبينت خطأه، وظهر بين الناس مذنباً منحرفاً هذه عقبة كبيرة تحول بينه وبين أن يتوب إلى الله ويتابع السلوك معه.

أيها الإخوة الكرام،

((وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ..)).

لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن:

((الذنب شؤم على غير صاحبه، إن تكلم به فقد اغتابه، وإن رضي به شاركه في الإثم، وإن عيره ابتلي به))

فكيف بصاحب الذنب..

أيها الإخوة الكرام، أول مكافئة على من ستر مسلم، إن الله ستّير، من أسمائه الحسنى أن ستير، فأنت اجعل من هذا الاسم الكامل اجعله منهجاً لك، لا تكن فضاحاً لا تكن عياباً، لا تمش بأخطاء الناس في الناس، لا تجعل نفسك إذاعةً تذيع الفواحش والآثام، اجعل نفسك ستيراً، اجعل الناس يثقون ببعضهم بعضاً.

أيها الإخوة الكرام، المكافأة المعجلة أن يستره الله في الدنيا، والإنسان إذا كان في ستر الله فهو في بحبوحة، فإذا أراد الله أن يفضح إنساناً فضحه في عُقر داره لذلك من تتبع عورات المسلمين، تتبع الله عورته حتى يفضحه في عُقر داره..

عَنْ نَافِعٍ عَن ابْن عُمَرَ قَالَ:

((صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ...)).

[انفرد به الترمذي]

والإنسان أحياناً يعيش في أمن ستر الله، والذي يتتبع عورات الناس يجاهر بإشاعة الفاحشة والفساد يفضحه الله في عقر داره.

الشيء الثاني: يستره في الآخرة، في وقفة الحساب، وبعد دخول الجنة ولكن أيها الإخوة الكرام، إن أشنع أنواع الفضيحة أن يفضح الإنسان نفسه هؤلاء المنحرفون، هؤلاء الفجار، فعَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم]

هذا من أشد أنواع الفحشاء، أن يسترك الله وأن تفضح نفسك..

لذلك من الآيات الدقيقة جداً قول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩))

[سورة النور]

ماذا فعل، ما فعل شيئاً إلا أنه أحب أن تشيع الفاحشة.. أيها الإخوة الكرام هذا الحديث الشريف يحتاج إلى خطبة أخرى إن شاء الله تعالى أذكركم بنصه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)).

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد والدارمي]

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى خيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، بعض من يعملون في الحقل الإسلامي يخطبون ويقولون، إنه ليس على المرأة أن تخدم زوجها، وهم بهذا يشيعون البلبلة والقلقلة في الأسر الله جل جلاله يقول:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨))

[سورة البقرة]

أيها الإخوة الكرام، خدمة المرأة زوجها عند من خاطبهم الله عز وجل بكلامه من المعروف.. من المعروف خدمة المرأة زوجها عند من خاطبهم الله تعالى بكلامه: ولهن مثل، ماذا عليهن، عليها شيء.. أي شيء هذا ؟. بالمعروف المعروف:

((جاءت امرأة النبيَّ عليه الصلاة والسلام، قالت يا رسول الله، إن زوجي تزوجني وأنا شابة، ذات أهل ومال وجمال، فلما كبرت سني ونفر بطني وذهب مالي وتفرق أهلي قال أنت عليَّ كظهر أمي ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا...)).

بينت هذه المرأة أن له مهمة، ولها مهمة، عليه كسب الرزق وعليها تربية الأولاد وخدمتهن، لذلك كل حق يقابله واجب، (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) خدمة المرأة زوجها، عند من خاطبهم الله عز وجل بكلامه من المعروف، أما أن يعمل الرجل خارج البيت، ثم يأتي ليكنس ويطحن ويعجن ويخبز، ويفعل كل أعمال البيت هذا ليس من المعروف كل حق يقابله واجب، أوجب الله

تعالى للزوجة على الزوج حق النفقة والكسوة والسكن، فضلاً على المهر، ومن البديهي أن يلقى عليها لقاء ذلك من الأعمال ما يكافئ ذلك الحقوق، أما قول الآخرين، إن المهر والنفقة وجبا في مقابلة الاستمتاع هذا أمر مشترك بينهما..

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: إن العقود المطلقة إنما تنزل على العرف والعرف خدمة المرأة وقيامها بمصالح البيت، قال تعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً (٣٤))

[سورة النساء]

وإذا لم تخدم المرأة زوجها، بل كان هو الخادم لها، إذن هي القوامة عليه

أيها الإخوة الكرام، المروي عن نساء الصحابة أنهن كنَّ يَقُمن بخدمة أزواجهن، ومصالح بيوتهن، صح عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها، أنها قالت: " كنت أخدم الزبير ـ زوجها ـ خدمة البيت كله، وكان له فرس فكنت أسوسه، وأحث له، وأقوم عليه، وصح أنها كانت تعلف فرسه، وتسقي الماء، وتخيط الدلو، وتعجن، وتنقل النوى على رأسها، من أرض لها على ثلث فرسخ..

من طحن وعجن وخبز، وتدير الرحى، حتى أثرت في يدها وذهبت إلى النبي عليه الصلاة والسلام، هي وزوجها، يشكوان إليه الخدمة فحكم النبي عليه الصلاة والسلام، على ابنته فاطمة، بالخدمة الباطنة يعني الطحن والطبخ والفرش وخدمة البيت، واستسقاء الماء وعمل البيت كله هو يعمل خارج البيت، وهي تعمل داخل البيت، أما إذا أعانها فهذا جيد وهذا فضل، وهذه رحمة. أيها الإخوة الكرام، أصحاب الرأي الثاني يقولون: هذه الأحاديث تدل على التطوع ومكارم الأخلاق لا على الوجوب، وإن خدمة فاطمة رضي الله عنها، وأسماء كانت تبرعاً وإحسانا، ونسوا أن فاطمة رضي الله عنها شكت إلى النبي ما تلقى من خدمة، وأن النبي لم يقبل شكواها، ولم يقل لعلي لا خدمة عليها إنما الخدمة عليك..

النبي عليه الصلاة والسلام لا يحابي في الحكم أحداً، فقوله وعمله وتقريره شرع لنا، وقد رأى أسماء والعلف على رأسها والزبير معه فلم يقل له لا خدمة عليها، وأن هذا ظلم لها، بل أقره على استخدامها، وأقر سائر الصاحبة على خدمة زوجها، أيها الإخوة الكرام بالمعروف، بما تطيق لا بما لا تطيق، كان عليه الصلاة والسلام في مهنة أهله، كان يعين أهله هذا من التعاون، وقد يسأل سائل، لمَ لم يذكر في عقد القران واجبها في خدمة المبيت ؟ الجواب هذا هو أقدس عقد على الإطلاق ولو

كتب فيه خدمة البيت لكان عقد استخدام لا عقد زواج، بقي هذا العقد منزهاً عن أن يكون عقد استخدام، عقد مشاركة بين زوجين، إنه أقدس عقد، فيا أيها الإخوة الكرام هذا الذي يُقال رأي ضعيف، ويخلق بلبلة في الأسر وبين المسلمين هذا العرف، [ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف]، ماذا عليهن بالمعروف ؟

العرف.. النص المطلق يُرجع به إلى العرف، والعرف: أن يكسب الرجل الرزق وأن تقوم المرأة بشؤون البيت، هذا هو العرف، إلا في حالات نادرة جداً، الإنسان إذا تزوج من امرأة لا تعمل أبداً في البيت وجب له أن يأتي لها بخادم، لأنه تزوجها على هذا الشرط، هذه حالة خاصة، أما لو أخذت تسع وتسعون بالمائة من بيوتات المسلمين، المرأة تقوم بشؤون البيت، والزوجة بكسب الرزق، وهذا هو التكامل بين الزوجين، فلا مجال لهذه الدعوى التي يقولها بعض من يعملون في الدعوة إلى الله عز وجل، وهم بهذا يحابون المرأة، إن المرأة والرجل شريكان متعاونان متكافلان متضامنان، أما أن يكلفها مالا تطيق هذا من الظلم، أما أن يحملها مالا تطيق هذا من الظلم، إن أعانها فله الأجر والفضل.
أيها الإخوة الكرام، الشريعة وسط بين طرفين، هناك تطرف، هناك امرأة لا تعمل أبداً وعلى الزوج أن يفعل كل شيء، وهناك زوج لا يعمل أبداً، وعلى المرأة أن تفعل كل شيء، هذا من الظلم وهذا من الظلم.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٤٠ : خ١ - من نفس عن مؤمن كربة٢ (الإعانة) ، خ٢ - ليلة النصف من شعبان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١١-٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: في الخطبة السابقة بدأت في شرح حديث شريف، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدارمي]

وبينت بفضل الله عز وجل، أن هناك قانوناً هو قانون الجزاء الرباني والجزاء من جنس العمل، ولهذا الحديث تتمة، ثم يقول عليه الصلاة والسلام:

((..وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))

الإعانة أيها الإخوة، المطلوبة، هي الإعانة على تحصيل أمر مأذون به شرعاً، أو تحصيل أمر فيه طاعة لله عز وجل، الإعانة تدخل تحت قوله تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢))

[سورة المائدة]

لابد من جمع النصوص، أن تأخذ حديثاً بمفرده، وأن تفهمه من دون استهداء بفهم العلماء العاملين المخلصين، الفهم القاصر، أن تطلقه إطلاقاً وقد قيد بأحاديث أخرى، فهذا فهم لا يُقبل، لذلك، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣))

[سورة النحل]

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩))

[سورة الفرقان]

الإعانة المطلوبة، المقيدة بآية كريمة ـ وتعاونوا على البر والتقوى ـ هي الإعانة على تحصيل أمر مأذون به شرعاً، أو تحصيل أمر في طاعة لله عز وجل، هذا هو القيد الذي لابد من أن نلحظه من خلال نصوص كثيرة، آيات وأحاديث.

أيها الإخوة الكرام:

وتعاونوا على البر والتقوى ؛

البرُّ بشكل تفصيلي: صلاح الدنيا، والتقوى صلاح الآخرة، التقوى أن تتقي غضب الله، أن تتقي سخط الله، أن تتقي عقاب الله، أن تتقي النار، كيف تتقي العقاب والسخط والنار، بطاعته، فالتقوى تقابل الطاعة.

والبر أن تعمل على صلاح حال المسلمين ؛ إنشاء المستشفيات المدارس المعاهد، المياتم، الضمانات الصحية، أي شيء يصلح حال المسلمين، يرفع من شأنهم، يقوي جمعهم، يحل مشكلاتهم، يطعم فقراءهم، يؤوي أيتامهم، أي شيء من هذا القبيل ينضوي تحت كلمة وتعاونوا على البر والتقوى.

أيها الإخوة الكرام:

ماذا تنتظر من الله إذا أعنت مؤمناً، إذا أعنت مسلماً، إذا أعنت أخاً لك في الإنسانية، ماذا تنتظر ؟.. انطلاقاً من أن الجزاء من جنس العمل، أنت حينما تعين أخاً بمبلغ من المال، حينما تذهب إلى إنسان قوي فتشفع له في أمر مأذون به شرعاً حينما ترد له حقه، حينما تعينه على النجاة من مرض عضال، حينما تنفق عليه، حينما تصلح شأنه، حينما توفق بينه وبين أهليه، حينما تعينه على قضاء حاجاته، أنت حينما تعين أخاً ـ إن شئت أن تقول في الإنسانية، المطلق على إطلاقه، أو أن تعين أخاً مؤمناً مقرباً إليك، أو أن تعيـن مسلماً من جموع المسلمين ـ أنت حينا تعين أخاً لك، ماذا تحقق لك؟.. شيء لا يُصدق، خالق السماوات والأرض يعينك، المطلق بقدرته، بعلمه، بغناه، برحمته، يعنيك، أنت أعنت أخاك بمبلغ من المال، أعنته بجاهك وقد كلفك هذا ساعات معدودات، أعنته بعلمك أعنته بخبرتك، أعنته بعضلاتك، لكنك حينما تفعل هذا مع عبد من عباد الله، مع أخٍ لك في الإنسانية، أو مع أخ مؤمـــن مقرب إليك أو مع مسلم من عداد المسلمين، ماذا حصلت ؟.. حصلت شيئاً لا يقدر بثمن حصلت مكسباً عظيماً جداً، حصلت أن خالق السماوات والأرض الذي بيده كل شيء، والذي إليه يُرجع الأمر كله، والذي إذا قال لشيء كن فيكون، خالق السماوات والأرض في عونك " وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ".

أيها الإخوة الكرام:

من عون الله لهذا المؤمن أن يُخلفه في تجارته، فيصرف عنه الصفقات التي تنتهي بإفلاسه، ويوفقه إلى صفقات يربح منها، ويعيش حياةً كريمة.

يُخلفه في زراعته يصرف عنه الكوارث الطبيعية، يخلفه في بيته.. كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد سفراً يدعو بهذا الدعاء:

((اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد))

إذا كان الله في عونك في بيتك، مع أولادك، مع زوجتك، مع مالك مع تجارتك، إذا كان الله في عونك، في المستودعات التي تضع فيها بضاعتك، والله في عون العبد، يعينك في صحتك في كل شؤون حياتك يخلفك في تجارتك، في زراعتك، في صناعتك، في وظيفتك، يدافع عنك في غيبتك

((وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))

ألا تتمنى أن تكسب عون الله عز وجل ؟

ألا تتمنى أن يخضع لهذا الحديث ؟

ألا تتمنى أن يشملك هذا الحديث ؟

((وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))

لو أردت أن تطلق هذا الموضوع، في أي أمر من أمور عباد الله في أي شيء يخصه، يصنع الله له الخيرات، يرفعه إلى أعلى الدرجات يحفظه، ينمي مكتسباته، فوق ما كان يصنع لنفسه. يعني إذا إنسان قوي أراد أن يعينك شيء لا يصدق، إنسان من بني جلدتك، فإذا كان خالق الأكوان أراد أن يعينك، في كل شؤون حياتك ثمن هذه المعونة أن تعين أخاً في الله، أن تفرج عنه كربة، أن تيسر على معسر، أن تستر مسلماً " وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ".

أيها الإخوة الكرام:

في هذا الحديث لفتة بلاغية رائعة (ما كان) هذه ما عند علماء النحو مصدرية ظرفية، يعني أنت تستحق معونة الله مدة كونك تعين أخاك فما كنت في عون أخيك فأنت خاضع لمعونة الله، فإذا تخليت عن هذه المعونة تخلى الله عنك، أنت حينما تعين أخاك، أنت مشمول بمعونة الله، ومعونة الله لا تُقدر بثمن، ولا ينالها إلا المؤمنون، وإذا نالها المؤمن فشيء لا يصدق، معونة الله خالق الأكوان بيده كل شيء، بيده أدق أجهزة جسمك، بيده كل الخلايا التي تعمل في جسمك، بيده كل الحواس الخمس، كل الأجهزة، بيده من حولك بيده من دونك، بيده من فوقك، بيده رزقك، بيده

سلامتك، بيده سعادتك، بيده قلبك، بيده طمأنينتك، فإذا أنت أعنك أخاً مسلماً، أو أخاً في الإنسانية، أو مخلوقاً أعنته، فقد استحققت معونة الله عز وجل.

هناك أناس خصهم الله بالنعم، ربنا جل جلاله، يثبتها بين أيديهم ما بذلوها، فإذا امتنعوا عن بذلها أخذها منهم وحولها إلى غيرهم.

فالذي يعطي، والذي ينفق، والذي يعين، هذا من فضل الله عليك إذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضل ونسبه إليك.

إن أعطاك الله مالاً، إن أعطاك الله صحة، إن أعطاك الله قوة، إن أعطاك الله علماً، إن أعطاك الله حكمةً، إن أعطاك الله طلاقة لسان هذه من فضل الله عز وجل، فإذا وظفتها بالحق استحققت معونة الله عز وجل، وشيء لا يُصدق ولا يُقدر بثمن أن تكون خاضعاً لرحمة الله، أن تكون مشمولاً بعناية الله، أن تكون مشمولاً بتوفيق الله، أن تكون مشمولاً بحفظ الله " وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ" يعني مُدة كونه في عون أخيه فهو مشمول بعون الله عز وجل..

فإذا أعطاك من يمنعه، ثم من يعطي إذا ما منعك..

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢))

[سورة فاطر]

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

[سورة الرعد]

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨))

[سورة الحج]

لذلك المؤمن ينطلق من شيء أساسي في حياته، هو أنه يعيش للعمل الصالح، بدليل أن الإنسان حينما يلقى الله عز وجل، لا يندم إلا على تفريطه بالعمل الصالح:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠))

[سورة المؤمنون]

أيها الإخوة الكرام:

هذه فقرة ثالثة من الحديث:

((وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))

المنطلق منطلق تعاون، المنطلق إحسان، المنطلق أن تشيع الأمن بين الناس، أن تشيع الخير، أن تشيع الفضيلة، أن تعطي لا أن تأخذ، أن تكون عنصر أمان للناس، عنصر خير، عنصر بر، عنصر إسعاد هذا هو المؤمن، مسعد، بنى حياته على العطاء، بينما غير المؤمن بنى حياته على الأخذ، بحق أو بغير حق، بشكل شرعي أو بشكل غير شرعي.

أيها الإخوة الكرام:

"وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ "

سلك طريقاً، طريق الإيمان، طريق معرفة الواحد الديان، طريق معرفة كتاب الله، طريق معرفة سنة رسول الله، طريق معرفة الأحكام الفقهية، السيرة النبوية، طريقة معرفة ما يسعدك وما يشقيك، طريق معرفة وسائل الخلاص من هلاك الدنيا وهلاك الآخرة.

وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا .. الإنسان حينما يكون قابعاً في بيته، ثم يرتدي ثيابه ويذهب إلى الطريق ليحضر مجلس علم، ليس في هذا المجلس لا ضيافة ولا تعويض ولا عطاء ولا أي شيء من الدنيا، إنما يبتغي ليطلب علماً لله عز وجل، يعرف من هو، ولماذا خلقه، وما علة وجوده وما غاية وجوده ؟ وما المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه ؟.. وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا ؛ كل الناس غادٍ ورائح، انظر إلى الطريق صباحاً، كل الناس يسعى إلى هدف من أهداف الحياة، أما المؤمن قد يسعى إلى معرفة الله إلى طلب العلم، إلى تعلم القرآن وتعليمه " وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ "..

كلمة سهل، الله عز وجل ينتظر منك الخطوة الأولى، وعلى الله الباقي، ينتظر أن تبادل هذه المبادرة، ينتظر أن تقول يا رب أريد أن أعرفك، يا رب عرفني بمن يعرفك، الإنسان خُلق ليعرف الله، خُلق ليسعد بقربه، فإذا سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، والعلم أساس النجاح أساس الإيمان، أساس الاستقامة، أساس العمل الصالح.. إن أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإن أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإن أردتهما معاً فعليك بالعلم.

" وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ.. "

على الله أن يسهل، أن يقرب البعيد، أن يذلل الصعب، أن يقدم لك ما تريد من معرفته.

"وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ".

العلماء قالوا: الالتماس التحسس المبالغ فيه للتعرف على الشيء..

معنى الالتماس أي تحسسته وبالغت في التحسس حتى أصل إليه..

إذاً ينبغي أن تفحص مصادر العلم، " إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم..".

" ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا ".
يجب أن تتفحص، قال تعالى:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١))

[سورة يس]

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩))

[سورة الأحزاب]

هذه علامة ثانية..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨))

[سورة آل عمران]

هذه علامة رابعة..

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤))

[سورة البقرة]

هذه علامة خامسة..

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣))

[سورة فصلت]

هذه علامة سادسة..

الالتماس ؛ التحسس المبالغ فيه بالتعرف على الشيء.

أيها الإخوة الكرام:

يجب أن تلتمس كل الطرق إلى الله عز وجل، طريق العلم.. العلم طريق والتوبة طريق، والعمل الصالح طريق، وأداء العبادات طريق وأداء الأذكار طريق " الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق " بالتوبة تصل إلى الله، وبأداء العبادات المتقنة تصل إلى الله، وببذل المال والوقت والجهد تصل إلى الله، وبطلب العلم تصل إلى الله..

"وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ".

شيء آخر أيها الإخوة:

إضافة إلى تعدد الطرق إلى الله، الوسائل يعني، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥))

[سورة المائدة]

أي شيء يقربك من الله فهو من الوسيلة، فالعمل الصالح وسيلة.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠))

[سورة الكهف آية ١١٠]

طلب العلم وسيلة، الاستغفار وسيلة، التوبة وسيلة..

أيها الإخوة الكرام:

بقي شيء في هذه الفقرة من الحديث، هو أن الجنة درجات، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢))

[سورة الأنعام]

فأنت بقدر علمك، وبقدر إخلاصك، وبقدر سعيك، لبلوغ الدرجات العلى، تصل إلى الدرجات العلى في الجنة، علو الهمة من الإيمان.

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠))

[سورة التوبة]

قال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩))

[سورة الزمر]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١))

[سورة المجادلة]

فبالعلم تصل إلى الإيمان، وبالعلم تبلغ أعلى درجات الإيمان، وبالعلم تصل إلى العبودية للواحد الديان، وبالعلم تبلغ مراتب الكمال، وبالعلم تبلغ درجة الخشية، وبالعلم تصل إلى التقوى. والفقرة الأخيرة من الحديث وهذه تعنينا جميعاً ؛

((.. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فيمن عِنْدَهُ..))

هذا بيت الله..

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني))

قد لا تجد ضيافة في المسجد ولكن تجد فيه الأمن والطمأنينة، تجد فيه العلم والرضا والسعادة، هذه من إكرام الله تعالى لرواد المساجد ولزوار بيوت الله في الأرض.

".. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ.. ".

قال تعالى:

(لَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٢١))

[سورة البقرة]

وقد فسر بعض العلماء هذه التلاوة الحقة بأن تتلوه تلاوة صحيحة وفق أحكام التجويد، وأن تفهمه، وأن تتدبره، وأن تعمل به، فإذا تلوته تلاوةً صحيحة، وفهمته، وتدبرت عواقب كل آية وكل أمر ثم عملت بما أمرك الله عز وجل، فقد تلوته تلاوة صحيحة لأنه ورد في الحديث الصحيح:

" رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه ".

يجب أن تُحل حلاله، وأن تحرم حرامه، وأن تقف عند أحكامه..

سيدنا عمر كان وقافاً عند كتاب الله..

.. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ..

يفهمون الأمر والنهي، والمحكم والمتشابه، يفهمون آيات الحلال والحرام، يفهمون الآيات الكونية، يفهمون قصص الأمم السابقة، يفهمون مشاهد يوم القيامة..

".. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ(التلاوة شيء والمدارسة شيء آخر) بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فيمن عِنْدَهُ.. "

ما اجمع قوم: قال بعض العلماء الرجال.. وقال علماء آخرون تعني الرجال والنساء معاً، والبيت من بيوت الله هو المسجد.

يتلون القرآن حق تلاوته ويتدارسونه.. قال بعض العلماء يقرؤونه كثيراً يحفظونه، يذللون صعابه، يفهمونه، يعملون به..

".. إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ.. ".

من اسمها، شيء تسكن له النفس، شيء ترتاح له النفس، تصور أيها الأخ الكرم إنساناً جائعاً جوعاً شديداً، هو في اضطراب وهيجان، فإذا أكل أطيب الطعام سكت، وأخلد إلى النوم وارتاح، كذلك النفس لها حاجة، الإيمان حاجتها، معرفة الله حاجتها، طاعة الله طمأنينتها فإذا اجتمعت في بيت من بيوت الله وتلت كتاب الله، وعرفت موقعها من الحياة، وعرفت غاية وجودها، وعرفت الطريق الموصل إلى الله سكنت.

السكينة شيء مريح جداً، قال تعالى:

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨))

[سورة الرعد]

ترتاح النفس تسكن، في الإنسان فراغ لا يملأه العلم المادي، ولا تملأه الثروة، ولا يملأه المكان ولا الأولاد، لو حصلت كل حظوظ الدنيا مائة في المائة، ولم تؤمن فهناك فراغ في النفس، هذا الفراغ يدعو إلى الاضطراب وإلى القلق وإلى اختلال التوازن، هذا الفراغ لا يملأه إلا الإيمان، لذلك نزلت عليهم السكينة.. هذا من عطاء الله عز وجل الطمأنينة، في قلب المؤمن من الطمأنينة ما لو وُزع على أهل بلد لكفاهم.

" نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ.. ".

الرحمة مطلق عطاء الله، يبدأ من الصحة، وينتهي بالنور الذي يُقذف في قلب الإنسان، يبدأ من تأمين حاجاته المادية، وينتهي بأعلى درجات القرب من الله عز وجل، رحمة الله مطلق عطائه في الدنيا والآخرة لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل المسجد يدعو الله ويقول اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك..

أحياناً الأنوار التي يتجلى الله بها على عباده المؤمنين هذه من الرحمة السكينة والطمأنينة والرضا والراحة النفسية هذا كله من رحمة الله، ثم توفير حاجاتك الدنيوية لأن الدعاء الكريم الشريف: " اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر "..

".. وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فيمن عِنْدَهُ.. ".

الملائكة يحفون هؤلاء المؤمنين، يحفظونهم، يؤنسونهم، يكرمونهم يستغفرون لهم، يصلون عليهم، هذا معناه حفتهم الملائكة..

ثم شيء أخير ؛ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فيمن عِنْدَهُ.. ".

الإنسان أحياناً عنده حاجات أدبية معنوية، قد يأكل ويشر وينام ويسكن ويتزوج، هذه كلها حاجات مادية، ولكن في الإنسان حاجات أدبية سماها علماء النفس تأكيد الذات، والشعور بالأهمية، وهذه الحاجة النفيسة الأدبية محققة عند الله عز وجل، فإذا جلست في بيت من بيوت الله وقرأت القرآن وتدارسته، ونزلت عليك السكينة، وغشيتك الرحمة وحفتك الملائكة، الآن في شيء آخر، أن الله سبحانه وتعالى يذكرك في الملأ الأعلى، لك شأن عند الله..

دخل على النبي أحد أصحابه الفقراء فرحب به النبي ترحيباً عجيباً قال أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي، قال: نعم يا أخي خامل في الأرض علم في السماء ".

".. وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فيمن عِنْدَهُ.. ".

لذلك حتى الميول الأدبية، تأكيد الذات الشعور بالأهمية، هذه محققة في عالم الدين، ألم يقل الله عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨))

[سورة الشرح]

ورفعنا لك ذكرك ما ذكر الله إلا وذكر معه اسم النبي عليه الصلاة والسلام، ولكل مؤمن من هذه الآية نصيب، الله عز وجل يُعلي قدر المؤمن، ويرفع ذكره.

أيها الإخوة الكرام:

بقي شيء، يقول عليه الصلاة والسلام:

((.. وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

قد يتوهم أحدكم أنه النسب الأسري، لا.. أنت مع المؤمنين، أنت معهم في مجالسهم، تأنس بهم، وتسعد بقربهم، ولكن ليس لك عمل كعملهم، تسعد بإيجابيات المسجد، بالاحتفالات بالولائم، ولكن ليس لك عمل ولا مجاهدة كأعمالهم، لذلك من قصر به علمه، ولو كنت منتسباً إلى أعلى جماعة إسلامية في الأرض، لو كنت منتسباً إلى أصحاب رسول الله، ولم تعمل عملهم، تقصر عنهم، يعني

الانتساب إلى المؤمنين لا يكفي، أن تقول أنا منهم أنا معهم أنا في كل لقاءاتهم، لابد من أن يكون لك عمل كعملهم، ولا تنسوا أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد ومالك]

يعني أنت إذا انتزعت من فم النبي عليه الصلاة والسلام ـ فرضاً ـ حكماً لصالحك لا تنجو من عذاب الله..

فالعبرة أن يكون لك عمل كعمل هؤلاء المؤمنين في استقامتهم، وفي مجاهدتهم وفي بذلهم وعطائهم وخدمتهم للخلق.

أيها الإخوة الكرام:

هذه الفقرة الأخيرة من الحديث

((.. وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

والحديث الذي تعرفونه جميعاً:

((يا فاطمة بنت محمد، يا عباس عم رسول الله، أنقذا نفسيكما من النار أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتوني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

هذا الحديث أيها الإخوة من أصول الأحاديث الجامعة في العلاقات الاجتماعية، لو أن المسلمون طبقوه..

((... مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدارمي]

هذا الحديث أيها الإخوة لو طبقه المسلمون لكانوا في حال غير هذا الحال.. يجب أن تبني حياتك على التعاون وعلى العطاء وعلى البذل وعلى طاعة الله عز وجل وعلى طلب العلم، هذه محاور هذا الحديث..

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام :

بعد أسبوعين تأتي ليلة النصف من شعبان، ليلة النصف من شعبان لم يأت فيها حديث وصل إلى درجة الصحة، هناك أحاديث حسنها بعض العلماء وبعضهم ردوها، إلا أن الذي يلفت النظر أن بعض المقصرين، وبعض المتفلتين، يميلون إلى أحاديث المناسبات ميلاً شديداً، فيسألون عنها بإلحاح ولعلهم بهذا يعوضون كثيراً من تقصيرهم أو اختلال توازنهم..

الإنسان المؤمن الكامل هو مع الله في كل الأيام في كل الأوقات في كل الشهور في كل المناسبات، استقامته، وطاعته وعبادته هي هي لا تتغير ولا تتبدل ولا تزيد ولا تنقص، ولكن الإنسان أحياناً يحب أن يعوض فقد يرتكب الكبائر ويحرص على أداء التحسينات الطفيفة في الدين، لعله بهذا يوهم نفسه أنه من أهل الإيمان، على كل لم يرد في ليلة النصف من شعبان أحاديث وصلت إلى درجة الصحة، هناك أحاديث حسنها بعض العلماء وبعضهم ردوها، لست في هذا المعرض، لكنني في معرض أن هناك دعاءً يقرأه بعض الناس ومن قبل يقرأه معظم الناس، في ليلة النصف من شعبان هذا الدعاء لا أصل له إطلاقاً، وهو خطأ ولا يُوافق المعقول ولا المنقول:

" اللهم إن كنت قد كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً محروماً مطروداً مُقتراً عليَّ في الرزق، فامح اللهم بفضلك شقاوتي وحرماني وطردي وإقتار رزقي، وثبتني عندك في أم الكتاب سعيداً مرزوقاً موفقاً للخيرات كلها فإنك قلت وقولك الحق في كتابك المنزل على لسان نبيك المرسل (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) ".

هذا الدعاء لا أصل له، فيه خطأ كبير، ويخالف المعقول والمنقول معاً فلذلك نحن بحاجة إلى أن نزيل على الدين ما علق به.

أم الكتاب أولاً لا محو فيها ولا إثبات، فالدعاء يتناقض مع أصول الدين

الشيء الثاني علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن من أدب الدعاء ؛

" إذا سألتم الله فأجزموا المسألة، ولا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ارحمني إن شئت ". وهو تأليف ركيك ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الأصل في العبادات الحظر،

وأن الأصل في الأشياء الإباحة، في العبادات الأصل هو الحظر، لا تؤدى العبادة إلا وفق أمر إلهي في كتاب أو سنة أما الأشياء الأصل فيها الإباحة ولا يُحظر شيئاً منها إلى بنص.

أيها الإخوة الكرام:

يمكن في هذه الليلة أن ندعو وأن نستغفر وأن نسأل الله الحفظ والسلامة في الدنيا والآخرة.. الدعاء مقبول والاستغفار مقبول فإذا حسنت هذه الأحاديث فيها الدعاء وفيها الاستغفار.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٤١ : خ١ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، خ٢ - الإسراء والمعراج.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١٢-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام :

ما من يوم يحتاج فيه المؤمنون المسلمون أمسَّ الحاجة إلى الوحدة واللائتلاف والتعاون والتضامن كهذه الأيام .

وفي الإسلام ثوابت ومتغيرات ؛ الثوابت لا خلاف فيها ، وتغطيها النصوص القطعية ، قطعية الدلالة ، وإجماع الأمة ، والمتغيرات مواطن الاجتهاد ، والاجتهاد في أصله ظني ، لذلك ؛ الله جل جلاله أقام الحجة البينة على خلقه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وهذه الحجج القاطعة ، النصوص القطعية في الكتاب والسنة ، وموضع الإجماع لا مجال فيها لتطوير ، ولا لاجتهاد ، ولا يحل الخلاف لها وفيها لمن علمها .

الإمام الشافعي يقول : كل ما أقام الله به الحجة في كتابه ، أو على السان نبيه منصوصاً بيناً لم يحلَّ الخلاف فيه لمن علمه .

هذا هو الشرع المنزل ..

أما المتغيرات : فيُقصد بها مواضع الاجتهاد ، وكل ما لم يقم عليه دليل قاطع من نص صحيح ، أو إجماع صريح ، وهذا هو الشرع المُؤول .

أيها الإخوة الكرام هذه مقدمة :

الموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل الفرائض في الإسلام ، بل هو الفريضة السادسة ؛ صوم وصلاة ، وحج وزكاة وشهادة أن لا إله إلا الله ، وفرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

أيها الإخوة الكرام :

ما الثوابت في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة ، وفي هذه الفريضة ثوابت ومتغيرات ، فما هي الثوابت القطعية في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم ، وهو أهم ما في مهمات الأنبياء والمرسلين أجمعين .

بإقامة الأمر بالمعروف على وجهه كما أمر الله عز وجل ، استحقت هذه الأمة أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، هي خير أمة أخرجت للناس لعلة ـ أي لسبب ـ هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠))

[سورة آل عمران]

والأمة التي استحقت اللعن والهلاك ، سبب هذا اللعن والهلاك أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، قال تعالى :

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩))

[سورة المائدة]

دقق بين الآيتين ، أمة أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، فاستحقت أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وأمة لا يتناهى أفرادها عن المنكر استحقت لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة .

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩))

أيها الإخوة الكرام :

المفروض على كل مسلم يقوم بهذه الشريعة أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر ، هذا محور الخطبة اليوم ، لكنه الشيء الذي يدعو للألم هو أن هذه الفريضة السادسة قد ضُيعت في واقعنا المعاصر ، ما بين ناكل عنها بشبهات أو شهوات ، وبين مستخدم لها بلا فقه ولا بصيرة ولا نظر فيما يصلح وما لا يصلح ، فالذي حصل أن الذي نتج عن استخدام هذه الفريضة من دون نظر ولا حكمة ولا فقه ولا تبصرٍ ، أن النتائج هي أسخط لله عز وجل من المنكرات التي أُنكرت بغير حكمة وبغير مسؤولية .

من الثوابت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ الشيء الأول هو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية ، وقد يصبح فرضَ عين في بعض الحالات ، لقول الله عز وجل :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤))

[سورة آل عمران]

لم يقل كونوا جميعاً آمرين بالمعروف ، فإذا قام به أحد ، أو جماعة مما تحصل به الكفاية ، سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به ، وإن تقاعد الخلق أجمعون ، عم الحرج على القادرين عليه كافة لا محالة ، وعندئذ يصبح فرض عين على القادر الذي لم يقمْ به غيره .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين ، إذا قام به أحد ، أو قام به مجموع ، سقط الحرج عن الآخرين ، وأصبح هؤلاء الذين فعلوه من الفالحين ، فإذا تقاعس كل الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقعت الأمة كلها في حرج شديد ، وأصبح الأمر بالمعروف فرضَ عين على القادر إذا لم يقم غيرك به .

هذا هو الثابت الأول ، وهذه هي الحقيقة الأولى في الفريضة السادسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الحقيقة الثانية :

لعموم قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد]

وفي قول آخر :

((فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ))

[أخرجه مسلم وأحمد]

يعني إذا لم تنكر بقلبك وهذا أضعف الإيمان ليس في هذا القلب حبة خردل من إيمان .

أيها الإخوة الكرام :

البند الثاني والحقيقة الثانية ، وهو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل المسلمين جماعات وآحاداً .

يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى : لا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات بل ذلك جائز لآحاد المسلمين .

ويقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى : إن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه ، وإنه إذا لم يلحقه بالتغيير إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى ، فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره .

لو أن الناس لاموك ، لو أن فتاةً متبذلة ، أليس لها أبٌ ؟ أليس لها خالٌ؟

لو أن أباها أو عمها أو خالها أمرها ، ولامه الآخرون على أمره ينبغي أن يأمرها بالتستر والتعفف والاحتشام .

أيها الإخوة الكرام :

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : كل من رأى منكراً فسكت عنه وهو قادر على أن ينكره فقد عصى الله ، أن ينكره بطريقة أو بأخرى .

إذاً الحقيقة الأولى هو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية ، ويصبح فرض عين إذا تقاعس عنه الآخرون .

والحقيقة الثانية ، وهو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل المسلمين ، جماعات وآحاداً .

والحقيقة الثالثة ، وهو أنه لا إنكار في مواضع الاجتهاد ، القضية الاجتهادية ، والقضية الاحتمالية ، القضية التي لها وجوه بين علماء الأمة الكبار المعتمدين الورعين المتحققين ، هذه قضية اجتهادية لا مجال فيها لإنكار المنكر ، لأن الله سبحانه وتعالى تعبدنا باجتهاد الأئمة .

مسائل الاجتهاد ، من عمل فيها بقول بعض العلماء لم يُنكر عليه ، ولم يهجر ، ومن عمل بأحد القولين لم يُنكر عليه ، فإن ظهر للإنسان رجحان أحد القولين عمل به ، وإلا قلد بعض العلماء الذين يُعتمد عليهم في بيان أرجح القولين .

الاختلاف في الأحكام الاجتهادية أكثر من أن يُضبط ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة .

والإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول : لا يُنكر إلا المنكر الظاهر بلا تجسس ، والمعلوم يقيناً بغير اجتهاد ، هذا الذي ينكر .

هذه الحقيقة السادسة في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أيها الإخوة الكرام :

لو أن هذه الفريضة السادسة ، أُقيمت على الوجه الذي أراده الله عز وجل لكنا في حال غير هذا الحال ، ماذا يحصل عندئذ ؟

تضيق دوائر المنكر ، وتتسع دوائر المعروف ، يضيق الباطل ويتسع الحق ، ينتشر الحق وينمحق الضلال .

أما إذا سكت المسلم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتسعت دوائر الباطل ، وضاقت دوائر الحق ، بل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل بقاء الحق لا من أجل توسيعه ، بل إن أحد أركان النجاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لقوله تعالى :

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

[سورة العصر]

هذه فريضة من أجل الفرائض ..

أيها الإخوة الكرام :

((بلغوا عني ولو آية))

((ألا يا رب مبلغ أوعى من سامع))

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣))

لو أن كل إنسان ضبط بيته ، لو أن كل إنسان نصح إخوته ، وأخواته وجيرانه وأصدقائه ، ومن يعمل معه ، بالموعظة الحسنة ، والدليل الناصع والبيان المشرق ، والتلطف الكثير ، والرقة البالغة، لكنا في حال غير هذا الحال .

ما الذي دعا أمة أن تستحق سخط الله وغضبه ، ولعنته ..

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩))

والأمة الإسلامية ، حينما لا يتناهى أفرادها عن المنكرات تستحق غضب الله ولعنته .

الحقيقة الرابعة في موضوع الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر ؛ يجب أن يُحسم المنكر بما ينحسم به ، لا بأكثر من ذلك ، فإذا كان هذا المنكر يحسم بكلمة لطيفة ، لا ينبغي أن تستخدم الكلمة الخشنة، إذا كان هذا المنكر يحسم بقطيعة هادفة ، لا ينبغي أن يُستخدم أكثر من هذه القطيعة إذا كان هذا المنكر يحسم بالتعنيف لا ينبغي أن تحسمه بالضرب ، المنكر يجب أن يُحسم لا بالوسيلة الأقوى والأقسى ، بل بما ينحسم به ، وهذه حقيقة ثابتة في قضايا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، القول اللين أولاً ، فإن لم يجد فالقول الخشن ، فإن لم يجد كان التغيير باليد ، هذا فيما تملك من أسرتك ، وفيما تملك من عملك .

أيها الإخوة الكرام :

والحقيقة الخامسة في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تقتصر في التغيير على قدر الحاجة ، فالمقصود إزالة المنكر لا العقوبة عليه ، ليس آحاد المسلمين مكلفاً أن يعاقب عن المنكر ، مكلفٌ أن يزيله فقط ، فالمقصود إزالته وليست العقوبة عليه .

هناك دفع وهناك زجر وهناك عقوبة ، فالعقوبة على الماضي والزجر على المستقبل ، والدفع على الحاضر ، العقوبة والردع من مهمات أولياء الأمور أما آحاد المسلمين مهمتهم الدفع فقط ، أن تزيل المنكر لا أن تعاقب عليه ، وهذا فيما تستطيع ، والقاعدة الأساسية ، أنه إذا نتج عن إنكار المنكر ، منكر أسخط لله تعالى من المنكر الذي أنكرته ، عندئذ لا ينبغي أن تنكر هذا المنكر . لا بلسانك ولا بيدك ، يُكتفى أن تنكره بقلبك وهذا أضعف الإيمان .

أيها الإخوة الكرام :

درجات الإنكار ؛ كما قال بعض العلماء ، التعريف التبيين ؛ هذا منكر هذه مخالفة شرعية ، هذا عمل لا يرضي الله ، هذه الآية وهذا الحديث وهذا التوجيه وهذه سنة النبي ، وهذا رأي الفقهاء ، وهذا رأي الأئمة الأعلام ، بين .. التبيين أولاً ، ثم النهي بالنصح والموعظة الحسنة ثانياً ثم القول الخشن لمن تقدر على توجيهه ثالثاً ، ثم الإنكار باليد ثم التخويف

ربنا جل جلاله كيف يوجه عباده ؟ بالدعوة البيانية ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤))

[سورة الأنفال]

فإن لم يستجيبوا فالله جل جلاله ماذا يفعل ؟ التأديب التربوي

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١))

[سورة السجدة]

ثم بالإكرام الاستدراجي ، ثم بالقصم ، لابد من التدرج ، يجب أن توضح وأن تبين ، وأن تنصح برقة بالغة ، ثم أن تزجر ، ثم أن تقاطع ثم أن تخوف ، ينبغي أن تنتقل من درجة إلى درجة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

رجل دخل على أمير وقال سأنصحك وسأغلظ عليك ، فكان هذا الأمير أفقه من الواعظ ، قال ولِمَ الغلظة يا أخي ، لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني ، أرسل موسى إلى فرعون ، لستَ أنت كموسى ولستُ أنا كفرعون ، فقال له :

(فقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤))

[سورة طه]

قال له ولمَ الغلظة يا أخي ، من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف

والبند السادس ، والحقيقة السادسة في هذا الموضوع موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أن إنكار القلب يجب أن يكون كاملاً وجازماً ، في جميع الأحول ، لأن حب القلب وبغضه لا سلطان لأحد عليه ولا ترد على القلب عوارض الإكراه إطلاقاً ، لذلك يجب أن يبقى كاملاً وجازماً ، لأن أي نقص في إنكار القلب هو نقص في الإيمان ، لأن القلب لا سلطان لأحد عليه ، ولا يجري عليه الإكراه ولا الضغط ، فلذي لا يُنكر بقلبه ليس فيه حبة خردل من إيمان لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان))

أيها الإخوة الكرام :

مرة ثانية ، لو أمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، وفق منهج الله عز وجل ، لكنا في حال غير هذا الحال ، لو أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر لتوسعت دوائر الحق ولضاقت دوائر الباطل ، لو أن كل إنسان تعهد أن يقيم الإسلام في بيته ، إقامة باليد ، وأن ينصح في من حوله من أخوة ، من أخوات ، من جيران ، من أصدقاء ، هؤلاء جميعاً لو تعاونوا على البر والتقوى لكان المسلمين في أحسن حال .

ابن مسعود رضي الله عنه ، سمع رجلاً يقول ، هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه ته المنكر ، فقال ابن مسعود :

((هلك من لم يعرف المعروف والمنكر))

لأن معرفة المعروف والمنكر فرض عين لا يسقط عن أحد ، فمن لم يعرفه هلك ، أما الإنكار باللسان واليد فإنما يجب بحسب الاستطاعة.

هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه .

ذكرت لكم في خطبة سابقة ، أن الذي يهبط بالمظلة ، قد يجهل شكل المظلة ، أمستطيلة هي أم مربعة أم دائرة ، ونوع قماشها ، ولون قماشها وأطوال حبالها ، وعدد حبالها ، وألوان حبالها ، وعن الخيوط التي صُنعت منها حبالها ، لو جهل كل هذه الحقائق ينزل إلى الأرض سالماً أما إذا جهل طريقة فتحها نزل ميتاً ، فطريقة فتح المظلة معرفتها فرض عين على كل مظلي ، وفي الإسلام حقائق هي فرض عين على كل مسلم أن يعرفها ، ولا يُعذر في جهلها أحد لأنها مهلكة ، لذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة إلى تعريف الناس بهذا الذي ينبغي أن يعرفوه بالضرورة ، وسيلة إلى تعريف الناس بهذا الذي ينبغي أن يعرفوه يجب أن يعرفوه .

أيها الإخوة الكرام :

من أجمع الآيات التي توضح هذه الحقيقة قوله تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢))

[سورة المائدة]

نتعاون على البر ؛ صلاح الدنيا ، والتقوى صلاح الآخرة ، يجب أن تنطق بالحق ، الساكت عن الحق شيطان أخرس ، ولكن هناك ضوابط كثيرة سوف أعددها إن شاء الله في خطبة قادمة .

يجب أن نعتقد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة كفريضة الصلاة ، كيف نصلي ، الصلاة فريضة ، لماذا نصوم ؟ لأنه فريضة لماذا نحج إن كنا مستطيعين ؟ لأنه فريضة ، لماذا نؤدي الزكاة إذا ملكنا النصاب ؟ لأنه فريضة ، لماذا نأمر بالمعروف ؟ لأنه فريضة .

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤))

فإذا ترك المسلمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليسوا خير أمة أخرجت للناس عندئذ ، كما قال بعض العلماء صاروا أمة التبليغ لا أمة التشريف ، بلغوا ولم يشرفوا بهذه المهمة .

وهذا الأمر أيها الإخوة يجب أن نفهمه فهماً دقيقاً ، الأب ينبغي أن يأمر من حوله ، ويأمر أقرباءه ومن له سلطان أدبي عليهم ، إن فعل هذا ضاقت دوائر الباطل واتسعت دوائر الحق وكنا في حال غير هذا الحال وإلا الأمة التي لا يتناهى أفرادها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستحق لعنة الله وغضبة إلى يوم القيامة .

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

الخطبة الثانية :

أيها الإخوة الكرام :

يعني مثل تطبيقي ، ذكرت أكثر من مرة في هذه الخطبة ، أن الإنسان مُكلف أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر بلسانه ويده فيما ملكه الله قطعاً في بيتك وفي عملك ، ولو أن كل مسلم وأقول هذا آلاف المرات لو أن كل مسلم أقام في بيته الإسلام وفي عمله لوجدتم بعد حين أن المجتمع كله بخير ، وهذه من بركات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لو أن أحد محارمك جاء إلى بيتك ، ابنة أخيك مثلاً ، ورأيتها في ثياب لا ترضي الله ، فنصحتها ، المرة الثانية قبل أن تأتي إلى البيت ترتدي الثياب التي ترضى بها عنها ، وهكذا فكلما اتسعت دوائر

الأمر بالمعروف رأيت الناس ينضبطون ، بعد حين قد تكتشف أن الثياب المحشومة أكمل لها ، فبهذه الكلمة التي ما كلفت العم إلا دقائق أزال منكراً وأقام معروفاً ، أما إذا سكت ، وأجرى كامل المودة وهي على ما هي عليه من التفلت لكان سكوته إقرار ، وهذه مشكلة ، الصغير إذا رأى الكبير ساكتاً على انحرافاته يظن أن الكبير يقره على انحرافاته فالإنسان في دائرة حوله من أقربائه من محارمه من ذوي قراباته إذا بقي ساكتاً كان سكوته إقراراً .

أيها الإخوة الكرام :

مرت قبل أيام مناسبة الإسراء والمعراج ، ولا أريد أن أطيل عليكم

إنه يعلمنا أن الدنيا دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، وأن الله قد جعلها دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي. إنه يعلمنا أن للمحن والمصائب ، حكماً جليلة ، منها أنها تسوق أصحابها إلى باب الله تعالى ، وتلبسهم رداء العبودية وتلجئهم إلى طلب العون من الله .

إنه يعلمنا أنه لا ينبغي أن تصدنا المحن والعقبات عن متابعة السير في استقامة وثبات .

إنه يعلمنا أنه ما دام الله هو الآمر فلا شك أنه هو الضامن والحافظ والناصر .

إنه يعلمنا أنه لولا الجهاد والصبر ما عبد الله في الأرض ، ولا انتشر الإسلام في الخافقين ، ولما قمنا في هذا المكان نوحد الله ونسبحه وندعو إليه .

إنه يعلمنا أن اليسر مع العسر وأن النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب .

إن من أجل دروس الإسراء والمعراج أن الله تعالى كرم النبي محمداً صلى الله عليه وسلم بالعروج إليه لينال به أعلى درجات القربات وكرَّم أمته بأن فرض عليهم الصلوات لتكون معراجاً لها إلى رب الأرض والسماوات .

أيها الإخوة الكرام هذه المناسبات الدينية ينبغي أن نستخلص منها الحقائق والعبر كي تكون هذه الحقائق والعبر نبراساً لنا في طريق الإيمان وفي طريق السير إلى الدار الآخرة .

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٤٢ : الدين هو الخلق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١٢-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

الحديث عن أخلاق المؤمن ينطلق أساساً من أن هناك تلازماً ضرورياً حتمياً بين التدين الصحيح والخلق القويم، ولا يغيب عن خاطركم أن سيدنا جعفر ابن أبي طالب، حينما تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن هذا الدين الجديد، قال:

((كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الرحم ونسيء الجوار.. (هذه الجاهلية القديمة والحديثة) حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه ونسبه، (هذه أخلاق) نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء))

معنى ذلك، أن هناك تلازماً ضرورياً وحتمياً بين التدين الصحيح والخلق القويم، فالنبي صلى الله عليه وسلم، حدد الغاية الأولى من بعثته والمنهج الأمثل لدعوته، فقال فيما رواه الإمام مالك:

((إنما بُعثت معلماً، إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[أخرجه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة]

فالهدف الأول لدعوته، هو إرساء البناء الأخلاقي للفرد، والمجتمع لأنه ثمن سعادة الدنيا والآخرة، والوسيلة هي التعليم " إنما بُعثت معلماً " الوسيلة هي التعليم لا التعنيف، فقد ورد في الأثر:

((علموا ولا تُعنِّفوا، فإن المعلم خير من المُعنِّف))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عدي في الكامل]

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم، وللسنة المُطهرة الصحيحة، يجد ذلك التلازم الضروري بين التدين الصحيح والخلق القويم، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧))

[سورة الماعون]

وقال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠))

[سورة القصص]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له))

[جزء من حديث طويل أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود]

أرأيتم إلى هذا التلازم الضروري والحتمي بين التدين الصحيح والخلق القويم..

أيها الإخوة الكرام:

((الإيمان والحياء قرناء جميعاً، فإذا رُفع أحدُهما رُفع الآخر))

[أخرجه الحاكم]

فالإيمان أساس الفضائل ولجام الرذائل وقوام الضمائر، لقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً، وأن أكملهم إيماناً أحسنهم خلقاً، وأن من أحبِ عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً وأن من أقرب المؤمنين مجلساً من رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنهم خلقاً وأن خير ما أُعطي الإنسان خلق حسن، وأنه ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وأن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، بل إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، والخلق الحسن يُذيب الخطايا كما يُذيب الماء الجليد والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل.

هذه كلها أحاديث صحيحة، عن التلازم الضروري بين التدين الصحيح والخلق والقويم.

وقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أيها الإخوة الكرام، هذا الحديث أساسي جداً في موضوعنا، ورد في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سأل أصحابه يوماً:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد]

هذا الذي يصلي والصلاة فرض، هذا الذي يصوم والصيام فرض هذا الذي يحج البيت والحج فرض، لكنه يطعن في الآخرين بلا دليل يسيء إليهم بلا سبب، يأخذ أموالهم، يشتمهم، هذا الذي يفعل هذا ؛ دققوا فيما يقوله عليه الصلاة والسلام:

((فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّار))

هذا الحديث أيها الإخوة أصل في هذا الموضوع، في التلازم الضروري بين التدين الصحيح والخلق القويم، الحديث في صحيح مسلم أتى بصلاة، وصيام، وصدقة، لكنه شتم هذا، وضرب هذا، وأكل مال هذا، يأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته طرحوا عليه سيئاتهم، حتى يُطرح في النار..

ما بال هؤلاء الذين يجعلون الدين في جانب والتعاون اليومي في جانب، ما بال هؤلاء الذين فصلوا الدين عن الحياة، ما بال هؤلاء الذين فصلوا شعائر الدين عن شعائر الحياة ؟..

يا أيها الإخوة الكرام، لا تنسوا أبداً، أن في الإسلام عبادة شعائرية وأن في الإسلام عبادة تعاملية، إذا صحت العبادة التعاملية قطفت من العبادة الشعائرية ثمرتها، أما إن لم تصح العبادة التعاملية ؛ يا رسول الله، إن فلانة تذكر أنها تكثر من صلاتها، وصيامها، وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال هي في النار

موضوع الخطبة اليوم، أن التلازم ضروري وحتمي بين التدين الصحيح والخلق القويم..

أيها الإخوة الكرام:

هذه مقدمة، لكن الموضوع الأساسي هو خلق التواضع، وانطلاقاً من أن الحق وسط بين طرفين، وأن الفضيلة مكرمة بين رذيلتين، وأن الكمال في الوسط وأن النقص في التطرف، التواضع قد ينجرف إلى الذل، وقد يصبح غلافاً للكبر.. والذل رذيلة ونقيصة وسيئة، وقد يصبح التواضع غلافاً للكبر، وفي كلا الطرفين انحراف بالتواضع عن الموقع الصحيح الذي أراده الله، وتزييف لهذا الخلق الذي سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يا أيها الإخوة الكرام:

قد ينطوي المرء على نفس تتصف بأشد حالات الكبر، ولكنه يسلك مع بعض الناس سلوك المتواضعين، توصلاً بهذا السلوك إلى تحقيق المصالح المادية، إن هذا ليس من التواضع في شيء، إنه موقف ذكي أساسه المصلحة الراجحة، وليس هذا السلوك متعلقاً بخطبتنا اليوم.

أما الكبرياء على العباد صفة رب العباد الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى والذي إذا ظهر قهر وإذا تجلى طاشت لأنوار جلاله ألباب البشر.

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧))

[سورة الجاثية]

يعني له وحده..

الكبرياء إزاري فمن نازعني منهما شيئاً أذقته عذابي ولا أبالي

أيها الإخوة الكرام:

ذلة العباد لربهم بالحق لا بالباطل، أن تتذلل وأنت ساجد لله رب العالمين هذا هو الحق، وهذه العبودية وأنت لا شيء.

ذلة العباد لربهم بالحق لا بالباطل، فهو الخالق العظيم والرب الرحيم، والميسر الحكيم، بديع السماوات والأرض، ذو الفضل العظيم رب العزة ذو الجلال والإكرام، إليه يُرجع الأمر كله.

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤))

[سورة يونس]

يجب أن تعرف موقعك، أنت عبد لله، بقدر افتقارك إلى الله يغنيك الله عز وجل، بقدر افتقارك إلى الله يقويك الله عز وجل، بقدر تذللك لله عز وجل يعزك الله عز وجل.

مصائر العباد رهن مشيئته وطوع إرادته، وهم إنما يكونون في أزكى أحوالهم ساعة تعنوا جباههم لربهم خاضعين له، مُنيبين إليه عندئذ يعرفون حجمهم، ووضعهم فيلزمون حدهم، ولا يتجاوزونه، قال صلى الله عليه وسلم:

((من كان في قلبه مثقالُ حبة من خردل من كبر كبه الله في النار))

[رواه الإمام أحمد بمسنده، ورواه الدار قطني في الأفراد وابن النجار عن عمرو]

المتكبِّر أيها الإخوة ؛ مبطل متطاول، يزعم لنفسه ما ليس لها والكبر جملة من الخصال الخسيسة، في طليعتها جحد الحق، وجهل الواقع، وسوء العشرة، وتجاوز القدر، وتحقير الفضل.

يا أيها الإخوة الكرام:

وقد يجهل الإنسان حقائق التوحيد، أو يعتقد اعتقاداً فاسداً أساسه الشرك فيُذِّل نفسه ويقبل الدنية في دينه، ودنياه لواحد من أمرين ؛ إما خوف أن يصاب برزقه، أو أن يصاب بأجله.

الإنسان متى يذل، متى يخنع، متى يستخذي، متى يتضعضع أمام قوي، أو أمام غني ؟.. حينما يخشى على رزقه أن ينقطع أو على أجله أن ينتهي، مع أن الله جل جلاله، قطع سلطان البشر عن الآجال والأرزاق جميعاً، فليس لأحد إليهما سبيل، وبين لنا جل جلاله في كتابه العزيز أن البشر ولو اجتمعوا بأسرهم أذلُّ من أن يمنعوا شيئاً أعطاه الله، وأقل من أن يعطوا شيئاً منعه الله، قال تعالى:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧))

[سورة يونس]

هذا الذل ذل الشرك والخوف، ليس من التواضع في شيء.

وقد يقصِّر الإنسان في أداء واجبه، وقد يهمل علمه، أو صنعته أو يسيء إلى الناس في تعامله معهم، فيأتيه اللوم والتقريع، فيتطامن ويستخذي وهذا الذل ذل التقصير والإهمال والإساءة، ليس من التواضع في شيء.

فالإنسان يذل إذا أشرك، خوفاً على رزقه أو خوفاً على أجله، ويذل إذا قصَّر أو أساء، خوفاً من اللوم أو التقريع، فالعزة أساسها التوحيد والعزة أساسها إتقان العمل.

أيها الإخوة الكرام:

إن ذلة العبد لعبد مثله، باطلة لا ريب فقد حرَّم الإسلام على المسلم أن يهون أو يُستذل، أو يُستضعف، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

[سورة آل عمران]

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه :

((من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مُكره فليس منا "))

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه، ومن أصبح يشكون مصيبة، نزلت به فإنما يشكون الله تعالى، ومن تضعضع لغني لينال مما في يده أسخط الله تعالى))

[أخرجه الخطيب عن ابن مسعود، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب، وقال رواه الطبراني في الصغير، ورواه أبو الشيخ في الثواب عن أبي الدرداء]

إذاً لا ينبغي للمؤمن أن يُذل نفسه، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((ابتغوا الحوائج بعزّة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير))

قال بعض الحكماء: احتج للرجل تكن أسيره واستغن عنه تكن نظيره وأحسن إليه تكن أميره، وشرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن النــاس.

إن اعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربه، هو عزة الإيمان، وعزة الإيمان غير كبرياء الطغيان، إنها أنفة المؤمن أن يصغر لجهة، أو أن يتضعضع في مكان، أو أن يكون ذنباً لإنسان، إنها ترفُّع عن مغريات الأرض ومزاعم الناس، وأباطيل الحياة، وفيها انخفاض إلى خدمة المسلمين والتبسُّط معهم، واحترام الحق الذي يجمعه بهم، إنها إتيان البيوت من أبوابها، وطلب العظمة من أصدق سبلها، قال تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠))

[سورة فاطر]

اجعل لربك كل عــزك يستقر ويثبـت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

العزة حق يقابله واجب، وليس يسوغ لامرئٍ أن يطالب بماله من حق حتى يؤدي ما عليه من واجب، فإذا كُلّفت بعمل ما فأدّيته على أصح وجوهه، عندئذ لا سبيل لأحد عليك، ولا يستطيع من فوقك ولا من دونك ولا من في مستواك أن يعرض لك بلفظ جارح، أو مُحرج وتستطيع أن تحتفظ بعزة نفسك أمام كل الناس على اختلاف مراتبهم حين تسدُّ الثغرات التي ينفذ منها إليك اللوم والتقريع، إن ألدَّ أعدائك حينئذ يتهيبك، قال تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦))

[سورة يونس]

هذا قانون العزة، إذا أردت أن تكون عزيزاً أحسن في عملك:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦))

متى يذل الإنسان إذا كسب السيئات، إذا قصر في عمله، إذا أهمل في عمله، إذا عمل سوءاً، عندئذ يأتيه اللوم والتقريع والتحجيم، والذل ويُهان، قال صلى الله عليه وسلم:

((إياك وكل ما يعتذر منه))

[ذكره الهندي في كنز العمال ١٠٢٠٦/٤]

أيها الإخوة الكرام:

الكبر وبطلانه، والذلة باطلة، والفضيلة بين رذيلتين، بين الكبر بغير حق، وبين الذل الذي أساسه الشرك أو التقصير، الكبر بلا حق، أنت عبد لله، تكون قوياً إذا افتقرت إلى قوته، تكون غنياً إذا افتقرت إلى غناه، تكون عالماً إذا افتقرت إلى علمه، ما دمت مفتقر إليه فأنت قوي غني عالم، فإذا اعتززت بما عندك ونسيت الله عز وجل أذلك الله، فالإنسان عزيز إذا افتقر إلى الله، وذليل إذا أشرك أو إذا قصر في عمله.

أيها الإخوة الكرام:

التواضع الذي يريده الله عز وجل تواضع العزيز، لا تواضع الذليل تواضع القوي، لا تواضع الضعيف، تواضع المنتصر لا تواضع المنهزم، حينما دخل النبي مكة المكرمة، وقد ناصبته العداء عشرين عاماً، وبإمكانه أن يقضي عليهم جميعاً، حنى رأسه تواضعاً لله عز وجل، حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره، من تواضعه لله عز وجل، تواضع العزيز لا تواضع الذليل، تواضع المنتصر لا تواضع المنهزم، تواضع الشريف لا تواضع الخسيس تواضع المؤمن لأن الأمر كله بيد الله، لا تواضع المشرك الذي استحوذ الخوف على قلبه تواضع المؤدي لواجبه لا تواضع المقصر فيه، لا تواضع المقصر فيه، تواضع المتقن لعمله، لا تواضع المهمل له، تواضع المحسن لا تواضع المسيء

أيها الإخوة الكرام:

تواضع في اللغة على وزن تفاعل، هذا الوزن يفيد فيما يُفيد إظهار ما ليس في الواقع، فالمتواضع ليس وضيعاً، كما أن المتمارض ليس مريضاً، كما أن المتكبر ليس كبيراً، والمتعاظم ليس عظيماً، إظهار خلاف ما أنت عليه، فالتواضع ليس ضعة وليس ذلاً.

أيها الإخوة الكرام:

فالتواضع في حقيقته، رؤية صحيحة لعظمة خالق الأكوان وشعور واقعي بضعف الإنسان، وسلوك أصيل أساسه الانضباط والإحسان فهو

مظهر لعبودية الإنسان تجاه خالقه، ونتيجة لرؤية افتقاره لفضله وليست سلوكاً ذكياً، أساسه مصلحة راجحة، ولا ضعفاً نفسياً أساسه توهُّم باطل أو رؤية ضبابية، أو تقصيراً، أو إهمالاً، أو إساءة. إنه فضيلة الفضائل، وهو بين دناءة الذلِّ وغطرسة الكبر.

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي))

[من حديث قدسي طويل رواه الديلمي عن حارثة بن وهب]

والتواضع في أدق تعاريفه، خضوع العبد لسلطان الحق، والانقياد له والدخول تحت مظلته، ومن تكبر عن الانقياد للحق، أذله الله، وصغره وحقره، ومن تكبَّر عن الانقياد للحق ولو جاءه من صغير أو بعيد أو عدو فإنما تكبره على الله، فإن الله هو الحق وكلامه حق ودينه حق والحق صفته والحق منه والحق إليه.

إن كان لك صديق أقل منك شأناً، وأسدى إليك نصيحة وجاء بالدليل من كتاب الله وسنة رسوله، أنت إذا قبلت هذه النصيحة لم تقبلها منه قبلتها من الحق، فإذا أبيت أن تنصاع لهذه النصيحة، أنت رددت الحق.

أيها الإخوة الكرام:

لهذا قيل من عرف نفسه عرف ربه، ومن لم يعرف نفسه فهو مغرور ومن نظر بعين المعرفة إلى سلطان ربه فني عن سلطان نفسه، ومن نظر إلى عظمة ربه صَغُرت عنده عظمة نفسه، وقُهرت تحت جلاله وهيبته.

أيها الإخوة الكرام:

المؤمنون الصادقون المخلصون، المتصلون بالله عز وجل فرغ الله قلوبهم من الكبر، وجعل رحيق محبته مشروبهم، وأطال على باب خدمته وقوفهم، وجعل رضاه وقربه مطلوبهم، وغضبه وبعده مخوفهم فهم من خشيته مشفقون، ومن هيبته مطرقون، إن تواضعوا فلرفعته وإن تذللوا فلعزته، وإن طمعوا ففي فضله، وإن خضعوا فلعظمته، إلى الله افتقارهم، وبالله افتخارهم، وإلى الله استنادهم، وهو كنزهم وعزهم وفخرهم وذخرهم ومعبودهم ومقصودهم، وقل للواقفين بغير باب الله: يا طول هوانكم، وقل للعاملين لغير الله: يا عِظم خسرانكم، وقل للآملين لغير فضل الله: يا خيبة آمالكم، وقل للساعين لغير وجه الله: يا ضيعة أعمالكم.

أيها الإخوة الكرام:

هذا الموضوع هو من أساسيات الدين، لأن الدين هو الخلق، والخلق هو الانضباط، وإذا كان أهل الغرب سيطروا على الطبيعة بزعمهم فإن حقيقة الإيمان سيطرة على الذات، ضبط لنزوات، ضبط للأهواء، وقد قال بعض زعماء الغرب: ملكنا العالم ولم نملك أنفسنا..

والمؤمن الحق هو الذي ملك نفسه وعمل للآخرة.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام :

كنت أقول دائماً إن للنبي عليه الصلاة والسلام مهمتين، مهمة التبليغ ومهمة القدوة، ولعل مهمة القدوة أكبر وأخطر من مهمة التبليغ، هذا النبي الكريم ما أمرنا بأمر إلا كان السباق إليه، وما نهانا عن شيء إلا كان أكثر الناس بعداً عنه، لذلك كان قدوة، وقد قال الله عز وجل:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١))

[سورة الأحزاب]

النبي عليه الصلاة والسلام كان جمَّ التواضع، وافر الأدب، يبدأ الناس بالسلام، وينصرف بكله إلى محدثه، صغيراً كان أو كبيراً ن ويكون آخر من يسحب يده إذا صافح، وإذا تصدق وضع الصدقة بيده في يد المسكين، وإذا جلس جلسَ حيث ينتهي به المجلس، لم يُرَ ماداً رجليه قط، ولم يكن يأنف من عمل لقضاء حاجته، أو حاجة صاحب أو جار، كان يذهب إلى السوق ويحمل حاجته بيده ويقول: أنا أولى بحملها وكان يجيب دعوة الحرِّ والعبد والمسكين، ويقبل عذر المعتذر، وكان يرفو ثوبه، ويخصف نعله، ويكنُس داره، ويخدم نفسه، ويعقل بعيره وكان في مَهنة أهله، وكان يأكل مع الخادم، ويقضي حاجة الضعيف والبائس، وكان يمشي هوناً ن خافض الطرف، متواصل الأحزان، دائم الفكرة، لا ينطق من غير حاجة، طويل السكوت، إذا تكلم تكلم بجوامع الكلم، كان دمثاً ليس بالجاف، ولا المهين، يعظم النِّعم وإن دقَّت ولا يذمُّ منها شيئاً، ولا يذمُّ مذاقاً، ولا يمدحه، ولا تُغضبه الدنيا ولا ما كان منها، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، كان يؤلِّف ولا يُفرق، ويُقرب ولا تُنفر يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، يُحسَّن الحسن ويصوبه، ويُقبِّح القبيح ويوهِّنه، لا يُقصِّر عن حق، ولا يتجاوزه ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منــه، من سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو ما يَسره من القول، كان دائم البشر، سهل الخُلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب، ولا فحّــاش، ولا عيّاب ولا مزّاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يُخيِّب فيه مؤمله وكان لا يذم أحداً، ولا يعيِّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فميا يُرجى ثوابه، يضحك مما يضحك منه أصحابه، ويتعجب مما يتعجبون ويصبر على الغريب وجفوته، في مسألته ومنطقه، لا يقطع على أحدٍ حديثه حتى يجوزه...

أيها الإخوة الكرام:

الحديث عن شمائله لا تتسع له المجلدات ولا خطب في سنوات، ولكن الله جل في علاه، لخَّصها في كلمات فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

[سورة القلم]

محور هذه الخطبة، الدين هو الخلق، تعبده العبادة التعاملية كما أمرك من أجل أن تقطف ثمار العبادة الشعائرية.

الدين هو الخلق.

لولا الخلق، ولولا الصلة بالله عز وجل، صار الدين طقوساً وصارت المعلومات ثقافات ليس غير.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٤٣ : خ١ - التقوى ، خ٢ - شرط استجابة الدعاء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١٢-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، بعد أيام عدة، يطل علينا شهر رمضان الكريم، وهو من أجل العبادات، هو من أجل العبادات الشعائرية، والله سبحانه وتعالى تكرماً منه وفضلاً بين لنا العبادات وأعطاها العلل، فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

[سورة البقرة]

آية صريحة، قطعية الدلالة، علة الصيام التقوى، فإذا كانت التقوى هدفاً لكل صائم، فقد حقق المراد من الصيام.

المنافق مثله كمثل الناقة حبسها أهلها، ثم أطلقوها، فلا تدري لم عقلت، ولا لم أطلقت، لا يدري لا لم صام، ولماذا هو قد أفطر.

أيها الإخوة الكرام، محور الخطبة اليوم التقوى، لأنه علة الصيام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

التقوى لها شأن كبير في القرآن الكريم، فقد وردت في أكثرَ من ثلاثمائة موضع فيها، والتقوى لغة من وقى، وهل تكون الوقاية إلا من الخطر..

فالإنسان في حياته الدنيا إن لم يتبع هدى ربه، مُعرض لكثير من المخاطر فالدنيا خضرةٌ نضرة، سُمها في دسمها، فيها منزلقات ومتاهات، مالها يُغري ويردي ويشقي، ونساؤها حبائل الشيطان الأهل والولد مشغلة، مجبنة مبخلة، الشهوات مستعرة في أبهى حُللها، والفتن يقظة في أجمل أثوابها.

فكيف يتقي الإنسان الضياع في تلك المتاهات والضلالات ؟

وكيف يتقي الإنسان الانجذاب إلى هذه الفتن المُهلكات ؟..

وكيف يتقي الإنسان خطر الانغماس في تلك الشهوات ؟..

وكيف يتقي الإنسان حمأة المزاحمة في جمع الدراهم والثروات ؟

وكيف يتقي الإنسان شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ؟..

هذا محور الخطبة..

أيها الإخوة الكرام، حينما يبني الإنسان تصوراته عن الكون والحياة والإنسان وفق ما جاء في البيان الإلهي، إذا كانت تصوراتك، يعني إذا كانت عقيدتك، إذا كانت المسلمات في حياتك وفق ما جاء في البيان الإلهي.

ثانياً: حينما ينطلق في حركته اليومية، في عطائه ومنعه، في صلته وقطيعته، في غضبه ورضاه، حينما ينطلق الإنسان في حركته اليومية وفق التشريع الرباني يكون قد أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان أما إذا ضل عقله وساء عمله، فقد أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم.

يا أيها الإخوة الأكارم، عبادة الله الحقيقية، والخالصة، تقي الإنسان شقاء الدنيا وعذاب الآخرة والدليل ؛ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١))

[سورة البقرة]

أول نقطة في الخطبة، إنك إن عبدت الله تتقي شقاء الدنيا وعذاب الآخرة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١))

هذه المنزلقات، وهذه المتاهات، وهذه الشهوات، وهذه الفتن، هذا الانزلاق:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١))

اعبدوا ربكم الذي..

فعبادة الله طريق النجاة، عبادة الله طريق السلامة، عبادة الله طريق الخلاص، والعبادة ؛ طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية..

فيها جانب معرفي، وفيها جانب سلوكي، وفيها جانب جمالي..

هذه النقطة الأولى، العبادة طريق النجاة، إن أردت أن تنجوا، إن أردت السلامة والسعادة، فعليك بعبادة الله، بل إن عبادة الله عز وجل علة وجودنا على وجه الأرض، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

[سورة الذاريات]

النقطة الثانية: هل غير الله واجب الوجود الذات الكاملة، الحي القيوم ذو الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، الواحد الأحد الفرد الصمد، الأول والآخر الظاهر الباطن، بيده ملكوت كل شيء، ومن إليه يُرجع الأمر كله مالك الملك إيجاداً وتصرفاً ومصيراً ؟..

وهل غير الله يُتقى سخطه، ويُرجى رضوانه.. ؟ وهل غير الله يُتقى ناره وتُرجى جنته.. ؟

إن الله تعالى يأمرنا بالتقوى لأنه بكل شيء عليم ولأنه سريع الحساب ولأنه على كل شيء قدير، ولأنه إليه الحشر والمصير، لقد صدق الله العظيم إذ يقول:

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢))

[سورة النحل]

أيعقل أن تخاف من غير الله، أيعقل أن ترجو غير الله، أيعقل أن تعقد الأمل على غير الله، أيعقل أن تتجه إلى غير الله.

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢))

أيها الإخوة الكرام، لا يليق بالإنسان المخلوق الأول أن يكون لغير الله، فإذا كان لغير الله إذا كان محسوباً على غير الله، إذا كان عمله لغير الله فقد احتقر نفسه.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠))

[سورة البقرة]

هذه نقطة الثانية.

(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢))

النقطة الثالثة: أيها الإخوة، نحن نتقي الله لا لأننا في قبضته، ولا لأن أمرنا كله راجع إليه فحسب بل لأنه ذو الجلال والإكرام، وذو الطول والإنعام، رحمن رحيم، منعم كريم إنه كما قال عن نفسه:

(وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦))

[سورة المدثر]

هو الذي يليق بك أن تعبده، هو الذي يليق بك أن تمضي حياتك في سبيله هو الذي يليق بك أن تفني شبابك من أجله، هو الذي أهل أن تجعل كل طاقاتك، وكل إمكاناتك وكل حياتك في سبيله، هو الذي يستحق أن تكون له، هو الذي يكافئك أعظم المكافأة، يجزيك أعظم الجزاء، هو أهل التقوى وأهل المغفرة.

مسكين وكم هو بائس هذا الإنسان إذا كان لغير الله، إذا كان محسوباً على جهة أرضية، إذا كان عمله من أجل إرضاء من دون الله عز وجل..

هذه النقطة الثالثة: أيها الإخوة الكرام، ولكن الإنسان لن يتقي سخط جهة ما أو يسعى لمرضاتها، إلا إذا أيقن بوجودها أولاً وأيقن بما يناله منها من مغنم كبير إذا هو أطاعها، وما يصيبه منها من

خسارة فادحة إذا هو عصاها. هذا شأن الإنسان.. لن تتقي سخط جهة ما، لن تسعى إلى إرضائها إلا إذا أيقنت بوجودها، وإذا أيقنت أن عطاءها كبير، وأن الخسارة عنها كبيرة.

أيها الإخوة الكرام، بناءً على هذه المقدمة، لن يتقي الإنسان ربه أي لن يجتنب ما نهاه عنه، ولن يفعل ما أمره به إلا إذا عرفه، فأصل الدين معرفته، قال تعالى:

(واتقوا الله إن كنتم مؤمنين)

[سورة المائدة]

إن كنتم مؤمنين تتقون الله، إن عرفتموه حق المعرفة، إن عرفتم أنه إليه يُرجع الأمر كله، إن عرفتم أنه بيده ملكوت كل شيء، إن عرفتم أنه إليه المصير، إن عرفتم هذه الحقيقة عندئذ تتقون الله عز وجل فأصل الدين معرفة الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام، فالإيمان أساس التقوى..

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦))

[سورة الأعراف]

وأبواب معرفة الله كثيرة من أهمها نخلق السماوات والأرض، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١))

[سورة آل عمران]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً (٢٨) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْباً (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (٣١))

[سورة عبس]

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧))

[سورة الغاشية]

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩))

[سورة الملك]

إن النظر والتأمل والتفكر والتدبر في الآيات التي بثها الله في السماوات والأرض يصل بصاحبه إلى اليقين القطعي، بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً ورباً رحيماً ومسيراً حكيماً، هو أهل لأن يطيعه ليتقي بطاعته عذابه، قال تعالى:

((إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)))

[سورة يونس]

إذاً طريق معرفة الله التفكر في خلق الله..

ومن أبواب معرفة الله: القرآن الكريم ؛ ذلك المنهج القويم والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، فإذا تدبير الإنسان آياته، ونظر فيها رأى تطابق مضامين هذا الكتاب المعجز، مع مبادئ العقل وملامح الفطرة ومع مصالح الإنسان الحقيقية، منفرداً ومجتمعاً، إن تدبر القرآن يصل بصاحبه إلى اليقين القطعي، بأنه كلام الله، المُنزل على نبيه، وأنه المنهج الوحيد والأمثل، لإسعاد الإنسان، في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

((قُرْآَناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)))

[سورة الزمر]

الطريق الآخر لمعرفة الله أولاً واتقاء غضبه ثانياً تدبر آيات القرآن الكريم الطريق الأول معرفة الله عز وجل عن طريق التفكر في آيات الكون.

يا أيها الإخوة الأكارم، وإن تعجب فعجب من هؤلاء الذين لا يتقون، بل إذا قلت لأحدهم: اتق الله أخذته العزة بالإثم، لم لا يتقي الإنسان ربه ؟.. لم يهتد بهديه، في أعماله كلها، وأقواله كلها، وأحواله كلها ؟.. مع أن الله يُعلم الإنسان من خلال العقل الذي أودعه فيه، ومن خلاف الفطرة التي فطره عليها، ومن خلال الكتاب الذي أنزله على رسوله ومن خلال السنة التي بينت كتابه ومن خلال الحوادث التي تؤكد حكمته وعدالته، ومن خلال دعوة الدعاة لمَ لا يتقي الإنسان ربه ؟ مع أن الله يُعلمه دائماً، يعلمه من خلال آيات الكون، يعلمه من خلال آيات القرآن، يعلمه من خلال فطرته، يعلمه من خلال رسله، يعلمه من خلال الدعاة، يعلمه من خلال أفعاله.. لمَ لا يتقي الإنسان ربه، قال تعالى:

((وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)))

[سورة البقرة]

لأنه يعلمكم دائماً لم لا تتقونه ؟..

أيها الإخوة الكرام، ومن الوسائل التي تُسرِّع الخطى إلى التوبة، أن تكون صادقاً مع نفسك صادقاً مع ربك، صادقاً مع الآخرين، فلا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه "،

((وهل نؤاخذ بما نقول ؟ قال: ويحك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم))

دققوا في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

[سورة الأحزاب]

الوسائل المسرعة أن يستقيم لسانك، أن تضبط هذا اللسان الذي من خلاله تُرتكب معظم المعاصي والآثام.

أيها الإخوة، كما تعلمون المدن الكبرى التي على البحر تصب في البحر مياهها السوداء وقد تمشي هذه المياه خمسين كيلو متر في بعض المحيطات ومع ذلك البحر طهور ماؤه، أما حينما قالت السيدة عائشة، عن أختها صفية بأنها قصيرة، قال يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مُزجت بمياه البحر لأفسدته.

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

ضبط اللسان.

((إن الشيطان يأس أن يُعبد في أرضكم ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

النمام والمغتاب هذه كبائر، لا يدخل النمام الجنة كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

يا أيها الإخوة الأكارم، من الوسائل الفعَّالة، التي تسرع الخطى إلى التقوى، أن تكون البيئة الاجتماعية التي تحضن المرء بيئةً طيبةً صالحة مؤمنة، قال تعالى:

(مع الصادقين)

[سورة التوبة]

اجلس مع المؤمنين، كن مع أهل الحق، لا تصاحب إلا مؤمناً، لا يأكل طعامك إلا تقي، كن معهم، تعلم منهم، تعلم من أخلاقهم، تعلم من عقيدتهم، تعلم من سلوكهم، أن تكون وحدك أو أن تكون مع أهل الباطل إنك كالماء النقي، إن اختلط ماء نقي وماء أسن من الذي يتضرر ؟ الماء النقي وحده..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩))

[سورة التوبة]

لابد من أن تراجع قائمة الأصدقاء، قائمة الذين تربطك بهم علاقة متينة، العلاقات الحميمة لا تكون إلى مع المؤمنين، علاقة العمل مسموح بها أما علاقة حميمة ؛ لقاء طويل، رحلة طويلة، سهرة إلى أنصاف الليالي.. لابد من أن تكون هذه العلاقات الحميمة مع المؤمنين من اجل ان تستمد منهم، من عقيدتهم، من أخلاقهم من قيمهم.

يا أيها الإخوة الأكارم، ومن الوسائل الفعالة التي تُسرع الخطى إلى التقوى، أن تُبتغي إليه الوسيلة وهي تَعلُّم العلم الموصل إلى الله، على أيدي علماء عاملين مخلصين متحققين ورعين، الوسيلة ؛ العمل الصالح، الخالص لوجه الله تعالى، إن ابتغي به وجه الله، ووافق السنة هذا هو العلم المقبول والعبادات المخلصة الدؤوبة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥))

[سورة المائدة]

وطريق التقوى ليست مفروشة بالرياحين، بل هي طريق محفوفة بالمكاره لأن سلعة الله غالية، وعمل الجنة حزنٌ بربوة، وعمل النار سهلٌ بسهوة فلا بد من الانضباط الذاتي، ولا بد من البذل والتضحية قال تعالى:

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠))

[سورة يوسف]

وطّنْ نفسك على الصبر، وطن نفسك على المكاره، لأن عمل الجنة حزن بربوة:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢))

[سورة آل عمران]

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢))

[سورة العنكبوت]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (١٨))

[سورة السجدة]

أيها الإخوة الكرام، والتقوى لا تقبل أن يعطيها الإنسان بعضه، بل لا بد من أن يعطيها الإنسان كله لا يُقبل من المتقي بذل بعض الجهد، بل لا بد له من بذل كل الجهد لأن حجم الإنسان عند ربه بحجم عمله الصالح، وإخلاصه وصوابه فلكلٍّ درجات مما عملوا، والعمل الصالح يرفعه، قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦))

[سورة التغابن]

قد تُقرأ بنبرة أخرى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦))

لاستنفاد الجهد لا لبذل بعض الجهد.

أيها الإخوة الكرام، ومن عظيم إكرام الله عز وجل، أن الإنسان حينما يخطو الخطوة الأولى في طريق التقوى، يكفر عنه سيئاته، وينسي حافظيه، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه، ويعظم له أجراً..

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (٥))

[سورة الطلاق]

دققوا، الماضي مغطى بالمغفرة والتكفير،]ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً[، يعني أيها الإنسان لا تجعل من ماضيك عقبة أمام مستقبلك

((لو أتيتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

((لله أفرح بتوبة عبده من الظمآن الوارد، والعقيم الوالد))

لا تجعل ماضيك، لا تجعل الذنوب التي اقترفتها حجاباً بينك وبين الله قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣))

[سورة الزمر]

ومن عظيم إكرام الله عز وجل، أن الإنسان، حينما يخطو الخطوة الأولى في طريق التقوى يجعل الله له من أمره يسراً، لا يوجد شيء أمتع للإنسان من تيسير أموره، ولا شيء يزعجه ويحطمه كتعسير أموره، كان عليه الصلاة والسلام يدعو الله ويقول:

((اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً))

دققوا في قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (٤))

[سورة الطلاق]

الأمور ميسرة في بيته، في تربية أولاده، في تزويج بناته، في اختيار أعمال لهم، في علاقاته الاجتماعية، في كسب رزقه..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (٤))

ألا تحب أن تيسر لك الأمور ؟.

ومن عظيم إكرام الله عز وجل أنه جعل التقوى مخرجاً للإنسان من كل ضيق، قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢))

[سورة الطلاق]

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يُظن أنها لا تُفرج

إعجاز هذه الآية في إيجازها، وبلاغتها في إطلاقها، قال عليه الصلاة والسلام: ((إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم، ثم تلا هذه الآية..)).

حينما تضيق الأمور وتستحكم الحلقات، وتُسد المنافذ، وتنتصب العقبات ويقنط الإنسان تأتي التقوى فيتسعُ بها المضائق، تُحل بها العقد وتُفتح بها المسالك، وتذلل بها العقبات. فمن يتق الله، عند نزول المصيبة، فيوحد الله، ويصبر لحكمه ويرضى بقضائه، ويثبت على مبدئه واستقامته يجعل الله له مخرجاً منها ويبدل ضيقه فرجاً، وخوفه أمناً وعسره يسراً.

من يتق الله فلا يسمح للأفكار الزائفة، أن تأخذ طريقها إلى عقله يجعل الله له مخرجاً من الضياع والحية والضلال وخيبة الأمل.

ومن يتق الله فيبرأ من حوله وقوته وعلمه، يجعل الله له مخرجاً مما كلفه به وبالمعونة عليه. ومن يتق الله فيقف عند حدود الله فلا يقربها، ولا يتعداها يجعل الله له خرجاً، مما كلفه به، من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة ومن النار إلى الجنة.

ومن يتق الله في كسب الرزق، فيتحرى الحلال الذي يُرضي الله يجعل الله له مخرجاً من تقتير الرزق بالكفاية، ومن إتلاف المال بحفظه ونمائه.

ومن يتق الله في اتباع السنة، يجعل الله له مخرجاً من ضلال أهل البدع ونتائج ابتداعهم.

من يتق الله في اختيار زوجته، وفي التعامل معها، يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي. ومن يتق الله في تربية أولاده، يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم وشقائه بشقائهم.

ومن يتق الله في اختيار عمله، وحسن أدائه، يجعل الله له مخرجاً من إخفاقه فيه.

إعجاز هذه الآية في إيجازها.

يا أيها الإخوة الكرام، التقوى مستويات، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢))

[سورة آل عمران ١٠٢]

أن تطيعه فلا تعصيه، أن تذكره فلا تنساه، أن تشكره فلا تكفره.

فمن التقوى، أن تستقيم على أمر الله، الذي وصلك بالنقل الصحيح فإذا صحت استقامة العبد، انعقدت صلته بالله ومن خلال هذه الصلة يقذف الله في قلب المؤمن المُتقي النور، فيرى به الحق من

الباطل والخير من الشر والصحيح من الزائف، فيرى المؤمن بنور ربه حقائق الأمور، وبواطنها ومؤداها ونتائجها، قال تعالى: لا تقبلوا شيئاً من دون آية كريمة أو حديث صحيح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨))

[سورة الحديد]

نور.. يقذف الله في قلبك النور، ترى الحق حقاً والباطل باطلاً..

قد تضع يدك وأنت مُغمض العينين على شيء ناعم الملمس، لين المجس انسيابي الخطوط، ثم تفتح عينيك فإذا هي حيَّة رقطاء، في أنيابها السم الناقع، عندئذ تنتفض مُبتعداً عنها، وتصرخ مذعوراً منها قد ركنت إلى ملمسها الناعم ومجسِّها اللين، قبل أن تفتح عينيك وابتعدت عنها حينما رأيت حقيقتها، وكذلك الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمرُّ.

التقوى كما يقول الإمام الغزالي ، رحمه الله: " نور يقذفه الله في القلب" هو أساس الرؤية الصحيحة، التي هي أساس صحة العمل وسعادة الدارين.

ألا يتمنى أحدنا أن يكون أكرم الناس على الله ؟.. إذاً فليتق الله قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣))

[سورة الحجرات]

إن أردت المكانة العلية، إن أردت أن تكون في أعلى مقام عند الله فاتق الله:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣))

وقد ورد في الحديث الشريف أنه إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق بما في يديك.. ألا يتمنى أحدنا أن يحبه خالق السماوات والأرض ؟ وإذا أحبك الحق ألقى محبتك في قلوب الخلق، وإذا أحبك الحق أنزل السكينة على قلبك وجعل لك مقعد صدق عنده.

فليتك تحلو والحيـاةُ مريـرةٌ وليتك ترضى والأنـامُ غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صح منك الوصلُ فالكل هيـن وكلُّ الذي فوق التراب تُراب

إذا أردت أن تكون كذلك، فاتق الله، لأن الله تعالى يقول:

(إن الله يحب المتقين)

[سورة آل عمران]

إن أردت أن تكون محبوباً فاتق الله، والصيام من أجل التقوى..

ألا يتمنى أحدنا، أن يكون رضي عنه ربُّ العالمين ذو الجلال والإكرام وليه، يُخرجه من الظلمات إلى النور ويُدافع عنه، ويكون في موضع عنايته وحفظه ؟ إذاً فليتق الله، قال تعالى:

(وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩))

[سورة الجاثية]

يتولى أمرك، يدافع عنك، يعلي قدرك، يؤيدك، ينصرك يحفظك..

ألا يتمنى أحدنا أن يكون الله معه ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا ان عليك فمن معك ؟ ومعية الله تعني الحفظ والتأييد والرعاية والتكريم التشريف.. إذاً فلنتق الله، يقول الله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨))

[سورة النحل]

خالق الكون معك.

الفلاح كلُّ الفرح والنجاح كل النجاح، والفوز كل الفوز والرشاد كل الرشاد والتفوق كل التفوق، والغنى كل الغنى، والتوفيق كل التوفيق والسعادة كل السعادة في تقوى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩))

[سورة البقرة]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

[سورة الأحزاب]

إذا شعر الإنسان، أنه مغمور بفضل الله، وتاقت نفسه إلى شكره كيف يشكره ؟ وهو قائم به غارق في فضله ؟.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

[سورة آل عمران]

نحن عاجزون عن إحصاء خيرات نعمة واحدة فلأن نكون عاجزين عن إحصاء كل النعم فمن باب أولى، وإذا كنا عاجزين عن إحصاء نعمه فنحن عن شكرها أشد عجزاً، لكن الله عز وجل يُبين لنا أن الإنسان الذي يتقي ربه، يضع نفسه في طريق الشكر، قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣))

[سورة آل عمران]

إن أردت أن تكون شاكراً فاتق الله..

أيها الإخوة الأكارم، مجمل القول: التقوى أن تتقي الكفر بالإيمان، والشكر بالتوحيد والرياء بالإخلاص، والكذب بالصدق، والغش بالنصيحة، والمعصية بالطاعة والابتداع بالاتباع، والشبه بالورع، والدنيا بالزهد والغفلة بالذكر والشيطان بالعداوة.

تزود من التقوى فإنــك لا تدري إذا جن ليلٌ هل تعيش إلى الفـجر

فكم من فتى أمسى وأصـبح ضاحكاً و قد نُسجت أكفانه وهو لا يـدري

وكم من صغارٍ يُرتجى طول عمرهم وقد أُدخلت أجسادهم ظلمة القبــر

وكم من عروس زيَّنوها لــزوجها وقد قبضت أرواحُهم ليلة القـــدر

سيدنا عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، كان له مستشار خاص اسمه عمر بن مهاجر قال له: يا عمر بن مهاجر، إذا رأيتني ضللت الطريق فخذ بمجامع ثيابي، وهزني هزاً عنيفاً، وقل لي: اتق الله يا عمر، فإنك ستموت..

أبو حنيفة النعمان، رحمه الله تعالى امتنع من الجلوس في ظل دار لرجل له عليه دين.. لما ورد في الخبر: أن كل قرض جر نفعاً فهو ربا.

جاء رجل إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى: فقال يا إمام السماء لا تمطر، فقال: استغفر الله، جاءه آخر فقال يا إمام زوجتي لا تنجب فقال: استغفر الله، جاءه ثالث، فقال: أشكو الفقر، فقال: استغفر الله فقال أحد الجالسين، يا إمام، أو كلما جاءك رجل يشكو تقول له: استغفر الله فقال الإمام الحسن البصري: ألم تقرأ قوله تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢))

[سورة نوح]

أيها الإخوة الكرام، عن ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم

((أنه قرأ هو أهل التقوى وأهل المغفرة، فقال عليه الصلاة والسلام: قال ربكم أنا أهل أن أتقى فمن اتقاني فأنا أهل أن أغفر له)).

[أخرجه الدارمي]

وعن أنس ابن مالك

((جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال يا نبي الله، إني أريد السفر، فقال متى، قال غداً إن شاء الله، قال فأتاه فأخذ بيده فقال له، في حفظ الله، وفي كنفه، زودك الله التقوى وغفر لك ذنبك، ووجهك للخير أينما توخيت وأينما توجهت))

[أخرجه الدارمي]

وعن رجل من بني سليط

((أنه مرَّ على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قاعد على باب مسجده محتب وعليه ثوب له قطن، ليس عليه ثوب غيره، وهو يقول: المسلم أخوا المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ثم أشار بيده إلى صدره يقول التقوى هاهنا التقوى هاهنا، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم))

عن الطفيل عن أبيه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وألزمهم:

((كلمة التقوى لا إله إلا الله))

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

((سئل الني عليه الصلاة والسلام ما أكثر ما يدخل الجنة ؟ قال التقوى وحسن الخلق، وسئل: وما أكثر ما يدخل النار ؟ قال الأجوفان الفم والفرج)).

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

قبل أن ندعو لابد من كلمة، النبي عليه الصلاة والسلام استعاذ بالله من قلب لا يخشع، وعين لا تدمع، ونفس لا تشبع، ودعوة لا يُستجاب لها ولكن لمَ، ومتى لا يُستجاب الدعاء ؟ مع أن الله تعالى يقول:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠))

[سورة غافر]

ونبيه صلى الله عليه وسلم يقول:

((إن الله حييٌ كريم، يستحي من عبده، أن يبسط إليه يديه ثم يردهما خائبين))

وليس شيء أكرم على الله من الدعاء.

ويبدو أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء العبد، حتى يستجيب العبد لأمر الرب، قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

[سورة البقرة]

أي إذا آمنوا به استجابوا لي، وإذا استجابوا لي يُرشدون إلى الدعاء المُجاب.

لنضرب على ذلك مثلاً، كلنا يعلم أن المركبة مبنية على علم متطور وفيها أجهزة وتوصيلات بالغة الدقة والتعقيد، فإن توقفت هذه المركبة عن السير، فلا بد من أن نعكف على دراسة مبادئ الحركة ونظام التوصيلات، وأن نراقب سلامة الأجهزة حتى نكتشف موطن الخلل تمهيداً لإصلاحه، أما إذا وقفنا إلى جانب المركبة، وملأنا الفضاء صياحاً، ضجيجاً، وبكاءً وعويلاً ودعاءً، فما الذي يحصل، لا يحصل شيء، لابد من أن تكشف السبب، أين الخلل، أين المعصية، أين الخروج عن منهج الله أين نقطة الضعف، وكذلك حالنا مع الله لابد أن نعكف على دراسة السنن الثابتة التي سنها الله لتحديد وتنظيم علاقتنا بربنا وبأنفسنا وبمن حولنا وبما حولنا، فإذا تعرفنا إلى هذه السنن وأيقنا بمصداقيتها فكشفنا في ضوء هذه المعرفة موطن الخلل في حياتنا وعلاقاتنا، وكشفنا زاوية انحرافنا عن منهج الله، وأصلحنا هذه الخلل وعدنا إلى ذلك المنهج، عندئذ ندعوه فيستجيب لها.

العارف بالله إبراهيم بن الأدهم، مرَّ بسوق البصرة، فقيل له يا أبا إسحاق إن الله تعالى يقول: ادعوني أستجب لكم، ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا فقال لهم: لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء ؛ عرفتم الله فلم تؤدوا حقه وقرأتم القرآن فلم تعملوا به، وادعيتم حب رسوله فلم تعملوا بسنته، قلتم إن الشيطان لكم عدوا فاتخذتموه ولياً، قلتم إنكم مشتاقون إلى الجنة فلم تعملوا لها، قلتم إنكم تخافون من النار، فلم تتقوها، قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له، اشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم، تقلبتم في نعمة الله فلم تشكروه عليها، دفنتم موتاكم فلم تعتبروا، فكيف يُستجاب لكم.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٤٤ : خ١ - الدعاء ، خ٢ - ثلث الليل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-١٢-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

يقول الله عز وجل في كتابه العزيز:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

[سورة الذاريات]

فالعبادة هي علة وجود الإنسان على وجه الأرض، خلقه الله عز وجل وجاء به إلى الدنيا ليعبده، فما العبادة ؟

من التعاريف الجامعة المانعة للعبادة التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الأحاديث الصحيحة أن الدعاء هو العبادة، ولعل سائل يسأل من أين استنبط النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق سيد العلماء، سيد البشر الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، والذي يُعد كلامه، وإقراره وأحواله سنة تشريعية، ألم يقل الله عز وجل:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠))

[سورة غافر]

ما أمرنا أن نعبده إلا وقد أراد أن يستجيب لنا، **(وقال ربكم ادعوني أستجب لكم)**، إن الذين يستكبرون عن عبادتي.. لم يقل إن الذين يستكبرون عن دعائي، قال:

(إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)

من هنا يتبين أن العبادة في مجملها دعاء من المخلوق إلى الخالق.. اتصال أساسه الافتقار، اتصال أساسه الطلب، اتصال أساسه الحاجة اتصال أساسه الاعتراف بعظمة الخالق، بقدرته اللامتناهية، بكرمه اللامتناهي، برحمته اللامتناهية.

إن اتصلت بالله عز وجل اتصالاً حقيقياً كما أراد الله عز وجل فهذا نوع من العبادة التي قال عنها النبي عليه الصلاة والسلام الدعاء هو العبادة، أنت أيها الإنسان في دنياك، هل تدعو جهة لا تؤمن بوجودها ؟

لا يمكن ذلك..

إذاً حينما تدعو الله أنت بالبديهة مؤمن بوجوده، وفي الدنيا هل تسأل إنساناً لا يسمعك ؟ موجود ولكن في مكان بعيد، في بلد آخر في مدينة أخرى، ليس هناك اتصال مباشر بينك وبينه، هل تدعو جهةً أو إنسان لست موقناً أنه يسمعك، وأنت حينما تدعو الله عز وجل معنى ذلك أنك مؤمن بوجوده وأنه يسمعك، والأبلغ من ذلك أنه يعلم ما في نفسك والأبلغ من ذلك أنه يعلم ما خفي عنك.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤))

[سورة الأنفال]

وأنت في حياتك الدنيا هل تدعو إنساناً أنت مؤمن بوجوده، ومؤمن بأنه يسمعك ولكنه لا يستطيع أن يلبيك ؟ هل تسأل طفلاً صغيراً مالاً كثيراً ؟.. هل تسأل إنساناً ضعيفاً أن يعينك في معمعة كبيرة ؟.. أنت إذاً في الدنيا بفطرتك، بإمكاناتك المتواضعة، لا تدعو إلا من أنت مؤمن بوجوده، ومؤمن بأنه يسمعك، ومؤمن بأنه قادر على أن يلبيك.

وأنت في الدنيا هل تدعو إنساناً أنت مؤمن بوجوده، مؤمن بأنه يسمعك مؤمن بأنه قادر على تنفيذ رغبتك ولكنه لا يحبك، يقدر على تنفيذها ولكن لن ينفذها لك لأنه لا يحبك، إذاً أنت في الدنيا تسأل من ؟ تسأل جهة موجودة، تسأل جهة تسمعك، تسأل جهة قديرة على إنجاز طلبك تسأل جهة قديرة على إنجاز طلبك، تسأل جهة قديرة ومحبة، لمجرد أن تدعو الله عز وجل الدعاء الذي أراده فأنت بالبديهة مؤمن بوجوده مؤمن بأنه يسمعك، مؤمن بأنه على كل شيء قدير، مؤمن بأنه يحبك ويرحمك فالدعاء هو العبادة، آمنت بوجوده، وآمنت بعلمه، وآمنت بقدرته وآمنت برحمته، قال تعالى:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠))

شيء آخر ؛ في القرآن الكريم آيات كثيرة

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩))

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩))

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥))

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)

[سورة البقرة]

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي)

في أكثر من عشر آيات، يسألونك وقل لهم يا محمد كذا وكذا، فكلمة قل تتوسط بين السؤال والجواب إلا في آية واحدة:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

[سورة البقرة]

لم تأتي كلمة قل، لأنه ليس بينك وبين الله وسيط، ليس بينك وبين الله إذا دعوته وسيط:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

فليستجيبوا لي.. ولعل سبب استجابتهم لي إيمانهم بي.

(فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون)

إلى الدعاء الصحيح..

آمن بالله أولاً، آمن بوجوده، آمن بوحدانيته، آمن بكماله، كل شيء في الكون ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله، آمن بالله أولاً، واستجب لأمره ثانياً تغدوا مستجاب الدعوة.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد والدارمي]

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

ما معنى أطب مطعمك ؟.. اجعل الطعام الذي تأكله من مال حلال وكيف يكون المال حلالاً ؟.. إن اكتسبته من غير كذب، من غير غش من غير احتيال، من غير احتكار، من غير استغلال، من غير إيهام من غير تدليس، من غير نهب، المال الذي تكسبه حلالاً، وتشتري به طعام هذا الطعام طيب لأن ثمنه مال حلال كسبته بكد يمينك وعرق جبينك.

أيها الإخوة الكرام:

من عاش تقياً عاش قوياً، ومن كان كسبه حلالاً بارك الله في كسبه ومتعه بقواه وسمعه وبصره، وفي الدعاء الصحيح:

((ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا))

[جزء من حديث انفرد به الترمذي]

العبادة دعاء كما قال عليه الصلاة و السلام:

((الدعاء هو العبادة))

ولكنك لن تدعو الله إلا إذا عرفته، إذاً قبل الدعاء لا بد من أن تعرفه حتى تدعوه، أو حتى تفرده بالدعاء، الإنسان يدعو آلاف الأشخاص من أجل أن تفرده بالدعاء أن تدعوه وحده ولا تدعو أحداً معه، ينبغي أن تعرفه، ينبغي أن تعرفه خالقاً، وينبغي أن تعرفه إلهاً، وينبغي أن تعرفها رباً، وينبغي أن تعرف أن الأمر كله بيده.. أبداً، الأمر كله بيد الله، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣))

[سورة هود]

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣))

[سورة الزمر]

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣))

[سرة يس]

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣))

[سورة الحديد]

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠))

[سورة الفتح]

يد الله تعمل في الخفاء، يجب أن تعلم علم اليقين أنه:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

[سورة فاطر]

يجب أن تعلم علم اليقين أنه المقدم والمؤخر والظاهر والباطن والرافع والخافض والمعطي والمانع والمعز والمذل، إذا عرفته وعرفت وحدانيته وعرفت أن الأمر كله راجع إليه عندئذ تدعوه وحده ولا تبذل ماء وجهك أمام غيره، تمرغ جبهتك في أعتابه وترفع رأسك عزيزاً أمام خلقه.

المؤمن يتذلل لله وهو يشعر بعزة ما بعدها عزة أمام الخلق، أما غر المؤمن يتأبى على الله، وأمام أحقر مخلوقاته أذل من الشاة عند الذبح المؤمن عزيز لأنه تذلل إلى الله، وغير المؤمن ذليل لأنه تأبى على الله.

الدعاء هو العبادة.. هل سألته في جوف الليل ؟ هل رجوته أن يعفو عنك ؟ هل عاهدته على الطاعة؟ هل أقمت علاقة بينك وبينه أساسها الدعاء ؟.. فمن أجل أن تدعوه وحده، ومن أجل أن تدعوه وأنت موقن بإجابته ومن أجل أن تدعوه وأنت موقن بأنه على كل شيء قدير ينبغي أن تعرفه، فإذا عرفته وعصيت أمره تستحي أن تدعوه، تخجل أن تقف ببابه وأنت مقيم على معصيته، إن عرفته واستجبت له تدعوه وأنت موقن بالإجابة.

أيها الإخوة الكرام:

هذا الكلام تمهيد لموضوع الخطبة ألا وهو الدعاء، ونحن على أبواب رمضان الكريم، شهر القرب، شهر الحب، شهر التقوى، شهر الدعاء شهر العتق من النار، شهر أن تنتهي منه وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، شهر أن تفتح مع الله فيه صفحة جديدة، شهر أن تُلقي عن كاهلك كل الخطايا التي اقترفتها قبل رمضان.

أيها الإخوة الكرام:

((ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنه ذكر يوم الجمعة فقال في هذا اليوم ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه))

في يوم الجمعة ساعة إجابة، أين هي، تُركت مُبهمةً لتكون طوال يوم الجمعة في عبادة، في هذا اليوم ساعة، هذا في صحيح البخاري:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد وابن ماجة والدارمي ومالك في الموطأ]

هل أنت مستغن عن الله ؟ أليست لك قوائم وقوائم ترجوها من الله ؟ ألا ترجو صلاح الدنيا ؟ ألا ترجو صلاح أمرك في الدنيا ؟ ألا ترجو صلاح أمرك في الآخرة ؟ ألا تسأله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة ؟ ألا تسأله أن تُرزق رزقاً طيباً حلالاً، وأن يستعملك الله استعمالاً طيباً صالحاً، اللهم ارزقني حلالاً واستعملني صالحاً.. ألا تسأله التوفيق في مساعيك، أقل مؤمن له مع الله قوائم من الطلبات، والدعاء هو العبادة.

يعني اتصال مخلوق بالخالق، اتصال افتقار، اتصال طلب، اتصال حب، اتصال يقين بفضله وقدرته ولطفه ورحمته، هذا في يوم الجمعة فهذا يوم عيد، يوم اتصال بالله، يوم تهيئ نفسك لخطبة الجمعة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩))

[سورة الجمعة]

قال المفسرين ذكر الله هو الخطبة، اسع إلى هذه العبادة التعليمية وذروا البيع.

حديث آخر:

((عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ))

[أخرجه مسلم وأحمد]

أيضاً في كل ليلة ساعة إجابة، فإذا توافقت هذه الساعة وأنت في مصلاك تدعو الله عز وجل، فإذا سألته من خيري الدنيا والآخرة، إذا الشاب سأل الله زوجة صالحة، تسره إن نظر إليها، وتحفظه إن غاب عنها وتطيعه إن أمرها، فقد سأل خير الدنيا، إن سأل الشاب ربه عملاً يرضيه، رزقاً يكفيه، بيتاً يؤويه، إيماناً قوياً يقيه الزلل أليست هذه مطالب مشروعة لكل شاب ؟ وفي كل ليلة ساعة إجابة، والحديث في صحيح مسلم:

((عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ))

كل ليلة.. فيا ساعة إجابة، وكأن الله سبحانه وتعالى يحب أن نربح عليه، يحب أن نفرده بالسؤال.

لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تُغلق

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضب

إن أردت أن يحبك الله ويحبك الناس معاً ازهد بما في أيدي الناس وارغب فيما عند الله.

أيها الإخوة الكرام:

((عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا قَالَتْ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ (هي لا تعلم أن في مجتمع الصحابة رجلاً خيراً من أبي سلمة) أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا (وهي تعتقد أن ليس في الأرض أكرم ولا أفضل من زوجها

أبي سلمة) فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ فَقُلْتُ إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ فَقَالَ أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا وَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَذْهَبَ))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة، وأحمد ومالك]

هذا دعاء عن النبي اللهم أجرني في مصيبتي ـ اكتب لي بها أجراً ـ واخلفني خيراً منها.

عليك أن تمتثل أمر النبي:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

[سورة آل عمران]

((وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهْلَهُ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ أَوْ قُضِيَ وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا))

يعني هناك أولاد يجعلون بيت آبائهم جحيماً لا يُطاق، منحرفون شرسون ضالون، منغمسون في ملذاتهم، هؤلاء الأولاد عبئ على آبائهم وأمهاتهم هؤلاء الأولاد مصائب من أكبر المصائب، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهْلَهُ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ أَوْ قُضِيَ وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا))

وهذا من السنة..

((عن أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَكْرَهُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَبْكِي قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ فَقَالَتْ مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ قَالَ فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتِ الْبَابَ ثُمَّ قَالَتْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ))

ـ يعني قياساً على هذا الحديث، إذا الإنسان قام في جوف الليل ودعا ربه أن يهدي أولاده، دعا ربه أن يهدي زوجته، دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب لا تُرد..

دعا الله أن يلين قلب أمه وأبيه، دعا الله أن يلين قلب من معه من أصدقائه من شركائه، من زملائه، من جيرانه، فهذا الدعاء مستجاب.

((قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ قَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي))

[أخرجه مسلم وأحمد]

يعني أن يحبك الناس شيء ثمين، جداً، هناك إنسان مهما عمل من الصالحات لا يحبه الناس، أن يحبك الناس، أن يلقي الله حبك في قلوبهم هذا شيء ثمين جداً، هذا يعبر عن محبة الله لك:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩))

[سورة طه]

فتفسير هذه الآية، أي ألقيت حبك في قلوب الخلق.

((وما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفوا إليه بالمودة والرحمـــة))

والأدق من ذلك أن الله عز وجل يقول:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

[سورة آل عمران]

هذا قانون تعرف الله، تتصل به من خلال هذا الاتصال يستقر في قلبك أثر من رحمته، تغدو رحيماً، فإذا كنت رحيماً كنت ليناً، لم تكن فظاً غليظاً فإذا كنت ليناً التف الناس حولك وأحبوك. بالمقابل لا تعرف الله، لا تعرف الله، أنت منقطع عنه لا سمح الله مادام القلب بعيداً عن الله فهو قاسٍ كالصخر، القشرة الداخلية منعكساتها الداخلية غلظة وفظاظة، ومادام الإنسان غليظ القلب فظاً ينفض الناس من حوله. فإن أردت أن يحبك الناس فتعرف إلى الله واتصل به حتى يمتلئ قلبك رحمة عندئذ تلين لهم، فإذا كنت ليناً لهم أحبوك، والذي لا يعرف الله منقطع عنه، قلبه ممتلئ قسوةً، القسوة في الداخل منعكسها في الخارج غلظة وفظاظة، وما دمت فظاً غليظ القلب ينفض الناس من حولك.

فقال أبو هريرة رضي الله عنه يا رسول الله

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا))

يعني إنسان تحبه ولا يحبك، تقدره ولا يقدرك، أما الشيء الجميل جداً أن تحبه ويحبك، أن تقدره ويقدرك، أن ترعى مكانته ويرعى مكانتك، فقال عليه الصلاة والسلام

((اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي))

يعني شيء ثمين أن يحبك المؤمنون، وشيء ثمين أن تحبهم، هؤلاء الذين يحبون الكفرة، ورد في الحديث

((من هوي الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً))

أحياناً الإنسان يذهب إلى بلد غربي، يأتي ممتلئ إعجاب يعلم أنهم زناة، وأنهم متحللون من كل قيمة، يعلم أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل، يعلم أنهم يبنون مجدهم على أنقاض الشعوب يعلم انحرافهم يعلم أنهم غارقون في شرب الخمر وهو ممتلئ إعجاباً بهم لذلك

((من هوي الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً))

((ومن أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله))

أبو هريرة رضي الله عنه يقول: وحبب إلينا المؤمنين، إن أحببتهم عشت معهم وسكنت في ديارهم.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[انفرد به مسلم]

يعني أي إنسان كنت إذا كنت مظلوماً فدعاؤك يخترق سبع سماوات ليس بين الله وبين دعائك حجاب لأن الله يستجيب لك لا لأنك مستقيم على أمره بل لأنك مظلوم، وهذا عائد إلى اسمه العدل، وإذا كنت مضطراً لا يستجيب لك لأنك مضطر، بل لأنه رحيم يرحمك، هو الرحمن الرحيم فهناك استثناءان من شروط الدعاء ؛ المظلوم والمضطر.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وابن ماجة]

معنى هذا الحديث أنه لمجرد أن تقترب إلى الله بطاعة أو بتوبة، أو بعمل صالح، أو بنية طيبة، أو بخدمة لخلقه، أي حركة نحو الله، لابد من أن تجد أضعاف مضاعفة من الرحمة تجاهك، لو أنك عقدت توبة لو أنك ندمت على معصية، لو أنك أردت أن تتصدق أن تنصح، أن تأمر بالمعروف،

أن ترحم حيواناً، أية حركة نحو الله، إن أتيته مشياً أتاك هرولة، يعني شيء كبير جداً أن خالق السماوات والأرض ينتظرك فإن تحركت نحوه حركة بسيطة قابلك بأضعاف مضاعفة من حركة، إكراماً وتوفيقاً وتأييداً، وحفظاً، وسروراً، وأمناً وطمأنينة وسعادةً.

من هو البخيل ؟ هو الذي يبخل أن يدعو الله عز وجل.

((صعد النبي المنبر قال آمين قالوا على ما أمنت، قال جاءني جبريل فقال لي رغم أنف عبد أدرك رمضان فلم يُغفر له، إن لم يُغفر له فمتى؟"))

نحن على أبواب شهر كريم، شهر العتق من النار، شهر المغفرة شهر التوبة، المؤمن الصادق يستغل هذا ليصل إلى أعلى درجات القرب مع الله عز وجل.

((أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ قَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَقُولُ اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تُطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ أَفَلَا قُلْتَ اللَّهُمَّ (آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) قَالَ فَدَعَا اللَّهَ لَهُ فَشَفَاهُ حَدَّثَنَاه عَاصِمُ بْنُ النَّضْرِ التَّيْمِيُّ حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ الْحَارِثِ حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ بِهَذَا الْإِسْنَادِ إِلَى قَوْلِهِ (وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) وَلَمْ يَذْكُرِ الزِّيَادَةَ و حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا عَفَّانُ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ أَخْبَرَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَعُودُهُ وَقَدْ صَارَ كَالْفَرْخِ بِمَعْنَى حَدِيثِ حُمَيْدٍ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ لَا طَاقَةَ لَكَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَلَمْ يَذْكُرْ فَدَعَا اللَّهَ لَهُ فَشَفَاهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود وأحمد]

من هذا الذي يستطيع أن يقول يا رب أصبني بمصيبة أنا أتحمل، ما هكذا قال النبي، قال

((لكن عافيتك هي أوسع لي))

اسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، اسأل الله الحسنة في الدنيا والآخرة.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام :

الإنسان قد تصيبه بعض المشكلات، قد تضيق الأمور، قد يلوح له شبح مصيبة، قد يخشى من مرض عضال، قد تنشأ أزمة بينه وبين من حوله قد يشعر أنه ضعيف، قد يشعر أنه في ورطة، قد يشعر انه في حقل ألغام، قد يحس أن الآخرين يأتمرون عليه، قد يشعر أن هذا الدخل سينتهي، وأن هذا الرزق سينقطع، قد يشعر أن ابنه ليس في ملكه هناك آلاف المصائب، النبي عليه الصلاة والسلام علمنا، كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة، وأرقى أنواع الصلاة صلاة جوف الليل، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مسلم في صحيحه:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ))

هذا كلام النبي، وكلام النبي لا ينطق عن الهوى، الله جل جلاله ينتظرك في ثلث الليل الأخير، أليس لك عنده حاجة، آلاف المصائب آلاف الحاجات التي لا تنقضي، قم في الثلث الأخير من الليل وصل صلاة الليل وسجد واسأله هذه الحاجة، ثم انظر كيف تقضى هذه الحاجة

((هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ))

إلى طلوع الفجر، كل ليلة، كل ليلة ينزل الله جل جلاله إلى السماء الدنيا لكن العلماء شرحوا هذا الحديث على الشكل التالي، قال: إنها حق على ما يليق بالله تعالى، النزول الذي يليق بالله تعالى، وأن ظاهر النزول المتعارف في حقنا غير مراداً في الحديث، نحن ننزل من درجة إلى درجة، وسيدنا عمر حينما خطب أول خطبة نزل درجة، فقال ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر، يعني ما تحمل أن يرى يقف في مكانه فنزل درجة، طبعاً لهذا التصرف تتمة، سيدنا عثمان ما نزل درجة، أحد الخلفاء سأل نديماً أو مستشاراً لمَ لم ينزل عثمان درجة فقال له هذا النديم لو أنه فعلها لكنت في قعر بئر، يعني أيضاً هناك حكمة بالغة من أن سيدنا عثمان ما نزل درجة، أما سيدنا عمر نزل درجة، قالوا النزول في حق الله على ما يليق به هو الحق، أما على ظاهر النزول المتعارف في حقنا غير مراد إطلاقاً، أو يجب أن نعتقد تنزيه الله سبحانه وتعالى عن صفات المخلوقين وعن الانتقال والحركات وسائر صفات الخلق، أي علينا أن نأولها بما يليق بالله عز وجل.

قال مالك ابن أنس معنى النزول أن تنزل رحمته وأمره وملائكته ومعناه أيضاً الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف والله أعلم.

على كل أنت في هذا الثلث الأخير في موعد مع الله، فإذا صليت صلاةً فيها خشوع، وسألته في هذه الحاجة التي تقض مضجعك، والتي تقلقك والتي تخاف منها أو التي ترجوها فهذا أفضل وقت للدعاء وهذا الحديث في صحيح مسلم.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٤٥ : خ١ - خصائص الدعوة إلى الله١ (العلم والعمل) خ٢ : الجهاد الدعوي.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠١-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى :

نماذج من ثمار دعوة النبي :

أيها الإخوة المؤمنون؛ بعد هذه الخطبة إن شاء الله، ستنعقد ندوة حول العلم والعمل، أو حول مصداقية الدعوة إلى الله، أو حول الأساليب التي اتبعها النبي عليه الصلاة والسلام في نشر الحق، لذلك أيها الإخوة توفيراً لوقتكم الثمين سأدلي بدلوي في هذا الموضوع من خلال هذه القصة، وندع للإخوة الضيوف أن يدلوا بدلوهم أيضاً في صلب الندوة.

أيها الإخوة الكرام؛ النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى الله ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

[سورة الأحزاب الآيات : ٤٥ - ٤٨]

دعا إلى الله، وتلا على قومه آيات الله، وعلمهم الكتاب والحكمة، وزكى الذين آمنوا وساروا على نهجه حتى صاروا ثمار دعوة النبي النماذج البشرية التي كانت ثمرةً من ثمار دعوة النبي، حتى صاروا أبطالاً، فقد لُقب عصرهم بعصر البطولات، رهباناً في الليل، فرساناً في النهار، يقومون الليل إلا قليلاً، ينفقون أموالهم سراً وعلانية، يدرؤون بالحسنة السيئة، في صلاتهم خاشعون، عن اللغو معرضون، للزكاة فاعلون، لفروجهم حافظون، لأماناتهم وعهدهم راعون، يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، يبيتون لربهم سجداً وقياماً، تائبون عابدون، حامدون سائحون، راكعون ساجدون، آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر، حافظون لحدود الله، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم.

إذا قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم زادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، هم رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً، يبلغون رسالات الله، ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين، كانوا قوامين لله، شهداء بالقسط، كانوا أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، أحبوا الله وأحبهم، رضي الله عنهم ورضوا عنه.

هذه النماذج التي كانت من ثمار دعوةِ النبي، ونجاح الدعوة متعلق بمثل هذه النماذج.

قواعد الدعوة من خلال أقواله وأفعاله وإقراره :

يا أيها الإخوة الكرام؛ نحن حينما نقف من دعوة النبي لا على مضمونها، بل على الجانب التربوي في دعوته، إن أردنا أن نستنبط بعض القواعد، من أقواله، ومن أفعاله، ومن إقراره، تلك القواعد التي يمكن أن تكون للدعاة إلى الله من بعده منارات يقتدون بها.

أيها الإخوة الكرام:

أولاً: حاجة المسلمين إلى الدعاة حاجة أساسية.

((يَا ابْنَ عُمَرَ دِينُكَ دِينُكَ ، إِنَّمَا هُوَ لَحْمُكَ وَدَمُكَ))

[ورد بالأثر]

دين الإنسان سبب نجاحه، سبب طمأنينته، سبب سلامته، سبب سعادته، فشيء مصيري، قال تعالى:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

[سورة النجم الآيات : ٥٩ ــ ٦١]

المسلمون من دون دعاة إلى الله جهال، جُهَّال تتخطفهم شياطين الإنس والجن، من كل حدب وصوب، وتعصف بهم الضلالات من كل جانب، لذلك كان الدعاة إلى الله مصابيح الدجى، وأئمة الهدى، وحجة الله في أرضه، بهم تُمحق الضلالات وتنقشع الغشاوات، هم ركيزة الإيمان وغيظ الشيطان وهم قوام الأمة، وعماد الدين، هم أمناء على دين الله يدعون الناس إلى الله بلسان صادق، وجنان ثابت، وخلق كريم أعمالهم تؤكد أقوالهم.

هم أسوة ونبراس يصلحون ما فسد ويقوِّمون ما اعوجَّ، لا يستخفون من الناس ولا يخشون أحداً إلا الله ولا يقولون إلا حسناً.

ثانياً: إتباع منهج النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته.

ولكن أيها الإخوة؛ ولن يفلح الدعاة إلى الله في دعوتهم، إلا إذا اتبعوا منهج النبي عليه الصلاة والسلام في دعوته، إلا إذا قلدوه في أساليبه التربوية، إلا إذا تتبعوا خطاه، خطوة خُطوةً، إلا إذا جعلوا من منهجه التربوي، منهجاً لهم، لأن النبي عصمه الله عن الخطأ في الأقوال والأفعال والأحوال، وأوحى إليه وحياً متلواً وغير متلو، وألزمنا أن نأخذ منه كل ما أمرنا به، وأن ندع كل ما نهانا عنه، وأن نتأسى بمواقفه وسيرته، لأنه القدوة، والأسوة الحسنة والمثل.

صفات الرسول صلى الله عليه وسلم :

أيها الإخوة الكرام؛ كان صلى الله عليه وسلام العابد المتحنث القائد الفذ، شيَّد أمَّةً من الفُتات المتناثر، كان رجل حرب يضع الخطط، ويقود الجيوش، كان أباً عطوفاً، كان زوجاً تحققت فيه المودة والرحمة والسكن، كان صديقاً حميماً، كان قريباً كريماً، كان جاراً تشغله هموم جيرانه، كان حاكماً، تملأ نفسه مشاعر محكوميه، يمنحهم من مودته، وعطفه ما يجعلهم يفتدونه بأنفسهم، ومع هذا كله، فهو قائم على أعظم دعوة شهدتها الأرض، الدعوة التي حققت للإنسان وجوده الكامل، وتغلغلت في كيانه كله، ورأى الناس، الرسول الكريم، صلوات الله عليه وسلامه تتمثل فيه هذه الصفات الكريمة كلها فصدقوا تلك المبادئ التي جاء بها، لماذا ؟ .. لأنهم رأوها متمثلة فيه، لم يقرؤوها في كتاب جامد بل رأوها في بشر متحرك فتحركت لها نفوسهم وهفت لها مشاعرهم وحاولوا أن يقتبسوا قبسات من النبي الكريم كلٍّ بقدر ما يُطيق فكان أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل، كان هادياً ومربياً بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلم الطيب الذي ينطق به.

أيها الإخوة الكرام؛ لأن القدوة هي أعظم وسائل التربية، ذلك لأن دعوة المترف إلى التقشف دعوة ساقطة، ودعوة الكذوب إلى الصدق دعوة مضحكة، ودعوة المنحرف إلى الاستقامةِ دعوة مخجلة، لذلك كانت مواقف النبي صلى الله عليه وسلم وشمائلُه وفضائلُه ومكارمه قدوةً صالحةً وأسوةً حسنة ومثلاً يُحتذى، وهي ليست للإعجاب السلبي، ولا للتأمل التجريدي، ولكنها وُجدت فيه لنحققها في ذوات أنفسنا، كلٌ بقدر ما يستطيع، وقد ورد في وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا معاذ:

((يا معاذ أوصيك باتقاء الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح، وأنهاك أن تسب حكيما، أو تكذب صادقا، أو تطيع آثما، وتعصي إماما عادلا، تفسد أرضا، وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر، وشجر، ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية))

[أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد]

الفرق بين العلم الدنيوي والعلم الرباني :

يستطيع الإنسان أن يكون عالماً جهْبِذاً في الطب أو العلوم أو الهندسة من دون أن تتطلب هذه العلوم ممن يتعلمها قيداً سلوكياً، يمكن أن تكون أكبر عالم في الطب أو الهندسة أو العلوم، من دون أن تحتاج مع طلب هذا العلم إلى قيدٍ سلوكي، ولا يُفسد حقائقها أن يتبع النابغ فيها هوى نفسه، في حياته الخاصة، إلا علم الدين، فإنك إن كنت من المتدينين المخلصين، أو من علمائهِ أو الداعِين إليه، فلا بدَّ من أن تكون قدوة حسنة لمن تدعوهم إليه، وإلا ما استمع إليك أحد، ولو كنت أكثر الناس اطلاعاً وعلماً في دين الله، ولن ينظر إليك أحد نظرة احترامٍ جديرةٍ بك إلا إذا كان سلوكُك وفقاً لقواعد الدين.

بعض أقوال الملوك والكتاب في النبي :

قال ملك عمان وقد التقى النبي العدنان عليه أتم الصلاة والسلام: "والله ما دلني على هذا النبي الأمي، إلا أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر ويُغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد وينجز الوعد".

أحد كُتاب السيرة الغربيين الذين أسلموا قال: "كان محمد ملكاً وسياسياً ومحارباً وقائداً ومشرِّعاً وقاضياً، وفاتحاً ومهاجراً، مارس بالفعل جميع المبادئ التي كان يلقنها للناس، ولن تجد في القرآن حُكماً أو أمراً لم يعمل به النبي صلى الله عليه وسلم، إذ كان يمارس بالفعل كل ما كان يدعو إليه بالقول، فالمرء مثلاً ـ عند هذا الكاتب الغربي ـ لن يكون عفواً إلا أن يكون له عدو يلقى منه أشد الإساءة ثم تدور الدائرة على هذا العدو فيقع في قبضته، ويصبح تحت رحمته ثم يملك القدرة على الانتقام منه، ثم يعفو عنه .. " .

ثم يقول، هذا الكاتب الغربي، ألف كتاباً عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وقد تُرجم إلى العربية، يقول هذا الكاتب: "تأمل دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة دخولَ الظافرِ المنتصرِ، وقد خرَّت جزيرة العرب صريعة تحت قدميه، وأصبحت مكة قلعة العدو تحت رحمته، فلو شاء لقطع رؤوس القوم، الذين كانوا بالأمس ألد أعدائه، الذين اتخذوه هزواً، وأمعنوا في اضطهاده والاستخفاف به، ولو أنه عاقبهم بذنبهم لكان مُحقاً، ولم يكن ملوماً، ولم تظهر فضيلة العفو قط بصورتها الكاملة في تاريخ أي دين من الأديان حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم ولولاه لظلت هذه الفضيلة معطلة إلى الأبد".

هذا نص قول كاتب السيرة الغربي ...

((الرحمة لا الوصية))

أيها الإخوة: لقد علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم من خلال دعوته، أن نكون رحماء لا أن نكون أوصياء، فمن لا يرحم لا يُرحم:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

[سورة الأنبياء]

والنفوس جُبلت على حُب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، فصلى الله عليه وسلم فتح أقفال القلوب برحمته ورفقه، حتى لانت له القلوب القاسية، واستقامت الجوارحُ العاصية، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((بعثت بمدارة الناس))

[ورد بالأثر]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ قَالَ مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ فَقَالَ أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلادِ إِلَيَّ وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ صَبَوْتَ قَالَ لا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا وَاللَّهِ لا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أخرجه البخاري]

ولهذه القصة تتمة طويلة، مُنعت عن قريش الميرة، وكادوا يموتون من الجوع، فأرسلوا وفداً إلى النبي يستعطفونه في أن يأمر ثمامة أن يفك عنهم الحصار الاقتصادي، والتاريخ يعيد نفسه.

ثالثاً: الترغيب قبل الترهيب.

أيها الإخوة الكرام؛ القاعدة الثالثة: الترغيب قبل الترهيب.

لقد علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نقدَّم للمدعو الترغيبَ قبل الترهيب، والتبشير قبل الإنذار، أن نرغّبه في الإخلاص، قبل أن نرهبه من الرياء، أن نرغبه في طلب العلم ونشره، قبل أن نرهبه من الإعراض عنه وكتمانه، أن نرغبه في الصلاة في وقتها، قبل أن نرهبه من تركها أو تأخيرها، أن تقديم أسلوب الترغيب لأنه أنفع وأجدى من تقديم أسلوب الترهيب، يتَّضح هذا من موقف النبي صلى الله عليه وسلم حينما التقى عدي بن حاتم قال يا عدي: لعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم " أي فقرهم " وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، ويم الله ليوشك أن ترى القصور البابلية مُفتحة للمسلمين، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى القوة والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها وحدها لا تخاف.

أيها الإخوة الكرام؛ لقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نُيّسر ولا نُعسر، وأن نُبشر ولا ننفّر، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلا تُنَفِّرُوا))

[رواه البخاري]

قال الإمام النووي رحمه الله: " لو اقتصر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله على " يسروا " لصدق على من يسَّر مرة وعسَّر كثيراً فلما قال: " ولا تعسِّروا " لكي نجتنب التعسير في كل الأحوال".

قال ابن مسعود رضي الله عنه:

((كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يتخوَّلنا بالموعظة ، مخافة السآمة علينا))

[رواه البخاري]

أي كان يعظنا من حين لآخر، دون تتابع لئلا نسأم الموعظة، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تكليف الناس ما لا يطيقون ليستمر سيرهم في طريق الإيمان، فالداعيةُ المتَّبع المتتبع لسنة النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ نفسه بالعزائم، ويفتي بالرخص، تخفيفاً على من معه وتيسيراً لهم.

قَالَ أَنَسٌ :

((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شيخاً كبيراً يُهادى بين ابنيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا؟ قالوا: نذر أن يمشي إلى البيت. قال: إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني، قال: فأمره أن يركب))

[رواه ابن خزيمة]

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً قائماً في الشمس ، فقد أخرج البخاري وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس قال:

((بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس، فسأل عنه فقالوا: هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد لا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه))

وقد قال الإمام علي كرم الله وجهه:

((إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإن أقبلت فاحملوها على النوافل، وإن أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض))

[راجع المئة المختارة للجاحظ ، وغرر الحكم للآمدي ص١١٣]

والنبي عليه الصلاة والسلام علّمنا من خلال أقواله وأفعاله ومواقفه من أصحابه في شتى مستوياتهم وأحوالهم أن الدعوة مهمة تربوية أساسها النفسي الحب الصادق لمن تدعوهم، أن تحبهم، والرحمة الواعية والشفقة الحانية، لن تُفلح في دعوتك إلى الله إلا إذا أحببت الناس حباً صادقاً، ونصحتهم، ورحمتهم رحمة واعية، وأشفقت عليهم شفقة حانية وأساسها العقلي؛ المعرفة الدقيقة والعميقة والشاملة لطبيعة النفس الإنسانية، في قوتها وضعفها في تألقها وفتورها في إقبالها وإدبارها.

قصة فيها موعظة :

لمّا تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم، لفتح مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكلة يخبرهم بذلك وقال لهم: إن رسول الله يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم، ثم أرسل الكتاب مع امرأة مسافرة، فنزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بذلك، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً والزبير والمقداد وقال: انطلقوا حتى تأتوا موضع كذا، فإن به ظعينة معها كتاب، فخذوه فأتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة، وهو المكان الذي حدده لهم النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها: أخرجي الكتاب فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا لها: لتُخرجنَّ الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها، أي من ضفائر شعرها، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أُناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه

وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم وقد استدعى حاطباً: ما هذا يا حاطب وما حملك على ما صنعت؟

فقال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بهم أهلهم، وأموالهم، بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، فقال عمر؛ يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال عليه الصلاة السلام: ـ هنا دققوا ـ لا يا عمر إنه شهد بدراً، ثم التفت إلى أصحابه، وقال: صدقوه، إني صدقته فصدقوه ولا تقولوا إلا خيراً .

هذا هو القلب الكبير، والصدر الواسع، والتفهُّم العميق للحظة ضعف طارئة ألمت بهذا الصحابي، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الموقف الرحيم، أن يعينه وينهضه من عثرته فلا يُطاردُ بها وأن لا يدع أحداً يطارده..

التعليل:

أيها الإخوة الكرام؛ وسر التفاوت بين موقف النبي صلى الله عليه وسلم وموقف عمر هو التفاوت بين موقف الأب والأخ، إن عمر نظر إلى الذنب فإذا هو خيانة عظمى لله ولرسوله ولدينه، بينما النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى لحظة الضعف الطارئة التي ألمت بصاحب الذنب فتفهمه ورحمه وأعانه على نفسه، وأشاع بين أصحابه قائلاً إني صدقته فصدقوه.

العقل والنور :

يا أيها الإخوة الكرام؛ علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم من خلال سنته وسيرته، أن الإنسان عقل يدرك وقلب يحب، وأن العقل غذاؤه العلم، وأن القلب غذاؤه الحب وأن العقل أميرُ القلب، لذلك: إذا كان العقل للنفس كالعين تبصر به فإن الهدى الرباني نور لهذه العين، فأنَّى للعقل أن يرى الحقائقَ من دون نورٍ يكشفها له؟ وإذا كان القلب وما ينطوي عليه من حب محركٍ للإنسان، ينتقل ويرقى به فإن العقل مقودٌ يوجه الحركة نحو الهدف ويجنبها الانحراف والهلاك، دققوا في موقف النبي من دعوته وفي طريقته في دعوته، كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب العقل في الإنسان. عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا مَهْ مَهْ فَقَالَ ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ فَجَلَسَ قَالَ أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا

النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ قَالَ لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ قَالَ لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى

شَيْءٍ حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ حَدَّثَنِي سُلَيْمُ ابْنُ عَامِرٍ أَنَّ أَبَا أُمَامَةَ حَدَّثَهُ أَنَّ غُلامًا شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَهُ))

[أخرجه أحمد والطبراني]

خاطب عقله بمحاكمة منطقية راجحة، وأحياناً يخاطب النبي القلب حينما جمع النبي الأنصار الذين وجدوا عليه في أنفسهم عقب غزوة حنين وتوزيع الغنائم قال:

يا معشر الأنصار ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟ .. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليُسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم؟ .. فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

أيها الإخوة الكرام؛ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى خيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

***

الخطبة الثانية :

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم.

التعريف بالآمر والتعريف بالأمر:

بقيت نقطة واحدة أيها الإخوة، وهي أن في مرحلة الدعوة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، مرحلة مكية، ومرحلة مدنية.

مرحلة مكية، مرحلة التعريف بالآمر، والمرحلة المدينة، مرحلة التعريف بالأمر، فلا بد لكل دعوة من أن تجمع التعريف بالآمر والتعريف بالأمر، فلا بد لكل دعوة من أن تجمع بين التعريف بالآمر والتعريف بالأمر .

إذا اقتصرنا على التعريف بالأمر، تفننا في التفلت من هذا الأمر أما إذا عرفنا الآمر، عرفنا المدعو بالآمر قبل الأمر، تفانينا في تطبيق الأمر، ولعل هذه الحقيقة تفسر لكم سر نجاح بعض الدعوات وإسقاط بعض الدعوات، قيمة الأمر من قيمة الآمر، فإذا عرفت الناس بالآمر كان الأمر عظيماً عندهم، أما إن لم تعرفهم بالآمر، أعطيتهم الأحكام كلها دون أن يعرفوا من هو الذي فرضها، فأغلب الظن أن الناس يتفننون في التفلت منها فلذلك من خصائص دعوة النبي أن فيها تعريفاً بالآمر وتعريفاً بالأمر .. فيها دعوة إلى معرفة إلى التفكر في خلق السماوات والأرض لتعرف من الآمر، وفيها دعوة إلى معرفة دقائق الشرع كي تعبده بالأمر، إنك بالكون تعرفه وبالشرع تعبده. أيها الإخوة الكرام ، هذا الموضوع له تتمة، نرجو الله سبحانه وتعالى بعد رمضان أن نتابع خصائص الدعوة إلى الله، لأنه ما من واحد منكم إلا وهو مكلف أن يدعو إلى الله، شئنا أم أبينا، السبب ؟ قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة يوسف الآية : ١٠٨]

فإن لم تدع إلى الله عز وجل فلست متَّبعاً للنبي، لكن في حدود ما تعلم وفي حدود من تعلم ، قال صلى الله عليه وسلم :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

[أخرجه البخاري]

قال تعالى :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر]

لن تنجح دعوة على وجه الأرض إلا إذا قلدت النبي صلى الله عليه وسلم في خصائص دعوته، فهذا موضوع مهم جداً.

الجهاد الدعوي :

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((وَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجُلا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[أخرجه البخاري ومسلم]

والجهاد الدعوي سماه الله في القرآن الكريم جهاداً كبيراً، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية : ٥٢]

هناك جهاد النفس والهوى، وهناك جهاد دعوي، وجهاد النفس والهوى، والجهاد الدعوي، متاح لكل المسلمين في كل أمصارهم وأقطارهم وأزمانهم، وهو الأصل في الجهاد، أن تجاهد نفسك وهواك لأن المهزوم لا يستطيع أن يفعل شيئاً، لا يستطيع أن يُلقي كلمة، ولا أن يحدث تأثيراً، المهزوم أمام نفسه ضعيف جداً فلا بد من جهاد النفس والهوى، ولا بد من الجهاد الدعوي لأن أصل الدين نشر العلم، وما خطبة الجمعة، هذه العبادة التعليمية، إلا انطلاقاً من هذا القبيل.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٤٦ : خ١ - الغربة في الدين ، خ٢ - الكلية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠١-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: تمهيداً لموضوع الخطبة، قد يتلفت الإنسان إلى من حوله، فيجد تفلتاً عن منهج الله، يجد أكلاً للمال الحرام، ويجد انتهاكاً لحرمات الله فيشعر بالغربة، ثم يسأل نفسه، أهذه الغربة شعور مرضي أم شعور صحي ؟.. يجيب عن هذا السؤال النبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

((حَدَّثَنِي كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفِ بْنِ زَيْدِ بْنِ مِلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ الدِّينَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الأُرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي))

(حديث حسن صحيح رواه بن مسعود)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ قَالَ قِيلَ وَمَنِ الْغُرَبَاءُ قَالَ النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ))

النُّزاع: جمع نازع، والنازع هو الغريب في القبيلة، في القبيلة تجد الرجل أو الرجلين، يعني النبي صلى الله عليه وسلم في حديث رابع، يقول:

((سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَنَحْنُ عِنْدَهُ طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ فَقِيلَ مَنِ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ))

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل ومن الغرباء يا رسول الله، قال الذين يحيون سنتي ويعلمونها الناس))

إذاً أن تشعر أنك لست مع الأكثرية في تفلتهم، في انحرافهم في فساد عقائدهم، في إساءتهم، في أكلهم المال الحرام، في تورطهم في علاقات لا ترضي الله عز وجل، إن شعرت أنك لست مع هؤلاء، وأنك غريب عنهم، فهذا شعور صحي، أجابك عن هذا النبي عليه الصلاة والسلام.

((عَنْ عِيسَى ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ خَرَجَ يَوْمًا إِلَى مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَاعِدًا عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ يَبْكِي فَقَالَ مَا يُبْكِيكَ قَالَ يُبْكِينِي شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ وَإِنَّ مَنْ عَادَى لِلَّهِ وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الأَبْرَارَ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا وَلَمْ يُعْرَفُوا قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ))

أيها الإخوة الكرام: هؤلاء الغرباء الممدوحون من قبل النبي عليه الصلاة والسلام المغبوطون لقلتهم في الناس، سموا غرباء، فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات.

وأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع هم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء الناس غربة، ولكن هؤلاء الغرباء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين الذين قال الله في حقهم:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(١١٦))

(سورة الأنعام)

أولئك هم الغرباء حقاً، غرباء من الله ورسوله، غرباء من دينه غرباء الغربة الموحشة.

أيها الإخوة الكرام: الغربة غربة أهل الله وأهل سنته بين هؤلاء الخلق هي الغربة التي مدحها النبي عليه الصلاة والسلام ومدح أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريباً وأنه سيعود غريباً كما بدأ وأن أهله سيصيرون غرباء.

إذا كنت مستقيماً على أمر الله والناس يتهمونك في عقلك، إن رفضت مبلغاً كبيراً فيه شبهة يحل لك كل مشكلاتك، رفضته ورعاً وخوفاً من الله عز وجل، و بدوت أمام الناس محروماً، واتهمك الناس في عقلك فأنت غريب عنهم، شيء طبيعي، أن العاقل بين المجانين غريب، وأن الحكيم بين الطائشين غريب، وأن المنحرف بين المستقيمين غريب.

أيها الإخوة الكرام: هذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، من أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله، أشد ما تبدوا هذه الغربة صارخة إذا ذهبت إلى بلاد الغرب، كل السلوك الإسلامي مرفوض، كل التفلت والإباحية والتطاول مقبول، كل الانحلال الأخلاقي مقبول، كل الورع والعفة مرفوضة، فقد تكون هذه الغربة في مكان دون مكان، وقد تكون في وقت دون وقت وقد تكون بين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقاً، فإنهم لن يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس وهم في أشد الحاجة إليهم فارقوهم فراراً بدينهم.

أيها الإخوة الكرام: لا يليق بالإنسان أن ينتسب لغير الله ورسوله، لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله، لا يليق بالإنسان أن يغير لغير الله، أنت لله وحده أنت منسوباً إلى هذا النبي العظيم.

أيها الإخوة الكرام: هذه الغربة لفظاً غربة، لكنه ليس هناك وحشة على صاحبها، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا إن احتفلوا وغنوا ورقصوا وصخبوا واختلطوا يشعر بوحشة ما بعدها وحشة، وإذا استوحشوا هو في أنس ما بعده أنس فوليه الله ورسوله والذين آمنوا معه، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

أيها الإخوة الكرام: من هؤلاء الذين ذكرهم النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ أَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَكُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ وَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ فَكُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ ذِي تَبَعٍ))

فالبطولة أن تكون من الغرباء، البطولة أن تكون من أهل الله البطولة أن تستقيم عقيدتك وأن يستقيم سلوكك، وأن تكون وقافاً عند حدود الله ولا تعبأ بالأكثرية التي شردت والتي انحرفت والتي فسقت والتي فجرت والتي لا تعبأ أكان مالها حلالاً أم حراماً، أو أكانت علاقاته شرعية أو غير شرعية. يقول الحسن رضي الله عنه: " المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس على عزها، للناس حال وله حال، الناس منه في راحة وهو من نفسه في تعب "، الناس قد يرتاحون وهو لا يرتاح إلا إذا عرف الله، الناس يسترخون وهو لا يسترخي إلا إذا شعر أن الله راض عنه، يقلقه نقص في معرفته، يقلقه نقص في استقامته، يقلقه حركة في الحياة قد لا ترضي الله عز وجل، متاعبه كثيرة، يحاسب نفسه حساباً عسيراً، فإذا كان يوم القيامة كان حسابه يسيراً، أما أهل الدنيا يحاسبون أنفسهم حساباً يسيراً، ما من انحراف إلا ويغطى عندهم بفتوى، ما من تطاول إلا وله عندهم مبرر، ما من انتهاك لحرمات الله إلا بدعوى الاطلاع والثقافة وما إلى ذلك، يغطون كل انحرافاتهم بفلسفات واهية ضعيفة لا تقف على قدميها، لأنهم منطقيون، فإذا لم يفعلوا هذا اختل توازنهم، يأتون بحجج ضعيفة، وفتاوى ضعيفة وتبريرات مضحكة كي يتوازنون، ولو انهم استقاموا على الطريقة لكانوا في حال غير هذا الحال.

أيها الإخوة: من صفات هؤلاء الغرباء الذين أثنى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم تمسكهم بالسنة، إذا رغب الناس عنها، وتركهم ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، المعروف عند الناس ما

أحدثوه، لكن المعروف عند أهل السنة ما شرعه النبي عليه الصلاة والسلام، وقد أشار النبي إلى ذلك، قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، قالوا أو كائن هذا يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف))

هؤلاء الغرباء، تمسكهم بالسنة إذا رغب الناس عنها أحد علاماتهم ترك ما أحدثوه وإن كان عندهم هو المعروف، توحيدهم لله عز وجل وإن أنكر الناس عليهم ذلك، وجرب ذلك، إن عزوت الأمر إلى الله وحده، إن بينت للناس أن الله وحده هو المتصرف، وأن يد الله فوق أيديهم، وأنه لا يقع شيء في كون الله إلا بمشيئة الله، وأن أفعال الله كلها فيها حكمة ما بعدها حكمة، ورحمة ما بعدها رحمة، وعدل ما بعده عدل، اشمأزت قلوبهم من هذا الكلام، فإذا عزوت الأمور إلى البشر وإلى الأقوياء من البشر ارتاحت نفوسهم، إذا ذكرت الله وحده اشمأزت نفوسهم، وإذا ذكرت معه شركاء يطمئنون، هذا من صفات أهل الدنيا الشاردون.

أيها الإخوة الكرام: المؤمن يملك تفسيراً إلهياً توحيدياً لكل ما يرى ويسمع، بينما أهل الدنيا يريدون التفسيرات الأرضية، فإذا وقع زلزال يريدون أن يكتفوا بأنه اضطراب في باطن الأرض فقط، أما أن يقبلوه عقاباً إلهياً لانحراف في مجتمع هذا يرفضونه، إذا ذكر الله وحده وعزي كل شيء إلى تصرفاته، وأن خطة الله عز وجل تستوعب خطة الأقوياء، قال تعالى:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤))

(سورة يونس)

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥))

(سورة يونس)

أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً، ولم يأتها أمرهم، إذا ملكت تفسيراً لكل ما تسمع ولكل ما ترى تفسراً توحيدياً فأنت الغريب أما إذا أرجعت الأمور إلى الأقوياء من بني البشر، وصورت ما يجري صراع بين أصحاب القرارات، فهذا يبدوا غريباً عند الناس، قال تعالى:

((ضرب الله مثلاً قرية كانت))

أيها الإخوة الكرام: هم ينتسبون إلى رسول الله، وغيرهم ينتسب إلى غير الله ورسوله بل هؤلاء الغرباء ينتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، هؤلاء الغرباء هم القابضون على الجمر حقاً، وأكثر الناس بل كل لائم لهم، لقد كان المستجيبون لدعوة الإسلام نزّاعاً من القبائل قلائل، أفراد، أي غرباء في القبائل، بل آحاد، تغربوا عن قبائلهم وعشائره حينما

دخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباء حقاً في عهد النبي، حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجاً فزالت تلك الغربة، ثم أخذ في الاغتراب والترحل شيئاً فشيئاً، بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، خرج الناس من دين الله أفواجاً فبدأ الاغتراب والترحل شيئاً فشيئاً حتى عاد غريباً كما بدأ، بل الإسلام الحق الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هو أشد غربةً منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه ظاهرة، مشهورة ومعروفة مساجد من أروع ما يكون، خُطب، كتب، مؤتمرات..

من مليار ومائتين مليون ليسوا مستخلفين، وليسوا مطمئنين وليسوا موعودين بالنصر، قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥))

(سورة النور)

أين الاستخلاف، أين التمكين ؟ يعبدونني، هذا هو الشرط، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (٥٩))

(سورة مريم)

ولعل المسلمون لقوا ذلك الغي.

أيها الإخوة الكرام: الإسلام الحقيقي الذي جاء به النبي والذي كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غريب جداً، وأهله أشد غربة.

((عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ لَهُ كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الآيَةِ قَالَ أَيَّةُ آيَةٍ قُلْتُ قَوْلُهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

أيها الإخوة الكرام: إذا أراد المؤمن الذي رزقه الله بصيرةً في دينه، وفقهاً في سنة رسوله، وفهماً في كتابه، وأراه الله ما هم عليه الناس من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه النبي عليه أتم الصلاة والتسليم، إذا أراد المؤمن وقد رزقه الله هذه البصيرة وهذا الفهم، وذاك الورع، أن يسلك هذا الطريق، فليوطن نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع،

وازدرائهم له، وتنفير الناس عنه وتحذيرهم له، فهو غريب في دينه، لفساد دينهم، غريب بتمسكه في السنة وتمسكهم بالبدعة، غريب في اعتقاده، لفساد اعتقادهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه، لضلال طريقهم، غريب في نسبته، لمخالفة نسبهم، غريب في معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

يعني لو أردت أن تستقبل ضيفاً مع زوجته، وأردت أن يكون النساء في غرفة، والرجال في غرفة لأقاموا عليك النكير، بين أهلك الأقربين هذه هي الغربة.

أيها الإخوة الكرام: المؤمن غريب في أمور دنياه وأخراه، لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً فهو عالم بين الجهال، صاحب سنة بين أهل البدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى غير الله وغير رسوله، آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر بين قوم لديهم المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

ثم إن هناك معنىً آخر لموضوع الخطبة، بل إن الناس كلهم غرباء في هذه الدار، فإنها ليست لهم بدار قرار، ولا هي الدار التي خُلقوا لها وقد قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

((كن في الدنيا كأنك غريب أو كعابر سبيل))

يا أيها الإخوة الكرام: نرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون الناس جميعاً على صواب، ولا نيأس ولا نضعف، بل ندعو إلى الله، ونصلح الناس، ولكن حينما ترى أن الأكثرية ليست على ما ينبغي أن يكون، لُذْ بالاستقامة، ولذ بالله عز وجل، ونجُ بنفسك، قال تعالى:

(عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥))

(سورة المائدة)

أيها الإخوة الكرام: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن محمد عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله صحبه أجمعين.
أيها الإخوة الكرام: من الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل والتي بين جوانحنا، في أجسامنا، وجسم الإنسان أقرب شيء إليه قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١))

(سورة الذاريات)

أن هذه الكلية، من إحدى وظائفها طرح الملح الزائد، فالملح أيها الإخوة له نسبة دقيقة في الدم، إن نقصت عنها أو زادت هلك الإنسان، هو يأكل بلا حساب، قد يأكل أكلاً مالحاً، وقد يأكل بعض الأكلات التي فيها ملح زائد، هو يأكل كما يشتهي، ولكن نسبة الملح في الدم يجب أن تكون بين سبعة إلى ثمانية في الألف، فإن نقصت أو زادت هلك الإنسان، وكانت حياته في خطر، لذلك هذه الكلية التي تراها صغيرة تقوم بعمل كبير، وعمل تتوقف عليه حياة الإنسان، إنها مسؤولة عن طرح الملح الزائد في الدم.

هي الحارس الأمين للجسم من زيادة الملح والسكر، يساعدها في ذلك الدماغ الذي يصدر الأوامر إلى كل أعضاء الجسم.

من أدق الأمثلة على عمل الكلية، عندما يتناول الإنسان كمية زائدة من الملح، وخاصة في بعض الأكلات، عندئذ تأتي إشارة إلى الدماغ بأن هذا الملح قد زاد عن حده، فيرسل الدماغ أمراً هرمونياً عن طريق الغدة النخامية بأن تتوقف عن طرح الماء في حجيراتها الاحتياطية، في الكلية حجيرات احتياطية فيها ماء، الغدة النخامية تأمر عن طريق الهرمونات تأمر الكلية تتوقف عن طرح الماء الزائد في حجيراتها، لماذا ؟

فإذا بالملح تزداد كثافته، وإذا زادت كثافته شكل خطراً على الإنسان عندئذ يرسل القلب نداءاً عن طريق هرمون آخر إلى الأجهزة الهضمية فتثير في الإنسان العطش الشديد، وما من أكلة مالحة إلا وتحتاج إلى ماء كثير بعدها، شيء ثابت هذا.

هذا العطش الشديد يدعوك إلى أن تشرب ماء كثيراً، هذا الماء ينتقل بوقت خيالي من المعدة إلى الدم، من أجل أن يحل الملح الزائد، فإذا حل الملح الزائد جاء أمرٌ معاكس للكلية بطرح كل الماء الزائد فيها عندئذ يُحل الملح في هذا الماء الزائد ويُطرح خارج الكلية وأنت لا تدري، أنت أكلت أكلة مالحة واستمتعت بها، والباقي تقوم به هذه الأجهزة الدقيقة التي لا يعلم دقتها إلا الله عز وجل.
أيها الإخوة الكرام: كل جهاز في الإنسان وكل عضو فيه وكل حاسة فيه لو وقفنا على تفاصيلها لدهشنا، ولأخذنا العجب العجاب، كل هذه الدقة وأنت في غفلة عن الله عز وجل.

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

أيها الإخوة لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت قال تعالى:

((لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم))

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨))

(سورة النمل)

يجب أن تعلم أن كأس الماء الذي تشربه، والذي تطرحه يمر عبر أجهزة بالغة الدقة، يحار العقل في فهما، قبل أن يعرف طريقة عملها.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٤٧ : خ١ - ليلة القدر - معرفة الله وتقديره حق قدره ، خ٢ - زكاة الفطر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠١-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: نحن في العشر الأواخر من رمضان، وفي هذا العشر، تُلتمس فيه ليلة القدر، وبعيداً عن آراء المفسرين في تفسر سورة القدر، وعما يكون فيها، فإن هذه الليلة المباركة، أساسه قول الله تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧))

(سورة الزمر)

فإذا قدرت الله حق قدره، وعرفت عظمته وجلاله، فقد وصلت إلى بعض معاني ليلة القدر، وفي آية أخرى:

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣))

(سورة المائدة)

وهذه الآية تشير بشكل أو بآخر إلى بعض معاني ليلة القدر، فإذا كان حال المؤمن في معرفة ربه، والخشوع له، والتقرب إليه فقد أدرك بعضاً من معاني ليلة القدر.

أيها الإخوة الكرام: الشيء الأول ليلة القدر هي الليلة التي تتعرف فيها إلى الله جل جلاله، فمن حصلت له بعض معاني ليلة القدر، فهو يهاب الله عز وجل أشد الهيبة، من زادت معرفته ازدادت هيبته، من ازدادت معرفته ازدادت سكينته، من كان لله أعرف كان لله أخوف، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨))

(سورة فاطر)

العلماء وحدهم وليس أحد سواهم يخشون الله، هذا المعنى يستفاد من كلمة إنما..

((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ))

أيها الإخوة الكرام: يقول عليه الصلاة والسلام:

((أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية))

لأنني أعرفكم بالله أنا إذاً أشدكم خشية له، فالخشية، والهيبة والطاعة والخوف، هذه كلها مرتبطة بالمعرفة، فمن عرف الله خشيه، من عرف الله أطاعه، من عرف الله أحبه، من عرف الله تقرب إليه، من عرف الله هابه، وهاب أمره، وما حال بعض المسلمين اليوم إلا أن أمر الله هان عندهم فهانوا على الله، ولو عظموا أمر الله لكانوا في حال غير هذا الحال.

أيها الإخوة الكرام: من أدرك بعض المعاني من ليلة القدر ضاقت عليه الدنيا بسعتها واتسع عليه كل ضيق، وليس بين هذين القولين تناقض ؛ أي مكان يبعدك عن الله عز وجل مهما يكن جميلاً مهما يكن واسعاً تضيق به، وأي ضيق أو حدة أو ابتلاء يقربك إلى الله تعالى فهو رحب واسع، فمن أدرك بعض معاني ليلة القدر ضاقت عليه الدنيا بسعتها، واتسع عليه كل ضيق.

ومن أدرك بعض معاني ليلة القدر صفا له العيش، وطابت له الحياة وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله عز وجل، يقول بعض العلماء الأجلاء:

((في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة))

أيها الإخوة الكرام: مرة ثانية ؛ من أدرك طرفاً من معاني ليلة القدر صفا له العيش لقربه من الله، وطابت له الحياة لشعوره أنه في ظل الله، وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله، وما من شدة على النفس أشد من أن تخاف مخلوقاً، وما من طمأنينة تسعد بها النفس كأن تشعر أن الله معك، فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك.

أيها الإخوة الكرام: من أدرك طرفاً من معاني ليلة القدر قرت عينه بالله، إذا كانت أعين أهل الدنيا تقر بدنياهم، فإن عين المؤمن الذي أدرك بعضاً من معاني ليلة القدر تقر عينه بالله، قرت عينه بالله، وقرت عينه بالموت، هذا الموت الذي تنخلع له القلوب، هو غايته،

أنا لا أخاف الموت بل هو غايتي هكذا قال بعض العلماء، الموت تحفته لأنه ساعة اللقاء مع الحبيب،

((واكربتاه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه))

من أدرك طرفاً من معاني ليلة القدر قرت عينه بالله، وقرت عينه بالموت، وقرت به كل عين، أصبح مصدر إشعاع، مصدر معرفة مصدر تطمين، قرت عينه وقرت به كل عين، ومن لم يدرك معاني ليلة القدر تقطع قلبه على الدنيا حسرات، من أدرك بعض معاني ليلة القدر لم يبق له رغبة فيما سوى الله قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣))

(سورة المؤمنون)

فمن عرف الله زهد فيما سواه.

ومن أدرك بعض معاني ليلة القدر أحب الله على قدر معرفته به وخافه، ورجاه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ولهج بذكره، واشتاق إلى لقائه، واستحيى منه، وأجله، وعظمه، كل هذا على قدر معرفته به، أصل الدين معرفة الله، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧))

(سورة الزمر)

أيها الإخوة الكرام: من أدرك طرفاً من معاني ليلة القدر، لا يطالب لأنه غني بالله، ولا يخاصم ولا يُعاتب، ولا يرى له على أحد فضل، لأن فضل الله يشمل الجميع، ولا يرى له على أحد حقاً. أيها الإخوة الكرام: من أدرك بعض معاني ليلة القدر لا يأسف على ما فات، ولا يفرح بما هو آت، لأنه ينظر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال، لأنها في الحقيقة كالظلال والخيال.

أيها الإخوة الكرام: لن تدرك بعض معاني ليلة القدر، إلا إذا كنت كالأرض يطأها البر والفاجر، وكالسحاب يظلل كل شيء، وكالمطر يسقي من يحب ومن لا يحب.

ومن أدرك بعض معاني ليلة القدر، يخرج من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين، بكاء على نفسه، وثناء على ربه، لأنه يعرف نفسه حق المعرفة، يعرف عيوبها وآفاته، ويعرف ربه حق المعرفة، يعرف كماله وجلاله.

ومن أدرك بعض معاني ليلة القدر لو أعطي ملك سليمان لم يشْغَله عن الله طرفة عين، لكنه من اشتغل بغير الله من أجل الله، فهذا لم يشتغل عنه، بل أدى هذا الشغل إليه.

أيها الإخوة الكرام: ومن أدرك بعض معاني ليلة القدر يستأنس بربه، ويستوحش من مَن يقطعه عنه ولم كان من الكبراء، يستأنس بربه ويستوحش ممن يقطعه عنه ولو كان من الأقوياء، يستأنس بربه، ويستوحش مما سواه، ومن أنس بالله أوحشه الله من الخلق، ومن افتقر إلى الله أغناه الله عن الخلق، ومن ذل لله أعزه الله في الخلق، ومن تواضع لله رفعه الله بين الخلق، ومن استغنى بالله، أحوج الخلق إليه.

هذه بعض النتائج والثمرات لليلة القدر، هي خير من ألف شهر، خير من ألف شهر أي من ثمانين عاماً تعبد الله عبادة جوفاء لا معنى لها لا ورع فيها، لا معرفة تحوطها.

أيها الإخوة الكرام: ومن أدرك بعض معاني ليلة القدر يتلون بتلون أقسام العبودية، فبينما تراه مصلياً إذ تراه ذاكراً، وتراه قارئاً، وتراه معلماً، وتراه مجاهداً وتراه حاجاً، وتراه مساعداً للضعيف،

مغيثاً للملهوف، فهو مع المتعلمين متعلم، ومع الغزاة غازٍ، ومع المصلين مصلٍ، ومع المتصدقين متصدق، فهو ينتقل في منازل العبودية، من عبودية إلى مثلها.

ومن أدرك طرفاً من معاني ليلة القدر، هو كائن بائن، ما معنى كائن بائن ؟ ؛ كائن مع الخلق بظاهره، بائن عنه بسره وقلبه، كائن مع أبناء الآخرة، بائن عن أبناء الدنيا، كائن مع الله بموافقته، بائن عن الناس في مخالفته، هذا بعض معاني ليلة القدر.

أيها الإخوة الكرام: ومن أدرك بعض معاني ليلة القدر لا يعتقد في باطنه بشيء يخالف ظاهر الشريعة، وظاهر القرآن وظاهر السنة، ليس في الإسلام ازدواجية، ليس في الإسلام ظاهر وباطن، الإسلام هو الإسلام، بعقيدته وبعباداته، وبأخلاقه وبتشريعاته.

أيها الإخوة الكرام: ومن أدرك بعض معاني ليلة القدر لا تحمله كثرة نعم الله عز وجل على هتك أسرار محارم الله عز وجل، مهما يكن غنياً لا يحمله الغنى على معصية صغيرة، ومهما يكن قوياً لا تحمله القوة على تجاوز الحدود.

أيها الإخوة الكرام: ومن أدرك بعض معاني ليلة القدر فإن هذا الإنسان الذي أدركها ينقلك من ست إلى ست، ينقلك من الشك إلى اليقين، ينقلك من الرياء إلى الإخلاص، ينقلك من الغفلة إلى الذكر، ينقلك من الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ينقلك من الكبر إلى التواضع، من سوء الطوية إلى النصيحة.

أيها الإخوة الكرام: من آثار وثمار ليلة القدر التي أرادها الله عز وجل أن تعرفه وطرائق معرفته كثيرة، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، الكون كله يدل على الله، بسماواته وأرضه، وأفعاله كلها تدل على الله بعدالته وحكمته وكلامه كله يدل عليه بإعجازه وقوامته أيها الإخوة الكرام: ومن أدرك بعض معاني ليلة القدر أول آثار هذا الإدراك تعظيم الله تعالى، قال تعالى:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣))

(سورة الحاقة)

عرف أن لهذا الكون خالقاً ولكن ما عظمه، ما عظمه تعظيماً يحمله على طاعته، ما عظمه تعظيماً يحمله على اتقاء معصيته، ما عظمه تعظيماً يحمله على بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس في سبيل القرب منه.

من أدرك بعض معاني ليلة القدر فإن الله سبحانه وتعالى أغلى عليه من كل شيء، لذلك قالوا: أعرف الناس بالله أشدهم تعظيماً له، أعرف الناس بالله أشدهم إجلالاً له، وقد ذم الله عز وجل من لم

يقدره حق قدره، ومن لم يعظمه حق تعظيمه، ومن لم يعرفه حق معرفته، ومن لم يصفه حق وصفه، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧))

(سورة الزُمر)

وقال تعالى:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤))

(سورة نوح)

قال ابن عباس:

((ما لكم لا ترجون لله عظمة))

أيها الإخوة الكرام: قال بعض العلماء

((روح العبادة الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت العبادة، العبادة طاعة ولكنها طاعة مع الإجلال وطاعة مع الحب، فإذا اختفى الحب فسدت العبادة، وإذا نقص الإجلال فسدت العبادة))

أيها الإخوة: إذا اقترنت العبادة التي فيها إجلال ومحبة مع الثناء على المحبوب فهذه هي حقيقة الحمد، حقيقة الحمد أن تطيعه مجلاً، وأن تطيعه محباً وأن تثني عليه، إذا فعلت هذه الأشياء الثلاثة فأنت تحمده حق الحمد.

أيها الإخوة الكرام: لابد من أن نصل إلى شيء عملي، من علامة تعظيم الله عز وجل من علامة محبته، من علامة حمده تعظيم أمره ونهيه، وكيف يتطرف المتطرفون، بعضهم يأخذ بالرخص الجافية، وبعضهم يأخذ بالتشدد الغالي، فتعظيم أمر الله بين ترخيص جافٍ، وبين تشدد غالٍ، استخدام الرخص بسرعة، وببساطة وبلا ورع هذا لا يؤكد تعظيم أمر الله، والتشدد غير المعقول في تنفيذ الأمر والنهي هذا غلو في الدين وأي غلو.

أيها الإخوة الكرام: الترخص الذي يجفوا بصاحبه عن كمال الامتثال، هذه لها فتوة، وهذه تساهل بها العلماء، وهذه قضية خلافية، وهذه قرأت فتوى في مجلة تجيزها، فإذا هو متحلل من كل أمور الدين، هذه الرخص التي تعبر عن جفاء الإنسان لربه، أو الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي، الأول تفريط والثاني إفراط، والعبادة الحق بين الإفراط والتفريط، لذلك ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيها نزغتان، إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، والغلو أيها الإخوة نوعان، غلو يخرج صاحبه عن كونه مطيعاً، كمن صلى الظهر

خمس ركعات، هذا غلو أفسد العبادة، وغلو يخاف معه من أن تنقطع عن العبادة، كمن قام الليل كله، وكمن أنفق ماله كله، هذا غلو وهذا غلو.

أيها الإخوة الأكارم: يقول عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه الإمام البخاري:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ))

(رواه البخاري)

وفي حديث آخر أخرجه الإمام البخاري:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَرْقُدُ أَحَدُنَا وَهُوَ جُنُبٌ قَالَ نَعَمْ إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرْقُدْ وَهُوَ جُنُبٌ))

(رواه البخاري)

وفي صحيح مسلم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَلا هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ))

(رواه مسلم)

من هم المتنطعون، المتشددون في الدين.

يعني أحياناً يقول لك أحدهم في هذه السورة كذا شدة، فإن لم تحقق فصلاتك باطلة..! أرشده إلى إتقان التجويد، أما أن تجعل صلاته باطلة فهذا تشدد ما أراده الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام: من علائم تعظيم أمر الله عز وجل، ومن علائم لاعتدال بين التشدد الغالي وبين الترخص الجافي، قال العلماء: " أن لا تجعل دونه سبباً ".. يعني لا يوصل إلى الله إلا الله، ولا يُقرب من الله إلا الله، ولا يدني من الله إلا الله، ولا يهدي إليه إلا الله.

أيها الإخوة: من جعل من الخلائق أسباباً بيدها أن تقربك أو أن تبعدك فهذا ليس من الدين، وشيء آخر أن لا ترى لأحد من الخلق حقاً على الله، بل الحق لله وحده، أما حقوق العبد على الله، من إثابته لمطيعهم، وتوبته على تائبهم، وإجابته لسائلهم، فتلك حقوق أحقها الله على نفسه بحكم وعده وإحسانه، لا على أنها حقوق أحقوها هم عليه.

أن لا تجعل بينك وبين الله وسيط، وأن لا ترى أن لك على الله حقاً أنت أحققته عليه، إن كنت كذلك فأنت من الذين عرفوا الله حق معرفته وقدروه حق قدره.

أيها الإخوة الكرام: يوضح هذه الفكرة:

((عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلا أَخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ ابْنَ جَبَلٍ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ فَقَالَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ))

النقطة الدقيقة أن هذا الحق أنشأه الله لهم أنشأه الله على ذاته بحكم تحقيق وعده وإحسانه لا لأن العباد أحقوا هذا الحق على الله عز وجل، هذا الذي أذكره هو الوضع الذي يليق بالعبد على أنه عبد، ويليق بالله عز وجل على أنه رب.

أيها الإخوة الكرام: كما قلت في بداية هذه الخطبة بعيداً عن آراء المفسرين في تفسير سورة القدر، وبعيداً عما فيها من اختلافات، وعما يكون فيها من شطحات ومن أشياء قد لا يقبلها العقل، من أدرك بعض معاني ليلة القدر، هذه النتائج وهذه الثمار، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى تَابَعَهُ))

أيها الإخوة الكرام: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم. أيها الإخوة الكرام: زكاة الفطر واجبة على كل فرد من المسلمين، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى حر أو عبد، فقد أخر الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: فرض الله زكاة الفطر في رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير، على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين

حكمتها كما ورد في السنة الصحيحة، طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمسلمين، من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات.

تجب على المسلم الحر المالك لمقدار صاع من تمر أو زبيب، أو قمح أو شعير أو أرز أو ذرة، يزيد عن قوت يومه وقوت عياله، ويجب أن يدفع عن نفسه أولاً وعمن تلزمه نفقته من زوجته وأولاده وخدمه ومن يليهم ويلي الإنفاق عليهم، واتفق العلماء جميعاً على أنه لا يجوز تأخيرها عن يوم العيد، واختلفوا في التعجيل بها بين مجوز ومانع

مصارف هذه الزكاة: هذه زكاة الفطر مصارفها كمصارف زكاة النقد، أو الزكاة التي فرضها الله على حولان الله حولاً كاملاً.

أيها الإخوة الكرام: رمضان كما قال عليه الصلاة والسلام عتق من النار، وحينما صعد النبي المنبر قال آمين، ثم صعد الدرجة الثانية فقال آمين، ثم صعد الثالثة فقال آمين، قالوا على ما أمنت يا رسول الله، قال أتاني جبريل فقال ليه، رغم أنف عبد أدرك رمضان فلم يُغفر له، إن لم يُغفر له فمتى.
هذه فرصة، فرصة أن نصل إلى الله عز وجل، وأن نسعد بقربه في الدنيا والآخرة

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٤٨ : خ١ - الأخذ بالأسباب ، خ٢ - إن من أعجب الأشياء أن تعرف الله ثم لا تحبه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٢-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، الله جل جلاله خلق الكون وفق نظام معين هو نظام السببية، فجعل لكل شيء سبباً، أو جعل لكل مُسبب سبباً، وحينما خلق العقل الذي أودعه الله فينا أيضاً جعل هذا العقل وفق نظام السببية، فالعقل البشري لا يفهم شيئاً إلا بسبب، ولعل من حكمة الله البالغة، أن هذه الأسباب الظاهرة تقودنا غلى مسبب الأسباب وهو الله رب السماوات والأرض فكأنك إذا فكرت بسبب الشيء وانتقلت إلى السبب الأبعد فالأبعد وصلت إلى الله.

ولو أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون بلا أسباب ظاهرة، لفهم عقلك أن الشيء لا يحتاج إلى سبب وقد لا تصل إلى الله عزّ وجل، ولكن ما موقف المؤمن الموحد من هذا النظام نظام السببية، ومن هذه البنية العقلية ؟.

أيها الإخوة الأكارم، التوحيد ؛ وهو نهاية العلم يقتضي أن نقوم بالأسباب الظاهرة، كالحركات والأعمال، وينبغي أن لا نهملها، وألاّ نعطلها، ولكن نقوم بها، وقد عزلناها عن ولاية النجاح والنجاة، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((اعملوا، واعلموا أن أحداً منكم لن ينجيه عمله))

العمل سبب، لكن السبب لا يخلق النتيجة، يخلقها الله عز وجل، هذا الفهم الدقيق بين أن تأخذ بالأسباب وبين أن تتوكل على الله عز وجل يحتاج إلى دقة بالغة في الإيمان

((اعملوا واعلموا أن أحداً منك لن ينجيه عمله))

التوحيد أيها الإخوة يقتضي أن نقوم بالأسباب وأن نتوكل على الله وكأنك تمشي على طريق بين واديين، وادي الشرك ووادي المعصية، إنك إن أخذت بالأسباب، واعتمدت عليها، وألهتها وقعت في وادي الشرك، وإنك إن لم تأخذ بها وقعت في وادي المعصية، فالذي لا يأخذ بالأسباب إنه لا يحترم نظام الله عز وجل، لا يقدر هذا النظام البديع الذي خلقه الله عز وجل.

شيء آخر ؛ كما أنه مطلوب منا أن نأخذ بالأسباب الظاهرة مطلوب منها أن نأخذ بالأسباب الباطنة، كالإيمان، وكالتصديق، وكمحبة الله عز وجل ومحبة رسوله، فإن النجاة معلقة بها، بل إن من أعظم الأسباب الباطنة أن نوحد الله عز وجل، فإذا وحدناه وصلنا إلى نهاية العلم، وإذا عبدناه وصلنا إلى نهاية العمل، فإذا وحدناه وعبدناه حققنا الهدف الأسمى الذي خلقنا في هذه الدنيا من أجله.

عَنْ أَبِي خُزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا قَالَ هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ))

أجاب إجابةً توحيدية رائعة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّه عَنْه خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ عُمَرُ ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ فَاخْتَلَفُوا فَقَالَ بَعْضُهُمْ قَدْ خَرَجْتَ لأَمْرٍ وَلا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي ثُمَّ قَالَ ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلافِهِمْ فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي ثُمَّ قَالَ ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ فَدَعَوْتُهُمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلانِ فَقَالُوا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ فَقَالَ عُمَرُ لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ قَالَ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ))

قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ.

أيها الإخوة الكرام، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ فَقَالَ مَا قُلْتَ قَالَ قُلْتُ حَسْبِيَ اللَّهُ

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

(رواه الإمام أحمد)

أن تقعد، ألا تعمل، ألا تخطط، ألا تدبر، ألا تتخذ الأسباب، ألا تتحرك حركة نحو الأمام، هذا الذي يقعد ويقول حسبي الله ونعم الوكيل لا يفهم أصل الدين أبداً هذا الذي يتكاسل ويقول حسبي الله ونعم الوكيل ما فهم معنى حسبي الله ونعم الوكيل.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يشكو أخاه، فحكم النبي بينهما فالذي حُكم عليه، قال حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل))

الإنسان حينما يُغلب، حينما يقهر، حينما تعطل الأسباب بين يديه يقول حسبي الله ونعم الوكيل، وأوضح مثل، الطالب حينما لا يدرس فيرسب فإذا قال حسبي الله ونعم الوكيل فقد عصى الله واستهزأ بهذا الكلام، أما حينما يدرس إلى أعلى درجة، ولا سمح الله ولا قدر يأتيه مرض شديد في أيام الامتحان، فيمنعه هذا المرض من أداء الامتحان عندئذ يقول هذا الطالب حسبي الله ونعم الوكيل

((إن الله يلوم على العجز))

أن نستسلم، ألاّ نعمل، أن لا ندبر، ألاّ نخطط، ألاّ نتحرك، ألاّ نتعاون، إن الله يلومنا، وعندئذ لا ينصرنا، وعندئذ يمقتنا، وعندئذ لا يعبأ بنا، يعبأ بنا، وينظر إلينا بعين الرحمة، ويدعمنا، ويوفقنا، وينصرنا إذا تحركنا، إذا تعاونا، إذا تكاتفنا، إذا أخذنا بالأسباب، إذا فكرنا في حل مشكلاتنا، إذا فكرنا في تأمين شبابنا، إذا فكرنا في تأمين أعمال لشبابنا حينما نتحرك يأتي نصر الله، ويأتي توفيق الله، ويأتي دعم الله عز وجل

((إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل))

لا تقل حسبي الله ونعم الوكيل إلا إذا غُلبت، أما إذا كان أمامك فسحة من عمل فسحة من حركة، فسحة من تدبير، أدرس، خذ أعلى الشهادات أسس عمل، اكسب رزقاً حلالاً، ابحث عن زوجة، تحرك أما أن تقعد وتنتظر أن يأتي القدر ليصنع لك كل شيء، هذا فهم سقيم للتوكل، التوكل أيها الإخوة ليس محلة الجوارح والأعضاء ولكن محله القلب، يقول عليه الصلاة والسلام، حديثاً شريفاً من دلائل نبوة النبي، فَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يُحَدِّثُ سَعْدًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلا تَدْخُلُوهَا وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلا تَخْرُجُوا مِنْهَا فَقُلْتُ أَنْتَ سَمِعْتَهُ يُحَدِّثُ سَعْدًا وَلا يُنْكِرُهُ قَالَ نَعَمْ))

وهذا التوجيه يتفق مع أحدث نظريات الطب، هناك إنسان اسمه حامل للمرض ليس مريضاً، فإذا كنت في بلدة وفيها طاعون ينبغي أن لا تخرج من هذه البلدة، لئلا تنقل المرض إلى بلاد أخرى،

((وإذا سمعتم به في بلد وأنتم خارجون عنه فلا تدخلوه))

هذا هو الأخذ بالأسباب، هذا هو الذي قصَّر به المؤمنون.

أيها الإخوة الكرام: في الغرب ألّهوا الأسباب، واعتمدوا عليها، وجعلوها كل شيء وجعلوها أسباباً كافية للنتائج، وهذا مزلقهم الخطير وقعوا في الشرك، وهم لا يدرون وفي الشرق تركوا الأسباب،

في الشرق تركوها، وفي الغرب ألهوها وكلا الفريقين في خطأ جسيم، الصواب أن نأخذ بها، وأن نعتمد على الله.

حينما ألهوها أدبهم الله عز وجل، صنعوا باخرة في مقتبل هذا القرن قالوا عنها إن القدر لا يستطيع أن يُغرقها، فغرقت في أول رحلة لها وعليها من الثروات، وعليها من أثرياء القوم ما لا يوصف. صنعوا مركبة وسموها المتحدي، ففي سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب هم أخذوا بالأسباب وألهوها، واعتمدوا عليها، وجعلوها كل شيء، فأدبهم الله عز وجل، ونحن تركنا الأسباب، فأدبنا الله عز وجل، لا بد من أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ولا بد من أن نعتمد على الله وكأنها ليست بشيء، هكذا فعل النبي في الهجرة، أخذ بكل الأسباب سار غرباً والمدينة في الشرق، دخل إلى غار ثور، هيأ رجلاً يمحو آثار الأقدام، هيأ رجلاً آخر يأتيه بالأخبار، هيأ إنسان آخر يأتيه بالزاد استأجر خبيراً ورجح فيه الخبرة لا الولاء، أخذ بكل الأسباب، فلما وصلوا إليه، قال:

عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ:

((لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا فَقَالَ مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

واعتمد على الله، لو اعتمد عليه وصلوا إليه.

يا أيها الإخوة الكرام: هذا درس يوضع أمام المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها المسلمون قصروا في الأسباب، فأدبهم الله عز وجل، وغير المسلمين ألهوها فأدبهم الله عز وجل، والأصح أن نأخذ بها وأن نتوكل على الله أن نأخذ بها وكأنها كل شيء، وأن نتوكل على الله وكأنها ليست بشيء الكمال الاعتقادي والسلوكي طريق بين واديين، وادي الشرك ووادي المعصية، إن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فقد أشركت، والله يؤدب وإن لم تأخذ بها فقد عصيت، والله يجزي على هذا العمل جزاءه.

أيها الإخوة الكرام: شيء آخر، إلى القرآن الكريم:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١))

(سورة الحجر)

آية ثانية:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

(سورة الحجر آية ١٩)

آية ثالثة:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩))

(سورة القمر)

آية رابعة:

(وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩))

(سورة يس)

آية خامسة:

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

(سورة المزمل)

آية سادسة:

(وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (٣))

(سورة الطلاق)

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢))

(سورة الفرقان)

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨))

(سورة عبس)

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨))

(سورة المؤمنون)

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(٢٧))

(سورة الشورى)

معنى كل هذه الآيات أنه خلق الكون بنظام وترتيب، وجعل فيه المسببات بقدر الأسباب، ولم يخلق شيئاً بالمصادفة التي تشبه العبث

أيها الإخوة الكرام: حتى لو أن الله أراد أن يرحم مؤمناً يرحمه بسبب أرضي، وحتى لو أراد أن يعاقب إنساناً يعاقبه بسبب أرضي، أفعال الله عز وجل متعلقة بالأسباب لأن الأسباب نظام، والنظام يهدي إلى الله، لو أن الله خلق الأفعال بلا أسباب لتوهمت الكون بلا سبب وبلا خالق، فأراد الله أن تعرفه عن طريق الأسباب، كل شيء له سبب، فينبغي أن نأخذ بالأسباب، ينبغي أن ندبر أمورنا، ينبغي أن نتحرك حركة نحو الأمام، نحو حل مشكلاتنا، ينبغي أن نتعاون، لا ينبغي أن نقعد ونقول نحن المتوكلون، وما أروع عمر رضي الله عنه

((حينما سأل جماعة في موسم الحج، قال من أنتم، قالوا نحن المتوكلون، قال كذبتم المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله، قال يا رسول الله أأعقلها أم أتوكل، قال اعقلها وتوكل))

أيها الإخوة الكرام: آيات أخرى:

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧))

(سورة الأعراف)

(وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥))

(سورة الجاثية)

الله عز وجل على كل شيء قدير، ويقدر أن يحي الأرض بلا ماء ولكن جعل إحياء الأرض بالماء

(أحيينا به الأرض بعد موتها)

(١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦))

(سورة المائدة)

القرآن الكريم، جعل القرآن سبباً للهداية، حتى الجنة جعلها بسبب وهو العمل الصالح.

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨))

(سورة النحل)

القرآن الكريم أيها الإخوة ممتلئ بآيات تظهر ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة، أحياناً عن طريق باء السبب، وأحياناً عن طريق اللام، وأحياناً عن طريق أن

(بأنهم كفروا بالله ورسوله)

وأحياناً بكي، وأحياناً بالتعليل، كل هذه العبارات اللغوية تفيد السببية.

أيها الإخوة الكرام: الموحد الذي آمن بالله حق الإيمان وعرفه حق المعرفة، وعرف ألوهيته الموحد المتوكل لا يطمئن إلى الأسباب، ولا يرجوها، ولا يخافها، ولا يركن إليها، إنه يلتفت إلى مسببها سبحانه وتعالى، إلى مجريها، فلا يصح التوكل شرعاً ولا عقلاً إلا عليه وحده سبحانه وتعالى، فليس في الوجود كله سبب تام موجب إلا مشيئته وحده، فهو الذي سبب الأسباب وجعل فيها القوى، والاقتضاء لآثارها.

خُذ بالأسباب ثم توكل على الله، وإيّاك أن تقع في مزلة يفعلها أهل الشرق أو في مزلة يفعلها أهل الغرب، إيّاك أن تؤلهها وإيّاك أن تتركها لذلك علمنا النبي عليه الصلاة والسلام، من خلال أدعيته هذه الحقيقة، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيِ اللَّه عَنْهَا قَالَتْ:

((فَقَدْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَجَعَلْتُ أَطْلُبُهُ بِيَدِي فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى قَدَمَيْهِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَّانِ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ))

يا أيها الإخوة الكرام،إذا جمع العبد بين التوحيد وبين فعل الأسباب استقام القلب على السير إلى الله عز وجل، أخذ بالأسباب ووحد الله واعتمد عليه، لكن أيها الإخوة هناك مزلقان خطيران متعلقان بالأسباب.

المزلق الأول: كما قلت قبل قليل أن تعتمد عليها، وأن تتوكل عليها، وأن تثق بها وأن ترجوها، وأن تخافها، وهذا شرك يرق أو يكثف، شرك جلي أو خفي.

والمزلق الثاني: أن تتركها وأن لا تأخذ بها، وهذا كما سماه بعض علماء التوحيد كفر أو ظلم، يعني أنت كفرت بهذا النظام البديع الذي نظمه الله عز وجل يعني إذا قال لك الطبيب افعل كذا لأن هذا الجسم له خصائص وله قوانين ولم تعبأ بكلام الطبيب أنت لم تعبأ بنظام الله عز وجل، لو قال لك البناء في خطر يجب أن تخليه، لا ينبغي أن تقول أنا أتوكل على الله ولا أعبأ بهذا، الله عز وجل نظم الكون بالأسباب.

أيها الإخوة الكرام: يقول عليه الصلاة والسلام بالحديث الجامع المانع، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

هذا الحديث أصل كبير في موضوع الخطبة، يعني احرص على ما ينفعك بأن تأخذ بالأسباب، واعلم أن الأسباب وحدها لا تكفي، واستعن بالله ولا تعجز مرتين، لا تعجز عن الأخذ بالأسباب، ولا تعجز عن التوكل على الله، إنك إن لم تأخذ بها فأنت عاجز، وإنك إن أخذت بها ولم تعتمد على الله فأنت عاجز

((احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز))

هذا الحديث جامع مانع في موضوع هذه الخطبة، احرص على الأخذ بالأسباب، واحرص على الاعتماد على الله، ولا تعجز أن تأخذ بالأسباب ولا تعجز أن تتوكل على الله.

أيها الإخوة الكرام: موضوع لطيف متعلق بهذا الموضوع ؛ لو أتينا بقانون فيزيائي.. إن المعادن تتمدد بالحرارة، هذا القانون فوق المكان والزمان، مطبق في كل مكان وفي كل زمان، والقانون كما تعلمون له صفة الاطراد والشمول لو أن هذا القانون جاءنا عن طريق الوحي، أو عرفناه عن طريق التجربة والوحي، قد نعرفه عن طريق الوحي وقد نعرفه عن طريق التجربة والبحث، ولو أننا دعونا إلى هذا القانون وبذلنا كل طاقتنا الكلامية في شرح فوائده، وأنشأنا بناءاً ولم نأخذ بهذا القانون في البناء ينهار البناء.

ولو أن أناساً عادوا هذا القانون أما حينما بنوا بناءاً أخذوا بها يسلم بناؤهم فهذه الحقيقة يجب أن نعرفها، هي أن منهج الله منهج علمي بمعنى كل من أخذ به بأي سبب ولأية غاية يقطف ثماره في الدنيا فالذين يدعون إلى هذا المنهج ربما لا يأخذون به في حياتهم فتنهار حياتهم، والذين يحاربون هذا المنهج قد يأخذون به في حياتهم فتسلم حياتهم، فالعبرة أن هذا المنهج من عند الله، وأن منهج الإسلام منهج علمي، بمعنى أن كل الأسباب تؤدي إلى النتائج.

فيا أيها الإخوة الكرام: آن للمسلمين يصحوا من غفلتهم، وأن يعتمدوا على الله عز وجل وأن يطبقوا منهج ربهم بشكل دقيق وصحيح.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى خيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

يقول بعضهم: إن في الدنيا عجائب، وبعضهم عدها سبعاً، الأهرامات من بعض هذه العجائب، وبرج بابل من بعض هذه العجائب، هناك أقوال كثيرة حول هذه العجائب، ولكن بعض علماء المسلمين رحمه الله تعالى يقول: إن من أعجب الأشياء أن تعرف الله ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، أن تدعى إلى الله، أن تدعى إلى قربه، أن تدعى إلى أن تكون من أوليائه، والشيء بيدك، موفور، كل القرب من الله بسبب طاعتك، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم)، كل ما عند الله من رحمة مبذول بين يديك، تطيعه وكفى، فمن أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه.. مستحيل، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤))

(سورة الأنفال)

يدعوكم الله للحياة، يدعوكم للسلام، يدعوكم لرضوانه، يدعوكم ليرفع ذكركم:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤))

(سورة الشرح)

ومن أعظم الأشياء أن تعرف قدر الربح في معاملته، ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض إليه، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الإنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في حديث غير الحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند التعلق بغيره، ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه، والأعجب من هذا علمك أنه لا بد لك منه، وأنك أحوج شيء إليه، وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب يا أيها الإخوة الأكارم، هذا كلام يُكتب بماء الذهب، من أعجب الأشياء أن تعرفه، ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه، ثم تتأخر في الإجابة عنه، وأن تعرف قدر الربح في معاملته، ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه، ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته، ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في حديث غير الحديث عنه، ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره وأن لا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه، وأعجب من هذا علمك أنه لا بد لك منه، وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب .

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٤٩ : خ١ - محبة الله ، خ٢ - الشدة النفسية .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٣-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

مقام المحبة :

أيها الأخوة الكرام ، موضوع الخطبة اليوم محبة الله جل جلاله ، وموقع المحبة من الدين كما يتضح من المثل التالي: بيت فيه عشرات الأجهزة الكهربائية ، من براد إلى غسالة إلى مروحة ، إلى مكيف ، إلى فرن ، إلى مسجلة ، هذه الأدوات الكهربائية لا معنى لها من دون طاقة كهربائية ، تصبح عبئاً ، تشغل حيز أنت في أمس الحاجة إليه ، لأنها لا تقدم شيئاً ، أما إذا سرت الطاقة الكهربائية في هذه الأجهزة فكل جهاز يقدم لك خدمات لا تنتهي ، موقع المحبة من الدين كموقع الطاقة الكهربائية من الأجهزة الكهربائية ، من دون كهرباء لا معنى لها ، ولا قيمة لها ، ولا تؤدي شيئاً ولا وزن لها .

أيها الأخوة الكرام ، مقام المحبة تنافس فيه المتنافسون ، وشمر إليه السابقون ، وتفانى فيه المحبون، المحبة قوت القلوب ، وغذاء الأرواح وقرة العيون ، هي الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات ، وقد وصف الله تعالى الكافرين فقال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

[سورة النحل: ٢١]

هذه الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات ، هي النور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، هي الشفاء الذي من عدمه حلت به جميع الأسقام هي اللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام .

المحبة من الدين كموقع الروح من الجسد :

أيها الأخوة الكرام ، موقع المحبة من الدين في أهم موقع ، أصحابها وقفوا على الحقائق ووقف سواهم على الصور والأشباح .

ما معقد النسبة بين العبد والرب ؟ لا نسبة بين العبد وبين الرب إلا محض العبودية له ، فالعبد عبد والرب رب ، محض العبودية للعبد ومحض الربوبية للرب ، ولا نسبة بينهما إلا المحبة ، والمحبة تعني العبودية لله عز وجل .

أيها الأخوة الكرام ، العبد عبد من كل وجه ، والرب رب من كل وجه ولا نسبة بينهما إلى المحبة ، يعني علاقتك بخالق الكون هي المحبة فلولا المحبة لما كان هذا الدين المحبوبية أساس العلاقة بين الله وبين عباده ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يحملنا جميعاً على الطاعة لحملنا ، ولكن هذه الطاعة القسرية لا قيمة ولا تسعد أصحابها ، لذلك لا إكراه في الدين .

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

[سورة هود: ١١٨]

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

[سورة يونس: ٩٩]

المحبة هي روح الإيمان :

هذه ولكن تنتفي المحبوبية ، ينتفي الحب ، ينتفي الاختيار ، تنتفي المبادرة . . المبادرة والطاعة الطوعية ، والاختيار ، والحب والشوق أساس الدين ولولا هذه الأسباب لجعل الله الناس أمة واحدة، لحملهم جمعاً على الطاعة لسيرهم على نحو أو آخر .

أيها الأخوة الكرام ، المحبة هي روح الإيمان ، هي روح الأعمال ، هي روح المقامات ، هي روح الأحوال ، فمتى خلت منها كانت هذه الأعمال ، وهذا الإيمان وهذه الأحوال وتلك المقامات ، كالجسد الخالي لا روح فيه .

ذهب أهل المحبة بشرف الدنيا والآخرة ، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب ، لقد قضى الله يوم خلق السماوات والأرض أن المرء مع من أحب إذا كنت محباً لله فأنت معه وإذا كنت معه كان معك، وإذا كان معك نصرك ، وإذا كان معك حفظك ، وإذا كان معك أيدك ، وإذا كان معك وفقك ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ .

قضى الله يوم خلق السماوات والأرض ـ هذا من سنة الله في خلقه ـ أن المرء مع من أحب ، فإذا أحببت الله كنت معه ، وإذا كنت معه كان معك ، وإذا كان معك وطمأنك، ووفقك ، وحفظك ، وأيدك ونصرك وأسعدك وهذه مطالب الإنسان إلى نهاية الدوران .

المحبون أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين :

أيها الأخوة الكرام ، أقيمت المحبة للعرض في سوق من يزيد ، فلم يرض الله لها بثمن دون بذل النفوس ، فقام المحبون يتنافسون عليها ، فوقعت بيدي أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، أولا صفات المحبين ؛ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، أما صفات المنافقين عكس ذلك ؛ أذلة

على الكافرين أعزة على المؤمنين ، هذه أهم خصيصة للمؤمنين ، أن تكون متواضعاً للمؤمنين عزيزاً على الكافرين .

المحبون يتبعون سنة النبي :

أيها الأخوة الكرام ، لما كثروا مدّعوا المحبة ، طولبوا بإقامة البينة على صحة دعواهم فلو يُعطى الناس بدعواهم ، لادعى الخلي حرقة الشجي ، فهذه الدعوى لا تُقبل إلا ببينة ، والبينة:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران: ٣١]

لا تقع في وهم خطير ، لا تظنن نفسك محباً إن لم تتبع سنة النبي ، لا تتوهم أنك محب لله إن لم تكن متبعاً لحبيبه في أقواله ، وأفعاله وأحواله وأخلاقه ، علامة حبك لله اتباع سنة النبي ، وأية دعوى لا تأتي بالدليل والبينة فدعوى باطلة .

تأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب ، في أفعاله وأقواله وأخلاقه طولبوا فوق الدليل بعدالة التزكية، فوصفهم الله عز وجل بأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ولا يغيب عن أنظاركم أن الجهاد أنواع في أعلى مراتبه جهاد النفس والهوى ، فالذي يُهزم أمام نفسه لا يستطيع أن يقاتل ، ثم جهاد الدعوة فقد وصفه الله عز وجل بأنه الجهاد الكبير ، فقال تعالى:

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

[سورة الفرقان: ٥٢]

وجهاد النفس والهوى مُتاح لكل مسلم أي مكان وزمان ، وجهاد الدعوة مُتاح لمعظم المسلمين في أي زمان ومكان .

المحبون باعوا أنفسهم لله :

أيها الأخوة الكرام ، لما طُولبوا بهذه التزكية تأخر أكثر المحبين ، وقام المجاهدون ، فقيل لهم إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ، فهلموا إلى بيعة ـ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجهة ـ بيع قطعي ، وفي أكثر الآيات التي فيها بذل بدأ الله بالمال ثم بالنفس ، لأن بذل المال أهون من بذل النفس إلا في هذه الآية بدأ الله عز وجل ببيع النفس ثم بيع المال فقال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة التوبة: ١١١]

فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم منذ أن صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت وأصفى مما كانت:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: ١٦٩]

وحينما غُرست شجرةُ المحبة في القلب ، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أينعت ثمارها .

المحبة هي الميل الدائم بالقلب الهائم :

أيها الأخوة الكرام ، لو عدنا إلى معاجم اللغة وبحثنا عن مادة الحب ، وحب ، وأحب ؛ نجد هذه المعاني تتمحور حول خمس معاني ، الصفاء والبياض ، العلو والظهور اللزوم والثبات ، اللب ، الحفظ والإمساك ، هذه معاني المحبة في قواميس اللغة ، فلا بد من صفاء المودة ، ولابد من هيجان إرادة القلب للمحبوب ولابد من علو المحبة وظهورها ، ولابد من ثبات إرادة القلب على حب محبوبك ، ولابد من لزوم محبوبه لزوماً ثابتاً ، وإعطاء المحبوب لب القلب وسويداءه .

أيها الأخوة الكرام ، المحبة من تعاريفها الدقيقة ، هي الميل الدائم بالقلب الهائم ، المحبة إيثار المحبوب على جميع المصحوب ، المحبة موافقة المحبوب في المشهد والمغيب ، الذي يحب الله عز وجل لا يتأثر بزمان ومكان ، هو مع الله والله معه في كل زمان ومكان ، أما هؤلاء الذين ينضبطون في مكان ، ويتفلتون في مكان هؤلاء لا يخضعون لله ، بل يخضعون لتقاليد وعادات وهذه تنفي عنهم المحبة ، أناس كثيرون في بعض البلاد ، في بلادهم يصلون الصلاة بأوقاتها ، يؤدون ما عليهم من واجبات دينية ، فإذا سافروا إلى بلاد أخرى تفلتوا من منهج الله ، هؤلاء لم تدخل المحبة إلى قلوبهم ولكنهم خضعوا لتقاليد وعادات هي بشكل أو بآخر لا تقدم أو تؤخر .

المحبة أن تهب كلكَ لمن أحببت :

أيها الأخوة الكرام ، المحبة استكثار القليل في جنب الله عز وجل ، استكثار القليل من فضل الله عز وجل ، وفضل الله كثير ، واستقلال الأعمال الصالحة مهما كبرت يعني إذا فُعل معك خير رأيته كثيراً ، فإذا فعلت شيئاً رأيته قليلاً وهذه من علامات المحبين .

المحبة أن تهب كلكَ لمن أحببت فلا يبقى لك منه شيء ، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأنعام: ١٦٢]

ماذا أبقيت يا أبا بكر ؟ " قال الله ورسوله " ، أعطى كل ماله للنبي عليه الصلاة والسلام ، هذه مرتبة السابقين السابقين .

المحبة أن تهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحب وأن تجعلها حبساً في مرضاته وفي محابه فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك الله ، فتأخذ منه له ، هذا معنى قوله تعالى:

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

[سورة هود: ٨٦]

بقي لك من هذا ما سمح الله لك به ، بقي لك من المال الكسب المشروع بقي لك من النساء زوجتك ومحارمك ، بقي لك من العلو في الأرض الزهو بطاعة الله لا بمخالفة أمره .

من الأسباب الجالبة لمحبة الله :

١ ـ قراءة القرآن :

أيها الأخوة الكرام: من الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها أن تقرأ القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به ، تلاوة كلام الله عز وجل أحد الأسباب الموجبة لرحمته ، إن أردت أن تحدث ربك فادعه ، وإن أردت أن يحدثك الله فاقرأ القرآن ، فقراءة القرآن أحد أسباب محبة الله عز وجل ، والتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض توصل المحب إلى درجة المحبوبية ودوام ذكر الله عز وجل على كل حال بالقلب واللسان والعمل ، فالإنسان أيها الأخوة نصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر ، من أحب شيئاً أكثر من ذكره " ابن آدم إنك إن ذكرتني شكرتني ، وإذا ما نسيتني كفرتني " ، " برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله " .

قراءة القرآن بالتفهم والتدبر والتطبيق ، أحد الأسباب الموصلة إلى محبة الله عز وجل ، التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض أحد أسباب بلوغ محبة الله عز وجل ، دوام الذكر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا)

[سورة الأحزاب: ٤١-٤٤]

دوام الذكر على كل حال بالقلب واللسان والعمل ، إذاً نصيب المحبة على قدر النصيب من الذكر ، والآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا وَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)

[، قال العلماء: الأمر ينصب لا على الذكر فحسب بل على الذكر الكثير .]

٢ ـ أن تكون محبوباً عنده :

يا أيها الأخوة الكرام ، ومن أسباب بلوغ محبة الله عز وجل وأن تكون محبوباً عند الله ، أن تؤثر محابه على محابك ، تحب شيئاً ، ويحب الله شيئاً ، فعندما تتوافق الأشياء التي تحبها مع الأشياء التي يحبها الله عز وجل ليس هناك من مشكلة وليس هناك من غضاضة ، وليس هناك من حرج ، وليس هناك من تضحية أما حينما تتعارض محابك مع محاب الله ، أي حينما يتعارض الذي تحبه مع الذي يحبه الله عز وجل ، هنا تظهر محبتك ، لا تكون المحبة إلا إذا آثرت ما يرضه على ما يرضيك ، إلا إذا آثرت ما تشتهيه على ما يريده لك .

٣ ـ إيثار محابه على محابك :

أيها الأخوة الكرام ، إيثار محابه على محابك عند غلبة الهوى ، والتطلع إلى محابه وإن صعب المرتقى ، لابد من مجاهدة النفس والهوى ، لأن أصل التكليف يتناقض مع ظاهر الطبع ، ويتوافق مع الفطرة ، فلا بد من التضحية برغبات النفس أمام طاعات الله عز وجل ، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات: ٤٠-٤١]

٤ ـ التأمل في أسمائه الحسنى :

أيها الأخوة الكرام ، موضوع دقيق دقيق وخطير خطير ، وهو أنك إذا عرفت أن الله خلق الكون وكفى كيف تحبه ، أما إذا طالعت أسماءه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، وقفت ملياً عند اسم الرحيم ، عند اسم الكريم ، عند اسم الغني عند اسم الملك ، عند اسم القادر ، عند اسم العفو ، عند اسم الرؤوف إذا طالعت أسماءه اسماً اسْماً ، وتأملت في دقائقها ، وفي مظاهرها ، وفي أحوالها وصلت إلى محبة الله عز وجل .

أنت بالأمثلة الظاهرة إذا رأيت إنسان في الطريق لماذا تحبه ؟ لا تحبه ولا يحبك، أما إذا سمعت عن أخلاقه ، عن استقامته ، عن علمه عن حكمته ، عن تضحيته ، عن حبه للخير ، فالذي تراه لمرة واحدة دون أن تعرف دقائق طبعه ، دقائق سلوكه لا تحبه ، فلذلك إن أردت أن تحب الله عز وزجل فلا من أن تقف ملياً عند أسماء الله الحسنى ، عند كمالاته من أجل أن تحبه ، فالنفوس جُبلت

على حب من أحسن إليها ، فالقانون أنك تحب الجمال والكمال والنوال ، فهذه الخصائص الثلاثة مجتمعة بالله عز وجل ، إن الله جميل يحب الجمال ، ذاتٌ كاملة ، إحسانه لا ينقطع .

٥ ـ شكره :

يا أيها الأخوة الكرام: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعم ، يجب أن تشكر نعمة الوجود ، نعمة الإمداد، نعمة الصحة ، نعمة الحواس نعمة الأعضاء ، نعمة الأجهزة ، نعمة المأوى ، نعمة الزوجة نعمة الولد نعمة السمعة الطيبة ، نعمة أنك حر لست مقيداً ، هذه نعم يجب أن تذكرها من أجل أن تحب الله عز وجل ، فلا بد من مشاهدة بره وإحسانه ، وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته ، لابد من أن تذكر أيام الله الأيام العصيبة التي حماك الله فيها ، التي وفقك فيها التي نجاك فيها من ورطة كبيرة ، هذه أيام ، ولكل مؤمن أيام مع الله هذه إن فترت نفسه عليه أن يذكرها، كي يزداد حبه لله عز وجل .

٦ ـ الافتقار إليه :

الشيء الذي يقربك من الله عز وجل أن تأتيه من باب الانكسار ، أن تأتيه من باب الذل ، فأصحاب النبي رضوان الله عليه ، كانوا متذللين إلى الله فنصرهم الله عز وجل ، قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة آل عمران: ١٢٣]

أما في حنين وهم من هم أصحاب رسول الله وفيهم رسول الله أعجبتهم كثرتهم ، قال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة: ٢٥]

فالافتقار إلى الله أحد الأسباب الموجبة لمحبته ، والاعتداد بالنفس بمالك أو بعلمك، أو بسلطانك ، أو بقوتك ، أو بأتباعك ، حجاب بينك وبين الله وهذا يوجب المقت .

٧ ـ مجالسة المحبين :

أيها الأخوة الكرام ، ومن أسباب محبة الله عز وجل الخلوة بها ، وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ الْوُضُوءِ وَلأَخَّرْتُ الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِ اللَّيْلِ فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أيها الأخوة الكرام ، من الأسباب الموجبة للمحبة ، مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب كلامهم ، وأن لا تتكلم بحضرتهم إلى إذا رجحت مصلحة الكلام .

٨ ـ الالتزام بأمره :

أيها الأخوة الكرام ، آخر سبب من أسباب محبة الله عز وجل ، أن تتباعد عن كل سبب يحول بين قلبك وبين الله عزّ وجل ، أي شيء يقربك من الله تفعله وأي شيء يبعدك من الله لا تفعله ، هذه أحد أسباب محبة الله عزّ وجل .

رسوخ محبة الله إنما يكون بمتابعة النبي :

أيها الأخوة الكرام ، رسوخ هذه المحبة وثباتها في قلب إنما يكون بمتابعة النبي عليه الصلاة والسلام في أعماله وأقواله وأخلاقه ، فبحسب هذا الاتباع تثبت هذه المحبة وتقوى ، وبحسب نقصان الاتباع تنقص هذه المحبة وتتلاشى ، هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معاً ، والفرق بينهما كبير ؛ المحبة أن تحب الله أما المحبوبية أن يحبك الله ، أن تكون محبوباً ، فاتباع النبي عليه الصلاة والسلام يوجب المحبة والمحبوبية معاً ، ولا يتم الأمر إلا بهما معاً ، دققوا بهذه الفكرة ؛ كل واحدٍ يقول أنا أحب الله ، لماذا ؟ لأنه خلقني ، ورزقني وزوجني وآواني ، طيب ، العبرة أيها الأخوة ، لا أن تحب الله ، العبرة أن يحبك الله، دعوى محبته سهلة ، بل إن كل إنسان يحب الإحسان ، فإذا أحسن الله إليك تحبه ، وإحسانه مستمر وإحسانه أبدي سرمدي ، لذلك ليس الشأن أن تحب الله ، بل الشأن أن يحبك الله ، ولا يحبك الله عز وجل إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً وصدقته خبراً ، وأطعته أمراً، وأجبته دعوةً ، وآثرته طوعاً ، وثنيت عن حكم غيره بحكمه ، وعن محبة الخلق بمحبته ، وعن طاعة غيره بطاعته ، وإن لم يكن ذلك كذلك فلا تتعنت وارجع إلى حيث كنت ولتمس نوراً فلست على شيء ، هذا ملخص الملخص .

إن لم تؤثر هواه على هواك ، ومحبته على محبتك ، وطاعته على طاعة الخلق ، ورضاه على رضى الخلق ، فأنت لست على شيء ومعرفة الحقيقة المرة ، خير من الوهم المريح ، اعرف الحقيقة المرة في الوقت المناسب كي تتلافاها .

العبرة أن يحبك الله :

أيها الأخوة الكرام ، كل هذه الخطبة لا تخرج عن هذا المحور قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران: ٣١]

الشأن أن يحبك الله ، لا أن تحبه فقط ، أن يحبك هو ، وهو لا يحبك إلا إذا اتبعت سنة نبيه .

أيها الأخوة الكرام ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا ، فلنتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

الخطبة الثانية :

الإنسان إذا أحبّ الله اطمأنت نفسه :

أيها الأخوة الكرام ، حقيقة هامشية ، وليست من صلب الموضوع ، الإنسان إذا أحب الله اطمأنت نفسه ، إذا أحب الله والتزم أمر النبي تجلى الله على قلبه ، أنزل على قلبه السكينة ، هذه السكينة ، أو تلك الطمأنينة ، هذا التجلي ، أو هذه الراحة ، أو تلك السعادة سمها ما شئت ، أسماء كثيرة لمسمى واحد ، إن كنت مع الله اطمأن قلبك ، وسكنت أعضاؤك، وارتاحت نفسك ، وسعد قلبك .

الشدة النفسية وراء كل متاعب الجسد :

أيها الأخوة الكرام ، هذه الحال هي عين الصحة ، كلما تقدم الطب اكتشف أن الشدة النفسية وراء كل متاعب الجسد ، فالإنسان القلق يظهر هذا القلق على أعضائه وعلى أجهزته ، وعلى قلبه وعلى شرايينه ، وعلى ضغطه ، وعلى هضمه وعلى أعصابه ، وعلى عضلاته ، كلما تقدم الطب اكتشف أن وراء أكثر الأمراض شدة نفسية ، ضغط نفسي ، قلق ، خوف من مجهول ، وأنك إذا أحببت الله ، وشعرت أنك تحت مظلته ، في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، شعرت أن الله راضٍ عنك ، أنه يحبك ، هذا شيء يدعو إلى الراحة والسعادة ، والطمأنينة ، وهذا أحد أسباب الصحة .

الراحة النفسية أن يكون الله راضٍ عنك :

أمر الله أكبر من أن تحصى فوائده ، وإن كان الإنسان يعبد الله تنفيذاً لأمره ومحبة له لكن هذه العبادة تورثه راحة ، لو علمها الملوك لقاتلوا عليها أصحابها بالسيوف ، هذه الراحة النفسية أيها الأخوة يسعى لها كل الناس ، مطلب السلامة والسعادة مطلب كل مخلوق على وجه الأرض .

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٥٠ : خ١ - أين الخلل ؟ ، خ٢ - سمك السلمون .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٣-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، العالم الإسلامي في مجموعه ليس كما كان في عصور ازدهاره وليس كما ينبغي أن يكون وهو يحمل الحق من السماء، وليس كما نتمنى أن يكون فأين الخلل ؟

أيها الإخوة الكرام لا أقصد بلداً إسلامياً بعينه بل مجموع العالم الإسلامي الذي يمتد من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب والذي يعد أكثر من ألف ومائتي مليون.

أيها الإخوة الكرام، أضع مثلاً بين أيديكم ؛ لو أن المركبة كما تعلمون مبنية على علم متطور وفيها أجهزة وتوصيلات بالغة الدقة والتعقيد، فإن توقفت هذه المركبة عن السير فلا بد من أن نعكف على دراسة مبادئ الحركة ونظام التوصيلات، وأن نراقب سلامة الأجهزة حتى نكتشف موطن الخلل تمهيداً لإصلاحه، اكتشاف الخلل، ثم سد الخلل، أما إذا وقفنا إلى جانب المركبة وملأنا السماء صياحاً، وضجيجاً وبكاءً وعويلاً ودعاءً، فما الذي يحصل ؟ لا يحصل شيء وتبقى المركبة معطلة، وهكذا حالنا مع الله، لابد من أن نعكف على دراسة السنن الثابتة التي سنها الله بتحديد موطن الخلل ثم لإصلاحه.

أيها الإخوة الكرام، لنبدأ إصلاح أنفسنا، لنبدأ معرفة الخلل بأنفسنا، ثم معرفة الخلل أسرنا، ثم بأعمالنا، ثم لنحاول إصلاح هذا الخلل فلعل الله سبحانه وتعالى ينظر إلينا نظرة رحمة في ونصر وتأييد.

أيها الإخوة الكرام: المشكلة هل نبحث عن الخلل لنسده ؟ أم نعرف الخلل ولا نعرف كيف نسده ؟ هل المشكلة في صعوبة التشخيص أم في وصف العلاج ؟ أم في الإيمان به والصبر على تناوله ؟ أي هل تتجسد مشكلاتنا في عدم وجود الطبيب القادر على التشخيص ؟ أم في عدم وجود الدواء النافع في اقتلاع الداء ؟ أم أن المريض نفسه غير قادر للدواء ولا يتجاوب مع العلاج ؟، أين ؟. المشكلة أن نعرف الخلل، أم أن نبحث عن العلاج، أم أن نقنع المريض بأن هناك خللاً ولابد من العلاج ؟ هذه من أكبر قضايا المسلمين في هذا العصر.

أيها الإخوة الكرام: ويبدو أن المشكلة أكبر من ذلك، فكلمة خلل تعني أن الغاية واضحة وأن الطريق إليها سالكة، وأن الوسيلة مهيأة، ولكن خللاً أصابها، كلمة خلل تعني أن القضية صغيرة، لعل القضية أكبر من ذلك.

غيبة الوعي الإسلامي، فقدان الهوية الإسلامية، اختفاء الطريق، فقد الوسيلة، هذا حجم المشكلة، لا أتحدث عن بلد إسلامي بعينه، أتحدث عن مجموع المسلمين، في شتى أقطارهم، لأن أعداء الإسلام يضعون كل المسلمين في خندق واحد.

أيها الإخوة الكرام: الأمة في منظور القرآن الكريم، قال تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠))

(سورة آل عمران)

علة هذه الخيرية(تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)، فإذا تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما الفريضة السادسة لم نبق خير أمة أخرجت للناس، كنا أمة كغيرها من الأمم وهذا الذي حصل مع أهل الكتاب، قال تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨))

(سورة المائدة)

لذلك قال العلماء هناك أمة الاستجابة وهي خير أمة أخرجت للناس وهناك أمة التبليغ وهي أمة كغيرها من الأمم، فأنت من أية أمة ؟ ممن استجاب لله ورسوله ؟ أم ممن بلغك الإسلام ولم تستجب له ؟

أيها الإخوة الكرام: الأمة في منظور القرآن الكريم أمتنا هي خير أمة أخرجت للناس ولكن بسبب تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، فإن لم نأمر بالمعروف ولم ننه عن المنكر ، إن أصبح المعروف عندنا منكراً، والمنكر معروفاً بل إن أمرنا بالمنكر ونهينا عن المعروف، فأين موقعنا من هذه الأمة التي وصفها الله عز وجل بالخيرية

أية أخرى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة البقرة آية ١٤٣)

الكمال في الوسط، والاعتدال في الوسط، والحق في الوسط والفضيلة في الوسط، والتوازن في الوسط، والوسط قوة، ملنا يميناً ويساراً وشرقاً وغرباً ولم نكن وسطاً.

أيها الإخوة الكرام: منظور الأمة في القرآن الكريم، قال تعالى:

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢))

(سورة الأنبياء)

وحدتها، سبب قوتها، فإذا تفرقنا شيعاً، وفرقاً وطوائف، واتجاهات وانتماءات، ونوازع، تشتت شملنا، وذهبت ريحنا، وضعفنا، فالأمة في القرآن الكريم خير أمة، وأمة وسط، وأمة واحدة، أما حينما تركنا معرفة الله، خرجنا عن منهجه، قال تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(سورة الحشر آية١٩)

نسيانهم لله عز وجل أنساهم أنفسهم، أنساهم أهدافهم السامية، أنساهم هويتهم، أنساهم سر وجودهم، أنساهم صلاح أمرهم.

أيها الإخوة الكرام: الحقيقة المرة خير ألف مرة من الوهم المريح، الحقيقة المرة، وأنت حينما تعرف حقيقتك تنطلق إلى إصلاح نفسك، أما إذا عشت في أوهام وتوهمت أشياء لا أصل لها، كانت خيبة الأمل أشد مرارة مما لو عرفت الحقيقة في وقتها المناسب.

أيها الإخوة الكرام: المسلمون بميزان التقدم المادي أرخص شيء عندهم هو الوقت والوقت هو الإنسان، ورأسمال الإنسان هو الوقت، والوقت وعاء العمل والوقت سبب التقدم، فأرخص شيء عند المسلمين في عصور غفلتهم هو الوقت وأثقل شيء عليهم هو العمل، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢))

(سورة الأنعام)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠))

(سورة فاطر)

فالوقت رخيص، والعمل ثقيل، وأقل الثروات قيمة عندهم هو الإنسان وهو أصل كل شيء وهدف كل شيء.

أيها الإخوة الكرام: نقلد ولا نجتهد، نحاكي ولا نبتدع، ننقل ولا نبتكر، نحفظ ولا نفكر نستخدم تفكير غيرنا لحل مشكلاتنا، فتأتي الحلول مضحكة، إن أول آية نزلت في القرآن الكريم: " اقرأ " ونحن لا نقرأ، وإذا قرأنا قد لا نفهم وإذا فهمنا قد لا نستفيد مما فهمنا، وإذا استفدنا مما فهمنا لا نستمر على هذا العمل، فأساس التقدم في الدنيا هو العلم، إن أردت الدنيا فعليك بالعلم وإن أردتهما معاً فعليك بالعلم، العلم هو الذي يرفع شأنك من الحياة البهيمية إلى مستوى الحياة الإنسانية.

ينبغي أن نطلب العلم، ينبغي أن نطلب العلم الشمولي، أن تعرف الله، أن تعرف منهجه، أن تعرف سر وجوده، أن تتحرك وفق هذا المنهج القويم.

أيها الإخوة الكرام، ابتدعنا في دين الله، والابتداع في الدين ضلالة، وجمدنا في شؤون الدنيا والجمود في الدنيا جهالة، عكسنا الآية، كان بدعنا في الدين وتقليدنا في الدنيا، وكان الأولى أن نعكس الآية، أن نتبع في أمر الدين، وأن نبتدع في أمر الدنيا، فروح الدين الإقتداء والإتباع، وروح الدنيا الابتكار والابتداع.

أيها الإخوة الكرام، لقد خلقنا الله ليبلونا أينا أحسن عملاً، ولو تأملنا هذه الآية لأخذنا العجب العجاب، في هذه الآية تعبير دقيق جداً، وعميق جداً، فنحن نبتلى لا ليتميز العمل السيئ من العمل الحسن، ينبغي أن يكون عملنا جميعاً حسناً ولكن نُبتلى ليُتبين أينا أحسن عملاً، الأصل أن يكون العمل صالحاً، ولكن الابتلاء لدرجات الحسن، لا للسوء والحسن.

أيها الإخوة الكرام، المؤمن والمسلم مطالب بعمل الآخرة إلى آخر رمق في حياته:

حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ))

وإني أرى الرجل ليس له عمل فيسقط من عيني كما قال عمر، وقد أمسك النبي عليه الصلاة والسلام بيد ابن مسعود وكانت خشنة من العمل أمسكها ورفعها وقال إن هذه اليد يحبها الله ورسوله، المسلم مطالب بالعمل إلى آخر رمق في حياته، والعمل في الإسلام عبادة، ولو كان لصلاح الدنيا، إذا كان العمل مشروعاً، وسلكت به الطرق المشروعة وابتغيت منه كفاية نفسك وأهلك، ولم يشغلك عن طاعة، ولا عن واجب وابتغيت به خدمة المسلمين انقلب علمك إلى عبادة.
أيها الإخوة الكرام: الذي نخشاه أن تكون الأمة الإسلامية أقل الأمم عطاءً وعملاً وأكثرها كلاماً وجدلاً، نتكلم كثيراً، ونعمل قليلاً، وكثيراً ما نعمل غير المهم، وندع المهم، بل قد نعمل غير النافع وندع النافع، أحد الكتاب المعاصرين وصف أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان قرآناً يسعى على قدمين، وقد وُصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه قرآن يمشي.. مجموعة قيم، مجموعة مبادئ مجموعة أسس تتحرك قال بعض الحكماء:

((الكلام يُذم إذا كان أكثر من العمل، ويذم أكثر إذا كان بلا عمل ويُذم أكثر وأكثر إذا كان مناقضاً للعمل))

فإذا كان كلام المسلمين في واد وعملهم في واد، ولسانهم في واد وسلوكهم في واد، فكيف ينظر الله إلينا نظرة عطف، وكيف ينظر الله إلينا نظرة رعاية.

أيها الإخوة الكرام: تعيش الأمة الإسلامية في أهم بلاد الله موقعاً، وأطيبها بقعة وأخصبها أرضاً، وأحفلها بالمعادن والثروات، ولكن المسلمين بمجموعهم لم يستغلوا الاستغلال الأكمل لثرواتهم، ولم يزرعوا كل أرضهم، ولم يصنعوا كل معادنهم.

نحن أحياناً بخطأ منا نحول الأرض الخضراء إلى صحارى أسمنتية بينما الآخرون يحولون الصحارى إلى أرض خضراء، إحياء الموات جزء من ديننا، أحياء الموات

((من أحيا أرضاً مواتاً فهي له))

نميت الأرض الحية، ولا نحيي الأرض الميتة، هذا في مجموع المسلمين نستهلك ولا ننتج، نستورد ولا نصنع، سيدنا عمر عملاق الإسلام زار بلدة فرأى أكثر الفعاليات الاقتصادية في يد غير المسلمين فعنفهم أشد التعنيف فقالوا: لقد سخرهم الله لنا، فبالغ في تعنيفهم وقال كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم "، أدرك هذا الخليفة الراشد، أدرك عملاق الإسلام أن المنتج قوي، وأن المستهلك ضعيف، لذلك المنتج يتحكم في مصائر المستهلك يفرض عليه ثقافته، يفرض عليه عاداته وتقاليده، يفرض عليه إرادته.

أيها الإخوة الكرام، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنْه:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ))

توجيه آخر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

حديث ثالث، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

أيها الإخوة الكرام، أما هذا العدد الضخم، مليار ومائتين مليون مسلم يعني خمس سكان الأرض عدد كبير، ينبغي أن تكون كلمة هؤلاء هي العليا، قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣))

(سورة الأنعام)

إتّباع السبل المتناقضة والمتعدد يضعف هذه الكثرة، فالتفرّق يُضعف الكثرة والاتحاد يقوي القلة، ينبغي أن نتكامل في اقتصادنا، ينبغي أن نتعاون ينبغي أن نعد العدد السكاني ثروة، في ميزان الإيجابيات لا في ميزان السلبيات.

أراد أعداؤنا أن نحدد نسلنا، وأن نقلل عددنا، ولكن الله سبحانه وتعالى أرادنا أمة قوية، ينبغي أن نعتني بنوعية الفرد، ينبغي أن نعلمه ينبغي أن نجعله حراً في حركته كي يغدو في ميزان الإيجابيات يا أيها الإخوة الكرام: أما طاقاتنا الروحية، طغت المادة على الروح، والحاجات على القيم والمصالح على المبادئ، والاهتمام بالدنيا على الآخرة، أعلينا الطين والحمأ المسنون على نفخة الروح فينا، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

(سورة الحجر آية ٢٨)

فأنت قبضة من حمأ مسنون ونفخة من روح الله، فلماذا طغت هذه القبضة على روح الله، لماذا ؟ هبت رياح المعصية، فأطفأت شموع الخشية، طال علينا الأمد فقست قلوبنا من بعد، أيها الإخوة الكرام: أصبحت كالحجارة أو أشد قسوة.

لم تساعدنا مناهجنا التعليمية على أن نرسخ المعاني الربانية في أنفسنا، أسأنا فهم الدين الذي هو روح وجودنا، وسر بقائنا، وتميزنا، حتى شُغلنا بالشكل عن المضمون، وبالقالب عن القلب، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩))

(سورة الشمس)

أيها الإخوة الكرام، ربنا عز وجل يقول:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

(سورة الرعد)

فإن لم نغير ما بأنفسنا لا يغير الله ما بنا من حال، أخطر شيء في حياة المسلمين، أن يصبح الدين فيهم لهواً، وأن يصبح اللهو فيهم ديناً يعني أي احتفال في نشيد، ومع النشيد طرب، هذا هو الدين، إذا أصبح اللهو ديناً، والدين لهواً، فنحن في أسوأ حال.

نزين جدراننا بالقرآن، ولا نزين حياتنا بالعمل به، نقرأه على الأموات ولا نحكمه في الأحياء، نجعل البركة لمجرد حمله وتلاوته، إن البركة الحقيقية في اتباعه وتحكيمه، قال تعالى:

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢))

(سورة الأنعام)

شرّعنا في بعض بلاد المسلمين تشريعات تناقض شرع الله عز وجل ففي بعض البلاد الإسلامية في شمال إفريقيا ألغت قانون الأحوال الشخصية الإسلامية، وأصبحوا على النظام الغربي، فإذا طلق الرجل امرأته استحقت نصف دخله، هذا شيء واقع، لم نعبأ بشرع ربنا، قال تعالى: أنتم أعلم أم الله؟

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤))

(سورة الملك)

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

أيها الإخوة الكرام، لعلي قسوت عليكم، وعلى مفهوماتنا عن المسلمين، الحقيقة المرة أهون ألف مرة من الوهم المريح، ينبغي أن لا نعيش في أوهام، نحن أمة جعلنا الله وسطاً بين الأمم، أمتنا أمة واحدة، لأن إلهنا واحد ونبينا واحد، وكتابنا واحد، نحن فرقنا أنفسنا، نحن مزقنا أنفسنا، فيا أيها الإخوة الكرام لا يقل أحدكم أنا ماذا أفعل، اجعل من بيتك بيتاً إسلامياً ومن عملك عملاً إسلامياً وانتهت مهمتك، هذا الذي عليك، عليك أن تفعل هذا وعلى الله جل جلاله أن ينظر إلينا كما وعدنا بعين الرعاية والنصر.

أيها الإخوة الكرام، الآن شخصّنا الداء، وفي خطبة قادمة إن شاء الله نبحث عن الدواء فلا بد من تشخيص الداء ووصف الدواء، ولا أعني بلداً إسلامياً بعينه مجموع المسلمين، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب عندنا إيجابيات كثيرة جداً والحمد لله في هذا البلد الطيب، أعني مجموع المسلمين، لأن أعداء الإسلام يضعون كل المسلمين في خندق واحد.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، من الآيات الدالة على عظمة الله جل جلاله سمك اسمه سمك السلمون وله اسم آخر عند علماء البحار اسمه حوت سليمان، هذه الأسماك لها سلوك حير العلماء، ولا يمكن أن يفسر إلا في ضوء القرآن الكريم لقوله تعالى:

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠))

(سورة طه)

هذه الأسماك تُولد في ينابيع الأنهار التي تنبع في أمريكا، وتهاجر هذه الأسماك من منابع الأنهار إلى مصباتها، ومن مصباتها من ساحل الأطلسي الشرقي لأمريكا، إلى ساحل الأطلسي الغربي لأوربا، تقطع المحيط الأطلسي كله، تمكث في هذه البحار في غرب أوربا فترة من الزمن، ثم تعود أدراجها إلى ينابيع الأنهار كي تولد وتموت هناك.

لا تظنوا إن هذا الكلام وهم، إن بحوثاً عليمة استغرقت عشرات السنين هناك، وضع في بعض الأنهار مركز إحصاء، أحصى مليوني سمكة من نوع السلمون تعود إلى مسقط رأسها كل يوم، مليوني سمكة ولمدة شهرين، وهذا السمك وضعت عليه قطعة معدنية فيها تاريخ هجرته. ثمة بحث كلف الملايين، سمكة تنتقل من ينابيع الأنهار في أمريكا إلى مصباتها، من مصباتها إلى غربي أوربا، ثم تعود كل يوم مليوني سمكة إلى رؤوس الأنهار حيث تولد وتموت هناك. أيها الإخوة الكرام، كيف رجع هذا السمك من محيط الأطلسي إلى مصب النهر، لو أتينا بأحد علماء البحار، وأركبناه قارباً وله عينان مبصرتان، وقلنا له اتجه وأنت على ساحل فرنسا إلى مصب الأمازون في أمريكا، هذا العالم الكبير لا يستطيع أن يتجه بكل علمه إلى مصب هذا النهر، لو أن هذا السمك أخطأ درجة واحدة في اتجاهه لجاء في مصب آخر، لو أخطأ ثلاث درجات لاتجه من أمريكا الشمالية إلى الجنوبية، فمن الذي يهديه ويصوب حركته حتى يصل إلى مصب النهر الذي خرج منه، هذا شيء لا يُصدق إلا أن يهديه الله عز وجل.

الآن بواخر، بواخر عملاقة، وفيها علماء، ومعها لاسلكي ورادار معها اتصالات مع الفضاء، واتصالات مع الموانئ، وفيها بوصلة وإحداثيات وقد تضل الطريق، أما سمكة في أعماق المحيط تتجه من فرنسا إلى مصب نهر في أمريكا، لو حادت درجة واحدة لجاءت في نهر آخر، قال تعالى:

(قالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قالَ رَبُّنَا الَّذِي أعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠))

(سورة طه)

هذا السمك صوره العلماء وهو يصعد الشلال، سمك السلمون يصعد الشلال مصر على أن يصل إلى ينابيع النهر، هناك يولد ويموت، هذه الرحلة الطويلة، من غربي أمريكا، إلى ساحلها الشرقي، إلى غربي أوربا، ويعود هذا السمك، أعظم ما في هذه الآية، من الذي يهدي هذا السمك في ظلمات البحر، من يهديه في الظلمات والبحر ظلمات.

من يهدي الأطيار إلى أعشاشها، وتهاجر سبعة عشر ألف كيلو متر من يهدي ثعابين الأنهار من ينابيع النيل إلى مصب النيل إلى البحر المتوسط إلى بحر الشمال، حيث يعود هذه الرحلة مرة ثانية إلى مصبات النيل.

من يهدي هذه الأسماك وهذه الثعابين في ظلمات البحر ويوجهها ؟ ذلكم الله رب العالمين. أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١))

(سورة آل عمران)

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٥١ : خ١ - نقاط الضعف في العالم الإسلامي (النقد الذاتي) ، خ٢ - بوابات الألم في الدماغ .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٣-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في الخطبة الماضية انطلقت من أن الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، وتحدثت عن بعض نقاط الضعف في العالم الإسلامي وبينت لكم أن المسلمين جميعاً في نظر أعدائهم في خندق واحد، وها أنا ذا أتابع الحديث عن نقاط الضعف في العالم الإسلامي، فلأن أول مرحلة لحل المشكلة أن تدرك أن هناك مشكلة.

أيها الإخوة الكرام، من أكبر نقاط الضعف في تحياتنا ما يُسمى بضعف النقد الذاتي الإنسان يألف طريقاً، يألف فكرة، يألف سلوكاً لا يقف متأملاً، لا يقيم موقفه في ضوء الشرع الحنيف، يسير هكذا في حكم حركته اليومية، فيا أيها الإخوة الكرام، ضعف النقد الذاتي، أو النقد الذاتي إن لم يكن غائباً فهو ضعيف في أكثر الأحيان.

النقد الذاتي بالتعبير الدقيق هو محاسبة النفس، وهذا الذي أثنى الله عليه أثنى على النفس اللوامة حيث قال:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤))

(سورة القيامة)

هذه النفس التي تتوقف من حين إلى حين، تراجع مواقفها، تراجع معتقداتها، تراجع سلوكها، تقيسه بمقياس الشرع، فالحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، هذه النفس اللوامة، هذه النفس التي تحاسب ذاتها حساباً عسيراً عند الورعين، وحساباً يسيراً عند الأقل في الورع من هؤلاء، هذه النفس نوه الله بها في القرآن الكريم وأثنى عليها فقال:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤))

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد والترمذي عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(رواه الإمام أحمد والترمذي)

من معاني كلمة دان بمعنى حاسبها، لذلك سيدنا عمر روي عنه أنه قال:

((حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا))

أيها الإخوة الكرام، يقول بعض العلماء: " المؤمن أشد محاسبةً لنفسه من سلطان غاشم أو من شريك شحيح "، كلما كان حسابك لنفسك عسيراً في الدنيا كان حسابك يوم القيامة يسيراً، لا تتحرك حركة عشوائية، لا تتحرك بفعل العادات والتقاليد، لا تتحرك بتوجيه زيد أو عبيد، ضع الشرع ميزاناً، وزن كل أقوالك وكل أفعالك وكل مواقفك، حتى كل ما تتوهمه، أو تعتقده، زنه بميزان الشرع، فإن كان صحيحاً تابعت فيه، وإن كان فيه انحراف أقلعت عنه لتوك.

أيها الإخوة الكرام، أوضح مثل لهذه المحاسبة ؛ سيدنا نعيم بن مسعود، كان في معسكر الكفار مع المشركين، هو أحد زعماء غطفان، كان مستلقياً في فراشه في الخيمة قبيل معركة الخندق، هو في خندق الكفار، مع المشركين أحد زعماء نبي غطفان، مستلقياً على فراشة في خيمته قبيل معركة الخندق، فجعل هذا الرجل الزعيم يسرح بصره وراء النجوم، على صفحات السماء الصافية، ويطيل التفكير، وفجأة تسأله نفسه قائلة ويحك يا نعيم، ما الذي جاء بك من تلك الأماكن البعيدة في نجد لحرب هذا الرجل ومن معه محاسبة للنفس، هل هي حرب مقدسة أم هي حرب قذرة، إنما لا تحاربها انتصاراً لحق مسلوب، يخاطب نفسه، ولا حمية لعرض مغصوب، إنما جئت لتحاربه لغير سبب معروف.

أيها الإخوة الكرام، عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاؤوا فَلا تَظْلِمُوا))

قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(١١٦))

(سورة الأنعام)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦))

(سورة يونس)

لا تقل أنا مع المجموع، لا تقل أنا مع أهلي، هكذا نشأنا، لعل أهلك على خطأ، لا تقل أنا مع أصدقائي، لا تقل أنا مع أبناء حيي، لا تقل هكذا نتحرك، أنا مع الكل، عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاؤُوا فَلا تَظْلِمُوا))

أيها الإخوة الكرام: تعليق لطيف ؛ لا تكن أداة رخيصة بيد الآخرين، لا تكن منديلاً تُمسح به أقذر عملية، ثم تلقى في سلة المهملات، لا تكن صنيعة لأحد، لا تكن وسيلة للباطل، كن حراً، تحرك من قناعتك، تحرك بوحي من إيمانك تحرك بوحي من عقيدتك، تحرك بوحي من الحق والإنصاف، لا تكن رقماً، لا تكن تكملة لعدد، لا تكثر سواد الباطل، سيدنا نعيم بن مسعود مستلقٍ على فراشة في خيمة قبيل معركة الخندق زعيم من زعماء غطفان، قال ما الذي جاء بي من نجد، لأحارب هذا الرج ومن معه، قطعاً إني لا أحاربه انتصاراً لحق مسلوب، ولا حمية لعرض مغصوب، إنما جئت لأحاربه لغير سبب معروف، قالت له نفسه ويحك يا نعيم.

أيها الإخوة الكرام، الإنسان أحياناً دون أن يشعر يُجر إلى معاداة أهل الحق، بلا سبب مبرر بلا سبب جوهري، هكذا هو مع الناس، مع الحركة العامة للناس يفعل ما يفعلون، يعتقد ما يعتقدون، لا تبصر لا تحقيق لا تدقيق.

ثم يقول لنفسه: يا نفس أيليق برجل له عقل مثل عقلك أن يقاتل فيقتل، أو يُقتل لغير سبب، يا نعيم ـ حوار ذاتي ـ ما الذي يجعلك تشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح، لم يكن يعتقده نبياً، لكنه رجل صالح، عُرف بأمانته وصدقه وعفافه ونسبه، وله أصحاب حوله يتخلقون بأخلاقه، يا نعيم، ما الذي يجعلك تشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح الذي يأمر أتباعه بالعدل، والإحسان وإيتاء ذي القربى.

يا نعيم ما الذي يحملك على أن تغمس رمحك في دماء أصحابه الذين اتبعوا ما جاءهم به من الهدى والحق. هذه مناقشة جرت في ذهن نعيم بن مسعود وهو أحد زعماء غطفان قبيل معركة الخندق. أيها الإخوة، الإنسان عنده إمكانيات عالية، ينبغي أن يتخذ قراراً حازماً، وقراراً حاسماً في شأن عقيدته، وفي شان سلوكه، وشأن زواجه، وشأن أولاده وشأن حرفته.

لو أن إنسان له مهنة لا ترضي الله، لمَ لا يتركها فوراً ؟

لو أن له عملاً لا يرضي الله لمَ لا يقلع عنه فوراً ؟

لو أن له انحرافاً لا يرضي الله لمَ لا يتوب منه فوراً ؟

ماذا فعل هذا الصحابي الجليل، اتخذ قراراً حازماً وحاسماً، ونهض من توه لتنفيذه، " هلك المسوفون "، المقصرون يقول أفعل هذا غداً وبعد غد.

تسلل من معسكر المشركين تحت جنح الظلام، ومضى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، مشرك زعيم من زعماء إحدى القبائل، كان مع الأعداء، جاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام، لما رآه النبي ماثلاً بين يديه، قال نعيم بن مسعود، قال نعم يا رسول الله، قال ما جاء بك هذه الساعة قال يا رسول الله، جئت لأشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله وأن ما جئت به هو الحق، ثم أردف يقول، لقد أسلمت يا رسول الله إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني ماذا شئت.

أيها الإخوة، حقيقة أقولها كثيراً، الإيمان ما إن يستمر في قلب المؤن حتى يعبر عن نفسه بحركة، لابد من حركة نحو الخلق، لابد من حركة نحو العمل الصالح، الإيمان ما إن يستمر في قلب الإنسان حتى يعبر عن ذاته بحركة نحو الخلق، مؤمن سلبي لا يوجد.. إنسان منسحب منهزم متقوقع بعيد عن المجتمع، لا يحمل هم المسلمين، لا يقدم شيئاً هذا ليس مؤمناً.

ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى تعبر عن ذاتها نحو الخلق.

أيها الإخوة الكرام، عشرة آلاف مقاتل عدد لم يجتمع في الجزيرة، جاؤوا ليستأصلوا الإسلام اليهود نقضوا عهدهم كعادتهم، أصبح الإسلام قضية ساعات هكذا بدا، ربنا عز وجل يقول:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١))

(سورة الأحزاب)

حتى إن بعض الناس قال: أيعدنا صاحبكم أن تُفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، عشرة آلاف رجل بأسلحتهم الفتاكة، واليهود نقضوا العهد والإسلام أصبح موضوع ساعات، فقال عليه الصلاة والسلام: ((إنما أنت فينا رجل واحد))، ماذا يفعل إنسان والقضية انتهت، ولكن الله عز وجل في تقديره وحكمته وعلمه، هذا دينه ولن يخذله، وبالمناسبة: لا تقلق أبداً على دين الله إن الله ناصر دينه، ولكن اقلق ما إذا سمح الله لك أن تنصره أو لم يسمح اقلق ما إذا كان الله قد قبلك جندياً لخدمة هذا الدين أو لم يقبلك قال تعالى:

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨))

(سورة محمد)

قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما أنت فينا رجل واحد، فاذهب إلى قومك وخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة))

الآن هذا الرجل العاقل الذكي الحكيم زعيم قبيلته، سيوظف ذكاءه وعقله الكبير وسرعة بديهته، وفطانته، وكل أساليبه الذكية، سيوظفها لصالح الدين الجديد، وسترى ما يسرك إن شاء الله عز وجل، والقصة تعرفونها، كيف أنه ذهب إلى الكفار، وذهب إلى اليهود وأوقع بينهم، حتى انتهت هذه

المعركة على أهون سبب، وقدر الله النصر لهذه المعركة الحاسمة، على يد رجل واحد صادق، لحظة تفكير لحظة محاسبة للنفس، لحظة نقد ذاتي، لحظة تأمل، لحظة فحص لحظة تحليل إلى أين أنت تسير ؟ ثم ماذا بعد هذه المرحلة، تعمل أنت في صالح من الإنسان قد يتحرك، وهو لا يدري لصالح إبليس، لصالح الشيطان، قد يتحرك وهو لا يدري أو غافل لصالح أعداء الأمة وهو لا يعلم، لحظة تفكير لحظة تأمل لحظة مراجعة، لحظة نقد للذات، لحظة محاسبة، لحظة لوم نقلت هذا الإنسان من كافر مشرك جاء ليقاتل النبي إلى صحابي جليل قدر الله على يده الخير الكثير.

وأنت بإمكانك إذا راجعت نفسك، وفحصت مواقفك، ودرست وضعك وحللت أعمالك، فرأيت بعضها ليس على الحق، فرجع إلى الحق تغدو من إنسان رقم من هذه الأرقام، شخص يكبر سواد أهل الباطل إلى رجل يدعو إلى الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام، نقد الذات مهم جداً في حياة المسلمين.

شيء آخر ؛ النبي عليه الصلاة والسلام عصمه الله بمفرده من أن يُخطئ بأفعاله وأحواله وإقراره، وعصم أمته بمجموعها من أن تجتمع على ضلالة، ولكنه لم يعصم فرداً بعده، فكل إنسان يؤخذ منه ويُرد عليه إلا صاحب هذه القبضة الخضراء، ومن يدعي العصمة فقد ضل ضلالاً كبيراً.

أيها الإخوة الكرام، لابد من أن نقف بين الحين والحين مع أنفسنا للتقويم والمراجعة، لابد من أن نشجع بعضنا بعضاً على النصح وإن كان النصح مراً، لابد من أن نشجع أنفسنا على النقد البناء وإن كان النقد موجعاً، رحم الله عمر ابن الخطاب عملاق الإسلام كان يقول:

((أحب ما أهدى إلي أصحابي عيوبي))

لو تناصحنا، لو تعاونا، لو تكاتفنا، لو تضامنا، لو وضعنا ذواتنا تحت أقدامنا، لو رجحنا مصلحة المسلمين على مصالحنا الخاصة، لو أحببنا بعضنا لكنا في حال غير هذا الحال.

أيها الإخوة الكرام، من الآفات الكبرى التي يعاني منها المسلمين في شتى أقطارهم الانقسام والتمزق، هناك انقسام وتمزق بين فصائل المسلمين، كل جماعة ترى نفسها وحدها جماعة المسلمين، ولا جماعة غيرها من المسلمين، ليست جماعة من المسلمين، بل هي جماعة المسلمين، وأن معها الحق كله وليس بعدها إلا الضلال، وأن دخول الجنة والنجاة من النار حكر على من اتبعها، وأنها وحدها الفرقة الناجية، ومن عداها من الهالكين، ومن لم يقل ذلك منهم بلسان المقال، قاله بلسان الحال.

أيها الإخوة الكرام، لا يُنكر أن تتعدد الجماعة الإسلامية، ولكن تعدد تنوع وتخصص لا تنوع تضاد وتناقض، تنوع تعاون لا تنوع تنافس، تنوع تضامن لا تنوع نقد وتهديم، هذا خطر آخر ينتظر المسلمين في شتى أقطارهم.

شيء آخر ؛ غلبة الاتجاه العاطفي على الاتجاه العلمي، الإسلام أيها الإخوة مع احترامه الشديد للعقل، ودعوته إلى النظر والفكر ليس مجرد فلسفة عقلية منطقية جامدة، إنه يشتمل على جانب عاطفي في تعاليمه لا ينكره أحد ؛ الحب في الله والبغض في الله، والفرح بتوفيق الله والحزن من معصية الله، والخوف والرجاء هذا جانب لا خلاف فيه، لأن الإسلام جاء ليخاطب العقل والقلب معاً، ولهذا ذم الله الذين لا يعقلون والذين لا يفقهون، وذم الذين لا تخشع قلوبهم لذكر الله، ذمهم أيضاً، ففي الحديث الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

الإيمان له حلاوة، حلاوة الإيمان هي التي تعينك على التشبث به وعلى الاستمرار فيه، وعلى الرقي فيه، عند التعارض، إذا تعارضت مصالحك المادية مع أمر الله وأمر رسوله فلزمت جانب الحق وركلت مصلحتك بقدمك، عندئذ يذيقك الله حلاوة الإيمان، حلاوة الإيمان لا تذوقها إلا إذا آثرت رضاء الله على مصالحك..

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ))

أيها الإخوة الكرام، هذا الجانب العاطفي يسمونه الأحوال، يسمونه المشاعر، هذا الجانب العاطفي لابد منه، لتوفير قدر من الحماسة والسعادة يدفع إلى العمل والبذل والعطاء، ولابد من هذا المجال لربط القلوب برباط المحبة والأخوة.

ولكن يجب أن نعلم علم اليقين أن هذا الحب بين المؤمنين من خلق الله عز وجل، قال تعالى:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣))

(سورة الأنفال)

هذا من خلق الله، وأنت تحب الآخرين بقدر إيمانك، صاحب الإيمان الأرقى يحب الآخرين حباً أرقى.

أيها الإخوة الكرام، إلا أننا نتحدث عن نقطة ضعف في حياة المسلمين أن تغدو العاطفة فوق العقل، وأن يكون الهوى قبل العلم، يعني أن تكون العاطفة متحكمة في مواقفنا وفي حركاتنا، وفي أخذنا وعطائنا، وفي قراراتنا.

أيها الإخوة الكرام، آفةٌ ثانية من هذه الآفات ؛ المبالغة والتهويل.. الله سبحانه وتعالى جعل هذه الأمة أمة وسطاً، تقف بين طرفي الإفراط والتفريط، وقل ما نقف موقف والوسط.

الله عز وجل مدح هذه الأمة لأنه جعلها أمة وسطاً، فالمبالغة في المديح والمبالغة في نقد الخصوم، هذه سمة من سمات الضعف في شخصيتنا الإسلامية، قال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥))

(سورة التوبة)

الإنسان بين أن يكون في يوم بدر، وبين أن يكون في يوم حنين، في يوم بدر افتقار إلى الله:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣))

(سورة آل عمران)

وفي يوم حنين اعتداد بالنفس، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى حينما يعتد الإنسان بذاته، أو بقوته، أو بماله يؤدبه، يقول ابن مسعود رضي الله عنه:

((إنما الهلاك في اثنتين ؛ العجب والقنوط))

العجب مهلك، والقنوط مهلك، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى قال تعليقاً على كلام ابن مسعود رضي الله عنه، قال: (إنما جُمع بينهما لأن السعادة إنما تُنال بالسعي والطلب، والجد والتشمر، والقانص لا يسعى ولا يطلب لأن ما يطلبه غر ممكن في تصوره)، فالقنوط يلتقي مع الكفر، وأما المعجب بنفسه يعتقد أنه قد سعى، وأنه قد ظفر بمراده فلا يسعى فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، فالمعجب بنفسه لا يرقى والقانط لا ينجو.

فيا أيها الإخوة الكرام،القنوط مرض خطير، الذي يقول لك انتهينا، لن تقوم لنا قائمة الأعداء أقوياء جداً، هذا يلتقي مع الكافرين، القنوط كفر، وهذا الذي يُعجب بنفسه لا يسعى إلى الرقي لأنه اكتفى بما هو فيه، فهذا مرض وذاك مرض.

فيا أيها الإخوة الكرام، لابد من أن نضع أيدينا إن شاء الله تعالى على مواطن الضعف في شخصيتنا، لكن الذي ألح عليه هو النقد الذاتي، إيّاك أن تتوهم أنك لا تُخطئ، قد تخطئ فيما تعتقد، وقد تُخطئ في تصرفاتك، حاسب نفسك قسها بميزان الشرع.

كنت أقول دائماً ؛ الإنسان متى يعالج نفسه من ارتفاع الضغط ؟ إذا علم أن معه ضغط مرتفع، فأن تعرف أن معك ضغط مرتفع أول مرحلة في معالجته، أما هذا الذي لا يفحص ضغطه أبداً، قد يعلو، وقد يكون له مضاعفات خطيرة دون أن يدري.

يا أيها الإخوة، لا تتساهل مع نفسك، اتهمها، لا تتملقها، لا تحابيها، حاسبها حساباً عسيراً ليكون حسابك يوم القيامة يسيراً.

أيها الإخوة الكرام: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى خيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

من الآيات الدالة على عظمة الله جل جلاله ما اكتشفه العلماء مؤخراً من أن في الدماغ، دماغ الإنسان مادةً مخدرةً، يفرزها الدماغ في حالات خاصة، إذا بلغ الألم حداً لا يطاق، يفرز نفسه الدماغ مادة تخدره، وتخدر إحساسه بالألم، وهذا من إتقان صنعة الله عز وجل هذه المادة يفرزها الدماغ في مستوى من الألم لا يحتمله، فيخدر نفسه ويتعطل الإحساس بالألم، وهذا من رحمة الله جل جلاله.

ثم إن هناك اكتشافاً آخر، هو أن هناك بوابات على مجرى الجهاز العصبي تمنع ورود الألم إلى الدماغ، هذه البوابات ـ هكذا جاء في البحث العلمي ـ تتحكم فيها العوامل النفسية، فلو أن إنساناً يسعى مغتبطاً بشيء يؤمن به ويقدسه، وفي أثناء هذا السعي أصابته بعض الآلام، هذه البوابات تمنع وصول هذا الألم إلى الدماغ، هذا يفسر أن بعض الصحابة الكرام في بعض المعارك الحاسمة، قُطعت يده اليمنى، فأمسك الراية بيده اليسرى فقُطعت اليسرى، فأمسكها بعضديه وهو يحمل راية الله عز وجل.. ألم يتألم ؟.. أين إحساسه بالألم ؟.. لو أن جرحاً يسيراً أصاب أحدنا لجلس في الفراش وجاء بالضماد وأخذ المسكنات.. يده تُقطع بأكملها يمسك الراية بيده الثانية، قُطعت الثانية أمسكها بعضديه، هذا الذي يفسر أن بعض المؤمنين الصادقين تصيبهم آلام لا تُحتمل، لكنهم يحتملونها، لأن هناك بوابات على مجاري السيالة العصبية.

أيها الإخوة: هذا الطريق ؛ النهايات العصبية، إلى النخاع الشوكي، إلى الجسم تحت السرير البصري، إلى قشرة الدماغ، هذا الطريق سماه العلماء طريق الآلام.. نهاية عصبية، النخاع الشوكي، الجسم تحت السرير البصري قشرة الدماغ، طريق الآلام عليه بوابات، تمنع وصول هذه الآلام إلى الدماغ، هذه البوابات تتحكم فيها العوامل النفسية، العامل النفسي يمنع وصول الألم.

أيها الإخوة الكرام، لذلك إذا كان الإنسان إذا كان إيمانه كبير، وكان هدفه نبيل، وكان سعيه حثيث، لا يعبأ بالآلام التي يسقط منها الرجال، الإيمان قوة كبيرة.

خالد بن الوليد أرسله الصديق لمعركة في شرق آسيا، فطلب منه المدد الأعداء مائة وثلاثون ألفاً، والمؤمنون ثلاثون ألفاً، طلب منه المدد، هو ينتظر خمسين ألفاً، ثلاثين ألفاً، فإذا برجل واحد اسمه القعقاع بن عمر يأتين ومع رسالة، قال له: أين المدد ؟ قال: أنا المدد. قال: أنت ؟ واحد !.. معه كتاب فتح الكتاب:

((من سيدنا الصديق إلى سيدنا خالد، يقول له أحمد الله إليك، لا تعجب يا خالد أني أرسلت لك واحداً، فوالله الذي لا إله إلا هو إن جيشاً فيه القعقاع بن عمر لن يُهزم))

وكان النصر في هذه المعركة الحاسمة على يدي القعقاع بن عمر، واحد، بالإيمان الواحد كألف، ومن دون الإيمان ألف كأف، فهذه رحمة الله عز وجل، بأن الدماغ يفرز مادة يخدر نفسه بها، إذا بلغ الألم حداً لا يطاق وأن هناك بوابات على طريق الآلام إلى الدماغ، هذه البوابات تتحكم فيه العوامل النفسية، والإيمان بالله، وعظمة الهدف، ونبل الوسيلة، هو من أعظم ما يخفف عن النفس أعباءها.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦٥٢ : خ١ ـ الحج (المقاصد الأساسية للعبادة) ، خ٢ ـ مكة هي المركز الهندسي لليابسة .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٣-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون : إن المقصد الأول من العبادات ـ والدين كما تعلمون عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق ـ إن المقصد الأول من العبادات هو الإمتثال لأمر الله عز وجل والوفاء بحقه ، ومع ذلك لا يخفى أن وراء العبادات آثاراً طيبة ومنافع جلة ، في حياة الفرد والجماعة ، والحج ونحن على مشارف هذه العبادة العظيمة .
والحج هو أكثر هذه العبادات اشتمالاً على الأمور التعبدية التي لا تُعرف حكمتها معرفة تفصيلية على وجه التأكيد ، لكن الحج أوضح هذه العبادات أثراً في حياة المسلمين أفراداً وجماعات ، كيف لا وقد قال الله عز وجل :

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧))

(سورة الحج)

(ليشهدوا منافع لهم)

إن هذا التعليل القرآني لهذه الرحلة المباركة التي يقطعها الناس قادمين من كل فج عميق يفتح لنا باباً رحباً للتأمل في هذه المنافع المشهودة التي قدمها القرآن الكريم.

الحج أيها الإخوة شحنة روحية كبيرة ، يتزود بها المسلم فتملأ جوانحه خشية ، وتقىً وعزماً على طاعة الله ، وندماً على معصيته ، وتغذي فيه عاطفة الحبِ لله ، الحبِ لله ولرسوله ، ولمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وتوقظ في نفس المسلم مشاعر الإخوة لأبناء دينه في كل مكان وتوقظ صدره شعلة الحماسة الدينية والغيرة على حرماته ، هذه بعض المنافع التي يشهدها الحاج إذا قصد البيت الحرام.

أيها الإخوة الكرام : إن الأرض المقدسة ، وما لها من أثر في النفس ، وقوة الجماعة ، وما لها من إيحاء في الفكر والسلوك ، كل هذا يترك أثراً واضحاً في أعماق المسلم فيعود من رحلته إلى الله ـ والحج كما تعلمون رحلة إلى الله ـ فيعود من رحلته إلى الله أصفى قلباً ، وأطهر مسلكاً ، وأقوى عزيمةً على الخير وأصلب عوداً أمام مغريات الشر ، وكلما كان الحج مبروراً خالصاً لله عز وجل كان أثره في حياة المسلمة المستقبلية واضحاً ، لأن هذه الشحنة الروحية العاطفية تهز كيانه المعنوي هزاً تنشئه على خلق آخر وتعده كأنما هو مولود من جديد يستقبل الحياة.

يعني بشكل واضح الحج المبرور يتيح لك أن تفتح مع الله صفحة جيدة وأن تعود كيوم ولدتك أمك ، وأن تُغفر لك ذنوبك ، وليس للحج المبرور ثواب إلى الجنة ، فرصة لا تعوض .

يقول عليه الصلاة والسلام :

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

أيها الإخوة الكرام : أداء فريضة الحج تمام نعمة الله على المؤمن ، لقد جعل الله البيت الحرام قبلة للمؤمن ، يتجه إليه كل يوم خمس مرات في صلاته ، وهكذا شاءت إرادة الله ، أن ينشغل فؤاد المؤمن بهذا البيت وهو بعيد عنه إلى أن يؤدي فريضة الحج ، هذا البيت الذي يستقبله كل يوم خمس مرات سيراه بعينه ستقع عينه عليه ، والحج أيها الإخوة تمام نعمة الله على المؤمن ، لأن المؤمن لا يحج إلا إذا كان مستطيعاً ببدنه الذي سلمه الله له ، وقواه وبماله الذي ادخره فائضاً للحج عن حاجاته الأساسية ، وبنفقة أهله وعياله في غيبته ، فهو نوع من الغنى والصحة ، وهو من تمام نعمة الله على المؤمن.

والحج أيضاً تمام نعمة الله على المؤمن ، لأن إيمانه بالله ورسوله كان في المستوى الذي حمله على مغادرة الأوطان ، وترك الأهل والخلان وإنفاق الأموال ، بلغ حبه لله وانصياعه لأمره درجة أنه ترك بلده ودفع الأموال من أجل تلبية نداء الله عز وجل ، والحد أيضاً تمام نعمة الله على المؤمن لأنه ما من أحد حج بيت الله الحرام إلا وهو مؤدٍ لجميع ما كُلف به من عبادات شعائرية ، كالصلاة والزكاة والصيام ، ومن عبادات تعاملية ، من توبة نصوح وأداء لجميع الواجبات ووفاء لكل الحقوق.
أيها الإخوة الكرام : الحج عبادة شاملة لكل أركان الإسلام ، ففيه من الصلاة أن تذهب إلى بيت الله الحرام لتصلي فيه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ))

فمن الصلاة أن الصلاة في البيت العتيق تعدل عن الله مائة ألف صلاة وفي الحج من الصلاة إنفاق الأموال في التنقل والسكنى والطعام والشراب والركوب ، وفي الحديث الشريف:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّفَقَةُ فِي الْحَجِّ كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ))

وفي الحج من الصوم أنك تبتعد عن المباحات من لبس المخيط والتطيّب والحلق والتقليم ، وكلها مباحات خارج الحج.

وفي الحج من معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله ؛ أنك تحج بيته الحرام تلبية لأمره وطاعة له ، ولا أدل على ذلك من قولك في التلبية ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك، وتؤدي مناسك الحج كما علمنا إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال :

((عَن ابْنِ جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا يَقُولا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ وَيَقُولُ لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ))

أيها الإخوة الكرام : الحج عبودية لله عز وجل ، عبودية لخالق السماوات والأرض رب العالمين إن عبودية الإنسان لله تقتضي أن يبتعد عن التعالي على أخيه الإنسان ففي المسجد مثلاً ؛ من يصلي أولاً في أول صف هو الذي يأتي أولاً ، لا طبقية ولا رتب ولا شيء من هذا القبيل فالذي يصل أولاً يصلي في الصف الأول ، ومن يأتي متأخراً يصلي في الصف الأخير مهما تكن رتبته والذي يحدث أنك تجد من كان في مجتمعه في الصف الأخير قد تجده في المسجد في الصف الأول ، إن هذه المساواة في العبودية لله عز وجل تخرج الإنسان عن التعالي وتجعله يتواضع بحيث يحسن معاملة جميع المؤمنين هذا في بيئة المسجد ، ولكن الله جل جلاله أراد أن يجعل هذه المساواة وهذا الخضوع ليس في بيئة محدودة ولكن في نطاق عالمي ، وفي بيئة عالمية تجمع كل أجناس البشر ، نتميز كما نشاء في بلادنا ، وبين أهلينا ، ولكن عندما نصل إلى بيت الله الحرام لابد من أن نقف جميعاً أمام الله متساوين في لباسنا ، وفي طوافنا ، وفي سعينا ، وفي وقوفنا ، وفي دعائنا ، وفي ابتهالنا .

أيها الإخوة الكرام : الحج أدب رفيع مع عناصر الكون كلها ، فمن لوازم العبودية لله عز وجل أن الحج ألزم الحاج بالتأدب مع كل أجناس الكون ، مع الجماد ، في تقبيل الحجر الأسود ، ومع النبات في النهي عن قطعه ، ومع الحيوان في تحريم صيده ، ومع الإنسان في حرمة التشاجر معه ومجادلته.

البكاء في بيت الله الحرام من لوازم العبودية لله في الحج ، إن الحاج حينما يدخل بيت الله الحرام ويطوف حول الكعبة المشرفة تنهمر عيناه بالدموع هذا البكاء تعبير عن الندم على ما سبق من ذنوب وتضرع إلى الله عز وجل أن يقبل توبته وأن يعفو عنه ، هذا البكاء تعبير عن ترك العجب والكبرياء ، والتذلل لخالق الأرض والسماء .

هذا البكاء تعبير عن أن الحاج تخلى عن كل شيء وخضع إلى الله في كل شيء ، ومع أن البكاء في الأصل مظهر من مظاهر الضعف والحزن فإنه في الحج ليس كذلك ، هذا البكاء في الحج إحساس عميق بأن السعادة الحقيقية هي في القرب من الله تعالى .. لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف .

أيها الإخوة الكرام : في بيت الله الحرام آيات بينات ، مقام إبراهيم ، أي أن هناك آيات كثيرة في مقام إبراهيم ، من هذه الآيات أن إبراهيم عليه السلام كان أمة واحدة فقد اجتمعت فيه من خصال الخير ما لا تجتمع إلا في أمة ، تقول هذا أمين وهذا صادق وهذا كريم ، ولكن خصال الخير كلها مجتمعة في هذا النبي عليه الكريم ، قال تعالى:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠))

(سورة النحل)

ما معنى قول الله عز وجل : (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) يعني هناك آيات كثيرة في مقام إبراهيم، أول آية أنه كان أمة وحده اجتمعت فيه كل خصال الخير.

أيها الأخوة : ومن هذه مقولة أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم معصومة بمجموعها بينما النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده .

ومن هذه الآيات البينات أن حجم الإنسان عند الله بحجم عمله ، وأن إبراهيم عليه السلام من حيث العمل الذي أجراه الله على يديه عمله يساوي عمل أمة فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك ، وهذا يذكرنا بقول الله عز وجل يخاطب النبي الحبيب عليه أتم الصلاة والسلام:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧))

(سورة الأنبياء)

من هذه الآيات البينات أن إبراهيم عليه السلام أقبل على بناء الكعبة وإعلائها تنفيذاً لأمر الله تعالى بإتقان شديد ، والإتقان في تنفيذ الأمر دليل قطعي على محبة الآمر ، وهذا يذكرنا بقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا وَإِنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ وَكَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلا أَثْبَتَهُ))

ومن هذه الآيات البينات في مقام إبراهيم أن الله خلق الكون وجعله يعمل بالأسباب ، فالذي يأخذ بالأسباب ويتقنها ، تعطيه هذه الأسباب النتائج مؤمناً كان أو كافراً ، لكن هناك حقيقة كبرى ، هي أن خالق الأسباب فوق الأسباب بل هو مسببها ، إن شاء أعطاك وإن شاء منعك وأنت آخذ بالسبب ، فالسبب أيها الإخوة في علم التوحيد لا يخلق النتيجة لذلك لابد من أن يكون الإنسان منتبهاً ، فإذا غفل عن هذه الحقيقة أدبه الله بإحدى طريقتين أو بأكثر ، بتعطيل فاعلية الأسباب ، أو بخلق نتائج مدهشة من دون أسباب ، لأنه أله الأسباب ، وذكرت في خطبة سابقة أن أهل الغرب أخذوا

بالأسباب وألهوها فأشركوا ، وأن أهل الشرق لم يأخذوا بها فتخلفوا وعصوا ، والحقيقة أن تأخذ بها وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

سيدنا إبراهيم عليه السلام .. لازلنا في قوله تعالى (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) ما معنى مقام إبراهيم ؛ سيدنا إبراهيم عليه السلام جاء بزوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى موقع الكعبة الذي لا زرع فيه ولا ماء ولا وسائل للحياة في هذا المكان الخالي من وسائل بقاء الحياة ، ترك إبراهيم زوجته وابنه الرضيع وانطلق راجعاً ، فأمسكت هاجر بزمام دابته وقالت له يا إبراهيم لمن تتركنا فلم يجب ، قالت : آلله أمرك بهذا ، قال نعم ، قالت : إذاً لن يضيعنا.

أحياناً الإنسان يتوكل على الله وبين يديه كل أسباب السلامة ، لكن هذا التوكل المطلق ، ليس بيدها ولا بيده شيء من أسباب بقاء الحياة ، في وادٍ غير ذي زرع ، لا ماء ولا طعام ولا شجر ، إذاً لن يضيعنا ، هذه قضية إيمانية كبرى ، وهي أن الله إذا أمرك بأمر فبدى لك أنه يضر بمصالحك أو يحول بينك وبين ما تتمناه فاعلم علم اليقين أن الآمر ضامن الآمر هو الله الذي بيده كل شيء ، فإذا أمرك بأمر وتوهمت أن هذا الأمر يضر بمصلحتك أو يحول بينك وبين منفعة ، لا تتردد في تنفيذ الأمر لأن الله ضامن.

أيها الإخوة الكرام : العاقبة للمؤمن ، والدنيا تأتيه وهي راغمة

((فمن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه وشتت عليه شمله ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له ، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة))

((وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني ، أعرف ذلك من نيته ، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه ، وقطعت أسباب السماء بين يديه ، وما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي ، أعرف ذلك من نيته ، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً))

من هذه الآيات البينات في مقام إبراهيم عليه السلام أنه أمر أن يذبح ابنه إسماعيل وهو في سن الشباب ، قال تعالى :

(فلما بلغ معه السعي)

تصور ابناً ربيته ، إلى أن أصبح شاباً يافعاً ، أعانك في عملك ، وحمل عنك عبئاً كبيراً ، وهو نبي، يقول الله لك اذبحه ، هذا أمر ترتفع فيه نسبة العبودية إلى القمة ، وكلما اتضحت حكمة الأمر ومنفعته لك ضعفت فيه العبودية ، وكلما غابت عنك حكمته ، وغابت عنك منفعتك فيه ارتفع في هذا الأمر نسبة العبودية ، فهو من أعلى الأوامر الإلهية التي انصاع لها هذا النبي الكريم.

أيها الإخوة الكرام : لم يتباطأ في التنفيذ ، لم يدعُ الله أن يرحم شيخوخته ، أو أن يعفو عن ابنه وعلى الرغم مما يبدو ظاهراً من قسوة الابتلاء فقد شرع في التنفيذ.

أن يُقدم الإنسان على ذبح ابنه الوحيد الشاب ، والأب شيخ كبير والزوجة عاقر لا تنجب ، إن من يفعل هذا يحب الله حباً يفوق الدنيا وما فيها ، حباً أعلى من كل حب ، يقول عليه الصلاة والسلام:
عَنْ أَنَسٍ قَالَ

((قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))

أيها الإخوة الكرام : قد يتوهم الإنسان أحياناً أنه يحب الله ورسوله ، هذا الحب لا يظهر في الموافقات يظهر في التعارضات ، حينما ترى مصلحتك في مخالفة هذا الأمر ، وحينما يثبت لك أن هذا أمر الله عز وجل ، فإذا بادرت إلى تنفيذ أمر الله ، ووضعت تحت قدمك مصلحتك ، ومنفعتك ، فأنت مؤمن ورب الكعبة ، وأنت تحب الله ورسوله ، وهناك امتحانات كثيرة ، الإنسان لا يظهر في الموافقات ، قد تطلب الزواج والزواج سنة ، تقول أنا أطيع الله عز وجل ، طبعاً هذه طاعة لله ولكن تتوافق مع حاجاتك ومع فطرتك ومع رغباتك ، أما حينما تتعارض مصلحتك المادية مع نص قرآني، مع نص صحيح لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتؤثر طاعة الله وتلقي بمصلحتك عرض الطريق ، عندئذ تكون مؤمن ورب الكعبة.

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

أيها الإخوة الكرام :

من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً..
إذا كلفك مساوٍ لك ، ند لك ، إذا أمرك بأمر تسأله لماذا ، لماذا أفعل هذا ؟ ولكن إذا أمرك الله جل جلاله ، خالق السماوات والأرض العليم الحكيم الرحمن الرحيم ، إذا أمرك الله أمراً ، يبغي أن تأخذ أمره بالطاعة بمقدار ثقتك بعلمه ، ورحمته وحكمته ، الله جل جلاله لا يريد لنا إلا الخير ، ولا يقضي لنا إلا بالخير ، وكلما قصر الفكر البشري عن إدراك الخير كان الخير أضخم وأكبر ، لأن الخير في هذه الحالات أكبر من أن يدركه الإنسان بعقله القاصر ، قال تعالى :

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة آية ٢١٦)

هذه الدروس من مقام إبراهيم ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم

والله جل جلاله حينما يخاطب خلقه لا يخاطبهم بالتكليف ، افعلوا ولا تفعلوا إنما يدعوهم إلى الإيمان به ، فمن آمن به كلفه ، لذلك تجد كل تكليف مسبوقاً في القرآن الكريم بقوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا)

لأن الإنسان إذا دخل مع الله بعقد إيماني فقد آمن إيماناً قطعياً أن لله الكمال المطلق ، فإذا تلقيت أمر الله عز وجل ولم تفهمه نفذته .. فلا بد من أن تجد الراحة في قلبك والصفاء في نفسك ، وحينما تقبل على تنفيذ الأمر لثقتك بعلمه وحكمته ورحمته يكشف لك الحكمة منه ، فتعود بثمرتين ، ثواب العابد وفهم العارف.

أيها الإخوة الكرام : هذه بعض اللمحات من مقام سيدنا إبراهيم

الحج رحلة إلى الله ، عبادة بدنية ، ومالية ، وشعائرية ، تؤدى في أمكنة مخصوصة ، وفي أحوال مخصوصة ، وفي أزمنة مخصوصة .

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام : بيت الله الحرام مركز لدائرة تمر بأطراف قارات العالمين القديم والجديد بيت الله الحرام الكعبة المشرفة ، هي الوسط الهندسي لليابسة مركز لدائرة تمر بأطراف قارات العالمين القديم والجديد ، والأرض اليابسة موزعة حول بيت الله الحرام بصورة منتظمة.

هذه الحقيقة أكدتها أحدث الدراسات العلمية بمركز البحوث الفلكية في أحد الأقطار العربية الشقيقة وذلك باستخدام الحاسب الآلي في حسابات المسافات بين مكة المكرمة وعدد من المدن التي تقع في أطراف العالمين القديم والحديث ، فقد ثبت بعد الحسابات التي أجريت على الحاسب الآلي أن أقصى أطراف الأرض في أفريقيا وأوربا وآسيا ، تقع على مسافة ثمانية آلاف كيلو متر من مكة المكرمة ، أوربا آسيا وأفريقيا ، هذه قارات العالم القديم ، أطرفها ، المدن التي على أطرافها ، بُعدها عن مكة المكرمة ثمانية آلاف كيلو متر.

فمكة تقع في وسط العالم القديم ، وأما بالنسبة لأطراف العالم الجديد وهو قارة أمريكا شمالاً وجنوباً، وأستراليا والقارة المتجمدة الجنوبية ، جميع أطراف هذه القارات الثلاث تقع على مسافة ثلاثة عشر ألف كيلو متر من مكة المكرمة ، ولا يقابل مكة المكرمة على سطح الأرض من الطرف الآخر يابسة ، بل بحر ، إنه المحيط الهادي إذاً بحسب هذه الدراسة التي أجريت على الحاسب الآلي يتبين أن بيت الله الحرام هو المركز الهندسي لليابسة . قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦))

(سورة آل عمران)

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٥٣ : خ١ - الحج (حقيقة الحج) ، خ٢ - حرب المياه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٤-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الاولى

أيها الإخوة الكرام: إن الحج الفريضة البدنية المالية الشعائرية، التي تؤدى في زمن مخصوص وفي مكان مخصوص، هي في حقيقتها رحلة قلوب، لا رحلة قوالب، هي في حقيقتها رحلة نفوس لا رحلة أبدان، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

[سورة إبراهيم]

رحلة أفئدة لا رحلة أبدان، رحلة نفوس لا رحلة أشباح.

أيها الإخوة الكرام، مما يؤكد هذا المعنى أيضاً ؛ أن الله جل جلاله يقول:

(لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة الحج]

ويؤكد هذا المعنى أيضاً، قوله تعالى:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج]

قال بعض العلماء، أداء الشعيرة شيء، وتعظيمها شيء آخر، من تعظيمها أن تؤديَها كما فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن تعظيمها أن تؤديها على شوق وطيب نفس، لا على تأفف وتململ.

ومن تعظيم شعائر الله جل جلاله، أن تؤديها أيها الحاج، وتتمنى أن تؤديها مرات ومرات، لا أن تقول لن أعيد هذا الحج، فأداء الشعيرة شيء وتعظيمها شيء آخر.

أيها الإخوة الكرام: إن المشاعر التي يستشعرها الحاج وهو في مشاعر الحج، هي بوتقة ينصهر فيها قلب المؤمن حتى يتخلص من أدرانه عوداً به إلى يوم ولدته أمه، نقي القلب، صافي النفس، تلك هي الغاية الكبرى من الحج، أن تعود كيوم ولدتك أمك.

ورد في الأثر أن أحد الأنبياء سأله ربه جل جلاله، قال: يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك، قال أحب عبادي إليَّ، تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلى أحد بسوءٍ، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك، قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي ".

أيها الإخوة الكرام: ربنا جل جلاله يقول:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة]

من أجمل ما قال المفسرون حول هذه الآية، أن الإنسان بحج بيت الله الحرام، وتعظيم شعائر الله كما بينت قبل قليل، وعقدِ العزم على طاعته واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، تقوم مصلحة المسلم في الدنيا والآخرة، يقول الله عز وجل:

(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن]

أيُعقل أن يُعلَّمَ الإنسان القرآن قبل أن يُخلق، لكن العلماء قالوا هذا ترتيب رتبي، بمعنى أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه فإذا حج المسلم بيت الله الحرام، واصطلح مع الله، وتاب إليه واستغفره، وعقد العزم على طاعته في شؤون حياته كلها، بعد الحج فقد قامت مصالحة الدنيوية والأخروية، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء]

وقال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال]

أي ما دامت سنتك في حياتهم مثبتة " ما كان الله ليعذبهم، وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون "، فإذا أتوا بيت الله الحرام ليستغفروا ذنوبهم، الله سبحانه وتعالى لا يعذبهم، وحينما يعلم المسلم أن الله رحيم به، شرع له المنهج ليسعد في الدنيا والآخرة، عندئذ يعلم أن الله أعلم بما يسعده ويحقق مصالحه في الدنيا والآخرة من أية جهة أخرى.

أيها الإخوة الكرام: يخلع الحاج ملابسة المَخيطة والمُحيطة، والتي تعبر بشكل أو بآخر عن دنياه، عن حجمه المالي، عن مرتبته الاجتماعية، بل عن درجته العلمية أحياناً، هذه الملابس المَخيطة والمحيطة، قد تعبر عن نوع انتمائه، إلى أمةٍ، إلى شعبٍ، إلى قبيلةٍ، إلى عشيرةٍ، فلو بقي المسلم

بلباسه لبقي ملتصقاً بقبيلته، بطبقته، أو مَنْ على شاكلته، ولكن الإسلام لحكمةٍ كبيرة شرع اللون الواحد، والتصميم الواحد، حتى تختفي الهوية الخاصة، ويبدو البشر كياناً واحداً، ومن ثم تتعامل معهم بدافع إنساني خالص، بعد ما ذابت الهويات الإقليمية والانتماءات المتعددة، ليبرز معنىً واحداً، هو الإنسان على فطرته السليمة في مواجهة خالقه الواحد الديان.

بعد أن يخلع الحاج ثيابه المَخيطة والمحيطة، ويرتدي ثياب الإحرام الموحدة، يدخل في أفق الممنوعات، ففي باطنه ـ وهذا حكم خاص بالحــرم ـ ففي باطنه:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة الحج]

إن الله لا يحاسب إلا على العمل، إلا في بيته الحرام، فمن أراد به أذية على مستوى الإرادة، يحاسب، ويعاقب أشد العقاب، ففي باطنه ممنوع أن يفكر في شيء يؤذي الحرم، ومع الناس، فلا رفث.. أية مقدمات تتعلق بالمرأة، ولو الحديث عنها، " فلا رفث، ولا فسوق ولا جدال في الحج " ومع الحيوان، فلا يُصطاد، ومع النبات فلا يُقطع، ومع الحجر فيُقبَّل، هذه الممنوعات التي هي من لوازم الإحرام، بل حتى مع قاتل أبيه، فإن عليه أن يقاوم مشاعر الغيظ الفوارة، ليكون الحج سلاماً دائماً قال تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران]

وفوق ذلك ففي الإنسان غريزة حب الاستطلاع، فهو في أصل طبعه لا يقبل على عمل إلا إذا عرف حكمته، ولأنه يحب نفسه حباً جماً وهذا مركب في أصل طبعه، فهو لا يشتاق إلا من يحقق مصلحة له عاجلة وظاهرة، ولأن الحج بهذه الممنوعات، وبهذه المناسك التي لا تظهر حكمتها للوهلة الأولى، لأن الحج بهذه الممنوعات وهذه المناسك، لا يلبي هذه الحاجة الفطرية، والفكرية، والمادية في الإنسان لذلك يحتاج الحاج إلى درجة عالية من الإيمان بخالق الأرض والسماوات. ويحتاج إلى درجة عالية من العبودية لله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام: يقول عمر، عملاق الإسلام، رضي الله عنه، تفقهوا قبل أن تحجوا فالعبادة أيها الإخوة في حقيقتها تعني خروج العبد من مراده إلى مراد ربه، وهذا يبدوا جلياً واضحاً كما في الحج.

أيها الإخوة الكرام، لقد حطَّم النبي عليه الصلاة والسلام، الأحجار والأصنام التي حول الكعبة، ثم

قال: " عظموا الكعبة والحجر الأسود " فإذا سألتك نفسك عن هذه المفارقة، أجبها، إنك لا تعظم الكعبة والحجر لذاتيهما، ولكنك تعظم لما ترمز إليهما، من أنها بيت الله، ومن أن هذا الحجر يمين الله، فمن فاوضه، فقد فاوض كفَّ الرحمن.

أيها الإخوة الكرام: يتساءل بعض العلماء، هل مع هذا التسليم المطلق، بصحة ما أمرنا به، هل يُعطلُ علم العقل ؟

فأجاب بعضهم ؛ " لا " ولكن لن يكون العقل حكَماً على النقل، ولكنه مسموح للعقل أن يفهم حكمة النقل، مسموح له أن يطير في مجال الجوّي الإسلامي، مسموح له أن يسبح في المياه الإقليمية الإسلامية مسموح له أن يسبح ولا يشطح.

أيها الإخوة الكرام: ويأتي موقف عرفة، موقف عجيب، يغطيه نبات بشري، مختلف ألوانه، أغصانه تلك الأيدي المرفوعة بالدعاء إلى رب الأرض والسماء وفي عرفات، وهذه نقطة مهمة جداً، يرى الحاج، بين يديه، صورةً مصغَّرةً، للمحشر العظيم يوم القيامة، وعليه أن يستعدَّ له منذ الآن لأن رحلة الحج، يعود منها إلى وطنه، ولكن المحشر العظيم يوم القيامة لا يعود منها إلى وطنه، إنها رحلة قبل الأخيرة، استعداداً للرحلة الأخيرة الناس جميعاً بلباس موحد، وبدعاء موحد، وبابتهال كلهم ضعاف كلهم فرادى، نموذج مصغَّر، للرحلة الأخيرة، كانت قبل الأخيرة كي نستعدَّ للرحلة الأخيرة.

وفي الرجم بعض الأسرار ؛ فلنبدأ بالأكبر في اليوم الأول، وقال بعض العلماء هذا تكثيف عنيف في لغة العسكريين، ابدأ بمواجهة الأكبر تجمع كل قواك لتهزم من وراءه من جندي، وكان عليه الصلاة والسلام يخص الجمرتين الأولى والوسطى بتطويل الوقوف عندها للدعاء، إنها ثلاث جمرات، وبينهما مسافة، ليظل المؤمن واعياً تماماً، لا ينام حتى لا يسقط سلاحه، بينما العدو منه على مرمى حجر، وعليه أن يعلم أن المعركة مع الشيطان متعددة المواقع، ومستمرة وممتدة مع عمره، لذلك ينبغي أن تُرمى ثلاث جمرات في ثلاثة أيام، لأن المعركة متعددة المواقع ومستمرة مع طول العمر.

يا أيها الإخوة الكرام: يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: لا يحصل إرغام أنف الشيطان في أثناء رجمه إلا بطاعتك للرحمن، ومن عاد بعد الحج إلى ما كان عليه من المعاصي والآثام، فليعلم علم اليقين، أن الشيطان هو الذي رَجَمه.

أيها الإخوة الكرام: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن الله عز وجل يباهي الملائكة بأهل عرفات، يقول: انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً، اشهدوا أني غفرت لهم ".

ومن وقف في عرفات فلم يغلب على ظنه أن الله قد غفر له فلا حج له، من أروع ما في هذا المعنى، أن الله يغفر للحاج، ومبالغة في إكرامه، يشعره أنه قد غفر له، يلقي في روعه أنه قد غفر له، لذلك يُعد شعور الحاج الصادق بأن الله قد غفر له، وأنه عاد كيوم ولدته أمه هذا شعور واضح، واضح جداً هو من منِّ الله وكرمه على الحاج.

أيها الإخوة الكرام: صعد النبي عليه الصلاة والسلام منبره ذات يوم، فقال آمين، فقالوا يا رسول الله على ما أمنت، قال: جائني جبريل فقال لي، رغم أنف عبد أدرك رمضان فلم يغفر له، إن لم يغفر له فمتى ".

فهذا الحاج الذي يقف في عرفات، وقد جاء من أقصى الدنيا، وتجشم مشاق السفر، وتحمل أعباءه، ونفقاته، إن لم يُغفر له في عرفات فمتى يُغفر له ؟..

الإنسان أيها الإخوة على مدى العمر يلحُّ في طلب المغفرة، ألا وقد آن أوانها، ألا وقد حان قطافها. فيتقدم وعلى مدى أيام الحج، ليعود من بعدها كما ولدته أمه، طاهراً من العيوب، نقياً من الذنوب.. يالها من نهاية أيها الإخوة تُفتدى بملء الأرض ذهباً، لو كان هذا الذهب ملك يمينك. ويا أيها الإخوة الكرام: المؤمن بعد أن يحج بيت الله الحرام، يطمئنه الواحد الديان أنه قد غفر له، وأنه قد فتح معه صفحة جديدة، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلا الْجَنَّةُ قَالَ وَفِي الْبَاب عَنْ عُمَرَ وَعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُبْشِيٍّ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَجَابِرٍ قَالَ أَبو عِيسَى حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ))

[أخرجه الترمذي في الحج، والنسائي في المناسك وابن ماجة، وأحمد]

وعن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما يفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس بالحجة المبرورة ثواب إلا الجنة))

لقد طار بعض العلماء في سماء الحج، وسبحوا في بحوره الواسعة بل غاصوا فيها، فكانت لهم لمحات وضيئة، قالوا عن الطواف ؛ كأن الإسلام حجر ألقي فوق محيط، فتكونت منه دوائر حوله

متتابعة متنامية وهكذا بيت الله الحرام، فالطواف حول البيت طواف المحب حول محبوبه، توثيق للعهد بين العبد وربه، تعبير عن حب عميق لرمز التوحيد.

وبالمناسبة، الكعبة التي في بيت الله الحرام، هي بالحسابات الرياضية المعقدة، وعن طريق الحاسب الإلكتروني، هي وسط هندسي للعالمين القديم والجديد، فلو أخذنا العالم القديم بقارة آسيا وأفريقيا وأوربا أخذنا أطراف هذه القارات، ومددنا بينها محاور، لالتقت هذه المحاور كلها في الكعبة، فبين الكعبة وبين أقصى نقطة في أي مكان في العالم القديم ثمانية آلاف كيلو متر.

لو أخذنا العالم الجديد أمريكا الشمالية والجنوبية وأقيانوسيا، والقارة المتجمدة الجنوبية، وأخذنا أطراف هذه القارات، ومددنا بينها محاور لالتقت هذه المحاور في الكعبة المشرفة، فالكعبة تبتعد عن أي نقطة في العالم الجديد ثلاث عشرة ألف كيلو متر، فالله عز وجل جعل البيت الحرام وسطاً هندسياً للعالمين القديم والجديد.

فالطواف حول هذا البيت طواف الحب لمحبوبة، طواف التوثيق توثيق العهد بين العبد وربه، طواف التعبير عن حب عميق لرمز التوحيد.

أيها الإخوة الكرام، لقد استقطب البيت الحرام المؤمنين من قارات الدنيا الخمس، فجاؤوا نوعيات مختلفة، تحمل كل جماعة هموم مجتمعها، جاؤوا ليعودوا في البعد الزماني إلى ماضي هذه الأمة المشرق، وفي البعد المكاني إلى الأرض الذي نزل فيها الوحي.

جاؤوا ليعودوا إلى المكان الذي ضم هذه الرسالة الخالدة، للتزود بالدروس المفيدة التي تعينهم على صلاح دنياهم وفق منهج ربهم وصلاح دينهم الذي هو عصمة أمرهم، قال تعالى:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة]

لا تقوم مصالحهم الدنيوية، وفق منهج الله، ولا مصالحهم الأخروية إلا إذا عظموا هذا البيت واصطلحوا مع الله، وأقاموا منهجه في الأرض.

ففي زيارته، وتعظيمه، والتزود من معينه، قيام مصالح المسلمين في دنياهم وأخراهم.

أيها الإخوة الكرام:

لا يُعقل ولا يُقبل أن تُؤدى هذه العبادة الجليلة أداءً بعيداً عن مقاصدها ونتائجها.

لا يُعقل ولا يُقبل أن يعود الحاج من أداء هذه الفريضة كما ذهب.

لا يُعقل ولا يقبل أن يُوجد الحاج في المشاعر المقدسة دون أن يشعر بأية مشاعر مقدسة.

لا يعقل ولا يقبل أن يتحرى الحاج سنة أو مستحباً، ويرتكب من أجلها معصية، أو أن يتجاوز فريضة.

لا يُعقل ولا يُقبل أن يذهب الحاج إلى بيت الله الحرام قبل أن يتفقه بأركان الحج، وسننه ومستحباته، وصفة حجة النبي عليه الصلاة والسلام، وما ينبغي أن تكون عليه أخلاق الحاج.

لا يُعقل ولا يُقبل أن يحدثك الحاج عن كل شيء في الحج إلا الحج عن المواصلات، وعن خيامه في عرفات، وعن طعامه، وعن شرابه وعن الماء البارد، وعن الأصوات، وعن الأبنية الشامخة، وعن إقلاع الطائرة وعن نزول الطائرة، يحدثك عن كل شيء، إلا الحج.

ماذا شعر وهو يطوف ؟

ماذا شعر وهو يسعى ؟

كيف عاهد الله في عرفات ؟

ماذا ألقي في روعه ؟

هذا لا يحدثك عنه أبداً...

لا يُعقل ولا يقبل أن يرمي الحاج الجمرات تعبيراً عن معاداته للشيطان، ويعود إلى بلده ليكون ألعوبة بين يديه.

لا يحصل إرغام أنف الشيطان إلا بطاعة الرحمن.

لا يُعقل ولا يُقبل أن يقتصر أمر الله في هذه الفريضة على أن يأتي الحاج من بلاد بعيدة ليجلس في المشاعر المقدسة، يأكل وينام ويتكلم في شؤون الدنيا، إن أمر الله في هذه العبادة ليس كذلك، وهو أعظم وأجل من أن يكون كذلك، أن تأتي إليه من بلاد بعيدة، لتحقق وجودك المادي في مكان، تمضي هذا الوقت في الطعام والنوم والحديث في الدنيا ليس هذا هو الحج، وليست هذه العبادة العظيمة التي تقوم بها مصالح المسلمين في دنياهم وأخراهم..

أيها الإخوة الكرام:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ يَعْنِي الْفَرِيضَةَ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ))

[أخرجه أحمد في مسند بني هاشم]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ عَنْ سَيَّارٍ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَهُ))

[أخرجه مسلم في كتاب الحج والترمذي وأحمد والدارمي]

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللَّهِ إِنْ دَعَوْهُ أَجَابَهُمْ وَإِنِ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ))

هذه ميزة لا تُقدر بثمن، أن تكون مُجاب الدعوة

[أخرجه ابن ماجة في المناسك]

من مات ولم يجاهد، ولم يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق، فإن لم يُتح للمسلم الجهاد القتالي، فقد أُتيح له جهاد النفس والهوى، أتيح له الجهاد الدعوي، والحج نوع من الجهاد، وإليكم الدليل:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ جِهَادُ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْمَرْأَةِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ))

[أخرجه النسائي في المناسك]

وفي حديث آخر:

((عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ))

[أخرجه ابن ماجة وأحمد في المناسك]

وفي حديث ثالث:

((عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ قَالَ نَعَمْ عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ))

[أخرجه ابن ماجة وأحمد في المناسك]

أيها الإخوة الكرام: بعض الصحابة يقول: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ فَبَكَى طَوِيلاً وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ يَا أَبَتَاهُ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَذَا أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَذَا قَالَ فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلاثٍ لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنِّي وَلا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الإِسْلامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ فَبَسَطَ يَمِينَهُ قَالَ فَقَبَضْتُ يَدِي قَالَ مَا لَكَ يَا عَمْرُو قَالَ قُلْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ قَالَ تَشْتَرِطُ بِمَاذَا قُلْتُ، أَنْ يُغْفَرَ لِي قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ

تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلالاً لَهُ وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ لأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ وَلَا نَارٌ فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي ".

[أخرجه مسلم]

من هذه القصة نستفيد، " أما علمت أن الحج يهدم ما كان قبله ".

أيها الإخوة الكرام: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

***

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، في المدينة المنورة، وفي صحيفة تصدر هناك قرأت الخبر التالي:

" أعلمت وكالة الفضاء الأوربية، أن المرصد الفضاء الأوربي العامل بالأشعة ما دون الحمراء رصد غيمة من البخار، في الفضاء الخارجي يمكن لها أن تملأ محيطات العالم ستين مرةً، في أربعٍ وعشرين ساعة.

وعلق أحد علماء الفلك، في جامعة في أمريكا على هذا الخبر، أن المرصد عثر على غيوم للبخار في أكثر من مكان في الكون، إلا أن هذه الغيمة التي اكتشفها مؤخراً، تُعتبر مصنعاً هائلاً لبخار الماء يمكنها أن تنتج من الماء في يوم واحد ما يكفي لملئ جميع محيطات العالم بالماء العذب ستين مرة، وهذا مصداق قول الله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

[سورة الحجر]

فالجاهلون والشاردون، يخوفون أهل الأرض، مرةً بنقص الغذاء ومرةً بنقص الماء، فتارةً يجعلون هذا العام حرب نفط، وفي عام آخر حرب قمح، ونحن الآن نتحدث عن حرب المياه في العالم، وفاتهم أن تقنين الله عز وجل هو تقنين تأديب لا تقنين عجز، هذا ينبغي أن يكون واضحاً لديكم قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

[سورة الحجر]

غيمة واحدة تملأ محيطات العالم بالماء العذب ستين مرة في يوم واحد تقنين الله عز وجل تقنين تأديب لا تقنين عجز.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٥٤ : خ١ -إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، خ٢ - الحمام الزاجل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٤-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، متابعة للخطبة السابقة حول الحج وحول مناسك الحج، بينت لكم أن الإنسان حينما يرمي الجمار يعلن عن عداوته للشيطان، وأنه لا يحصل إرغام أنف الشيطان إلا بطاعة الرحمن، فمن عاد من الحج إلى ما كان عليه قبل الحج فإن الشيطان هو الذي رجمه.
الله جل جلاله يحدثنا عن هذا العدو المبين، يقول ربنا جل جلاله:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧))

(سورة الأعراف)

(لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

قال علماء التفسير:

(لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

والقاعد على الشيء ملازم له، وهناك حكمة بالغة من فعل الشيطان ؛ فعل الشيطان شر لكنه في النهاية موظف للخير المطلق لأن الأمر كله بيد الله.

ابن عباس يقول:

(لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

لأقعدن لهم دينك القويم، وابن مسعود يقول:

(لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

لأقعدن لهم كتابك، وجابر يقول:

(لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

أي الإسلام، أبعدهم عن الإسلام، ومجاهد يقول:

(لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

هو الحق.

أيها الإخوة الكرام، معنى واحد يجمع كل هذه التفسيرات،

(لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

لأقعدن لهم الطريق الموصل إليك، ما من طريق خيرٍ إلا والشيطان قاعد عليه، يقطعه على السالك.. الجنة لها ثمن، قال تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢))

(سورة آل عمران)

الآية دقيقة جداً،

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

قال ابن عباس: " من بين أيديهم من قبل الدنيا، يزينها لهم، يغريهم بها، يحببها إليهم يعطيهم فيها طول الأمل،

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

قال ابن عباس: من خلفهم أي أشككهم في الآخرة أقللها في أعينهم.

الإمام الحسن يقول: " من قبل الآخرة، من بين أيديهم من قبل الدنيا ومن خلفهم من قبل الآخرة، تكذيباً بالبعث والجنة والنار ".

الإمام مجاهد يقول:

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

من حيث يبصرون، شهوات مرئية أمامهم، محسوسة، يرونها بأعينهم، يسمعونها بآذانهم، يلمسونها بأيديهم "،

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

من حيث لا يبصرون، الآخرة وعد من الله عز وجل، وعد، فالوعد: خبر يصل إليك لكنك لا تبصره، فالذي بين أيديهم، الذي يدركونه بحواسهم يزينها لهم، والتي جاءهم الخبر عنها يزهدهم فيها.

هذا معنى:

(لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

من قبل دنياهم أزينها لهم، أشهيها لهم، من قبل الآخرة أباعدهم عنها.

أيها الإخوة الكرام، بعض العلماء المعاصرين قال: " من بين أيديهم ؛ الحداثة، العلم العلمنة، التقدم، يزين لهم الحياة العصرية، على ما فيها من معاصي وآثام، على ما في من شرود وانحراف وفجور

"، الحياة العصرية عصر العلم، عصر الأجهزة عصر الفضاء، عصر الاتصالات على ما فيه من فحش وانحراف، وانكماش يزينها لهم.

وأما من خلفهم التقاليد والعادات، كل شيء ورثناه عن الآباء والأجداد ليس موافقاً للشريعة يزينه لهم، من بين أيديهم الدنيا، ما يبصرون شهوات الدنيا، الحداثة، إذا كانت منحرفة عن منهج الله، التقدم إذا كان نحو الشيطان أو نحو جهنم، الأشياء التي جدت، الأجهزة التي تُبعد عن الله عز وجل يزينها لهم، هذا من بين أيديهم، من خلفهم؛ كل ما ورثناه من عادات وتقاليد مخالفة للشرع مخالفة لمنهج الله القويم.

أما:

(عَنْ أَيْمَانِهِمْ)

قال ابن عباس: " أشبه عليهم أمر دينهم، أشككهم بالحق، أحبط أعمالهم، أشككهم بأعمالهم الصالحة، أضعهم في الوسواس، أشككهم في عباداتهم، أقلل في نظرهم إيمانهم، ألقي في روعهم، أوسوس لهم القضية الجبرية، الشقي شقي والسعيد سعيد فلمَ العمل "، هذا من أيمانهم.

من جهة الدين، أقيم الشبهات حول الدين، آتي بالفروع فأجعلها أصولاً، آتي بالأصول فأجعلها ديناً، أفرق بينهم، أجعلهم شيعاً وأحزاباً وفرقاً، ألقي بينهم العداوة والبغضاء.. المسلمون ما من وقع هم في أشد الحاجة إلى التعاون كهذا الوقت ومع ذلك كلٌ يطعن بالآخر، كلٌ يقلل من قيمة الآخر، كلٌ يسفه الآخر، كلٌ يكفر الآخر، كلٌ يتهم الآخر.. من فعل الشيطان.

(لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

من جهة الدين، أبتدع لهم في الدين بدع ما أنزل الله بها من سلطان، أبعدهم عن جوهر الدين، أجعل الدين عندهم طقوساً، أجعل الدين عندهم تراثاً أجعل الدين عندهم غناءً وزينة، طرباً وأغانٍ، حفلات، فلكلور، هذا هو الدين، فرِّغ من مضمونه..

(لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

أزين لهم المعاصي، تحت اسم الفن تحت اسم المسابقات، تحت اسم الحفلات الراقية، أزين لهم المعاصي والآثام والتفلت والزنا ومقدمات الزنا والاختلاط، هذا الذي ذهب إلى بيت الله الحرام، ورمى الجمرة الأولى جمرة العقبة، ثم رمى الجمار الثلاث في أيام ثلاث، يعني عاهد الله عز وجل على عداوة الشيطان، قال تعالى:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦))

(سورة فاطر)

أيها الإخوة الكرام، مرةً ثانية: عن أيمانهم ؛ الخلافات بين المسلمين، عن أيمانهم في الدين، عن أيمانهم التشكيك في عقيدة المسلمين، عن أيمانهم إحباط عمل المؤمن، عن أيمانهم فهم القضاء والقدر على غير ما أراد الله، فهماً مثبطاً، فهماً يُقعدك عن العمل، فهماً يُيئسك من رحمة الله، هذا من فعل الشيطان، عن أيمانهم الفتن بين المؤمنين، التحريش بين المؤمنين أن أجعلهم شيعاً، أن أجعلهم فرقاً، أن أمزقهم، أن ألقي بينهم العداوة والبغضاء.. هذا عن أيمانهم.. التشكيك في العلماء هذا جزء من عمل الشيطان، ما من عالم إلا ويشرح على المنضدة وكأنه من عامة الناس جعل الفروع أصولاً والعداوة من أجلها.

أيها الإخوة الكرام، حينما يؤله الأشخاص، هؤلاء الذين يدعون إلى الله، حينما يعظمون إلى درجة تفوق حد الخيال، وحينما يُعتمد على النصوص الموضوعة والضعيفة، وحينما تخفف التكاليف ؛ الدين مرن، الدين شيء له كيان كان صلباً، فصار لزجاً فصار مائعاً فصار غازاً، يتوافق مع كل شيء مع أي سلوك، كل شيء له فتوى، الدين مرن، ما جعل الله عليكم في الدين من حرج الضرورات تبيح المحظورات، انتهى الدين كلياً، لم يبق من الدين شيء، كل المعاصي والآثام مغطاة بفتاوى ضعيفة هذا من فعل الشيطان،

(لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

يتمتع بصحة جيدة، وله بيت يؤويه، وله زوجة ترضيه، وله أولاد أمامه، وله دخل يكفيه ويشكو، الشكوى ديدنه، والنقد ديدنه، والتبرم ديدنه، والسخط ديدنه، هذه صفة الذي يتبع الشيطان،

(وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت.

أيها الإخوة الكرام، قال بعض العلماء:

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

السيئات يأمرهم بها، ويحثهم عليها، ويزينها بأعينهم "، وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ولم يقل من فوقهم.

الجهات ست يمين وشمال وأمام ووراء وفوق وتحت، لم يقل الله عز وجل: ومن فوقهم، لأن الله من فوقنا جميعاً والطريق إلى الله سالك، والطريق إلى الله مأمون، ولا يستطيع الشيطان أن يقترب من الطريق إلى الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢))

(سورة الحجر)

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢))

(سورة إبراهيم)

وشيء آخر، وقد قال هذا بعض العلماء المعاصرين " ولم يأتهم من تحتهم، لأن من تحتهم طريق العبودية إلى الله "، إذا كنت خاضعاً لله متذللاً إليه، منيباً إليه، تأتيه من ضعفك، تأتيه من جهلك، تأتيه من افتقارك، هذا الطريق آمنٌ أيضاً، طريق العبودية آمن، وطريق الله آمن.

أيها الإخوة الكرام، بعض العلماء يقول " الله عز وجل أنزل عليهم الرحمة من فوقهم فهذا الطريق آمن "، وقتادة يقول: " أيها إنسان أتاك الشيطان من كل جهة غير أنه لم يأت من فوقك، لأنه لا يستطيع ولن يستطيع أن يحول بينك وبين رحمة الله، لا يتبع الشيطان إلا من كان على شاكلة الشيطان ".

بعض العلماء يقول: " لأغوينهم حتى يكذبوا بما تقدم من أمور الأمم السابقة، ومن خلفهم بأمر البعث وعدم إيمانهم به، وعن شمائلهم لأضللنهم فيما يعملون " لقوله تعالى:

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢))

(سورة الحج)

(بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

من بين أيديهم حتى يكذبوا أخبار الأمم السابقة فلا يتعظون بها، من خلفهم من أمر الآخرة، عن أيمانهم وعن شمائلهم أسفه أعمالهم، لأن الله عز وجل جعل العمل من صنع اليدين.

الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسيره يقول: " ذُكرت هذه الوجوه كلها للمبالغة والتوكيد، أي لآتينهم من جميع الجهات من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو غالباً ".

وقال بعض العلماء " الجهات ست، أربع جهات أتي منها الشيطان وجهتان يستحيل أن يأتي منهما الشيطان ؛ جهة العلو وهي الدنو، وجهة الاتصال بالله وهي العلو ".

وقال بعضهم: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، فيقول: لا تخف فأتلو قول الله تعالى:

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢))

(سورة طه)

تقول لا تخف، لا تخف أيها الإنسان، إن الله غفور رحيم، وهذا يقوله معظم الناس المنحرفون، لا تخف إن الله غفور رحيم، فأتلو قول الله تعالى:

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى)

أيضاً:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩))

(سورة الحجر)

وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على أولادي من بعدي.. أولادك يجب أن تكسب المال الوفير لهم، ولو كان حراماً لأنك معذور عندك أولاد فأتلو قوله تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٦))

(سورة هود)

قال الله يوم القيامة: " عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه، قال يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، قال تعالى: ألم تعلم أني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، ويقول لعبد آخر: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه قال: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، قال: أنا الحافظ لأولادك من بعدك ".

أيها الإخوة الكرام: يأتي من خلفي ليخوفني الضيعة على أولادي فأقرأ قوله تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

ويأتي من قبل يميني، يأتيني من قبل النساء، فأقرأ قوله تعالى والعاقبة للمتقين، لمن غض بصره، ولمن عف عن الحرام، ولمن اكتفى بحلال الله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته.

ويأتيني من قبل شمالي، فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ قوله تعالى:

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤))

(سورة سبأ)

أيها الإخوة الكرام: السبل التي يسلكها الشيطان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ من جهة يمينه، وتارةً يأخذ من جهة شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأي سبيل من هذه السبل يسير عليها فإن سلكها في طاعة ثبطه وقطعه وأعاقه وبطَّأه، وإن سلكها في معصية حمل عنه وخدمه وأعانه ومناه. أي طريق، إن سلكت الطريق في طاعة الله، إن أردت المرأة زواجاً زهدك بالزواج، وأغراك بحياة التفلت، إن أردت المعصية زينها لك أية حركة على أي طريق، إن أردت بهذه الحركة طاعة الله عز وجل زهدك فيها، بين لك سلبياتها، وإن أردت المعصية زينها لك.

أيها الإخوة الكرام، زين الشيطان لهم الدنيا حتى آثروها، وزهدهم بالآخرة حتى أعرضوا عنها، ولأضلنهم، ولأمنينهم، لأضلنهم عن الحق، ولأمنينهم بتعويق التوبة، وتأخيرها وقولي لهم لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب.

يقول الإمام الزجاج: " أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون حظهم من الآخرة، مع ضلالهم، وانحرافهم، وفسقهم وفجورهم يمنيهم أن الآخرة لهم، أمنيهم ركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع أمنيهم طول البقاء في نعيم الدنيا، فأطيل لهم الأمل ليؤثروها على الآخرة هذا كله من عمل الشيطان ".

لذلك بعد الوقوف بعرفات، وبعد الصلح مع الله، وبعد العهد على طاعة الله عز وجل، على الحاج أن يرمي الجمار يرمي الجمار ليتخذ الشيطان له عدواً.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ)

يعدهم ويقول: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك وستعلو على أقرانك، وستظفر بأعدائك، والدنيا دول، ستكون لك كما كانت لغيرك، ويطول أمله، ويعده بالحسنى، على شركه ومعاصيه ويمنيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها، فهو يعده بالباطل، ويمنيه المحال، وكم من مسلم كان ضحية الشيطان، كم من مسلم انحرف في سيره إلى الله، بوسوسة الشيطان، كم من عداوة أججها الشيطان، كم مخاصمة دخل بينها الشيطان، الشيطان يلقي بين المؤمنين العداوة والبغضاء، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إن الشيطان يأس أن يعبد في أرضكم، ولكن رضي فما دون ذلك بالتحريش بين المؤمنين))

أيها الإخوة الكرام، النفس والمهينة التي لا قدر لها عند ذاتها تتغذى بوعوده، وتمنيه، النفس المبطلة الخفيفة تتلذذ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة، تفرح بها كما يفرح النساء والصبيان، وتتحرق لها.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إلا غُرُورًا)

قال تعالى:

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦٨))

(سورة البقرة)

يعدكم بالفقر إذا أنفقتم أموالكم في سبيل الله، يأمركم بالفحشاء الفحشاء هنا البخل، هي صفة لموصوف محذوف، فعل فاحش، خُلة فاحشة صفة فاحشة، صفة موصوف محذوف، يأمرهم بالبخل

الفاحش.

وقد قال بعض العلماء: " كل الفحشاء في القرآن هي الزنا إلا في هذا الموضع فهي البخل "،

(يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ)

يأمرهم بالشر ويخوفهم من فعل الخير، وقد قال بعض العلماء: " جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان أنه يخوفه من فعل الخير ويأمره بفعل الشر "، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثُمَّ قَرَأَ [الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ]))

أيها الأخوة الكرام: ختاماً لهذا الموضوع الدقيق، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا به أيها الأخ الكريم، قبل أن تعصي الله عز وجل، عليك أن تتفكر في هذه الدنيا، وحقارتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها وسرعة انقضائها، وأن تتفكر في أهلها، وعشاقها وهم صرعى حولها، قد عذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم مر الشراب، وأضحكتهم قليلاً وأبكتهم كثيراً وطويلاً.

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس عارية جائعة في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

أيها الأخ الكريم، عليك قبل أن تعصي الله عز وجل أن تتفكر في الآخرة، ودوامها وأنها هي الحياة الحقيقية، وهي دار القرار، ومحط الرحال ومنتهى الآمال.

قبل أن تعصي الله عز وجل عليك أن تتفكر في النار وتوقدها واضطرامها، وبعد قعرها، وشدة حرها، وعظيم عذاب أهلها.

عليك أن تتفكر في أهلها وهم في الحميم على وجوههم يُسحبون، وفي النار كالحطب يسجرون. قبل أن تعصي الله عز وجل، عليك أن تتفكر في الجنة، وما أعد الله لأهل طاعته فيها، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من النعيم المفصل الكفيل بأعلى أنواع اللذة من المطاعم والمشارب والملابس والصور، والبهجة والسرور، التي لا يفرط فيها إلا محروم.

قبل أن تعصي الله تفكر أنك ستعيش في هذه الدنيا ستين عاماً أو ثمانين عاماً أو مائة عاماً أو ألف عام، ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟ كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بدمن نزول القبر.

كل ابن أنثى و إن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنــازةً فاعلم بأنك بعدها محمــول

أيها الأخ الكريم، سيبقى الحق اليقين أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، ما هي إلا لمحة بصر والإنسان في القبر وحيد فريد لا مال، ولا أهل، ولا أصحاب. تذكر أيها الأخ الكريم ظلمة القبر ووحدته، وضيقه ووحشته، وهول مطلعه، وشدة ضغطه. تذكر يوم القيامة يوم العرض على الله، عندما تمتلئ القلوب رعباً، وعندما تتبرأ من بنيك، وأمك، وأبيك، وصاحبتك، وأخيك، تذكر تلك المواقف والأهوال.

تذكر إذا وقفت بين يدي الحق المبين، الذي كنت تهرب منه ويدعوك فتصد عنه، وقفت وبيدك صحيفة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها، فبأي لسان تجيب الله حينما يسألك، عن عمرك، وعن شبابك، وعن علمك، وعن عملك، وعن مالك.

بأي قدم تقف بين يديه، وبأي عين تنظر إليه، وبأي قلب تجيب عليه عندما يقول لك: عبدي، استخففت بنظري إليك، جعلتني أهون الناظرين إليك، ألم أحسن إليك، ألم أنعم عليك، فلماذا تعصيني وأنا أنعم عليك:

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال بديــع

لو كان حبك صادقاً لأطعتــه إن المحب لمن يحب يطيــع

أيها الإخوة الكرام: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى خيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، ورد في بعض أخبار السلف الصالح أن الأمير نور الدين الشهيد استخدم البريد الجوي حينما كان أميراً على بلاد الشام ومصر، ما البريد الجوي، قال الحمام الزاجل، وإن من الحمام الزاجل ما يزيد عن خمسمائة نوع، وأن هذا الحمام الزاجل، أو حمام الرسائل يمتاز بحدة

الذكاء والقدرة الفائقة على الطيران، والغريزة القوية التي يهتدي بها إلى هدفه وموطنه وهو حيوان مستأنس أليف، ربنا عز وجل يقول:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢))

(سورة يس)

من جعله ذكياً، من جعله ذا غريزة قوية، من جعله أليفاً يألف الإنسان هذا الطير أيها الإخوة يقطع مسافة ألف كيلو متر من دون توقف في طيران مستمر، يقطعها بسرعة كيلوا متر في الدقيقة الواحدة، يعني ستين كيلو متر في الساعة.

يعطي هذا الحمام الزاجل سنوياً تسعة أزواج من الزغاليل، يعني طائرة تلد باستمرار، هذا الحمام يهتدي إلى هدفه بشكل لا يُصدق، يهتدي إلى إيصال هذه الرسائل بسرعة فائقة بالقياس إلى ذلك الزمان، والعلماء أيها الإخوة في حيرة من أمرهم، كيف يهتدي هذا الحمام إلى هدفه ؟ بعضهم قال: إن لها قوة إبصار عجيبة يفوق بها الإنسان أضعاف المرات، بعضهم قال: إنه يدرك بفطرته الاتجاهات الأرض، وبعضهم قال: إن الاتجاهات الأرضية مزروعة في غرائزه، بعضهم قال: إنه يتحسس خطوط القوة المغناطيسية على الأرض، وبها يهتدي إلى هدفه.

على كلٍ ؛ هذا الحمام الزاجل الذي سخره الله للإنسان لنقل الرسائل العاجلة في أيام ضعف التواصل، وفي أيام ضعف المخترعات آية من آيات الله عز وجل.

أيها الإخوة، كان السلطان نور الدين ينقش على منقار هذا الحمام اسمه، يعني رسالة خاصة بالسلطان نور الدين، وكان له ورق خاص يحمله ذا وزنٍ خفيف نسبياً، وكان يستخدم هذا السلطان ألفي حمام لنقل رسائله بينه وبين عماله في الأمصار.

أيها الإخوة الكرام، هذا الحيوان الطائر الذي يطير ألف كيلو متر بدون توقف بسرعة ستين كيلو متر في الساعة، ويهتدي إلى هدفه بشكل عجيب حيّر العلماء آية من آيات الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٥٥ : خ١ -الهجرة وعلاقتنا بها ، خ٢ - الهجرة في سبيل الشيطان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٥-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، قبل أيام عدة مرت ذكرى هجرة النبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة، وهذا من أضخم الأحداث بعد حدث الدعوة، وظهور الرسالة.
أيها الإخوة الكرام، من الحقائق المُسلّم بها أن العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته، ولا قيمة للعلم إلا إذا عُمل به، العلم وسيلة لمعرفة الله، والعلم وسيلة لمعرفة منهج الله، والعلم وسيلة لتهذيب النفس، وحملها على طاعة الله، فالعلم وحده ليس قيمة بذاته، إنما قيمته من العمل به. يقول الله عز وجل:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠))

(سورة الكهف)

هذه عقيدة التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

الآن دققوا ؛

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا)

آمنت أنه لا إله إلا الله، هذه حقيقة الدين الأولى، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥))

(سورة الأنبياء)

الأديان كلها السماوية، مضغوطة في هذه الآية،

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ)

العقيدة أنه لا إله إلا أنا، والسلوك فاعبدوني، والدين عقيدة وسلوك، اعتقاد وعمل، اتصال وإحسان،

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

هذه حقيقة لن تستفيد منها إلا إذا طبقتها، لنضرب على ذلك مثلاً لو أن مريضاً بمرض جلدي دواؤه الشمس، أن يتعرض للشمس، هذا المريض قال أنا أؤمن أن الشمس ساطعة، وأن الشمس في رابعة النهار كل هذا الكلام إن لم يذهب ويتعرض لأشعة الشمس، ليشفى مرضه الجلدي، كل كلامه النظري بأن الشمس ساطعة، وأنها مشرقة، وأنها في رابعة النهار، كلام لا معنى له ولا يقدم ولا يُؤخر.

الحقيقة بحد ذاته، ما لم تستثمرها، ما لم تعمل بها، ما لم تنتفع بها ما لم تطبقها لا قيمة لها، لذلك حينما نبقى في الفكر الإسلامي في التصورات، في الثقافة، ولا نتحرك، ولا نقف موقف يؤكد هذا الانتماء أو يؤكد هذا الاعتقاد، أو يؤكد هذه الهوية، هذه الهوية النظرية وهذه القناعة لا تقدم ولا تؤخر.

ذكرت هذا بأن العلم كما قلت قبل قليل بحد ذاته ما لم يُعمل به لا قيمة له.

أيها الإخوة الكرام: الهجرة حركة، لا هجرة بعد الفتح، أما ماذا نفعله نحن، ماذا يعنينا من هجرة النبي، ماذا نستفيد من دروس الهجرة، ما الذي نستشفه منها ؟

يعنينا أن إيمانك بالله يعني أن تتحرك، ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن إلا وتعبر عن ذاتها بحركة نحو الخلق.

الإيمان مع السكون الإيمان مع القعود، الإيمان مع الصمت، الإيمان مع الانشغال في المصالح الشخصية، الإيمان مع الانغماس بهموم الفرد الخاصة هذا ليس إيماناً ولا يرقى بصاحبه ولا يُقدم ولا يؤخر، ما لم تحمل هم المسلمين، ما لم تتحرك لحل مشكلة، ما لم تتحرك لنشر فضيلة، ما لم تتحرك لتوضيح آية، ما لم تتحرك لنشر سنة.. أما أن تبقى ساكناً، ساكتاً، وأن تبقى خاضعاً، وتقول علي بنفسي، هذا ليس من الإيمان في شيء.

أيها الإخوة: أردت من هذه الحقيقة أن أؤكد لكم، أن علاقتنا بالهجرة اليوم هذا المعنى، الهجرة حركة، انتقال من مكان إلى مكان، هجر المصالح في مكان، والذهاب إلى مكان مجهول ابتغاء وجه الله، ابتغاء رضوان الله إذا آمنت.. الآن اسأل نفسك هذا السؤال:

ما الشيء الذي تبدل بعلاقتك بنفسك ؟

ما الشيء الذي تبدل بعلاقتك بزوجتك ؟

ما الشيء الذي تبدل بعلاقتك بأولادك ؟

ما الشيء الذي تبدل بعلاقتك بجيرانك ؟ بعلاقتك بأرباب حرفتك ؟ بعلاقتك بمن فوقك ؟ بمن تحتك؟ بمن دونك ؟ بمن معك بمن حولك ؟.. هل أعطيت لله ؟ هل منعت لله ؟ هل وصلت لله ؟ هل قطعت لله ؟ هل واليت في الله ؟ هل عاديت في الله ؟ هل أنفقت المال في سبيل الله ؟ هل أحجمت عن إنفاقه لأن الإنفاق في بعض الأماكن لا يرضي الله ؟

ما الموقف الذي وقفته ؟ ما الحركة التي تحركتها ؟ ما الشيء الذي أعطيته ؟ ما الشيء الذي منعته؟ أية حركة تحركتها بناءً على إيمانك أية حركة تحركتها بناءً على معتقدك ؟ أية حركة تحركتها بناءً

على اتباع سنة نبيك ؟ أية حركة تحركتها بناءً على ما استقر في قلبك من إيمان. الهجرة حركة، مطلق الحركة. من الآيات الدقيقة يقول الله جل جلاله:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً (٦٦))

(سورة النساء)

هذا مُركّب في طبع الإنسان، أن يألف بلده، أن يألف بيئته، أن يألف مسقط رأسه، أن يألف من حوله، أن يألف ما حوله، هذا مُركّب في طبع الإنسان، ولكن التكليف شيء آخر، التكليف شيء والطبع شيء آخر، وقد بينت هذا في خطب كثيرة، الطبع أن تطلق البصر، والتكليف أن تغض البصر، الطبع أن تأخذ المال، والتكليف أن تنفق المال، الطبع أن تلقى مستلقياً في فراشك الوثير، والتكليف أن تستيقظ لتصلي، لولا أن الطبع يناقض التكليف لما كانت هناك جنة، بل إن ثمن الجنة هو هذا التناقض الظاهر بين الطبع والتكليف، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١))

(سورة النازعات)

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)

هذا هو الطبع، والتكليف، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

(سورة الذاريات)

علة وجودك على وجه الأرض، العلة الأولى، العلة الكبرى، العلة الأولى والأخيرة أن تعبد الله، فإذا توافقت بيئتك، إذا توافق من حولك مع هذا التكليف هذا شيء طيب، وهذا شيء مريح، أما إذا تناقضت بيئتك مع التكليف، التكليف أولاً، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧))

(سورة النساء)

الجواب المُسكت يوم القيامة:

(قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

أول شيء في حياتك أن تعبد الله، أول شيء في حياتك أن تقيم أمره في بيتك وفي عملك، أول شيء في حياتك أن تسعى لرضائه، فإذا توافق من حولك، توافق ما حولك، أعانتك بيئتك مع هذا

أنعم بهذا وأكرم، أما إذا صار في تناقض أنت مع الأمر التكليفي، لا مع الطبع الذي يقول ابق في هذا المكان.

أيها الإخوة الكرام: ثلاث آيات، الأولى:

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً (٦٦))

والآية الثانية:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

والآية الثالثة:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧))

أيها الإخوة الأكارم، علاقتنا بالهجرة أن تتحرك حركة مبنية على إيمانك، حركة مبنية على طاعة ربك، حركة مبينة على اتباع سنة نبيك، لا بد من الإيمان، ولا بد من البراء، لابد من أن توالي المؤمنين، ولابد من أن تتبرأ من الكفار والمنحرفين، لابد من أن تكون مع المؤمنين، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

(سورة الكهف)

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥))

(سورة لقمان)

كن مع المؤمنين، قال الله عز وجل:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨))

(سورة البقرة)

هل هناك سباق بلا جماعة ؟ هل يأتي على خاطرك أن سباقاً يتم من قبل شخص واحد، منعزل، لابد من أن تكون مع مجموع المؤمنين، ولابد من أن تستبق معهم، قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣))

(سورة آل عمران)

سارعوا إلى شيئين، إلى مغفرة تغطي الماضي، وإلى جنة عرضها السماوات والأرض موعود بها في المستقبل.

سارع إلى إلغاء المال الذي لا يعجبك، وإلى جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، وفي الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

أيها الإخوة الكرام: هذه الحقيقة الأولى، مُركّب في طبعك أن تحب مكان ولادتك، أن تحب البيئة التي ترعرعت فيها، أن تحب المحيط الذي نشأت فيه، أن تحب الأناس الذين نشأت معهم، ولكن هذه البيئة إذا دعتك إلى معصية أو إذا حالت بينك وبين طاعة الله، أو إذا أغرتك بالانحراف عن منهج الله، لابد من أن تحقق علة وجودك وهي عبادة الله عز وجل.

هذه حقيقة أيها الإخوة، الحقيقة الثانية: معنى الهجرة بالنسبة إلينا، وقد أغلق باب الهجرة بين مكة والمدينة لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا))

يعني بعد أن فُتحت مكة، لو أن إنسان انتقل من مكة إلى المدينة هل يُسمى مهاجراً ؟ لا والله.. إلا أن الهجرة تبقى قائمةً بين كل مدينتين يشبهان مكة والمدينة، تبقى الهجرة قائمةً إلى يوم القيامة، بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة.

أما علاقتنا نحن بالهجرة فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عَمْرٍو رَضِي اللَّه عَنْهمَا عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

لمجرد أن تستقيم على أمر الله، لمجرد أن تبتعد عن مناهي الله، لمجرد أن تجعل بينك وبين المعاصي هامش أمان، فأنت مهاجر، أنت مهاجر ورب الكعبة.

الآن لا تُكلف أن تترك وطنك، ولا بلدك بالعكس، هذا بلد طيب يُذكر الله فيه، المساجد غاصة بالمصلين، دروس العلم بأعلى درجة من الدقة ومن إقبال الناس عليها، هذه نعمة لا يعرفها إلا من غادر هذا البلدة.

((رأت عمود الإسلام كما ورد في الحديث الصحيح، قد سل من تحت رأسي، فأتبعته بصري فإذا هو بالشام، فعليكم بالشام في آخر الزمان))

أكثر من ثلاثين حديثاً صحيحاً تحث الناس على السكنى في الشام في آخر الزمان.

أيها الإخوة الكرام: إلا أن الهجرة تعني لمن هو في بلد مسلم تُقام فيه شعائر الدين، أبواب المساجد مُفتحة على مصاريعها، دروس العلم موفورة بشكل غريب الهجرة لإنسان يعيش في هذه البلدة أن يهجر ما نهى الله عنه، فمن هجر ما نهى الله عنه فهو مهاجر ورب الكعبة.

وشيء آخر، ورد في الحديث الصحيح، الذي رواه النبي عن ربه أن الله عز وجل يقول:

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

في زمن استعرّت فيه الفتن، في زمن كثر المال الحرام، في زمن عصي الله على قارعة الطريق، في زمن رأيت النساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، في زمن لا يبالي الرجل أن يكون ماله حراماً أم حلالاً في زمن يمسي الرجل مؤمناً، ويصبح كافراً، يمسي كافراً ويصبح مؤمناً يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، في زمن الفتن في زمن استعار الشهوات في زمن المال الحرام، في زمن تمييع الدين، في زمن تطوير الدين وكأنه يحتاج إلى تطوير، في زمن تجديد الدين وكأنه بناء متداع في هذا الزمن الذي تُطرح فيه العقائد الزائغة، والأفكار المضطربة والتشويه الكبير ويعصى الله فيه، ويفتخر العاصون لله عز وجل، عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

((اشتقت لأحبابي، قالوا يا رسول الله، أو لسنا أحبابك، قال: لا أنتم أصحابي، ولكن أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان، القابض على دينه كالقابض على الجمر أجره كأجر سبعين، قالوا: أمنا أم منهم ؟ قال بل منكم، قالوا: ولمَ ؟ قال: لأنك تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ قَالَ قُلْتُ كَيْفَ تَصْنَعُ فِي هَذِهِ الآيَةِ قَالَ أَيَّةُ آيَةٍ قُلْتُ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) قَالَ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ وَرَأَيْتَ أَمْرًا لا يَدَانِ لَكَ بِهِ فَعَلَيْكَ خُوَيْصَّةَ نَفْسِكَ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ الصَّبْرُ فِيهِنَّ عَلَى مِثْلِ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلا يَعْمَلُونَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ))

لمن حولك من إخوانك، من أقربائك، من زملائك، من جيرانك.

أيها الإخوة الكرام: هذا معنى آخر من معاني الهجرة ؛ أن تعبد الله في زمن الفتن، والآية الدقيقة جداً وهي قوله تعالى:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (١٦))

(سورة الكهف)

هؤلاء المنحرفين إن اعتزلتموهم مع ما يعبدون من الدرهم والدينار مع ما يعبدون من المرأة، مع ما يعبدون من العلو في الأرض إلا إذا عبدوا الله ينبغي ألا تعتزلوهم،]فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ [، المعنى الموسع لهذه الآية أو إلى مكان تعبد الله فيه، أو إلى بيتك، أو إلى مسجدك، أو إلى مكان بعيد عن الفتن،

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ)

وقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أننا إذا دخلنا المسجد ندعو ونقول: اللهم افتح لنا أبواب رحمتك، لأن رحمة الله قريب من المحسنين.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢))

(سورة آل عمران)

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

(سورة آل عمران)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢))

(سورة فاطر)

أيها الإخوة الكرام: علاقتنا بالهجرة أن تهجر ما نهى الله عنه، وعلاقتنا بالهجرة أن تعبد الله في زمن الفتن.

أيها الإخوة الكرام، بقي موضوع آخر في الهجرة، دققوا في هاتين الآيتين اللتين وردتا في سورة الأنفال، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٧٢))

(سورة الأنفال)

آمن اعتقد بالحقيقة المطلقة، عرف الله، ماذا ينبغي أن يفعل ؟ تحرك إلى طاعته، وأعيد وأكرر، ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن لابد لهذه الحقيقة التي استقرت من أن تعبر عن ذاتها بذاتها

في حركة نحو الخلق، حركة عطاء، حركة هداية، حركة دعوة إلى الله، حركة أمر بالمعروف، حركة نهي عن المنكر، حركة صون الأهل، ومن يلوذ بك عن الانزلاق بالمعاصي،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

ولا يأتين إلى خاطركم أن كل أنواع الجهاد جهاد قتالي، هناك جهاد النفس والهوى، وهذا نحن مقصرون فيه كثيراً، وهناك الجهاد الدعوي:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

والدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم والدليل:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

(سورة العصر)

ربع النجاة في تبليغ آية عن رسول الله، في تبليغ حديث عن رسول الله، في إسماع شريط اقتنعت بفائدته، هذه دعوة إلى الله وهي فرض عين، في حدود ما تعلم، وفي حدود ما تعرف، ما في واحد من إخوتنا الكرام إلا وهو لمن حوله نافذة إلى الله، من حوله يعتقدون بصلاحه أن فلان من رواد المسجد الفلاني، وفلان دين، وفلان يتقي الله، كل من حولك أنت محاسب عنهم، هل أبلغتهم، هل نصحتهم، هل جلست معهم ذكرت الله عز وجل، هل نقلت لهم معنى آية أو معنى حديث ؟ هذه الدعوة إلى الله كفرض عين على كل مسلم،

والآية الثانية:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨))

(سورة يوسف)

فإن لم تدع إلى الله على بصيرة فأنت لست متبعاً لرسول الله وإذا لم تكن متبعاً للنبي فأنت لا تحب الله لأن الله عز وجل يقول:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

(سورة آل عمران)

أيها الإخوة الكرام،

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

تعاون مع المؤمنين، مسح عنهم دموع البأس، أعانهم على أمر دينهم أعانهم على أمر دنياهم، أعطاهم مما يملك، من علم أو من خبرة أو من مال أو من جهد.

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

المؤمنون بعضهم أولياء بعض، كل المؤمنين لمؤمن، وكل مؤمن لكل المؤمنين، وهذا الذي يرضي الله عز وجل، كل المؤمنين بإمكاناتهم لكل واحد منهم، وكل واحد منهم للمجموع،

(وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

الآن دققوا:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أخذ موقف فكري فقط، قانع بالإسلام، ثقافته الدينية جيدة، خلفيته إسلامي، اتجاهه إسلامي، انتماءه إسلامي، محسوب على المسلمين هذه كلها كلمات تشبه بعضها بعضاً، ولكن ما في حركة، قاعد، ما في بذلك، ما في طلب علم، ما في أمر بالمعروف، ما في حركة إطلاقاً جالس،

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

لا يُعد هذا مؤمناً إن لم يتحرك، إن لم تترك سهرة لا ترضي الله كيف تكون مؤمناً ؟ إن لم تترك لقاءً لا يرضي الله كيف تكون مؤمناً ؟ إن لم تترك برنامجاً يفسد دينك كيف تكون مؤمناً ؟ يجب أن تترك ما نهى الله عنه كي تكون مهاجراً، ما كلفت أن تترك مدينتك التي فيها بيتك، وعملك، ودخلك، ومعارفك، كُلفت أن تترك ما نهى الله عنه فأنت مهاجر، إن تركت ما نهى الله عنه فأنت مهاجر، إن عبدت الله في زمن الفتنة فأنت مهاجر.

أيها الإخوة الكرام: الآية التي تليها:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣))

(سورة الأنفال)

يتعاونون، ويتناصرون، ويتكاتفون، لإطفاء نور الله، لإضعاف المسلمين، لأخذ أموالهم، لإيقاع الفرقة بينهم، لتشتيت جمعهم، للنيل منهم، لالتهامهم لقمة لقمة،

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا)

من مئات السنين يخططون من أجل إضعافنا، من أجل نهب ثرواتنا، من أجل إذلالنا.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

أما الشيء الذي يلفت النظر في هذه الآية:

(إلا تفعلوه)

هاء، ضمير غائب على من تعود، الآية تقول:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

قال علماء التفسير يعود هذا الضمير على الآية السابقة إجمالاً:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

إن لم تؤمنوا، وإن لم تهاجروا، وإن لم تجاهدوا بأموالكم وأنفسكم وإن لم تؤووا، وإن لم تنصروا، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.. ماذا يفعل الغرب ؟

قتل امرئ في غابة جريمة لا تُغتفر وقتل شعب آمنٌ مسألة فيها نظر

تُشيع امرأة فاسقة أعلن أنها زنت على إحدى عشرة محطة فضائية ويشيعها ستة ملايين، ويبكي كبراء العالم لموتها بحادث، أما حينما تُغتصب نساء المسلمين في أوربا لا أحد يبكي.

قتل امرئ في غابة جريمة لا تُغتفر وقتل شعب آمنٌ مسألة فيها نظر

هكذا يقيسون الأمور، يا أيها الإخوة الكرام، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

الإنسان مُكلف أن يقيم الإسلام في بيته، قبل أن يقيمه في بيته أن يقيمه في نفسه، أن يطلب العلم، أن يعرف لمَ خلقه الله، ما الذي ينبغي أن يفعل ؟ أقم الإسلام في نفسك، تعلم مبادئ الدين، مبادئ الإيمان مبادئ الإسلام، تعلم المنهج الإلهي، افعل ولا تفعل، ما يجوز وما لا يجوز اطلب العلم، أو خطوة أن تطلب العلم، ولا شيء يعلو في حياتك على طلب العلم.

لو ذهب أحدكم إلى بلد ليأخذ الدكتوراه، وقد وعد أن يعود إلى بلده في أعلى منصب، وقال لك في هذا البلد الذي مهمته الوحيدة هناك أن يدرس: لستُ متفرغًا أن أدرس، لكان أنت بأي شيء متفرغ ؟ الوقت إذاً لأي شيء تبذله.

يا أيها الإخوة الكرام، هذه الآيات المتعلقة بالهجرة، وهذه علاقتنا بالهجرة، طاعة الله عز وجل، أقم الإسلام في نفسك، ثم أقمه في بيتك، وأقمه في عملك وانتهى الأمر، ولا تُكلف فوق طاقتك، ما عليك بالمجموع، أنتَ أقم الإسلام في نفسك، اطلب العلم، تعرف إلى الله، طبق منهجه، ثم أقمه بين أهلك،

عند أهلك وأولادك، ثم أقمه في عملك وانتهت مهمتك، لقد أديت الذي عليك، ولن تُسأل عن شيء.
أيها الإخوة الكرام، هذا هو العلاج،

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

(سورة الرعد)

قال بعض الكتاب، قد تقرأ قصة ممتعة تنتهي من قراءتها تتثاءب وتنام هذا هو الأدب الرخيص، وقد تقرأ قصة فتنتهي من قراءتها فتبدأ متاعبكم بعد قراءتها، وأنا أضعكم أمام مسؤولياتكم، الدنيا قصيرة، والموت يأتي فجأة، وقد يندم الإنسان أشد الندم:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤))

(سورة الفجر)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (٢٩))

(سورة الفرقان)

أيها الإخوة الكرام، العمر قصير،

((بادروا بالأعمال الصالحة، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغياً، أو هرماً مفنداً أو مرضاً فسداً، أو موتاً مجهزاً أو الدجال فشر غائب يُنتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر))

الآية الأخيرة:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٠))

(سورة النساء)

يعني إذا كنت في حرفة لا ترضي الله كلها معاصي، فتركتها فأنت مهاجر، إن كان لك أصدقاء بعيدون عن الله، يجلبونك إلى المعاصي وهجرتهم فأنت مهاجر، إن كان لك عادات في الجاهلية لا ترضي الله وتركتها فأنت مهاجر، أنا أوسع لكم معنى الهجرة، وأنت في بلدك، ما كُلفت أن تدع بلدك، وأنت في بلدك بين أهلك وأولادك، دع المعاصي تكن مهاجراً، اعبد الله في زمن الفتنة تكن مهاجراً، وهذا الذي نستفيده من دروس الهجرة أيها الإخوة، الهجرة حركة، حركة نحو طاعة الله، حركة نحو طلب مرضاته، حركة نحو التقرب منه، والذي اصطلح مع الله قبل فوات الأوان هنيئاً له،

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى خيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام بقي موضوع معاكس، هذا عن الهجرة في سبيل الرحمن، فماذا عن الهجرة في سبيل الشيطان ؟

كما أن هناك هجرة إلى الرحمن، إلى طاعة الواحد الديان إلى التقرب إلى الجنان، هناك هجرة إلى النار، هناك هجرة إلى الشيطان، هناك هجرة إلى شيء لا يرضي الله.

أيها الإخوة الكرام دققوا فيما أقول وقد قلت هذا كثيراً: حينما تكون الهجرة ابتغاء دنيا يصيبها الرجل، أو ابتغاء مال يحصله..

وحينما تكون الهجرة بذلاً للخبرات، والطاقات، والإمكانات لغير بلاد المسلمين..

وحينما تكون الهجرة هروباً من تحمل المسؤولية، وفراراً من البذل والتضحية..

وحينما تكون الهجرة إضعافاً للمسلمين، وتقوية لأعدائهم..

وحينما تكون الهجرة تمكيناً للعدو من احتلال الأرض واستثمار خيراتها..

وحينما تكون الهجرة من بلد تقام فيه شعائر الدين إلى بلد فرغت منه كل القيم..

وحينما تكون الهجرة تضييعاً للدين والعرض وكسباً للدرهم والدينار.

عندئذ تكون هذه الهجرة في سبيل الشيطان.

أيها الإخوة الكرام، الدنيا في أمكنة أخرى تتألق، بأموالها، وبيوتها، ومركباتها، وكل المتع الرخيصة فيها، ولكن هذا التألق يودي إلى النار، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِيَدِهِ إِلَى الأَرْضِ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ أَلا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ثَلاثًا أَلا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ وَمَا مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلا مَلأَ اللَّهُ جَوْفَهُ إِيمَانًا))

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٥٦ : خ١ -من ينبغي أن تحب ، خ٢ - الشمس.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٥-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، المحبة من أخص خصائص الإنسان أن تحب أو أن تُحَب، هذا الميل نحو الآخرين، أو الغبطة حينما تشعر أن الآخرين يميلون إليك، الحب من أخص خصائص الإنسان، لكن البطولة أيها الإخوة ليست في أن تحب، فهذا كما قلت قبل قليل من أخص خصائص الإنسان، ولكن البطولة كل البطولة أن تعرف من ينبغي أن تحب، لذلك ؛ مرَّ حكيمٌ على رجل يبكي على قبر، فسأله عن سبب بكائه، فقال: إن لي حبيب قد مات.

قال هذا الحكيم لهذا الرجل الذي يبكي: لقد ظلمت نفسك بحب حبيب يموت، فلو أحببت حبيباً لا يموت لما تعذبت بفراقه.

لابد من أن نحب، لأن الحب من أخص خصائص الإنسان ولكن كل بطولتك، وكل فوزك، وكل فلاحك، وكل عقلك فيمن ينبغي أن تحب..

من ينبغي أن تحب ؟ من ينبغي أن تعطيه وقتك، جهدك شبابك عمرك ذكاءك طلاقة لسانك، مالك لمن ؟..

لجهة واحدة ليس غير، هي الله جل جلاله، هو أهل التقوى وأهل المغفرة.

أيها الإخوة الكرام، المحبة هي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، هي الحياة الحقيقية، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤))

[سورة الأنفال]

هي الحياة الحقيقية.

حياة الشاردين حياة البهائم، حياة المعرضين حياة دنيا وليست حياةً عليا، هؤلاء يلبون حاجاتهم الدنيا، أما المؤمن يلبي حاجة دنيا، أن يعرف الله وأن يحبه، هي الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات وقد قال الله عز وجل:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١))

[سورة النحل]

وما أنت بمسمع من في القبور

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩))

[سورة الأنعام]

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦))

[سورة الأعراف]

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥))

[سورة الجمعة آية ٥]

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤))

[سورة المنافقون]

جمادات من دون حب، المحب هي قوت القلوب، غذاء الأرواح هي الحياة التي من حرمها فهو في جملة الأموات، هي النور التي من فقده فهو في بحار الظلمات، هو الشفاء الذي من عدمه حلت فيه الأسقام هي اللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم والبخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي واحمد]

الإيمان له حلاوة، لابد من أن تذوق حلاوته إن كنت مؤمناً حقاً القناعات شيء، والحلاوة شيء آخر، أن تكون قانع بحقائق الإيمان شيء وأن تتذوق حلاوة الإيمان شيء آخر، شتان بين الحالين، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد]

وحلاوة الإيمان تحملك على تحمل المكاره، حلاوة الإيمان تحملك على بذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس، حلاوة الإيمان تحملك أن تجعل حياتك كلها في سبيل الله:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢))

[سورة الأنعام]

حلاوة الإيمان تجعل المال في نظرك صغيراً حقيراً، تجعل متع الدنيا تحت قدمك إذا ذقت حلاوة الإيمان.

((ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...))

لا عند التوافق بل عند التعارض، عند التوافق شيء طبيعي جداً أما عند التعارض إذا تعارضت مصلحتك مع نص شرعي، فآثرت طاعة الله ووضعت مصلحتك تحت قدمك، عندئذ تذوق حلاوة الإيمان، حينما تتعارض ميولك مع النص الشرعي، وتؤثر أن تكون مطيعاً لله عز وجل إن في كتابه أو في سنة نبيه، عندئذ تذوق حلاوة الإيمان، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤))

[سورة التوبة]

الطريق إلى الله ليست سالكة، إن آثرت بيتاً مغتصباً على طاعة الله عز وجل فالطريق إلى الله ليست سالكة، إن آثرت زوجة على تطبيق منهج الله عز وجل فالطريق إلى الله ليست سالكة،

((فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين...))

((ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب أليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله...))

الولاء، ولاؤك للمؤمنين، لأولياء الله، للمتقين، لأهل الإيمان لمنهج الرحمن، وليس لأهل الكفر والطغيان، قال صلى الله عليه وسلم:

((من هوي الكفرة حُشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً))

((ومن أقام مع الكفرة فقد برأت منه ذمة الله))

موضوع خطير، الولاء والبراء، توالي من وتتبرأ ممن، قل لي من توالي أقل لك من أنت، قل لي ممن تتبرأ أقل لك من أنت.

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢))

[سورة المجادلة]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣))

[سورة الممتحنة]

أيها الإخوة الكرام، والثالثة:

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

لست على حرف، لست على طرف الاستقامة، في أعماقها، لو قُطع المؤن إرباً إرباً لا يتزحزح، لا يثنيه عن عقيدته ولا عن سلوكه سبائك الذهب اللامعة ولا سياط الجلادين اللاذعة، هو عند مبدئه أحد أحدٌ..

".. أتحب أن يكون محمد مكانك ـ خبيب ـ وأنت في أهلك ـ دققوا في إجابته ـ والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي ـ (مع زوجتي وأولادي) وعندي عافية الدنيا ونعيمها.. ـ العافية والنعيم كل وسائل الرفاه، كل الأموال الطائلة ـ ويصاب محمد بشوكة ـ لا يكون محلي بشوكة ـ والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويُصاب محمد بشوكة..

دهش أبو سفيان قال: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً..

امرأة أنصارية تفقدت أرض المعركة، فإذا ابنها مقتول، وإذا زوجها مقتول، وإذا أخوها مقتول، وإذا أبوها مقتول، وتقول ما فعل رسول الله، بقيت قلقة حتى اطمأنت على حياة رسول الله، فلما رأته قالت يا رسول الله كل مصيبة بعدك جلل..

أية امرأة هذه، هذا هو الإيمان، الإيمان حب.. إن ألغيت الحب من الإيمان صار كالجسد بلا روح، يبقى الإسلام ثقافة، معلومات، أفكار مكتبة، شريط، ولاء، انتماء، خلفية دينية، مسحة دينية. يعني محافظ، هكذا يقولون..

الإيمان حب، والحب يفعل المعجزات، قال رسول الله:

((لن تُغلب أمتي من اثني عشر ألف من قلة))

ليسوا مليارًا ومئتي مليون، اثنا عشر ألف مؤمن لن يغلبوا في الأرض كلمتهم هي العليا. أيها الإخوة الكرام، روى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِن

اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[أخرجه البخاري]

أيها الإخوة الكرام، من تعريفات أهل القلوب المرء مع من أحب والمحبة هي الميل الدائم بالقلب الهائم، إيثار المحبوب على جميع المسحوب، موافقة المحبوب في المشهد والمغيب، استكثار القليل من التقصير واستقلال الكثير من الطاعة، هي أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منه شيء.

((... يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ـ أعطاه ماله كله ـ قال أبقيت الله ورسوله)).

((... ما ساءني قط فاحفظوا له ذلك...))

((... لو وزن إيمان الخلق مع إيمان أبي بكر لرجح...))

((... سدوا علي كل خوخة إلا خوخة أبي بكر...))

((... ماذا أبقيت لنفسك قال الله ورسوله...))

أن تهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحب وأن تجعل هذا كله حبساً في مرضاته ومحابه.

جرت مسألة في المحبة في مكة المكرمة في موسم الحج، فتكلم الشيوخ الكبار جميعاً، وكان فيهم الجنيد، كان الجنيد أصغرهم سناً قالوا هات ما عندك يا جنيد، قال: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربـه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه، فإذا تكلم فبالله، وإن نطق فعن اللـه، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فهو مع الله، فهو بالله ولله ومع الله.

قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي بتسع، خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعفوَ عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقـي ذكراً، ونظري عبرةً))

أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥))

[سورة البقرة]

ومن الناس من يتخذ من دون الله.. أي مخلوق، كائن من كان هذا من دون الله.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥))

الإنسان مفطور على حب الكمال، وحب الجمال، وحب النوال وهي كلها في الله عز وجل، قوة الشيء، قوة الكمال في الله وحده، قوة النوال العطاء في الله وحده، قوة الجمال في الله وحده، المؤمنون يوم القيامة يرون ربهم كما يرون البدر في الدنيا، ينظرون إلى الله عز وجل لقوله تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣))

[سورة القيامة]

قال يغيب المؤمن خمسين ألف عام من نشوة النظرة، كل ما في الكون من جمال مسحة من جمال الله عز وجل فإذا كنت مع الأصل فأنت مع من ؟

أيها الإخوة الكرام، قد يقول قائل: أنا أحب.. هذا ند لله، قال علماء التفسير الند في المحب والولاء لا في الخلق والإنشاء.. أنت جعلته نداً لله في المحبة والولاء لا في الخلق والإنشاء، بل إن أكثر أهل الأرض اتخذوا أنداداً من دون الله، في الحب والتعظيم، والذين آمنوا أشد حباً لله قال بعض المفسرين: أي أن المؤمنين أشد حباً لله من حب المشركين لأندادهم التي يحبونها ويعظمونها.

أيها الإخوة الكرام، الله جل جلاله لم يقبل دعوى محبته إلا بالدليل، لأن أناساً كثيرون يدعون محبة الله عز وجل، خاضوا بحار الهوى، دعوى وما ابتلوا لو نظرت إلى بيوتهم ليست إسلامية، إلى علاقاتهم الاجتماعية، إلى دخلهم إلى إنفاقهم، إلى تربية أولادهم، بعيدين عن الإسلام، الإسلام معشعش في خلايا أدمغتهم، أما حياتهم اليومية ليست إسلامية، فلذلك ربنا جل جلاله لم يقبل دعوى محبته إلا بالدليل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

[سورة آل عمران]

إياك أن تتوهم أنك تحب الله وأنت مخالف لسنة رسوله، وهذا الآية دليل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

أيها الإخوة الكرام المؤمن الصادق باع نفسه لله عز وجل بيعاً قطعياً لا رجعة فيه، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١))

[سورة التوبة]

الثمن الجنة، اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وقتك كله لله ودخلك وإنفاقك، وذكاءك، وطلاقة لسانك، وعلمك ولقاءاتك، ونزهاتك كلها في سبيل الله، لذلك بأن لهم الجنة،

(يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)

أن تبيع نفسك لله لا لجهة أرضية، أنت حينما تبيع نفسك أو تؤجرها لجهة أرضية فقد احتقرت نفسك..

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠))

[سورة البقرة]

أنت حينما تكون لغير الله تحتقر نفسك، أنت لله، لا تكن محسوباً على جهة في الأرض، كن محسوباً على الله، لا تكن محسوباً على جهة في الأرض، ينبغي أن تكون محسوباً على الله وحده.

أيها الإخوة الكرام، من الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها قراءة القرآن بالتفهم والتدبر لمعانيه، وما أريد به من الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها، التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصل إلى درجة المحبوبية:

((...لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه))

[أخرجه البخاري]

هذا في الحديث الصحيح.

من الأسباب الموجبة والجالبة لمحبة الله عز وجل أن تؤثر محاب الله على محاب العباد عند غلبة الهوى، أن تؤثر محابِّه على محابك، أن تخرج من مرادك إلى مراده.

أيها الإخوة الكرام، ومن الأسباب الجالبة للمحبة مطالعة القلب لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، أن تقرأ عن أسماء الله الحسنى، ما معنى أنه لطيف رحيم غني قدير غفار الذنوب ستار العيوب، كيف تعرفه ولا تعرف أسماءه، من الأسباب الجالبة للمحبة أن تطالع أسماء الله الحسنى وصفاتــه، وأن تعرفها، وأن تشاهد آثارها، وأن تتقلب في رياض هذه المعرفة، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته أحبه لا محالة، وأن تخلو مع الله، وأن تناجيه، وأن تتلوى كلامه، وأن تصلي الليل، وأن تقف بين يديه، وأن تستغفره، وأن تسبحه.

أليس لك مع الله خلوة ؟

ألا تذكر الله بينك وبين الله ؟

((... يا موسى أتحب أن أكون جليسك، قال: كيف ذلك يا رب، قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني))

أيها الإخوة الكرام، ومن الأسباب الجالبة لمحبة الله عز وجل، التأدب بأدب العبودية بين يديه، أن تكون عبداً لله، والنبي عليه الصلاة والسلام وصل إلى سدرة المنتهى، لأنه كان عبداً لله، فأوحى إلى عبده ما أوحى وهو في سدرة المنتهى، وكلما تحققت في عبوديتك لله ارتقيت عند الله.

ومن الأسباب الجالبة لمحبة الله عز وجل مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، كما تُتلقى أطايب الثمر.

ومن الأسباب الجالبة لمحبة الله عز و جل أن تبتعد عن كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل، أي شيء يبعدك عن الله تبتعد عنه ابتعادك عن المجذوم..

أيها الإخوة الكرام، بل إن أقصر طريق وأوسع باب إلى أن يكون العبد محبوباً عند الله عز وجل ـ دققوا الآن، دخلنا في صلب الخطبة ـ أن يكون على شاكلة الذين يحبهم الله عز وجل، وأن تبتعد عن الصفات التي لا يحبها الله في عباده، اقرأ القرآن:

الله يحب الصابرين، الله يحب التوابين، الله يحب المتطهرين، الله يحب المحسنين، الله يحب المتوكلين، الله يحب المقسطين، الله يحب المتقين.

هذا القرآن..

لا يحب الظالمين، لا يحب المعتدين، لا يحب المفسدين، لا يحب المسرفين، لا يحب المستكبرين، لا يحب الفرحين في الدنيا، لا يحب الكافرين، لا يحب الخائنين، لا يحب من كان مختالاً فخوراً.
السنة:
الله جل جلاله يحب إغاثة اللهفان، يحب إتقان العمل، يحب العدل بين الأولاد ولو في القبل، يحب أن يرى عبده تعباً في طلب الحلال يحب حفظ الود القديم، يحب الرفق في الأمر كله، يحب سمح البيع سمح الشراء، يحب السهل الطلق لا العبوس، يحب الشاب التائب وما من شيء أكرم على الله من الشاب التائب، يحب المحترف، له حرفة يده عليا، ينبع المجتمع، يحب الفقير المتعفف، المتجمل، يحب الغيور يحب القلب الحزين، وإن الله يبغض البخيل، السائل الملحف الغني الظلوم، الفاحش البذيء الوسخ الشعث، البذخين الفرحين المرحين يبغض كل عالم في الدنيا جاهل في الآخرة، لو حدثته عن شؤون الدنيا وعن أسعار العملات وعن البيوت وعن السيارات وعن التجارات أمضى معك سبع ساعات دون كلل، فإذا ذكرت له آية قرآنية تثاءب..

إن الله يبغض كل عالم في الدنيا جاهل في الآخرة..

لا يحب الطلاق، ولا يحب العقوق، ولا يحب كل فاحش متفحش.

من كان كلامه بذيء هذا ليس مؤمناً، لا يحب الفاحش المتفحش.

قال:

((يا بنيتي، إن هذه الثياب تصف - ثياب شفافة، يخاطب بنتاً صغيرة عليه الصلاة والسلام، ضع أنت كلمة أية كلمة مثيرة - قال: يا بنيتي إن هذه الثياب تصف حجم عظامك))

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧))

[سورة المؤمنون]

كل أنواع الانحرافات الجنسية،

(فمن ابتغى وراء ذلك)

هذا القرآن..

يقول لك: لا حياء في الدين، الدين كله حياء، يجب أن تجلس مع مؤمن ساعات وساعات وسنوات وسنواتٍ دون أن تستمع منه إلى كلمة فاحشة، ولا إلى تعليق بذيء ولا إلى نكتةٍ جنسية.. لا يحب كل فاحش متفحش.

الآن أحب الأعمال إلى الله، إدخال السرور على كل مسلم..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد والدارمي]

الحب في الله، أن تحب إنسان لا قرابة ولا مصلحة ولا شركة ولا أبداً، أن تحبه كله.

الحب في الله، البغض في الله، حفظ اللسان الصلاة على وقتها إطعام الطعام، أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم يكرم، أحب البلاد إلى الله مساجدها، أحب الحديث إلى الله أصدقه، أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيادي، أحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله، أحسنه خلقاً أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم، يعني إذا خاصم فجر.

وأبغض الرجال إلى الله من كان ثوبه خيراً من عمله، زي إسلامي أما السلوك شيطاني، من كان ثوبه خيراً من عمله.

وأبغض الخليقة إلى الله الكذابون، المؤمن لا يكذب، يطبع المؤن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة.

أيها الإخوة الكرام، هناك موضوع دقيق، وخطير، وهو الحب مع الله، والحب في الله، وشتان بين الحبين، الحب في الله هو من كمال الإيمان بينما الحب مع الله عين الشرك، إذا تمكنت محبة الله في قلب العبد، أنظرت هذه المحبة أن يحب العبد ما يحب الرب، عندئذ يحب العبد رسل الله جميعاً، وأنبياءه جميعاً، وأولياءه جميعاً، والصحابة جميعاً لا يُستثنى منهم أحد، وأولياءه جميعاً، والدعاة إليه جميعاً، ويبغض تبعاً لذلك العصاة والفجار والكفار.. هذه من علامة الحب في الله، وهو كمال الإيمان.

وعلامة الحب في الله والبغض في الله ـ دققوا الآن الفكرة دقيقة وصعبة ـ أن لا ينقلب البغض إلى محبة إذا أحسن إليك من تبغضه لله.

إنسان تبغضه لله، هكذا تقول أنت فاحسن لك، قدم لك شيء ثمين أصبح حبه مكان بغضه، إذاً هذا ليس بغضاً في الله.

وأن لا ينقلب الحب لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليك من جهته ما تكرهه، إلا خطأً أو عمداً مطيعاً لله فيه أو متأولاً، أو مجتهداً أو باغياً.

ما دام إنسان طيب صالح مؤمن، صدر منه خطأ لا ينقلب الحب إلى بغض.

أيها الإخوة الكرام، الدين كله يدور على أربع قواعد، حب وبغض، ويترتب عليها فعل وترك، فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله فقد استكمل الإيمان، هذا هو الحب في الله.

أما الحب مع الله ؛ الآن دخلنا في موضوع آخر..

الحب مع الله نوعان، نوع يقدح في أصل التوحيد وهو شرك لا محالة ونوع يقدح في كمال الإخلاص، ولا يخرج من الإسلام.

أما النوع الأول الحب مع الله كما يحب المشركين أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله، محبة تأله وميل، يتبعها خوف ورجاء ودعاء وهذه المحبة هي عين الشرك.

أما النوع الثاني الذي يقدح في كمال الإخلاص محبة ما زينه الله تعالى في النفوس ؛]من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث[.. فيحبها محبة

شهوة كالجائع للطعام والظمآن للماء هذه المحبة أيضاً ثلاثة أنواع، إن أحبها لله توصلاً إليه بها واستعانةً بها على طاعته ومرضاته أثيب عليها، أراد أن يتزوج ليحصن نفسه، ويتفرغ لطاعة ربه، إذا أحب هذه الأشياء التي زينها الله في قلوبنا من أجل أن تصل إلى طاعة الله، فهذا الحب تُثاب عليه.

يقول أحد الأصحاب الكرام: حبذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي.

أما إن أحب هذه الأشياء توصلاً بها إلى الله وابتغاء مرضاته أثيب عليها، وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه، ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه، بل نالها بحكم الميل الطبيعي كانت من المباحات لا يعاقب عليها.

يعني محبته للدنيا أو للمال ما أخرجته عن طاعة الله، قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧))

[سورة النور]

قال: هذه من المباحات.

وإن أحبها وسعى جاهداً لتحصيلها، والظفر بها، وقدمها على ما يحب الله عز وجل، كان ظالماً لنفسه متبعاً لهواه.

فالأولى محبة السابقين، والثانية محبة المقتصدين، والثانية محبة الظالمين.

قال بعض العلماء:

عشرة أشياء ضائعة لا يُنتفع بها ؛ قلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به.

محبة لا تتقيد برضاء الله تعالى وامتثال أمره.

علم لا يُعمل به.

عمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء.

بدن مُعطل من طاعة الله وخدمة عباده.

فكر يدور فيما لا ينفع، وقد استعاذ النبي الكريم من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن عين لا تدمع، ومن أذن لا تسمع، والسعادة من هؤلاء الأربعة جملة.

مال لا يُنفق منه، ولا يستمتع جامعه في الدنيا به، ولا يقدمه أمامه في الآخرة، وقت مُعطل عن اغتنام البر وقربة الله عز وجل.

مرَّ أحد العلماء الكبار في الشام أمام مقهى يلعب رواده النرد، فقال يا سبحان الله، لو أن الوقت يُشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم.

أنت وقت، بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، ما من يوم يشق فجره إلا وينادي يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

وخدمة من لا تُقربك خدمته إلى الله، أن تكون محسوباً على جهة أرضية، تخدمها ولا تنتفع بخدمتها.
وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله، تخاف منه وهو بيد الله وترجوه وهو بيد الله، لا يملك لك ضراً ولا نفعاً، ولا حياةً ولا نشوراً.

أيها الإخوة الكرام، سأل رجل عالماً جليلاً، قال إني أشكو مرض البعد عن الله، فهل عندك دواء لهذا المرض ؟

فقال هذا العالم الجليل للسائل ؛ يا هذا، عليك بعروق الصبر، وورق الإخلاص، وعصير التواضع، ضع ذلك في إناء التقوى، وصب عليه ماء الخشية، وأوقد عليه بنار الحزن، وصفه بمصفاة المراقبة وتناوله بكف الصدق، واشربه بكأس الاستغفار، وتمضمض بالورع، وأبعد عن نفسك الحرص والطمع، تشفى من مرضك بإذن الله.

فقال السائل للعالم: ومتى يكون ذلك كذلك ؟

قال إذا استغنيت بالله عمن سواه.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى خيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، رئيس أكبر وكالة فضاء في العالم سئل سؤالاً عن السديم وعن كتله المتوهجة الحمراء والبيضاء والسوداء، فقال هذا العالم الكبير، أكبر علماء الأرض في علم الفلك، قال: الشموس المشتعلة أنواع ثلاثة

شموس مشتعلة باللون الأحمر كشمسنا، وهي في منتصف عمرها هكذا قال بعض العلماء، مضى على اتقادها خمسين مليار سنة، وستبقى كما يقولون خمسين مليار سنة أخرى، في منتصف عمرها. وهناك شموس بعد أن تمر بمدة الاحمرار يزداد حجمها كثيراً زيادة كبيرة، إلى درجة أنها تنتفخ زيادة عن الحد المعقول، ثم تنكمش انكماشاً عظيماً فجأةً، بواقع من مائة لواحد من حجمها الأصلي، وعندئذ تصبح بيضاء اللون، وتُشع نوراً أبيض، ولكنه أشد حرارة بكثير من اللون الأحمر.

فالشمس التي تجاوزت حرارتها من اللون الأحمر إلى اللون الأبيض شدة حرارتها فوق الحمراء بكثير.

قال: وبعد ذلك تمر هذه الشمس في مرحلة أخرى هي مرحلة التكدس كما يتكدس المتر المكعب من الحديد بحجم ذرة، لا تُرى بالعين ولا بالمجهر.

قال: ومعنى ذلك أن كثافة هذه الشمس تصبح عالية جداً جِداً جداً، ويصبح جذبها شديداً جداً لدرجة أن النور لا يسطع منها، ولا يخرج.

سماها العلماء الآن الثقوب السوداء، هذه لها قوة جذب مخيفة، لو أنها جذبت الأرض لأصبحت الأرض بحجم بيضة مع وزنها نفسه..

تصور الأرض خمس قارات، والخمس قارات خمس البحار، والكتلة الضخمة، الأرض كلها لو جذبها ثقب أسود لأصبحت بحجم البيضة.

قال: هذه مرحلة ثالثة، لا يسطع منها نور، وفيها قوة جذب مخيفة وحرارتها لا توصف.

أيها الإخوة الكرام:

ماذا نفعل إذا مر بنا حديث شريف ؟

يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي وأبن ماجة عن أبي هريرة، والحديث في الجامع الصغير، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أحمي عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أحمي عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة كالليل المظلم))

هذا من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، كيف عرف أن النار أوقد عليها ألف عام حتى احمرت ؟..

وقال الإمام المناوي في فيض القدير في شرح هذا الحديث، الألف عام ليس رقماً يعني العدد، يعني زمن طويل للتكثير والمبالغة، الحديث نصه بالضبط:

((أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم))

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٥٧ : خ١ -الغيبة من الكبائر (حكم الغيبة) ، خ٢ - الحجامة واستطباباتها.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٥-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في سلسلة خطب ينتظمها محور واحد، أين الخلل، المظاهر الإسلامية صارخة، مساجد، بيوت، خطب، مؤلفات، مؤتمرات مظاهر إسلامية في الزي، ولكن لا تجد هذا الذي كان في عهد رسول الله، أين الخلل ؟

اخترت لكم موضوعاً من أخطر الموضوعات الاجتماعية، هو الذي يمزق وحدة المسلمين، هو الذي يفرق شملهم، هو الذي يضعفهم، هو الذي يجعل أعداءهم مهيمنين عليهم، إنه موضوع يظنه الناس من الصغائر وهو من أكبر الكبائر.

عامة المسلمين فيما يبدو لا يرتكبون الكبائر في الأعم الأغلب ؛ قتل سرقة زنا، عامة المسلمين في الأعم الأغلب لا يرتكبون هذه الجرائم إلا أنه وقعوا فيما يتوهمون أنه صغائر، وهو في الحقيقة من الكبائر، عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ:

((الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد]

الشيطان أراد أن يمزق وحدتهم، أن يضعف شوكتهم، أن يجعلهم مزقاً، أن يشرذمهم، أن يجعل بأسهم بينهم، أن يشتغل المسلمون ببعضهم بعضاً، لا بنشر الحق، ولا بنصرة هذا الدين العظيم، إنه موضوع متعلق باللسان:

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:

((كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ قَالَ لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ قَالَ ثُمَّ تَلَا (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حَتَّى بَلَغَ (يَعْمَلُونَ) ثُمَّ قَالَ أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ ثُمَّ قَالَ أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ قُلْتُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ

فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ فَقَالَ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ قَالَ))

[أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجة وأحمد]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[انفرد به أحمد]

أيها الإخوة الكرام، السلف الصالح كانوا يرون وهم على حق فيما يرون، أن العبادة ليست في أداء الصلوات فحسب، وليست في صيام رمضان فحسب، وليست في حج بيت الله الحرام فحسب، ولكن العبادة الحقيقية في تطبيق منهج الله في كل تفصيلاته.

كيف ضغط الإسلام عند معظم المسلمين إلى خمس عبادات، وكيف فصلوه عن الحياة، وكيف صار الإسلام في واد والحياة في وادٍ آخر.

يصلي في أول صف، ويحج كل عام، ويصوم رمضان بصيام صارخ فإذا جلس في مجلس نهش أعراض المسلمين بلا قيد وبلا منهج وبلا طريق.

أيها الإخوة الكرام، سمعت عن جلسة استمرت سبعة عشر عاماً، بين إخوة مؤمنين فسأل بعضهم هذا السؤال: ما الذي جعل هذا اللقاء الدوري يستمر سبعة عشر عاماً ؟

فكان جواب أحدهم وهو مصيب فيما يقول، ليس فيه اختلاط ولا غيبة.

إذا خلا المجلس من الاختلاط والغيبة يستمر..

أيها الإخوة الكرام، الغيبة متوافقة مع طبع الإنسان، الإنسان يحب أن يخوض في عيوب الناس، في نقائصهم، في فضائحهم، في مساوئهم، بل فيه نزعة اجتماعية، أن تكشف السر، سر طلاق هذه الزوجة.. لقد خانت زوجها مع من، وفي أي مكان، وفي آية مناسبة، شيء ممتع متعة شيطانية أن تخوض في أعراض الناس، أن تخوض في مشكلاتهم، في سبب خلافاتهم، في سبب عدوانهم على بعضهم بعضاً، شيء ممتع، يتوافق مع الطبق، ويتناقض مع التكليف.

فلو أن الإنسان استرسل في حديثه مع الآخرين، فجأةً يجد نفسه قد وقع في معصية كبيرة، إنها الغيبة.

يا أيها الإخوة الكرام، لابد من وقفة متأنية عند هذا النهي العظيم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ـ أنا لا أكذب، أنا أقول شيء واقع، أنا أتكلم بما هو موجود فيه ـ قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ، قَالَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود وأحمد والدارمي]

وميز النبي عليه الصلاة والسلام بين الغيبة والبهتان، البهتان أن تقول على أخيك شيئاً ليس فيه، أما الغيبة أن تقول عليه شيئاً ليس فيه، هذا تعريف الغيبة من قبل النبي عليه الصلاة والسلام (ذكرك أخاك بما يكره)، أن تذكره بما يكره في بدنه، أن تقول: قصير مثلاً .. أو في دينه، قد تطعن في دينه، أو في دنياه، أو في نفسه، أو في خلقه، أو في ماله.. ماله الله أعلم من أين اكتسبه ؟.. معك دليل رأيت بعينك أنه اختلس، أو في ماله أو في ولده، أو في زوجته، أو والده، أو ثوبه، أو في مشيته، أو عبوسه، أو طلاقته، أو غير ذلك مما يتعلق به، كل هذه الموضوعات موضوعات غيبة. فيا أيها الإخوة المؤمنين خذوا حذركم.. الغيبة من أكبر الكبائر الغيبة تمزق المسلمين، تفرق جمعهم، تشتت وحدتهم، تصنع شرخاً فيما بينهم يصبحون على خلاف، وعلى بغضاء وعلى عداوة.

أحياناً لا تقول ولا كلمة، يُذكر فلان، فتشير بيدك هكذا، الإشارة باليد غيبة، أو تمسك قميصك، يعني أنت لست مطمئناً لسلامة هذا الإنسان، أو تقبض يدك الحركة غيبة، ولعلك تكتب بيدك مقالةً، أو نشرةً، أو تعليقاً، تسفيهاً أو طعناً، هذا من الغيبة.

أن تشير بعينك، أو بيدك، أو برأسك، تلميحاً كان أو تصريحاً كل هذا من الغيبة.

ففي البدن، تقول هو أعرج، وهذا أعمش، وهذا قصير، وفلان طويل وهذا شديد السمرة، هذه غيبة البدن.

وفي الدين تقول فاسق، دخله ليس مشروعاً، كاذب ظالم، متهاون بالصلوات، من دون دليل طبعاً.. ولو هناك دليل وليس هناك طائل من ذكر هذا فهو غيبة، أما في موضوعات الفقهاء حددوها ؛ أحد سألك بموضوع زواج، وتعلمه لا يصلي، وتعلمه يشرب الخمر، لابد من أن تقول الحق. في موضوع شراكة، في موضوع شراء بيت، والبيت أساسه منهار وفي أمر بإخلائه، وتعلم هذا علم اليقين، وإنسان استنصحك بشراء هذا البيت، لا.. ليس في هذا غيبة.

إنسان مبتدع، ينشر الضلالات، ينشر البدع، يخرج عن جوهر الدين يبتدع عقائد ما أنزل الله بها من سلطان، ليس لهذا المبتدع غيبة، هناك شروط دقيقة، ولكن الناس توسعوا توسعاً غير معقول، بحق وبغير حق بموجب وبغير موجب، بفائدة وبغير فائدة.

أيها الإخوة الكرام، الغيبة من أبشع المعاصي التي يقترفها الناس، وهم لا يشعرون ؛ في مجالسهم، وفي سفرهم، وفي لقاءاتهم، وفي ولائمهم، وفي أعراسهم وفي أحزانهم، فمادام هذا اللسان ينهش أعراض الناس فهو واقع بغيبة كبيرة، والغيبة كما تعلمون من الكبائر.

قلت:

((يا رسول الله، إن صفية امرأة - ولم تقل شيئاً، إلا أنها حركت يدها وقالت يعني قصيرة، خفضت يدها - فقال عليه الصلاة والسلام: يا عائشة، لو مُزجت هذه الكلمة بماء البحر لأفسدته))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد]

بماء البحر، هذا كلام النبي عليه الصلاة والسلام.

وقال الإمام الحسن رضي الله عنه: " ذكر الغير ثلاثة ؛ الغيبة والبهتان والإفك، وكلٌ في كتاب الله عز وجل، فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك عنه ". ذكر الغير ثلاثة، غيبة وبهتان وإفك..

وذكر ابن سيرين رجلاً، فقال ذلك الرجل الأسود، ثم قال استغفر الله إني أراني قد اغتبته.. إذا قلت أسود.. أخ في الله، إذا كان مؤمناً لا يضاف عليه ولا كلمة أبداً.. مؤمن اصبغ بصبغة الإسلام، أية كلمة تضاف على المؤمن كلمة جاهلية، كلمة عصبية، كلمة عنصرية. المؤمن اصبغ بصبغة الله فهو مظنة كمال ومظنة ورع، ومظنة استقامة، ينبغي أن نضبط اللسان. والإمام الغزالي رحمه الله تعالى في إحيائه، عد من آفات اللسان أكثر من خمس عشرة آفة من آفات اللسان.

أيها الإخوة الكرام، ذكر ابن سيرين، إبراهيم بن الأدهم، فوضع يده على عينه ولم يقل أعور، بل أشار وخاف أن يقول أعور، فكلما اشتد خوفك من الله كلما كنت وقافاً عند الأمر والنهي.. ليس الولي الذي يمشي على الماء، ولا الذي يطير في الهواء، ولكن الولي كل الولي هو الذي تجده عند الحلال والحرام.. أن يراك حيث أمرك وأن يفتقدك حيث نهاك.

لو ضبط الإنسان لسانه ضبطاً شديداً لرأى الطريق إلى الله سالكاً، لو ضبط الإنسان جوارحه وأعضاءه ضبطاً شديداً وقف في الصلاة فانهمرت دموعه وشعر أن الخط ساخن بينه وبين الله.. في خط، في اتصال.

أما إذا نهش أعراض الناس، اغتاب هذا وضرب هذا وشتم هذا، هذا هو المفلس، الذي أتى بصلاة وصيام وصدقة، وقد شتم هذا وضرب هذا وأكل مال هذا، فأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، حتى إذا فنيت حسناته طرحوا عليه سيئاتهم حتى يُطرح في النار.

أيها الإخوة الكرام، عن عائشة رضي الله عنها قالت:

(((لا يغتابن أحدكم أحداً، فإني قلت لامرأة وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إن هذه لطويلة الذيل فقال عليه الصلاة والسلام: الفظي، الفظي، ما في فمك، في فمها قطعة لحم فلفظتها، قال وكأنك أكلت لحم ميت: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه))

مرةً قال عليه الصلاة والسلام لرجل اغتاب أخاه: قال له:

((تخلل، قال: ومما أتخلل يا رسول الله ؟ ولم آكل اللحم، قال لقد أكلت لحم أخيك))

أيها الإخوة الكرام، مرةً ثانية، الغيبة لا تقتصر على اللسان، فالذكر باللسان محرم ولكن هناك التعريض، وهناك التصريح، وهناك القول، وهناك الإشارة فإذا أشار الواحد إلى الآخر بأنه بخيل فقد اغتابه، أحياناً بالرأس، أحياناً برفع العينين، أحياناً بحركة تقصدها، كل هذا عند الله غيبة، تصريح قول غمز تحريك شفتين، هذا كله يدخل تحت الغيبة.

إن أردتم مجتمعاً متماسكاً كالبنيان المرصوص وكالجسد الواحد، لابد من ترك الغيبة كلياً، لأنها تفتت المجتمع، تفت في عضده، تضعف كيانه، تجعل أطرافه متخاصمين، متحاسدين، متناوشين.
أيها الإخوة الكرام، شيء آخر في الغيبة، إذا قلدت إنساناً من أجل أن تضحك الناس عليه فهذه من أشد أنواع الغيبة.

هناك غيبة بالكتابة والرسم، هناك رسوم تبعث على الضحك، وأحياناً هناك كتابات تبعث على الضحك، والقلم أحد اللسانين، والقلم كتابة أو رسم أحد أدوات الغيبة، إلا أن الإنسان أحياناً يضطر إلى أن يصلح عيوب الناس، فماذا يفعل ؟

يقلد النبي عليه الصلاة والسلام، كان عليه الصلاة والسلام يصعد المنبر ويقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، والذي فعل واحد، فلما قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، وهو إشارة لطيفة من ديون تعيين ومن دون تسمية، لم يفضح ولكن ذكر عيباً موضوعياً منتشراً في المجتمع، فكان هذا أحد أساليب النبي عليه الصلاة والسلام في إصلاح المجتمع.

هناك أشخاص يعدون أنفسهم أذكياء، فيغتابون الناس بأسلوب ليس فيه مأخذ، أحياناً يذكر إنسان، لا تتكلم ولا كلمة، تقول: الحمد لله الذي عافاني من البخل، اغتبته بما أنت به، حينما ذُكر فلان حمدت الله على معافاتك من البخل، معنى ذلك هو بخيل، هذا لون من ألوان الغيبة.

طريقة أخرى، تذكر فلان أمام خصومه وتمدحه بما ليس فيه تستفزهم، فينهالون عليك لوماً وتقريعاً وذكراً لعيوبه ونقائصه، تقول: غير معقول، لا حول ولا قوة إلا بالله، هل هذا واقع، يقول واقع وأكثر من ذلك، ماذا فعل اذكروني، أنت لم تفعل شيئاً، أثرت الموضوع واستفززت خصومه،

ذكرته بخير وهو على غير خير، فانهالوا بكلماتهم ذماً وتقريعاً، أنت السبب، بلا مهمة، بلا فائدة.
أيها الإخوة الكرام، أيضاً موضوع آخر في الغيبة، العلماء اختلفوا في موضوع، لو أن الشخص أمامك، وذكرته بسوء، فهل هذا من الغيب، أغلب الظن أنها ليست غيبة ولكنه شتيمة، أن تذكر إنسان بسوء أمامك هذه ليست غيبة ولكنه معصية بمستواها، هي شتيمة.

الافتراء على الناس في غيبتهم كالتزلف إليهم في حضرتهم، في حضرتهم نتزلف إليهم، نفاق، وفي غيبتهم ننهش أعراضهم، غيبة وهذا شأن الضعفاء من الناس.. جبناء، في حضرتهم يمدحونهم، في غيبتهم يغتابونهم.

أيها الإخوة الكرام، حكم الغيبة في الشرع الحنيف أنها حرام، هناك فرض، هناك سنة مؤكدة، سنة غير مؤكدة، مستحب، هناك مباح، هناك مكروه كراهة تنزيهية، هناك مكروه كراهة تحريمية، الغيبة حرام، محرمة بالكتاب والسنة والإجماع، وإجماع علماء الأمة، أدلة التحرير كثيرة جداً نقل القرطبي الإجماع على أنها من الكبائر لا من الصغائر، أجمع العلماء على أنها من الكبائر.

في ظن المسلمين غير طلاب العلم، أن الكبائر الزنا، القتل، السرقة أما الغيبة، من الكبائر، من الكبائر لأنها تفتت المجتمع، تضعف تماسكه، تضعف وحدته، تنشئ فيما بين المجتمع العداوة والبغضاء.
الذي يؤسف له أن أكثر مجالس المسلمين مجالس غيبة، والله يا أيها الإخوة الكرام يمكن في أي مجلس للمسلمين أن يكون قطعة من الجنة بذكر الله، قطعة من الجنة، اذكر آيات الله، اذكر آياته القرآنية، أذكر آياته التكوينية، اذكر شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، اذكر حكمة الشرع الحنيف، اذكر مواقف الصحابة الكرام، آلاف الموضوعات آلاف المناسبات التي تجعل من المجلس قطعة من الجنة وأنت لا تشعر:

((ما جلس قوم يذكرون الله إلا غشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، وما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه إلا قاموا عن أنتن من جيفة حمار))

[أخرجه الترمذي]

أنتن من جيفة حمار يأكلون هذا اللحم النتن.

أيها الإخوة الكرام، قد يقول أحد الناس، هذه الغيبة منتشرة وواسعة وهي بلوى عامة والناس كلهم كذلك، فنقول، إن انتشار هذه المعصية وعمومها على الناس لا يلغي أنها كبيرة، فالمعاصي الكبيرة كبيرة، قلت أو كثرت ضاقت أو اتسعت، صغرت أو كبرت.

العلماء علماء المسلمين متفقون ومجموعون على أن الإصرار على الغيبة يجعلها من أكبر الكبائر.
أيها الإخوة الكرام، إلا أنني مراعاةً للموضوعية في خطبتي أقول هذه الحقيقة: كيف أن العلماء

قالوا هناك كفر دون كفر كذلك هناك غيبة دون غيبة فقد تنقد بيتاً بأنه صغير، أو هذا اللون غير مناسب، هذا من الغيبة ولكنه أقل بكثير من أن تنتقد بلا دليل شخصاً ينتفع الناس به، من أن تطعن في شخص ينتفع الناس به جداً، هذه غيبة كبيرة جداً، أنت قطعت.. أنت من قطاع الطريق، قطعت طريق الخير على هؤلاء.

يعني أن تهرف بما لا تعرف، أن توزع التهم بلا دليل، بلا فائدة بلا موجب، هذا من أشد أنواع الغيبة، فإذا كان هناك كفر دون كفر هناك غيبة دون غيبة، أن تنتقد لوناً لطلاء، أو نوعاً لقماش، هذا يحرج صاحبه، كيف اشتريته بهذا اللون غير جيد، هذه غيبة، أما أن تنتقد إنساناً ينتفع الناس به من دون دليل، من دون برهان، من دون بينه لمجرد أنك تحطم الآخرين لتقف على أشلائهم، هذه صفة في بعض الناس والعياذ بالله، يبني مجده على أنقاض الناس، هو وحده الكامل وما سواه ناقص، فأي إنسان ذكر أمامه يطعن به، يسفه دينه يسفه أخلاقه، يشكك نواياه.

أيها الإخوة الكرام، شيء آخر، في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه:

((كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه))

[البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود]

العرض كما يفهم عامة الناس متعلق بعفة المرأة.. لا، العرض في الإنسان موضع المدح والذم فيه، فالرجل له عرض، عرضه سمعته فإذا نهشت عرضه طعنت بسمعته فقد اغتبته، فكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه،

((ومن عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته وحرمت غيبته))

من غلب عليه الصلاح والتستر، يعني عقيدته سليمة، ما عُرف أنه أكل مالاً حراماً، ولا فعل كبيرةً، هذا المسلم يغلب عليه الصلاح والتستر فهو حرام أن تغتابه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

ويقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح، الذي رواه الإمام البخاري:

((بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ) وَيُذْكَرُ أَنَّ شُرَيْحًا وَعُمَرَ ابْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَطَاوُوسًا وَعَطَاءً وَابْنَ أُذَيْنَةَ أَجَازُوا إِقْرَارَ الْمَرِيضِ بِدَيْنٍ وَقَالَ الْحَسَنُ أَحَقُّ مَا تَصَدَّقَ بِهِ الرَّجُلُ آخِرَ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا وَأَوَّلَ يَوْمٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَالْحَكَمُ إِذَا أَبْرَأَ الْوَارِثَ مِنَ الدَّيْنِ بَرِئَ وَأَوْصَى رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ أَنْ لَا تُكْشَفَ امْرَأَتُهُ الْفَزَارِيَّةُ عَمَّا أُغْلِقَ عَلَيْهِ بَابُهَا وَقَالَ الْحَسَنُ إِذَا قَالَ لِمَمْلُوكِهِ عِنْدَ الْمَوْتِ كُنْتُ أَعْتَقْتُكَ جَازَ وَقَالَ الشَّعْبِيُّ إِذَا قَالَتِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ مَوْتِهَا إِنَّ زَوْجِي قَضَانِي وَقَبَضْتُ مِنْهُ جَازَ وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ لَا يَجُوزُ إِقْرَارُهُ لِسُوءِ الظَّنِّ بِهِ لِلْوَرَثَةِ ثُمَّ اسْتَحْسَنَ فَقَالَ يَجُوزُ إِقْرَارُهُ بِالْوَدِيعَةِ وَالْبِضَاعَةِ وَالْمُضَارَبَةِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ))

[أخرجه البخاري]

ولا تحسسوا، ولا تجسسوا: التحسس تتبع الأخبار الطيبة فضولاً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

[أخرجه الترمذي وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ]

هذا كلام فضول، دعه وشأنه، إن كان قليل يستحي بدخله القليل وإذا كان حملته على أن يكذب فيضاعف المبلغ أوقعته بالكذب، وإن كان كبيراً تحسده !.. مشكلة، دعك من هذا، فإنه

((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

و

((إن الظن أكذب الحديث))

لا تحسسوا، لا تجسسوا، لا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً يعني المجتمع المسلم متماسك، متماسك بتحريم النميمة، تحريم الإفك، تحريم البهتان.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الِاسْتِطَالَةَ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ))

[أخرجه أبو داود وأحمد]

أن تذمه بلا مبرر، بلا فائدة، حباً بتحطيم الآخرين وأن تقف على أنقاضهم، وهذا شأن المتفلتين شأن المنافقين، شان الفسقة، دائماً يبحث عن المثالب، يبحث عن النقائص، يكبرها، ويشيعها، يرتاح، لماذا يرتاح ؟.. هو مُختل توازنه، فلما أقنعنا، وأقنع نفسه أن كل الناس منحرفون ارتاح، هو معهم إذاً، استأنس.

وعن أبي حذيفة، عن عائشة، قلت للنبي صلى الله عليه وسلم حسبك من صفية كذا وكذا، يعني قصيرةً، قال يا عائشة (ذكرت هذا قبل قليل هذه الرواية الدقيقة، رواه أبو داود) قال يا عائشة، لقد قلت كلمةً لو مُزجت بماء البحر لأفسدته، وحكيت له إنساناً (يعني قلدت له إنساناً) فقال ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا ".

التقليد أيضاً من الغيبة، هناك أشخاص بارعون جداً في التقليد، هذه ملكة، في كل مجلس يقلدون بعض الناس، يضحكون الناس إلى درجة غير معقولة، وكأنهم يتوهمون أنهم بهذا ظرفاء، وأدخلوا على قلب هؤلاء السرور بتقليدهم للآخرين، هذا أيضاً محرم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ فَقُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ قَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ))

[أخرجه البخاري وأبو داود]

وعن سعيد بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق))

أيها الإخوة الكرام، هل هناك من يشك أن الزنا محرم ؟ هل واحد في العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه يشك في أن الزنا محرم ؟.

عن جابر وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، قالا، قال عليه الصلاة والسلام

((إياكم والغيبة فإنها أشد من الزنا))

من الذي يحب ربنا منا، أن نكون متماسكين، كالجسد الواحد، هذا لا يكون إلا بتحريم الغيبة، بضبط اللسان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((رأيت ليلة أسري بي، قال عليه الصلاة والسلام نظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف، فقال من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس))

أيها الإخوة الكرام، روى أحمد أن رجلاً حدثهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((من أكل برجل مسلم أكلة، فإن الله عز وجل يطعمه مثلها في جهنم))

يعني دُعي إلى وليمة، ومعروف سلفاً أن هذه الوليمة دعي إليها من أجل أن يُنهش بعرض فلان، دُعي هؤلاء ليكون موضوع الحديث عن فلان، يعني أكل بهذا المسلم أكلة،

((من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله عز وجل يطعمه مثلها في جهنم، ومن اكتسى برجل مسلم ثوباً (يعني وشى بمسلم أخذ مكافئة اشترى فيها ثياب جميلة، هذا اكتسى على حساب كرامة مسلم، على حساب راحة مسلم ثوباً) ومن اكتسى برجل مسلم ثوباً فإن الله عز وجل يكسوه مثله من جهنم، ومن قام لرجل مسلم مقام سمعة (يعني بيض وجه على حساب مسلم، أخذ ثناء وحطم مسلم) ومن قام برجل مسلم مقام سمعة فإن الله عز وجل يقوم به مقام سمعة يوم القيامة))

[أخرجه أبو داود وأحمد]

لازلنا في أحاديث رسول الله المتعلقة بالغيب.

يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود:

((الصوم جنة ما لم يخرقها، قالوا يا رسول الله كيف يخرقها قال يعني بالغيبة))

فالغيبة تخرق الصوم.

عَنْ مُعَاذٍ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد]

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أخرجه أحمد]

استقامة اللسان، سبب استقامة القلب، واستقامة القلب سبب صلاح الإيمان.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى خيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام،

((حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسري به أنه لم يمر على ملأ من الملائكة إلا أمروا أن مُرْ أمتك بالحجامة))

[أخرجه الترمذي وقال حديث حسن]

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال:

((إن أمثل ما تداويتم به الحجامة))

والعلماء المسلمون يتحدثون عن الحجامة وعن استطباباتها، فيقولون إن أول استطبابات الحجامة تبيغ الدم، والتبيغ هو التهيج، تبيغ الدم زيادته، والمقصود بتهيج الدم وزيادته ارتفاع الضغط، أو ارتفاع التوتر الشرياني، ومن أعرض ارتفاع الضغط، أو ارتفاع التوتر الشرياني، أو تبيغ الدم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام الصداع، وحس الامتلاء في الرأس، والدوار وسرعة الانفعالات، والاضطرابات البصرية، هذه من أعراض ارتفاع الضغط.

إذاً تهيج الدم وزيادة كميته، ولا سيما في فصل الربيع مع قدوم الحر هو ما يعنيه النبي عليه الصلاة والسلام بالحجامة.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إذا اشتد الحر فاستعينوا بالحجامة، ولا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم))

استطباب آخر، هو الصداع، وآلام الرأس، والصداع يرافق ارتفاع الضغط، وهناك صداع وعائي، أي ضيق في شرايين الدماغ، هذا الصداع الوعائي، قال بعض العلماء إن أداء الصلوات، الإنسان في السجود يرتفع ضغط الدم في الرأس، وتتوسع الشرايين، وهذا أيضاً من خصائص الصلاة، طبعاً الصلاة عبادة، عبادة فقط، ولكن أمر الله عز وجل شامل لكل النواحي، فالإنسان حينما يسجد يرتفع ضغط شرايينه في رأسه، فإذا رفع رأسه هبط الضغط فجأةً، من ارتفاع الضغط وهبوطه ينشأ ما يُسمى بمرونة الشرايين في الدماغ، هذه المرونة تستوعب ارتفاع ضغط الدم المفاجئ، أما الذي لا يصلي لو ارتفع ضغط الدم فجأةً لنفجر بعض شرايين الدماغ، فكانت خثرةً في الدماغ، وهي من الأمراض العضالة.

أيها الإخوة الكرام، أخرج أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((ما كان أحد يشتكي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وجعاً في رأسه إلا قال له اذهب فاحتجم))

استطباب ثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما

((أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم في رأسه من شقيقة كانت به))

أيها الإخوة، هذه الأحاديث ليست ثقافة شخصية للنبي، وليست إدراكاً ذاتياً وليست من ثقافة العصر، إنها وحي يوحى، لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

بالمناسبة أيها الإخوة، الميليمتر المكعب من الدم فيه خمس ملايين كرية حمراء، وفي دم الإنسان ما يزيد عن خمس وعشرون مليونْ مليون كرية حمراء يعني خمس وعشرون بليون.

أيها الإخوة، وصف أحدهم الكرية الحمراء بأنها حمال لا يعرف التعب تجوب في الجسم في اليوم الواحد ألفاً وخمسمئة دورة، وتعمر هذه الكية مائة وعشرين يوماً، تقطع عمرها في هذه المسافات التي تجولها في جسم الإنسان.

هذه الكرية لا تُرى إلا بالمجهر، كل خمس ملايين كرية تساوي ربع نقطة من الدم، ميليمتر مكعب، هذه النقطة الحمراء الحمال الذي لا يعرف التعب، تنقل الأكسجين، ما يزيد عن ستمئة لتر من الأكسجين إلى الخلايا والأنسجة والأعضاء والأجهزة، من أجل أن تنقي الدم من غاز الفحم ومن أجل أن تمنحه مولد الحموضة.

من منا يصدق أن هذه الكرية الحمراء التي لا تُرى بالعين، إن خمسمئة وأربعة وسبعين حمضاً أمينياً يسهمون في تكويها.

وقرأت كتاباً لمؤلف غربي، أن ذرات الكون كلها، لا تكفي لصنع ذرة حمض أميني بالصدفة، لشدة تعقيد هذا الحمض.

أيها الإخوة، في جسم الإنسان جهاز رقابة على الدم خطير جداً، هذا الجهاز يراقب كمية الدم بشكل مستمر، ويعرف ما يطرأ على الدم من زيادة أو نقصان فإذا طرأ عليه نقصان أعطى هذا الجهاز إشارة إلى معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام كي تزيد من إنتاجها، ليعود الدم إلى وضعه الطبيعي.

من هنا تأتي الحجامة سنة نبوية لها هدف كبير.

هذه المعامل معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام تُصاب بمرض خطير اسمه فقر الدم اللامصنع، تكف عن صنع الخلايا، وهذا مرض مميت، قال العلماء إن نقص الدم المنتظم يسهم في صيانة هذه المعامل.

مجلة علمية صدرت قبل عام وزيادة، قرأت هذا البحث لمؤلف لا يعرف إن في الإسلام حجامة، يقول هذا المؤلف: إن فقدان الدم بانتظام قد يؤدي إلى حماية الإنسان إلى حمايته من النوبات القلبية.

هذا العالم كتب هذه المقالة ولا يعرف أن في الإسلام حجامة، إي إنقاص دم كل عام مرة أو مرتين.

أيها الإخوة الكرام، هناك مقالة مطولة متعلقة بتركيب الحديد، فإذا زاد هذا التركيب في عضلة القلب أضعفها، وسبب بعض الأزمات القلبية.

يا أيها الإخوة الكرام، يحب أن نؤمن إيماناً قطعياً أن قول النبي عليه الصلاة والسلام وحي ثانٍ، وحي غير متلو، وأن النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وأن النبي عليه الصلاة والسلام، كما قال سيدنا سعد بن أبي وقاص: (ثلاثة أنا فيهن رجل وفيا سوى ذلك فأنا واحد من الناس، ما صليت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، وما سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، ولا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى).

هناك مئات الأحاديث المتعلقة بالحجامة، اخترت لكم ما في الصحاح فقط، أكثر من عشر أحاديث صحيحة في البخاري ومسلم والإمام أحمد والترمذي وابن ماجة، تؤكد أن الحجامة من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام ولها علاقة بالتوتر الشرياني، ولها علاقة بالصداق، ولها فوائد لا يُحصيها محصٍ.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٥٨ : خ١ -العلم والحال ، خ٢ - التربة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٥-٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، تعارف الناس فيما بينهم على قيم يتفاضلون من خلالها، ولكل مجتمع قيمه، ولكل حقبة قيمها، ولكن لو سألنا أنفسنا ما هي القيم التي جعلها الله مقياساً للرقي عنده ؟.. ابتغوا الرفعة عند الله.. قد ترقى بين الناس بمالك، فقيمة المال معتمدة عند الناس، وقد ترقى بين الناس بقوتك فالقوة مهابة عند الناس، وقد ترقى عند الناس بوسامتك، والوسامة محببة عند الناس، وقد ترقى عند الناس بذكائك، والذكي يجلب الأنظار هذه قيم بين البشر، ولكن القيم التي جعلها الله مقياساً للتفاوت عنده بين عباده، قال تعالى:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩))

[سورة الزمر]

إنها قيمة العلم.

وقال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢))

[سورة الأنعام]

قيمة العمل، قيمة العلم وقيمة العمل، هناك القيمتان الأساسيتان اللتان بهما يرقى الإنسان عند الله عز وجل، لذلك وردت آية الذين آمنوا وعملوا الصالحات في القرآن الكريم أكثر من مائتي مرة، الذين آمنوا ؛ يعني عرفوا الله وعملوا الصالحات.

أيها الإخوة الكرام، مرتبة العلم أعلى الرتب، هذه المرتبة إن لم تصحب السالك إلى الله من أول قدم يضعه على طريق الإيمان حتى ينتهي به الطريق فهو على غير طريق.

هناك طريق معبدة مسواة مستقيمة هي الطريق إلى الله، وما سوى هذه الطريق وعر، مطبات، ألغام، حفر أكمات، أخطار، فإن لم تضع قدمك، في الطريق إلى الله على العلم فأنت على غير طريق، لست على طريق.

وفي التعبير القرآني لست على شيء.

أيها الإخوة الكرام

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦))

[سورة الجاثية]

هذا استفهام إنكاري، أي ليس من طريق سالك إلى الله إلى طريق العلم، ليس من طريق قصير وعريض إلى الله إلا طريق العلم، يقول الله عز وجل في سورة طه:

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً(١١٤))

[سورة طه]

الدعاء الذي أمرنا أن ندعو به،

(وقل رب زدني علماً)

أما لسان حال الناس وقل رب زدني مالاً، وقل رب زدني وجاهة، وقل رب زدني استمتاعاً بالحياة، ولكن الله عز وجل أمرنا أن ندعوه بهذا الدعاء،

(وقل رب زدني علماً)

إن العلم هو الحاجة العليا في الإنسان، تلبية هذه الحاجة تؤكد إنسانيتك، تلبية هذه الحاجة تؤكد انتمائك إلى بني البشر الذين هم عند الله عز وجل المخلوقات الأولى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢))

[سورة الأحزاب]

الإمام الجنيد رحمه الله تعالى يقول: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه الإنسان الوحيد المعصوم، الإنسان الوحيد الذي أمرنا أن نتبعه، الإنسان الوحيد الذي بلغ قمة الكمال البشري، الإنسان الوحيد الذي هو أسوة لنا في كل شؤون حياتنا، فالطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم.

يقول هذا الإمام، مذهبنا هذا مقيد في أصول الكتاب والسنة..

((تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنة رسوله))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد ومالك والدامي في حجة الوداع]

يقول بعض العلماء، من لم يزن أفعاله، ومن لم يزن أحواله، ومن لم يزن أقواله، ومن لم يزن خواطره بالكتاب والسنة فهو مع هوى نفسه الدليل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠))

[سورة القصص]

طريقين لا ثالث لهما، إما أن تستجيب لهذه السنة المطهرة التي أمرت من قبل الله أن تتبعها، وإما أنت على طريق الهوى، طريقان لا ثالث لهما، إن لم تكن على أحدهما فأنت على الآخر حتماً. كيف نزن أفعالنا وأحوالنا وأقوالنا وخواطرنا بالكتاب والسنة، إن لم نعرف الكتاب والسنة ؟. معرفة الكتاب والسنة فرض عين على كل مسلم، هذا العلم الذي ينبغي أن يُعلم بالضرورة وإلا نهلك.. المظلي يجب أن يعرف طريق فتح المظلة وإلا ينزل ميتاً، وقد يجهل أشياء كثيرة، قد يجهل قانون السقوط قد يجهل شكل المظلة، قد يجهل عدد حبالها، نوع حبالها، قد يجهل كل شيء، أما إذا جهل طريقة فتح المظلة ينزل ميتاً، ففتح المظلة علم يجب أن يُعلم بالضرورة، لا يُعفى منه إنسان، لا إنسان يحمل أعلى شهادة وهو أمي في الدين، كيف أنك لو أطلعت عالماً جليلاً من علماء المسلمين على تخطيط قلب، فقال والله لا أفهم فيه شيئاً، نقول هذا العالم على جلالة قدره أمي بهذا التقرير التخطيطي الكهربائي، بالمقابل وقد تحمل أعلى شهادة في الأرض وأنت أمي في الدين، قد ترقى إلى أعلى رتبة علمية في الأرض وأنت جاهل في الدين، فهذا الذي يحمل شهادة عليا قد يتوهم أنه يعرف كل شيء، وهذه أكبر مصيدة للشيطان، أي شيء يسمعه يزنه بميزان عقله، من دون أن يعود إلى الأصلين، الكتاب والسنة، إن أعجبه شيء يقول لك جيد، وإن عرضه على عقله فعقله رفض هذا يقول لك هذا شيء غير صحيح، هذا مرض المثقفين، هؤلاء عرفوا نصف العلم، وهؤلاء أخطر فئة في المجتمع، لا هم علماء فيفيدوا من علمهم، ولا هم جهلاء فيتعلمون، لأن الإمام علي كرم الله وجهه يقول: " أربعة رجال، عالم مستعمل علمه وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع أخرته بدنيا غيره، فإذا قصر العالم في علمه، ضيع علمه لم يطبق علمه، استنكف الجاهل أن يتعلم وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره ".

أربعة رجال هم قوام الدين والدنيا، عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم..

إنسان درس الهندسة أو الطب أو المحاماة، أو العلوم الأخرى أو الرياضيات أو الفلك، إذا سمع خطبة أو سمع حديثاً يعرضه على عقله وكأنه أوتي العلم كله، نقول له: على جلالة قدرك وعلى علو شهادتك أنت في الدين أمي، أبحث عن أصول العلم الشرعي، ابحث عن معنى القرآن الكريم، عن معنى سنة النبي عليه أتم الصلاة والتسليم، لذلك معرفة الكتاب والسنة، شرط أساسي كي تستخدم الكتاب والسنة ميزاناً لأفعالك وأقوالك، وهذا بعض ما تعنيه الآية الكريمة:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧))

[سورة الرحمن]

قال بعضهم العقل، وقال بعضهم الشرع، فالحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع.
يقول بعض العلماء، من لم يتهم خواطره لا يُعد في ديوان الرجال هذا الذي يثني على كل شيء يخرج منه بلا ضوابط، وبلا موازين هذا لا يُعد في ديوان الرجال شيئاً.

يعني ما كل ما يخطر في بالك هو حق، ما كل وارد يرد عليك هو حق يجب أن تزن أفعالك وأقوالك وأحوالك وخواطرك بالكتاب والسنة كيف تزنها إن لم تعرف الكتاب والسنة ؟.. والقاعدة الأصولية ؛ ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا يتم الواجب به فهو واجب.

وقال بعض العلماء: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء برسول الله فهو عبث نفسي، عبث.. إما أن تكون مع رسول الله في سنته القولية والعملية، وإما أنت مع هوى نفسك.

وقال بعضهم الآخر: من عمل عملاً بلا اتباع سنة فباطل علمه.

وقال بعض العلماء الأجلاء: الصحبة مع الله عز وجل بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر، والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم بالرحمة، والصحبة مع النفس بالمخالفة، ومع الشيطان بالعداوة.
هكذا ينبغي أن تصحب خالق السماوات والأرض، ونبيه الكريم وأولياءه الصالحين، والأهل والأقارب، والجيران، والجهال ونفسك التي بين جنبيك، والشيطان الذي هو عدو لك.

وقال بعض العلماء: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى قولاً وفعلاً نطق بالبدعة.

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢))

[سورة آل عمران]

آية قطعية الدلالة، وإن تطيعوه تهتدوا، إن الهدى هو في طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وقال بعض العلماء: العلم قائد، والخوف سائق، الخوف يدفعك إلى باب الله، والعلم يقودك إلى الله..
العلم قائد والخوف سائق، والنفس حرونٌ بين ذاك وذاك، النفس حرون وجموح وخداعة ورواغة، فاحذرها وراعها بسياسية العلم، وسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد.

يا أيها الإخوة الكرام، إن صح التعبير صيدلية الله عز وجل أدويتها كثيرة جداً ملايين الأبواب إذا فُتح أحدها عليك أصبحت الحياة جحيماً لا يُطاق، فإما أن تأتيه طوعاً وإن لم تفعل فلا بد من أن يسوقك إليه خوفاً، وهذه رحمة الله عز وجل، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١))

[سورة السجدة]

((عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل))

أخرجه أحمد بلفظ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَضْحَكَكَ قَالَ قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ))

إما أن يقودك العلم الشرعي إلى أبواب الله، وإما أن يسوقك الخوف إلى أبوابه، وملايين مملينة من الأبواب إذا فُتح أحدها على الإنسان أصبحت حياته جحيماً لا يطاق.

أيها الإخوة، ومع كل ذلك هناك من يقول: مالنا وللعلم، نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت، علمنا من الله مباشرة وعلمكم من أشخاص يموتون، علمنا علم نبع، وعلمكم علم جمع، هذا قول لا أصل له، ولا يقف على قديه، ولا يرضاه النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه يقول:

((إنما العلم بالتعلم))

[أخرجه البخاري]

وإنما أداة حصر..

قيل لأحدهم: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق، فقال ما أصنع بالسماع من عبد الرزاق وأنا أسمع من الخلاق.. يعني يُوحى إليه ادعى الوحي بعد وحي رسول الله.

هناك أشخاص يحتقرون معرفة الكتاب والسنة، ما أفعل بهذا، وأنا ليَ مشرب مباشر من الله عز وجل أستقي منه علمي.

أيها الإخوة الكرام، هذا كلام جهل وكلام شيطاني، فلولا هؤلاء الذين نقلوا لك أحاديث رسول الله، هل كنت تعرف سنته ؟ !!

هذه العبادات التي بينها النبي عليه الصلاة والسلام أنى لك أن تعرفها لولا سنة النبي التي نُقلت لك؟.

هذا الذي يقول أنا أستغني عن كل علم ظاهري وأنا قلبي موصول بالله عز وجل، هذا كلام غير صحيح، ولا أصل له، ولا يقف على قدميه وهو مخالف للكتاب والسنة، قال تعال:

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢))

[سورة يونس آية ٣٢]

أيها الإخوة الكرام، هذا الموضوع يقودنا غلى موضوع آخر منتشر بين المسلمين ؛ هناك علم وهناك حال، العلم أن تعرف الله، العلم أن تعرف ربوبيته، العلم أن تعرف ألوهيته، العلم أن تعرف وحدانيته، العلم أن تعرف أسماءه الحسنى، العلم أن تعرف صفاته الفضلى، هذا هو العلم، أن تعرف أمره ونهيه، أن تعرف حدوده، أن تعرف كل موقف ماذا ينبغي لك أن تفعل هذا هو العلم.

وأما الحال ؛ فشعور مسعد في أرقى صفاته.

السؤال الآن: أيهما أنفع للإنسان، العلم أم الحال، أجيب عن هذا السؤال: بأن نفع الحال لا يتعدى صاحبه، هو مسرور وحده، لكن ربنا عز جل يقول:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠))

[سورة النحل]

الحال لا يتعدى صاحبه، أما العلم فكالغيث يقع على الوديان والآكام ومنابت الشجر، العلم عام، والحال خاص، العلم خاص بك وحدك لا ينتقل إلى أهلك، ولا إلى أولادك، ولا إلى جيرانك، ولا إلى أية جهة أخرى، العلم نفعه عميم، دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة، أما دائرة الحال تضيق عن غير صاحبها، وربما ضاقت عنه أيضاً.

أيها الإخوة الكرام، الحال هش، ضغط يسير تفقده، إغراء طفيف تفقده، بأدنى ضغط تفقد هذا الحال، ولأدنى إغراء تفقد هذا الحال، فهؤلاء الذين يعتمدون الأحوال دون أن يعتمدوا العلم هؤلاء مقاومتهم هشة، نكستهم سريعة لأتفه سبب ينتكسون، لأدنى إغراء ينقلبون على رؤوسهم، المقاومة هشة جداً، الحال لا يصمد أمام أدنى ضغط، والحال لا يصمد أمام أدنى إغراء قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣))

[سورة الأحزاب]

لكن الذي اعتمد الحال دون العلم، لما رأى الكفار واليهود قد أحاطوا بالمدينة، فقال، أيعدنا صاحبكم، أن تُفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته !!.

مقاومة الحال هشة جداً، سمي الحال حالاً لأنه يتحول، ليس مضموناً ليس ثابتاً، لا تستطيع أن تنقله لآخرين، لا يستطيع أن تصرفه، لا يمكن أن تبيعه، لا يمكن أن تقدمه، شيء خاص بك وحدك في أحسن الأحوال.

أيها الإخوة الكرام: ولكنْ، دققوا في كلمة ولكنْ.. ولكنك إذا عرفت الله، معرفةً يقينية، وعرفت منهجه، معرفةً تحقيقية، ثم حملت نفسك على طاعته، جاءك الحال الصحيح، جاءك الحال المسعد

الذي أنت في أمس الحاجة إليه، أنا لا أنكر أثر الحال في النفس، ولكن أرفض أن تعتمد على الحال نفسه، لابد من أن تطلب العلم، لابد من أن تكون عالماً، فإن كنت عالماً كنت عاملاً، فإن كنت عاملاً تُوج هذا بحال يملأ قلبك سعادةً.

الحال شيء مسعد، ولكنه ثمرةٌ طبيعيةٌ عفوية لمن يطيع الله عز وجل ثمرة طبيعية عفوية لمن يجاهد نفسه وهواه، ثمرة طبيعية عفوية لمن يلتزم الأمر والنهي، لذلك أشد الناس قرباً من الله هم العلماء الذين عملوا بعلمهم، وكل مؤمن ينبغي أن يعلم وأن يعمل بعلمه، وهذا مأخوذ من قوله تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢))

[سورة يونس]

أيها الإخوة الكرام، العلم هادٍ والحال مهتدٍ به، بل هناك الشيء الخطير هو أن الحال قد يكون حال شيطاني، لو أن سارقاً دخل بيتاً وحصل من هذا البيت ملايين يشعر بغبطة، يشعر بسعادة، لأنه حقق هدفه من دخول هذا البيت، هل يُعد هذا الحال طيباً، كل إنسان يحقق شيء أراده يصيبه حال اسمه حال الإنجاز، درسناه في علم النفس، الشعور بالإنجاز.. لو أن إنسان ابتغى معصية كبيرةً، ووصل إليها يشعر بحال، فالحال مطلق الحال لا قيمة له، العلم حكم على الحال.

لو أن إنساناً ذهب إلى بلد غربي وعقد صفقة كبيرةً بسعر خيالي من حيث الدنو، وساح خياله بالأرباح الطائلة التي سيجنيها، يشعر بغبطة وسرور، فإن كانت البضاعة محرمة، وإن كانت الصفقة ربوية، وإن كان سلوكه إليها غير صحيح، هو يشعر بحال طيب، هل هذا الحال الطيب يُعد شرعاً صحيحاً ؟.. إطلاقاً.

أيها الإخوة الكرام، العلم تركة الأنبياء وميراثهم، الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورثوا هذا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر، العلم تراث الأنبياء العلم حياة القلوب، القلب الذي لا يحيى بالعلم قلب ميت، العلم نور الصائر، الله عز وجل سمى كتابه الكريم، نوراً مبين.

العلم شفاء للصدور، يعني إذا عرفت الحكم، وعرفت أن هذا العمل يرضي الله، وهذا لا يرضيه، وسلكت طريق مرضاة الله، تشعر براحة ما بعدها راحة.

العلم شفاء للصدور، العلم رياض للعقول، الإنسان عقل ونفس وجسد والعقل غذاؤه العلم، والنفس والقلب غذاؤه الذكر، والجسم غذاؤه الطعام والشراب.

العلم لذة الأرواح، فمن ذاق عرف، ما من شيء أحب للمؤمن من مذاكرة العلم، العلم لذة الأرواح، العلم أنس المستوحشين، العلم دليل المتحيرين، العلم هو الميزان الدقيق الذي تُوزن به الأقوال

والأعمال والأحوال والخواطر، العلم هو الحاكم، المفرق بين الشك واليقين، بين الغي والرشاد، بين الهدى والضلال، هو الحكم، هو المرجع.

بالعلم يُعرف الله، بالعلم يعبد الله، بالعلم يذكر الله، بالعلم يوحد الله بالعلم يحمد الله، بالعلم ينجد الله، بالعلم اهتدى إلى الله السالكون، من طريق العلم وصل إليه الواصلون، من باب العلم دخل عليه القاصدون.

دققوا أيها الإخوة في هذين الآيتين: [الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض]، والسماوات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(١))

[سورة الأنعام]

الآية الثانية:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(١))

[سورة الأنعام]

الظلمات والنور هو العلم والجهل، فالكون كله في كفة، وأن تعرف الله وتعرف حكمته من خلقه في كفة ثانية.

أيها الإخوة الكرام، الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم، رضىً بما يصنع.

بالعلم تُعرف الشرائع والأحكام، بالعلم يُميز الحلال من الحرام، بالعلم توصل الأرحام، بالعلم تُعرف مراضي الحبيب، بالعلم تكون إلى الله قريب العلم هو كل شيء.

من أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم.

العلم هو الطريق الوحيد السالك إلى الله، ينبغي أن تعرف الله، وأن تعرف كتابه، وأن تعرف سنة نبيه، وأن تعرف الأحكام الشرعية، وأن تعرف سيرة سيد المرسلين.

حينما يُكشف الغطاء بعد الموت لا يندم المؤمن إلا على ساعة مضت لم يتعرف إلى الله فيها.

العلم إيمان، والعمل مأمون، العلم قائد والعمل تابع، العلم هو الصاحب في الغربة، إن كنت في مكان غريب عن أهلك ومعك شيء من كتاب الله، فاقرأه، واتله تشعر بالأنس، العلم هو الغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه بعده، العلم هو الحصن الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه. البحث عنه جهاد، يعني قد يكون هناك مسجد إلى جانب بيتك، وأنت لست قانعاً بمن يخطب في هذا

المسجد فرضاً، وتأتي من مكان بعيد إلى مسجد تثق بعلم من يخطب، فهذا الطريق الطويل وركوب السيارات جهاد، حينما تبحث عن الحقيقة، ولو تجشمت المصاعب، هو جهاد.

الذي أعجب له أن الإنسان أحياناً في الشتاء، يهيئ سيارته، ويركبها من طرف المدينة إلى طرفها الآخر ليشتري كيلو فول يعجبه، هل دينك أرخص عليك من كيلو فول، من طرف المدينة إلى طرفها الآخر، ألا تبحث عن الحقيقة ولو بعد المكان، ألا تبحث عن شيء تنتفع به ولو طال الأمد، أليس الدين هو كل شيء، أليست الآخرة هي كل شيء:

((دينك دِينك هو لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

البحث عنه جهاد، طلبه قربة من الله عز وجل، بذله صدقة، الإمام أحمد يقول إمام دار الهجرة: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرتين أو ثلاثة أما حاجته إلى العلم فبعدد أنفاسه، لو مرت امرأة ولم يغض بصره عنها وتعلق قلبه بها حُجب عن الله، فلو عرف أن غض البصر أمر إلهي.

تحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرتين أو ثلاث، ولكنك تحتاج إلى الله وإلى معرفة منهجه بعدد أنفاسك كل يوم.

((إن الرجل ـ مثلاً ـ ليتكلم بالكلمة لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

الإمام الشافعي يقول: طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة.

قال بعض العلماء: كنت بين يدي الإمام مالك، إمام دار الهجرة هذا فوضعت ألواحي ـ يعني دفاتري ـ وقمت لأصلي صلاة النافلة، فقال الإمام مالك: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه. لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المتأولين، وتحريف المبطلين))

العلم حجة الله في أرضه، ونوره الذي فيه كتابه.

أيها الإخوة الكرام، طلب العلم فريضة على كل مسلم، فريضة، لأنك تحتاج إلى الله تحتاج إلى رحمته، رحمته بالعلم، أو باتباع منهجه، فلا بد من أن تعرف الله، وأن تعرف منهجه، ولابد من أن تحمل العلم الصحيح ولابد من أن تُراجع كل ما علق بذهنك من خرافات وأباطيل وانحرافات تبتعد عن منهج الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى خيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، شيء لا يُصدق ؛ أن متراً مكعباً من التربة الزراعية، تراب أحمر متراً مكعباً من التربة الزراعية، التي نستخدمها للزراعة، في هذا المتر المكعب ما يزيد عن:

مئتي ألف من الديدان العنكبية.

وعن مئة ألف من الحشرات.

وعن ثلاثمئة من ديدان التربة العاجية.

وعن آلاف الملايين من الجراثيم والكائنات المتناهية في الدقة.

وأن غرام واحد من هذه التربة يحتوي على عدة مليارات من البكتريات، هي مخلوقات متناهية في الدقة على شكل عصيات، أو على شكل كريات، أو على شكل لوالب، بعضها يحتاج إلى الأكسجين بعضها لا يحتاج، بعضها عارٍ، بعضها له أهداب تمكنه من الحركة.

بالغرام الواحد عدة مليارات من البكتريا.

أيها الإخوة الأكارم، هذه الكائنات المئتا ألف من الديدان العنكبية، والمئة ألف من الحشرات، والمئة ألف إلى ثلاثمئة، الدود، هذه الكائنات في هذا المتر المكعب تجعل من هذا المتر المكعب مصنعاً دائم الحركة يقوم بمهمات، هي أكثر خطورة من وجود الإنسان على وجه الأرض، لو أن الجنس البشري أبيد لاستمرت الحياة، الجنس البشري كله، لو أن خمسة آلاف مليار، الحياة مستمرة، أما إذا أبيدت هذه الكائنات من هذه التربة، تنتهي الحياة من على سطح الأرض.

هذه الكائنات، تقوم بمهمات هي من أشد المهمات غموضاً واستغلاقاً حتى كاليوم.

أيها الإخوة الكرام، شيء من هذه الأشياء ؛ الأوراق لها أوراق خضراء، تتساقط، ماذا تفعل هذه الكائنات، تأتي الرياح توزعها على التربة، تأتي مليارات الكائنات المجهرية، فتلتهمها، تلتهم هذه الأوراق، تلتهم أوراق الأشجار فإذا التهمتها، تصبح غذاءً صالحاً لكائنات أكبر منها وهي وحيدة الخلية فإذا التهمتها تصبح غذاءً صالحاً لكائنات أرقى منها هي البكتريات، ثلاثة مراحل، تُلتهم وتفرز، إفرازها غذاء لكائنات أعلى، تُلتهم وتفرز إفرازها غذاء لكائنات أعلى.

هذه العمليات الحيوية تحتاج إلى هواء، من أين الهواء ؟ لابد من الديدان الثلاثمائة، هذه الديدان تفتح أنفاقاً داخل التربة، كي تؤمن الأكسجين لعمل البكتريات.

في بعض البلاد في اليابان حيث ألقيت القنبلة الذرية، قديماً لا تزال التربة حتى الآن لا تنبت نباتاً لأنها قضت على هذه الكائنات، فأنت ماذا ترى، ترى تراب، قال تعالى:

(لَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩))

[سورة الحاقة]

هذه الديدان ـ أيها الإخوة ـ ديدان الثلاثمائة تلتهم التراب وتفرز السماد ولا أدري ـ كما يقول كاتب المقالة ـ كم من الأطنان تنتجها الديدان في الهكتار الواحد، هذه الديدان تفتح الأنفاق، وتهوي التربة، وتأكل التراب وتنتج السماد، مئات الأطنان في الهكتار الواحد تنتجها هذه الديدان.

كون عظم، وخالق حكيم، وشرع قويم، فأين نحن ذاهبون ؟ كيف نبتعد عن الله ؟.. كيف نهمل شرعه ؟.. كيف لا نرجو رحمته ؟ كيف لا نخاف عقابه ؟ هذه آية من آيات الله، متر مكعب من التراب، في أي تربة زراعية، ملايين مملينة، بالغرام الواحد عدة ملايين من البكتريات كائنات، أحياء دقيقة جداً، وديدان، وعناكب، وحشرات، معمل قائم بذاته، أما أغرب ما في هذا الموضوع، أن الجنس البشري لو أبيد لبقيت الحياة مستمرة، أما إذا أبيدت هذه الكائنات لانتهت الحياة على سطح الأرض.

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦))

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٥٩ : خ١ -الأمانة ، خ٢ - تأثير المشروبات الغازية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٥-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

كان موضوع درس الاثنين في جامع العثمان آية من آيات الأحكام وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨))

[سورة النساء آية ٥٨]

وقد تمنى عليَّ أحد الإخوة أن يكون هذا الموضوع المهم جداً والذي يتصل بحياة كل مسلم في كل دقيقة من حياته، أن يكون هذا الموضوع موضوع خطبة هذه الجمعة.

أيها الإخوة الكرام:

إن الله يأمركم ؛ أي أمرٍ في القرآن الكريم يقتضي الوجوب.. إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات ؛ لم يقل أن تؤدوا الأمانة، الأمانات، لأن الأمانات التي أنيطت بالإنسان كثيرة جداً.

ويقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧))

[سورة الأنفال]

الأمانة أيها الإخوة شيء عظيم، وشيء خطير، وشيء مصيري ولكن المسلم الذي لم يطلب العلم، قد يفهم الأمانة فهماً ساذجاً، فهماً ضيقاً جداً قد يفهما اسماً لشيء يُودع عند الآخرين ليحتفظوا به ويحفظوه ثم ليؤدوه كما تسلمون، هذا بعض من معاني الأمانة، ولكنه ضيق جداً إذا وزن بالمعاني الواسعة والشاملة والمتعددة للأمانة.

أيها الإخوة الكرام:

للأمانة مفهومات واسعة جداً، وعميقة جداً، ومتعددةٌ جداً، هي أحد الفروع الخلقية لحب الحق، وإيثاره، وهي ضد الخيانة، وهي عفة عن المحارم وعفة عن المطامع، من دون أن يكون المرء مداناً في الأرض.

هي هذه الأمانة، أما إذا وقعت سنداً، وقعت إيصالاً، وخصمك بإمكانه أن يأخذه منك بالقوة، فإذا أديت ما عليك فهذا سلوك مدني، أما حينما لا تكون مداناً على سطح الأرض، وتؤدي ما عليك تعبداً لله عز وجل، وخشية منه، فأنت من أولي الأمانة.

أيها الإخوة الكرام:

الأمانة سؤال، والأمانة حساب، والأمانة إدانة، والأمانة جزاءٌ في كل ما أُوكل إليك، أي شيء أُوكل أمره إليك، وأطلقت يدك في التصرف فيه، لك أن تضيع ولك أن ترعى، لك أن تنحرف ولك أن تستقيم، لك أن تكذب ولك أن تصدق، لك أن تنصف ولك أن تظلم.

أي شيء أُطلقت يدك فيه وأنت مخير بإمكانك أن تُحسن وبإمكانك أن تسيء، بإمكانك أن ترعى، وبإمكانك أن تنصف، وبإمكانك أن تظلم بإمكانك أن تحابي، وبإمكانك أن تتجنب المحاباة، الشيء الذي أنيط أمره إليك مادياً كان أو معنوياً، شخصاً أو شيئاً، مهمة أو مسؤوليةً، هذا أوسع معنى. أي شيء أنيط بك، وأطلقت يدك فيه فهو أمانة في عنقك، وسوف تُسأل عنه سؤالاً دقيقاً. أيها الإخوة الكرام:

روى الإمام البخاري في صحيحه:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهم عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد]

معلم الصف مسؤول عن طلابه، ومدير المدرسة مسؤول عن كل المدرسة بما فيها من موظفين وطلاب، ومدير التربية مسؤول عن كل نشاطات التعليم في المحافظة، والذي يقع على رأس وزارة التربية مسؤول عن كل طلاب القطر، يقول سيدنا عمر رضي الله عنه: " والله لو تعثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها، لمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر ".

أي شيء أنيط أمره إليك، وأطلقت يدك فيه وأنت مخير، ومعك منهج فغن رعيته نجوت، وإن أهملته وقعت، إن صدقت صاحبه نجوت، وإن كذبته وقعت، إن كنت أميناً نجوت، وإن خنته وقعت، إن أحسنت نجوت وإن أسأت وقعت.

أيها الإخوة الكرام:

أعظم أمانة على الإطلاق أمانة التكليف، الله جل جلاله، وضع نفسك أمانة في عنقك، فإما أن تعرفها بالله، وإما أن تبقيها جاهلة، إما أن تحملها على طاعة الله، وإما أن تتساهل في انحرافها، إما أن تعرفها برسول الله، وإما أن تعرفها بأشخاص تافهين، إما أن تعرفها بالسنة المطهرة، وإما أن تعرفها بمناهج أرضية، من وضع البشر، كثيراً ما تنحرف، إما أن تعرفها بالكمالات الإنسانية، وإما أن تغمسها بالشهوات الحيوانية، إما أن ترقى بها، وإما أن تسقطها، إما أن تسمو بها وإما أن تدعها في الوحل، نفسك أمانةٌ بين يديك والدليل على هذا قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠))

[سورة الشمس]

نفسك أمانة بين يديك، لابد من أن تطلب العلم، لتعرف أين موقعك:

هل أنت مع المؤمنين ؟

أم مع المنافقين لا سمح الله ؟

أم مع الكافرين ؟

هل أنت مستقيم على أمر الله أم منحرف أشد الانحراف ؟

هل تكسب المال الحلال أم تأخذ المال الحرام ؟

هل أنت منصف أم جاحد ؟

هل أنت مستقيم أو منحرف ؟..

نفسك أمانة بين يديك، أفلحت ونجحت وفزت وتفوقت إذا زكيتها.

كيف تزكيها ؟

تعرفها بربها، تطلب العلم، تحملها على طاعتها، تحملها على التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة وخدمة عباده، فإذا وصلت النفس إلى الله فقد زكيتها، وإذا كانت بعيدة عن الله فقد دسيتها، وقد خاب من دساها، وهذا الموضوع أيها الإخوة شرحته كثيراً في مواطن كثيرة ولا يحتاج أكثر من ذلك. أيها الإخوة الكرام:

ما لم يكن المرء أميناً على نفسه من أن تضل، أميناً على نفسه من أن تزل، أميناً على نفسه من أن تضعف عن فعل الخيرات، لن يكون أميناً مع الخلق، أمانة الخلق أساسها أن تكون أميناً مع نفسك، إن كنت أميناً مع نفسك وجب أن تكون أميناً مع الخلق.

فهذه النفس التي بين جنبيك، التي هي أقرب شيء إليك، إذا أهملتها إذا حملتها على المعصية، إذا تفلتت من منهج الله، إذا أساءت ولم تحسن، كيف تكون أمينة مع الخلق، هذا الذي يقوله الله عز وجل:

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧))

[سورة البقرة]

أشد أنواع الظلم أن تظلم نفسك، أن تنسى مهمتك، أن تنسى هويتك أن تنسى رسالتك، أن تنسى مصيرك، أن تنسى إلى أين أنت ذاهب أن تنسى ماذا بعد الموت، لماذا خُلقت.

هذا أشد أنواع الظلم، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً (١٠٦))

[سورة الكهف]

هذه أمانة التكليف.

الأمانة العظمى التي أنيطت بالأنبياء والرسل هي أمانة التبليغ، هذه الأمانة حُملت للأنبياء والمرسلين، الذين هم أمناء وحي السماء وقد رعوها حق رعايتها، وأدوها على الوجه المطلوب، فظهرت في عصورهم بطولات فذة، ومجتمعات فاضلة، مكنت قوى الخير من أن تنتصر على قوى الشر.

أيها الإخوة الكرام:

أمانة التبليغ هي الأمانة العظمى.. توفي ابن سيدنا رسول الله إبراهيم " فقال: إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ". وقد توافق موت إبراهيم مع كسوف الشمس، فظن الصحابة جميعاً أن الشمس كُسفت لموت إبراهيم.

لأنه أميناً على وحي السماء، لأنه أميناً على ما يُوحى إليه، جمع أصحابه وقال:

((عن أبي بَكْرَةَ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْكَسَفَتِ الشَّمْسُ فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلْنَا فَصَلَّى بِنَا رَكْعَتَيْنِ حَتَّى انْجَلَتِ الشَّمْسُ فَقَالَ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يُكْشَفَ مَا بِكُمْ))

[أخرجه البخاري والنسائي وأحمد]

أمانة التبليغ أمانة عظمى، أما أمانة التبيين فهي أمانة العلماء، هؤلاء الذين أوكلت إليهم مهمة تبيين منهج الرسل، هم ورثة الأنبياء، أمناء الرسل، وقد أدى الأصحاب الكرام، والتابعون الأعلام، والعلماء العاملون المخلصون من بعدهم هذه الأمانة، وحفظوا ميراث النبوة وتحملوا مسؤولية الأداء، وما تنصلوا وما تعللوا، وما اعتذروا وما ألقوا ذلك على عاتق غيرهم، فكانت مجتمعاتهم أيضاً بشكل أو بآخر امتداداً لعصور الازدهار.

بمَ نلت هذا المقام يا إمام ؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي.

أمانة التبيين، الذين يبلغون رسالات الله، ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله، وكفى بالله حسيباً. هذه أمانة التبيين، أمانة العلماء.

أيها الإخوة الكرام:

صنفان من الناس، إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس لأمراء والعلماء.

هناك أمانة ثالثة أمانة الولاية.

وكلك الله على ثلاثين طالباً، وكلك الله على مستشفى، وكلك الله على معمل، وكلك الله على عشرة موظفين، وكلك الله على عمل من الأعمال، عمل قيادي، هذه أمانة الولاية، هذه الأمانة تكمل أمانة التبليغ وأمانة الأداء.

تروي فاطمة بنت عبد الملك، زوجة الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، خامس الخلفاء الراشدين، قالت، دخلت على عمر يوماً في مصلاه، واضعاً يده على خده ودموعه تسيل، فقلت له: ما بالك ؟ وفيمَ بكاؤك ؟..

قال: ويحك يا فاطمة، إني قد وُليت هذا الأمر، ففكرت في الفقير وفي الجائع، وفي المريض الضائع، وفي العاري المجهول، وفي اليتيم المكسور، وفي المظلوم المقهور، والغريب والأسير والشيخ الكبير والأرملة الوحيدة، وذي العيال الكثير، والرزق القليل، وأشباههم في أطراف البلاد، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم جميعاً يوم القيامة، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خصمي دونهم، فخفت أن لا تثبت لي حجة، فلهذا أبكي ".

امتحن سيدنا عمر أحد الولاة، قال له ماذا تفعل إن جاءك الناس بسارق ؟..

قال: أقطع يده، فق شريعة الإسلام.

قال: إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك.

إن الله قد استخلفنا عن خلقه، لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك، تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة، قبل أن تشغلك بالمعصية ".

من فروع هذه الأمانة، أمانة التولية.

أنت معلم بصف، عينت عريف، آتِ بهذا المثل البسيط ولكنه خطير.

" عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني (عيني) قال فضرب بيدي على منكبي، ثم قال يا أبا ذر إنك لضعيف وإنه لأمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها ".

دققوا في هذه الأحاديث الثلاثة:

يقول عليه الصلاة والسلام: " من استعمل رجلاً في عصابة، وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ".

يعني إذا عينت عريف على ثلاثين طالب، عينته لسبب، لسبب قرابة مثلاً، أو لسبب محاباة، وفي هذا الصف من هو أجدر منه بهذا فقد خنت الله ورسوله ".

وعن سيدنا عمر قال: " من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة لا يستعمله إلا لذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ".

" ومن ولي من المسلمين شيئاً وهو يعلم أن في المسلمين من هو خير منه للمسلمين، وأعلم بكتاب الله وسنة رسوله، فقد خان الله ورسوله وخان المسلمين ".

يعني أنت في مستشفى، يجب أن تعيين أمهر طبيب في هذا القسم أنت في معمل، أنت في مدرسة، أنت في صف، هذه أمانة، وسوف تُسأل عنها يوم القيامة.

من أنواع الأمانات أمانة الواجب.

أنت مكلف بعمل ؛

هل نصحت أم غششت ؟

هل أتقنت أم أهملت ؟

هل أنصفت أم ظلمت ؟

هل أحسنت أم أسأت ؟

هل رحمت أم قسوت ؟

هل حفظت أم ضيعت ؟

هل أعطيت أم منعت ؟

فالطالب أمانة في عنق معلمه، المريض أمانة في عنق الطبيب، هل

والموكل أمانة في عنق المحامي، والخصمان المتنازعان أمانة في عنق القاضي.

والأبنية والمنشآت، أمانة في عنق المهندس.

والشجرة والنبتة، أمانة في عنق الزارع..

والمستهلك أمانة في عنق البائع.

والمواطن المُراجع أمانة في عنق الموظف.

ويدخل في هذه الأمانة أمانة الأموال، البيوع، والديون، والمواريث والودائع، والرهون، والعواري، والوصايا، والهبات، وأنواع الولايات الكبرى والصغرى، وغير ذلك.

في أمانة الأعراض: كف النفس، والسمع والبصر واللسان واليد والغيبة.

في أمانة الأجسام والأرواح كف النفس واليد عن التعرض لها بسوء من قتل أو جرح أو ضر أو أذى..

ويدخل في هذا الأمانة العلمية، وهي صحة النقل، ونسبته إلى صاحبه، من دون تحريف أو تزوير، أو انتحال، أو حذف، أو زيادة أو تدليس..

وكم من الضلالات انتشرت عن طريق تدليس النصوص، وعزوها إلى غير أصحابها، هذا من الخيانة، أن لا تحسن النقد، أو أن تسيء النقد أو أن تزور أو أن تضيف، أو أن تحذف، أو أن تدلس. ومن هذه الأمانة صيانة الابتكار، والاختراع وعدم التقليد وعدم تقليد

العلامات التجارية، يدخل في هذا الموضوع.

ومن الأمانة صيانة الحقوق الأدبية هذا من الأمانة

يقول صلى الله عليه وسلم:

((إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه، قلّت رعيته أم كثرتأحفظ ذلك أم ضيعه ؟ حتى يسأل الزوج عن زوجته، والوالد عن ولده والسيد عن خادمه، هل أقام فيهم أمر الله ؟..))

[رواه النسائي وابن حبان عن أنس، ورواه ابن عساكر عن أبي هريرة]

هؤلاء الذين أنيطوا بك، صاحب معمل، عندك عمال، هل أوقفت العمل نصف ساعة لصلاة الظهر؟

هل بنيت لهم مسجداً في المعمل ؟

هل اهتممت بدينهم، أم أنهم يقدمون لك كل جهدهم، وأنت مرتاح على عملهم الدؤوب ولا تعبأ بدينهم ؟

أية إنسان أنيط أمره إليك سوف تسأل عنه

" إن الله يسأل العبد عن صحبة ساعة ".

أمانة المجالس:

ومن معاني الأمانة، أن تحفظ حقوق المجالس، فلا تدع لسانك يفشي أسرارها، ويسرد أخبارها، فكم من حبال تقطعت وكم من مصالح تعطلت لاستهانة الناس بأمانة المجالس.

إنسان سألك، يستنصحك عن إنسان، نصحته، فذهبت إلى هذا الإنسان قلت له فلان نصحني أن لا أشاركك، لقد خنت أمانة المجلس نصحني أن لا أزوجك.. ماذا فعلت أنت ؟ ألقيت قنبلة، شققت الصف الإسلامي أورثت العداوة البغضاء بين المؤمنين، استنصحك، ونصحته والمجلس بالأمانة.

أيها الإخوة الكرام:

دققوا في هذا في هذا الاستنباط النبي الرائع:

((إذا حدث الرجل رجلاً حديثاً، ثم التفت فهو أمانة))

[رواه أبو داود]

يحدثك حديث، سمع وقع أقدام، فالتفت، التفاته يعني أن هذا الحديث ينبغي أن يبقى سراً بينك وبينه.. أمانة

أمانة الإفتاء.

إنسان على فراش الموت، رفع يديه الاثنتين وقال يا رب: أنا تائب من كل فتوى أفتيتها فيما لا يرضيك..

ولكن الفتوى صدرت، والناس عملوا بها.

أفتى رجل مرة في بعض البلاد الإسلامية بما لا يرضي الله عز وجل في شؤون المصارف، ثلاث وثمانون مليار أودعت في اليوم التالي بناءً على فتواه، الفتوى جسر إلى جهنم، والمؤمن جبان في الفتوى، ينتظر.

هناك من يفتي بعلم، نرجو أن ينجوا من عذاب الله، وهناك من يفتي بغير علم، هذا محاسب أشد الحساب، أما المجرم هو الذي يأتي بخلاف ما يعلم يعرف الحقيقة، ويفتي بخلافها لمصلحة شخصية، أو لمكان يبحث عنه.

أمانة القضاء.

ويل ثم ويل ثم ويل لقاضي الأرض من قاضي السماء

يأتي على القاضي العدل يوم القيامة، ساعة، يتمنى أن لو لم يقض بين اثنين في تمرة.

طُرق باب أحد القضاة، قال غلامه يا سيدي رجل قدم لك هذا الطبق من الرطب في بواكيره، قال صفه لي، قال صفته كيت وكيت، قال رده إذاً هذا الرجل أحد المتخاصمين عنده، بعد يومين، قابل الخليفة ليعتذر من منصب القضاء، قال لمَ، قال لأن هذا الذي قدم إلي الطبق وردته في اليوم التالي وأنا على قوس المحكمة، تمنيت أن يكون الحق معه، مع أني رددته فكيف لو قبلته.

القضاء أمانة " يأتي على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى أن لو لم يقض بين اثنين في تمرة".

الصناعة أمانة.

في صناعة مؤذية، في صناعة غذائية مسرطنة، في مواد غير بشرية هذا الذي يبتغي الربح فقط، وهذا الموضوع يحتاج إلى مجلدات، أي إنسان يصنع صناعة غذائية، سيحاسب أشد الحساب، هؤلاء المسلمون في رقبته أيعقل أن تضع صباغاً صناعياً في غذاء، صباغ بلاط يوضع في السكاكر أحياناً.

لذلك إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

هذا الذي يستهين بصحة المسلمين، يقدم لهم غذاءً فاسداً، هذا الذي يبيع الدواء انتهى مفعوله، هذا الذي يضع مواداً مبيضة ليست غذائية بل صناعية، من أجل أن يرتفع السعر قليلاً سيحاسب أشد الحساب.

موضوع طويل لا ينتهي لساعات.

أمانة الصناعة فقط.

رجل عنده تنكة زيت، رأى فيها فأراً، صنعها صابوناً ولم يبعها للمسلمين هذا الذي يبيع مادة غذائية نجسة، ما الذي يعلم هذا الشاري أن هذه التنكة فيها فأرة، يبيعه، خان أمانة الله وأمانة رسوله.

قضية الأمانة قضية تدور مع الإنسان كل دقيقة، كل ثانية، في بيتك في طريقك في عملك، في تصليح المركبات، كم من حادث بسبب الإهمال، بسبب أن صاحب المحل كلف طفلاً صغيراً لشد هذا البرغي لم يحسن إحكامه، تسرب الزيت، واحترق المحرك، ووقف صاحب المركبة تحت الشمس، أصابته ضربة شمس فمات.

طفلة بريئة في عمر الزهور، وقع عليها صحن من الأعلى، بصرف النظر عن مشروعية الصحن، موضوع آخر هذا، فقتلها، فلما بحثوا عن الذي ركب هذا الصحن، أهمل تركيبة، برغيان فقط بدلاً من ستة جاءت الرياح فوقع على رأس فتاة فقتلها.

الأمانة دقيقة جداً، في صناعتك، في تجارتك.

هذا الذي يضع مواد هرمونات، لتنمو الفواكه نمو كبير، ليحصل أسعار عالية، والهرمونات محرمة دولياً، ممنوع بيعها في كل أنحاء القطر، هذا الذي يشتريها تهريباً، ويضعها بالنباتات كي يكبر حجمها ويرتفع السعر على حساب صحة الناس، سيحاسب أشد الحساب.

هذا الموضوع يدور مع كل المسلمين، في كل شؤون حياتهم.

الله ثالث الشركين، ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خان أحدهما صاحبه خرج الله من بينهما، أو كلهما إلى أنفسهما.

هل تصدقون ورد في بعض الأحاديث أن ترك السلام على الضرير خيانة.

هو لا يراك، لكنك تراه، لمَ لم تسلم عليه.

أيها الإخوة بشارة، الأمانة غنىً، إن أرت أن تكون غنياً، إن أردت أن يتسع رزقك، أن يزيد مالك فكن أميناً، قال عليه الصلاة والسلام:

" الأمانة غنىً "

الأمانة غنىً بالمفهوم الواقعي، بالمفهوم الاقتصادي، تصبح غنياً إذا كنت أميناً.

أيها الإخوة:

إن التقصير في أداء الواجبات، يدخل الشبهة على المال الذي يكسبه المقصر، يعني أي مال تكسبه من عمل قصرت فيه في أداء الأمانة يصبح هذا المال حراماً.

" يقول العبد يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له ".
" يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ".

" أربع لا يقبلن، نفقة من خيانة، أو سربة أو غلول، أو مال يتيم في حج ولا في عمرة ولا في جهاد ولا في صدقة ".

المال الذي تحصله من خيانة، من تقصير في أداء الواجب لا يُقبل عند الله لا في حج.. " يقول يا رب لبيك اللهم لبيك، يناديه منادٍ في السماء أن لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك ".

لا في حج، ولا في عمرة، ولا في جهاد، ولا في صدقة..

أيها الإخوة الكرام:

هذا هو الدين، الدين ليس أن تصلي صلاةً جوفاء في المسجد، وانتهى الأمر، ليس أن تصوم رمضان وتأكل ما لذ وطاب عند الإفطار وتسهر إلى ما قبل السحور على أجهزة الإعلام، ليس هذا هو الدين، الدين أن تكون مستقيماً في بيعك وشرائك، في حلك وترحالك، في مهنتك في طبك في هندستك، في تدريسك، في شؤون حياتك.

أيها الإخوة الكرام:

في اكثر من تسعة وتسعين حديثاً شريفاً أحصيتها اليوم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ثلاث من النفاق ـ وإن صلى صاحبها، وصام وزعم انه مسلم ـ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أتمن خان "))

الموضوع لا ينتهي بخطبة، ولا تحويه ساعة، ولا مجلد، إنه مهمتك على وجه الأرض، نفسك أمانة، زوجتك أمانة، هل دللتها على الله ابنك أمانة هل ربيته وفق ما يرضي الله، هل عرفته بربه ؟ هل عرفته بمنهج الله ؟ هل عرفته برسول الله ؟ هل عرفته بأصحابه الكرام ؟ هل علمته القرآن ؟ هل زوجته في الوقت الناسب قبل أن ينحرف ؟ ابنك أمانة.

بنتك أمانة، هل صنتها ؟ هل رافقتها، هل ضبط أخلاقها، هل زوجتها من يرضي الله عز وجل ؟ " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجه ".

في أي عمل، أي عمل على الإطلاق تدخل فيه الأمانة، هل أديته متقناً هل نصحت المسلمين، هل كنت صادقاً فيه، هل اهتممت بما يترتب عنه هذا الموضوع أيها الإخوة هو الدين، الدين هو الأمانة.
عود على بدئ..

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨))

[سورة النساء آية ٥٨]

الآية الأخرى فيها نهي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧))

[سورة الأنفال]

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبـل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد المـوت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد للـه رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام :

بحث مجموعة من الأطباء موضوع علاقة كثرة تعاطي المشروبات الغازية التي يتناولها الأولاد والبنات في سن المدرسة، مع نسبة حدوث الكسور في عظامهم، فوجدوا أن هناك رابطاً قوياً بين زيادة استهلاك هذه المشروبات الغازية مع ازدياد نسبة كسور العظام، واستنبط العلماء من هذه الدراسة أن زيادة استهلاك المشروبات الغازية، وقلة تناول الحليب، عند طلبة المدارس له أهمية كبيرة، إذ يتعرض هؤلاء الصغار بمرض هشاشة العظام.. إذا أقللنا من الحليب وأكثرنا من المشروبات الغازية، وذلك بسبب وجود حمض الفسفوريك، في المشروبات الغازية وقلة تناول الكالسيوم الموجود في الحليب، والأثر السلبي على العظام والأسنان بشكل دقيق.

وهذا الأمر أيضاً له شق آخر، وجدوا أن هناك علاقة بين ازدياد استهلاك هذه المشروبات مع حصيات الكلية، فتمت دراسة على ألف رجل يكثرون من شرب هذه المشروبات الغازية، فوجدوا ألف رجل مصابون بحصيات في الكلية، فتتبعوا أساليب حياتهم، فإذا هم يستهلكون في اليوم مائة وستين ميللتر من المشروبات الغازية، فربطوا بين ازدياد الحصيات الكلوية وبين النهم الشديد في شرب هذه المشروبات الغازية لذلك هذه مقالة طويلة جداً أخذت منها بعض الفقرات، نشرت في بعض المجلات التي تصدر في الكويت العربي، في العدد آذار ١٩٩٨، فأيها الإخوة الكرام لنعد إلى أصول حياتنا.

الأطيبان هما اللبن والتمر، والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا شرب الحليب يدعو ربه بالزيادة " اللهم زدنا منه " هذا مرمم للعظام فيه كالسيوم يعني إذا خُيرت بين كيلو حليب وبين علبة مشروبات غازية، بينهما مسافة كبيرة جداً لا يجمعان في موازنة بين الاثنتين، وهؤلاء الصغار أبناؤنا سبب تسوس أسنانهم الشديد، وهشاشة عظامهم، هكذا الدراسة تقول، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٦٠ : خ١ -أخلاق الإسلام (العلاقة بين الأخلاق والإيمان) ، خ٢ - مقارنة في الإيثار بين الأمس واليوم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٦-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

موضوع الخطبة اليوم، علاقة الأخلاق بالإيمان، فالإيمان هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان، كتمييز لهذا الموضوع الخطير ؛ يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَقَالَ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ فَانْطَلِقْ مَعِي فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ لِيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمُ اللَّهُ مِنْهُ أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يَتْبَعُ أَوَّلُهَا آخِرَهَا الْآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الْأُولَى قَالَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةِ قَالَ قُلْتُ بِأَبِي وَأُمِّي فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ لَقَدِ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةَ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ ثُمَّ انْصَرَفَ فَبُدِئَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ))

[أخرجه أحمد والدارمي]

وفي رواية أخرى:

((عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد]

أثمن شيء على الإطلاق أن تعرف الحقيقة المطلقة، أن تعرف الله لأن أساس السعادة العمل، وأساس العمل صحة العقيدة، وما من إنسان على وجه الأرض إلا ويبحث عن سلامته وسعادته، بحكم فطرته وسلامتُهُ وسعادتُهُ بطاعة ربه والتقرب منه، وأساس هذه السعادة الاستقامة والعمل الصالح، ولن ستقيم ولن تعمل صالحاً إلا إذا عرفت الله، إلا إذا عرفت ما عنده من عطاء كبير وما ينتظر الذي يعصيه من عذاب أليم.

لابد من معرفة الحقيقة، فإن بحثت عنها فأنت من بين البشر، وإن ألغيت طلب الحقيقة هبطت عن مستوى بني البشر، ما من جهة في الكون معها الحقيقة المطلقة إلا الله:

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦))

[سورة الجاثية]

(وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ)

[سورة آل عمران]

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠))

[سورة البقرة]

ما من جهة معها الحقيقة المطلقة، معها الحق الذي لا ريب فيه معها الحق الذي لا خلل فيه ولا نقص فيه ولا زيادة فيه ولا تناقض فيه ولا ضعف فيه إلا الله، فإن أردت الحقيقة فابحث عنها من خلال الوحي ابحث عنها من خلال السنة التي هي وحي غير متلو.

لو أن إنساناً وقف أمام باب عليه أقفال كثيرة، باب ضخم حديدي مثبت بجدر متينة، صلبة قاسية، وأراد أن يفتح هذا الباب، فقد يستخدم المعاول ليهدم الجدار ليخلع الباب، ليحطمه، يبذل جهداً لا حدود له قد يصدر أصواتاً لا تُحتمل، قد يقع في مشكلات مع الآخرين لا تقاوم، قد تنشأ خصومات، قد تقترن العداوات، لو أمسك بمفتاح لا يزيد وزنه عن عشرين غرام وفتحه لانفتح الباب ودخل، فشتان بين من يأتي البيوت من ظهورها، وبين من يأتي البيوت من أبوابها..

إن أردت أن تصل إلى سلامتك فعليك بطاعة الله.

وإن أردت أن تصل إلى سعادتك فعليك بالتقرب منه بالأعمال الصالحة قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠))

[سورة الكهف آية ١١٠]

إنك إن أطعت الله ماذا ينتظرك ؟.. قال تعالى:

(حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧))

[سورة الروم]

أنشأ الله لك حقاً عليه..

((عن مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا

مُعَاذُ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ ابْنَ جَبَلٍ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ فَقَالَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

أنشأ الله لك حقاً عليه ألا يعذبك، أنشأ الله لك حقاً عليه أن ينصرك أنشأ الله لك حقاً عليه أن ينجيك من كل المخاطر.

(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣))

[سورة يونس]

ومن أبرز هذه الثمار اليانعة التي يقطفها المؤمن قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١))

[سورة النساء]

أرأيتم إلى هذه الآية، إذا كان للكفار على المؤمنين ألف سبيل وسبيل ما معنى ذلك ؟ أن هناك ضعفاً في الإيمان، أن هناك خللاً خطيراً في الإيمان، قال المفسرون: إن الله سبحانه وتعالى لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً منه إلا.. متى يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ؟ إلا أن يتواصوا بالباطل، ولا يتناهوا عن المنكر، ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسليط العدو من قبلهم، قال تعالى:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠))

[سورة الشورى]

ويدل على هذا المعنى قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث ثوبان:

((حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، عندئذ يسلط الله عليهم عدوهم فيستبيحهم))

[أخرج مسلم والترمذي وابن ماجة وأبو داود]

أيها الإخوة الكرام:

حينما يجعل بأس المسلمين بينهم، حينما تقع بينهم العداوة والبغضاء حينما يكفر بعضهم بعضاً، حينما يأخذ بعضهم أموال بعض بغير حق حينما يظلم بعضهم بعضاً، يجعل الله للكافرين عليهم سبيلاً، يجعل الله للكافرين عليهم ألف سبيل وسبيل.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥))

[سورة النور]

كل البشر على الإطلاق يبحثون عن سلامتهم، وعن سعادتهم سلامتهم في طاعة الله، وسعادتهم في التقرب منه، من خلال خدمة عبادة:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠))

[سورة الكهف آية ١١٠]

أساس السعادة صحة العمل، وصحة العمل لا تكون إلا بمعرفة الحقيقة المطلقة.

أيها الإخوة الكرام:

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، يعني مركبة توقفت ماذا ينفعك أن تصيح ؟ ماذا ينفعك أن تبكي ؟ ماذا ينفعك أن تتبرم ؟ ماذا أن تشتكي ؟ ينفعك أن تبحث عن الخلل، لأن لله قوانين، لله سنن لله قواعد ثابتة، ابحث عن الخلل.

إذا كان قوله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥))

إن لم تكن مستخلفاً، إن لم تكن ممكناً، إن لم تكن مطمأناً، إن لم يدافع الله عنك، إن لم ينصرك الله عزوجل، ابحث عن الخلل، إما أن تبحث عن خلل جماعي، والأحسن لك أن تبحث عن خللك الفردي.

انج بنفسك أولاً، ابحث عن الخلل في بيتك في دخلك في إنفاقك في تربية أولادك، في علاقاتك، في حلك وترحالك، في إقامتك وسفرك في كسبك للمال في إنفاقك للمال، ابحث عن الخلل، فإن وصلت الى الحقيقة وطبقت الحقيقة انتظرت وعد الله عز وجل، وإن الله سبحانه وتعال لا يخلف الميعاد.

أيها الإخوة الكرام:

منهج الله كامل، منهج الله لا يقبل الخلل، لو أن مركبة نقص أحد أجهزتها الرئيسة إنها واقفة لا تسير، لا تسير إلا إذا استكملت مقومات السير، وأنت أيها الإنسان لا تستطيع أن تسير إلى الله، ولا أن تتصل به ولا أن تقبل عليه ولا أن ترجو رحمته، إلا إذا استكملت وسائل السلامة والسعادة.

أيها الإخوة الكرام:

النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاء بهذه الدعوة الكريمة العظيمة ماذا قال أصحابه عنه، قال: " كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً، (هل قالوا رجلاً ذا مال ؟.. ذا سلطان ؟..) رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ".

أركان الخلق الكريم ؛ الأمانة والصدق والعفاف.

أيها الإخوة الكرام:

النبي عليه الصلاة والسلام حينما يذهب المسلمون بعد الحج لزيارته لماذا يقفون أمام مقامه الشريف ويبكون ؟ ماذا أعطاهم ؟ ما أعطاهم شيئاً ماذا منحهم ؟ ما منحهم شيئاً.. ولكن هذا النبي العظيم كان رحيماً بأمته.

طبق في سلوكه ما قاله بلسانه، ما أمر الناس بشيء إلا كان أول سابق إليه، وما نهاهم عن شيء إلا كان أول تارك له، هذا الني العظيم تعلق أصحابه الكرام به وتعلقنا به، لا لما جاء به من منطق عظيم ووحي عظيم فحسب وبل لما جاء به من خلق قويم، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

[سورة آل عمران]

معه العصمة، ومعه الوحي، ومعه المعجزات، ومعه تأييد الله له ومعه كل شيء، وعلى الرغم من كل هذا، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

أيها الإخوة:

الإمام الجليل ابن عباس رضي الله عنهما فسر قوله تعالى:

وإنك لعلى خلق عظيم

قال وإنك لعلى دين عظيم، ففي هذا التفسير جُعل الخلق هو الدين وجُعل الدين هو الخلق، وكلاهما يعني شيئاً واحداً، إن كنت ديناً فأنت أخلاقي، وإن كنت أخلاقياً أخلاقية التعدد لله عز وجل فأنت

دين وذكرت أخلاقية التعبد لأن هناك أخلاقاً تعارف الناس عليها، أخلاق التي يفعلها الناس لينتزعوا إعجاب الآخرين، ابتسامة عريضة، انحناء شديد عند السلام، ترحيب بالغ، استقبال حار، اعتذار لطيف، نعومة ما بعدها نعومة، فإذا تضاربت مصالحه، ماذا فعل ؟ انقلب وحشاً كاسراً حرق الأخضر واليابس، بطش بطشة شديدة، ليست هذه الأخلاق التي نبحث عنها، خلق المؤمنين، الخلق الذي جاء به الإسلام، الخلق الذي جاء به النبي العدنان.

أيها الإخوة الكرام:

قال الله عز وجل:

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩))

[سورة الأعراف]

في هذه الآية الكريمة جمعت مكارم الأخلاق، كلمة خذ تعني شيئاً ثميناً، العفو شيء ثمين، العفو يقرب القلوب، تنصهر النفوس في بوتقة واحدة، من خلال العفو، خذ العفو، يجب أن تعفو، ويجب أن تعفو عمن ظلمك، ويجب أن تعطي من حرمك، ويجب ان تصلك من قطعك هذه أخلاق المؤمنين.

((أمرني ربي بتسع ؛ خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضى، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

الجاهلون أعرض عنهم، لا تناقشهم، لا تحاورهم، دعهم وشأنهم:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣))

[سورة الفرقان]

لا تهبط إلى مستواهم.

قال تعالى في موضوع الزوجية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (١٩))

[سورة النساء]

قال المفسرون ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها بل أن تحتمل منها، ولو أن كل طرف احتمل الأذى من الطرف الآخر لسارت هذه المركبة إلى نهاية الشوط، ما من أسرة إلا

وفيها خلاف ولو أن كل طرف تجاوز أخطاء الطرف الآخر، لو أن كل طرف تسامح مع سلبيات الطرف الآخر، لسارت المركبة بسلام إلى دار السلام.

في شأن الوالدين:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨))

[سورة العنكبوت]

حتى لو جاهداك على أن تشرك بالله فقل لهما قولاً ميسوراً، الخلق الحسن هو الإيمان، ومن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

أيها الإخوة الكرام:

معنىً آخر من معاني وإنك لعلى خلق عظيم.

قالت السيدة عائشة وقد سئلت عن خلق رسول الله، فقالت رضي الله عنها:

((.. كان خلقه القرآن))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي ومالك والدارمي]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥))

[سورة المائدة]

قبل أن تعترض على حال المسلمين في العالم، وقبل أن تقلق لمسير بعض المسلمين في أطراف الأرض، وقبل أن تنزعج لما يصيب المسلمين من ظلم وعدوان، هل أقمت الإسلام في نفسك ؟ هل أقمت الإسلام في بيتك ؟ هل أقمت الإسلام في عملك ؟ وهذا كله بإمكانك وتحت سيطرتك، وفي دائرة ملكك، فإذا أقمت الإسلام في نفسك، ثم أقمته في بيتك، ثم أقمته في عملك، فقد أديت الذي عليك، قال تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦))

[سورة الزمر]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ(١٤٤))

[سورة الأعراف]

أيها الإخوة الكرام:

((عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) قُلْتُ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَبَتَّلَ قَالَتْ لَا تَفْعَلْ أَمَا تَقْرَأُ (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) فَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ وُلِدَ لَهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي ومالك والدارمي]

أيها الإخوة الكرام:

القرآن الكريم والسنة المطهرة طافحة بمكارم الأخلاق، فالآية التي نقرأها ينبغي أن نعيشها، لا ينبغي أن نفهما فقط، لا ينبغي أن نعجب بمعناها، لا ينبغي أن نتكلم بها دون أن نطبقها، فما آمن بالقرآن من استحل محارمه.

يقول عليه الصلاة والسلام:

" من جاءه أخوه متنصلاً فليقبل منه محقاً كان أو مبطلاً "

ولو كان مبطلاً، ما دام قد جاءك متنصلاً فهذا اعتذار ضمني، هذا اعتذار ينبغي أن تقبله، ينبغي أن تزيل من قلبك كل ما علق فيه، من ألم من هذا الأخ.

((عَنْ أَنَسٍ قَالَ خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ لَا وَاللَّهِ مَا سَبَّنِي سَبَّةً قَطُّ وَلَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ لِمَ فَعَلْتَهُ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ أَلَّا فَعَلْتَهُ))

[انفرد به أحمد بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم بلفظ: " عَنْ أَنَسٍ قَالَ خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ لَا وَاللَّهِ مَا سَبَّنِي سَبَّةً قَطُّ وَلَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ لِمَ فَعَلْتَهُ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ أَلَّا فَعَلْتَهُ، وأخرجه البخاري]

هذه أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

((عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

يا أيها الإخوة الكرام:

بالأخلاق العلية والأخلاق الرضية، والأخلاق الفاضلة، يصبح المسلمون كتلة واحدة، يصبحون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً يصبحون صفاً واحداً، يصبحون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

كل هذه النصوص القرآنية والنبوية، كل هذه الأفكار والتعليقات والتمهيدات، إن لم تطبق، إن لم تترجم إلى سلوك يومي، إن لم تترجم إلى أخلاق يتحلى بها المؤن، فوالله الذي لا إله إلا هو لا قيمة

لا لإلقائها ولا لاستماعها، ولا للإعجاب بها، ما قيمة الإلقاء ؟ وما قيمة الاستماع وما قيمة الإعجاب إذا كنا في واد والإسلام في وادٍ آخر.

الإسلام هو الحياة، الإسلام ليس معلومات تأخذها من كتب صفراء وتستقر في ذهن لتلقى على الناس وتنتهي إلى كتب صفراء، الإسلام هو الحياة، الإسلام أن تكون مع أخيك مخلصاً، مع أخيك محباً، مع أخيك ناصحاً، مع أخيك متسامحاً.

أيها الإخوة الكرام:

((عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ))

[أخرجه الترمذي، وقَالَ وَفِي الْبَاب عَنْ عَائِشَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ وَأُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ]

وما قولكم أيها الإخوة، هؤلاء المؤمنون الصادقون الذين تخلقوا بأخلاق الإسلام، تخلقوا بأخلاق النبي، الذين جعلوا النبي أسوةً حسنة هؤلاء لهم مقام عند الله لا يعلمه إلا الله، يكفيهم قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً (٩٦))

[سورة مريم]

ويكفي المؤمنين في عهد أصحاب رسول الله أن الله نظر إليهم، نظر إلى محبتهم، نظر إلى تعاونهم، نظر إلى تسامحهم، نظر إلى تضحياتهم.. يا أخي خذ نصف مالي، خذ نصف بستاني، خذ نصف دكاني ـ ما هذه التضحية ـ يقول الطرف الآخر: بارك الله في مالك ولكن دلني على السوق. بهذه الأخلاق انتصر المسلمون، بهذه الأخلاق رضي الله عنهم، بهذه الأخلاق أحبهم الله، بهذه الأخلاق رفع الله شأنهم وجعل كلمتهم هي العليا، بهذه الأخلاق رفرفت راياتهم في الخافقين:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١))

[سورة النساء]

فإذا كان بأس المسلمين بينهم، إذا كفر بعضهم بعضاً، إذا طعن بعضهم ببعض، إذا نافس بعضهم بعضاً، إذا تخاصم بعضهم مع بعض استحقوا سخط الله جميعاً.

أيها الإخوة الكرام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ فَقَالَ تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ الْفَمُ وَالْفَرْجُ قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ هُوَ ابْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْدِيُّ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد]

شهوتا الفم والفرج هي الشهوتان اللتان تدخلان الناس النار.

((عَنْ عَائِشَةَ رَحِمَهَا اللَّهُ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ))

[أخرجه أبو داود وأحمد]

صائم في النهار، قائم في الليل، عبادة ما بعدها عبادة، عبادة شاقة عبادة متعبة، أن تصوم النهار وأن تقوم الليل.

((وعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ قَالَ الْمُتَكَبِّرُونَ))

[انفرد به الترمذي]

أيها الإخوة الكرام:

آيات كثيرة، وأحاديث صحيحة كثيرة، تجعل الإيمان حسن الخلق تجعل الإيمان يتطابق مع حسن الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان، لا تفصل بين الإخلاق والإيمان، لا تجعل الإيمان عبادات جوفاء، والإنسان في علاقاته اليومية، ليس على خلق رضي النبي عليه الصلاة والسلام كان على خلق عظيم، أي كان على دين عظيم، النبي عليه الصلاة والسلام كان على خلق عظيم أي أخلاقه القرآن:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤))

[سورة فصلت]

هذه أخلاق القرآن:

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩))

[سورة الأعراف]

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام :

في بعض الكتب المدرسية، التي ألفت للمرحلة الثانوية، في كتاب النصوص المختارة بالذات، قصة مترجمة عن الأدب الغربي، هذه القصة مفادها، أن باخرة سياحية كبيرة غرقت، وأن بعض ركابها نجوا بقوارب النجاة، وأن هذا القارب وضع في ماء عذب قليل لا يكفي الأربعين راكباً على ظهر هذا القارب، فاتفق أن يشرب كل واحد في اليوم ملعقة صغيرة، بهذه الملعقة الصغيرة ينجو الجميع ويصلوا إلى الشاطئ بأمان.

القصة مأساوية، كان الواحد من الركاب ينتظر أن ينام صاحبه ليقتله فيشرب حصته مكانه، ملعقتا شاي من الماء العذب، هؤلاء الأربعون وصلوا إلى الشاطئ الأربعين فقط، وقد قتل بعضهم بعضاً، هذا هو الإنسان حينما يقع في شدة، أما وهم على ظهر الباخرة ؛ الابتسامة والترحيب، والسلام الحار، وانحناء الظهر، والاعتذار، هذه أخلاق لا قيمة لها، فلما وقعوا في مأساة الماء القليل، والطريق الطويل، قتل بعضهم بعضاً لينجو الواحد منهم أو ليأخذ ملعقة من الماء تعينه على أن يسد عطشه ولو على حساب أخيه.

هذه القصة التي كانت قصةً في بعض الكتب الأدبية في المرحلة الثانوية، ذكرتني بقصة وقعت مع أصحاب رسول الله ما ذكرت الأولى إلا لتعرفوا قيمة الثانية.

روى حذيفة العدوي، قال: انطلقت يوم اليرموك، أطلب ابن عم لي في القتلى، ومعي شيء من الماء، وأنا أقول إن كان به رمق سقيته فإذا أنا به بين القتلى، قلت له أسقيك ـ كلكم يعلم، والأطباء يعلمون قبل غيرهم أن الجريح يموت من شدة العطش يموت، العطش في الجريح لا يوصف ـ قلت له أسقيك ؟ فأشار إلي أن نعم، فسمع رجلاً يقول آه.. فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق واسقه ودعني، فإذا هو هشام ابن العاص قلت أسقيك ؟ قال نعم. فسمع آخر يقول آه، فأشار هشام إلي أن انطلق إليه فاسقه، فجئته فإذا هو قد مات، رجعت إلى هشام فإذا هو قد مات رجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

هذه أخلاق المؤمنين، هو على وشك أن يموت عطشاً، هو بين الموت والحياة، قال له اسقي أخي

لعله أشد حاجة مني إلى الماء وهؤلاء الأربعون راكباً وصلوا أربعة، لأن بعضهم قتل بعضهم الآخر من أجل ملعقة ماء يشربها زيادة عن أخيه.

أيها الإخوة المؤمنون:

بين أخلاق الإيمان وأخلاق العصيان مسافة كبيرة، هذه الأخلاق التي يسمونها أخلاق مدنية، أخلاق العصر، هذه في الرخاء محببة، أما في الشدة.. الإنسان مستعد أن يبني مجده على أنقاض الآخرين، أن يبني حياته على موتهم، أن يبني غناه على فقرهم، ليست هذه هي الأخلاق التي ننتظرها، ننتظر أخلاق المؤمنين:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٩))

[سورة الحشر]

مهما كان جائعاً يؤثر أخاه، هذه الأخلاق نابعة من الإيمان، هذه الأخلاق نابعة من معرفة الله، نابعة من محبته لخلقه، نابعة مما وعد الله به عباده المؤمنين، لا تعبأ بأخلاق أهل الدنيا، لا تعبأ بأخلاق الشاردين، أخلاق ناعمة، لكنها لا تقدم ولا تؤخر، الأخلاق الحقيقية عن الشدة.

المركبة لا تُمتحن في الطريق الهابطة، أية مركبة تنطلق مسرعة بل الدراجة التي لا محرك فيها تنطلق في الطريق الهابطة مسرعة المركبات تُمتحن في الطريق الصاعدة، في الشدائد.

فيا أيها الإخوة الكرام:

ابحث عن الأخلاق الإسلام، ابحث عن الأخلاق التي جاء بها النبي العدنان، تخلق بخلق النبي، هذا الخلق في الشدة والرخاء، دخل بيته قال هل عندكم من شيء نأكله، قالوا لا، قال إني صائم.. في الطائف قال إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي.

في فتح مكة " اذهبوا فأنتم الطلقاء ".

لمن هذا الوادي " قال هو لك، قال أتهزأ بي ".

عند موت ابنه " إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ".

امتحن النبي في الرخاء فكان مثلاً أعلى.

امتحن في الشدة فكان مثلاً أعلى.

امتحن في النصر فكان مثلاً أعلى.

امتحن في القهر فكان مثلاً أعلى.

امتحن في موت الولد فكان مثلاً أعلى.

امتحن في الهجرة فكان مثلاً أعلى.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً(٢١))

[سورة الأحزاب]

علامة أنك ترجو الله واليوم الآخر أنك تقتدي بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً(٢١))

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٦١ : خ١ -التدخين (مضاره - حكمه الشرعي) ، خ٢ - الصحة والدخان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٦-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

التبغ :

أيها الأخوة الكرام، هناك توجيه من وزارة الأوقاف، لمعالجة موضوع التدخين، وهو من أخطر الموضوعات التي تهدد المجتمع الإسلامي.

أيها الأخوة الكرام، استجابة لهذا التوجيه سأجعل إن شاء الله تعالى محور الخطبة كلها حول الموضوع.

التبغ أيها الأخوة يتكون من ثلاثمئة مادة، تختلف بحسب نوع التبغ، أما السم الأساسي النيكوتين، فهذا السم يُعد من أهم مكونات التبغ.

لو أننا حقنا كلباً بواحد على عشرة من الغرام لمات فوراً.

لو أن قطرة من هذا السم حُقنت في دم الإنسان لمات فوراً.

لو أن أربع قطرات حقنت في وريد حصان لمات بعد أربع دقائق، هذا سم خطير، هناك سم آخر في الدخان، يحتوي على مئتي ضعف مما تسمح به منظمات الصحة والهيئات الصحية في موضوع الغذاء.

هناك سم آخر متعلق بكريات الدم الحمراء، هذا السم يتحد مع كريات الدم الحمراء فيعيق تبادل الأكسجين مع غاز الفحم، وهذا الذي يتعب المدخن.

حقائق علمية عن الدخان :

أيها الأخوة الكرام، قبل الحديث عن الحكم الشرعي وسآتي عليه بعد قليل، ولكن أضع بين أيديكم هذه الحقائق العلمية المقطوع بها، والتي هي منشرة في كل بقاع العالم.

في الدخان غاز أو غازان سامان، هذان الغازان مسرطنان، وفي هذين الغازين أيضاً فحوم مسرطنة أيضاً، هذا البحث العلمي مأخوذ من أوثق المصادر الرصينة، هناك كلام للإعلام وكلام للاستهلاك، وهناك بحوث علمية رصينة منها أخذ هذا الموضوع.

أيها الأخوة الكرام، إحصاء رسمي في أمريكا، هناك ألف وفاة كل يوم بسبب الدخان، بينما هذا العدد يزيد سبعة أضعاف عن الذين يموتون في حوادث السير، مع أن أعلى نسبة يموت فيها الناس في حوادث السير، والدخان تزيد نسبة الوفيات بسببه عن حوادث السير بسبعة أضعاف.

تقول منظمة الصحة العالمية: إن التدخين يُعد سبباً حتمياً لأمراض مميتة، كلام دقيق واضح كالشمس.

وهناك من يتوهم أن هناك دخاناً مصفى ودخاناً غير مصفى، الدخان المصفى عن طريق الفلتر، الحقيقة العلمية الصارخة أن الفلتر يمنع دخول القطران إلى الرئتين، بينما كل السموم التي في الدخان تنتقل عبر الفلتر، فهذا الوهم أن هناك دخانًا مفلترًا هذا وهم لا يقوم على حقيقة إطلاقاً.

أخطر ما في الدخان أن أضرار الدخان لا تنحصر في المدخن نفسه، بل تنتقل إلى من حوله، من زوجة وأولاد وزملاء في العمل، فإذا كنت جالساً في غرفة أربع ساعات فيها مدخن فكأنما دخنت عشر سيجارات، هذا اسمه المدخن السلبي، هو لا يدخن لكن يجالس مدخناً، فهذا الذي يدخن ويستمتع بحسب عقليته بفوائد الدخان يؤذي غيره وهو لا يدري.

أيها الأخوة الكرام، حتى يكون الموضوع علمياً، هناك حالات نادرة جداً، إنسان يدخن ولا يصاب بشيء، هذه الحالات النادرة هل بإمكانك أن تتأكد أنك أحدها؟ طبيب لامع جداً، له أب تجاوز الثمانين، وهو يدخن، ولم يصب بأذى، توهم هذا الطبيب من خلال هذه التجربة التي أمامه أن الدخان لا يؤذيه فأفرط في الدخان، وفي الثانية والخمسين أصيب بأمراض عضال في قلبه وأوعيته، فلما عاد من أمريكا وقد أجرى عملية زرع الشرايين والدسامات سُئل كيف تدخن وأنت الطبيب اللامع؟ فقال: من خلال والدي تيقنت أن الدخان لا يضر..

هل أنت متأكد أنك أحد هذه الحالات النادرة التي لا يؤثر بها؟

الحقيقة الثابتة أيها الأخوة أنه لا الطبيب ولا المدخن يستطيع أن يتنبأ بأنه سينجو من أخطار التدخين، وأقول لكم مرة ثانية حالات نادرة، إذا كان أحدهم يدخن ولم يصب من حوله بشيء فهذه حالات نادرة لا يُقاس عليها، لها عدة تأويلات معقدة جداً.

شيء آخر لا ترونه في هذه الأيام هو أن السعوط ومضغ أوراق الدخان له مفعول التدخين نفسه.

علاقة الدخان بجهاز التنفس :

قال العلماء: إن أشد الأجهزة تأثراً بالتدخين هو جهاز التنفس، لأن جهاز التنفس كعنقود العنب، كل حبة هي حويصل رئوي، الحويصل فراغ، تتم في هذا الفراغ مبادلة غاز الفحم بالأكسجين، هذه المبادلة الحيوية الأساسية جداً تتم في الحويصلات الرئوية،ة ماذا يفعل التدخين في هذه الحويصلات؟ التدخين يخرب الأنسجة المبطنة للأسناخ الرئوية.

وفي القصبة الهوائية أهداب مزروعة في كل جدرانها، هذه الأهداب تتحرك نحو الأعلى دائماً لطرد أية مادة غريبة، مادة إنتانية، مادة التهابية، قشع، أشياء كثيرة، هذه الأهداب تدفعها نحو الأعلى دائماً، سم النيكوتين يشل عمل هذه الأهداب، لذلك تجتمع هذه القطوع، هذه الإنتانات، هذه المخلفات في القصبة الهوائية وتتخذها موطناً.

لماذا اتخذت هذه القطوع وهذه الإنتانات القصبة الهوائية موطنًا؟ لأن جهاز الطرد نحو الأعلى مُعطل.

المدخن معرض أكثر من غيره للإصابة بمرض ذات القصبات، وذات الرئة، ومرض انتفاخ الرئة، وهناك علاقة إيجابية جداً بين التدخين وبين الإصابة بسرطان الرئة.

الإحصائية العلمية الدقيقة أنه من خلال ألف مدخن ستون شخصاً يُصاب بسرطان الرئة، من بين ألف لا يدخنون شخصان فقط يُصابان بسرطان الرئة.

مرة ثانية إحصاءات علمية رصينة تمت في أرقى الجامعات، فالعلاقة إيجابية بين التدخين وبين سرطان الرئة.

قال بعض العلماء: سموم الدخان تسبب طفرات في الخلية، والطفرة في الخلية تسبب التخرش وهو أحد أسباب سرطان الأنسجة، هذا في جهاز التنفس، فماذا عن جهاز القلب؟

علاقة الدخان بجهاز القلب :

إن معظم الإصابات القلبية والوعائية القاتلة معظمها يعود إلى التدخين.

أخ كريم يعمل جراحاً للقلب، أقسم لي أنه في خمس سنوات من عمله الجراحي في هذا البلد الطيب ما أجرى عملية قلب مفتوح إلا لمدخن، تمنى أن يجري عملية واحدة لإنسان غير مدخن، في خمس سنوات تقريباً، في الأسبوع عمليتان أو أكثر أو أربع عمليات كل المصابين بقلوبهم وشرايينهم وأوعيتهم ودساماتهم إنما هم مدخنون من الطراز الأول.

طبيب آخر يعالج الأنف والأذن والحنجرة، من باب الطرفة حينما يأتيه إنسان مصاب بسرطان الحنجرة يضع يده فجأة على صدره فإذا فيها علبة دخان، يقول: هذا السرطان من هذه العلبة.

السبب الأول لهذه الأمراض العضالة أن سمّ النيكوتين يتحد مع خضاب الدم، فيمنع أخطر وظيفة حيوية وهي تبادل الأكسجين بغاز الفحم.

تزويد الإنسان بآليات بالغة التعقيد لحفظه من الأخطار :

أيها الأخوة الكرام، حقيقة خطيرة جداً هي: ربنا جلّ جلاله تكريماً لهذا الإنسان وحفظاً له جهزه بآليات بالغة التعقيد لحفظه من الأخطار، فلو أن أحدنا شاهد شيئاً مخيفاً أفعى مثلاً، ماذا يحدث؟

صورة الأفعى تنطبع على شبكية العين إحساساً، وشبكية العين تنقلها إلى الدماغ إدراكاً، والدماغ ملك الجهاز العصبي يخاطب ملكة الجهاز الهرموني الغدة النخامية عن طريق ضابط اتصال هو الجسم تحت السرير البصري، هذه الغدة النخامية تتلقى أمراً من الدماغ بالتصرف، هي ملكة وعندها عناصر فعالة، ترسل هذه الغدة النخامية أمراً إلى الكظر بإفراز خمسة هرمونات، الأول يسرع القلب، والثاني يزيد وجيب الرئتين، والثالث يضيق الأوعية والشرايين من أجل أن يتوفر الدم إلى العضلات لا إلى الجلد، أو يضيق الأوعية المحيطية في الجسم، والرابع يزيد سكر الدم، والخامس يزيد هرمون التجلط.

أي الخائف قلبه مضطرب، ويلهث، وأصفر اللون، وفي دمه سكر زائد، وفيه هرمون التجلط، سمّ النيكوتين يفعل الآلية نفسها، فالمدخن دائماً تسرع في قلبه، وجيب رئتيه أعلى، وضيق في شرايينه المحيطية، ويبدو أصفر اللون، وفي دمه هرمون التجلط، فهو معرض أكثر من غيره بثمانية أضعاف بالجلطة في القلب، هذه حقيقة مسلم بها.

ذكر لبعض الأمراض المتعلقة بالتدخين :

مرض الموات الغرغرين :

أيها الأخوة الكرام، أحد أسباب مرض الموات الغرغرين هو الدخان، لأن الدخان يرفع نسبة اللزوجة في الدم، فإذا ارتفعت نسبة اللزوجة صار من الصعب أن يسلك في أدق الشرايين، عندئذ تصاب أطرافه السفلية والعلوية بالموات، لا تأتيها التروية، تموت الخلايا فيصاب المدخن بمرض الموات، والاسم الاصطلاحي بمرض الغرغرين.

التهاب الأوعية الانسدادي :

أيها الأخوة الكرام، الدخان يسبب مرضاً نادراً اسمه التهاب الأوعية الانسدادي، الأوعية حينما تلتهب أو بعض الأوعية حينما تلتهب تسد لمعتها، وانسداد هذه اللمعة ينشأ مرض الموات أيضاً.

زرقة الجلد واحمرار اليدين :

وهناك مرض يصيب المدخنين، وهو زرقة الجلد، واحمرار اليدين، وهذا من أمراض التدخين.

علاقة الدخان بالدماغ :

أيها الأخوة الكرام، الدماغ البشري هو أنبل عضو في الإنسان، فيه مئة وأربعون مليار خلية لم تُعرف وظيفتها بعد، وفيه أربعة عشر مليار خلية قشرية، هذا العضو النبيل الذي عجز عن فهم نفسه، هذا العضو النبيل هو أعقد ما في الكون على الإطلاق، لقد كُرم الإنسان به، ماذا يفعل التدخين به؟

سموم التدخين المنحلة في الدم إذا وصلت إلى الدماغ يتلقفها الدماغ بسهولة فائقة وبنهم كبير، هذا الدماغ حينما يأتيه هذا السم الإنسان يشعر بشيء من الخدر، بشيء من الفتور، هذا النيكوتين المنحل في الدم والذي يصل إلى الدماغ يعطي الإنسان شعوراً بالهدوء تارةً وشعوراً باليقظة تارةً أخرى، فالدخان مهدئ ومنشط في آن واحد وهذا هو سر الإدمان.

ضعف تروية الأعصاب :

أيها الأخوة الكرام، هذا السم في الدماغ يضعف تروية الأعصاب، وحينما يضعف تروية الأعصاب تصاب الأعصاب بالالتهاب، يكون تأثير هذا السم في الأعصاب رجفان في الأضلاع، فالمدخن ترتجف يديه ورجليه، هذا الرجفان بسبب أن أعصاب الدماغ التهبت، والتهابها بسبب ضعف ترويتها.

صداع وآلام عصبية مع فتور للنشاط العقلي :

أيها الأخوة الكرام، حاسة الذوق تضعف عند المدخنين، وصداع وآلام عصبية في الأطراف.

الدخان يضعف الذاكرة، المدخن كثيرة النسيان.

فتور النشاط العقلي، غير المدخن أذكى من المدخن، وأسرع استجابة من المدخن.

دراسة علمية شملت ستة آلاف وثمانمئة حالة، هناك علاقة واضحة جداً بين الدخان وبين ضعف الذكاء، ضيق أوعية الدماغ تؤدي إلى التهاب أعصاب الدماغ.

هذا عن الدماغ، وقبلها عن جهاز التنفس، وقبلها عن القلب وعن الأوعية، فماذا عن العيون؟

علاقة الدخان بالعيون :

الدخان أيها الأخوة يسبب التهاباً في الملتحمة، وجفافاً في الأجفان، ويصيب العصب البصري بالالتهاب، ويسبب نقص فيتامين ١٢، هذا الفيتامين يتلفه الدخان.

علاقة الدخان بجهاز الهضم :

وأما في جهاز الهضم.. فدققوا الآن: إن تسعين بالمئة من سرطان الشفة تصيب المدخنين، تقرحات اللثة واللسان والتهاب الغدد اللعابية، وتضخم هذه الغدد وتلوثها كله بسبب التدخين، تكثر عند المدخنين سرطانات اللسان والمريء وعسر البلع أحياناً، بل إن الدخان يؤدي إلى تسمم الخلية الكبدية، وقصور الكبد أو تشمعه، ثم سرطان الكبد، هذا كله من الدخان.

علاقة الدخان بالجهاز التناسلي :

وأما الجهاز التناسلي فالدخان أحد أكبر أسباب إصابة الرجل بالضعف الجنسي، وتشوه النطف، يؤدي إلى العقم عند الرجال والعقم عند النساء، وينفر العلاقة بين الزوجين، وأكثر حالات الإجهاض والإملاص -أن يولد الجنين ميتاً- بسبب الدخان، والولادة قبل الأوان بسبب الدخان، ونقص الوزن بسبب الدخان، وكثرة وفاة الرضع بسبب دخان أمه طبعاً، التشوهات الخلقية، والوفاة في المهد، وربو الأطفال، والصمم، كله يعزى إلى دخان الأم إلى الأم المدخنة.

أما الشيء الذي لا يصدق أن هذا السم القاتل يشربه الطفل المولود حديثاً مع حليب أمه، فحليب الأم فيه هذا السم القاتل، لذلك من أعراض الطفل الذي يرضع من أم مدخنة إقياءاته المتكررة، وتشنجاته، وتسرع في قلبه، وكثافة سموم الدخان في ثدي المرأة يؤدي إلى تخرش الثدي، وهذا التخرش يؤدي إلى سرطان الثدي.

هذا كله عن الجهاز التناسلي، وعن الأم المدخنة، وعن أثر الدخان في الرضيع، وعن أثر الدخان في جهاز الهضم، وعن أثر الدخان في العيون، وفي الدماغ، وفي القلب، وفي جهاز التنفس.

نبذة عن تاريخ الدخان :

أيها الأخوة الكرام، العالم الإسلامي عرف التدخين منذ عدة قرون، وأول ما ظهر التدخين في أمريكا في جزيرة معينة، ونقله السفير الفرنسي إلى بلاده من عدة قرون، وبعدها انتشر الدخان في العالم ولاسيما في العالم الإسلامي، هذا نبذة عن تاريخ الدخان.

العلماء المسلمون السابقون لضعف معرفتهم بمضار التدخين وقعوا في فتاوى متضاربة، فالعلامة ابن عابدين صاحب حاشية ابن عابدين الشهيرة، وهي أوسع مرجع في الفقه الحنفي، يقول هذا العالم في حديثه عن التتن: منهم من قال بحرمته، ومنهم من قال بكراهته، ومنهم من قال بإباحته، لأن أضراره لم تكن واضحة، والأصل في الأشياء الإباحة، فإذا كان عالم قديم أباح الدخان، وغيره أيضاً أباح الدخان لا ينبغي أن تلوموه كثيراً، لم يكن عنده حقائق عن الدخان كهذه التي بين أيدينا اليوم.

الشيء الثاني هناك قاعدة أساسية: أن الأصل في الأشياء الإباحة والتحريم يحتاج إلى نص، أما في العبادات فالأصل فيها الحظر والإيجاب يحتاج إلى نص.

لم يكن هناك حقائق دقيقة جداً بين أيدي العلماء لذلك وقعوا في هذا الاضطراب، أما بعد أن استعرض هذا الكم الكبير من أخطار التدخين فلا مجال أبداً للحديث عن إباحته، لأن النبي عليه الصلاة والسلام أرسله الله لأمته ليحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.

تحريم الدخان :

هل من عاقل واحد يمسك دخينة ويشربها بمصطلح المدخنين وقبل أن يشربها يقول: بسم الله الرحمن الرحيم؟ وبعد أن يشربها يقول: الحمد لله اللهم زدنا من هذه النعم، هذا مستحيل، هذا دليل فطري، الدخان خبيث، يقول الله عز وجل:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران: ١٥٧]

حقائق خطيرة جداً :

ثمة حقيقة خطيرة هي: إن مئة شخص يشربون الخمر، خمسة عشر منهم يدمنون على الخمر طوال حياتهم، نسبة الإدمان بين شراب الخمر خمسة عشر بالمئة، أما لو أن مئة رجل يشربون الدخان، خمسة وثمانون بالمئة ممن يشربون الدخان يصابون بالإدمان على الدخان طوال حياتهم، فنسبة الإدمان في الدخان أعلى من نسبة الإدمان في الخمر.

أيها الأخوة الكرام، إحصائية دقيقة في أمريكا أن ضحايا التدخين في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ثلاثمئة وخمسون ألف شخص سنوياً، كل ألف يموتون في اليوم الواحد، ثلاثمئة وخمسون ألف إنسان يموتون بسبب التدخين كل عام، وخمسون ألفًا من هؤلاء من المدخنين السلبيين الذين لا يدخنون، لكن آباؤهم يدخنون، أو أن أمهاتهم يدخنَّ، أو أن زملاءهم بالعمل يدخنون.

مجموع الذين يموتون بسبب التدخين في دولة واحدة بالغرب أربعمئة ألف إنسان، بواقع ألف وزيادة كل يوم.

قبل عام كان هناك أسبوع في بلدنا الطيب في مكافحة التدخين، ذكر وزير الصحة أنه تلقى اتصالاً هاتفياً من عالم صديق له في أمريكا يؤكد له أن كل الدخان المستورد أو المهرب من أمريكا فيه عشرة أضعاف السموم التي تصنع هناك لشعوب الغرب، أي أن الدخان هنا رديء جداً، نسب سموم

الدخان عالية جداً إلى عشرة أضعاف، أذاع وزير الصحة هذا الكلام في جهاز الإعلام رسمياً، قال: تلقيت اتصالاً هاتفياً من صديق لي أخبرني بهذه الحقيقة، العلبة نفسها، والعلامة التجارية نفسها، السعر نفسه، إلا أن الدخان الذي يُصدّر إلى بلاد الشرق الأوسط دخان من الدرجة العاشرة.

رجل حدثني هذه القصة، أضعها بين أيديكم، له قريب يعمل في معمل أدوية كبير جداً في بلد غربي، طبخة غالية جداً كان فيها خطأ في تركيب الطبخة، فالدواء لا يصلح للاستعمال البشري، ماذا قال المدير التجاري لهذا المعمل؟ قال: نبيع هذه الطبخة لبلاد أخرى، فيجب أن نكون صاحين أيها الأخوة، يجب أن نهتم بصحتنا، صحتنا قوام حياتنا بعد إيماننا طبعاً.

نقع أوراق التبغ في الخمر :

أيها الأخوة هناك عالم من علماء مصر ذهب بنفسه إلى أمريكا، قبل أن يكتب أراد أن يكون شاهد عيان، بلغه أن أوراق التبغ تُنقع في الخمر، فإذا قيل في إعلانات هذا الدخان: تعال إلى حيث النكهة، هي نكهة الخمر الذي نقع فيه الدخان، هذا العالم ذهب إلى أمريكا، ورأى بأم عينه كيف أن أوراق التبغ تُنقع في الخمر، وعاد وألّف كتاباً عرض في مكتبة الأسد، واشتريته، واقتنيته، وقرأته، والكتاب عندي، عالم إسلامي موثوق، شاهد بأم عينه كيف أن أوراق التبغ تُنقع في الخمر هناك.

أيها الأخوة الكرام، دراسة في بريطانيا أجريت على ثلاثة وثمانين رجلاً تؤكد أن ثلاثة أشخاص من كل عشرة أشخاص سيلاقون حتفهم بسبب أمراض ناتجة عن التدخين، أما الباقون فسيعانون من أمراض مزمنة لها علاقة بالتدخين.

إنّ الحرائق الناتجة من أعقاب السجائر يفوق كل أرباح الشركات والضرائب التي تُحصل من هذه الصناعة.

مرة في بلادنا الجميلة في غاباتها الجميلة، إنسان ألقى عقب سيجارة فأحرق مئتين وخمسين هكتارًا من الغابات الخضراء بسبب عقب سيجارة واحد.

آثار الدخان :

أيها الأخوة، الآن هذا الوهم عند بعض المدخنين، أنا لا يوجد بي شيء، أجري وأركض وأتمتع بصحة وفيرة وأدخن، هناك شيء دقيق جداً هو أن أخطار الدخان تتراكم في البدن دون أن تظهر إلا بعد إجراء فحوص دقيقة، فالإنسان يتوهم أنه خالٍ من كل مرض، لكن آثار الدخان تتراكم، هناك خط أحمر، فإذا بلغ هذا التراكم الخط الأحمر ظهرت هذه الأعراض فجأةً.

أيها الأخوة، هذا يُسمى انكسار خط المقاومة، خط المقاومة خط أحمر، حينما تتراكم أخطار الدخان، وتصل إليه ينكسر هذا الخط فتظهر الأعراض فجأةً، أي أنت أحياناً في الميزان تضع في

الكفة عشرة كيلو، وفي الكفة الثانية تضع كيلو، أو اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة، والكفة راجحة، فجأة عندما يصبح الوزن المقابل عشرة كيلو تتحرك الكفة، ما الذي حركها؟ هذه القشة الأخيرة آخر غرام؟ لا، الذي حركها التراكم السابق مضاف إليه هذه القشة الأخيرة، هذه القشة التي وقع منها البعير.

شركات التبغ شركات تتجر بالموت :

يقول أحد العلماء الأجانب: شركات التبغ هي شركات القتل، أو شركات تتجر بالموت، هناك رجل وسيم جداً، تتخذه شركات الإعلان للإعلان عن الدخان، يرتدي ثياب رعاة البقر، ويضع قبعة على رأسه، ويدعوك إلى الدخان، هذا وهو على فراش الموت مات في سن الشباب قال: كنت أكذب عليكم، الدخان قتلني، لا تكن ضحية الكذب، لا تكن ضحية إعلان رخيص، لا تكن ضحية شركة تبحث عن الربح، ولا تعبأ بصحة الآخرين، ربنا عز وجل يقول:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة البقرة :١٩٥]

الذي يدخن يلقي بنفسه إلى التهلكة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

[سورة النساء : ٢٩]

التدخين انتحار بطيء :

الإسلام حرم الانتحار، والتدخين يصفه العلماء بأنه انتحار بطيء، هناك انتحار سريع، أن تطعن نفسك بسكين في مكان قاتل، هذا انتحار مفاجئ، والانتحار البطيء أن تدخن:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

((مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه]

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن كل مسكر ومفتر، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ:

((نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ))

[أحمد وأبو داود بإسناد حسن عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ]

المدخن الفقير إذا دخن اسمه سفيه، والغني إذا دخن اسمه مبذر، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

[سورة الإسراء:٢٧]

الأراضي الشاسعة التي تُشغل بزراعة الدخان والتبغ لو أنها زرعت بالخضراوات والفواكه أليس هذا أجدى للناس؟

العلماء الذين أصدروا فتاوى في تحريم الدخان :

كبير علماء الدولة العثمانية أصدر فتوى في تحريم الدخان.

العلامة إبراهيم اللقاني أصدر فتوى بتحريمه.

الشيخ سالم السنبوري أصدر فتوى بتحريمه.

مفتي المملكة العربية السعودية أصدر فتوى بتحريمه.

الشيخ بدر الدين الحسني شيخ الشام أصدر فتوى بتحريمه.

الشيخ علي الدقر أصدر فتوى بتحريمه.

الشيخ محمد الحامد أصدر فتوى بتحريمه.

علماء كبار أصدروا فتاوى تلو الفتاوى في تحريم الدخان.

شيخ الأزهر الذي توفي رحمه الله، الشيخ جاد الحق أيضا أصدر فتوى هذا نصها: " أصبح واضحاً جلياً أن شرب الدخان وإن اختلفت أنواعه وطرق استعماله يلحق بالإنسان ضرراً بالغاً، إن عاجلاً أو آجلاً في نفسه، وماله، ويصيبه بأمراض كثيرة ومتنوعة، وبالتالي يكون استعماله حراماً بمقتضى النصوص التي سبق إيرادها، ومن ثم فلا يجوز لمسلم استعماله بأي وجه من الوجوه حفاظاً على الأنفس والأموال، وحرصاً على اجتناب الأضرار التي أوضح الطب حدوثها ".

هذه فتوى حديثة لشيخ الأزهر وكان صالحاً فيما أعلم ولا أزكي على الله أحداً، حينما مات مشى في جنازته مليون إنسان.

هذه الحقائق كلها مأخوذة من منظمات صحة عالمية، أو من جامعات راقية جداً، أو من بحوث متقدمة، وهذه هي الحقيقة.

أيها الأخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

* * *

الخطبة الثانية :

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وليّ الصالحين، وأشهد أنّ سيّدنا محمَّدًا عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم.

الصحة و الدخان :

أيها الأخوة الكرام، لجنة من كبار علماء الطب في العالم الغربي قدمت تقريراً من ثلاثمئة وسبع وثمانين صفحة كبيرة، من القطع الكبير عنوان هذا البحث: الدخان والصحة، وهذا البحث يؤكد أن هناك أخطاراً مدمرة وخطيرة من جراء التدخين.

مجلة صدرت في سويسرا تقول بعد إحصاء دقيق: إن شركات التبغ في العالم تُنتج دخينتين يومياً لكل إنسان على وجه الأرض، أي مجموع إنتاج هذه الشركات عشرة بلايين دخينة كل يوم، إن هذه الكمية التي تنتجها شركات الدخان فيها مواد سامة لو أخذت دفعة واحدة في الدم مباشرة لاستطاعت أن تبيد الجنس البشري، بل إن أثرها أشد من أثر أكبر قنبلة ذرية، لو أن المواد السامة في إنتاج المعامل ليوم واحد حُقنت في البشرية جمعاء لأبادت الجنس البشري كله.

نشرت منظمة الصحة العالمية تقريراً مطولاً في عام ألف وتسعمئة وخمسة وسبعين تقول: إن عدد الذين يلاقون حتفهم أو يعيشون حياةً تعيسة من جراء التدخين يفوق عدد الذين يلاقون حتفهم نتيجة الطاعون والكوليرا والجدري والسل والجذام والتيفوئيد مجتمعين، والوفيات الناجمة عن التدخين هي أكثر بكثير من جميع الوفيات في العالم.

إن مجموع الدخل التي تحققه الدول الكبرى من جراء الضرائب الباهظة على إنتاج التدخين هو أقل بكثير من الأموال التي تُنفق لمعالجة الأمراض الناتجة عن التدخين مهما بلغ حجم الضرائب التي تجنيها الدول الكبرى، إنها أقل بكثير من التي تُنفقها على الأمراض الناجمة عن التدخين.

هناك ظاهرة جديدة، قديماً أمراض القلب، وأمراض الدم، والجلطة والأوعية والدسامات تصيب أناساً في الستين فما فوق، هذا السن بدأ يهبط، الآن في حالات كثيرة أسبوعية، جلطة في الخامسة والعشرين، في الثلاثين، في الثانية والعشرين، مات.. بسبب الدخان، هذه ملاحظة جديدة لم تكن من قبل، كل مرض له سن تقريبي، أمراض القلب والأوعية من فوق الستين، الآن وصلت للثلاثين، الآن في حالات كثيرة جداً في هذه البلدة جلطة بالخامسة والعشرين، بالثانية والعشرين، بالسابعة والعشرين، كلها بسبب التدخين.

الصحة جزء أساسي من حياة المؤمن :

أيها الأخوة الكرم، لا أعتقد أن مؤمناً يحرص على صحته، لأن أشياء ثلاث هي في الأوليات، الهداية رقم واحد، والصحة ثانياً، والكفاية ثالثاً، لا معنى للكفاية من دون صحة، ولا معنى للصحة من دون إيمان، فالصحة جزء أساسي من حياة المؤمن، فإذا ثبت لدى المؤمن أن الدخان يدمر صحته ويدخن، دعك من الحكم الشرعي أولاً، ليس الدخان محرماً بنص خاص، الدخان محرم بنص عام:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران: ١٥٧]

فإذا ثبت بالدليل القطعي أن الدخان يؤذي صحة الإنسان ويدمره فكيف بمؤمن عاقل يدخن بعد هذا الحديث؟

أيها الأخوة الكرام، كل ما أرجوه وقد جعلت كل الخطبة عن الدخان، واعذروني هناك من يتمنى أن أعالج موضوعًا إسلاميًا، أو موضوعًا في العقيدة، أو موضوعًا دقيقًا في الفقه، لكني آثرت أن أجعل هذا الموضوع كله عن الدخان كي يترك أثراً إيجابياً في نفوس المدخنين، لا أقبل ولا أرضى أن يرتاد إنسان بيت الله وهو يدخن، لا أرضى ولا يُعقل أن يكون إنسان مسلم مؤمن عقيدته صحيحة، يحرص على طول حياته وعمله الصالح يحرص على كل ذلك ويدخن.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٦٢ : خ١ -الأطفال أمل المستقبل - خ ٢ : طلب العلم الشرعي للأطفال.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٦-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام :

ما من يوم يحتاج فيه المؤمنون المسلمون أمسَّ الحاجة إلى الوحدة واللاائتلاف والتعاون والتضامن كهذه الأيام .

وفي الإسلام ثوابت ومتغيرات ؛ الثوابت لا خلاف فيها ، وتغطيها النصوص القطعية ، قطعية الدلالة ، وإجماع الأمة ، والمتغيرات مواطن الاجتهاد ، والاجتهاد في أصله ظني ، لذلك ؛ الله جل جلاله أقام الحجة البينة على خلقه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وهذه الحجج القاطعة ، النصوص القطعية في الكتاب والسنة ، وموضع الإجماع لا مجال فيها لتطوير ، ولا لاجتهاد ، ولا يحل الخلاف لها وفيها لمن علمها .

الإمام الشافعي يقول : كل ما أقام الله به الحجة في كتابه ، أو على السان نبيه منصوصاً بيناً لم يحلَّ الخلاف فيه لمن علمه .

هذا هو الشرع المنزل ..

أما المتغيرات : فيُقصد بها مواضع الاجتهاد ، وكل ما لم يقم عليه دليل قاطع من نص صحيح ، أو إجماع صريح ، وهذا هو الشرع المُؤول .

أيها الإخوة الكرام هذه مقدمة :

الموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل الفرائض في الإسلام ، بل هو الفريضة السادسة ؛ صوم وصلاة ، وحج وزكاة وشهادة أن لا إله إلا الله ، وفرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

أيها الإخوة الكرام :

ما الثوابت في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة ، وفي هذه الفريضة ثوابت ومتغيرات ، فما هي الثوابت القطعية في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم ، وهو أهم ما في مهمات الأنبياء والمرسلين أجمعين .

بإقامة الأمر بالمعروف على وجهه كما أمر الله عز وجل ، استحقت هذه الأمة أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، هي خير أمة أخرجت للناس لعلة ـ أي لسبب ـ هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠))

[سورة آل عمران]

والأمة التي استحقت اللعن والهلاك ، سبب هذا اللعن والهلاك أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، قال تعالى :

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩))

[سورة المائدة]

دقق بين الآيتين ، أمة أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، فاستحقت أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وأمة لا يتناهى أفرادها عن المنكر استحقت لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة .

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩))

أيها الإخوة الكرام :

المفروض على كل مسلم يقوم بهذه الشريعة أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر ، هذا محور الخطبة اليوم ، لكنه الشيء الذي يدعو للألم هو أن هذه الفريضة السادسة قد ضُيعت في واقعنا المعاصر ، ما بين ناكل عنها بشبهات أو شهوات ، وبين مستخدم لها بلا فقه ولا بصيرة ولا نظر فيما يصلح وما لا يصلح ، فالذي حصل أن الذي نتج عن استخدام هذه الفريضة من دون نظر ولا حكمة ولا فقه ولا تبصرٍ ، أن النتائج هي أسخط لله عز وجل من المنكرات التي أُنكرت بغير حكمة وبغير مسؤولية .

من الثوابت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ الشيء الأول هو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية ، وقد يصبح فرضَ عين في بعض الحالات ، لقول الله عز وجل :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤))

[سورة آل عمران]

لم يقل كونوا جميعاً آمرين بالمعروف ، فإذا قام به أحد ، أو جماعة مما تحصل به الكفاية ، سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به ، وإن تقاعد الخلق أجمعون ، عم الحرج على القادرين عليه كافة لا محالة ، وعندئذ يصبح فرض عين على القادر الذي لم يقمْ به غيره .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين ، إذا قام به أحد ، أو قام به مجموع ، سقط الحرج عن الآخرين ، وأصبح هؤلاء الذين فعلوه من الفالحين ، فإذا تقاعس كل الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقعت الأمة كلها في حرج شديد ، وأصبح الأمر بالمعروف فرضَ عين على القادر إذا لم يقم غيرك به .

هذا هو الثابت الأول ، وهذه هي الحقيقة الأولى في الفريضة السادسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الحقيقة الثانية :

لعموم قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد]

وفي قول آخر :

((فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ))

[أخرجه مسلم وأحمد]

يعني إذا لم تنكر بقلبك وهذا أضعف الإيمان ليس في هذا القلب حبة خردل من إيمان .

أيها الإخوة الكرام :

البند الثاني والحقيقة الثانية ، وهو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل المسلمين جماعات وآحاداً .

يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى : لا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات بل ذلك جائز لآحاد المسلمين .

ويقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى : إن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه ، وإنه إذا لم يلحقه بالتغيير إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى ، فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره .

لو أن الناس لاموك ، لو أن فتاةً متبذلة ، أليس لها أبٌ ؟ أليس لها خالٌ؟

لو أن أباها أو عمها أو خالها أمرها ، ولامه الآخرون على أمره ينبغي أن يأمرها بالتستر والتعفف والاحتشام .

أيها الإخوة الكرام :

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : كل من رأى منكراً فسكت عنه وهو قادر على أن ينكره فقد عصى الله ، أن ينكره بطريقة أو بأخرى .

إذاً الحقيقة الأولى هو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية ، ويصبح فرض عين إذا تقاعس عنه الآخرون .

والحقيقة الثانية ، وهو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل المسلمين ، جماعات وآحاداً .

والحقيقة الثالثة ، وهو أنه لا إنكار في مواضع الاجتهاد ، القضية الاجتهادية ، والقضية الاحتمالية ، القضية التي لها وجوه بين علماء الأمة الكبار المعتمدين الورعين المتحققين ، هذه قضية اجتهادية لا مجال فيها لإنكار المنكر ، لأن الله سبحانه وتعالى تعبدنا باجتهاد الأئمة .

مسائل الاجتهاد ، من عمل فيها بقول بعض العلماء لم يُنكر عليه ، ولم يهجر ، ومن عمل بأحد القولين لم يُنكر عليه ، فإن ظهر للإنسان رجحان أحد القولين عمل به ، وإلا قلد بعض العلماء الذين يُعتمد عليهم في بيان أرجح القولين .

الاختلاف في الأحكام الاجتهادية أكثر من أن يُضبط ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة .

والإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول : لا يُنكر إلا المنكر الظاهر بلا تجسس ، والمعلوم يقيناً بغير اجتهاد ، هذا الذي ينكر .

هذه الحقيقة السادسة في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أيها الإخوة الكرام :

لو أن هذه الفريضة السادسة ، أُقيمت على الوجه الذي أراده الله عز وجل لكنا في حال غير هذا الحال ، ماذا يحصل عندئذ ؟

تضيق دوائر المنكر ، وتتسع دوائر المعروف ، يضيق الباطل ويتسع الحق ، ينتشر الحق وينمحق الضلال .

أما إذا سكت المسلم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتسعت دوائر الباطل ، وضاقت دوائر الحق ، بل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل بقاء الحق لا من أجل توسيعه ، بل إن أحد أركان النجاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لقوله تعالى :

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

[سورة العصر]

هذه فريضة من أجل الفرائض ..

أيها الإخوة الكرام :

((بلغوا عني ولو آية))

((ألا يا رب مبلغ أوعى من سامع))

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣))

لو أن كل إنسان ضبط بيته ، لو أن كل إنسان نصح إخوته ، وأخواته وجيرانه وأصدقائه ، ومن يعمل معه ، بالموعظة الحسنة ، والدليل الناصع والبيان المشرق ، والتلطف الكثير ، والرقة البالغة، لكنا في حال غير هذا الحال .

ما الذي دعا أمة أن تستحق سخط الله وغضبه ، ولعنته ..

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩))

والأمة الإسلامية ، حينما لا يتناهى أفرادها عن المنكرات تستحق غضب الله ولعنته .

الحقيقة الرابعة في موضوع الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر ؛ يجب أن يُحسم المنكر بما ينحسم به ، لا بأكثر من ذلك ، فإذا كان هذا المنكر يحسم بكلمة لطيفة ، لا ينبغي أن تستخدم الكلمة الخشنة، إذا كان هذا المنكر يحسم بقطيعة هادفة ، لا ينبغي أن يُستخدم أكثر من هذه القطيعة إذا كان هذا المنكر يحسم بالتعنيف لا ينبغي أن تحسمه بالضرب ، المنكر يجب أن يُحسم لا بالوسيلة الأقوى والأقسى ، بل بما ينحسم به ، وهذه حقيقة ثابتة في قضايا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، القول اللين أولاً ، فإن لم يجد فالقول الخشن ، فإن لم يجد كان التغيير باليد ، هذا فيما تملك من أسرتك ، وفيما تملك من عملك .

أيها الإخوة الكرام :

والحقيقة الخامسة في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تقتصر في التغيير على قدر الحاجة ، فالمقصود إزالة المنكر لا العقوبة عليه ، ليس آحاد المسلمين مكلفاً أن يعاقب عن المنكر ، مكلفٌ أن يزيله فقط ، فالمقصود إزالته وليست العقوبة عليه .

هناك دفع وهناك زجر وهناك عقوبة ، فالعقوبة على الماضي والزجر على المستقبل ، والدفع على الحاضر ، العقوبة والردع من مهمات أولياء الأمور أما آحاد المسلمين مهمتهم الدفع فقط ، أن تزيل المنكر لا أن تعاقب عليه ، وهذا فيما تستطيع ، والقاعدة الأساسية ، أنه إذا نتج عن إنكار المنكر ، منكر أسخط الله تعالى من المنكر الذي أنكرته ، عندئذ لا ينبغي أن تنكر هذا المنكر . لا بلسانك ولا بيدك ، يُكتفى أن تنكره بقلبك وهذا أضعف الإيمان .

أيها الإخوة الكرام :

درجات الإنكار ؛ كما قال بعض العلماء ، التعريف التبيين ؛ هذا منكر هذه مخالفة شرعية ، هذا عمل لا يرضي الله ، هذه الآية وهذا الحديث وهذا التوجيه وهذه سنة النبي ، وهذا رأي الفقهاء ، وهذا رأي الأئمة الأعلام ، بين .. التبيين أولاً ، ثم النهي بالنصح والموعظة الحسنة ثانياً ثم القول الخشن لمن تقدر على توجيهه ثالثاً ، ثم الإنكار باليد ثم التخويف

ربنا جل جلاله كيف يوجه عباده ؟ بالدعوة البيانية ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤))

[سورة الأنفال]

فإن لم يستجيبوا فالله جل جلاله ماذا يفعل ؟ التأديب التربوي

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١))

[سورة السجدة]

ثم بالإكرام الاستدراجي ، ثم بالقصم ، لابد من التدرج ، يجب أن توضح وأن تبين ، وأن تنصح برقة بالغة ، ثم أن تزجر ، ثم أن تقاطع ثم أن تخوف ، ينبغي أن تنتقل من درجة إلى درجة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

رجل دخل على أمير وقال سأنصحك وسأغلظ عليك ، فكان هذا الأمير أفقه من الواعظ ، قال ولِمَ الغلظة يا أخي ، لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني ، أرسل موسى إلى فرعون ، لستَ أنت كموسى ولستُ أنا كفرعون ، فقال له :

(فقُولا لَهُ قوْلاً ليِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى (٤٤))

[سورة طه]

قال له ولمَ الغلظة يا أخي ، من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف

والبند السادس ، والحقيقة السادسة في هذا الموضوع موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أن إنكار القلب يجب أن يكون كاملاً وجازماً ، في جميع الأحول ، لأن حب القلب وبغضه لا سلطان لأحد عليه ولا ترد على القلب عوارض الإكراه إطلاقاً ، لذلك يجب أن يبقى كاملاً وجازماً ، لأن أي نقص في إنكار القلب هو نقص في الإيمان ، لأن القلب لا سلطان لأحد عليه ، ولا يجري عليه الإكراه ولا الضغط ، فلذي لا يُنكر بقلبه ليس فيه حبة خردل من إيمان لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان))

أيها الإخوة الكرام :

مرة ثانية ، لو أمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، وفق منهج الله عز وجل ، لكنا في حال غير هذا الحال ، لو أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر لتوسعت دوائر الحق ولضاقت دوائر الباطل ، لو أن كل إنسان تعهد أن يقيم الإسلام في بيته ، إقامة باليد ، وأن ينصح في من حوله من أخوة ، من أخوات ، من جيران ، من أصدقاء ، هؤلاء جميعاً لو تعاونوا على البر والتقوى لكان المسلمين في أحسن حال .

ابن مسعود رضي الله عنه ، سمع رجلاً يقول ، هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه ته المنكر ، فقال ابن مسعود :

((هلك من لم يعرف المعروف والمنكر))

لأن معرفة المعروف والمنكر فرض عين لا يسقط عن أحد ، فمن لم يعرفه هلك ، أما الإنكار باللسان واليد فإنما يجب بحسب الاستطاعة.

هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه .

ذكرت لكم في خطبة سابقة ، أن الذي يهبط بالمظلة ، قد يجهل شكل المظلة ، أمستطيلة هي أم مربعة أم دائرة ، ونوع قماشها ، ولون قماشها وأطوال حبالها ، وعدد حبالها ، وألوان حبالها ، وعن الخيوط التي صُنعت منها حبالها ، لو جهل كل هذه الحقائق ينزل إلى الأرض سالماً أما إذا جهل طريقة فتحها نزل ميتاً ، فطريقة فتح المظلة معرفتها فرض عين على كل مظلي ، وفي الإسلام حقائق هي فرض عين على كل مسلم أن يعرفها ، ولا يُعذر في جهلها أحد لأنها مهلكة ، لذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة إلى تعريف الناس بهذا الذي ينبغي أن يعرفوه بالضرورة ، وسيلة إلى تعريف الناس بهذا الذي ينبغي أن يعرفوه يجب أن يعرفوه .

أيها الإخوة الكرام :

من أجمع الآيات التي توضح هذه الحقيقة قوله تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢))

[سورة المائدة]

نتعاون على البر ؛ صلاح الدنيا ، والتقوى صلاح الآخرة ، يجب أن تنطق بالحق ، الساكت عن الحق شيطان أخرس ، ولكن هناك ضوابط كثيرة سوف أعددها إن شاء الله في خطبة قادمة . يجب أن نعتقد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة كفريضة الصلاة ، كيف نصلي ، الصلاة فريضة ، لماذا نصوم ؟ لأنه فريضة لماذا نحج إن كنا مستطيعين ؟ لأنه فريضة ، لماذا نؤدي الزكاة إذا ملكنا النصاب ؟ لأنه فريضة ، لماذا نأمر بالمعروف ؟ لأنه فريضة .

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤))

فإذا ترك المسلمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليسوا خير أمة أخرجت للناس عندئذ ، كما قال بعض العلماء صاروا أمة التبليغ لا أمة التشريف ، بلغوا ولم يشرفوا بهذه المهمة .

وهذا الأمر أيها الإخوة يجب أن نفهمه فهماً دقيقاً ، الأب ينبغي أن يأمر من حوله ، ويأمر أقرباءه ومن له سلطان أدبي عليهم ، إن فعل هذا ضاقت دوائر الباطل واتسعت دوائر الحق وكنا في حال غير هذا الحال وإلا الأمة التي لا يتناهى أفرادها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستحق لعنة الله وغضبة إلى يوم القيامة .

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

الخطبة الثانية :

أيها الإخوة الكرام :

يعني مثل تطبيقي ، ذكرت أكثر من مرة في هذه الخطبة ، أن الإنسان مُكلف أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر بلسانه ويده فيما ملكه الله قطعاً في بيتك وفي عملك ، ولو أن كل مسلم وأقول هذا آلاف المرات لو أن كل مسلم أقام في بيته الإسلام وفي عمله لوجدتم بعد حين أن المجتمع كله بخير ، وهذه من بركات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لو أن أحد محارمك جاء إلى بيتك ، ابنة أخيك مثلاً ، ورأيتها في ثياب لا ترضي الله ، فنصحتها ، المرة الثانية قبل أن تأتي إلى البيت ترتدي الثياب التي ترضى بها عنها ، وهكذا فكلما اتسعت دوائر

الأمر بالمعروف رأيت الناس ينضبطون ، بعد حين قد تكتشف أن الثياب المحشومة أكمل لها ، فبهذه الكلمة التي ما كلفت العم إلا دقائق أزال منكراً وأقام معروفاً ، أما إذا سكت ، وأجرى كامل المودة وهي على ما هي عليه من التفلت لكان سكوته إقرار ، وهذه مشكلة ، الصغير إذا رأى الكبير ساكتاً على انحرافاته يظن أن الكبير يقره على انحرافاته فالإنسان في دائرة حوله من أقربائه من محارمه من ذوي قراباته إذا بقي ساكتاً كان سكوته إقراراً .

أيها الإخوة الكرام :

مرت قبل أيام مناسبة الإسراء والمعراج ، ولا أريد أن أطيل عليكم إنه يعلمنا أن الدنيا دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، وأن الله قد جعلها دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي .

إنه يعلمنا أن للمحن والمصائب ، حكماً جليلة ، منها أنها تسوق أصحابها إلى باب الله تعالى ، وتلبسهم رداء العبودية وتلجئهم إلى طلب العون من الله .

إنه يعلمنا أنه لا ينبغي أن تصدنا المحن والعقبات عن متابعة السير في استقامة وثبات .

إنه يعلمنا أنه ما دام الله هو الآمر فلا شك أنه هو الضامن والحافظ والناصر .

إنه يعلمنا أنه لولا الجهاد والصبر ما عبد الله في الأرض ، ولا انتشر الإسلام في الخافقين ، ولما قمنا في هذا المكان نوحد الله ونسبحه وندعو إليه .

إنه يعلمنا أن اليسر مع العسر وأن النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب .

إن من أجل دروس الإسراء والمعراج أن الله تعالى كرم النبي محمداً صلى الله عليه وسلم بالعروج إليه لينال به أعلى درجات القربات وكرَّم أمته بأن فرض عليهم الصلوات لتكون معراجاً لها إلى رب الأرض والسماوات .

أيها الإخوة الكرام هذه المناسبات الدينية ينبغي أن نستخلص منها الحقائق والعبر كي تكون هذه الحقائق والعبر نبراساً لنا في طريق الإيمان وفي طريق السير إلى الدار الآخرة .

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٦٣ : خ١ -خطوات الشيطان ومداخله - خ ٢ : الحبة السوداء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٧-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، في حياة المسلمين المعاصرة، أنهم أتَوا على بعض المعاني الإسلامية الكبرى مما ثبت في الكتاب والسنة، فأولها تأويلاً فاسداً متعنتاً، ليقربوها من الفكر الحديث، من النظرة المادية للأشياء، أرادوا أن يفرغوا الدين من حياتهم المعاصرة، وهذا انحراف خطير في عقيدة المسلمين وفي منهجهم القويم.

ومع أن تأويل هذه المعاني الكبرى خروج عن منهج الله عز وجل وعن منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع نص الوحي فقد أضرت هذه التأويلات وهذه التفسيرات وتلك الانحرافات أضرت بالإسلام وقضيته أيما ضرر، ولم تحقق أدنى فائدة في زعم هؤلاء الذين أولوا هذه التأويلات وانحرفوا هذه الانحرافات، في زعمهم أنهم يقربون الدين من الحياة، ويجعلونه مقبولاً لدى الأطراف الأخرى، الذي حصل عكس ذلك.. ضحَّينا بجزء مهم جداً من عقيدتنا، وضحَّينا بمَعْلَمٍ كبير من معالم منهجنا، ولم نحقق أية فائدة، هذا كلام عام سآتي على تفصيلات توضحه.

أيها الإخوة الكرام، من الأمثلة الصارخة حول هذا الموضوع، موضوع الشيطان في القرآن الكريم، هذا الموضوع أحد الوجوه التطبيقية لهذا المنحى التفسيري المنحرف.

ربنا جل جلاله يقول:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦))

[سورة فاطر]

فُسِّر الشيطان بأنه رمز معنوي لقوى الشر، فُسر الشيطان بأنه تعبير عن وساوس النفس، فُسر الشيطان بأنه جهد الطرف الآخر بالصد عن طريق الله عز وجل، هذه التفسيرات أخرجت الآية عن مضمونها وأخرجتها عن مدلولها الصحيح، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦))

من خلال هذه التأويلات التي ميعت الآية، من خلال هذه التأويلات التي فرغت مضمون الآية، أصبحت هذه الآية غير ذات مضمون وغير مفهومة، وغير مدلول عملي لها.

وفي الحقيقة المؤيدة بالنص، الشيطان حقيقي وليس معنوياً، نعتقد جميعاً من خلال الكتاب والسنة أن الشيطان حقيقي وهو عدو لنا، أما أن نفهم أنه جراثيم كما يدعي البعض، ورمز للشر كما يدعي البعض فهذا ليس من الحقيقة في شيء، الشيطان من الجن، قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠))

[سورة الكهف]

الشيطان كان من الجن ففسق عن أمر ربه، ونحن أيها الإخوة الكرام نعتقد بوجود الجن والإنس، والشيطان من الجن ومع كل إنسان شيطان وملك، بل إن الشيطان والملك، الذين كانا مع الإنسان من أجل أن يتم الابتلاء، نحن في دار ابتلاء، قال تعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠))

[سورة المؤمنون]

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢))

[سورة الملك]

بل بعضهم يقول إن علة وجودنا على وجه الأرض الابتلاء، قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢))

[سورة العنكبوت]

لابد من أن نُمتحن، إن الدنيا بأكملها دار امتحان، دار ابتلاء، دار تعبير عما في النفس، فلذلك، يقول عليه الصلاة والسلام من حديث ابن مسعود الذي ورد في صحيح مسلم:

((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَإِيَّايَ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِحَقٍّ))

[أخرجه مسلم، وأحمد]

ومن أحد: من تفيد استغراق أفراد النوع.

والآية الشهيرة:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦))

[سورة الناس]

صار هناك شياطين للإنس وشياطين للجن، فالصديق إذا أمرك بمعصية، إذا أغراك بمخالفة، إذا حببك إلى الدنيا، إذا زهدك في الآخرة فهذا من شياطين الإنس، فإذا جاءت وسوسة تدعوك إلى معصية تدعوك إلى الدنيا على حساب الآخرة، تدعوك على مخالفة، فهذه الوسوسة من شياطين الجن، فالإنسان بين إلهام ملك ووسوسة شيطان من الجنة والإنس، وهذا من لوازم الابتلاء، أنت مبتلى في الدنيا، أنت ممتحن.

وللشيطان كما ورد في القرآن الكريم ذرية، ويتكاثرون، قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠))

إذاً الشيطان له ذرية وذرية الشيطان تتكاثر.

الذي يعنينا أن هذا الشيطان الذي وصفه الله بأنه عدو لنا مبين له أساليب ذكية جداً في تعامله مع الإنسان، بعض العلماء الأجلاء رحمه الله تعالى، ذكر أساليب الشيطان في مدخله مع الإنسان، فقال هذا العالم الجليل: الشيطان يسعى أولاً في أن يكفر الإنسان، أو يحمله على الشرك، فإن كان هذا الإنسان من المسلمين وامتنع عليه سلك معه الشيطان طريقةً أخرى، أول هدف من أهداف الشيطان أن يحملك على الشرك والكفر، فإن لم يفلح وامتنعت عليه سلك طريقاً آخر، الطريق الآخر يسعى الشيطان لهذا الإنسان المسلم الذي امتنع عليه من أن يحمله على الكفر أو الشرك يسعى لأن يجعله يبتدع في الدين ما ليس من الدين فإن كان هذا المسلم من أهل السنة وامتنع عليه يسلك معه الشيطان طريقاً آخر، الطريق الآخر يغريه بالمعاصي الكبيرة، فإن لم يفلح وامتنع هذا المسلم عن أن يقع في كبيرة، يدفعه إلى صغيرة، فإذا فعل صغيرة وأصر عليه انقلبت إلى كبيرة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار))

فالشيطان يأس أن يُعبد في أرض العرب، في الجزيرة، ولكنه رضي فيما تحقرون من أعمالكم، فهذه الصغائر التي تبدو للمسلمين صغائر حينما يصرون عليها انقلبت إلى كبائر، والتيار الكهربائي إذا انقطع كل أجهزة البيت تتعطل، فإذا كان هذا الانقطاع ميليمتراً أو متراً، النتيجة أن هناك انقطاع، فالصغائر إذا أصر الإنسان عليها حجبته عن الله عز وجل وأصبحت كالكبائر، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام لا صغيرة مع الإصرار، فالشيطان يسعى إلى أن يقع الإنسان بالكبائر فإن امتنع عليه دله على الصغائر.

يقول المسلم أنا لا أزني ولا أسرق ولا أشرب الخمر ولا أقتل.. جميل هذه كبائر، فما بال هذه المخالفة وتلك المخالفة وهذا المعصية، يتوهمها صغائر هو في الحقيقة تحجبه عن الله عز وجل.

فهذه محقرات الذنوب يجتمعن على الرجل حتى يُهلكنه، محقرات الذنوب، الذنوب التي لا يلقي المسلم لها بالاً، ماذا فعلت ؟ لم أرتكب كبيرة، لم أسرق، لم أقتل لم أشرب لم أزن.. ولكن إطلاق البصر والاختلاط، والجلوس وراء الأعمال الفنية التي يمضي بها الإنسان إلى منتصف الليل، ماذا يفعل، يقول لك أنا لم أفعل شيئاً، وقع في التي توهمها صغائر وقطعته عن الله عز وجل، وأصبح الطريق إلى الله غير سالك، وقال ماذا فعلت ؟ إنها محقرات الذنوب، هي عنده محقرات الذنوب ولكنه عندما أصر عليها أصبحت قواطع الذنوب.

أيها الإخوة الكرام، يسعى الشيطان لأن يوقع هذا المسلم بالصغائر وأن يصر عليها، فإذا امتنع عليه يسلك معه طريقاً آخر، يغريه بالمباحات، بالأشياء المباحة يغرق في المباحات، يغرق في الزينة، يغرق في تنوع ألوان المتع في حياته، كلها مباحة، فإذا أمضى وقته في المباحات فقد غفل عن الله عز وجل، يقول لك أنا مالي ولا معصية، ولا صغيرة، ولكنه غارق في قمة رأسه في المباحات، هذه المباحات مشغلة، تشغله عن الله عز وجل تشغله عن ذكر الله، تشغله عن طلب العلم، تشغله عن نشر العلم تشغله عن أجل الأعمال.

فإذا امتنع المسلم عن الشيطان من أن ينشغل بالمباحات سلك معه طريقاً آخر، ذكرت لكم أول الخطبة أن الشيطان ذكي جداً، يتحايل الآن ماذا يفعل معه، يشغله بالعمل المقبول، ويبعده عن ما هو أفضل منه يشغله بسنة ويغريه بترك فريضة، لابد من أن تقبل الحجر الأسود فإذا به يدفع المسلمين، ويؤذي المسلمين، ويسيء إلى المسلمين، يغريه بسنة ويدع من أجلها فريضة، وهي الحفاظ على سلامة المسلمين.

فإن لم يفلح في أن يحمله على سنة تشغله عن فريضة، لابد من أن تحج كل عام، وله أولاد بأشد الحاجة إلى الزواج، يغريه أن يحج كل عام، ثلاثين حجة يقول لك، ثلاث وثلاثون حجة، وأولادك الذين شاركوا الحرام، قاربوا الحرام، وهم في أشد الحاجة إلى معونتك وهم في أشد الحاجة إلى أن تحصنهم، شغله بحج نفل عن فريضة وهي أن يرعى أولاده، ويهيئ لهم مستقبلاً، الشيطان أحياناً يغريك بسنة ليشغلك بها عن فريضة، وأو يغريك بمستحب ليشغلك بها عن فريضة، يغريك بعمل مقبول ليبعدك عن عمل أفضل منه.

أيها الإخوة الكرام، هذا من حيث المضمون، أما من حيث الشكل يسلك الشيطان مع الإنسان خطوَةَ خطوةً، لذلك قال الله تعالى ـ دققوا في هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(١٦٨))

[سورة البقرة]

الذين دعوا إلى أن تتفلت المرأة من الضوابط الإسلامية لجؤوا لكشف الوجه، ثم لكشف الشعر، وما زالت المرأة تنتقل من معصية إلى أخرى حتى بدت وكأنها في بيت زوجها، حتى بدت وكأنها في غرفة النوم.

هكذا من معصية إلى معصية، من انحراف إلى أشد:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(١٦٨))

الشيطان يدعوك إلى أن تدعوها إلى الله لهذه المرأة في خلوة، فإذا بالشيطان ينقل هذا الإنسان من خطوة إلى خطوة حتى يقع في الفاحشة.

لذلك الشريف هو الذي يهرب من أسباب المعصية.. إن الشهوة التي أودعها الله في الإنسان كمثل صخرة مستقرة على رأس جبل، أنت مخير، إما أن تدعها مستقرة وإما أن تدعوها إلى الوادي، فإذا أردت أن تدفعها من مكانها، لن تستقر إلا في أعماق الوادي، أما أن تتوهم أنك بعد مترين توقفها لا تستطيع، بعد أربعة أمتار توقفها لا تستطيع، أنت مخير، أن تدعها في حصنها الحصين أو أن تدفعها، فإذا دفعتها فلست مخير.

أيها الإخوة الكرام،

(وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(١٤٢))

[سورة الأنعام]

الشيطان يدخل على الزاهد من باب الزهد، ويدخل على العالم من باب العلم، ويدخل على الجاهل من باب الجهل، ويدخل على الرجل من باب المرأة، ويدخل على الغني من باب المال، وللشيطان أساليب متنوعة يعالج بها كل إنسان على حدة، بحسب مكانته وخصائصه.

أيها الإخوة الكرام، خطباء كثيرون جزاهم الله خيراً يعالجون قضايا الشاردين، قضايا المتفلتون، هؤلاء الشاردون والمتفلتون لا يأتون إلى المساجد، ولا يسمعون هذا الخطاب، وهؤلاء الذين في المساجد لا يعنيهم هؤلاء، إنهم منضبطون، لذلك الأولى أن نعالج مشكلات الذين يرتادون المساجد، أن نعالج مشكلات المؤمنين، الذين يلقون السمع إلى كلمة الحق.

فيا أيها الإخوة المؤمنون، من مداخل الشيطان على الصالحين، وكل إنسان آمن بالله وأراد أن يطيعه، وطلب العلم، وارتاد بيوت الله عز وجل هو من الصالحين، ما مداخل الشيطان على الصالحين، أول مدخل للشيطان عليهم التحريش بين المؤمنين، هذه الخصومات، هذه التمزقات، هذه العداوة والبغضاء هذا الحسد، هذا التشكيك، هذا الإيقاع بين المؤمنين، هذا من فعل الشيطان الرجيم. في صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيش بَيْنَهُمْ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد]

هذه مهمة الشيطان، فإذا وقعت بينك وبين أخيك عداوة فاعلم أنها من فعل الشيطان، إذا وقعت بينك وبين أخيك بغضاء فهي من فعل الشيطان إذا وقع بينك وبين أخيك تحاسد من فعل الشيطان.

((المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

الأصل ؛

(إنما المؤمنون أخوة)

لأصل ؛

(لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم)

عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ الشَّامِ فَإِذَا أَنَا بِفَتًى بَرَّاقِ الثَّنَايَا وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَهُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَّرْتُ فَوَجَدْتُ قَدْ سَبَقَنِي بِالْهَجِيرِ وَقَالَ إِسْحَاقُ بِالتَّهْجِيرِ وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ أَاللَّهِ فَقُلْتُ أَاللَّهِ فَقَالَ أَاللَّهِ فَقُلْتُ أَاللَّهِ فَأَخَذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ وَقَالَ أَبْشِرْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[أخرجه أحمد والترمذي ومالك]

عن معَاذُ ابْن جَبَلٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

((الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ))

[أخرجه الترمذي وأحمد]

الأصل المودة، الأصل الحب..

عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((مَرَّ رَجُلٌ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ جَالِسٌ فَقَالَ الرَّجُلُ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا فِي اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرْتَهُ بِذَلِكَ قَالَ لَا قَالَ قُمْ فَأَخْبِرْهُ تَثْبُتِ الْمَوَدَّةُ بَيْنَكُمَا فَقَامَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ أَنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ أَوْ قَالَ أُحِبُّكَ لِلَّهِ فَقَالَ الرَّجُلُ أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي فِيهِ))

[أخرجه أحمد وأبو داود]

الحب التناصح التعاون:

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِي اللَّهم عَنْهما أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

هذا هو الأصل، مالك ترى بين المسلمين ما صنع الحداد، مالك ترى بين الجماعات الإسلامية ما صنع الحداد، مالك ترى الطعن والتشكيك والازدراء والاستعلاء، هذا كله من فعل الشيطان، أول باب من أبواب والشيطان على الصالحين أن يحرش بينهم، أن يلقي بينهم العداوة والبغضاء، وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيش بَيْنَهُمْ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد]

قال شراح الحديث: بالخصومات والشحناء والفتن.

ومن حديث صفية بينت حيي رضي الله عنها أم المؤمنين، قالت:

عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ قَالَتْ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ فَقَالَا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا أَوْ قَالَ شَيْئًا))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدارمي]

هذه القصة يجب أن تعمم على كل شيء، وضح الحساب، وضح العلاقة، وضح لماذا أنت في البيت، وضح لماذا فتحت الدرج في المحل وضح، البطل هو الذي يفعل شيئاً له تفسير واحد، البطل هو الذي لا يضع نفسه موضع التهمة ثم يلوم الناس إذا اتهموه، اجعل من هذه القصة منهجاً لك،

وضح بين صرح، البيان يطرد الشيطان " هذه زوجتي صفية" من القائل ؟ سيد الخلق وحبيب الحق:

((فقالا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قالَ إنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا أَوْ قالَ شَيْئًا))

وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قالَ:

((كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجُلَانِ يَسْتَبَّانِ فَأَحَدُهُمَا احْمَرَّ وَجْهُهُ وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ فَقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ فَقالُوا لَهُ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ فَقالَ وَهَلْ بِي جُنُونٌ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد]

فهذا الغضب الشديد، هذا الغضب المجنون من الشيطان، هذا الغضب الذي يعطل عقل الإنسان من الشيطان ، فاستعذ بالله، قال تعالى:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠))

[سورة الأعراف]

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١))

[سورة الأعراف]

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦))

أول مدخل للشيطان على الصالحين التحريش بين المؤمنين، وثاني مدخل للشيطان على الصالحين تزيين البدعة.

أيها الإخوة الكرام، بعضهم بسذاجة مضحكة يضع حديثاً لا أصل له لتخويف الناس من النار أو لحملهم على التقرب إلى الله عز وجل، فإذا واجهتهم بافترائهم على رسول الله يقولون إنما نكذب له لا عليه، الشيطان حينما يحمل المسلم الساذج على أن يبتدع شيئاً ما فعله النبي لتخويف الناس أو لدفعهم إلى العمل الصالح هذا من فعل الشيطان ولكن بمكر شديد.

أحياناً نخترع عبادات لا وجود لها في الإسلام، هذه العبادات تحمِّل المسلمين فوق ما يحملون، تحملهم فوق طاقتهم، عندئذ ينصرفون عن الدين.

منهج النبي عليه الصلاة والسلام منهج أمثل يسع كل المسلمين إلى يوم الدين، وهذا المنهج فعال لدرجة أنك إذا طبقته تستطيع أن تصل إلى أعلى درجة في الإيمان، دون زيادة، دون أن تزيد في العبادات ولا في الأذكار ولا في أي شيء آخر، لذلك تزيين البدعة واختراع شيئاً ليس من الدين من فعل الشيطان، وهو من مدخل الشيطان على الصالحين.

حقيقة ينبغي أن تكون واضحة جداً بين أيديكم ؛ الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يُحرم شيء إلا بنص ثابت، أما في العبادات الأصل فيها الحظر ولا تُشرع عبادة إلا بنص ثابت، من أجل أن يستمر الدين كما بدأ من أجل أن تكون مسيرة الدين واضحة جلية منضبطة.

هناك مدخل على الصالحين ثالث: تضخيم جانب على حساب جانب فهناك إنسان مقصر جداً في الطاعات لكنه يبالغ في الصلاة، إلى درجة أنه يصلي النوافل ويدع بعض المنهيات، ويقع في بعض المحرمات..

ماذا يفعل ؟ فهو لا يشعر يسلك سلوك التعويض، حينما يختل توازنه من اقتراف بعض المعاصي يحاول أن يغطي هذا الخلل بمبالغة في الصلوات، فإذا صليت النوافل كلها، وكنت متلبس بمعصية متعلقة بالشهوة إما بامرأة أو بكسب المال، فهذه المبالغة الزائدة لا تلغي هذا التقصير، فلابد من التوازن، لابد من أن تسير على الخطوط الثلاثة معاً كي تتفوق، فإذا أخذت خطاً واحداً على حساب الخطين الآخرين، إذا سلكت في خطين على حساب الخط الثالث تطرفت وغلوت في الدين.

أيها الإخوة الكرام، هناك من يقول الدين معاملة، أنا أعامل الناس أطيب معاملة ولا شيء بعد ذلك، ضخَّم المعاملة وأهمل العبادات، ضخَّم المعاملة وأهمل العلم تضخيم شيء على حساب شيء من مداخل الشيطان على الصالحين.

هناك من يقول أهم شيء حفظ القرآن الكريم، وحفظ القرآن الكريم من أعظم الأعمال، أما أن أكتفي به، وأن أدع منهج الله الذي يزيد عن مائة ألف بند، هذا أيضاً مدخل، أن أضخم هذا على حساب أصول الدين على حساب الأمر والنهي، احفظ القرآن وطبق القرآن، احفظ القرآن وتدبر آيات القرآن.

أحياناً يقول لك القضية ضمنية، أنا نيتي سليمة، أفعاله كلها منكرة ولكن نيته سليمة، ماذا فعل هذا، أخذ النية الطيبة وضخمها وجعلها هي الدين وأهمل كل شيء.

أحياناً العمل الصالح الذي أنت مخلوق من أجله إذا سلكت به عملاً سيئاً نشأت مشكلة كبيرة جداً، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

ولابد من التوازن، لابد من أن تؤدي لكل شيء حقه.

أحياناً يقول لك يجب أن أكثر من ذكر الله، هذا أمر إلهي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١))

[سورة الأحزاب]

لكن إذا حاككته بالدرهم والدينار لا تراه في مستوى ذكره، لان ترى ذكره صارخاً في معاملته، صار في خلل، صار في عرج، الذاكر لله عز وجل لا يأكل لقمةً من حرام، لا يبتز أموال المسلمين.

أيها الإخوة، أخشى ما يخشاه الغيور على مصالح المسلمين أن نقع في هذه الأمراض ؛ أن نبالغ في شيء وأن نقصر في أشياء، فنجعل من هذه المبالغة تغطية لهذا التقصير، هذا خطأ كبير.

هذا على المستوى الفردي، أما على المستوى الجماعي بعضهم ينشغل بدراسة واقع المسلمين، ودراسة واقع أعدائهم، ويتبحر ويقرأ ويؤلف فإذا سألته عن الإسلام لا يعلم عنه شيئاً، لكن كل الذي يعلمه عن أعداء المسلمين، وعن واقع المسلمين السيئ السلبي، فإن سألته عن أصل العقيدة، عن أصل هذا المنهج، بعيد جداً كل البعد، هذا انشغل في موضوع جانبي عن أصل الإسلام.

بعضهم يهتمون، يقول لك:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣))

[سورة آل عمران]

يريد أن يجتمع كل الأطراف في بوتقة واحدة، مع أن هناك أطراف لا تجتمع، يعني يحاول أن يجر الجميع إلى شيء واحد وهذا الشيء الواحد موهوم، وأيضاً لا يجتمع ضوء وظلام في وقت واحد، هما نقيضان وأحياناً هناك تناقضات خطيرة جداً بين الأطراف، فإذا أردت أن تجمعها هذا جمع مستحيل، جمع غير واقعي.

فعلى مستوى فردي هناك من يضخم جانب العبادات على المعاملات هناك من يضخ المعاملات على العبادات، هناك من يضخم السلوك على العقيدة، هناك من يضخم الاتصال بالله على كل شيء آخر، لابد من التوازن، في الدين كلية معرفية وكلية سلوكية وكلية جمالية، لابد من عقيدة صحيحة هي الأصل، ولابد من سلوك منضبط، ولابد من اتصال بالله، هذا هو التوازن، ولابد من أن تعرف أصول الدين قبل أن ترد على خصوم المسلمين.

أكثر الناس الآن منشغلون بالخلافيات التي يسمعونها في الحواريات في المحطات، وينسون أصل الدين، هذا انحراف أراده الشيطان من أجل أن يشغلنا عن حقيقة هذا الدين.

أيها الإخوة الكرام، هذا مدخل ثانٍ من مداخل الشيطان، المدخل الثالث هو التسويف والتأجيل وطول الأمل ؛ بعد أن أنتهي من الدراسة أتوب إلى الله، بعد أن أعين في وظيفة أتوب إلى الله، بعد أن أحج إلى بيت الله الحرام أتوب إلى الله، بعد أن أتزوج أتوب إلى الله، هذا التسويف من فعل الشيطان.

كم عازم على الجد سوَّفه، وكم فاعل إلى فضيلة ثبطه، وكم من عابد زهده في عبادته، التسويف.

شيء آخر أحياناً يوقعك بالغرور بالكمال الزائف، أنك أنت إنسان متميز لك علم لا يعرفه الآخرون، ولك استقامة لا يطمع إليها الطامعون هذا الوهم بأنه على كمال عالٍ جداً هو حجاب بينه وبين الله، من فعل الشيطان، أوقعه بالغرور، فالكمال الزائف أحد مداخل الشيطان على الصالحين.

النظرة إلى الذات أيها الإخوة مدخل آخر، إما أن يوقعه بالغرور وإما أن يوقعه بازدراء نفسه، دائماً نحن مالنا أهل، نحن عبيد إحسان ما نحن عبيد امتحان، نحن ذنوبنا كثيرة الله يغفر لنا ويسامحنا، دائماً منهار داخلياً، الشيطان يضعضع ثقته بنفسه، نفسك مطية فارفق بها.

أو يوهمه أنه في مستوى رفيع الناس لا يطمحون إلى هذا المستوى.

أيها الإخوة الكرام، مدخل سابع من مداخل الشيطان على الصالحين التشكيك، فالمستقيم قد يشك بنفسه، قد يحمله الشك على ترك العبادة، وهذا من مداخل الشيطان إن الجماعة ما وافقت طاعة الله عز وجل، فإذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك على حق فأنت جماعة، إذا كنت وحدك على حق فأنت الجماعة، الجماعة ما كانت على الحق، أما أن تقول الناس كلهم هكذا..

الآن أكبر حجة للمتفلتين، كل الناس على خطأ وأنت على صواب الله عز وجل قال:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(١١٦))

[سورة الأنعام]

كل الناس على خطأ وأنت على صواب، كل الناس على انحراف وأنت على استقامة، هذا من التشكيك والتشكيك باب من أبواب الشيطان.

يا أيها الإخوة الكرام، راجع نفسك، واتهم نفسك، أما إذا كانت هذه المراجعة وهذا الاتهام يحملانك على ترك طاعة فترك الطاعة من الشيطان ؛ أنا لا أصلي خوف أن يقول الناس عني مرائي. أحد التابعين يقول إذا أتاك الشيطان وأنت تصلي فقال إنك ترائي فزد الصلاة طولاً، إياك أن تجعل من مراجعة نفسك ومن خوف الرياء سبيلاً إلى ترك العمل الصالح، فهذا من الشيطان. والمدخل الثامن والأخير أيها الإخوة هو: التخويف، قال تعالى:

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥))

[سورة آل عمران]

يلقي في قلبك أنك إذا صليت في مشكلة، أنك إذا دخلت المسجد في مشكلة، أنك إذا حضرت هذا الدرس في مشكلة، هذا من الشيطان:

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥))

الإله الواحد الأحد الفرد الصمد هو الذي تولى أن يدافع عنك، هو الذي تولى أن يكون وليٌّ لك، قال تعالى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧))

[سورة البقرة]

أو يعدكم الفقر، إن أردت أن تنفق مالك، يعد الشيطان أولياءه بالفقر الآية الكريمة:

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦٨))

[سورة البقرة]

الرد على هاذين التخويفين:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (٣))

[سورة الطلاق]

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام، أحد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ما يُسمى بالسبق العلمي ففي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ فَإِنَّ فِيهَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ وَالسَّامُ))

[أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة وأحمد]

حديث صحيح من قول النبي عليه الصلاة والسلام، والنبي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، كيف فسره العلماء السابقون.

جاء في فتح الباري من كل داء، قال هو من العام الذي يراد به الخاص، يعني ليس معقول، أن الحبة السوداء أن تشفي من كل الأمراض، العسل لا يرقى إلى هذا، قال تعالى في شفاء للناس، لم يقل فيه الشفاء للناس، مع أنه نص قرآني، فكيف يشرح شراح الحديث:

((عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ فَإِنَّ فِيهَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ))

في فتح الباري قال: من كل داء هو من العام الذي يراد به الخاص يعني من بعض الأمراض. ابن العربي قال: العسل أقرب إلى أن يكون دواءً من كل داء من الحبة السوداء التي فيها شفاء للناس شيء محير.

إلى أن جاء عالمان كبيران من علماء الطب يدرسان أو يعملان في أرقى جامعات العالم، هذان وجدا في الحبة السوداء ما يقوي الجهاز المناعي في الإنسان، والجهاز المناعي متعلق بكل الأمراض، ولاسيما الجرثومية السرطانية، فكلما قوي الجهاز المناعي قويت قدرة الإنسان على مكافحة الإمراض التي أساسها جرثومي والأمراض التي أساسها مناعي.

قال: هذان الطبيبان توصلا عن طريق المخبر إلى أن استعمال واحد غرام من الحبة السوداء مرتين يومياً لمدة أربعة أسابيع، هذه الكمية تؤدي إلى زيادة فاعلية الخلايا اللمفاوية خمس وخمسين بالمئة.. الخلايا اللمفاوية فيها خلايا مصنعة للسم الخلوي ؛ المصل المضاد، فالخلية اللمفاوية حينما يأكل الإنسان واحد غرام من حبة البركة، في اليوم مرتين لمدة أربعة أسابيع الخلايا اللمفاوية المكلفة بتصنيع المصل المضاد السلاح الجرثومي، هذه تزداد فعاليتها خمس وخمسين بالمئة زيادة. وأما الخلايا المقاتلة التي مهمتها قتل الجراثيم عند تناول هذه الكمية من الحبة السوداء تزداد فعاليتها بأربع وسبعين بالمئة من طاقتها الأساسية.

لذلك لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى..

ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس، من هذه الثلاث ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٦٤ : خ١ -حقيقة الاحتفال بالمولد١ ، خ٢ - سرعة الضوء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٧-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

قبل أيام عدة مرت ذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقيقة الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن تكون وضاحةً عند المسلمين جميعاً، فالله جل جلاله يقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً(٢١))

[سورة الأحزاب]

مهمة النبي صلى الله عليه وسلم مهمتان، مهمة التبليغ ومهمة القدوة ولعل مهمة القدوة أعظم بكثير من مهمة التبليغ، فهذا النبي الكريم الذي قرر بأفعاله وسلوكه ومبادئه ومواقفه حقائق الدين، لذلك قال الله عز وجل:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً(٢١))

ولكن هناك شرط، متى يكون النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لنا ؟

متى نبحث عن سيرته ؟

متى نبحث عن مواقفه ؟

متى نبحث عن شمائله ؟

متى نبحث عن قصة حياته ؟

حينما نرجو الله واليوم الآخر.

فإذا رجونا الدنيا نبحث عن أهل الدنيا، إذا رجونا أهل المال نبحث عن الأغنياء لنقتدي بهم، إن رجونا الملك والسلطان نبحث عن الأقوياء لنقتدي بهم، أما إن رجونا الله والدار الآخرة نجد أنفسنا بشكل عفوي نبحث عن قدوة عظيمة لنا.

معنى ذلك أن الإنسان لا يبحث عن قدوة إلا إذا سلك طريق هذه القدوة:

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة.. لمن ؟ ليس النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لكل الناس، ليس للناس الشاردين، ليس للناس الضائعين، ليس للعصاة المذنبين، ليس للبعيدين عن منهج الله عز وجل.

أما حينما ترجو الله، ترجو ما عنده من إكرام كبير، من جنة عرضها السماوات والأرض، حينما ترجو ما عنده، وحينما تخشى عذابه حينما ترجوه سلامة وسعادةً وبعداً عن عذابه تبحث عن قدوة هي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً(٢١))

إذاً ترجو الله أولاً، ترجوا السلامة في الدنيا، ترجو طاعته، ترجو رضوانه، ترجو جنته، ترجو عطاءه، ترجو أن يدافع عنك، ترجو أن ينصرك، حينما ترجوه بشكل مطلق تبحث عن رسول الله، عن القدوة المثلى، عن الإنسان الأول الذي يمثل الكمال البشري.

أيها الإخوة الكرام:

النبي عليه الصلاة والسلام قدوةٌ للمؤمنين، الذين يرجون الله واليوم الآخر وذكروا الله كثيراً، لأن الله عز زجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٤٤))

[سورة الأحزاب]

الأمر يصب على الذكر الكثير لأن المنافقين، لا يذكرون الله إلا قليلاً المنافقون يذكرون الله ذكراً، قليلاً لكن المؤمنين يذكرون الله ذكراً كثيراً لذلك ورد أنه برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله. إن أردت الله واليوم الآخر وذكرت الله كثيراً تجد نفسك تبحث عن قدوة عظمى هي رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندئذ تقرأ سيرته ولعل معرفة سيرته فرض عين، وأنا أعني ما أقول فرض عين، لأن هذه الآية تقتضي الوجوب، وكل أمر في كتاب الله يقتضي الوجوب والنبي عليه الصلاة والسلام في نص هذه الآية هو أسوةٌ لنا وقدوة وكيف يكون لنا أسوة وقدوة إن لم نعرف مواقفه، إن لم نعرف سيرته إن لم نعرف حاله مع في بيته، حاله مع أهله، حاله مع أولاده، حاله مع جيرانه، حاله مع أصحابه، حاله في سلمه وحربه، حاله في إقامته وسفره، حاله في ضيق الدنيا وسعة الدنيا، حاله في إقبال الدنيا وفي انصراف الدنيا عنه، هو أسوة لنا حسنة.

ذاق عليه الصلاة والسلام الفقر فكان قدوةً حسنة في التجمل والصبر.

ذاق الغنى فكان أسوةً حسنة في السخاء والتواضع.

ذاق القهر في الطائف فكان أسوةً حسنة في إعلان العبودية لله عز وجل ؛ " إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى.

ذاق النصر في فتح مكة، فكان مثلاً للتواضع لله عز وجل، حنى رأسه تواضعاً لله عز وجل حتى كانت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره.

تواضع لله وعفا عن خصومه.

ذاق موت الولد، فقال: " إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ".

ذاق أن يقول الناس على زوجته السيدة عائشة كلاماً منكراً فصبر وانتظر وحي الله عز وجل حتى برأها الوحي من فوق سبع سماوات.

ذاق تطليق ابنتيه فصبر.

ذاق الهجرة، ذاق كل شيء فوقف الموقف الكامل من كل شيء، إذاً هو أسوة لنا، وقدوة لنا، بشرط أن نرجو الله واليوم الآخر وأن نذكر الله كثيراً.

قال بعض العلماء: أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أسوةً لك حسنة في أمر الدين فهو واجب قطعي، أما أن يكون أسوةً لك في أمر الدنيا فهو على سبيل الاستحباب.

الآية الثانية التي ينبغي أن نذكرها في مناسبة مولد النبي عليه الصلاة والسلام هي قوله تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧))

[سورة الحشر]

الإيتاء هو الأمر، لأنه يقابل النهي، ولا يقابل النهي إلا الأمر، أمر ونهي، وما آتاكم الرسول فخذوه هو الأمر، لأن الطرف الآخر ؛ وما نهاكم عنه فانتهوا، إذاً كيف نأتمر بما أمر وننتهي عما عنه نهى وزجر إن لم نعرف سنته القولية.

أيضاً أن تعرف سنة النبي القولية فرض عين على كل مسلم، لأنه ما لا يتم والواجب إلا به فهو واجب، ما لا يتم الفرض به فهو فرض، ما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، أليس الوضوء فرضاً لأن الصلاة لا تتم إلا به، الصلاة فرض، والوضوء فرض لأن الصلاة لا تتم إلا بالوضوء.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه))

يعني إذا أمرتكم بفعل الخيرات فأتوا منه ما استطعتم، أما إذا نهيتكم عن شيء هذا الشيء سيدمر سعادتكم، سيدمر سلامتكم، حلول وسطى في المنهيات لا يوجد، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه،

أمرك بإنفاق المال، أنفق بقدر استطاعتك، أمرك بالنوافل صل بقدر استطاعتك، أما إذا نهاك عن شيء هذا لا يحتمل الاستطاعة، لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

قال بعض العلماء:

اتقوا الله في أوامره ونواهيه فلا تضيعوها، وأوامر النبي، وأوامر الله التفصيلية، ونواهيه التفصيلية وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (٤٢))

[سورة النساء]

دققوا في هذا الآية، يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض، يندم الإنسان يوم القيامة أشد الندم لأنه ترك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

آية ثالثة، من المناسب جداً أن نذكرها في مولد رسول الله صلى الله عيه وسلم، يقول الله عز وجل:

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠))

[سورة هود]

قال علماء التفسير، في معنى قوله تعالى، وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، نزيدك تثبيتاً، نزيدك يقيناً، نشد به قلبك نصبر به قلبك، نطيب به قلبك، وأكثر هذه المعاني تلتقي على محور واحد، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما يقص الله عليه أنباء الرسل الذين جاؤوا قبله، هذا النبي الكريم حينما يقص الله عليه أنباء الرسل السابقين يطيب قلبه، يثبت قلبه، يشد قلبه إلى الله عز وجل، تزيده هذه القصص تثبيتاً، فإذا تلونا على مؤمن في آخر الزمان قصة النبي عليه الصلاة والسلام، كيف جاهد في نفسه، كيف صبر، كيف تحمل المتاعب، كيف أوذي وما أوذي أحد مثل رسول الله، كيف ذاق ألوان التعب في سبيل نشر هذا الدين:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً(٢١))

حينما نستمع إلى قصة النبي أو إلى شمائل النبي، أو إلى أخلاق النبي أو إلى مكارم النبي، أو إلى مواقف النبي، نجعله قدوةً لنا، ونسعى إلى تقليده، ففي هذا نجاتنا من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

أيها الإخوة الكرام:

ومن الآيات التي ينبغي أن نذكرها بمناسبة مولد النبي عليه الصلاة والسلام، قوله تعالى:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩))

[سورة المؤمنون]

لابد من أن تعرف الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الإيمان بالله، والإيمان برسله، ولاسيما رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أركان الإيمان، أن تعرف هذا النبي الكريم الذي أنزل عليه القرآن أن تعرف أقوال هذا النبي الكريم الذي في أقواله بيان للقرآن، أن تعرف سيرة النبي الكريم الذي في سيرته بيان لأقواله:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩))

قال العلماء هذا أسلوب تستعمله العرب في معنى التقبيح، ألم تعرفوا رسولكم حتى الآن ؟ !، ألم تعرفوا ما جاء به من الحق، ألم تعرفوا ما جاء به من النور المبين، ألم تعرفوا ما جاء به من السراط المستقيم ؟ ألم تعرفوا ما جاء به من المنهج القويم ؟ ماذا تنتظرون:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩))

لقد عرفوا رسولهم أنه من أهل الصدق، ومن أهل الأمانة، ففي اتباعه النجاة والخير، قال أبو سفيان: عرفوه ولكنهم حسدوه.

يدعم هذا المعنى قول الله عز وجل متحدثاً عن أهل الكتاب:

(الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٤٦))

[سورة البقرة]

هل من معرفة أوثق ؟ هل من معرفة أصدق ؟ هل من معرفة أوضح هل من معرفة أسرع من معرفة الأب لابنه ؟ قال تعالى:

(الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٤٦))

ما الذي منعهم من اتباعه ؟ ومن الإقرار بنبوته ؟.. الحسد.

فيا أيها الإخوة الكرام:

يختلق الناس، ثلاث أنواع من الاختلافات، اختلاق طبيعي مبعثه الجهل، قال تعالى:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣))

[سورة البقرة]

ويختلف الناس أحياناً لا بسبب الجهل، بل هناك معرفة يقينية كما تعرف ابنك، وتختلف معه، بسبب الحسد، وبسبب البغي والعدوان وحظوظ الدنيا:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩))

[سورة آل عمران]

يعني حسداً بينهم.

وأحياناً يختلف المؤمنون اختلاف تنافس، الاختلاف الأول طبعي والاختلاف الثاني مذموم، والاختلاف الثالث محمود، اختلاف المنافسة محمود.

آية أخرى ينبغي أن نذكرها في مناسبة مولد النبي عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠))

[سورة القصص]

ربنا عز وجل يعد استجابة المؤمنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في اتباع سنته عين استجابتهم لله عز وجل، فإن لم يستجيبوا لك يا محمد فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، والإنسان بين شيئين، بين أن يستجيب للحق وبين أن يتبع الهوى، طريقان لا ثالث لهما، فإن لم تكن على أحدهما فأنت على الثاني حتماً، وهذا معنى خطير، إن لم تكن على الحق فأنت على الباطل، إن لم تتبع سنة النبي عليه الصلاة والسلام فأنت تتبع الهوى.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠))

لذلك ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها، لذلك قال الله عز وجل:

ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

علماء الأصول يقولون هناك المعنى المخالف، المعنى المخالف في هذه الآية، من يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه، ليس في الإسلام حرمان، ولكن في الإسلام تنظيم، الأمور كلها لها قنوات نظيفة، ولكن الله عز وجل نهانا عن القنوات القذرة، كل شهوة أودعها الله فينا لها قناة تسري خلالها:

ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

آية خامسة ينبغي أن نذكرها في مناسبة مولد النبي عليه الصلاة والسلام، وهو قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

[سورة آل عمران]

يعني ربنا عز وجل لم يقبل من أحد دعوى محبته إلا بالدليل، والدليل أن تتبع سنة النبي، لذلك لا تقل إني أحب الله وأنت مقيم على مخالفة سنة النبي، كلام لا معنى له، كلام مردود عليك، كلام لا يقبله الله عز وجل، وهو العليم الحكيم:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

الشاردون الطرف الآخر قال الله عنهم:

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠))

[سورة القيامة]

معنى ذلك إما أنك تحب الله فتتبع سنة رسول الله، وإما أنك تحب العاجلة فتتبع هوى نفسك

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠))

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (٢٧))

[سورة الإنسان]

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

قال بعض العلماء:

محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما، كلمة محبة تعني طاعة.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب يطيـع

كلمة حب تعني طاعة، لا تتفلسف وتقل إني أحب الله وأنت مقيم على معاصيه، هذا كلام مرفوض:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب يطيـع

قال بعض العلماء:

علامة حب الله عز وجل حب القرآن، وعلامة حب الله عز وجل حب النبي العدنان، وعلامة حب الله عز وجل حب سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي وحب السنة أن تحب الآخرة، أن تسعى إليها، أن تنقل اهتماماتك إليها، أن ترجو الله والدار الآخرة، وعلامة حب الآخرة أن تحب نفسك، وعلامة حبك لنفسك أن تبغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن

تأخذ منها ما يبلغك المقيل، أن لا تنشغل بها، أن لا تضيع الوقت بها، أن لا تكون مستهلكاً فيها.
أيها الإخوة الكرام:

الدنيا في خدمتك أو أنت في خدمتها، إن استعملت المال لصون عرضك، والتقرب إلى ربك فالمال في خدمتك، أما إذا كنت عبداً له ونسيت دينك وآخرتك من أجل المال، أصبحت عبداً للمال، كان في خدمتك فأصبحت في خدمته، والدنيا كلها كذلك، إما أنك تستخدمها وإما أنها تستخدمك، وأوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه، فهي تغر وتمر وتضر.

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " من أراد أن يحبه الله عز وجل فعليه بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وأن لا يؤذي جاره وإن الله إذا أحب عبداً ألقى حبه في قلوب الخلق ". محبة الخلق الصادقة، الموضوعية، التي لا نفاق فيها، ولا مصلحة فيها، محبة الخلق الصادقة والموضوعية والمخلصة والمتعلقة بأمور الآخرة هي محبة الله عز وجل.

ينادى له في الكون أنا نحبه فيسمع من في الكون أمر محبنا

ما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفوا إليه بالمودة والرحمة.

أيها الإخوة الكرام:

ومن الآيات التي ينبغي أن نذكرها بمناسبة مولد النبي عليه الصلاة والسلام قول الله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣))

[سورة الأنفال]

يعني ما دامت سنة النبي عليه الصلاة والسلام مطبقة في حياتنا مطبقةً في حركاتنا وسكناتنا، مطبقة في بيوتنا، مطبقة في أعمالنا، مطبقة في أفراحنا ؛ احتفال منضبط بالكتاب والسنة، مطبقةً في أحزاننا، مطبقة في سفرنا، مطبقة في تربية أولادنا، مطبقة في كل مواقفنا:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣))

طبعاً حينما كان النبي بين ظهرانيهم هم في أمن من عذاب الله، أما حينما انتقل النبي إلى الرفيق الأعلى أصبح للآية معنى آخر ؛ ما دامت سنته مطبقة فهم في أمن من أن يعذبوا.

لو أن المسلم بشكل أو بآخر زلت قدمه فخرج عن سنة النبي ماذا يفعل لا يزال في أمن من عذاب الله إذا استغفر:

وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون.

عندك أمنان، أمن أنك في اتباع سنة رسول الله، والأمن الثاني أنك إذا ندمت واستغفرت فأنت في أمن آخر.

خالفت سنة النبي ولم تندم ولم تستغفر فقد عرضت نفسك لعقاب الله عز وجل.

يجب أن نعلم علم اليقين أن هذه الآيات التي سأتلوها على مسامعكم هي كلام رب العالمين، يقول الله عز وجل:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (٨٠))

[سورة النساء آية ٨٠]

طاعة رسول الله عين طاعة الله، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢))

[سورة التوبة]

بضمير المفرد، لم يقل أحق أن يرضوهما، لأنك إن أرضيت رسول الله فقد أرضيت الله، وإن أرضيت الله ينبغي أن ترضي رسول الله باتباع سنته.

(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (١١٥))

[سورة النساء]

هل هناك من وعيد أشد من هذا الوعيد، ومن يشاقق الرسول، هو الذي يطعن بسنته، هو الذي يقلل من قيمة السنة، هو الذي يدعو الناس أن يبتعدوا عن السنة، هذه مضطربة، هذه لا تعبر إلا عن عصر النبي نحن في عصر آخر، وهناك دعوة عريضة منتشرة في العالم الإسلامي تدعو الناس إلى الانصراف عن السنة والاكتفاء بالقرآن، وهم حينما فعلوا ذلك طعنوا بالقرآن، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧))

[سورة الحشر]

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢))

[سورة آل عمران]

رحمة الله عز وجل لعل من أسبابها أن نتبع سنة النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (٢٩))

[سورة الفرقان]

يا ليتني اتبعت النبي.

أيها الإخوة الكرام:

طريقان لا ثالث لهما، إما أن نتبع الهوى، وإما أن نتبع النبي عليه الصلاة والسلام، الآية واضحة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠))

[سورة القصص]

انتهى الأمر، اعلم علم اليقين إن لم تكن على السنة فأنت ممن يتبع الهوى.

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١))

[سورة التوبة]

كيف نؤذي رسول الله، حينما نصرف الناس عن سنته.

هذه الآيات الكريمة، ينبغي أن نذكرها ونحن نحتفل بمولد النبي عليه الصلاة والسلام، الاحتفال بعيد المولد يعني أن تحيي سنة النبي، أن تتبع منهج النبي، أن تعود إلى هذا المنهج الأفضل، أن تعود إلى الصراط المستقيم، هناك أشياء يفعلها المسلمون في الاحتفال بعيد المولد لا تنفعهم ولا تزيدهم قرباً من رسول الله، الذي يزيدهم قرباً من رسول الله أن يتبعوا سنته، ليسعدوا بها في الدنيا والآخرة.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام :

أخ كريم قبل أسبوع قدم لي كتاباً من تأليفه، يتحدث فيه عن بعض الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، اخترت لكم من هذا الكتاب شيئاً يلفت النظر، هو أن الله جل جلاله حينما قال:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥))

[سورة السجدة]

كان مقداره ألف سنة مما تعدون، اليوم عند الله كألف سنة مما تعدون القرآن ليس ملك أحد، القرآن حمال أوجه، ولكن مما ورد في هذا الكتاب أن هذه الآية تشير إلى سرعة الضوء، كيف ؟ القمر يدور حول الأرض كل شهر دورة، فلو قسنا بعده عن مركز الأرض ورسمنا هذه الدائرة التي هي مداره حول الأرض، هذه الدائرة التي يسكلها القمر حول الأرض لها طول، لو أخذنا طول

محيط هذه الدائرة، وضربناه باثني عشر شهراً، هذه المسافة التي يقطعها القمر في العام، لو ضربنا هذه المسافة بألف عام، صار معنا رقم كبير، هذا الرقم يساوي يوماً في الأرض، أي يوم هذا ؟ لو قسمنا هذا الرقم على يوم أي أربع وعشرين ساعة، ضرب ستين كم دقيقة، ضرب ستين كم ثانية، إذا قسمنا المسافة التي يقطعها القمر حول الأرض في ألف عام وقسمناها على عدد ثواني اليوم لظهرت معنى سرعة الضوء قريباً من ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، وهذه أعلى سرعة موجودة بالكون، فالشيء إذا سار بسرعة الضوء أصبح ضوءً، أصبحت كتلته صفراً، وحجمه لا نهائياً، وتوقف الزمن، فإذا سار الجسم أسرع من الضوء تراجع الزمن، فإذا قصر عن الضوء تراخى الزمن.

هذه الآية والآية الثانية:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧))

أنتم تعدون السنوات وفق الأشهر القمرية، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون، أما قوله تعالى:

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤))

[سورة المعارج آية ٤]

ليس في هذه الآية مما تعدون، هذه سرعة أخرى للملائكة تتجاوز سرعة الضوء.

على كل من خلال تقسيم المسافة التي يقطعها القمر في دورته حول الأرض في ألف عام على عدد ثوان اليوم لظهرت معنى سرعة الضوء وهي أعلى سرعة في تخلق الله عز وجل، فأي شيء قارب هذه السرعة أصبح ضوءً، تلاشت كتلته، وأصبح حجمه لا نهائياً وعندئذ يتوقف الزمن وهذا ما يقوله العلماء إن الزمن هو البعد الرابع للأشياء.

على كل لا مجال لتفصيلات أكثر من ذلك من على هذا المنبر أما من أراد أن ينتفع في هذا الموضوع فيعلم علم اليقين، أن هذا القرآن كلام الله.

الشيء الذي وصل إليه الإنسان بعد ألف وأربعمائة عام، وقال فلان عرف النسبية، وفلان عرف سرعة الضوء، وعرف هذه الحقائق المذهلة إن القرآن أشار إليه حينما قال:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧))

[سورة الحج]

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٦٥ : خ١ -حقيقة الاحتفال بالمولد٢ ، خ٢ - الأصل العلمي في تحريم النسب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٧-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الاولى

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونسترشده، ونعوذ به من شرور أنفسنـا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ولا شريك له، إقراراً بربوبيته وإرغامـاً لمن جحد به وكفر.

وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله سيد الخلق والبشر، ما اتصلت عين بنظر أو سمعت أذن بخبر.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين.

اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمنا، وأرنا الحـق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممـــن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الكرام:

نحن في مناسبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم.

الحقيقة الأولى في هذه الخطبة:

أن النبي عليه الصلاة والسلام له عند الله مقام كبير، هو سيد خلقه هو سيد ولد آدم، هو خاتم الأنبياء والمرسلين، هو الذي بلغ سدرة المنتهى، هو الذي رأى من آيات ربه الكبرى، هو الذي أقسم الله بعمره الثمين، فمديحنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزيد من مقامه شعرة، وعدم مديحنا لا يهز هذا المقام إطلاقاً، وكل إنسان له عند الله مقام، لا يرفعه مدح المادحين، ولا يخفضه ذم الذامين، هذه الحقيقة مُسَلَّمٌ بها.

إننا حينما نذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكي نستفيد نحن من شمائله، من أخلاقه، من سيرته، من سنته، من مواقفه، من محبته لله عز وجل.

الحقيقة الثانية ـ وهي دقيقة جداً ـ:

الإنسان في فطرته يحب الكمال والجمال والنوال.

لنأخذ الكمال: فإذا قرأ سيرة سيد الأنام:

إذا رأى تواضعه، إذا رأى رحمته، إذا رأى عدله ؛

((والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))

إذا رأى رحمته ؛ كان يصلي بالناس، صلاة الفجر، ومن عادته أنه يطيل في صلاة الفجر، لأنها ركعتان... والإنسان نشيط يصلي بعد نوم مديد، فسمع بكاء طفل، فاختصر صلاته وسلم رحمة بأمه وكأن بكاء ابنها يناديها ببكائه.

رحمته، عدله، تواضعه، إخلاصه، وفاؤه..

الأنصار ـ أيها الإخوة ـ وجدوا عليه في أنفسهم، من أجل غنائم وزَّعها باجتهاده صلى الله عليه وسلم واعتمد على إيمان الأنصار وجدوا عليه في أنفسهم، وقد نقلوا له هذا عن طريق زعيمهم، فقال يا سعد: أين أنت منهم، قال ما أنا إلا من قومي، فقال اجمع لي قومك، فجمعهم قال: يا معشر الأنصار.. مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم، من أجل لعاعة تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم.

يا معشر الأنصار ـ الآن دققوا، كان عليه الصلاة والسلام في قمة نجاحه، دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ـ قال: يا معشر الأنصار، لو أنكم قلتم فلصَدقتم ولصُدقتم ؛ أتيتنا مكذباً فصدقناك وطريداً فآويناك، ومخذولاً فنصرناك، يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله؟ ألم تكونوا أعداء فألف بين قلوبكم؟ أوجدتم علي يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتعودون أنتم برسول الله إلى رحالكم؟.

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم.
كان عليه الصلاة والسلام بإمكانه أن يلغي وجودهم، وكان بإمكانه أن يهدر كرامتهم، وكان بإمكانه أن يتهمهم بالنفاق، وكان بإمكانه أن يهملهم، وكان بإمكانه أن يعاتبهم لمصلحته، ولكنه ذكرِّهم بفضلهم عليه ذكَّرهم وهو في أوج قوته بفضلهم عليه..

هذه القصة أين مكانها، مع وفائه، أم مع إخلاصه لمن حوله، أم مع رحمته، أم مع حنكته، أم مع حسن سياسته؟!

الإنسان يحب الكمال، فإذا قرأ سيرة سيد الكاملين يطرب ـ لكن دققوا ـ يطرب لكن لا يرقى، تطرب بحكم فطرتك، لكنك لا ترقى إلا إذا اتبعته إلا إذا اقتفيت أثره، إلا إذا طبقت سننه، في بيتك، في عملك، في شؤونك، في أفراحك، في أتراحك، في تجارتك، في سفرك، لا ترقى إذا مدحته، تطرب ولا ترقى، تطرب بحكم فطرتك، لكنك لا ترقى إلا إذا اتبعته.

فرق كبير بين أن نمضي وقتاً طويلاً في المديح، وبين أن نشمر ونأخذ سننه فنجعلها منهجاً لحياتنا، فرق كبير أن نطرب حينما نتحدث عن شمائله، وأن تكون سننه مطبقة في بيوتنا، مطبقةً في عباداتنا، مطبقةً في عقائدنا، مطبقةً في حركتنا في الحياة.

فالعبرة لا في المديح، ولكن العبرة في التطبيق، العبرة في المتابعة وقد ذكرت لكم في خطبة سابقة، أن الله جل جلاله لن يقبل من المؤمن أن يدعي محبته إلا بالدليل، والدليل ؛ اتباع سنة النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

[سورة آل عمران]

نحن في مناسبة مولد النبي عليه الصلاة والسلام، مديحنا له شيء جيد وشيء مسعد، لكن لا يرقى بنا.

يعني مثلاً: لو أن شاباً لا يقرأ ولا يكتب (أمي)، لسبب أو لآخر، وله أب من أعلم علماء الأرض، مهما أثنى الشاب على أبيه، الشاب هو هو في مرتبة الجهل، والأب هو هو في مرتبة العلم، أثنِ على أبيك ما شئت، تحدث عنه في كل مكان، املأ المجلس مديحاً له، الشاب هو هو في جهله، والأب هو هو في علمه، ولكن متى يرقى هذا الشاب؟ إذا سلك طريق أبيه، إذا أخذ الشهادة الإعدادية، إذا نال الشهادة الثانوية صار درجة ثانية، إذا نال اللسانس صار درجة ثالثة، هذه النقطة مهمة جداً ـ أيها الإخوة ـ مديحنا له ـ مع أنه يسعدنا، مع أننا نطرب له، بحكم فطرتنا، وفطرتنا ليست كسبية، إنما هي وهبية، نحن فطرنا على حب الكمال، حب الكمال والجمال والنوال، مفطورون على حب الكمال فإذا قرأنا سيرة سيد الكاملين نطرب، وقد نبكي، ولكنْ لا نرقى عند الله إلا إذا اتبعناه، ولا تنسوا مثال الابن الجاهل والأب العالم، مهما تحدث الابن عن أبيه، هو هو، ومهما أراد أحد أن ينتقص من أبيه أبوه هو هو هكذا، هذه سنة الله في خلقه، فمديحنا له في مناسبة مولده صلى الله عليه وسلم، شيء رائع جداً، ولكنْ لا يرقى بنا، إلا إذا جعلنا من منهجه القويم منهجاً في حياتنا.

ليس الإسلام أن تصلي، وأن تصوم، وأن تؤدي هذه العبادات فحسب إلا أن الإسلام منهج كامل، منهج يزيد عن مائة ألف بند، يغطّي كل شؤون حياتك، فحينما تعتمد منهج الله في كسب المال، وفي إنفاق المال وفي قضاء الإجازة، وفي احتفال العرس، وفي احتفال عقد القران وفي مناسبة حزينة، حينما تعتمد منهج الله عز وجل، فأنت متبع لسنة رسوله.

شيء آخر ؛ أنه جل جلاله، خلق الخلق ؛ ليكونوا على شاكلة محمد ولم يخلق الخلق من أجل محمد، خلقهم وجعل لهم أسوةً حسنة، أسوة يرقون بها، أما أن الخلق خلقوا من أجل محمد، هذا شطح وتجاوزٌ لما في الكتاب والسنة، إننا أمرنا أن نقتدي بمحمد صلى الله عليه وسلم وأن نتأسى به، وأن يكون عليه الصلاة والسلام قدوةً لنا.

مثلٌ آخر، أضعه بين أيدكم، والمثل يوضح بعض الحقائق ؛ عالم كبير، له مائتا مؤلف، ويحمل عدداً من الشهادات العليا، وله سمعة متألقة في سماء العلم، وعند هذا العالم الكبير مستخدم في مكتبه لو أن هذا المستخدم في غيبة هذا العالم الكبير، جلس في مقعده وراء مكتبه هل يرقى درجة..

أول نقطة مديحنا له يطربنا ولكن لا يرقى بنا، أن نصلي مكان صلاته، في الحرم النبوي، شيء رائع، وقد يبكي الإنسان ؛ هنا صلى النبي، هنا سجد النبي، هنا وقف النبي، هنا قاتل النبي، هنا وقف في بدر، شيء رائع، ولكنْ لا يرقى بنا، هذا المستخدم، هذا الحاجب الذي عند هذا العالم الكبير، لو قفز وجلس على مقعده في غيبته لا يرقى درجة، ولا شعرة، أما إذا أخذ الشهادة الأولى، الإعدادية يرقى، حينما يسلك طريق أستاذه.

نقطتان أساسيتان في هذه الخطبة، لا يرقى بنا المديح المجرد عن التطبيق، كما لا يرقى بنا التبرك المجرد عن التطبيق، لا هذا يرقى بنا ولا هذا يرقى بنا، قد نطرب للأول، وقد نتأثر بالثاني، ولكنَّ الذي يرقى بنا، وينهض بنا، أن نأخذ هذا المنهج الإلهي، الذي جعله الله وحياً غير متلو، وأن نطبقه في حياتنا كلها.

يقول الله عز وجل:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٢٨))

[سورة التوبة]

يجب أن تعلم علم اليقين أن النبي بشر، ولأنه تجري عليه كل خصائص البشر، كان سيد البشر، لأنه تجري عليه كل خصائص البشر وانتصر على بشريته كان سيد البشر.

أما أن تتوهم أن له خصوصيات تلغي شهواته، له خصوصيات تلغي كل المتاعب التي لاقاها:
عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أخرجه الترمذي وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ حِينَ خَرَجَ النَّبِيُّ صلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَارِبًا مِنْ مَكَّةَ وَمَعَهُ بِلَالٌ إِنَّمَا كَانَ مَعَ بِلَالٍ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَحْمِلُهُ تَحْتَ إِبْطِهِ، وأخرجه ابن ماجة]

لأنه بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر كان سيد البشر:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٢٨))

ولولا أنه بشر لما أقيمت الحجة علينا، ولو أنه ملك لقلنا يا رب إنه ملك، ونحن بشر، لو أن له خصوصيات تلغي شهواته، تلغي بشريته لقلنا يا رب إن له حالات خاصة..

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨))

[سورة الأنعام]

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥))

لقد جاءكم رسول من أنفسكم ؛ من جنسكم، من جبلتكم، من طبيعتكم يشعر بما تشعرون، ويؤلمه ما يؤلمكم، ويفرحه ما يفرحكم، بشر، ولكنه انتصر على بشريته فكان سيد البشر..

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٢٨))

هل تحمل هموم المسلمين؟ هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يحمل هموم المسلمين، هل تفكر كيف أحُلُّ مشكلةً من مشكلات المسلمين كيف أسهم في حل مشكلة، كيف أرعى المسلمين كيف أنْشُر الحق بين المسلمين.

عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم، يؤلمه أشد الألم عنادكم وانصرافكم عن الحق وتفلتكم من المنهج، عزيز عليه ما عنتم العلماء يقولون: إن أرحم الخلق بالخلق قاطبة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرحم الخلق بالخلق، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، ألا ينبغي أن نقتفي أثر النبي عليه الصلاة والسلام:

((والله ما آمن والله ما آمن والله ما آمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم))

ألا ينبغي أن تحمل هم المسلمين؟ ألا ينبغي أن يتفطر قلبك لما يصيبهم؟ ألا تسهم بشكل أو بآخر بتزويج شاب، بتبني داعية، بخدمة مسجد، بطبع كتاب، بنشر حق، برعاية ميتم، بتأسيس ثانوية شرعية ألا تحمل هم المسلمين؟ ألا تتمنى أن يكونوا بخير؟

من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، هو يعيش وحده، انسحب من المجتمع، يتقوقع في برج عاجي، بعيد عن حالات المسلمين.

الأنبياء العظام، صفوة الله من خلقه، قمم المجتمعات البشرية، كانوا مع الناس، يمشون في الأسواق، يرون مشكلاتهم، هم معهم في مشكلاتهم لا في سقوطهم، هم في برج عاجي أخلاقي، لا في برج عاجي فكري، كانوا مع البشر، وفي الوقت نفسه كانوا بعيدين عن انحطاط البشر، هكذا ينبغي أن يكون المؤمن، مع الناس، وبعيداً عن الناس في وقت واحد، معهم في مشكلاتهم، معهم بأمراضهم، معهم في تفلتهم يبحث عن أسباب تفلتهم، بعيداً عن سقوطهم أو انحرافهم.

نقطة مهمة جداً، أضعها بين أيديكم، النبي عليه الصلاة والسلام أعطي قدرات عالية جداً، لتكون له هذه القدرات عوناً له على الدعوة:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦))

[سورة الأعلى]

أوتي ذاكرةً عجيبة، يُتلى عليه القرآن مرةً واحدة فيحفظه، هذه خصوصية، خصها الله بها النبي، كان عليه الصلاة والسلام قد أوتي الحكمة، حكمة ما بعدها حكمة، ذكرت لكم نموذجاً منها في مطلع الخطبة، حينما امتص نقمة الأنصار، هذه حكمة بالغة.

أوتي جوامع الكلم، مكنه الله من أعلى بيان يملكه إنسان، أفصح نص بعد القرآن كلام النبي العدنان.

نصر بالرعب مسيرة شهر، جعل الله له هيبة عظيمة، أوتي قوةً جسدية، صرع أبا ركانة عدة مرات.

أوتي بهاء المنظر.

وأجمل منك لم تر قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء

خُلقت مبرأ من كل عيـب كأنك قد خُلقت كما تشاء

كان قائداً فذاً، كان قاضياً فهماً، كان مجتهداً نجيباً، كان قائداً عسكرياً، كان زعيم أمة، كان أباً كاملاً، زوجاً وفياً، جاراً رحيماً ولكن الله، حينما مدحه بماذا مدحه؟

أوضح لكم هذه: أنت أب ميسور الحال، أعطيت ابنك سيارة، جلست في مجلس عام وقلت ابني متفوق لأن عنده سيارة، كلام مضحك، هذه من عندك لا من عنده.

أعطيته بيتاً، لا يمدح ابنك بهذا البيت، لأنه من عندك، أما حينما تقول نجح ابني في مرتبة عالية في الامتحان، هذه من عنده.

ربنا عز وجل، ما أثنى على النبي بما خصه من خصائص، أثنى عليه بما كان كسباً له شخصياً، قال:

((وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)))

[سورة القلم]

الخلق العظيم من كسب النبي، أما الخصائص التي أوتيها النبي هي من فضل الله عز وجل.

قال ابن عباس: " إنك لعلى خلق عظيم، إنك لعلى دين عظيم " الدين هو الخلق ومن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في الدين.

((عن سعيد بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)..))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجة ومالك والدارمي]

وتأدب بأدب القرآن، خلقه العظيم، أنه ائتمر بما أمر، وانتهى عما نهي عنه، عند الحلال والحرام، خلقه العظيم طبعه الكريم، يألف ويؤلف، محب للآخرين، يقبل أعذارهم، يتجاوز عن مسيئهم، طبعه كريم.

الخلق العظيم ؛ ما أخذ به نفسه من الأدب الجم، سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها، عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت

هذه أخلاقه، اقرؤوا:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١))

[سورة المؤمنون]

تقول السيدة عائشة أيضاً، ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما دعاه أحد إلا قال لبيك ".

لولا التشهد كانت لاؤه نعم...

لم يُذكر خُلُقٌ محمود إلا وكان للنبي عليه الصلاة والسلام الحظ الأوفر سُمي خلقه عظيماً لأنه لم تكن له همة سوى الله.

سُمي خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه ؛ هذا شجاع، وهذا كريم، وهذا جريء، وهذا صادق، لكنَّ مكارم الأخلاق كلّها مجتمعة برسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول عن نفسه صلى الله عليه وسلم:

((إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

فحوى رسالته، أن يتخلق المسلمون بالخلق الرفيع الذي هو ثمن الجنة.

سُمي بهذا الخلق العظيم لأنه امتثل أمر الله عز وجل، وأدب الله عز وجل، حينما قال له:

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩))

[سورة الأعراف]

((عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ قَالَ أَبو عِيسَى وَفِي الْبَاب عَنْ عَائِشَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ وَأُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد]

إن صاحب الخلق الحسن ليبلغ به صاحب الصلاة والصوم.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ فَقَالَ تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ (تقوى الله، طاعة الله، وحسن الخلق) وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ الْفَمُ وَالْفَرْجُ))

[أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح غريب، وابن ماجة وأحمد]

شهوتا المال والنساء، هنا نقطتا الضعف عند عامة الناس، من هاتين الشهوتين يؤخذ الناس ويهلك الناس.

سئل عن الخلق الحسن، قال:

((بسط الوجه، وبذل المعروف وكف الأذى))

كان عليه الصلاة والسلام متواضعاً، وأدبه الله على هذا الخلق، قال تعالى:

(أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً (٩٣))

[سورة الإسراء]

((إنما أنا ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد بمكة))

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١))

[سورة طه]

لا تقل لو أن لي هذا البيت، ولو أن لي هذه المركبة، هي للدنيا:

((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة..))

هكذا كان يقول عليه الصلاة والسلام إذا رأى شيئاً من زينة الدنيا. ولا تحزن عليهم، حينما مدَّ الناس عيونهم إلى الدنيا، وباعوا آخرتهم من أجلها، حينما تنافسوها، حينما نشبت بينهم العداوات من أجلها لا تكن في هذا الوحل، كنْ في سماء، ولا تكن في وحل الأرض.

أتحبون قانوناً يؤلف بين الناس، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

[سورة آل عمران]

الباء: باء السببية ؛ بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد، من خلال اتصالك بنا، كنت ليناً لهم، فاللين سلوك مبعثه الرحمة والرحمة سببها الاتصال بالله، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران]

فالتفوا حولك، ولو لم تكن متصل بنا لامتلأ قلبك قسوةً، وكان انعكاس هذه القسوة غلظة وفظاظة، عندها ينفض الناس من حولك:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

قانون: تعرف الله، فتتصل به، فيمتلئ قلبك رحمة، فتلين للناس فيحبك الناس، يلتفون حولك. تغفل عنه، تنقطع عنه، يمتلئ القلب قسوةً، ينعكس غلظة وفظاظة ينفض الناس من حولك.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

بعد أن عفوت عنهم، فاستغفر لهم، فلما استغفرت لهم شاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله.

من أدب النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥))

[سورة الشعراء]

كان عليه الصلاة والسلام يخدم أصحابه، كان يحبهم، كان يحرص على مصالحهم، كان يحرص على آخرتهم، كان معهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

إن رأيت مجتمع المسلمين مفككاً، فمن فعل الشيطان، لأن الشيطان أحد أكبر مهماته التحريش بين المؤمنين، وتفريق جمعهم، وتشتيت وحدتهم، وإيقاع العداوة والبغضاء بينهم، وأن يطعن بعضهم ببعض وأن يكفّر بعضهم بعضاً، وأن يسخر بعضهم من بعض، فإذا هم فرادى لا تقوم لهم قائمة، قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦))

[سورة الأنفال]

جمع بعض كتاب السيرة في كلام مختصر مفيد أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

" لقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جمَّ التواضع، وافر الأدب، يبدأ الناس بالسلام، وينصرف بكله إلى محدثه، صغيراً كان أو كبيراً، ويكون آخر من يسحب يده إذا صافح، وإذا تصدق وضع الصدقة بيده في يد المسكين، وإذا جلس جلس حيث ينتهي به المجلس لم يُرَ ماداً رجليه قط، ولم يكن يأنف من عمل لقضاء حاجته، أو حاجة صاحب، أو جار، فكان يذهب إلى السوق، ويحمل حاجته بيده ويقول: أنا أولى بحملها، وكان يجيب دعوة الحرِّ، والعبد والمسكين، ويقبل عذر المعتذر، وكان يرفو ثوبه، ويخصف نعله، ويكنُس داره، ويخدم نفسه، ويعقل بعيره، وكان في مَهنة أهله، وكان يأكل مع الخادم ويقضي حاجة الضعيف والبائس، وكان يمشي هوناً، خافض الطرف متواصل الأحزان، دائم الفكرة، لا ينطق من غير حاجة، طويل السكوت، إذا تكلم، تكلم بجوامع الكلم، كان دمثاً ليس بالجافي، ولا المهين، يعظم النِّعم وإن دقَّت، ولا يذمُّ منها شيئاً، ولا يذمُّ مذاقاً، ولا يمدحه، ولا تُغضبه الدنيا، ولا ما كان منها، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، كان يؤلّف ولا يُفرق، ويُقرب ولا يُنفر، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، يُحسَّن الحسن ويصوبه ويُقبِّح القبيح ويوهِّنه، لا يُقصِّر عن حق، ولا يتجاوزه، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو ما يَسرُّه من القول، كان دائم البشر، سهل الخُلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مزّاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يُخيِّب فيه مؤمله، وكان لا يذم أحداً، ولا يعيِّره ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يُرجى ثوابه، يضحك مما يضحك منه أصحابه، ويتعجب مما يتعجبون، ويصبر على الغريب وجفوته في مسألته ومنطقه، لا يقطع على أحدٍ حديثه حتى يجوزه ".

والحديث عن شمائله لا تتسع له المجلدات ولا خطب في سنوات ولكن الله جل في علاه لخَّصها في كلمات فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

[سورة القلم]

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

***

الخطبة الثانية:

يقول الله جل جلاله في كتابه العزيز:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٣))

[سورة النساء]

وفي النهاية وأخواتكم من الرضاعة، وقال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ جَاءَ عَمِّي مِنَ الرَّضَاعَةِ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيَّ فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ إِنَّهُ عَمُّكِ فَأْذَنِي لَهُ قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا أَرْضَعَتْنِي الْمَرْأَةُ وَلَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ عَمُّكِ فَلْيَلِجْ عَلَيْكِ قَالَتْ عَائِشَةُ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ ضُرِبَ عَلَيْنَا الْحِجَابُ قَالَتْ عَائِشَةُ يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الْوِلَادَةِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود ومالك]

إن هذين النصين الآية والحديث يدلان على أمرين، الأول أن الرضاعة بشروطها المعروفة تجعل الابن الرضيع ابناً للمرضع وأخاً لمن يشاركه في الرضاعة، من خلال هذين النصين، الآية والحديث.

وإن القرابة من الرضاعة تثبت وتنتقل في النسل، في ضوء المعلومات الحديثة التي جاءت بها الهندسة الوراثية، وهي أحدث بحوث الطب.

الهندسة الوراثية تؤكد، أن الرضاعة تنقل بعض الجينات من المرضعة إلى الرضيع.

وهذه القرابة التي جعلها النبي في السنة كقرابة النسب، وجعلها القرآن أيضاً كذلك، هذه القرابة سببها علمياً انتقال الجينات من حليب الأم المرضع إلى الرضيع، هذه الجينات تخترق خلايا الرضيع، وتندمج معها في سلسلة الجينات التي عند الرضيع.

يعني حليب الأم الذي يشربه الرضيع تصل خصائصه إلى جيناته إلى مورثاته.

وقال العلماء: لأن الحليب يحتوي على أكثر من نوع من الخلايا ولأن الجهاز الوراثي في الرضيع، ينقل الجينات الغريبة، ويقبلها، لأنه غير ناضج، فالطفل الرضيع جهازه الوراثي يتقبل جينات غريبة، فإذا أرضعت امرأة طفلاً، الجينات التي في حليبها، تخترق خلاياه وتستقر في جينات خلاياه، وتصل إلى جهازه الوراثي، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((.. يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الْوِلَادَةِ))

النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فكل شيء في القرآن والسنة الصحيحة له أصل علمي، الآن عرف علماء الوراثة، أن هذا الحليب المؤلف من مجموع خلايا يخترق نسج الجنين إلى جيناته الأساسية، ويندمج بها، وأن جهازه الوراثي يتقبل كل شيء غريب حتى يصبح كأنه منه.

فالنبي عليه الصلاة والسلام، حينما قال:

((يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الْوِلَادَةِ))

كان عليه الصلاة والسلام ينطق عن وحي أوحاه الله إليه.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٦٦ : خ١ -مرض البعد عن الله وأعراضه ، خ٢ - قصة سليمان بن عبد الملك مع أبي حازم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٧-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الاولى

أيها الإخوة الكرام، هناك في علم الطب، مرض وأعْرَاض لهذا المرض، والطبيب الحاذق ليس الذي يعالج هذه الأعراض، ولكنه يعالج أصل المرض فأخطر مرض يصيب المسلم، مرض البعد عن الله، ولهذا المرض أعراض لا نهاية لها، فكلما اتجهنا إلى معالجة هذه الأعراض، تنشأ أعراضٌ أخرى، والطريق طويل ومسدود، ينبغي أن نعالج أصل المرض.

لهذا المرض، مرض البعد عن الله أعراض كثيرة، والإنسان - أيها الإخوة - حينما يصاب بمرض عضال قد ينهي حياته، ولكن إن كان مؤمناً، وإن كان قريباً من الله عز وجل، قد يدخل الجنة عقب هذا المرض، أما إذا كان مرضه البعد عن الله شقي في الدنيا والآخرة.

إنني لا أبالغ حينما أقول: إن أخطر مرض يصيب المؤمن مرض البعد عن الله، قد يدع الكبائر، ويقع في الصغائر، وقد يصرُّ على الصغائر فتنقلب إلى كبائر.

أيها الإخوة الكرام، أعراض هذا المرض كثيرة جداً أكثر من أن تُحصى، من هذه الأعراض أن البعيد عن الله، يائس من صلاح المسلمين، يائس من تغيير أحوالهم، ضعيفٌ، همته لا تقوى على أن ينهض، وعلى أن يصلح، والله عز وجل في الفاتحة التي أمرنا أن نقرأها كل صلاة وفي كل ركعة، إياك نعبد وإياك نستعين، والله جل جلاله، ما أمرنا أن نستعين به إلا ليعيننا، فهذا الذي يأس من صلاح المسلمين، يأس من صلاح المؤمنين، يقول: كأنك تنفخ في رماد..

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكنك تنفخ في رمــاد

لا أحد يصلح لهذا الدين، لا أحد معي، لا أحد يستمع إلي، هذا اليائس من صلاح المسلمين، ومن عودتهم إلى ربهم، ومن صلاح دينهم هذا مُصاب بأحد أمراض البعد عن الله..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ))

[أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد ومالك]

وفي رواية،

((هو أهلَكَهُم))

.. جعلهم هلكى وليسوا كذلك.

فطرة الإنسان سليمة، إذا وفق الإنسان إلى إنقاذ فطرة الإنسان وإلى إنقاذ عقله، وإلى مخاطبة عاطفته، وإلى استغلال حاجاته الأساسية لدعوته إلى الله عز وجل، فإن هذه الدعوة تنجح، فلا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، وأحد أعراض مرض البعد عن الله، اليأس من صلاح المسلمين، والطريق الطويل أوله خطوة.

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يُسمع ما تقول ويُقتدى بالعلم منك وينفع التعليـم

إذا بدأت بنفسك فأقمت فيها الإسلام، وإذا التزمت أمر الواحد الديان ثم دعوت إلى الله بأدب وحكمة، فهناك من يستجيب لك، وهناك من يعينك والإنسان فطرته هي فطرته، وسنة الله في خلقه هي سنة الله في خلقه والإنسان له فطرة ثابتة، وله بنية نفسية ثابتة.

هؤلاء الذين يحجمون عن إنكار المنكرات، ويحجمون عن الدعوة إلى الله، بدعوى أن الناس هلكوا، وأنهم لا خير فيهم، وأنهم لا يستجيبون وأنهم لا يسمعون، وأنهم يعبدون شهواتهم، هل حكمت عليهم غيباً؟! إنك تتألى على الله، إنك تدعي علم ما في النفوس، وهذا لا أحد يستطيع أن يدعيه غير الله.

العرَض الثاني من أعراض هذا المرض الخطير، أن المسلم في آخر الزمان، ينظر إلى من دونه في الدين، فيرى نفسه ولياً من الصالحين ينظر إلى مرتكبي الكبائر، إلى المجرمين، إلى الزناة، إلى شاربي الخمر، يرى نفسه في أحسن حال، من قال لك إنك مسموح لك أن تنظر في أمر دينك إلى من هو أدنى منك؟!.. لا يُسمح لك أن تنظر في دينك إلا لمن هو أعلى منك.. انظر إلى المؤمنين الصادقين، انظر إلى الذين أقاموا منهج الله، انظر إلى الذين تعلموا القرآن وعلموا القرآن، انظر إلى الذين تفقهوا بأحكام الدين انظر إلى الذين يحملون هَمَّ المسلمين، أين أنت منهم؟.. فلا تنظر في أمر دينك إلا لمن هو أعلى منك.

أما في أمر دنياك فالأولى أن تنظر إلى من هو أدنى منك، لئلا تحتقر نعمة الله عليك.. انظر في أمر دينك لمن هو أعلى منك، وانظر في أمر دنياك لمن هو أدنى منك، فذلك أحرى أن لا تحتقر نعمة الله عليك.

إذا وازنت نفسك مع المنحرفين، فأنت ولي من أولياء الله الصالحين ولكن هذه الولاية لا تمنعك من معالجة الله عز وجل، لابد من أن تقيس نفسك، مع الصفات التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن، دائماً لُمْ نفسك ربنا عز وجل أقسم بالنفس اللوامة، قال:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢))

[سورة القيامة]

من أعراض هذه المرض الخطير، مرض البعد عن الله، أنك تقلد في الدنيا، وتبتدع في الدين، الدين بعقيدته، وعبادته، إنها توقيفية، لا يمكن أن يُضاف عليه شيء، ولا أن يُحذف منه شيء، قال تعال:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣))

[سورة المائدة]

أما الابتكار في أمور الدنيا، فترى المسلمين اليوم يقلدون في أمور الدنيا، ويحاولون أن يبتكروا ويبتدعوا في الدين، ليوفقوا بين دينهم الذين يحرصون عليه حرصاً غير صحيح، ليقربوه من الحضارة الغربية، أو ليقربوه من الطرف الآخر، طرف أعداء الدين، لا تبتدع في الدين..

ثلاث نصائح تُكتب على ظفر:

اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع

ماذا قال سيدنا الصديق، الذي لو وُزن إيمان الخلق بإيمانه لرجح إيمانه، أول كلمة قالها في خطابه الأول، قال:

((إنما أنا متبع ولست بمبتدع))

العقيدة والعبادات توقيفية، لا مجال لأن نزيد عليها، فهذا المسلم الذي يحاول أن يقرب، وأن يباعد، وأن يأتي بجديد في الدين، وأن يضيف عليه ما ليس منه، هذا يعكس الآية.

طورْ حياتك، ابحث عن حل لمشكلات المسلمين في دنياهم، أما الدين هو الدين..

من الأعراض لمرض البعد عن الله عز وجل، الانبهار بالغرب:

((من هوي الكفرة حُشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

ينبهرون بحضارتهم، وينسون أخلاقهم، وينسون بعدهم عن الله وينسون جرائمهم التي لا يغفرها التاريخ، ينسون تفلتهم، ينسون انحلال أسرهم، ينسون شيوع الجريمة، ينسون شيوع المخدرات، إنهم يُؤخذون بآلة صنعها الغرب، وينسون العلة التي من أجلها خُلق الإنسان.

سُئل بعض الكتاب ؛ ماذا نأخذ وماذا ندع من حضارة الغربيين؟..

قال نأخذ ما في عقولهم، وندع ما في نفوسهم.. هذا المؤمن يصطفي يأخذ الحقيقة الموضوعية التي ليست ملكاً لأحد، الحقيقة العلمية متفق عليها في كل أقطار الأرض، وبين كل الشعوب.. نأخذ الحقيقة العلمية التي تنفعنا في شأن دنيانا، أما أن نأخذ عاداتهم وتقاليدهم وموقفهم من شأن الدين، هذا من أضل الضلال.

قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

[سورة آل عمران]

المسلمون حينما بعُدوا عن الله عز وجل هانت نفوسهم عليه وضعفوا ولم يجرؤوا أن يقولوا كلمة الحق..

ربعي بن عامر كان في جيش يحارب الفرس، وكان قائد الفرس رستم وقائد المسلمين سعد بن أبي وقاص، وطلب رستم مفاوضين يفاوضونه فأرسل سعد بن أبي وقاص بعض أصحابه، وطلب أن يفاوضوا رستم وكان منهم ربعي بن عامر، فلما ذهب إلى رستم قال رستم لهم: ما الذي جاء بكم؟ فقال ربعي: ابتعثنا الله جل جلاله، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله.

لابد من أن تكون عبداً لله، فإن لم تكن عبداً لله، فأنت عبد لعبد لئيم شئت أم أبيت.

ابتعثنا الله، لنخرج من شاء من عبادة العباد، إلى عبادة الله عز وجل ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

ورد في بعض الروايات، أن رستم قال لجلسائه بلغتهم: ما أتعسني ليس في جيشي إلا ألف غانية، وهذا الذي جاء من البدو يقول من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام تعجَّب.. ودققوا في كلمتي طباخ وغانية.. إذا شاعت المطاعم ودور اللهو في بلاد المسلمين، ليس إلا المطاعم ودور اللهو، والنوادي، والمقاصف والمتنزهات، والفنادق، ليس هناك إنتاج، هناك استمتاع هناك استرخاء، هناك خلود إلى اللذة، هناك خلود إلى الدنيا، هذه علامة ضعف لا علامة قوة، هذه علامة انهيار لا علامة تقدم.

ثم يقول: فأرسلنا الله بدينه إلى خلقه ؛ لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله.

قال رستم: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على ذلك، والظفر لمن بقي على قيد الحياة.

قال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه، وتنظروا.

قال ربعي: نعم، كم تحب.. يوماً أو يومين.

قال: لا.. حتى نكاتب أهل رأينا، ورؤساء قومنا.

فقال له ربعي: ما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نؤخر أعداءنا أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك.

فقال رستم: أسيدهم أنت؟

قال: لا.. ولكنني واحد من المسلمين، والمسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم أعلاهم.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

[سورة آل عمران]

أما حينما يتبع الإنسان شهواته، ويخرج عن منهج ربه، ويخلد إلى الدنيا، ويرتاح إليها، ويطمئن إليها، وينسى الآخرة، تضعف نفسه ويمتلئ قلبه بالخوف، تضعف قواه.

ومن أعراض هذا المرض الخطير، مرض البعد عن الله، أن المسلم يستحي بإسلامه، يخفي هويته، إذا دعي إلى مائدة عليها شراب يقول: معدتي تؤلمني، معي قرحة.. الشراب لا يناسبني، لا يقول أنا مسلم هذا مُحرَّم في ديني، مع أن الحق لا يُستحيى منه، والحق لا يخشى البحث، والحق لا يحتاج أن تكذب له، والحق لا يحتاج أن تكذب عليه، والحق لا يحتاج أن تبالغ به، ولا أن تقلل من شأن خصومه، الحق هو الحق، الله هو الحق:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩))

[سورة النمل]

إذا كان الله مع فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك..

مرض خطير أن تخفي هويتك، كيف تدعو إلى الله إذا أخفيت هويتك كيف تنكر المنكر إذا أخفيت هويتك، كيف تأمر بالمعروف إذا أخفيت هويتك، كن مثلاً أعلى للناس، قل لهم أنا مسلم، ولأني

مسلم أنا صادق لا أكذب أبداً، أنا مسلم ولأني مسلم أنا أمين لا أخون أبداً، أنا مسلم ولأني مسلم أنا عفيف، لا أخون في أعراض الناس أبداً، اربطْ بين أخلاقك وبين الإسلام، حتى يحب الناس الإسلام، فإذا أحبوك أنت من أنت؟.. يجب أن يحبوك أنت لأنك مسلم، ولأن هذه الأخلاق تصدر عن المسلم، بهذا تدعو إلى الله وأنت ساكت، بهذا تدعو إلى الله..

ولحكمة بالغةٍ بالغة، يجعل الله بعض المؤمنين دعاةً بأعمالهم، إذا عُرفوا بأنهم مؤمنون وكانوا صادقين.

حدثني رجل يعمل سائق سيارة عامة في أمريكا بأنه وجد حقيبة فيها عشرة آلاف دولار، وفيها حلي ثمينة جداً، راكبة ركبت معه ونسيت الحقيبة سلّمها إلى الشرطة، وجدوا هذا العمل غريباً جداً. بُلغ حاكم الولاية، فجمع الفئة النظيفة في المجتمع، جمع طلاب المدارس، وجمع أساتذتهم، وسألهم: لو أن أحدكم وجد هذه الحقيبة ماذا يفعل بها؟ كان جوابهم العفوي نأخذها، فقال: هناك رجل مسلم لم يأخذها، سلمها إلى الشرطة لتدفعها إلى صاحبتها.

وكما سمعت، والذي أخبرني صادق، أقيم حفل تكريم لهذا السائق لأن الأمانة شيء عظيم، حينما ربطوا بين أمانته وبين إسلامه، كانت دعوة إلى الإسلام.

إذا كنت أخلاقياً فبين أن هذا من آثار دينك، ليس عادة، ولا تقليداً ولا شيئاً نشأت عليه، ولا من تربية أبيك ولا أمك، إنه من أثر دينك، إنني مسلم..

فهذا الذي يُخفي هويته، ويخشى أن يكون مسلماً، أو يُحسب على المسلمين، هذا عرض من أعراض مرض البعد عن الله عز وجل.

إنك تعبد إله وحداً، إنك تعبد من بيده ملكوت السماوات والأرض إنك تعبد من إليه يُرجع الأمر كله، إنك تعبد الله عز وجل، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

عَرَض آخر من أعراض هذا المرض: ترك الأهداف العالية، واتباع الأهداف الخسيسة، لو شققت على صدر مسلم، يريد بيتاً، يسكن فيه فقط، وزوجة، ودخلاً، ولا شأن له بغير ذلك، أهكذا؟..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨))

[سورة التوبة]

لأنه يربيكم، أرضيت بالدنيا، أترضى بدخل كبير، وزوجة تروق لك وبيت واسع، وانتهى الأمر، ولا تحمل هماً من هموم المسلمين ولا تسعى لمقعد صدق عند مليك مقتدر، هذه أهدافك؟!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨))

[سورة النساء]

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (٢٧))

[سورة الإنسان]

المؤمن هدفه كبير، هدفه أن يرضي الله عز وجل، هدفه أن يعمَّ الحق بين الناس، هدفه أن يصلح المسلمين، يساهم بشكل أو بآخر بقوته، بماله، بعضلاته، بخبرته، بعلمه، بلسانه، بوساطته لينشر الحق، ليعمَّ الهدى، ليعمَّ الخير، ليكون جندياً من جنود الحق..

لا تقلق على هذا الدين، أقيمت على هذا الدين مؤامرات لا يعلمها إلا الله، قال تعالى:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦))

[سورة إبراهيم]

ومع ذلك يبقى الدين في علياء السماء، ويبقى أعداؤه في مزابل التاريخ، لا تقلق على هذا الدين، ولكن اقلقْ ؛ هل سمح الله لك بنصرته؟ هل سمح لك الله أن تكون جندياً من جنوده؟.. هل سمح الله لك أن يكون الخير على يديك؟..

((يا بشر ؛ لا صدقة ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً))

اسأل نفسك هذا السؤال، حاور نفسك حواراً صادقاً، ماذا قدمت للمسلمين؟.. هل قدمتُ من علمي؟ هل قدمتُ من خبرتي؟.. هل قدمتُ من جاهي؟.. هل ربَّيتُ أولادي تربية إسلامية؟.. هل قرأتُ كتاباً انتفعتُ به ونفعتُ به؟.. هل حضَرتُ مجلس علمٍ زادني علماً؟.. هل عملتُ عملاً زادني قرباً؟..

((لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علما))

((لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قرباً))

أيها الإخوة الكرام، لابد من محاسبة النفس، لابد من حوار صادق مع النفس، لابد من أن تعرف أنك بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، لابد من أن تعرف أن الذي تجمعه في عمر مديد تخسره في ثانية واحدة حينما يأتي ملك الموت، تخسره في ثانية واحدة، ماذا أعددت للآخرة؟. يا نفس ـ الإمام الغزالي ـ يقول: " لو أن طبيباً حذرك من أكلة تحبينها لا شكّ أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله؟.. إذاً ما أكفرك أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله؟.. إذاً ما أجهلك.

فالذي يعصي الله مدموغ بالجهل وبالكفر..

ترك الأهداف العالية، والبحث عن أهداف ضيقة محدودة، إن أكبر مرض يصيب الذي يبحث عن أهداف محدودة مرض السأم والضجر لأن نفس الإنسان لا نهائية، فإذا اختار هدفاً محدوداً ووصله

ألغيت الحياة عنده، لا معنى لحياته، يسكن البيت الذي يحلم فيه، ويتزوج المرأة التي يرغب بها، ويحصِّل المال الذي يقضي حاجته، ماذا بعد ذلك؟..

المؤمن في شباب دائم، شباب المؤمن نابع لأن أهدافه كبيرة جداً، ما عنده وقت إطلاقاً.

مرَّ أحد الصالحين في هذه البلدة الطيبة بمقهى، رأى فيه رواداً يلعبون النرد، فقال: يا سبحان الله، لو أن الوقت يُشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم.

حدثني أخ كريم، جاء من بلد بعيد، من بلد غربي منحلٍّ أخلاقياً قال لي إن الشذوذ يمارسه علية القوم.. صار حاكم ولاية، صار قاضي صار مدير مؤسسة تجارية، قال ملَّ المرأة كلها، ليس زوجته فحسب، مل صنف المرأة، بحث عن شيء آخر منحط.. هذا هو الفراغ، نفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر، إن لم تكن لك أهدافك الكبرى، تقوقعت في أهداف دنيئة خسيسة وانتهيت، اطلب معرفة الله، اطلب خدمة الخلق لتكون عند الله في مقعد صدق.

حتى بعض الناس حينما يسمع العلم من رجل، هدفه أن يكون مثل هذا الرجل، لمَ لا يكون هدفك رسول الله؟.

يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه سأل ابنه مرةً قال: يا بني، مثل من تريد أن تكون حينما تكبر؟.. قال: أريد أن أكون مثلك يا أبي، فقال سيدنا علي كرم الله وجهه، قال: لا بل قل إنك تريد أن تكون مثل رسول الله ؛ لأنك إن كان هدفك أن تكون مثل عليٍّ فأغلب الظن أنك لا تكون مثل علي، ولكنك إذا أردت أن تكون مثل رسول الله (طبعاً في الطاعة والأعمال الصالحة فقط)، فقد تكون أفضل من علي بن أبي طالب أبيك..

هذا الذي يجعل قدوته إنسان غير معصوم، غير كامل لا يصل إليه القاعدة ليس المقلد كالمقلد، لهذا تسير الأمة نحو الهاوية، اجعل من رسول الله قدوةً لك وهدفاً.

الإمام البخاري من أستاذه؟.. لماذا لا نحفظ اسم أستاذه في الأعم الأغلب؟ لأنه فاق أستاذه، ولو جعل البخاري أستاذه هو الهدف لكان دون أستاذه.

هناك من يتوهَّم أنك إذا طمحت أن تكون مثل شيخك قد أهنت الشيخ من قال لك ذلك، فضل الله واسع عميم، فضل الله لا يحده أحد، اجعل من رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوةً لك ؛ كي تعرج في معارج الكمال، كي يصعد خط الأمة البياني، أما إذا جعلنا أهدافنا محدودة غير كاملة، غير معصومة هو الهدف، نزل الخط البياني نحو الحضيض.

من الأعراض المخيفة لها المرض مرض البعد عن الله، أن الإنسان يخجل بإسلامه، ويحاول أن يقف في موقف دفاعي دائماً ؛ يدافع عن تعدد الزوجات، يدافع عن قطع اليد، يدافع عن وعن، لماذا تأخذ هذا الموقف؟.. عندهم سقوط لا يعلمه إلا الله، هم يرتكبون أكبر كذبة في الأرض.

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

يسمحون بمذابح تجري في أوربا، تطهير عرقي، يتدخلون بعد أن ينتهي الأمر، تدخلاً دعائياً إعلامياً، هؤلاء هم الإرهابيون، هم المنحلون هم الكذابون، لماذا تستحي بإسلامك أمام الأعداء لماذا؟

أنت مع الحق، وأنت على دين الله عز وجل..

أي حق هذا، والشعوب تعاني من وطأة الاستغلال، والقهر؟.

يا أيها الإخوة الكرام، لا ينبغي أن نستحي من إسلامنا، ينبغي أن ندافع عنه ينبغي أن نرى عيوب الغرب،

((من هوي الكفرة حُشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً))

العَرَض الأخير من أعراض هذا المرض الخطير مرض البعد عن الله: أن المسلم أحياناً يرى في التشريعات الوضعية ما يغني عن تشريعات الله عز وجل، وهذا مرض خطير أيضاً، تشريع خالق الكون، تشريع الخبير العليم لا ترضى به، وترضى بقانون وضعي من صنع البشر؟!.

هذه بعض أعراض مرض البعد عن الله، فإذا اقتربت من الله فأنت إنسان آخر، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

لا تنسى قوله تعالى في سور الفاتحة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥))

***

الخطبة الثانية:

مرَّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة، وهو يريد مكة المكرمة، فأقام بها أياماً، فقال: هل بالمدينة أحدٌ ممن أدرك أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قالوا له: أبو حازم، فأرسل إليه، فلما دخل عليه، قال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين وأي جفاء رأيت مني؟

قال: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني.

قال: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبل هذا اليوم، ولا أنا رأيتك.

فقال سليمان لشهاب الزهري: أصاب الشيخ وأخطأت.

قال سليمان: يا أبا حازم، مالنا نكره الموت؟

قال: لأنكم خرَّبتم الآخرة وعمَّرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

قال: أصبت يا أبا حازم، كيف القدوم على الله غداً؟

قال: أما المحسن فكالغائب يقدُم على أهله، وأما المسيء فكالعبد الآبق يقدم على سيده ليعاقبه.

فبكى سليمان وقال: ليت شعري، مالنا عند الله؟

قال: اعرضْ علمك على كتاب الله.

قال: وفي أي مكان أجده في كتاب الله.

قال: قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤))

قال سليمان: فأين رحمة الله؟.

قال: فإن رحمة الله قريب من المحسنين.

قال سليمان: يا أبا حازم أي عباد الله أكرم؟

قال: أهل المروءة والنهى.

قال سليمان: فأي الأعمال أفضل.

قال أبو حازم: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم.

قال سليمان: فأي الدعاءأسمع؟

قال: دعاء المُحسَن إليه للمحسن.

قال: فأي الصدقة أفضل؟

قال: للسائل البائس، وجهد المقل ليس فيها منٌّ ولا أذى.

قال: فأي القول أعدل؟

قال: قول الحق عند من تخافه أو ترجوه.

قال: فأي المؤمنين أكيس؟

قال: رجل عمل بطاعة الله ودلَّ الناس عليه.

قال: فأي الناس أحمق؟

قال: رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

باع آخرته لا بدنياه، بل بدنيا غيره.

قال سليمان: أصبت، فما قولك فيما نحن فيه؟

قال: يا أمير المؤمنين أو تعفينني من هذا؟

قال: لا، ولكن نصيحة تلقيها إلي.

فحدثه أبو حازم عن بعض المظالم.

فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم.

قال أبو حازم: كذبت إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

قال سليمان: فكيف لنا أن نصطلح مع الله؟

قال: تَدَعون الصلف، وتتمسكون بالمروءة، وتقسمون بالسوية.

قال: فكيف لنا المأخذ به؟

قال: تأخذه من حله، وتضعه في أهله.

قال سليمان: هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا، فتصيب منا ونصيب منك.

قال أبو حازم: أعوذ بالله.

قال سليمان: ولمَ؟

قال: أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات.

قال سليمان: ارفع إلينا حوائجك.

قال: تنجيني من النار وتدخلني الجنة.

قال له أبو سليمان: ليس ذلك إلي.

قال أبو حازم: فمالي إذاً إليك حاجة.

قال: فادع لي.

قال أبو حازم: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة، وإن لم يكن وليك فخذ بناصيته إلى ما تحبه وترضى.

قال: قط؟

قال أبو حازم: قد أوجزت وأكثرت، إن كنت من أهله، وإن لم تكن أهله، فما ينبغي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر.

قال سليمان: فأوصني.

قال: سأوصيك وأوجز ؛ عظم ربك، ونزهه أن يراك حيث نهاك، وأن يفقدك حيث أمرك.

فلما خرج من عنده، بعث إليه بمائة دينار، وكتب إليه أن أنفقها ولك عندي مثلها كثير.

قال: فردها عليه، وكتب إليه ؛ يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن يكون سؤالك لي هزلاً، أو ردي عليك بذلاً، وما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي، إن كانت هذه المائة دينار عوضاً لما حدثتك به، فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلُّ من هذه، وإن كانت لحق لي في بيت المال فلي فيها نظراء، فإن ساويت بيننا قبلتها وإلا ليس لي بها حاجة.

قال شارح هذا النص: هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والسنة، فهذا الإمام الفاضل، والحبر العالم، كيف لم يأخذ على عمله عوضاً، ولا على وصيته بدلاً، ولا على نصيحته قصداً، بل بين الحق وصدع به.

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يمنعن أحدكم هيبة أحد أن يقول بالحق حيث كان))

أيها الإخوة الكرام، سئل الحسن البصري ؛ بمَ نلت هذا المقام؟ وكان سيد التابعين " قال باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي ".

فكيف إذا استغنى الناس عن علم العالم، واحتاج هو إلى دنياهم؟.. سقطت قيمة العلم..

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٦٧ : خ١ -سورة الكهف١ (الأوامر التكوينية والأوامر التكليفية) ، خ٢ - آيات العلم والمعرفة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٧-٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الاولى

أيها الإخوة الكرام:

يقول الله عز وجل في كتابه العزيز:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (٨٢))

[سورة الإسراء]

شفاء من الشكوك، من الوساوس، من الضيق، من سوء الفهم، من سوء الظن.. ما هو شفاء.

والنبي عليه الصلاة والسلام، يقول في بعض أحاديثه:

((عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قالَ مَنْ قرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ))

[أخرجه الدارمي]

إذا قرأت سورة الكهف يوم الجمعة، امتصت هذه السورة كل المشكلات النفسية، وكل التساؤلات، وكل الشكوك، وكل الضيق الذي يعتري الإنسان.

في هذه السورة دروس عظيمة كثيرة، نكتفي في هذه الخطبة، بأحد دروسها، درس سيدنا موسى، وسيدنا الخضر العبد الصالح.

كتمهيد لهذا الموضوع، أضع بين أيديكم الحقيقة التالية:

القرآن الكريم له أساليبه المتعددة في عرض الحقائق، من هذه الأساليب ؛ الأسلوب المباشر، المركز المكثف، قال تعالى:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦))

هذه حقيقة مكثفة، مركزة، مباشرة.. تمديد هذه الحقيقة، تمديدها قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، هذه القصة بأحداثها، بحوارها بوصفها، بسردها، بمغزاها، بحركتها، بعقدتها، هذه قصة تُعد تمديداً وشرحاً مشوقاً للحقيقة المكثفة:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦))

[سورة البقرة]

القصة مشوِّقة، والقصة مؤثرة، والقصة فيها حقيقة مع البرهان عليها حقيقة مكثفة مجردة مباشرة:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١))

[سورة يوسف]

هذه الحقيقة المكثفة المجردة، المباشرة، ممددة في أطول قصة في القرآن الكريم، قصة سيدنا يوسف عليه السلام، قصة يوسف تمديد لهذه الحقيقة المكثفة، كيف أنك تلعق لعقة عسل أحياناً، وكيف أنك تشرب شربة عسل أحياناً.. لعقة العسل مكثفة، بينما شربة العسل ممددة.

فقصة سيدنا يوسف تمديد لقوله تعالى:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١))

أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد..

وقوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦))

هذه الحقيقة المكثفة، المركزة، المباشرة، ممددة في قصة، شائقة ممتعة، مفيدة، لها أثر بليغ في النفس، قال تعالى:

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٦٥))

[سورة الكهف آية ٦٥]

سيدنا موسى مع غلامه..

قال علماء التفسير، هذا العبد عند جمهور العلماء، هو سيدنا الخضر وهو نبي أيضاً عند جمهور العلماء، هو نبي، وهو عبد صالح، اسمه الخضر في أصح الروايات.

أما الرحمة فُسرت بالنبوة، وأما العلم الذي آتاه الله إياه، هو علم التكوين.

لله عز وجل أمران، أمر تكليفي وأمر تشريعي، الأمر تشريعي: افعل ولا تفعل، فرض واجب مستحب، مباح مكروه تنزيهاً، مكروه تحريماً، حرام.. هذا أمر الله عز وجل التكليفي، فالأنبياء والمرسلون يعلمون الأمر التكليفي، افعل ولا تفعل لكن سيدنا الخضر أو العبد الصالح الذي ورد هكذا اسمه في القصة يعلم الأمر التكويني الأمر التكويني يراه الناس جميعاً، لكنَّ سيدنا الخضر يعلم حكمة الأمر التكويني، هذه الحكمة تغيب عن أناس كثيرين، ولا يعلمها إلا قليل من عباد الله المؤمنين، سيدنا موسى يعلم الأمر التكليفي، وسيدنا الخضر يعلم الأمر التكويني.

لنوضح لكم الفرق بين الأمر التكويني والتكليفي: قد تمشي في طريق فترى لوحة حمراء كُتب عليها ممنوع المرور، هذه اللوحة أمر تكليفي لكن الطريق سالكة، بإمكانك أن تعصي، وتدفع الثمن، أما حينما يوضع على الطريق مكعبات من الإسمنت المسلح، ارتفاع الواحد منها متراً.. هذه المكعبات تمنع السير، هذا أمر تكويني، فرق كبير بين الأمر التكليفي وبين الأمر التكويني.. الأمر التكليفي سيدنا موسى قمة في معرفته، وحكمة الأمر التكويني آتاه الله لهذا الولي الكبير سيدنا الخضر لحكمة سوف نراها فيما بعد.

حقيقة لابد من أن تكون تمهيداً لهذه القصة ؛ كل شيء وقع أراده الله لأنه لا يُعقل أن يقع شيء في ملك الله دون أن يريد الله ذلك، كل شيء وقع ـ اقرؤوا الأخبار ـ ما دام الشيء وقع فقد أراده الله، وقال العلماء أراد ولم يرض، أراد ولم يأمر، ليس معنى أن الله أراده أي رضيه وليس معنى أن الله أراده أي أمر به، أراد ولم يأمر، أراد ولم يرض معنى أراد أي سمح، سمح بوقوع هذا الشيء لحكمة بالغة بالغة، لذلك استنبط العلماء أن لكل واقع حكمة، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة.

معنى الحكمة المطلقة: أن هذا الشيء الذي وقع، لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله أن هذا الشيء الذي وقع، لو لم يقع لكان الله ملوماً أن هذا الشيء الذي وقع لو وقع على نحو آخر لكان نقصاً في حكمة الله كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

[سورة آل عمران الآية ٢٦]

لم يقل بيدك الخير والشرُّ، قال بيدك الخير... إيتاء الملك خير ونزعه خير، الإعزاز خير، والإذلال خير، خير في العاقبة، خير في النهاية لا في البداية، لذلك لا يُسمى الشرُّ شراً إلا عند القاصر، عند قاصر النظر، فلا بد من أن نسميَ الشرَّ شراً نسبياً، لأن الشرَّ المطلق لا وجود له في الكون، الشر

المطلق يتناقض مع وجود الله، بيده الخير.. كيف أن السيارة صُنعت لتسير، وفيها مكابح، والمكبح وظيفته عكس علة صنع السيارة، علة صنعها السير، والمكبح يمنعها من السير، فعلة صنع المركبة السير، والمكبح يتناقض مع علة صنع المركبة، ولكنه ضروري جداً لسلامتها، وسلامة ركّابها، هذا هو الفهم الدقيق لكل ما يجري في الكون، مما يكرهه الإنسان.. ألم أقل في بداية الخطبة، ألم أذكر قوله تعالى:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (٨٢))

[سورة الإسراء]

القرآن الكريم بآياته المكثفة، المركزة، المباشرة، أو الممددة التفصيلية، هي شفاء للصدور.

هذه الحكمة من أمر الله التكويني، أي من أفعاله، يسوق مطراً يسوق صقيعاً فتتلف ألوف الملايين من المحاصيل، يسوق مرضاً يسوق صحةً يسوق زلزالاً، يسوق أعاصير، يسوق مصائب لا تُعد ولا تُحصى هذه ينبغي أن تُفهم في ضوء القرآن الكريم، وإلا كانت هذه المصائب إن لم تفهم في ضوء القرآن الكريم سبباً في البعد عن الله عز وجل.

سيدنا الخضر آتاه الله علماً، قال تعالى:

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٦٥))

وعلمناه من لدنا علماً

هذا العلم هو حكمة الأمر التكويني، أو كما قال المفسرون في القرطبي: الحكم الباطنة لأفعال الله عز وجل، بينما سيدنا موسى أعطاه الله الأمر التكليفي.

القصة تلفتنا إلى الحكم العظمى لأفعال الله عز وجل، والتي تخفى على كثير من الناس.

بشكل صريح ؛ سبب متاعب الإنسان هو أنه يقف عند الأشياء الظاهرة فقط، فإذا حدث أمامه شيء يكرهه اعتقد أنه شرٌّ، فشقي بهذا الاعتقاد وإذا حدث أمامه شيء يحبه اعتقد أنه خير، فتوهم أنه في سعادة، وربما كان العطاء عين المنع، وربما كان المنع عين العطاء، ربما منعك ليعطيك، وربما خفضك ليرفعك، وربما حرمك ليغنيك، وربما ساق لك من المصائب ما تكون سبباً لقربك منه.

أيها الإخوة الأكارم:

لا زلنا مع قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦))

[سورة البقرة]

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧))

[سورة الكهف]

لماذا، لأن مقام النبوة، ومقام الرسالة، لا يمكن أن يُقرَّ على خطأ هذه حقيقة، كان عليه الصلاة والسلام في بيت أحد أصحابه، الذين توفوا أبو السائب، فسمع امرأة من وراء الستار تقول: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله.. لو أن رجلاً سمع هذه المقولة وسكت لا شيء عليه، لكن النبي عليه الصلاة والسلام سكوته تشريع، سنته أقواله، وسنته أفعاله وسنته إقراره، فإذا تكلم رجل في حضرة النبي كلاماً، وسكت النبي فهذا الكلام صحيح وهو تشريع، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ومن أدراك أن الله أكرمه، قولي أرجوا الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم))

أيها الإخوة الكرام:

في هذه الآية حقيقة مكثفة، آية:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦))

الحقائق شيء، والظواهر شيء آخر، وقد ـ في الأعم الأغلب ـ تختلف الحقائق عن المظاهر، قد ترى إنساناً محاطاً بكل متع الحياة الدنيا وقد يكون أشقى الناس، وقد ترى رجلاً، يعاني من شظف العيش، وقد يكون أسعد الناس، وهذا من حكمة الله العظمى، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤))

[سورة طه]

تساءل السادة المفسرون، ما بال الأغنياء، وما بال الأقوياء، وأين هي المعيشة الضنك لإنسان يملك مئات الملايين، وأين هي المعيشة الضنك لمن ملك كل شيء ؟!..

قال العلماء: إنه ضيق القلب، قد يعطيك الدنيا ويحجب عنك قربه فأنت أشقى الناس، وقد يحجب عنك الدنيا ويتجلى على قلبك، فأنت أسعد الناس.

قال له موسى:

هل أتبعك، دقق في هذا الأدب، هو نبي عظيم، رسول من أولي العزم:

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦))

اسْتُنبط من هذا الكلام أن سيدنا موسى يعلم أن العبد الصالح يعلم مالا يعلم موسى، وسيدنا موسى كما قلت قبل قليل من أولي العزم، وليس مما يضع من قيمته أن يتعلم من عبد آخر شيئاً لا يعلمه هو، لذلك قالوا: قد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله عز وجل، مرتبة الرسالة أعلى من مرتبة النبوة، ومرتبة أولي العزم من الرسل أعلى من مرتبة الرسل بشكل مطلق، فالفاضل من فضله الله، والله عز وجل فضل هذا النبي الكريم، وهذا الرسول العظيم، وهذا لا يمنع أن يتعلم من العبد الصالح شيئاً لا يعلمه.

يعني هذا لا يمنعك أن تحمل أعلى شهادة، وتطلب العلم الديني، هناك أناس متكبرون، لمجرد أنه وصل إلى اختصاص دقيق، أو شهادة عليا في أي مجال، يرى نفسه أكبر من أن يجلس في مجلس علم، أكبر من أن يستمع إلى من يعلمه العلم الديني.

نبي عظيم، ورسول كريم، من أولي العزم، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً، وهذا يعطينا أدب المتعلم مع المعلم.

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يُكرما

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((تواضعوا لمن تتعلمون منه، وتواضعوا لمن تعلمونه))

لكنَّ العبد الصالح سيدنا الخضر، يعلم يقيناً أن سيدنا موسى لن يصبر عليه، والسبب واضح، لماذا؟ لأن سيدنا موسى سيرى الظاهر، ولا يعلم الباطن، لا يعلم حكمة هذا الأمر التكويني، إلا أن يعلمه الله، الله عز وجل أعلم سيدنا الخضر حقيقة الأمر التكويني، سيدنا موسى معه تشريع، معه أشياء محرمة ولأنه نبي مرسل لا يمكن أن يقرَّ على خطأ.

فشيء طبيعي جداً، إنسان يحمل الأمر التكليفي ؛ افعل ولا تفعل، هذا أمر وهذا نهي، وهذا حرام، وهذا واجب، ورجل آخر يفعل شيئاً خلاف الأمر والنهي، ولا يعلم سيدنا موسى الحكمة الكامنة من الفعل التكويني:

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨))

[سورة الكهف]

شيء واضح، أنا حينما أرى إنسان، أي إنسان، إنسان يعلم مبادئ الشريعة، حينما ترى إنسان يعتدي على إنسان، لابد من أن تنكر هذا العدوان، أما أن تعلم حكمة هذا الذي اعتدي عليه، هذا أمر يحتاج إلى تفصيل.

آلاف القصص، تؤكد هذه الحقيقة، نحن جميعاً نستمع إلى آلاف القصص إلى فصلها الأخير، فنرى ظلماً أحياناً، نرى عدم الحكمة أحياناً أما لو أتيح لك أن تعرف القصة، من أول فصل فيها، إلى آخر فصل لسجدت لله عز وجل، على حكمته ورحمته وعدله.

مثل بسيط من السيرة، النبي عليه الصلاة والسلام، قبل معركة بدر أعطى توجيهاً، قال لا تقتلوا عمي العباس، بلا تعليل!.. عمه العباس مسلم في مكة، وهو عينه في مكة، وما من قرار يُتخذ هناك إلا ويصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ولو أنه أخبر أن عمه من المؤمنين لكشف أمره وانتهت مهمته، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام سمح له أن لا يشارك أهل مكة في معركة بدر، لكشف نفسه، لو قال لا تقتلوا عميَّ العباس لأنه مسلم كشف أمره، لو سكت ولم يقل لا تقتلوه لقتلوه فلا بد من أن ينهى عن قتله بدون تعليل... بعض الصحابة قال: ينهانا عن قتل عمه، وأحدنا يقتل أباه وأخاه، رأى في هذا خللاً، فلما كشفت له الحقيقة، قال: بقيت أتصدق عشر سنين، رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله.

ما كل ما يُعلم يقال، ما كل شيء يقع ظاهراً تأخذه على ظاهره هناك حكم بالغة، لو اطلعت عليها، لذابت نفسك محبةً لله، وإقراراً بعدالته وإقراراً بحكمته.

(قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (٦٩))

[سورة الكهف]

الشيء الدقيق أن العالم مليء بالأسرار، لكنَّ ظاهر الأحداث يعلمها جميع الناس، أما حقائقها، أما حكمها، أما أسرارها، الله عز وجل يطلع عليها من يشاء من خلقه.

حقيقة المؤمن، أن المؤمن يصبر على شيء يكرهه، ورد عن سيدنا علي رضي الله عنه:

((الرضى بمكروه القضاء، أرفع درجات اليقين))

فالمؤمن يصبر بيقينه أن وراء هذا الحدث المكروه حكمةً، حينما يصبر ويستسلم لإيمانه بحكمة الله المطلقة، وبعدله المطلق، وبرحمته المطلقة، وبعلمه المطلق، حينما يستسلم ويسلم الأمر إلى الله، يعطيه الله أجر الصابرين، قال تعالى:

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (١٢))

[سورة الإنسان]

ويعطيه الله ثواب العابدين، وفوق هذا وذاك، يكشف له الحكمة فيصبح من المحسنين، يجمع الحسنيين، جمع ثواب العبادة، ثواب التعبد لله والاستسلام له، مع فهم الحكمة.

قال العلماء: كل أمر إلهي، علته أنه أمر إلهي، فإذا أقبلت على تطبيقه، ولو لم تعرف حكمته، لأن حكمته في الأصول، ما دام أمراً إلهياً، ففيه حكمة مطلقة، فكل أمر إلهي علته أنه أمر إلهي، فإذا

أقبلت عليه منفذاً، وإذا كان نهياً أقبلت منتهياً، رفعك الله إلى درجة العبَّاد الصادقين، ثم كشف لك حكمته فأصبحت من العلماء، أصبحت عابداً عالماً في وقت واحد، لأنك انصعت لأمر الله، يقيناً بحكمته، فلما كُشفت لك الحكمة، أصبحت من الخبراء بأفعال الله عز وجل.

آية من آيات الله المتعلقة بهذا الموضوع:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣))

[سورة الأنعام]

أي كتاب يُطرح في السوق، فيه ضلالات، فيه تشكيك، شيء لا يُحتمل، لكن الله سمح به، لحكمة قد تغيب عنا، هذه الكتب، هي في الحقيقة، كالمصل الذي يُعطى للإنسان ؛ كي يكتسب مناعة، ما معنى مصل الكوليرا، نعطيه لقاح الكوليرا، نعطيه جرثوم الكوليرا مضعف فالجسم يعمل، ويصنع مصلاً مضاداً، حتى إذا جاءت هجمة شرسة كان عنده السلاح جاهزاً، فهذه الكتب التي تطرح الضلالات، سمح الله بها لحكمة بالغة، طلاب العلم يتحركون، والعلماء يتحركون، والمناقشات تفضي بالناس إلى يقينيات وحقائق رائعة جداً، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣))

[سورة الأنعام]

حدثني أخ أثق بصدقه، أن كتاباً لمؤلف من الباكستان، وصف بيت النبي وصفاً لا يليق به، وصف بنات النبي وصفاً لا يليق بهن، وتطاول على النبي عليه الصلاة والسلام، وطُبع هذا الكتاب مئات الطبعات حدثني من أثق به أن عشرين ألف إنسان بريطاني أسلموا بسبب هذا الكتاب، لم يسلموا عن طريق هذا الكتاب، بل بسبب هذا الكتاب، ما صدقوا أن النبي بهذا الوصف الذي وصفه به المؤلف، فبحثوا عن كتب صحيحة، تحدثهم عن حقيقة الدين الإسلامي، فاقتنعوا فأسلموا، لذلك نقول لكل واقع حكمة.

قال بعض العلماء: إن لكل حدث يقع حكمة، لو عُرفت قبل وقوعه لسعى الإنسان إلى الحدث ليقع، ولدعا الله أن يتم هذا الحدث، لو كشف الله لك حكمة الحدث قبل وقوعه، لسعيت أنت بكل طاقتك لبلوغ هذا الحدث، ولدعوت الله أن يتمه، لهذا قال بعض العلماء ـ الإمام الغزالي ـ ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني.

طفلة بعمر الزهور، جميلة جداً، أصيبت بمرض عضال في دمها لها أب وأم شاردان، بعيدان عن الدين بعداً كثيراً، فالله سبحانه وتعالى ساق لهما هذه المصيبة، أنفقا على ابنتهما كل ما يملكان، إلى أن باع الأب بيته الذي يسكنه، وأخذها إلى بلد غربي، ولم يستفد شيئاً، وهي في طريق الموت، خطر في باله خاطر، أنه لو تاب إلى الله هو وزوجته وأقاما منهج الله في بيتهما، لعل الله يشفي هذه البنت، وهذا الذي فعله بدأ يصلي، وحجب زوجته، وأقاما منهج الله في البيت، توصلاً إلى أمل أن يشفي الله ابنته، والذي حصل أنها شفيت، وبعد حين، دُعيت إلى عقد قران، وألقيت كلمة في هذا العقد، ولمَّا خرجت، سألت الأب أهي هي ؟.. قال هي هي!.. جاء هذا المرض وحمل والديها على التوبة إلى الله، فلما تابا أزيح هذا المرض، هكذا أفعال الله عز وجل أن المرض مخيف، المرض ترتعد له الفرائص، المرض لو سمعت به لوقع الإنسان مغشياً عليه، هذا المرض سبب هداية الأب والأم، فلما اهتديا إلى الله، أزيح هذا المرض.. قلت له هي هي ؟ قال لي هي هي.

يعني مثلا افتراضي أقوله لكم: لو أن أباً وأماً أنجبا طفلة جميلة وماتت في عمر الزهور، أليست هذه مصيبة ما بعدها مصيبة، لو أن الله أطلع والديها، أن هذه حينما تكبر، وحينما تنضج ستمتَهنُ الدعارة ألا يرضى الأب والأم أن تموت هذه البنت في سنٍّ مبكرة، وبهذا تقي الأسرة السمعة السيئة، وتقي الأب والأم الشقاء الذي لا ينتهي.. هذا مثل تركيبي ـ لو فرضاً أطلع الله أباً وأماً، ماتت ابنتهما في سنٍّ مبكرة مصير هذه الفتاة، وكان هذا في منتهى الحكمة واللطف.

أيها الإخوة الكرام:

لا تتسرع، لا تحكم على ظواهر الأشياء، اجعل هذه الآية شعاراً لك:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة]

كنت ماشياً في الطريق فسألني رجل: قال لي رجل فتح محله التجاري ليسترزق، نشبت مشادة بين شخصين، يحمل أحدهما مسدساً أطلق عليه النار، أصابت رصاصة صاحب المحل التجاري في عموده الفقاري فشُلَّ فوراً.. قال لي: ما ذنب هذا الإنسان البريء ؟ الذي جاء ليسترزق ليكسب رزق أولاده، ولا علاقة له بهذا ؟..

قلت له: لكل واقع حكمة، ولكنني لا أعرفها.

والله ـ أيها الإخوة ـ بعد عشرين يوماً، أحد إخوتي الكرام، قال لي: لنا جارٌ أكل أموال أبناء أخيه الأيتام، والمبلغ كبير، وسطوا أحد علماء دمشق ليكون وسيطاً في إرجاع المال لهم، فرفض هذا العم أن يرجع المال، قال في اليوم التالي ذهب إلى محله، ونشبت مشادة وروى القصة نفسها... أنت

ماذا رأيت ؟.. رأيت إنساناً ليس له علاقة، فني فوراً، لا تتسرع، ليس هناك شيء طائش في الحياة أبداً، لا شيء طائش أبداً شظية طائشة، غلط، طائش ما في، كل شيء مسوم، عليها اسم صاحبها، لذلك المؤمن يستسلم لله، لحكمة الله، يستقيم على أمر الله لينال حفظ الله، يستقيم على أمر الله، ليحفظ الله له صحته، ليحفظ الله له أهله، ليحفظ الله له ماله.

المال الذي يأتي بطريق غير مشروع، يذهب مصادرةً، يذهب سرقة يذهب بألف طريق غير مشروع.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

***

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام:

في الخطبة القادمة إن شاء الله، نتابع قصة سيدنا موسى مع الخضر أتحدث عن السفينة التي خُرقت، وعن الغلام الذي قُتل، وعن الجدار الذي بُني بلا أجر، وهذه القصص الثلاثة، تعلمنا آلاف الدروس، قس عليها كل شيء، لكل واقع حكمة، عرفتها أم لم تعرفها.

ورد في القرآن الكريم العلم ومشتقاته، في سبعمئة واثنين وثمانين آية والمعرفة في تسع وعشرين آية، والمجموع ثمانمائة وإحدى عشرة آية.

وورد ذكر الإيمان ومشتقاته، في ثمانمائة وإحدى عشرة آية، بالتمام والكمال، فكأن العلم هو الإيمان، والإيمان وهو العلم، كأن العلم يفضي إلى الإيمان، وكأن الإيمان يعتمد على العلم.

شيء آخر، الآية الأولى في القرآن الكريم:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢))

[سورة العلق]

يعني اقرأ وتعلم، ولكن يجب أن يكون هذا العلم في ظل الإيمان، اقرأ باسم ربك.

من الحقائق المذهلة، التي لم تكن معروفةً وقت نزول القرآن، هي قوله تعالى:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

[سورة يس]

قال العلماء: الشمس تجري في مجرتها، لمستقر لها هو النسر الواقع اسمه في اللغة الأخرى (فيجه) بسرعة عشرين كيلو متر في الثانية الواحدة، لكنها ـ الشمس ـ تدور مع المجرة، بسرعة مئتين واثنين وسبعين كيلو متر في الثانية، تدور شأنها شأن كل كوكب في الكون قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١))

[سورة الطارق]

أو أن كل كوكب في الكون، يرجع إلى مكان انطلاقه النسبي، وهذه الصفة الجامعة الشاملة، لكل كواكب الكون، تدور بسرعة مائتين واثنين وسبعين كيلو متر في الثانية، وتجري لمستقر لها بسرعة عشرين كيلو متر في الثانية.

أحد العلماء أجرى إحصاءً للآيات الكونية في القرآن الكريم، فكانت ألفاً وثلاثمائة واثنتين وعشرين آية، فإذا كانت مجمل آيات القرآن الكريم فوق الست آلاف، معنى ذلك سدس آيات القرآن الكريم تعريف بما في الكون من آيات دالة على عظمة الله، هذه الآيات الكونية صنفها العلماء فجاءت في العلوم الطبية، والفيزياء والكيمياء، وعلم الأحياء، النبات والحيوان، والفلك والفضاء، والجغرافية والزراعة، والرياضيات والإحصاء، وعلم طبقات الأرض، والتعلم والبحث العلمي، وعلم البحار والأنهار، وعلم وسائط النقل، وأصل الإنسان، وبقية المخلوقات وعلم الهندسة، وعلم اللغة.

هذه الألف وثلاثمائة آية، موزعة بين هذه العلوم بنسب متفاوتة.

أيها الإخوة الكرام:

الكون خلقه، والقرآن كلامه، والحوادث أفعاله، وهو واحد في خلقه وفي أفعاله، وفي كلامه.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٦٨ : خ١ -سورة الكهف٢ (سر الأوامر التكوينية والأوامر التكليفية)، خ٢ - ظواهر أحداث الكون.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٨-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى :

التحصن بالعلم فيه طاعة لله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، لازلنا في سورة الكهف:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفقًا)

[سورة الكهف: ١٦]

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا قَلِيلٍ))

[أحمد عن أبي هريرة]

أيها الأخوة، فأووا إلى الكهف، آووا إلى مساجد الله، تحصنوا بالعلم، الزموا بيوتكم ففيها طاعة ربكم.

لماذا كان لقاء سيدنا موسى مع سيدنا الخضر؟

قد يرد هذا السؤال حول موضوع الخطبة السابقة، لماذا كان لقاء سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، لماذا هذا اللقاء؟ ولماذا اتبع هذا النبي الكريم، هذا الرسول الذي هو من أولي العزم، لماذا أمر أن يتعلم من سيدنا الخضر، ما الحكمة؟..

ورد في الأحاديث الصحيحة، أحاديث كثيرة، تشير إلى حكمة ذلك وقبل أن آتي على ذكر الحديث، لابد من وقفة متأنية، حول موضوع متعلق بمحور الخطبة.

الأحداث والمواقف التي تلابس حياة الأنبياء والرسل، مقدرة من الله لحكمة بالغة، بحيث لو لم تقع، لكان عدم وقوعها نقصاً في حكمة الله التشريعية، فهذه الحوادث التي تلابس حياة الأنبياء والرسل وتلك المواقف التي يقفها مَنْ حول الأنبياء والرسل، ليست من النوع التي يمكن أن لا تقع، وأن لا يُبنى على عدم وقوعها شيء، كما أنها ليست من النوع الذي يمكن أن تقع على خلاف ما وقعت، ومن دون أن يُبنى على وقوعها بخلاف ما وقعت عليه شيء، ولنضرب على ذلك الأمثلة:

النبي يُتلى عليه النصُّ مرةً واحدة فيحفظه ولا ينساه أبداً :

النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق، قال الله عنه:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى)

[سورة الأعلى: ٦]

هذه خصيصة خصه الله بها، أنه يُتلى عليه النصُّ مرةً واحدة فيحفظه ولا ينساه أبداً، إلا أن هناك استثناء، قال تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

[سورة الأعلى: ٦-٧]

النبي صلى الله عليه وسلم نسي كي يسن لأمته من بعده :

صلى مرةً عليه الصلاة والسلام بأصحابه الظهر ركعتين، فقال ذو اليدين: يا رسول الله، أنسيت أم قصرت الصلاة، فقال عليه الصلاة والسلام: كل هذا لم يكن، فقال بشكل مؤدب جداً: بعضه قد كان فسأل النبي أصحابه، فاتضح أنه صلى ركعتين، فقال عليه الصلاة والسلام: إنما نُسِّيت كي أسنَّ ، أي كي أسن لكم سجود السهو.

لو أن النبي عليه الصلاة والسلام، منذ أن بعثه الله، وحتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، لم ينس إطلاقاً لعطل هذا الحكم الشرعي، ماذا يفعل إمام جاء بعده، نسي ركعة أو ركعتين ماذا يفعل:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)

[سورة الأعلى: ٦-٧]

فأن ينسيه الله عز وجل، هذه حكمة تشريعية، من أجل أن يسنَّ النبي لنا سجود السهو، فكل حدث يقع و يلابس حياة النبي، أو يلابس حياة أصحابه، كل المواقف التي يقفها من حول النبي، سواء أكانت تأييداً أو إنكاراً، هذه المواقف مقدرة بحكمة بالغة، بكمال هذا التشريع وقف النبي موقفاً كاملاً، وموقف النبي تشريع، أقواله تشريع، وأفعاله تشريع، وإقراره تشريع، وصفاته تشريع.

حجب الموقع المناسب عن النبي أظهره بفضيلة الرجوع إلى الحق :

حادث آخر، النبي عليه الصلاة والسلام، في موقعة بدر، اختار موقعاً، ولحكمة بالغة حجب الله عن النبي الموقع المناسب، وعشرات الحالات، بل مئات الحالات، وهي أقل شأناً من هذه الحادثة، كان يأتيه الوحي، ويخبره... لم يأته الوحي، ولم يلق في روعه الموقع المناسب فجاء صحابي جليل، يقطر أدباً، ويقطر غيرةً، قال: يا رسول الله أهذا الموقع وحي أوحاه الله إليك؟ - أي إذا كان ذلك كذلك فلا مشورة لنا - أم هو الرأي والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي، فقال: يا رسول الله ليس بموقع..

هناك فضيلة - أيها الأخوة - يغيب الناس عنها، من أجَلِّ الفضائل وعدم التخلق بهذه الفضيلة، سبب دمار المجتمعات، هذه الفضيلة الرجوع إلى الحق، فالنبي عليه الصلاة والسلام، ببساطة ما بعدها بساطة وبعفوية ما بعدها عفوية، قال هذا هو الصواب، وأعطى أمراً أن ينتقل الجيش إلى الموقع الجديد.

فلولا أن الله حجب عن هذا النبي العظيم، سيد الخلق وحبيب الحق حجب عنه الموقع المناسب، كيف يظهر النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الفضيلة الرائعة؛ فضيلة الرجوع إلى الحق؟ وكم من مشكلة أساسها التعنت؟ وكم من دمار أساسه أن يركب الإنسان رأسه؟ وكم من دمار يخيم على المجتمع بسبب عدم التراجع؟ وعدم الرجوع إلى الحق؟.

لولا أن الله عز وجل حجب عن نبيه الموقع المناسب، لما ظهرت منه هذه الفضيلة وهي فضيلة أساسية.

قدمت لكم مثالين، كي يتضح، أن الأحداث التي تلابس حياة الأنبياء والمرسلين، والمواقف التي يقفها مَنْ حول الأنبياء والمرسلين، إن كانت إيجابية، أو سلبية، مقدرة تقديراً مذهلاً.

عشرات الحالات لو لم تقع لما كان هناك حديث الإفك :

حديث الإفك - كما تعلمون - لو أن السيدة عائشة، حينما حُمل هودجها رأوه خفيفاً فبحثوا عنها، ليس هناك حديث الإفك، لو أن عقدها لم ينفرط، ولم تبحث عنه، ليس هناك حديث الإفك... عدَّ علماء التفسير عشرات الحالات لو لم تقع لما كان هناك حديث الإفك، لكنْ شاءت حكمة الله أن يقع هذا الحدث، وأن يتحدثَ فيه بعض من كان في عصر النبي، وأن تمتلئ المدينة بهذه التهمة، وأن يقف النبي مكتوف اليدين، ليس هناك وحي، تأخر الوحي عنه أربعين يوماً، لا يملك أدلة إثبات ولا أدلة النفي وقد تبين واضحاً أن الوحي ليس شيئاً بملك النبي يأتي به كما يشاء، إنه كيان منفصل عن النبي.

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة النور: ١١]

التوحيد لا يلغي المسؤولية :

وبعد قليل يقول.

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة النور: ١١]

التوحيد لا يلغي المسؤولية، وهذا الذي قلته بالخطبة السابقة، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

ما السبب الذي دعا سيدنا موسى أن يلتقي بالعبد الصالح ؟

نعود إلى سيدنا موسى، ما السبب الذي دعا أن يلتقي بالعبد الصالح وأن يتعلم منه سرَّ الأمر التكويني، مع أن سيدنا موسى قمة في الأمر التشريعي، الأمر التكليفي سيدنا موسى قمة فيه، قمة في عصره، ولكنَّ الأمر التكويني، سيدنا الخضر أطلعه الله عليه، آتيناه من لدنا علماً:

((عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: قام موسى النبي خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِل، أي الناس أعلم؟ فقال: أنا فعتب الله عليه، إذ لم يردَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي في مجمع البحرين هو أعلم منك، قال يا رب: وكيف به، فقيل له احمل حوتاً في مكتل، فإذا فقدته فهو ثمَّ. (أي هناك) والحديث طويل..))

[متفق عليه عن أبي بن كعب]

قال سيدنا الخضر في ثنيات الحديث: يا موسى إني على علم من عند الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه لا أعلمه أنا.

وفي نهاية الحديث، يقول عليه الصلاة والسلام:

((.... يرحم الله أخي موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما))

[متفق عليه عن أبي بن كعب]

موقف أصحاب النبي عليهم رضوان الله في موقعة بدر :

أيها الأخوة الكرام، الدرس الأول: أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله، في موقعة بدر، قال تعالى عنهم:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة آل عمران: ١٢٣]

أنتم ضعاف، ومع ضعفكم أنتم منيبون إليه، ومع ضعفكم أنتم تلجؤون إليه، وتستنصرونه، وتدعونه من أعماق قلوبكم، لذلك:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة آل عمران: ١٢٣]

موقف أصحاب النبي عليهم رضوان الله في حنين :

في حنين ـ النبي عليه الصلاة والسلام ـ فيهم، وكبار الصحابة حوله:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة: ٢٥]

المؤمن يُمتحن في اليوم مرَّات :

وفيهم رسول الله، وفيهم صحبه الكرام، يُستنبط من هاتين الحادثتين أن المؤمن يُمتحن في اليوم مرَّات ومرّات، فإذا قال الله، تولاه الله وإذا قال أنا تخلى الله عنه، أوكله إلى نفسه، أنت بين التولي والتخلي إن قلت الله تولاك الله، وإن قلت خبرات متراكمة، بالمال يحل كل شيء أنا آخذ بكل القواعد الصحية...

قال رجل في إحدى الجلسات: لن أموت في الوقت القريب، قيل له ولِمَ، قال لأنني أعتني بجسمي، وأمشي كثيراً، وأكلي قليل، ولا أحمل الأشياء فوق طاقتها، وهذا برأي الأطباء عوامل طول العمر، قال هذا يوم السبت، وفي السبت الثاني كان تحت التراب.

أربع كلمات مهلكات :

أيها الأخوة الكرام، أربع كلمات مهلكات؛ أنا ونحن ولي وعندي، كلمات مهلكات إذا أُريد بها أنَّ لك شيئاً تستقل به عن الله: قال أنا أحي وأميت.. فأهلكه الله.. إبليس قال: أنا خير منه فأهلكه الله.. صاحب الجنة، قال: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً، فأهلكه الله عز وجل.

فرعون قال عنه الله عز وجل:

(فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى *إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

[سورة النازعات: ٢٣-٢٦]

قوم بلقيس:

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)

[سورة النمل:٣٣]

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

[سورة سبأ: ٣٥]

(أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)

[سورة القمر: ٤٤-٤٥]

أنا ونحن..

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

[سورة هود]

فرعون قال:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

[سورة الزخرف: ٥١]

أهلكه وقارون قال:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

[سورة القصص: ٧٨]

أنا ونحن، ولي وعندي، كلمات مهلكات إذا أريد بها أن لك شيئاً تستقل به عن الله عز وجل. لكن بعض الأخوة كلما قال: أنا، يقول أعوذ بالله من كلمة أنا، ليس لها معنى، حينما تقول أنا أو نحن ولي وعندي، وتقصد أن لك شيئاً تستقل به عن الله عز وجل.

لكل حدث حكمة :

أيها الأخوة الكرام، قال تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: ٢١٦]

قال بعض العلماء: إن لكل حدث حكمة، لو اطلعت عليها قبل الحدث لسعيت بنفسك إلى الحدث، ودعوت الله أن يتمه، وعندئذ يُلغى أجر الصبر، ويلغى الابتلاء، ويُلغى التكليف، فلابد من أن يغيب عنك حكمة الحدث، ليمتحن الله صبرك، لابد من أن تغيب عنك حكمة الحدث لتمتحن معرفتك بالله عز وجل " الرضى بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين" لابد من أن تُغيب عنك الحكمة، ليرى ماذا تفعل، هل تأخذ بالظاهر، أم توقن أن لله حكمة قد تخفى عنك.

من تُغيب عنه الحكمة يأخذ بالظاهر :

أيها الأخوة الكرام، مثل أضعه بين أيديكم، لو أن طفلاً أصيب بمرض عضال، وعلم الأب ذلك، وأراد أن يُخفي مرضه عن أمه رحمة بها، وكان من تعليمات الطبيب أن هناك بعض الأطعمة، لو تناولها هذا الابن لقضت عليه، الأم لا تعلم، فإذا طلب الابن من أمه هذا الطعام، تطعمه الطعام وتتوهم أنها مصيبة في عملها، لو كُشفت له الحقيقة، لمنعته من هذا الطعام ولو بكى ساعات

وساعات، ولكنَّ جهل الأم جعلها ترى أن هذا الطعام يفيده حينما تُغيب عنك الحكمة تأخذ بالظاهر، أما حينما تُكشف لك الحقيقة تأخذ بسرٍّ هذا الأمر.

(قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

[سورة الكهف: ٧٠]

أول ما فعل سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، أنهما ركبا سفينة يملكها مجموعة من المساكين، وقيل المسكين هو الذي لا يملك شيئاً، ومن خلال هذه الآية، المسكين هو الذي لا يملك ما يكفيه، لهم سفينة ولكنَّ دخلها لا يكفيهم، قال تعالى:

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

[سورة الكهف: ٧٩]

سيدنا موسى لا يعرف حكمة الأمر التكويني :

ركبا السفينة، ولم يأخذ أصحاب السفينة منهما شيئاً، فما كان من سيدنا الخضر إلا أن نزع لوحاً من ألواح السفينة ليخرقها، على الحكم التكليفي عمل لا يُحتمل، عمل لا يُقبل، أركبونا السفينة تكرُّماً منهم ونخرق لهم السفينة، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، قال أخرقتها لتغرق أهلها، وفي قراءة ليغرق أهلها، ولقد جئت شيئاً إمراً أي منكراً لماذا لم يستطع سيدنا موسى أن يصبر، لأنه لا يعرف حكمة الأمر التكويني، غُيبت عنه حكمة هذا الأمر، أطلع الله سيدنا الخضر عليها.

أما الحقيقة فكما رواها العبد الصالح:

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

[سورة الكهف: ٧٩]

كان هناك ملك ظالم، يأخذ كل سفينة سليمة بالقوة، فأراد الله أن يبقي هذه السفينة لهؤلاء المساكين، فكلف سيدنا الخضر أن يخرقها ؛ لتبقى لهم، فالمعادلة ليست سفينة سليمة، وسفينة فيها عيب، لا.. المعادلة سفينة فيها عيب أو لا سفينة، إذا وُضعت أمام هذا الخيار، تختار سفينة فيها عيب، تركب مركبة، أركبت إنساناً ضيافة، فكسر لك البلور الأمامي غضبت أشد الغضب، ثم جئت على حاجز، لولا هذا البلور المكسور لأخذت منك هذه المركبة، ألا تشكره على فعلته تلك؟.. بالظاهر شيء لا يُحتمل، أما في الحقيقة حكمة ما بعدها حكمة.

من تتبع أفعال الله عز وجل وجد فيها حكمة ما بعدها حكمة :

ذكر لي صديق، كان طالباً في الجامعة، وأراد أن يسافر إلى أهله فذهب إلى مكان انطلاق السيارات، رأى سيارة فيها ثلاث ركّاب في المقعد الخلفي، وهو صغير الحجم كثيراً، ركب في المقعد الأمامي فإذا برجل، ضخم الجثة، غليظ الطباع، فتح الباب ولم يقل له انزل أمسكه من عنقه، ورماه خارج المركبة، وركب هو وصديقه، وانطلقت المركبة، يقول هذا الصديق: ليس في حياتي ساعة، تمنيت أن أقتله كهذه الساعة، لشدة ما أهانني.. ركب سيارة أخرى وانطلق فيها وبعد عشرين كيلو متر، وجدوا السيارة الأولى انقلبت، وخمس ركّاب ماتوا، انقلب ألمه شكراً لله عز وجل، أن جاء بهذا الإنسان الفظ فأخرجه من السيارة، هذا الحادث يُقاس عليه آلاف الحوادث:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: ٢١٦]

لو تتبعت أفعال الله عز وجل، لوجدت فيها حكمة ما بعدها حكمة والعلم حرف، والتكرار ألف كما يقولون.

الله عز وجل ذكر قصة واحدة، سفينة خُرقت، فكان خرقها سبب سلامتها، ونجاتها من المصادرة، فإذا شيء لم يعجبك، لم تعرف حكمته اصبر، وقل كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

الخضر عليه السلام نبي :

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

[سورة الكهف: ٧٤-٧٥]

بالمناسبة، هذا هو الدليل القطعي على أن الخضر عليه السلام نبي لأن مخلوقاً واحداً في الأرض لا يستطيع أن يقتل وإلا يُقتل:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: ١٧٩]

ولأنه نبي، وبوحي من الله، هذا وضع نادر جداً، أما أن يقول لك إلهام، أو وقع في روعي، يحاسب كقاتل.

(حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ)

[سورة الكهف: ٧٤]

سيدنا موسى قمة في الأمر التكليفي :

حسب الأمر التكليفي الذي سيدنا موسى قمة فيه.

(قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)

[سورة الكهف: ٧٥]

نظام التوحيد الاستسلام للقضاء والقدر :

بالمناسبة سرٌّ هذا الغلام، قال تعالى:

(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)

[سورة الكهف: ٨٠-٨١]

أبواه صالحان، رُزقا بغلام جميل الصورة، ثم مات الغلام، لو اطلعا افتراضاً ـ بأنه حينما يكبر سيكون مجرماً، وسيقود أبويه إلى المخافر وإلى السجون، وسيضع سمعتهما بالوحل، لشكرا الله على موته المبكر وهذه حكمة ما بعدها حكمة.

استسلم لمشيئة الله، استسلم لحكمته، استسلم لرحمته، استسلم لعدالته والقضاء والقدر نظام التوحيد. الحالة الثالثة:

أصدق السؤال سؤال الطعام :

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا)

[سورة الكهف: ٧٧]

أهل قرية لؤماء، جاءهم أناس جائعون، وقال العلماء: أصدق السؤال سؤال الطعام.

بعض المتسولين يطلبون المال، يكون عندهم مبالغ طائلة، لا يصدقها أحد، بالملايين، أما إذا طلب منك أن يأكل أمامك، هذا سؤال صادق.

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)

[سورة الكهف: ٧٧]

أقامه بلا أجر، المفروض أن يأخذ أجراً ليشتري طعاماً يأكله، خلاف المنطق، خلاف المعقول، خلاف المنهج، أهل قرية لؤماء، تبني لهم جداراً مجاناً، وقد سألتهم طعاماً فلم يقدموه إليك.. الحقيقة هذا الجدار المتداعي لو انهدم، تحت الجدار كنز لغلامين يتيمين لا يقدران على أن يأخذا هذا المال

لهما، فيأتي أهل القرية ويأخذا هذا المال غصبا فأقام الجدار، حتى يقدر اليتيمان ويستخرجا كنزهما، رحمة من ربك..

العمل الصالح للأب يبقى لأولاده في دنياهم :

هذه حكمة ما بعدها حكمة، يجب أن تقيس كل أحداث الحياة، وكل شيء لا يُعجبك، وكل شيء ترى شره ظاهراً، يجب أن تقيسه على هذه القصص الثلاث، يستنبط من هذا حقيقة خطيرة جداً، أن العمل الصالح للأب يبقى لأولاده في دنياهم.

ورد في الأثر القدسي: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت به، قال يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، قال ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، وعبد آخر يقول له الله عز وجل: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت به، قال: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، فقال: عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك ".

كم من أب مستقيم أطعم أولاده المال الحلال فكان الله حافظاً لأولاده من بعده، وكم من أب جمع الأموال الطائلة، من أجل أولاده، جمعها من حرام، فتلفت بين أيديهم في سنوات، ثم تكففوا الناس من بعده.

ورد في الأثر: أن روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي.

مهما كان الإنسان عالماً هناك من هو أعلم منه :

مهما كان الإنسان عالماً هناك من هو أعلم منه، قال تعالى:

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

[سورة يوسف: ٧٦]

وقال تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

[سورة الإسراء: ٨٥]

ويروى أن عالماً أقبل الناس عليه إقبالاً شديداً، فأثار حفيظة من حوله من العلماء، فجاء أحدهم إلى مجلسه ليصغّرهم، حضر الدرس، وبعد أن انتهى الدرس، قال: يا هذا، هذا الكلام الذي قلته ما سمعناه، من أين جئت به؟.. فقال: هل حصَّلت العلم كله؟ قال: لا، قال: هذا من العلم الذي لم تحصله.

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

[سورة يوسف: ٧٦]

لا تقل أنا، قل فضل الله علي، أكرمني ربي، سمح لي، مكنني أعطاني، أعطاني عن غير حيلة مني، كنْ أديباً في كلامك مع الله كلمة قالها سيدنا موسى ليعلمنا، كما قلت قبل قليل، الأحداث التي تلابس حياة الأنبياء تعليم لنا، ليعلمنا، لا تقل أنا، لا تقل المال يحل كل مشكلة هناك مصائب لا يحلها المال.

إنسان أعرفه، قال في مجلس: الدراهم كالمراهم، تحل كل مشكلة أوقعه الله في ورطة، فقد فيها حريته ستين يوماً في شيء لا يُحتمل.. هناك أمراض عضال لا يحلها المال لا تقل الدراهم كالمراهم، كلمة شرك هذه، لا تعتمد على مالك ولا على قوتك، ولا على أتباعك، ولا على علمك، من اعتمد على قوته ذل، ومن اعتمد على ماله ضل، ومن اعتمد على الله عز وجل لا ذل ولا ضل. يا رب هذا الذي قال أنا ربكم الأعلى.

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: ٤٣-٤٤]

فكيف بالذي قال سبحان ربي الأعلى، لماذا هذه الخصومات بين المسلمين.

يا رب، الذي قال ما علمت لكم من إله غيري: قولا له قولاً ليناً فكيف بالذي يقول لا إله إلا الله. أيها الأخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

* * *

الخطبة الثانية :

الإسلام في ازدياد مستمر وينمو في متوالية هندسية :

أيها الأخوة الكرام، إنَّ ظواهر أحداث الكون، وأحداث الكون أفعال الله، إن ظواهر أحداث الكون لا تدل على حقيقتها فهذه الهجمة الشرسة على المسلمين في كل بقاع الأرض والإسلام في ازدياد مستمر وينمو في متوالية هندسية حتى في قعر البلاد التي تحارب المسلمين.

دققوا في هذه الآية:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[سورة التوبة:٣٢]

هل يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يطفئ الشمس بنفخة وهو على الأرض، لسان اللهب طوله مليون كيلومتر، حرارتها في مركزها عشرين مليون درجة، في سطحها ستة آلاف درجة، هل يستطيع إنسان على وجه الأرض بنفخة منه أن يطفئ نور الشمس، نور الله أبلغ.

اقلق على شيء واحد أن الله سمح لك أو لم يسمح لك أن تنصره :

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[سورة الصف: ٨]

فلذلك لا تقلق على هذا الدين، إنه دين الله، اقلق على شيء واحد أن الله سمح لك، أو لم يسمح لك أن تنصره، سمح لك أو لم يسمح لك أن تكون من جنوده، سمح لك أو لم يسمح لك أن يقدر الله على يدك الخير على هذا اقلق، لأنه:

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

[سورة محمد: ٣٨]

هذا الدين دين الله، هو يتولاه، هو يحفظه، هو يؤيده، هو ينصره ما عليك إلا أن تكون جندياً، واسأل نفسك هذا السؤال كل يوم، ماذا قدمت للمسلمين، ماذا قدمت للإسلام؟.. هل خففت من متاعب المسلمين؟ هل قدمت لهم شيئاً؟ هل نشرت دعوة؟ هل هديت رجلاً؟ هل أنهيت مشكلة؟ هل أحمل هموم المسلمين؟..

إن عدم علمنا بالحقيقة، يجعل صدور بعضنا تضيق بأقدار الله تعالى ولكن لابد من أن نصبر، وينبغي أن نعلم أن لله كلمة في كل أقداره أن لله حكمة، في كل أقداره، وإن غابت عنا ينبغي أن لا نغفل عنها، وأن لا نأخذ الظاهر على أنه كل الحقيقة، وأن الإنسان بعلمه المحدود لا يمكن أن يعرف أين الخير وأين الشر، هل الخير في الدخل الكبير من قال لك ذلك؟ هل الخير في المنزل الواسع؟ هل الخير في المكانة العلية؟ هل الخير في زوجة على مستوى عالٍ جداً مما تتمنى أن تكون؟ من قال لك إن هذا هو الخير؟.. قد يكون الخير كامناً في الشرِّ..

ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك :

ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك والدنيا العريضة، في بعض البلاد حجاب بين الناس وبين ربهم، وبعض الضرورات في بعض البلاد، أكبر باعث إلى الله عز وجل، هناك حالات من الرقي قد تحتاج إلى شدة، لذلك المؤمن في عناية مشددة، خذها بالمعنى اللغوي لا بالمعنى الاصطلاحي، ليس في غرفة العناية المشددة، المؤمن الصادق في عناية مشددة من قبل الله عز وجل، فدع ربك بحكمته ورحمته وعدله وجلاله يقدر لك الخير، وأنت لا تعرف أين الخير.

فلنأخذ قضاء الله وقدره على أنه كله خير:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: ٢٦]

علامة المؤمن أنه مستسلم لقضاء الله وقدره :

لم يقل ربنا بيدك الخير والشرِّ، بيدك الخير، لأن إيتاء الملك خير ونزع الملك خير، الإعزاز خير، والإذلال خير، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، وأننا إذا علمنا شيئاً غابت عنا أشياء.

قل لمن يدعي في العلم معرفة علمت شيئاً وغابت عنك أشياء

***

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: ٢١٦]

علامة المؤمن أنه مستسلم لقضاء الله وقدره، الإيمان بالقدر، يذهب الهم والحزن، اعمل لوجه واحد، يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٦٩ : خ١ -سورة الكهف٣ (أنواع الهدى - قصة أصحاب الكهف) ، خ٢ - قصة عن الصحابة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٨-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى :

في كل القصص الله عز وجل أخفى أسماء أبطالها وجزئياتها :

أيها الإخوة الكرام، في خطبتين سابقتين، تحدثت عن قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر عليهما السلام، وبينت لكم أن هذه القصة تفيد أنه:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة :٢١٦]

لكنَّ سورة الكهف، فيها دروس كثيرة، وخطيرة، فيها قصة أصحاب الكهف، وفيها قصة صاحب الجنتين، وفيها قصة يأجوج ومأجوج وفيها قصة ذي القرنين، ولكل قصة من المعاني والدلالات، والإشارات ما نحن في أمسِّ الحاجة إليه.

سورة الكهف، حقائق أساسية، معروضة بشكل قصص بليغة، قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[سورة يوسف: ١١١]

لكنَّ شيئاً في هذه القصص كلها يلفت النظر، هو أن الله عز وجل أخفى أسماء أبطالها، وأخفى زمان حدوثها، وأخفى مكان حدوثها وأخفى جزئيات كثيرةً من هذه القصص، لحكمة بالغة، ما السبب وما العلة، وما الحكمة، وما الغاية؟..

أبطال القصص يتكررون في كل زمان ومكان إلى نهاية الدوران :

لو أن الله عز وجل، ذكر أسماء أبطال هذه القصص، لتوهم قارئ القرآن أن هذه خصوصية أشخاص، أن هؤلاء الذين حدث لهم ما حدث لن يحدث مرةً ثانية، هذه خصوصية شخص، ولو أن الله جل جلاله ذكر الأمكنة التي وقعت هذه القصص فيها، لتوهم متوهم أن هذه خصوصية مكان، وأنها لن تتكرر بغير هذا المكان، ولو أن الله جل جلاله، حدد زمناً معيناً، لتوهم متوهم، أن لهذا الزمن خصوصية، ولن تقع في زمن آخر، ولو أن جزئيات كثيرة، وردت في هذه القصص، لتوهم

متوهم رابع أن هذه الجزئيات لن تتكرر، هذا الذي يبحث عن أسماء الأشخاص ويجهد، ويبحث عن الأمكنة ويجهد، ويبحث عن الزمان ويجهد ويبحث عن التفاصيل ويجهد، نقول له إنك تسير في طريق مسدود؛ لأن الله ما أراد هذه التفاصيل، ولا أراد الأشخاص بعينهم، ولا المكان بعينه، ولا الزمان بعينه، أراد الحقيقة أن تصل إليك، أراد المغزى، أرادك أن تشعر أن هؤلاء الأشخاص يتكررون في كل زمان ومكان إلى نهاية الدوران، وأن الذي وقع في هذا المكان، يقع في أي مكان آخر في العالم، وأن الذي وقع مع هؤلاء الأشخاص، يقع مع كل الأشخاص إذا توافرت فيهم هذه الشروط.

أراد الله من هذه القصص أن تعدهَّا قوانين :

إن بحثت عن التفاصيل، إن بحثت عن أسماء الأشخاص، إن بحثت عن الأمكنة المحددة، إنك تمشي في طريق مسدود، إنك تخالف حكمة الله عز وجل، حينما أغفل هذه التفاصيل، أراد الله من هذه القصص الحقيقة التي تشع منها، أراد الله من هذه القصص، العبرة التي يمكن أن تستخلص منها، أراد الله من هذه القصص أن تعدهَّا قوانين.

قصة سيدنا يونس مثلاً مركزاً مختصراً فهي ملك لكل مؤمن :

أضع بين أيديكم مثلاً مركزاً مختصراً: سيدنا يونس، فجأةً وجد نفسه في بطن الحوت، في ظلمة بطن الحوت وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل، وهل من مصيبة على الإطلاق أشد من هذه المصيبة، قال تعالى:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

[سورة الأنبياء:٨٧]

انتهت القصة، ليست هذه خصوصية لسيدنا يونس، وليست خصوصية لمكان بعينه، ولا لزمان بعينه، ولا لظروف بعينها، ولكنها ملك كل مؤمن، والدليل تعقيب الله على هذه القصة:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء:٨٨]

أي أيها المؤمن، هل من مصيبة تقلقك في مستوى هذه المصيبة، ومع ذلك، بدعاء خالص، وبقلب منيب، وبصلح مع الله عز وجل، أزيحت هذه المصيبة، لا ينبغي أن تفسد على الله حكمته حينما تبحث عن التفاصيل.

في القصص لا تبحث عن شيء أغفله الله :

من فرعون موسى؟.. هو رمسيس الثاني، ما علاقتك بهذا البحث هذا طريق مسدود، يا ترى يوسف عليه السلام تزوج بامرأة العزيز؟.. ما شأنك بهذا؟ !.. هذه حقيقة خطيرة ـ أيها الإخوة ـ لا تبحث عن شيء أغفله الله، إنك تمشي في طريق مسدود، كان من الممكن أن تغرق في التفاصيل، في أسماء أشخاص القصة، وفي مكانها وزمانها وجزئياتها لكنَّ الله أغفلها لعلم ولحكمة أرادهما، فأنت كن مع مغزى القصة، كن مع الحقيقة..

مرةً وضحت هذه الحقيقة بمثل، لو أن أستاذاً جامعياً في كلية الاقتصاد أراد أن يبين للطلاب عوامل نجاح التجارة، وكان أديباً، فوق أنه عالم اقتصادي، فعرض عوامل نجاح التجارة بشكل قصة، قال لطلابه لي صديق اختار محلاً في موضع تزاحم الأقدام، واختار بضاعةً أساسية في حياة الإنسان، واختار نوعاً جيداً يستعمله هو، يتعامل معه هو، ووضع سعراً معتدلاً، وكانت معاملته للناس طيبة، فربح أرباحاً جيدةً، فتزوج واشترى بيتاً، وأنجب أولاداً، وربى أولاده، وحقق الهدف من هذه التجارة. فسأله طالب يا أستاذ، هذا الذي حدثتنا عنه ما لونه؟ أبيض أم أسمر؟ هذا الذي حدثتنا عنه طويل أم قصير، ما اسمه، ما اسم أبيه؟. هذا الذي يسأل هذه الأسئلة، لم يفهم من الأستاذ حكمته، ولا مغزى هذه القصة التي أرادها الأستاذ تعليماً لطلابه..

في كل القصص الهدف هو الحقيقة التي يمكن أن تستنبطها :

يا أيها الإخوة الكرام، الحقيقة الأولى من كل هذه القصص، قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة يأجوج ومأجوج، وقصة ذي القرنين، كل هذه القصص، أغفل الله أسماء شخصياتها، ومكان حدوث هذه الأحداث وزمان حدوثها وكثيراً من تفاصيلها، أغفلها لحكمة بالغة بالغة، لئلا تكون القصة هدفاً، الهدف هو الحقيقة التي يمكن أن تستنبطها من القصة، آية ثانية:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

[سورة القصص: ١٤]

هذه قصة، لكنَّ تعقيب الله عليها، وكذلك نجزي المحسنين، يعني أي محسن إلى نهاية الدوران، هكذا يُعامل، وأي مؤمن إلى نهاية الدوران لجأ إلى الله بالدعاء الصادق، الله جل جلاله، ينجيه، هؤلاء أصحاب الكهف، إنهم فتية، فتية، وأكرم بالشباب، ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب، " أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد " هذه الحيوية، هذه الطاقات، كلها توجه في الخير، في رضوان الله عز وجل، في طاعة الله.

أول أنواع الهدى أنه هداك إلى مصالحك :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

قال العلماء: هناك هدى الغريزة؛ الله عز وجل هدى الإنسان إلى مصالحه، منعكس المصِّ الذي أودعه الله في الوليد، لولا هذا المنعكس لما كنا في هذا المسجد جميعاً.. هدى الله الوليد طريقة تغذيته يضع شفتيه على حلمة ثدي أمه، ويحكم إغلاقهما، ويسحب الحليب عملية معقدة، ولكن الله هدى الناس إليها بالفطرة، بالغريزة.

إن لك حواساً خمساً تأتيك بكل المعلومات عن المحيط الخارجي، هذه نعمة هداية الله لمصالحك. هذه هداية الله لمصالحك، فأول أنواع الهدى، أنه هداك إلى مصالحك جهاز التوازن، التئام الجروح التئام الكسور، الغرائز الأساسية منعكس المص، الإحساس بالجوع الإحساس بالعطش، هذه كلها غرائز ومنعكسات وحاجات، هداك الله من خلالها إلى مصالحك، هذه الهداية الأولى.

ثاني أنواع الهدى هو هداية الوحي :

والهداية الثانية: هي هداية الوحي الله عز وجل عرفك بذاته، عرَّفك بسرِّ وجودك، عرَّفك بغاية وجودك، عرَّفك بجوهر الحياة الدنيا، عرَّفك لماذا خلقك؛ خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض، هذه هداية الوحي، دققوا الآن: الإنسان حينما يؤمن بالله، ويستجيب له، ويعقد العزيمة على طاعته والتوبة إليه.

ثالث أنواع الهدى هو هداية التوفيق :

تأتيه هداية ثالثة، هداية التوفيق يوفقك الله عز وجل إلى الحقيقة، يشرح صدرك لها، يعطيك وقتاً فارغاً لطلب العلم، يمكنك من النطق بالحقيقة، يجري الخير على يديك، يجمعك مع أهل الحق، ييسر لك السبل، يذلل لك العقبات، يلقي محبتك في قلوب الخلق، هذه الهداية الثالثة..

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

[سورة الكهف: ١٣]

لمجرد أن تختار الهداية، وأن تختار الطاعة، وأن تختار القرب من الله عز وجل، ربنا عز وجل يشرح صدرك، ييسر أمرك، يزيل عن كاهلك كل الضغوط، هذه هداية التوفيق ـ دققوا أيها الشباب ـ لمجرد أن تعقد العزم على طاعة الله، السبل تُيسر لك، يجمعك الله مع أحبابه يعطيك القوة على متابعة طلب العلم، يجري الخير على يديك، يلقي محبتك في قلوب الخلق، يعطيك الشيء الثمين في الوقت القليل، يبارك لك في وقتك، يبارك لك في علمك، يبارك لك في مالك، هذه الهداية الثالثة.

رابع أنواع الهدى هو الهداية إلى الجنة :

وأما الهداية الرابعة، فهي نهاية المطاف إلى الجنة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ *وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

[سورة محمد:٤- ٦]

هداك إلى مصالحك، عن طريق المنعكسات والغرائز، وهداك إليه عن طريق الوحي، وهداك توفيقاً إلى ما اتخذت فيه قراراً، ثم هداك إلى الجنة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

[سورة محمد:١٧]

والإنسان مخيَّر:

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة فصلت: ١٧]

أصحاب الكهف آثروا الكهف على القصور :

قصة أصحاب الكهف، أن هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم خافوا على دينهم، خافوا على عقائدهم، أن يجبرهم القوي على أن يعبدوا غير الله فروا إلى الكهف، كهف في الجبل، مغارة في الجبل، كانوا يسكنون القصور، فآثروا الكهف على هذه القصور، اختبؤوا في هذا الكهف مكان ضيق، لا يستطيع الإنسان أن يمضي فيه إلا وقتاً قصيراً لكنَّ الله عز وجل، منحهم من رحمته في هذا الكهف، فألغى ضيق المكان كان رحباً واسعاً، وألغى ضيق الزمان، فعطل فعل الزمان فيهم، وألغى حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لئلا يبحثوا عن طعامهم فيتبعهم هؤلاء الذين أرادوا قهرهم، وهذه رحمة الله عز وجل، قال تعالى:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا)

[سورة الكهف: ١٦]

أي إذا كنت في عمل لا يرضي الله، ولك فيه شراكة ودخل كبير فأويت إلى وظيفة ذات دخل محدود لكنها ترضي الله، هذه الوظيفة ذات الدخل المحدود مع رحمة الله، خير من كل هذا الدخل غير المحدود مع سخط الله، ماذا نستفيد من هذه القصة في حياتنا اليومية؟..

إذا كنت في بيت يُعصى الله فيه، بيت واسع، فيه كل وسائل الراحة لكنَّ المعاصي تُرتكب فيه كل يوم، فاشتريت بيتاً في طرف المدينة الحياة فيه خشنة جداً، هذا المكان الضيق مع رحمة الله، خير من هذا المكان الواسع مع سخط الله.

هذا العمل ذو الدخل المحدود مع رحمة الله، خير من هذا الدخل الكبير مع معصية الله، هؤلاء الفقراء المؤمنون حينما تأوي إليهم تشعر بالسعادة والراحة، والطمأنينة ما لو كنت مع أغنياء كثر من الشباب المترفين، الذين يغدقون عليك الأموال الطائلة. قضية أصحاب الكهف يجب أن يعيشها المؤمن، لا تُؤْثر الدنيا على الآخرة، تركوا القصور وآووا إلى الكهف، فنشر الله لهم من رحمته كل شيء..

أي مكان مهما يكن ضيقاً سيجعله الله عز وجل رحباً واسعاً :

أيها الإخوة الكرام، كما قلت قبل قليل، مغارة صغيرة، تضيق بهم، وليس في الكهف حَدَث، لو أن إنساناً عزلته في مكان عشرين يوماً، يختل توازنه العقلي ربنا جل جلاله، ألغى تأثير الزمن، وألغى ضيق المكان، فرحمة الله عز وجل جعلت هذا المكان الضيق رحباً واسعاً ورحمة الله عز وجل جعلت هذا الزمن الرتيب زمناً ممتداً.. كل من يفرُّ بدينه إلى مكان غير المكان الذي يقيم فيه، إن هذا المكان مهما يكن ضيقاً سيجعله رحباً واسعاً، وإن هذا المكان مهما يكن ضيقاً في الرزق سيجعل الله فيه رزقاً وفيراً، قال تعالى:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

[سورة النساء: ١٠٠]

كلام رب العالمين، وزوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعده، هناك ألف حادثة وحادثة، تعينك على فهم هذه الخطبة.. قد تسكن في بيت صغير، وتركت البيت الكبير، تركت البيت الكبير الذي لا يرضي الله أن تقيم فيه، وأويت إلى بيت صغير فنشر الله لك من رحمته، فكان هذا البيت قطعة من الجنة.

تركت الدخل الوفير الذي لا يرضي الله، وقبلت بدخل محدود فبارك الله لك في هذا الدخل، وحفظ الله لك صحتك، وأجرى البركة في هذا الدخل القليل. هؤلاء الفتية آمنوا بربهم، فرُّوا بدينهم، خافوا على عقيدتهم، خافوا أن يعبدوا غير الله، خافوا أن يفعلوا شيئاً لا يرضي الله، آووا إلى الكهف، فنشر الله لهم في الكهف من رحمته، وجعل لهم من أمرهم مرفقاً.

الفارُّ بدينه لا يمكن أن يخزيه الله عز وجل :

أيها الإخوة الكرام، الفارُّ بدينه لا يمكن أن يخزيه الله عز وجل، قد يتوافر لك عند أبيك وأمك المترفين حياة تفوق حد الخيال، ولكنَّ المعاصي تُرتكب في هذا البيت، ففررت بدينك إلى مكان ليس فيه شيء من الأساسيات، الله جل جلاله يعاملك كما عامل أصحاب الكهف، إن أصحاب الكهف، نماذج متكررة، يمكن أن تتكرر في كل زمان ومكان.

الفارُّ بدينه، لا يمكن أن يخزيه الله، بل معه رحمة الله، وإن رحمة الله قريب من المحسنين.

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: ٢]

الذي حصل لأهل الكهف في الغار برحمة الله عز وجل :

أيها الإخوة الكرام، هذا الذي حصل لأهل الكهف في الغار، لم يكن من فعلهم، ولا بأسباب اتخذوها، ولكنْ برحمة الله عز وجل، حينما تعلق الأمل برحمة الله، وحينما تعلق الأمل بنصر الله، وحينما تعلق الأمل بتوفيق الله وحينما تعلق الأمل بحفظ الله عز وجل، والله لن يخزيك الله أبداً. السيدة خديجة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ قبل أن تأتيها رسالة السماء، رأت النبي صادقاً، رأته أميناً، رأته يحفظ العهد، ينجز الوعد يقري الضيف، يعين على نوائب الدهر، فلما جاء الوحي قالت: والله لا يخزيك الله أبداً..

ويا أيها الشباب: مهما ضاقت بكم السبل، مهما رأيتم الطرق أمامكم مسدودة، علقوا آمالكم بالله، وكونوا عند الأمر والنهي، احذروا أن يراكم الله في مكانٍ نهاكم عنه، احذروا أن يفتقدكم الله في مكان أمركم أن تكونوا فيه، كونوا مع طاعة الله عز وجل، واللهِ لن يخزيكم اللهُ أبداً، لا تقبل أن تعصي الله لا تقبل دخلاً لا يرضي الله، ضعه تحت قدمك، قل: الله الغني والله جل جلاله يمتحنك، فإذا نجحت يعطيك عطاءً مذهلاً.

الله عز وجل أبطل فعل الزمن في أجسام أهل الكهف :

الله جل جلاله، أبعدهم عن الإحساس بالاضطهاد، حتى لا يعيشوا في قلق ورعب، كما أزال من حياتهم همَّ البحث عن الطعام ألقى عليهم أمنة نعاساً، وألقى عليهم نوماً مديداً، فلا يعثر عليهم أحد ولا يشعرون بالوقت، ولا يحتاجون إلى طعام وشراب..

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

[سورة الكهف : ١٩]

الإنسان في العادة ينام يوماً أو بعض يوم، الإنسان مصمم أن ينام في أحسن الأحوال يوماً بأكمله، نهاراً أو ليلاً.. قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم، الله جل جلاله، بقدرته، وحكمته، ورحمته، أبطل فعل الزمن في أجسامهم، وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود.

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فكن مع الله :

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة البقرة: ٢٥٩]

ليريه آيته العظمى، أبطل الله فعل الزمن في الطعام والشراب:

(فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة البقرة: ٢٥٩]

يعني المؤمن حينما يتعامل مع الله، والله على كل شيء قدير، هو أقوى الناس.

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فكن مع الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن فيما بين يدي الله أوثق منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله.

إعجاز القرآن العلمي في قوله ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال :

أماتهم الله ثلاثمائة عام وتسعة.. أما الشيء الذي يلفت النظر أن الله عز وجل يقول: ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، وهذا من إعجاز القرآن العلمي، فالإنسان إذا استلقى على فراشه، هيكله العظمي، مع العضلات التي فوق الهيكل العظمي، تضغط على العضلات التي تحت الهيكل العظمي، فالأوعية الدموية تضيق لمعتها، وتضعف التروية ويشعر الرجل بما يُسمى بالتنميل، إذا جلس الإنسان جلسة معينة، مدةً طويلة، يشعر بالتنميل في رجليه، يعني ضعفت التروية، ربنا جل جلاله هيأ في الجسم مراكز الإحساس بالضغط، هذه المراكز حينما تنضغط تعطي إشارةً إلى الدماغ، الدماغ وأنت نائم، وأنت غارق في النوم، يعطي أمراً إلى العضلات، فتتقلب ذات اليمين مرةً، وذات الشمال مرةً أخرى، وقد صُور نائم دون أن يشعر، فتقلب أكثر من ثمانية وثلاثين مرةً

في الليلة الواحدة، الإنسان إذا جلس على جنب واحد لو أنه أصيب بالسبات، أو لو أنه مُنع من الحركة، خلال أيام يتفسخ لحمه، ويصاب بقرحة الفراش، كما يُسميها الأطباء، الآن يوجد فرش تعمل على الكهرباء، تقلب الإنسان يمنةً ويسرة لهؤلاء الذين أصيبوا بالسبات، فأصحاب الكهف، لولا أنهم يتقلبون لتفسخت أجسامهم، هذا من نعمة الله عز وجل أن في جسم الإنسان في كل مكان نقاط تحس بالضغط، وهذه النقاط ترسل إشارة إلى الدماغ، والدماغ يرسل أمراً إلى العضلات، فالإنسان يتقلب في اليوم أكثر من ثمانية وثلاثين مرة، هذا التقلب سبب سلامته، وإلا فتفسخ اللحم، وقرحة الفراش تنتظر الإنسان الذي يجلس على حالة واحدة.

الإنسان حينما ينام كل أجهزته تتعطل إلا جهاز السمع :

الإنسان ـ أيها الإخوة ـ حينما ينام كل أجهزته تتعطل إلا جهاز السمع فهو جاهز لاستقبال أي صوت، أنت كيف توقظ النائم؟.. صوت عالٍ العين تُغمض، الإحساسات كلها تتعطل، بل إن السيالة العصبية في جسم النائم تتباعد الأعصاب، فينقطع استمرار السيالة العصبية، فإذا جاء صوت قوي، هذه المسافة بين الأعصاب، يتغلب عليها الصوت القوي فيقفز إلى الطرف الآخر، فيصل الصوت إلى الإنسان، فيستيقظ، من أجل أن يناموا نوماً مريحاً لمدة طويلة، ثلاثمائة عام، قال:

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)

[سورة الكهف: ١١]

وهذه آية ثانية، جهاز استقبال الصوت أغلق، جهاز الإيقاظ أغلق لذلك قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[سورة يونس: ٦٧]

وأي إنسان يحدث جلبة، وضجيجاً في الليل، هذا يعتدي على حق الناس في النوم.

قصص القرآن نموذجاً بشرياً قابلاً ليتكرر في كل زمان ومكان :

إغفال الزمان، وإغفال المكان، وإغفال الأشخاص، والتفاصيل من أجل أن لا تعدَّ هذه قصة وقعت ولن تقع، بل من أجل أن تعدَّ هذه قصة نموذجاً بشرياً قابلاً ليتكرر في كل زمان ومكان، دققوا في هذه الآية:

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

[سورة الكهف: ٢٢]

هؤلاء الذين يبحثون عن العدد، يسيرون في طريق مسدود، كان من الممكن أن يقول الله بآية واحدة لقد كانوا ثمانية، انتهى الأمر، أغفل الله عددهم لحكمة بالغة، والناس يسيرون في طريق آخر لا يرضي الله عز وجل.

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

[سورة الكهف: ٢٢]

الدنيا كلها تأتيك وهي راغمة حينما تضحي من أجل دينك :

يا أيها الإخوة الكرام، علاقتنا بهذه القصة، بهذا الدرس البليغ، بدرس أصحاب الكهف بدرس سورة الكهف، علاقتنا بهذه القصة بالذات؛ أن فرَّ بدينك، حافظ على دينك، حافظ على طاعتك، حافظ على عبادتك، دينك دينك إنه لحمك ودمك خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا، إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، وحينما تضحي بشيء من أجل دينك فإن الدنيا كلها تأتيك وهي راغمة:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[انفرد به الترمذي عن أنس بن مالك]

العبرة أن تتخذ هذا القرار الصحيح، القرار العقلاني، القرار الموفق أن ترجو رحمة الله، وأن ترجو طاعة الله، وأن ترجو رضوان الله وكل شيء بعدها في خدمتك:

من أحبنا أحببناه ومـن طلب منا أعطيناه

ومن اكتفى بنا عما لنا كنَّا له وما لنـــا

***

في زمن الفتن آوي إلى بيتك واعبد الله فيه :

الإنسان أحياناً في زمن الفساد، في زمن ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، في زمن نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات فالعنوهن فإنهن ملعونات، في زمن المال الحرام، في زمن كل ما يغضب الله عز وجل، في زمن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر في زمن " يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها قيل أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله،

قال: لا أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، في زمن الفتن، في زمن الشرود عن الله، في زمن تطبيق مناهج الأرض، في زمن رفض مناهج السماء، في مثل هذا الزمن فرَّ بدينك آوي إلى مسجد تركن إليه، آوي إلى حقيقة تلوذ بها، آوي إلى أخ مؤمن يعينك على دينك، آوي إلى بيت الله، إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر.

آوي إلى بيتك واعبد الله فيه، كلٌ منا له بيت، وبإمكانه أن يصلي في بيته، وأن يقرأ القرآن في بيته، وأن يسمع العلم في بيته، فأووا إلى الكهف، ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً، إذا كان عملك لا يرضي الله، فابحث عن عمل يرضي الله، وليكن هذا العمل الثاني كهفاً لك، إذا كان البيت الذي تسكنه، تُرتكب فيه المعاصي، فابحث عن بيت صغير يكون كهفاً لك لينشر الله لك من رحمته، إذا كان لك مجتمع لا يرضي الله، فابحث عن مجتمع ولو كانت دنياهم متواضعة، ولو كانوا فقراء، قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام:

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

[سورة هود: ٢٧]

قصة أصحاب الكهف منهجاً للإنسان في حياته اليومية :

أيها الإخوة الكرام، قصة أصحاب الكهف، يمكن أن تُوسع كثيراً، لتكون منهجاً للإنسان في حياته اليومية.. ابحث عن طاعة الله، ابحث عن الاتصال بالله ولا تعبأ في الدنيا، فاركلها بقدمك، الله عز وجل ينشر لك من رحمته ويهيئ لك من أمرك مرفقاً، هذه قصة أصحاب الكهف، آثر ما عند الله على الدنيا، هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم، وزادهم الله هدىً جعلهم الله موعظة لكل الخلق، أبطل فيهم فعل الزمان، وأبطل فيهم حاجتهم إلى الطعام والشراب، وأنامهم نوماً مريحاً، وأكسبهم رضوانه.

وطبعاً كل إنسان يؤثر طاعة الله، له عند الله إكرامٌ لا يراه ظاهراً ولكن في النهاية يصل إليه.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

* * *

الخطبة الثانية :

قصة صحابي جليل أسره الكفار :

أيها الإخوة الكرام، قصة عن صحابي جليل، مؤثرة أبلغ التأثير فيما رواه الإمام البخاري:

((عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، سرية وأمر عليها عاصم ابن ثابت الأنصاري، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدئة وهو بين عسفان ومكة، ذُكروا لحي من هذيل يقال لهم بنوا لحيان، فنفروا لهم قريباً من مئتي رجل، كلهم رامٍ، فاقتصوا آثارهم، حتى وجدوا مأكلهم تمراً تزودوه من المدينة، فقالوا هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه، لجؤوا إلى فدفد (مكان مرتفع) فأحاط بهم القوم، وقالوا لهم انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق لا نقتل منكم أحداً..))

[البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

يمكن أن نستنبط من هذه القصة عشرات الحقائق.

((انزلوا وأعطونا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق لا نقتل منكم أحداً))

لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له :

ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، من لا عهد له لا دين له ومن لا دين له لا عهد له.

((...قال عاصم أمير السرية أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموهم بالنبل، فقتلوا عاصم في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصاري وابن الدثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم، فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث، هذا أول الغدر والله لا أصحبكم إن لي في هؤلاء لأسوة (يريد القتل) فجرجروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى، فقتلوه بقي اثنان، فانطلقوا بخبيب وابن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيباً بنوا الحارث...))

[البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((...وكان خبيب هو قاتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً تمهيداً لقتله فأخبرني عبيد الله ابن عياض، أن بنت الحارث أخبرته ....))

الآن دققوا في أخلاق الصحابة في أخلاق هذا الأسير، في هؤلاء الرجال الذين رباهم رسول الله، ماذا فقدنا اليوم؟ !. مساجد موجودة، مكتبات موجودة مظاهر إسلامية صارخة موجودة، لكن هذه

الأخلاق، التي ربى عليها النبي أصحابه هذه المفقودة، لذلك فقدنا دفاع الله عنا، فقدنا الاستخلاف، فقدنا التمكين فقدنا التطمين، فقدنا النصر، هذا الأسير يعلم علم اليقين أنه مقتول لا محالة .

((...فأخبرني عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته، أنهم حين اجتمعوا استعار منها خبيب موسى ليستحد بها قبل موته، ليلقى الله طاهراً. ...))

[البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

المؤمن لا يقتل طفلاً :

((...فأعارته فأخذ ابناً لي وأنا غافلة حين أتاه ...))

لها ابن صغير سار نحوه، وهو مقيد في الحديد.

((...قالت: فوجدته مجلسه على فخذه ...))

هذا الأسير بيده موسى، وابن الذي سيقتله على حضنه وبيده موسى، وهو يعلم علم اليقين أنه مقتول لا محالة،

((... ففزعت فزعة عرفها خبيب ...))

فزعت أنه سيذبحه، لأنه مقتول،

((فعرف خبيب في وجهها هذه الفزعة، فقال تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل هذا، قالت: والله ما رأيت أسيراً قط خير من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر إطلاقاً، وكانت تقول، إنه لرزق من الله رزقه خبيباً))

هم سيقتلونه ويعلمون أنه على حق، سيقتلونه ويعلمون أنه قريب من الله عز وجل،

((فلما أخرجوه من الحرم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب ذروني أركع ركعتين، فتركوه فركع ركعتين ثم قال، لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتهما، اللهم أحصهم عددا واقتلهم بدداً، ولا تغدر منهم أحداً))

[البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

وما أبالي حين أقتل مسلماً

على أي شق كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإلهي وإن يشأ

يبارك على أوصال شلو ممزع

***

خبيب هو من سنّ ركعتين لكل امرئ مسلم قُتل صبراً :

((...فقتله ابن الحارث، فكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرئ مسلم قُتل صبراً، فاستجاب الله لعاصم ابن ثابت، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام، فأخبر أصحابه خبرهم، وما أصيبوا به، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم، ليأخذوا منه مزعة لحم فما استطاعوا..))

[البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

أيها الإخوة الكرام، إذا كان الله عليك فمن معك؟ وإذا كان الله معك فمن عليك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ هذا الذي كان في سكرات الموت، سعد بن الربيع، تفقده النبي فلم يره أرسل إلى ساحة المعركة من يتفقده، قال له أحد الأصحاب، يا سعد هل أنت من الأحياء أم من الأموات؟ قال من الأموات، ولكن أبلغ رسول الله مني السلام، وقل له جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أصحابه وقل لأصحابه لا عذر لكم إذا وُصل إلى نبيكم وفيكم عين تطرف..

طريق الإيمان طريق السعادة :

أيها الإخوة الكرام، طريق الإيمان طريق السعادة، طريق الحفظ، طريق التوفيق، طريق النصر، طريق العز، وأصحاب الكهف قدوة لنا، فرَّ بدينك إلى مكان تطيع الله فيه، إلى أصدقاء يعينوك على طاعة الله، لا على معصية الله لا تبحث عن الدنيا مع المعصية، ابحث عن الطاعة، وتأتيك الدنيا وهي راغمة.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٧٠ : خ١ -سورة الكهف٤ (قصة أصحاب الجنتين - الناجحون في الحياة) .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٨-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى :

الله عز وجل خلق الإنسان ليسعده في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة الكرام، أي إنسان كائناً من كان، بأية صفة، وبأي مكان، وبأية مكانة مطلوب من قبل الله عز وجل، مطلوب ليسعده في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود :١١٩]

فكل الفئات، وكل الطبقات إن صح التعبير، وفي كل الظروف، وفي كل الأحوال، وفي كل المناسبات، أنت مطلوب من قبل الله عز وجل إن كنت مريداً لله، أنعم وأكرم بهذا الطلب العظيم، وإن لم تكن فأنت مُراد من قبل الله..

حينما تعزو النعمة إليك وقعت في مطبٍ كبير :

هذه الخطبة، تتوجه إلى فئة من المجتمع، إلى فئة الناجحين في الحياة الذين حققوا أهدافهم كاملة، قد تكون هذه الأهداف مادية؛ كالذي وصل إلى حجم مالي كبير، وقد تكون هذه الأهداف علمية؛ كالذي وصل إلى درجة علمية عالية جداً، وقد تكون هذه الأهداف من حيث القوة والشأن، هؤلاء الذين وصلوا إلى قمم المجد، وصلوا إلى أهدافهم كاملة، هؤلاء معرضون لمرض خطير، هؤلاء معرضون لمرض الغرور، لمرض أن يتوهموا أن هذا الذي حصَّلوه بقوتهم، وسعيهم وجدهم، ونشاطهم وخبراتهم.

حينما تعزو النعمة إليك وقعت في مطبٍّ كبير، حينما تعزو هذه النعم التي هي بقدر الله، وبعلم الله، وبقوة الله، وبتوفيق الله وبفضل الله حينما تعزو هذه النعم إليك، وقعت في مطبٍّ كبير وعندئذ يستحق الإنسان التأديب.

قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف :

هؤلاء الأعلام، هؤلاء اللامعون، هؤلاء المتفوقون، هؤلاء النجوم بكلمة واسعة، نجوم المجتمع، هؤلاء المتألقون، هذه الخطبة لهم اليوم هذا التألق، وذاك النجاح، وذاك التفوق، قد يعزيه الإنسان إلى ذاته فيقول: إنما حصلته بخبرتي، بعلمٍ مني، بكد وسعي، لذلك كان الدرس الثالث من دروس سورة الكهف، قصة صاحب الجنتين:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا* وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)

[سورة الكهف: ٣٢-٤٤]

هذه قصة أغفل الله أسماء أصحابها، وزمانها، ومكانها، وجزئياتها لأنها نموذج متكرر، في كل عصر، في كل مصر، هناك من يقول أنا هناك من يقول: إنما أوتيته على علم عندي هذا الذي يرى النعمة ولا يرى المنعم، القصة اليوم له.. وهو منزلق خطير، قد تدخل إلى المسجد وقد تصلي، وأنت معجب بنفسك، ترى أنك حصلت شيئاً ثميناً بقدراتك الذاتية، وتنسى فضل الله عليك.

قصة الغرور البشري بالنعمة قصة متكررة في كل زمان ومكان :

هذه القصة، وهذا التعليق ـ أيها الأخوة ـ قصة الغرور البشري بالنعمة قصة متكررة، فالمغتر لا يأخذ النعمة بالشكر، بل بالغرور، ويتوهم أنه حصل عليها بفكره وعمله، وأنه بها قد استغنى عن الله، الذي خلقه وخلق له هذه النعمة، وأعطاه القدرة على التمتع بها.. قد تملك المال وقد تشتري الطعام، ولا يسمح الله لك أن تستمع بالطعام، قد تتزوج وتنجب الأولاد، ويكون الابن عبئاً عليك، سبباً لشقائك؛ لأن الله جل جلاله بيده كل شيء.

النعم التي يتمتع بها الإنسان من الله عز وجل وحده :

أيها الأخوة الكرام، هذا الذي يتوهم أن هذه النعم جاءته بذكائه، بقدراته بسعيه، بكده وينسى فضل الله عليه، يحاول أن ينميها، وأن ينمقها، ويحسب أنه في مَنَعة من قضاء الله.. فليدقق في هذه الآية:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: ٦-٧]

أكبر مطبٍّ يقع به الإنسان، أن يتوهم أنه مستغنٍ عن الله، أن يتوهم أنه وصل إلى شيء، أو أنه يقف على أرض صلبة:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: ٦-٧]

الغرور البشري يوهم الإنسان أنه قادر :

والآية الثانية:

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)

[سورة الإسراء: ٨٣]

أعرض عن الله، نسي ربه، نسي كتابه، نسي أمره ونهيه، نسي المصير، نسي الجنة والنار.

الغرور البشري يوهم الإنسان أنه قادر، ويستطيع أن يفعل ما يريد وأن الأرض تعطيه من كنوزها، بقدرته هو، وينسى أن كل شيء في الكون خاضع لقدرة الله، وأن الأشياء التي تعطيه إنما سخَّرها الله له وسمح لها بأن تعطيه.. قال تعالى:

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا)

[سورة الكهف: ٢٣-٢٤]

من عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، من قال بعفوية، غداً سأفعل كذا، غداً سأدفع فاتورة الهاتف، ونسي أن غداً لا يملكه، " من عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت.

الإنسان لا يملك البقاء إلى اليوم التالي :

يا أيها الأخوة الكرام، يجب أن يعلم الإنسان علم اليقين، أنه لا يضمن القدرة على الفعل إطلاقاً، لأنك لا تضمن بقاءك إلى الغد، وإذا ضمنت بقاءك إلى الغد لا تضمن بقاء الذي تعلّق الأمل عليه إلى الغد..

أعرف رجلاً وقع في محنة، وعلّق أمله على إنسان، لينقذه في يوم محدد، وفي اليوم الذي سبق هذا اليوم، وافت المنية من علق الأمل عليه.

لا تملك بقاءك إلى اليوم التالي، كما أنك لا تضمن بقاء الذي علقت عليه الأمل إلى اليوم التالي. لو ضمنت بقاء الاثنين، أنت والذي علقت الأمل عليه، لا تضمن الظروف، فقد تأتي الظروف وتحول بينك وبينما تريد.

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا)

[سورة الكهف: ٢٣-٢٤]

عناصر الفعل هي في يد الله عز وجل :

عناصر الفعل ليست بيدك، إنما هي في يد الله، فالذي ينسى أن يقول إن شاء الله، فقد وقع في مطبٍّ كبير، وقع في الشرك وهو لا يدري نسب القدرة إلى ذاته، يظن أنه ضمن المستقبل، أو ملك المستقبل.

الله جل جلاله أزلي أبدي، دائم الوجود دائم القدرة، فعَّال لما يريد لا يستطيع أحد من خلقه أن يمنع قضاءه وقدره، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر: ٢]

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: ١٠]

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: ٦٢]

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأعراف: ٥٤]

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: ١٢٣]

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: ١٧]

أي منصب تصل إليه بفضل الله عز وجل :

وقد ورد في الحديث:

((عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[انفرد به أحمد عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ]

هذا الخطاب موجه إلى المتألقين إلى الناجحين، إلى الذين وصلوا إلى أهدافهم، يجب أن لا تغيب عنك لحظة هذه الحقيقة، أنك وصلت إلى ما وصلت إليه بفضل الله عليك، قال تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: ١١٣]

الضحك فضل من الله عز وجل :

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

[سورة النجم: ٤٣]

حينما تجلس في البيت، وتضحك مع أهلك، سمح الله لك أن تضحك ولو أن هناك خبراً سيئاً، يذهب الضحك كلياً من وجه الإنسان، سمح لك أن تضحك، طمأنك، سمح لك أن تكون مسروراً.

الإنسان الغافل ينسب الأفعال والنعم إلى ذاته :

الإنسان الغافل ينسب الأفعال والنعم إلى ذاته، وينسى الله عز وجل ماذا يفعل الله معه؟ حرصاً عليه، رحمة به، تقريباً له، إنقاذاً له من هذا الشرك، يؤدبه كيف يؤدبه؟ يؤدبه ويؤدب الناس من حوله، فيأخذ النعمة منه فجأةً، أو يأخذها لسبب صغير، خطأ صغير.. ترتب عليه مئتا مليون مثلاً، يجب أن يدفعها فوراً، خطأ صغير يأخذ النعمة منه أو يأخذ صاحب النعمة، ليكون عبرةً لمن حوله، كل هذا ليلفتنا إلى أن كل شيء بيد الله، وأن الأسباب التي تُعطى إنما تعطى بقدرة الله انظروا إلى قول قارون، ودققوا فيه:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

[سورة القصص: ٧٨]

الآية الثانية:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

[سورة القصص: ٨١]

حينما يشرك الإنسان بالله يقصمه الله عز وجل :

قد يرتكب الإنسان معصية كبيرة يستغفر الله ويتوب، أما حينما يشرك يقصمه الله عز وجل. لو كان قارون صادقاً فيما يقول:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

ينبغي أن يحفظ هذه النعمة، لأنها ملكه، لو كان قارون صادقاً فيما يقول يجب أن يحفظ حياته، قال تعالى:

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة الواقعة: ٨٣-٨٧]

أحد أسباب زوال النعم أن تعزوها إلى قدراتك و ذكائك :

من يملك حياته بعد ساعة، من يملك أن يشفي نفسه من مرض عضال ولو كان يملك الملايين، ولو كان يملك الأرض كلها.

قارون لم يقدر على إبقاء النعمة، كما أنه لم يقدر على إبقاء حياته قال تعالى:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

[سورة القصص: ٨١]

إذاً: أحد أسباب زوال النعم، أن تعزوها إلى قدراتك، أن تعزوها إلى ذكائك، أن تعزوها إلى علمك، أن تعزوها إلى خبرتك، أن تعزوها إلى ظروف تملكها، هذا سبب أول من أسباب زوال النعم..

الغرور هو المطب الكبير الذي ينتظر كل ناجح في الحياة :

كنت أقول سابقاً: طريق القمة طريق صعب جداً، طرقات صاعدة وملتوية، فيها الأكمات، وفيها العثرات، وفيها الحفر، وفيها الوحوش ولكنك إذا وصلت إلى قمة أي شيء بجهد جهيد، هناك طريق زلق تهبط به إلى القاع في ثانية واحدة، إنه طريق الغرور، المطب الكبير الذي ينتظر كل ناجح في الحياة هو الغرور.

منع حق الفقير سبب لزوال النعم :

أيها الأخوة الكرام، قال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً)

[سورة الإسراء: ٨٠]

لمَ لم يقل ربنا جل جلاله، رب اجعلني صادقاً، أليس في هذا إيجازاً؟ قد تدخل مدخلاً صادقاً، ولا تخرج منه صادقاً، قد تنشئ مشروعاً خيرياً وأنت في وسط المشروع ترى الأموال بين يديك، فيقسو قلبك فيتحول هذا المستشفى الخيري إلى مستشفى ابتزازي، قد تدعو إلى الله وفي أثناء الدعوة تقصر في متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تزل القدم، لا تخرج من هذه الدعوة صادقاً، تدخلها صادقاً ولا تخرج منها صادقاً، مطب الغرور أكبر مطبٍّ يصيب الناجحين، في كل الحقول إطلاقاً، سبب آخر لزوال النعم، أن تمنع حق الفقير، أن تمنع أصحاب الحقوق من حقوقهم، أصحاب البساتين والمزارع، مشاريع ضخمة جداً.. قال تعالى:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ* فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

[سورة القلم: ١٧-٢٠]

أحياناً يتلف الصقيع محاصيل كثيرة باهظة الثمن. قال تعالى:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

[سورة القلم: ١٩-٢٧]

دهشوا، صعقوا، ليست هذه بساتيننا، ثم تأكدوا أنها بساتينهم..

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة القلم: ٢٦-٣٣]

كل أنواع العذاب التي يسوقها الله لعباده ليدفعهم إلى بابه :

أجمل تعقيب على هذه القصة هو قوله تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة القلم: ٣٣]

كل أنواع العذاب التي يسوقها الله لعباده، من هذا النوع، ليدفعهم إلى العبودية الصادقة، ليدفعهم إلى بابه، ليسعدهم، لذلك قال بعض علماء التوحيد: لا ينبغي أن تقول (الله الضار) الضار من أسمائه، ينبغي أن تقول (الضار النافع) يبغي أن تقول (الخافض الرافع)؛ لأنه يخفض ليرفع يبغي أن تقول (المذل المعز)؛ لأنه يذل ليعز، يبغي أن تقول (المانع المعطي) لأنه يمنع ليعطي.. يقول الله جل جلاله، كما قلت في أول درس من دروس الكهف:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة : ٢١٦]

فأحد أسباب زوال النعم، أن تمنع حق الفقير..

التولي و التخلي :

أيها الأخوة الكرام، فكرة فاتتني في الموضوع الأول؛ أصحاب النبي وهم على ما هم عليه من رفعة الشأن والقرب من الله، قالوا كلمة قبيل غزوة حنين قالوا: لن نُغلب من قلة، أصبحنا أقوياء، ثم جاءهم من الله التأديب قال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة: ٢٥]

أيها الأخوة الكرام، بدر وحنين، في حياة كل مؤمن في اليوم مائة مرة، إذا قلت الله تولاك الله، أنت موحد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، وإذا قلت أنا تخلى عنك، من اتكل على نفسه أوكله الله إياها، فرق بين الإيمان والشرك، أن تقول الله، أو تقول أنا، فإذا قلت أنا تخلى الله عنك فأنت بين التولي والتخلي، والأمر إليك، إذا وحدت تولاك، إذا أشركت تخلى عنك، هذا درس بليغ، لم ينجُ أصحاب رسول الله من التأديب.

من أخذ بالأسباب واعتمد عليها وألهها فقد أشرك :

أيها الأخوة الكرام، صاحب الجنتين، أخذ بالأسباب، وأعطته هذه الأسباب هاتين الجنتين ولكن نسي إرادة المسبب، نسي أن هذه الأسباب لا تعطي إلا بأمر الله نسي أن هذه الأسباب لا تعطي إلا إذا سمح الله لها أن تعطي، لذلك:

من أخذ بالأسباب واعتمد عليها وألهها فقد أشرك، ومن لم يأخذ بها فقد عصى.. يجب أن تأخذ بالأسباب، ويجب أن تتوكل على الله، يجب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ويجب أن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، هذا الموقف الدقيق وقفه النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة، أخذ بكل الأسباب، اختار مصاحباً، اختبأ في غار ثور، عين من يأتيه بالأخبار، عين من يمحو له الآثار، اختار دليلاً ورجح فيه الخبرة على الولاء، فعل كل شيء، ولما وصل المشركون إلى باب الغار، قال له الصديق يا رسول الله، ولو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا، قال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما..

لو أنه اخذ بالأسباب واعتمد عليها، ينبغي أن ينهار في هذه اللحظة أخذ بالأسباب طاعةً لله، واعتماده على الله دائماً، وهذا منزلق خطير أحياناً الناجح في حياته، يأخذ بالأسباب، وهذه الأسباب تعطيه، ولكن ينسى أن الله سمح لها أن تعطيه، وقع في الشرك، يؤدب بإحباط عمله يؤدب لأن هذه الأسباب التي يأخذ بها لا تعطيه ما يريد في بعض الأحيان هنا يُدهش، أنك اعتمدت عليها ولم تعتمد على الله عز وجل لذلك إما أن يعطلها، أو أن يلغي نتائجها، وهذا تأديب من الله عز وجل. يعني بكلمة جامعة مانعة؛ الغرب أخذ بالأسباب، ألّه الأسباب والمسلمون تركوا الأسباب، وكلاهما في خطأ كبير، يجب أن نأخذ بها وكأنها كل شيء ويجب أن نتوكل على الله وكأنها ليست بشيء..

حينما تعزو النعم إليك وتبخل بها تُحرم منها تأديباً :

قد يسأل سائل: لماذا يؤدبنا ربنا عز وجل إذا أشركنا؟.. لأنه يريدنا له؛ لأن السعادة كلها عنده، لأن السلامة عنده، لأن الجنة والنار عنده فحينما يؤدبنا فلكي ندع الشرك، كي نلتفت إليه، كي نسعد بقربه، والله عز وجل كما ورد في الحديث القدسي الصحيح:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذرٍّ]

كلمة جافية، قاسية، بشعة أن يقول: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً..قصة رمزية سمعتها؛ رجل يجلس مع زوجته يأكل دجاجة، طرق طارق فتحتِ الباب فإذا بالباب سائل، قال لها: من مال الله، فهمَّت أن تعطيه قطعة من هذه الدجاجة ليأكلها فنهرها زوجها، وقال: اطرديه فطرَدَته. بعد حين ساءت العلاقة بينهما فطلقها، وبعد حين آخر خطبها رجل ميسور، وكانت تجلس معه على الطعام ويأكلون دجاجة، طُرق الباب ذهبت لتفتح الباب فإذا بالباب سائل، فاضطربت، قال: مالكِ اضطربتِ؟ قالت: إن بالباب سائلاً، قال: هناك شيء آخر، قالت: أتدري من هو السائل؟ إنه زوجي الأول، قال أتدرين من أنا؟ أنا السائل الأول !.. حينما تعزو النعم إليك، وتبخل بها، تُحرم منها تأديباً:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام: ١٤٧]

الابتعاد عن تقمص دور الإله :

الشيء الأخطر أن صاحب الجنتين قال لصاحبه:

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا)

[سورة الكهف: ٣٤]

كلمة جافية، قاسية.. رجل أظن به الصلاح والإيمان، قال خطأً في سهرة مع أصدقائه: أنا لن أموت قريباً، قيل له لماذا؟ قال لأنني آكل قليلاً وأمشي كثيراً، ولا أدخن، ولا أحمِّل الأشياء فوق ما أطيق.. وهذا كلام علمي - هذه أسباب طول العمر - تكلم هذا يوم السبت، فكان في السبت القادم تحت أطباق الثرى..

إياك أن تحكم على الله، إياك أن تتقمص دور الإله، إياك أن تحكم على المستقبل، إياك أن تقول أنا..

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا)

[سورة الكهف: ٣٤]

ويا ليته بقي عند هذا الحد ولكنه قال:

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)

[سورة الكهف: ٣٤]

الكافر ينتقل من حال صعب مع الله عز وجل إلى حال أصعب :

الآن حكم على المستقبل، ارتكب حماقة في الحاضر قال: أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً، والآن حكم على المستقبل، قال: وما أظن أن تبيد هذه أبداً انتقل إلى أصعب، قال: وما أظن الساعة قائمة، نفى قيام القيامة، نفى البعث، نفى الآخرة، وفرضاً لو كان هناك يوم آخر:

(وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)

على ماذا اعتمد، اعتمد على فكرة يعتنقها معظم الأغنياء، يعني إذا أحب الله عز وجل إنساناً جعله غنياً، وإذا أحب إنساناً أطلعه على ملكه فكل إنسان اغتنى، وسافر إلى أطراف الدنيا، يتوهم في سذاجة أن الله يحبه، فحينما أغناه قال:

(وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)

مع أن الله عز وجل يقول:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر : ١٥-١٦]

سيقول هو ربي أكرمني، كلا.. هذه أداة ردع ونفي، هذا كلام غير صحيح، هذا كلامكم هذه مقولتكم، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء..

النعمة والنقمة بعد العرض على الله عز وجل :

أي شيء تملكه إياك أن تسميه نعمة، بل هو ابتلاء، فإذا وظفته في طاعة الله فهو نعمة ورب الكعبة، وإذا وظفته في المعاصي والآثام فهو نقمة ورب الكعبة، إياك أن تسمي المال عطاء، المال الذي أنفق في طاعة الله هو العطاء، أما إذا أنفق على الملذات والمعاصي والآثام هو الغنى المطغي، وهو أحد أكبر المصائب في الدنيا، الغنى المطغي.. الصحة، إذا استخدمتها في طاعة الله كانت نعمة، وإذا استخدمتها في المعاصي والآثام كانت نقمة، أي حظوظ الدنيا، نعمة أو نقمة، نعمة إذا وظفت في طاعة الله، ونقمة إذا وظفت المعاصي والآثام.. فهذا صاحب الجنتين توهم أن الله يحبه لأنه أغناه، فإذا كان هناك جدلاً يوم قيامة؛

(وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)

هذا الوهم الرابع..

المؤمن لا يحزن على الماضي ولا يخاف من المستقبل :

الذي يقلق الناس، إما أن تزول النعمة عنهم، أو أن يزولوا عنها، لو شققت على صدر خمسة آلاف بليون إنسان في الأرض هناك قلقان أن تزول هذه النعمة، أو أن يزول هو عنها بالموت، لذلك يحرص الناس على أرزاقهم، وعلى النعم التي بين أيديهم وعلى حياتهم حرصاً لا حدود له، لكنَّ المؤمن معافى من هذين المرضين، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: ٣٠]

الماضي مغطى بعدم الحزن على ما فاتك منه، والمستقبل مغطى بعدم القلق والخوف:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: ٥١]

هناك أغنياء مؤمنون تتمنى الغنى من تواضعهم، وسخائهم، وحبهم للخير، وإنفاقهم المعتدل أنا لا أعمم أبداً إن الغني الشارد عن الله عز وجل، أما الغني المؤمن تتمنى أن تكون مثله غنياً، بهذا التواضع وذاك السخاء، وهذه الرحمة وهذا الإنفاق المدروس، دون زيادة، ودون تبذير، ودون إسراف.

الله عز وجل يعذب الغني الكافر بماله :

يقول الله عز وجل رداً على زعم هؤلاء الأغنياء غير المؤمنين بأن الله يحبهم:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

[سورة التوبة: ٥٥]

دقق الآن؛ يريد الله أن يعذب الغني بماله، الغني الكافر قد يكون ماله سبب قتله، وقد يكون ماله سبب شقائه، وقد يكون ماله سبب سجنه:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

يعذبهم الله حتى بأولاده، فجور أولادهم، وانحراف أولادهم قد يكون سبباً في شقائهم.

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآَيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا* كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)

[سورة مريم: ٧٧-٨٠]

المؤمن ينظر إلى المنعم بينما غير المؤمن ينظر إلى النعمة :

أيها الأخوة الكرام، المؤمن ينظر إلى المنعم، لا إلى النعمة، بينما غير المؤمن ينظر إلى النعمة لا إلى المنعم، المؤمن يعلم أن المنع قد يكون أعظم العطاء، ربما كان المنع عطاء، وربما كان العطاء منعاً، وغير المؤمن يرى العكس.

الإيمان سعادة كبرى، رؤية صحيحة، والإيمان مرتبة أخلاقية والإيمان مرتبة جمالية.. حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني والحمد لله رب العالمين.

* * *

الخطبة الثانية :

قراءة سورة الكهف في كل جمعة يعيننا على التوحيد :

أيها الأخوة الكرام، أقرا عليكم الآيات مرةً ثانية كي نربط الشرح بنص الآيات:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا* وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا* هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)

[سورة الكهف: ٣٢-٤٤]

أيها الأخوة الكرام، هذا هو الدرس الثالث من دروس سورة الكهف، الذي ندبنا النبي أن نقرأها كل يوم جمعة، إنها متعلقة بحركتنا في الحياة اليومية، متعلقة بحالتنا النفسية، متعلقة بإقبالنا على ربنا، متعلقة بالشرك والتوحيد فأرجو الله سبحانه وتعالى أن يعينني على متابعة دروس هذه السورة في الأسابيع القادمة.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٧١ : خ١ -سورة الكهف٥ (قصة الممكنين في الأرض - الأقوياء) ، خ٢ - خرافة النيل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٨-٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

لا زلنا في دروس سورة الكهف..

المرض ـ أيها الإخوة ـ من خصائص النفس البشرية، إلا أن مرض الجسد ينتهي بالموت، ولكنَّ أخطر مرض، هو مرض النَّفس، لأنه يبدأ بعد الموت، ويشقي صاحبه إلى أبد الآبدين، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

[سورة الشعراء]

هذا المرض النفسي، سوء الظن بالله، أو الشرك، أو الكفر، أو الاعتداد بالذات، هي أمراض نفسية، إذا قرأنا القرآن، كان القرآن شفاءً لنا، قال تعالى:

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (٨٢))

[سورة الإسراء]

في أول درس من دروس الكهف، تحدثنا عن قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦))

[سورة البقرة آية ٢١٦]

فهؤلاء الفقراء المساكين، الذين خُرقت سفينتهم، حينما خُرقت تألموا أشد الألم، أما حينما كُشفت لهم الحقيقة، أن خرق السفينة، سبب نجاتها انقلب ألمهم إلى حبور.

فقصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، درس لكل مصاب، لكل مبتلى لكل مسكين فقير، لكل ضعيف، لكل مقهور.. درس بليغ ملخصه:

((٢١٦)وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

أما في قصة أصحاب الجنتين، هي درس بليغ لكل ناجح في الحياة ولا سيما في الأغنياء، هذا الذي قال:

أنا أكثر منك مالاً وأعز

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً (٣٦))

[سورة الكهف]

نقله ظلمه إلى الإصرار على أن هذه النعمة لا تزول عنه أبداً، ثم نقله ظلمه إلى إنكار البعث، ثم نقله هذا إلى أن يفتري على الله كذباً.

فهؤلاء الناجحون في الحياة، هؤلاء الأغنياء الذين شردوا عن الله عز وجل، قصة أصحاب الجنتين لهم شفاء.

هؤلاء المقهورون، والمساكين، والمبتلون، قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر لهم شفاء.

أما قصة اليوم ؛ هؤلاء الممكَّنون في الأرض، لماذا مكنهم الله في الأرض ؟ لتحقيق رسالة.. فإذا غفلوا عن هذه الرسالة، خانوا الأمانة.

يقول الله عز وجل:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١))

[سورة يوسف]

العبرة ـ أيها الإخوة ـ أن تكتسب الخبرات، من دون أن تدفع ثمنها باهظاً، الإنسان حينما يُخطئ، وحينما يُعاقب على خطأه عقاباً شديداً يكتسب خبرة، لكنَّ هذه الخبرة، دفع ثمنها باهظاً، وقد يدفع أحياناً ثمنها حياته، وقد يدفع ثمن هذا الخطأ مرضاً عضالاً.

يريدنا الله عز وجل، أن تكتسب الخبرات، مع أقل الخسائر، من دون أن ندفع ثمنها باهظاً، لذلك، الإنسان أحد رجلين، إما أن يعتبر بنفسه، وإما أن يعتبر بغيره، السعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ بنفسه، فحينما تقرأ قصة، ما أرادها الله قصة، ولا أرادها متعةً، ولا أرادها سدة فراغ، إنما أراد حقيقةً كبرى، يجب أن تكسبها من هذه القصة، فتمتلك خبرةً، وقد دفعت ثمنها قليلاً.. تدبر هذه الآيات، وتفهمها، ومعرفة أبعادها هو الثمن فقط، امتلكت خبرةً، لو لم تفعل ذلك، لزلّت قدم الإنسان، ولتعرّض لعقاب الله الشديد، فكان عقاب الله الشديد، ثمناً باهظاً لخبرة أتته من هذا العقاب.

يريد الله عز وجل، أن نأخذ كل شيء، بأقل شيء.

العبرة: من العبور، أي أن تعبر من مكان إلى مكان، تقرأ قصةً تقف عند أحداثها، عند شخصياتها، إن عبرت منها إلى مغزاها فقد قرأت القصة، وإن لم تضع يدك على مغزاها فكأنك ما قرأتها إطلاقاً إما أنك لم تقرأها، أو هي ليست بقصة، بلا هدف، لكنَّ الله عز وجل يقول:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١))

منهج الله عز وجل، المنهج القويم، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، فيه منطلقات نظرية، وفيه تطبيقات علمية، أي منطلق نظري يفتقر إلى التطبيق العملي، ولكن التطبيق العملي، نلمح من خلاله التطبيق النظري، لذلك قالوا: القصة حقيقة مع البرهان عليها، يعني فيها منطلق نظري، هو عبرتها، مع البرهان عليها واقعيتها.

إذاً، لا أروع ولا أدق من قصص القرآن الكريم.

يا أيها الإخوة الكرام:

الذي يقرأ القرآن، ويصدق ما فيه، ويعتبر بقصصه، يعيش في سلام مع نفسه، ومع الناس، ومع الكون، لأنه أخذ أغنى التجارب من دون خسائر.. أوضح لكم هذه الحقيقة:

لو قرأت بحثاً عن الدخان، وعرفت أنه يسبب السرطان فتركته، أنت أخذت تجربة ثمينة جداً، بقراءة مقالة، أما حينما يركب الإنسان رأسه ويتابع التدخين، ثم يُصاب بسرطان مميت، عرف الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان، عرف الحقيقة ودفع ثمنها باهظاً، ما كل انحراف تنجو منه، ما كل خطأ يُصحح، هناك أخطاء يدفع الإنسان حياته ثمناً لها، هناك انحرافات، يدفع الإنسان سعادته الأبدية، ثمناً لها، العبرة أن تكتسب الخبرة، من دون ثمن باهظ.

أكبر مهمة للرسل صلوات الله عليهم، تطبيق منهج الله أمام الناس لأن الرسل، هم بشر من جنسنا، ولأن الرسل تجري عليهم كل خصائص البشر، لذلك كانوا قدوةً لنا.

يعني منهج نظري، فيه منطلقات نظرية، جاء الأنبياء والرسل فطبقوه فرأى الناس بأم أعينهم، ثمار هذا المنهج، فصار عندهم منهج نظري وتطبيقات عملية، بل إن مهمة القدوة عند الرسل، أكبر بكثير من مهمة التَّبليغ.

الحق طُبق، وبقي في الأرض، وازدهر وانتصر، وحقق الرفعة للإنسان المؤمن، هذه هي التطبيقات العملية.

كان الغني في عهد عمر ابن عبد العزيز، يجوب أطراف الدنيا ليجد فقيراً يقبل أن يأخذ منه زكاة ماله، الإسلام أغنى الناس..

سيدنا عمر، نسلم منصب وزير العدل عند أبي بكر رضي الله عنه سنتين دون أن تُرفع له قضية واحدة، حينما طُبق منهج الله عز وجل استخلف الله المؤمنين، فوصلت راياتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها حينما طُبق منهج الله في الأرض، مكن الله لهم دينهم الذي ارتضى لهم حينما طُبق منهج الله في الأرض، ملأ الله قلوبهم أمناً وطمأنينة..

والباطل طُبق في الأرض، وثبت فساده وزهق، قال تعالى:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (٨١))

[سورة الإسراء]

وزهوق صيغة مبالغة، وصيغ المبالغة تعني شيئين، مبالغة نوع ومبالغة عدد، فالباطل مهما تعدد، سيزهق، والباطل مهما كبر سيزهق إنْ نوعاً، وإنْ كماً..

بعض المذاهب الوضعية طُبقت، وثبت فسادها وانهارت ودُفنت ولعنها الله ولعنها الملائكة والناس أجمعون:

(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧))

[سورة الرعد]

قالوا: المعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، والمعركة بين الحق والباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، والله عز جل ينصر الحق وأهله.

أما المعركة بين باطلين، فهي لا تنتهي، تطول وتستمر بحسب أسباب كل طرف، وعُدده، وعَدده، واستعداده.

خطبة اليوم عن ذي القرنين، درس لكل من مُكّن في الأرض..

من هو ذو القرنين ؟.. قالوا الإسكندر المقدوني، وقالوا هو من الروم وقالوا جاء قبل عيسى عليه السلام بثلاثمائة عام، وقالوا كان في الصين وحكم الصين، وقالوا عاش مع إبراهيم الخليل، وطاف في البيت العتيق والطريق أمام هذا البحث مسدود.. لأن الله سده..

ما أراد الله أن نعرف من هو ذو القرنين، كي لا نتوهم أنها قصة وقعت ولن تقع، أراده الله نموذجاً متكرراً، العلم بمن هو ذو القرنين علم لا ينفع، وجهل لا يضر، ولكن العبرة أن نعبر قصة ذي القرنين إلى الحقيقة التي أرادها الله أن يلقيها علينا من خلال هذه القصة.

يريد الله عز جل، أن يبين لكل ممكَّن في الأرض: لقد أخذت الكثير وعليك أن تُعطي الكثير. قرأت كتاباً، قدم صاحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ..

هناك من يأخذ ولا يعطي، وهناك من يعطي ويأخذ، لكن الأنبياء والرسل، جاؤوا الحياة فأعطوا كل شيء، ولم يأخذوا شيئاً..

الممكَّن في الأرض، ينبغي أن لا يكتفي بما أخذ، عليه أن يعطي عطاءً بقدر عطاء الله له، إن عطاءك للناس، يجب أن يكون على قدر ما أعطاك الله، فعلى الممكن في الأرض، أن ينصر الحق، وأن يقاوم الباطل، وأن يعمل بتعاليم من هو أحكم منه، وهو الله عز وجل وما دامت هذه الأسباب من الله، فلا بد من أن تكون في خدمة الغاية، التي أُعطيت من أجلها.

سيدنا الصديق رضي الله عنه، قال في خطبة الخلافة:

القوي عندي ضعيف، حتى آخذ الحق منه، والضعيف عندي قوي حتى آخذ الحق له.

قال تعالى:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١))

[سورة الحج]

ولنضرب بعض الأمثلة: منهم الممكَّنون في الأرض ؟.. مدير المدرسة، مكَّنه الله من أن يؤخذ برأيه في المدرسين، وأن يؤخذ برأيه في الطلاب، بإمكانه أن يلغي مهمة مدرس، أو أن يستقدم مدرساً ممتازاً بإمكانه أن يضرب بيد من حديد على الطالب الفاسد، أن لا يفعل ذلك فهذا الذي يجلس وراء الطاولة في المدرسة، مكَّنه الله في الأرض، فإذا عاقب المسيء، وكافأ المحسن، سارت رسالة المدرسة، بشكل جيد.

إذاً هذا الذي وضع ليكون مدير مدرسة، أعطي أسباب القوة، وأسباب التحريك، من أجل أن يصلح الفاسد، ويكافئ المحسن..

مدير مستشفى، ممكَّن في الأرض، يجب أن يختار الطبيب المناسب وأن يضعه في المكان المناسب، وأن يستمع إلى شكاوى المرضى، لأن بيده سلطة، بيده أن يعين، وأن يلغي، وأن يكافئ وأن يعاقب، وأن يردع، كل شيء تأخذه هو مسؤولية، أخذت هذا الشيء وهذا السبب لتنفع الناس، مدير الدائرة، بإمكانه أن يفتح بابه لكل المراجعين، وأن يراقب الموظفين، ويراقب مدى خدمتهم للمواطنين، فمدير الدائرة ممكن في الأرض، وهذه القصة له، بإمكانه أن يكافئ الموظف المحسن وأن يردع المسيء، عندئذ تستقيم الأمور.

مدير مؤسسة اقتصادية، أيضاً ممكَّن في الأرض، بإمكانه أن يضبط الأمور، وأن يحكم الصناعة، وأن يقدم للناس صناعة جيدةً بسعر معتدل منافس.

مراقب الدخل ممكَّن في الأرض، يجب أن يتقي الله فيما يفرض على الناس.

شرطي السير أحياناً ممكَّن في الأرض، موظف التموين ممكن في الأرض، حينما تؤتى سلطة، ينبغي أن تستخدمها فيما أعطيت من أجلها أعطيتها من أجل صلاح الأمور، أعطيتها من أجل أن تعاقب الفاسد من أجل أن تكافئ المحسن، من أجل أن ينعم الناس جميعاً بالخير، هذه السلطة، هي سلطة الله عز وجل، حينما تأخذها من الله، ينبغي أن تستخدمها وفق منهج الله عز وجل.

كيف ينحرف الممكَّن في الأرض ؟.. حينما تُحل مشكلته المالية ينسى مصالح المسلمين، وحينما لا تُحل مشكلته المالية، يسيء إلى مصالح المسلمين.

إذا قال المعلم: أنا أعلم بقدر الراتب،هذا خان الأمانة، لأن الله سبحانه وتعالى مكّنك من هؤلاء الطلاب، أوكل تعليمهم إليك، أوكل تهذيبهم إليك، فأنت إذا عاملتهم، ربيتهم بقدر الراتب الذي لا يعجبك فقد خنت الأمانة..

الممكَّن في الأرض ؛ كل إنسان له قوة بحيث يسيطر على عشرة أشخاص.. الأب في بيته ممكَّن في الأرض، كلمته نافذة، بإمكانه أن يقيم الإسلام في بيته، بإمكانه أن يردع ابنته، بإمكانه أن يكافئ ابنه المحسن، بإمكانه أن يأمر أهله بالصلاة..

أي إنسان رفعه الله، رفعه الله على شخصين ممكن في الأرض فكل إنسان بإمكانه أن يفعل، كلامه مطبق، كلامه نافذ، ممكن في الأرض وما أوتي هذا التمكين إلا ليحقق النفع للمسلمين، إلا ليزيل الفساد في الأرض، إلا ليعم الخير على المؤمنين.

القرآن شمولي، حينما يخاطب الله ذا القرنين، أراد من ذي القرنين أن يكون قدوةً لكل ممكن في الأرض، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥))

[سورة الكهف]

من أوجه تفسيرات فأتبع سبباً: أن هناك سائل، هم أهل الكتاب سألوا النبي عليه الصلاة والسلام، وقبل أن نجيب عن هذا السؤال، دائماً وأبداً أيها الإخوة ـ هناك هدف، وهناك وسيلة لهذا الهدف، فحينما نعطي الإنسان الوسيلة، ينبغي أن يحقق هذا الهدف، لماذا جُعل في المستشفى هذا المدير، ما الهدف من هذا المنصب ؟.. تحقيق مصلحة هذه المستشفى، تحقيق مصالح المرضى، تحقيق مصالح الأطباء، أن يجري العمل بانتظام، أن يؤخذ على يد الفاسد، أن يؤخذ على يدي الذين يبيعون الدواء المجاني للمرضى، أن يكافئ الطبيب المخلص، أن يعاقب الطبيب المسيء، ما هو منصب مدير المستشفى ؟.. من أجل هذا، فإذا تسلم إنسان إدارة المستشفى، أعطي السبب القوي بإمكانه أن يكافئ أو يعاقب، فإذا استخدم هذا السبب لمصالحه، وتحقيق نزواته، وإملاء جيبه فقد خان الأمانة.

هذا درس بليغ، من دروس سورة الكهف:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥))

هذا السبب وضع لتحقيق الهدف، فذو القرنين، أعطي الأسباب لهدف أراده الله، فاستخدمها وفق ما أراده الله، هذا معنى فأتبع سبباً، أي استخدم هذه الأسباب وفق ما أراد الله عز وجل.

العقل سبب، العقل يقودك إلى معرفة الله، فإذا استخدمته في الإيقاع بين الناس، وفي جمع الدرهم والدينار، فقد استخدمت هذا السبب لغير ما أراد الله.. المال سبب، أعطاك الله المال، لنفقه في طاعة الله ولتعمل الصالحات فيه، كي يكون هذا المال نوراً لك يوم القيامة فأخذت هذا المال، وأنفقته في غير الهدف الذي سخره الله لك، أنفقته على متعك الرخيصة، وعلى العلو في الأرض.

شيء دقيق جداً في هذه القصة، كلما أعطيت سبباً، يجب أن تعرف الهدف الذي من أجله أعطيت السبب، فإذا استخدمته وفق الهدف الذي أراده الله عز وجل، نجحت عند الله، وإن استخدمت هذا السبب، في غير ما أراد الله عز وجل، فقد أسأت، وانحرفت، وفسقت.

الملك في الأرض عطاء من الله خالق البشر، بأسباب من الله لا بأسباب البشر، يقول الله عز وجل:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

[سورة آل عمران آية ٢٦]

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨))

[سورة البقرة]

هناك في بلاد الغرب، أعطوا الأسباب، ولكنهم أخذوها ليفسدوا في الأرض، ينبع الفساد من هناك، العالم الثالث، ما سبب فساده، هذا الفساد المستشري في العالم الغربي، والذي نُقل إلينا، وأصبحت الأرض قرية، بل أصبحت بيتاً، وأنا أقول أصبحت الأرض غرفة واحدة، فما فيها من فساد في مغرب الأرض، أنتقل إلى مشرق الأرض، فلو أن الذين أوتوا الأسباب هناك، ضربوا على المفسدين بيد من حديد، لما عم الفساد في الأرض.

الممكّن في الأرض، مهمته قمع الفساد، وإحقاق الحق، وبهذا تستقيم الأمور.

في كل مجتمع بشري، محسن ومسيء، ماذا ينبغي أن يفعل الممكن في الأرض، يجب أن يعطي المحسن مكافأةً تزيده إحساناً، وأن يؤدب المسيء تأديباً يردعه عن إساءته، حتى يعتدل الميزان، المهمة الأولى للممكن في الأرض، أن يعطي المحسن إحساناً يزيده إحساناً، وأن يعاقب المسيء فيردعه عن إساءته.

ذو القرنين:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً(٨٨))

[سورة الكهف]

هذه مهمة ذي القرنين، المحسن أكرمه، والمسيء عاقبه، فاستقامت الأمور، وصلح الناس، وعمَّ الخير، وعمَّ الإحسان، وكان هذا العمل بفضل هذا الجهد الذي بذله ذي القرنين.

قد يسأل سائل، بما أن الله سبحانه وتعالى، جعل الدار الآخرة دار جزاء، وجار عقاب، فلماذا يعاقب المفسد في الدنيا ؟..

جواب دقيق، يُعاقب المفسد في الدنيا، لأن معظم الناس، أو بعض الناس، أو جزءً من الناس، لا يؤمنون بالآخرة، فهل نسمح لهم أن يفسدوا، أن ينشروا فسادهم في الأرض، فحينما يُعاقب المفسد في الدنيا من أجل أن تصلح الحياة الدنيا، أما لأنه لم يؤمن بالآخرة، هذا شانه مع الله، لكنْ لا نسمح له أن يفسد في الأرض، فلذلك شُرع عقاب الفاسدين في الدنيا، من أجل أن تستقيم الحياة، إيمانك بالآخرة، أو عدم إيمانك شأنك مع الله، ولكن الإسلام في منهجه لا يسمح بالفساد إطلاقاً.

شيء آخر: لماذا يعاقب الله المفسد في الدنيا مع أن له عقاباً يوم القيامة ؟.. والدليل هو قول:

(قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً (٨٧))

عقاب الإنسان في الدنيا، لعله يهتدي إلى الله، لعله يتوب، لعله يرتدع، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١))

[سورة السجدة]

دول كثيرة ألغت عقوبة الإعدام، ثم وجدت

مضطرةً أنه لابد منها، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩))

[سورة البقرة]

وهذه الدول الكبرى، التي مكّنت في الأرض، مكّنت من الأرض كلها لو أنها استخدمت هذه الأسباب، أسباب القوة في إحقاق الحق في الأرض لكان المجتمع البشري في حال غير هذا الحال. محور الموضوع، كلما أوتيت سبباً يجب أن تستخدمه وفق الهدف الذي أراده الله، وإلا كان الانحراف الشديد.

لو أن إنسان تفلت من عذاب الدنيا، ينتظره عذاب الآخرة، يجب أن يعلم علم اليقين، لكل سيئة عقاباً، قد يُعاقب الإنسان في الدنيا، وقد يُعاقب في الآخرة، وقد قيل إن الله يزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن.

وهذا الذي يضرب على أيدي المفسدين، يحمي المؤمنين من فسادهم.

هذه حقيقة يجب أن نعلمها علم اليقين، وكل واحد منّا ـ ولا أبالغ ـ تنطبق عليه هذه الآية، إنا مكنا له في الأرض، الأب ممكن، معلم الصفِّ ممكن، شرطي السير ممكن، موظف التموين ممكن، موظف الجمرك ممكن، مراقب الدخل ممكن، كل إنسان بإمكانه أن يفعل شيئاً يجب أن يفعل هذا الشيء وفق الهدف الذي من أجله أُعطي هذا الشيء وهذا درس آخر.

الدرس الأول للفقراء والمساكين، في قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، والدرس الثاني للأغنياء المترفين، الشاردين عن الله عز وجل والدرس الثالث، للممكّنين في الأرض، هذه دروس سورة الكهف، أنت لابد أن تكون أحد هؤلاء، لذلك شرع النبي عليه الصلاة والسلام لنا قراءة هذه السورة، يوم الجمعة، لتكون زاداً لنا طوال الأسبوع ولتكون منهجاً، ورؤية صحيحة، نرى بها حقائق الأشياء.

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

حارب الإسلام الخرافات، حارب الإسلام الأساطير، حارب الإسلام الخزعبلات، حارب الإسلام الأوهام، المؤمن يعرف الحقيقة الكبرى المؤمن له منهج من عند خالقه يسير عليه.

إليكم هذه القصة، التي تؤكد هذه الحقيقة:

لمَّا فُتحت مصر، أتى أهلها عمرو ابن العاص، واليها يوم ذاك، في عهد عمر بن الخطاب، حين دخل يوم من أشهر العجم، فقالوا:

يا أيها الأمير، إن لنيلنا هذه سنة لا يجري إلا بها، هذا النيل الذي هو هبة الله لمصر، له سنة لا يجري إلا بها.

قال: وما ذاك ؟

قالوا: إذا كان إحدى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية حسناء، بكرٍ بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الثياب والحلي، أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون أبداً في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله.. العادات، التقاليد، التصورات، الأوهام، هذه كلها يهدمها الإسلام، وليس معنا إلا منهج الله عز وجل.

سكتوا: والنيل لا يجري إلا قليلاً، ولا كثيراً.. ولحكمة أرادها الله ضعفت مياه النيل، وقلَّت إلى درجة مخيفة، حتى همَّ أهل مصر للجلاء عن مصر.. لماذا أراد الله ذلك ؟.. ترون بعد قليل. فلما رأى ذلك عمرو بن العاص، كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك (هذه قضية فوق طاقته، هو أقام منهج الله، أما النتائج غير معقولة)..

فكتب عمر رسالة ـ قد تعجبون ـ كتب رسالة إلى نهر النيل، وأمر رسوله أن يسلمها إلى عمرو بن العاص، وأن يجمع أهل مصر على ضفاف النيل، وأن يقرأ عليهم هذه الرسالة، ثم يرميها في نهر النيل ففعل.

فتح الرسالة، وقرأ ما فيها، فإذا فيها:

من عبد الله عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، إلى نيل مصر، أما بعد:

إن كنت تجري من قبلك فلا تجري، وإذا كان الله يجريك فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك، وألقى الرسالة في نهر النيل، فما أصبحوا حتى أجراه الله وأفاضه في الليلة نفسها، فقطع الله هذه السنة السيئة عن أهل مصر إلى هذا اليوم، سنة عمرها آلاف السنين، لابد من أن تُلقى فيه فتاة حسناء، تؤخذ من بين أبويها، وترتدي أجمل الثياب، وأجمل الحلي، وتُلقى في هذا النهر كي يجري، قال له عمر: يا نيل إن كنت تجري من قبلك فلا تجري، وإن كان الله يجريك، فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك..وألقيت الرسالة، وجعلها الله آيةً لأهل مصر، وقد ألغيت هذه السنة السيئة في مصر، وقد مضى عليها آلاف السنين.

ملايين مملينة من المسلمين، يقعون تحت أوهام لا أصل لها، تحت خزعبلات لا أصل لها، تحت قصص واهية لا أصل لها، ينبغي أن نفهم حينما كسفت الشمس في عهد النبي، توهم الصحابة الكرام، عن حسن ظن بنبيهم، أن الله كسفها إكراماً لموت ابنه إبراهيم، فلما علم النبي ذلك عدَّها خرافة، فجمع أصحابه وقال:

((عن الْمُغِيرَةَ ابْنَ شُعْبَةَ يَقُولُ انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ فَقَالَ النَّاسُ انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد]

المسلم عقله مستنير، عقله منهجي..

كنت في العمرة قبل سنتين، فسمعت في مكة المكرمة، أن أنواراً من قبر النبي تسطع إلى السماء، وقد أخذ الناس بهذه الأنوار، وفسروها تفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان، لما قدمت المدينة، سمعت من أحد علمائها، أنه اتصل به أمير المدينة، وأخبره أن أشعة اللايزر وضعت فوق مقام النبي، لتهتدي الطائرات بها إلى المدينة، فهذه الأنوار التي توهمها الناس ساطعة من قبر النبي، النبي عليه الصلاة والسلام أنواره في سنته، أنواره في توجيهاته، أنواره في شمائله، أنواره في معجزاته التي جاء بها، أنواره في تشريعه، فيا أيها الإخوة الكرام يجب أن ننطلق من منطلق علمي، وأن الله سبحانه وتعالى عالم يحب كل عالم كم من خرافة، وكم من انحراف فكري، وكم من خزعبلات تأسر المسلمين هم ضحيتها.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٧٢ : خ١ -سورة الكهف٦ (قصة يأجوج ومأجوج - الإتقان) ، خ٢ - الساعة البيولوجية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٩-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

مع الدرس الأخير من دروس سورة الكهف، مع يأجوج ومأجوج.

أيها الإخوة الكرام، مرةً ثانية، النبي عليه الصلاة والسلام، ندبنا أن نقرأ سورة الكهف كل يوم جمع، لأن فيها من الحقائق، ومن الدروس والعبر، ما تغطي المشكلات التي قد تنشأ في الأسبوع، ذكرت لكم من قبل أن الدرس الأول:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦))

[سورة البقرة]

هذا الدرس مستفاد من قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، والدرس الثاني موجه إلى الأغنياء، حينما يرى الغني أن هذا المال، إنما حصَّله بجهده فقد أشرك، أما إذا رآه مال الله في يده يتواضع، وينفقه ويرقى به إلى أعلى عليين، والدرس الرابع كان موجهاً إلى الأقوياء، هؤلاء الذين مكنهم الله في الأرض، ما مكنهم إلا لهدف عظيم، إلا ليقيموا العدل، إلا ليأخذوا على أيدي المفسدين، هذا درس رابع للأقوياء في الأرض، والدرس اليوم فرع من الدرس السابق، حتى ذو القرنين لا يعنينا من هو، يعنينا ماذا فعل، يعنينا من ذي القرنين النموذج البشري المستمر، ماذا ينبغي أن يفعل القوي:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣))

[سورة الكهف]

وجد قوماً ضعافاً، لا يستطيعون حيلة، لا يستطيعون حماية أنفسهم لا يملكون من العلم ولا من أسباب القوة ما يمكنهم من حماية أنفسهم.

إن مهمة الممكن في الأرض أن يقف إلى جانب الضعيف، لا أن يقف بجانب الضعيف لينصره كل مرة، دققوا ؛ ليعطيه أسباب القوة، لينتصر دائماً.. مهمة الممكن في الأرض، أن يقف إلى جانب الفقير لا ليطعمه كل مرة، بل ليمكنه من أسباب الرزق.

يكاد يكون المغزى الدقيق ما قاله بعضهم، لا تطعمني سمكة، ولكن علمني كيف أصطاد السمك... إنك إن أطعمتني سمكةً أكلتها وبقيت جائعاً، أما إنك إن علمتني كيف أصطاد السمك، مكنتني من أسباب الرزق.

هؤلاء قالوا يا ذا القرنين، هؤلاء القوم الضعاف الفقراء وجدوا في ذي القرنين القوة، وجدوا فيه العلم، وجدوا فيه العدل، فاستنجدوا به ليحميهم من قوم ظالمين فاسدين في الأرض، قالوا:

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً (٩٤))

[سورة الكهف]

وما أكثر الأقوام التي تفسد في الأرض.. أعداؤنا الألداء، مهمتهم الأولى الإفساد في الأرض، إفساد العلاقات، إفساد المثل، إفساد القيم إفساد الحياة إفساد الاقتصاد:

(إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

أي قوم يسعون إلى إفساد البشر، إلى إفساد أخلاقهم، إلى إفساد علاقاتهم، إلى إفساد قيمهم، هم يأجوج ومأجوج، نموج متكرر..

إن أقوام يأجوج ومأجوج كثيرون في الأرض، هذا الذي يسعى لأن يبني مجده على أنقاض الآخرين، يسعى لأن يبني غناه على إفقار الآخرين، يسعى لأن يبني قوته على إضعاف الآخرين، هذا مثله كمثل يأجوج ومأجوج..

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً (٩٤))

خرجاً: مالاً نعطيك إياه، جزية، ضريبة.

يبدوا أن هؤلاء القوم المفسدون، يغيرون على هؤلاء الضعاف من بين جبلين، من ممر بين جبلين، يغيرون عليهم، يأكلون أموالهم، يستحيون نساءهم:

قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا

كان هؤلاء المفسدون يأتون من ممر بين جبلين.. بماذا أجابهم ذو القرنين ؟..

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥))

يعني ربي عز وجل مكنني في الأرض من أجل أن أفعل الخير وجزائي عنده على فعل الخير، خير من كل أموالكم، والآن دققوا ؛ الإنسان إذا مُكن من فعل الخير، وأراد أن يأخذ على عمله أجراً مادياً يكون أخسر الخاسرين، يكون أتعس خلق الله أجمعين، إذا مكنك الله من عمل تبتغي به رضوان الله، لا تحبط هذا العمل بأخذ مبلغ من المال تصرفه في أيام، وليس لك عند الله شيء، إن فعلت عملاً اجعله خالصاً لوجه الله، إن فعلت عملاً لا تبتغي أجراً إلا عند الله، المؤمن حينما عرف الله، وحينما عرف الآخرة تبدلت مقاييسه، أصبحت مقاييسه عجيبة، يسعده الإنفاق لا يسعده الأخذ، يسعده خدمة الآخرين، لا أن يستهلك جهودهم، الإنسان إذا كان ميزانه دنيوي يحرص على أن يأخذ لا أن يعطي، يحرص على أن يتلقى خدمات الآخرين، لا على أن يقدم الخدمات للآخرين، حينما تؤمن بالله الإيمان الحق، وحينما تؤمن بالآخرة الإيمان الحق، تنعكس الموازين، لك ميزان آخر، يسعدك أن تعطي لا أن تأخذ، يسعدك أن تبذل جهداً كبيراً لإسعاد الخلق، ترجو به رحمة الله، ولا يسعدك أن تنال على هذا العمل أجراً كبيراً.

الإنسان أحياناً مكن من اختصاص نادر، مكن من اختصاص طبي فحينما يقسو قلبه عن خدمة فقير، حينما يقسو قلبه عن خدمة محتاج لا يتحرك إلا بأجر فوق طاقة الإنسان، ويُتاح له أن يأخذ هذا الأجر، هذا الاختصاص النادر، وهذا التمكين في الأرض، سقط عند الله عز وجل أصبح مادياً. والغرب ممَ يعاني ؟.. يعاني من النزعة المادية، الأب أحياناً يركل ابنته، إذا بلغت الرابعة عشرة، تنام أينما تشاء، وتأكل مع من تشاء ليُعفى من الإنفاق عليها، حينما تصبح القيم مادية، تصبح الحياة تعيسة.

يقول ذو القرنين:

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)

أنا مُكنت لأفعل الخير، وأي إنسان مُكن في الأرض، كنت غنياً من بين أفراد أسرة فقراء، أسرة كبيرة، أنت الوحيد الغني، أنت ممكن في الأرض، يجب أن تعلم علم اليقين، أن هذا الغنى الذي مكنك الله به من أجل أن تفعل الخير، ومن أجل أن تستحق الجنة إلى أبد الآبدين، الجنة يستحقها الممكن في الأرض، قد تُمكن في المال، وقد تُمكن في العلم قد تُمكن في السلطة، إما أن قرارك نافذ فأنت ممكن في الأرض، وإما أن لك علماً عميقاً دقيقاً تنفع الناس به، وإما أن لك مالاً وفيراً تحل به مشكلات الناس، ليعلم كل من مكنه الله في الأرض، بالمال، جعلك صاحب شركة، جعلك صاحب مؤسسة، جعلك تحمل أعلى شهادة في الطب، أنت ممكن في الأرض.

يعني المتفوقون، الناجحون في الحياة، بكل فروع النجاح، هذا الدرس لهم في الدرجة الأولى:

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)

يعني أن مُكنت في الأرض ؛ لأفعل الخير، وأجري عند الله، وأنا غني عن أموالكم، وعن عطاياكم. ذو القرنين يؤكد، أن ما أنتظره من جزاء ربي، على الخير الذي أقوم به خير من كل مال الأرض. سألهم من أين يأتون هؤلاء المفسدون في الأرض، قالوا من بين الجبلين، فقرر أن يقيم سداً بين الجبلين، الآن الإتقان، سداً سميكاً لا يستطيع الأعداء أن يعبرون، وسداً عالياً لا يستطيع الأعداء أن يظهروا عليه، إتقان العمل جزء من الدين، أعداؤنا أتقنوا أعمالهم فاحتلوا الأسواق كلها، نحن حينما لا نتقن لا نستطيع أن نصرف بضاعتنا حتى في الداخل، والآن الحرب القادمة ـ أيها الإخوة ـ حرب اقتصادية، لعل الحرب العسكرية قد ولت، بقيت حرب اقتصادية شرسة، لا يصمد في السوق إلا المتقن، إلا المتقن وإلا الذي يعطي السعر الأقل، معنى ذلك أننا بحاجة إلى إدارة قوية جداً، إلى إدارة قوية، وإلى استقامة على أمر الله، وإلى تنفيذ منهج الله عز وجل.

كان من الممكن أن يبقى معهم، كلما هاجمهم هؤلاء المفسدون، صد عنهم الهجوم، ليس هذا هو العمل الطيب، يجب أن تعطيهم أسباب القوة يجب أن تعطيهم سبباً يردون بأنفسهم هجمة الأعداء، لذلك قالوا لا تطعم الفقير سمكة، علمه كيف يصطاد السمك.

روى أبو داود:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ فَقَالَ أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ قَالَ بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ قَالَ ائْتِنِي بِهِمَا قَالَ فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ وَقَالَ مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ قَالَ مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ وَقَالَ اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ))

والنبي عليه الصلاة والسلام بهذا التصرف أكد حقيقة أن الذي يعمل إن لم يكن مطمئناً على أهله لا يعمل ولا ينتج في العمل، لابد من أن يطمئن على أهله

((وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ))

[أخرجه التردي والنسائي وابن ماجة وأحمد]

هكذا فعل النبي، علمه كيف يكسب الرزق، علمه كيف يرفع رأسه علمه كيف يأخذ المال وهو عزيز النفس، وهذا الذي ينبغي أن نفعله نحن المسلمين، يجب أن يُحول آخذ الزكاة إلى دافع للزكاة،

يجب أن تعطي الفقير عطاءً تغنيه طوال العام، بحيث يأتيك بزكاة ماله آخر العام، لا ينبغي أن تعطيه ما يأكل إلى أبد الآبدين، يجب أن تعطيه ما يغنيه.

ذو القرنين أعطى هؤلاء القوم الضعاف أسباب القوة، قال:

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦))

القطر: النحاس المذاب..

استعان بهؤلاء الضعفاء، هذا درس آخر، لِمَ لم يقل أنتم استريحوا وأنا أنشئ لكم هذا السد، ما فعل معهم شيئاً، لكل إنسان فيه قوى كامنة العمل العظيم أن تفجر هذه القوى في النفس، إذا فجرتها رفعت معنويات الإنسان، لا يوجد إنسان ليس له مميزات، التربية السيئة هي التي تقمع وتجمد، وتعطل، والتربية الناجحة، هي التي تفجِّر، فذو القرنين عمل على تفجير طاقاتهم، استخدمهم هم في صنع هذا السد.

يقول علماء النفس: في الإنسان طاقات مخبوءة، إما أنها فُجرت وإما أنها لم تُفجر بعد، فالتربية المثلى، هي في تفجير الطاقات، أن تكشف هذا الإنسان أين طاقاته ؟ ما قدراته ؟ عليك أن تفجرها، وأن تستغلها لا عليك أن تقمعها، لذلك التربية المركزية التي تعيق طاقات الابن هذه تربية مخطئة، أما التربية التي تُفجر طاقات الابن هي تربية ناجحة والآباء محتاجون إلى هذا الفهم العميق في إعطاء الثقة لأولادهم وتفجير طاقات أولادهم ولو أخطؤوا، لابد من الخطأ، أما الأب الذي لا يرضى لابنه أن يخطئ إطلاقاً، كيف يربي ابنه، كيف يكسبه الخبرات والمهارات، يجب أن تضع في ذهنك، أن هذا الابن الشاب يمكن أن يخطئ، تحمل خطأه من أجل أن يكسب الخبرات التي تعينه على مواجهة خطوب الحياة.

استخدم ذو القرنين طاقات هؤلاء القوم الضعاف، أعطاهم ثقة بأنفسهم والإسلام كما تعلمون ينهانا عن الكسل، والأخطر من هذا ينهانا عن أن نعطي أجراً بلى عمل، يعني أخطر شيء في الحياة، أن تعطي إنسان مالاً دون أن يعمل، هذا الذي يُعطى المال دون أن يعمل لن يعمل أبداً استمرأ الكسل، شيء مريح، تأخذ المال ولا تفعل شيئاً، وهؤلاء الذين يحتالون، يأخذون من أموال الناس بأساليب متعددة، هؤلاء استمرؤوا الكسل، لا يعجبهم أن يعملوا، وما من رذيلة تصيب الإنسان كالبطالة وهناك بطالة صارخة ليس له عمل، وهناك بطالة مقنعة، يعمل عمل شكلي، عمل ساعة في اليوم، لا تقدم ولا تؤخر، هذه بطالة، الإنسان حينما يقوم بعمل شكلي، هذا لا يرقى، وجدت في العالم الغربي على أنهم انحرفوا عن منهج الله عز وجل، ولكنهم في الأعمال دقيقون جداً يعني لا يسمحون لإنسان إلا أن يعطي كل طاقته ليأخذ أجره، هذا يقدم للإنسانية، إنجازاً كبيراً.

الإنسان متى تقاضى أجراً بلى عمل لا يمكن أن يعمل إطلاقاً، لذلك لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرةٍ قوي، لا يجوز أن تعطي إنسان شاباً قوياً، أن تعطيه ليأكل، وتقول له اجلس واسترح في البيت، هذا خطأ فاحش، هذا الخطأ إذا أصاب المجتمع، أصبح عاطلاً عن العمل، أو شاعت فيه البطالة المقنعة.

من باب الطرفة، إن لم يوجد من الأعمال في مجتمع ما يشغل كل العاملين فيه ماذا نعمل، قال بعضهم نأمرهم أن يحفروا الأرض ثم يردموها، حتى يتقاضوا أجراً، لابد من أن تقدم عملاً، حتى تأخذ أجراً إن كنت مريضاً شأن آخر، إذا كان المرء عاجزاً شأن آخر، أما إنسان قوي، شاب قوي، ذو مرةٍ، أو غني لا يجوز أن يأكل من مال الصدقات.

سيدنا عمر، رضي الله عنه، مرَّ على قرية، فإذا الفعاليات الاقتصادية فيها بيد غير المسلمين، فعنفهم تعنيفاً شديداً، فقال لهم بعد أن اعتذروا، قال لهم: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم.. أدرك هذا العملاق في الإسلام، أن القوي هو المنتج، والضعيف هو المستهلك، والضعيف تحت رحمة المنتج، يتحكم به، يتحكم بطعامه وشرابه ومسكنه ودخله، وهذا الذي يفعله أعداء المسلمين في العالم بحيل شيطانية يخفضون الأسعار، ويرفعونها، وتنهار الاقتصاديات في العالم لأنهم تحكموا بالمال، والبضاعة، وبالأشياء الحساسة في المجتمع..

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[أخرجه مسلم وابن ماجة وأحمد]

قوة المال، وقوة العلم، وقوة السلطان.

أحياناً وهذه نصيحة، أبٌ عصامي، يحب أن يقوم بالأعمال كلها بيده والأم كذلك، والأولاد يأكلون ويتفرجون، هؤلاء الأولاد لن يستطيعوا أن يتقنوا عملاً في مستقبل أيامهم، هؤلاء الأولاد رُبوا على تربية اتكالية هؤلاء لا يتحملون أية مسؤولية، لا يستطيعون إنجاز أي عمل، لأنهم رُبوا على أن يعمل الأب وحده، وأن تعمل الأم وحدها، والأولاد يأكلون ويتفرجون، والأب الذي لا يضع ابنه في معمعة الحياة، ولا يعلمه كيف يكسب المال، يقضي على مستقبله، يجب أن يضع الآباء هذه الحقيقة نصب أعينهم.

لابد من أن يتحول الإنسان من الضعف إلى القوة، ومن البطالة إلى العمل، العمل يتيح لك أعمالاً صالحة كثيرة، إخوة كثيرون يتقون عملاً يقولون هذا العمل موظف للحق، اطلب منا شيئاً، الذي

يتقن له عمل أما الذي لا يتقن شيئاً ماذا يعمل، والآخرة بالعمل، وكلما كنت أقوى في علمك، أو في مالك، وأو في مكانتك، أتيح لك من الأعمال الصالحة ما لم يُتح للآخرين.

قال تعالى:

(فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧))

الدرس الرابع في هذه القصة، الإتقان:

" إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ".

الآن في المستوى المحلي، أصحاب الصنعات، المتقنون لا يتعطلون على الرغم من كساد الأسواق، وقلة الأعمال، أما الذين لا يتقنون لا يجدون من يطلب منهم عملاً، فالإتقان الإتقان، أعداؤنا أتقنوا، أتقنوا صناعاتهم إتقاناً بالغاً، فاكتسحوا بها الأسواق، والبضاعة تنتقل من سوق إلى سوق، والعالم سيواجه ـ والعياذ بالله ـ بعد سنتين أو ثلاثة، اتفاقية لا يصمد فيها في السوق إلا البضاعة المتقنة الرخيصة، وهذه الاتفاقية لصالحهم، لا لصالح الدول الفقيرة.

أيها الإخوة الكرام:

الإتقان، الإتقان، الإتقان يعطيك على المدى البعيد ربحاً وفيراً، أما عدم الإتقان قد تتوهم أنه أكثر ربحاً، لكنه في الحقيقة دمار..

(فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧))

يعني كان إنشاء هذا السد متقناً بشكل عجيب.

هذه القصة تعلمنا الإتقان، وتعلمنا أن نفجر طاقات أبنائنا، وتعلمنا أن نعطي الفقير أسباب الغنى، وأن نعطي الضعيف أسباب القوة، وتعلمنا أن نعلم الإنسان كيف يصطاد سمكة، لا أن نطعمه سمكة، وهذا درس ينبغي أن يبقى في الآباء، وفي كل إنسان مكنه الله في الأرض، أما محور الخطبة الأساسي، هو أن الممكن في الأرض، ما مكنه الله في الأرض إلا ليفعل الخير، ما مكنه الله في الأرض إلا ليكون مع الضعيف، ما مكنه الله في الأرض إلى ليكون مع الفقير، ما مكنه الله في الأرض إلا ليزيل الفساد في الأرض.. إزالة الفساد، وتمكين الضعيف، وإغناء الفقير، وإزالة المنكر، هي مهمة الممكن في الأرض الذي هو بشكل أو بآخر خليفة الله في الأرض.

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام:

اكتشف أحد العلماء الفرنسيين أن في مقدور النبات حساب الزمن إذ أن بعض أوراق بعض النباتات تؤدي حركات معينة، في وقت محدد من اليوم، إذاً هذا النبات عنده ما يسميه العلماء ساعة بيولوجية، تحسب له الزمن.

واكتشف العلماء أيضاً أن في الحيوان ما يشبه ما في النبات، فهناك حيوانات تعرف بدقة بالغة مرور الزمن، فتتجه إلى مكان سباتها في الشتاء، لو تأخرت قليلاً لماتت، لو بكرت أو تأخرت لماتت، بحساب دقيق تؤوي بعض الحيوانات إلى أوكارها لترقد طيلة فصل الشتاء ولولا أنها تعرف كيف يمر الزمن لما أمكنها ذلك، قال تعالى:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠))

[سورة طه]

لكن الحديث عن الإنسان، وفي الإنسان ساعة بيولوجية مدهشة، أنت بقواك الإدراكية تعرف أن اليوم نهار، والليل ليل، هذا في القوة الإدراكية، أما الأجهزة المعقدة في الجسم، والغدد الصماء كيف تعرف أن هذا الوقت نهار، من أجل أن تضع برنامج خاص للنهار، هذا ما يسميه العلماء بالساعة البيولوجية.

في جسم الإنسان إحساس بالزمن، غير القوة الإدراكية، غير العقل في جسم الإنسان، يعني في خلاياه، في أجهزته إحساس بالزمن، لأن خمسين وظيفة حيوية تتعاقب بحسب الليل والنهار.

بعض العلماء فسر هذه الظاهرة بالشكل التالي:

أن سقوط الضوء فوق الشبكية، ينتقل بوساطة سيالات عصبية عبر أعصاب البصر، إلى الغدة النخامية، وهي ملكة الغدد، والتي تؤمن التكامل والتكيف بين وظائف الأجهزة الداخلية، والنشاط العام للجسم يرتبط بالغدة الدرقية، فالغدة الدرقية التي فيها الاستقلاب، تحول الغذاء إلى طاقة، فهذا الغذاء يتحول إلى طاقة عالية في النهار، وطاقة متدنية في الليل، هذه الغدة الدرقية، مع الغدة النخامية تتأثر بالزمن، بل هناك ساعة تحسب تعاقب الليل والنهار.

أوضح شيء في جسم الإنسان أن كميات الهرمونات في الدم تتبدل من النور إلى الظلام الهرمونات لها نسب في الليل، ولها نسب في النهار لأن الله جعل النهار معاشاً، وجعل الليل لباساً، هذا التبدل يحدد مستوى حيوية وظائف الجسم التي تزداد نهاراً، وتتدنى ليلاً، فالحرارة مثلاً تصل في الجسم الإنساني إلى أدنى مستوى خلال الليل، وتأخذ بالارتفاع إلى أقصى درجة في الساعة السادسة صباحاً، والنبض يتبدل، نبض القلب يتبدل من الليل إلى النهار، والضغط الشرياني يتبدل من الليل إلى النهار، والضغط التنفسي يتبدل من الليل إلى النهار.

قال العلماء: مع الاستيقاظ تتراكم في الدم مادة تؤدي إلى تسارع النبض وارتفاع ضغط الدم، وهذا يؤدي إلى نشاط الجسم، لذلك هناك عند معظم الناس، ذروتان للعمل، من التاسعة حتى الثانية عشرة ظهراً ومن الرابعة حتى السادسة، في هذه الساعات التي هي ذروة النشاط تزداد قدرة الحواس الخمس، ويُنصح ببذل الجهد في هاتين الذروتين والخلود إلى الراحة في أوقات انخفاض مستوى النشاط البشري، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا..))

[أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

ما تفعله في النهار لن تستطيع أن تفعله في الليل.

قال بعض العلماء: هذا الذي يعمل ليلاً ونهاراً بنوبات سريعة هذا تضطرب عنده الساعة البيولوجية في جسمه، والمعدة تكون قدراتها الإفرازية، وقدراتها على هضم الطعام قليلة أثناء الليل، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أذيبوا طعامكم بذكر الله ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم))

اكتشف العلماء مرضاً عند رجال الأعمال، هؤلاء الذين يتنقلون سريعاً من مدينة إلى أخرى، هؤلاء الذين يتنقلون بهذه السرعة تضطرب عندهم الساعة البيولوجية، هذا من أدق صنعة الله عز وجل:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨))

[سورة النمل]

عندك ساعة، تبرمج الهرمونات، والنبض، والضغط، والحرارة والقدرة على الهضم، وهذه الساعة تدرك إذا كنت في النهار أم في الليل دون أن يكون لها علاقة بقوتك الإدراكية، هذا صنع الله الذي أتقن كل شيء..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١))

[سورة الذاريات]

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٧٣ : خ١ -وصية لقمان لابنه١ (الحكمة وعدم الشرك) ، خ٢ - الاستقامة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٩-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

انسجاماً مع الاحتفال الذي سبق هذه الخطبة، في مناسبة انتهاء الدورة الصيفية، لتحفيظ القرآن الكريم في هذا المسجد، سيكون إن شاء الله محور هذه الخطبة، وصية لقمان لابنه، وصية جامعة مانعة، فيها أصول العقيدة والعبادة والمعاملة، يقول الله عز وجل:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١))

[سورة لقمان]

الحكمة ـ أيها الإخوة ـ أعظم عطاءٍ إلهي على الإطلاق، إنها جائزة الطاعة، تطيعه يؤتيك الحكمة، قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ(٢٦٩))

بنص القرآن الكريم، ومن يؤتى فقد اوتي خيراً كثيراً الله جل جلاله أعطى المال لمن لا يحب، أعطاه لقارون:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩))

[سورة القصص]

وأعطاه لمن يحب، وأعطاه لسيدنا عثمان ذي النورين رضي الله عنه أعطاه لسيدنا عبد الرحمن بن عوف، لكنك إذا رأيت غنياً مؤمناً تشتهي الغنى، التواضع، والسخاء، والإنفاق، وضبط الإنفاق. أعطى الملك لفرعون وهو لا يحبه، وأعطاه لسليمان ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، إذا أعطى الشيء لمن يحب ولمن لا يحب إذاً ليس مقياساً، هذه نعمة موقوفة على نوع استخدامها:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦))

[سورة الفجر]

ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، ومنعي دواء يعطي هذا العطاء موقوف على نوع استخدامه، فإذا استخدم في طاعة الله كان نعمة، وأي نعمة ورب الكعبة، وإذا استخدم في الشر في الإيقاع بين الناس، كانت نقمة، وأية نقمة ورب الكعبة.

لكن الحكمة، لا تُعطى إلا للمؤمن.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢))

[سورة القصص]

إنها عطاء متميز، العلم والحكمة عطاء متميز، الحكمة ـ أيها الإخوة مرةً ثانية ـ أعظم عطاء إلهي، إنها جائزة الطاعة، وبضدها تتميز الأشياء:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١))

[سورة محمد]

أعمالهم ضالة، أعمالهم مضلة، أعمالهم لا تحقق أهدافها:

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧))

[سورة الأعراف]

المؤمن يؤتى الحكمة، الكافر يُحبط عمله، تُضل أعماله، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم، ما الحكمة ـ أيها الإخوة ؟.

قال بعض العلماء: النبوة، وقال بعضهم: المعرفة بالقرآن..

" من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً منه، فقد حقر ما عظم الله تعالى ".

" خيركم من تعلم القرآن وعلمه ".

" يا علي، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها خير لك من حمر النعم، خير لك مما طلعت عليه الشمس ".

الحكمة الإصابة في القول والفعل، أن تقول الكلمة المناسبة، للرجل المناسب في الوقت المناسب، بالقدر المناسب، وأن تفعل الفعل المناسب في بالقدر المناسب في الوقت المناسب في الظرف المناسب، هذا من تعاريف الحكمة.

الحكمة المعرفة بدين الله، وهي أعظم معرفة على الإطلاق، إذا كنا نقول فضل كلام الله على كلام خلقه، كفضل الله على خلقه، نقيس على هذه القاعدة، فضل من عرف الله، على من عرف سواه كفضل الله على خلقه.

الحكمة المعرفة بدين الله، واتباع ما جاء فيه.

وقال بعضهم: الحكمة هي الخشية.

وقال بعضهم: الحكمة هي الفهم في القرآن الكريم.

وقال بعضهم: الحكمة هي الورع.

وقال بعضهم أيضاً: الحكمة ضالة المؤمن، ومن يرد الله به خيراً (كما قال عليه الصلاة والسلام) يفقه في الدين.

لذلك قال تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣))

[سورة الأنفال]

فإذا سمعت الخير، فهذه بشارة من الله، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، فإذا أتيح لك أن تسمع الخير، فهذه بشارة من الله، لأن أكثر من ستمائة مليون يعبدون البقر، وأكثر من ألف مليون يعبدون آلهة ما أنزل الله بها من سلطان، إذا أتيح لك أن تعبد الله وأن تعرفه، وأن تعرف دينه، فهذه نعمة لا تعدلها نعمة.

ورد في تفسير القرطبي نصاً موقوفاً على صحابي اسمه ثابت ابن عجلان الأنصاري، يقول: إن الله تعالى إذا أراد بأهل الأرض عذاب، فإذا سمع تعليم الصبيان الحكمة، صرف عنهم ذلك العذاب، لأن هؤلاء الصغار رجال المستقبل إذا علمتم الصغار ، إذا اعتنيتم بتربيتهم، إذا اعتنيتم بمعرفتهم بالقرآن الكريم، إذا نشؤوا على محبة الله، على معرفة الله وعلى محبته وعلى طاعته، وعلى حب آل بيته، وعلى الأدب بأدب القرآن الكريم فهذه نعمة لا يعرفها إلا من أتيحت له.

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ(٢٦٩))

الآن وازن بين هذه الآية، وبين قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧))

[سورة النساء]

أن تملك الملايين المملينة، أن تسكن في أجمل البيوت، أن تركب أجمل المركبات، هذا عند الدنيا متاع، وقل متاع الدنيا قليل، لأنه منقطع، يأتي الموت فيلغي كل شيء، أما إن كان لك عمل طيب، تلقى الله به، هذا هو الغنى الحقيقي، وتربية الأولاد من أجل الأعمال الطيبة لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهم عَنْهم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدرامي]

قال تعالى:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢))

[سورة لقمان]

قال علماء النحو، هذه الـ أنْ تفسيرية، أي الحكمة تعني أن تشكر الله لأن الله جل جلاله، سخَّر للإنسان هذا الكون تسخير تعريف وتسخير تكريم، له مهمة كبرى، أن تعرف الله من خلاله، وله مهمة دنيوية أن تنتفع به، نظر النبي عليه الصلاة والسلام إلى الهلال فقال:

((عن قَتَادَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

[انفرد به أبو داود]

خير ننتفع به في الدنيا، ورشد يرشدنا إلى الله عز وجل، فكل شيء خلقه الله عزو جل، له وظيفتان، وظيفة تعريفية، ووظيفة نفعية، فما دام الكون قد سخر للإنسان تسخيرين، تسخير تعريف، وتسخير تكريم ماذا ينبغي أن تقف من تسخير التعريف ؟.. أن تؤمن بالله، وماذا ينبغي أن تقف من تسخير التكريم ؟.. أن تشكره، إن عرفته وشكرته، حققت الهدف من وجودك، والدليل قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧))

[سورة النساء]

يعني لك مهمة واحدة، أن تعرفه، فإذا عرفته أنت حسناً من عطاء الله عز وجل.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١))

[سورة الإنسان]

أنعم عليك بنعمة الإيجاد، وأنعم عليك بنعمة الإمداد، وأنعم عليك بنعمة الهداية والإرشاد، فالله سبحانه وتعالى تفضل عليك بأن أوجدك وتفضل عليك بأنه أمدك، وتفضل عليك بأنه هداك إليه، فماذا ينبغي أن تفعل ؟ لابد من أن تشكر، فحينما تشكر تكون حكيماً، حينما تشكر تكون قد أوتيت الحكمة، حينما تشكر تحقق الهدف من وجودك، تفتح الطريق إلى الجنة، حينما تشكر تحقق الهدف الذي من أجله خلقت.

وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه

ولقد آتينا لقمان الحكمة والحكمة أن اشكر لله..

قال بعض العلماء الحكمة أن تعرف الحقيقة، وأن يأتي عملك موافقاً لها قد تعرف ولا تفعل فلست حكيماً، قد تتعلم ولا تطبق ما تعلمت لست حكيماً، لا تُسمى حكيماً إلا إذا عرفت الحقيقة، وجاء السلوك اليومي متوافقاً معها.

يعني إذا عملت بما علمت كنت حكيماً.

ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله..

اسألني عن النهايات، نهاية العلم، قد تحمل أعلى شهادة في الأرض قد تترك مائتي مؤلف، نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى فإذا وحدته وأطعته وصلت إلى النهايتين، حزت المجد من أطرافه كلها أن توحده، وأن تعبده، الدين كلمتان، توحيد وعبادة.

وقال بعض العلماء: ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله الشكر: صرف النعم إلى ما خُلق الإنسان من أجله، يعني أن تستغل نعمة الصحة في أداء الطاعات، وأن تستغل نعمة الفراغ في التقرب إلى الله، وأن تستغل نعمة المال في الإنفاق في سبيل الله، وأن تستغل نعمة الأمن لتتقلب في رحمات الله، أن تنفق النعم الذي أوتيت إياها وفق منهج الله أن تحقق الهدف من وجودك، الشكر: صرف النعم إلى ما خُلق الإنسان من أجله.

آية كريمة تكررت في القرآن أكثر من عشرين مرة:

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢))

[سورة المؤمنون]

قالها سيدنا نوح، وقالها سيدنا هود، وقالها سيدنا صالح، وقالها سيدنا شعيب، وجاءت هذه الآية في أكثر من سورة، أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هذا هو الدين.

الإنسان أحياناً يحب الضغط، يحب كلمات جامعة مانعة، يحب كلمات موجزة، الدين كله أن توحده، وأن تعبده، الجانب العلمي هو التوحيد الجانب السلوكي هو الطاعة، أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره بل إن فحوى دعوة الأنبياء جميعاً من دون استثناء، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥))

[سورة الأنبياء]

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً من دون استثناء، أن توحد، وأن تعبد.

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢))

[سورة لقمان]

أولاً: الآية الثانية:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣))

[سورة لقمان]

لا يمكن أن تكون موعظة الأب لابنه متهمة، لا يمكن أن تكون موعظة الأب لابنه مشكوك فيها، إن أخلص نصيحة يجزيها الأب لابنه، لأن الله أودع في قلوب الآباء الشيء الذي لا يوصف، أودع في قلوبهم من المحبة، أودع في قلوبهم من العطف، أودع في قلوبهم رغبة أن يكون أبناؤهم أرقى منهم، في حياتك إنسان واحد يتمنى أن تكون خيراً منه هو أبوك، لذلك لا يمكن أن نشكك في نصيحة الأب، ولا يمكن أن تكون هذه النصيحة متهمة إطلاقاً.

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣))

بما ذا بدأ.. لا تشرك بالله

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥))

[سورة الزمر]

الشرك ظلم عظيم، ظلم عظيم للنفس، أشد أنواع الظلم أن تحرم نفسك السعادة الأبدية التي خُلقت من أجلها، هذا ظلم ما بعده ظلم، هذه خسارة ما بعدها خسارة، أشد أنواع الظلم أن تشرك بالله، أن تتجه إلى غيره، إنك إن اتجهت نحوه كل الخير، كل السعادة، كل الأمن، كل الرضا، كل الغنى، كل الطمأنينة، أما إذا اتجهت إلى غيره، غيره لا شيء، سلكت في طريق مسدود، أُصبت بالإحباط، أُصبت بخيبة الأمل لو أن لك مبلغاً كبيراً جداً، تقبضه في حلب، وركبت قطار حلب، قد تخطئ أخطاء كثيرة، لكن القطار يسير إلى حلب، قد تقطع من الدرجة الأولى، وتجلس في مقطور من الدرجة الثالثة، هذا خطأ، قد تجلس مع شباب أزعجوك، قد تتلوى جوعاً ولا تعلم أن في القطار مطعماً، قد تجلس عكس اتجاه القطار، تصاب بالدوار، لكن في النهاية القطار متجه إلى حلب، وستأخذ هذا المبلغ الكبير، أما هناك خطأ لا يُغتفر، لا يُصحح، أن تركب قطار درعا، مهما كان فخماً إلى لا شيء، مثلاً..

فيا أيها الإخوة الكرام:

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

حينما يشرك الإنسان فقد كل شيء، لذلك يجب أن نعتني في عقيدة أولادنا، لأن الخطأ في السلوك قد يصحح، بينما الخطأ في العقيدة لا يُصحح، كيف أن الخطأ في الميزان لا يُصحح، لكن الخطأ في الموزون لا يتكرر..

أيها الإخوة ـ افتراض..

لو أن الخطأ في العقيدة لا ينعكس خطأً في السلوك اعتقد ما شئت ولكن يجب أن تعلم علم اليقين، أن كل خطأ في العقيدة لا بد من أن ينعكس خطأً في السلوك، فعلى الآباء أن يعتنوا بعقيدة أولادهم.. سيدنا لقمان بماذا بدأ النصيحة:

(لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

بين يدي آيات كريمة تتحدث عن الشرك، الآيات التي تتحدث عن الشرك تزيد عن مائة وسبعة وستين آية، اخترت لكم بعضها، لنجد ما هي أخطار الشرك.

أولاً:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١))

[سورة آل عمران]

المشرك خائف دائماً، المشرك يأكل قلبه الخوف، سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا.. لن تجد في الأرض مشركاً واحداً ليس في قلبه خوف، خوف يملأ قلبه، هذا قانون، زوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعده ووعيده.

أيها الآباء، يا أولياء الأمور، يا أولياء الفتيات، قال تعالى:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة آية ٢٢١]

ابحث عن الإيمان فيمن يكون زوجاً لبنتك، ابحث عن الإيمان ولا تعبأ بمظاهر الدنيا.. ويا أيها الشباب، قال تعالى:

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

[سورة البقرة آية ٢٢١]

هذا هو الشرك..

أيها الإخوة الكرام:

كما قلت قبل قليل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً (٤٨))

[سورة النساء]

إن اتجهت لغير الله فالطريق مسدود، ذنب لا يُغفر وهو الشرك بالله وذنب لا يُترك وهو ما بينك وبين العباد، وذنب يُغفر وهو ما كان بينك وبين الله.. حقوق العباد مبنية على المشاحة، وحقوق الله عز وجل مبنية على السماحة، أما الذنب الذي لا يُغفر أن يشرك الإنسان بالله إلا أن علماء التفسير قالوا، إن الله لا يغفر أن يُشرك به: ما لم يَتب، فإذا تاب ؛ الإسلام يجبُّ ما قبله.

قال تعالى:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢))

[سورة المائدة]

الإيمان طريق الجنة، والشرك طريق النار،

(مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنصَارٍ)

حتى الشرك في الدنيا، يتناقض مع فطرة الإنسان، يشرك إعلاناً ولا يشرك حقيقةً، لأنه يعرف نفسه حق المعرفة:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤))

[سورة القيامة]

(ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣))

[سورة الأنعام]

أيها الإخوة الكرام:

عار بالإنسان أن يذكر الله عند المصيبة، فإذا أكرمه الله وأزاح عنه هذه المصيبة، عزى خلاصه منها إلى البشر..

مرض عضال يصيب الابن، الأب يدعو الله، يبتهل إليه، يرجوه يجأر بالدعاء، فإذا أكرمه الله بشفاء ابنه، عزى هذا الشفاء إلى بعض الأطباء، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤))

[سورة الأنعام]

الشرك أن تتوجه إلى غير الله، قال تعالى:

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩))

[سورة الأنعام]

إذا توجهت إلى غير الله، إذا عقدت الآمال على غير الله، فهذا هو نوع من أنواع الشرك بمعناه الواسع.

المؤمن لا يخاف من القوى التي في الأرض، إلا أن يسمح الله لها أن تصل إليه، هذا معنى دقيق.. وحش كاسر، حشرة مميتة، حية رقطاء عقرب شائلة، هذه الحشرات المؤذية، لن تستطيع أن تصل إلى الإنسان إلا إذا أذن الله وهذه الآية تضبط هذا الموضوع:

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢))

[سورة الأنعام]

وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، أنا أخاف من قوة إذا سمح الله لها أن تصل إلي فقط، لذلك قال الله تعالى:

(أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

[سورة هود]

فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *

الإنسان حينما يشرك كل علمه في الأرض يحبطه الله عز وجل، قال تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (٢٣))

[سورة الفرقان]

إما أن العمل يسقط، وإما أن العمل يبطل أجره، قد يكون العمل مقبولاً عند الناس، ولكن لأن صاحبه قد أشرك بالله، هذا العمل لا أجر له عند الله.. يا رب قد علمت العلم من أجلك، يُقال له كذبت علمت العلم ليقال عالم، وقد قيل، خذوه إلى النار، الإنسان حينما يشرك يُحبط عمله، ولو كان عملاً طيباً يخسر أجره يوم القيامة، أو أن هذا العمل يسقط بالمقياس الأرضي.

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨))

[سورة الأنعام]

أنت أيها المؤمن مُكلف أن تعرض عن المشركين، قال تعالى:

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦))

[سورة الأنعام آية ١٠٦]

(وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١))

[سورة الأنعام آية ١٢١]

يجب أن تعرض، ويجب أن لا تنساق مع أهل الشرك، أهل الشرك جبريون..

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨))

[سورة الأنعام]

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣))

[سورة الأعراف]

لذلك قال بعضهم، وأظنه الإمام الغزالي: قال لئن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون.

يبعدهم عن الله عز وجل، هذا يرتكب أكبر معصية على الإطلاق.

لكن لا ينبغي أن نكون بعيدين عمن طلب منا أن يعرف الله، قال تعالى:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦))

[سورة التوبة]

كن مع الناس، عش معهم، خذ بيدهم إلى الله، كن في برج عاجي أخلاقي، ولا تكن في برج عاجي فكري، الأنبياء كانوا مع الناس ليأخذوا بيدهم إلى الله، ولكنهم نأوا بأخلاقهم عن سقطات الناس. الله جل جلاله يعطينا هذا التوجيه:

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧))

[سورة التوبة]

من أجل أن يكون المسلم قدوةً..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨))

[سورة التوبة]

لم يقل الله عز وجل إنهم نجسون، قال إنهم نجس الشيء النَجِس يُطهر، أما النجَس عين النجاسة، لا تطهر أبداً، فلا ينبغي أن تقيم علاقة حميمة مع مشرك، إنه يصرفك عن الله عز وجل، يبعدك عن الجنة، بعدك عن أهل الإيمان، يغريك بالمعصية والآثام، لذلك هذا تحذير من الله عز وجل.

وهذا الشرك لا يقف على حقيقة، لا أصل له، ليس بشيء، بنيان هاوٍ ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، إن يتبعون إلا الظن، وإن هم إلا يخرصون، والشيء الذي لا يُصدق، أن الشرك بمفهومه الواسع يصيب كثيراً من المؤمنين، قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦))

[سورة يوسف]

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨))

[سورة يوسف]

يعني إذا دعوت إلى نفسك، أو دعوت إلى غير الله، أو كانت الدعوة دعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله، هذا نوع من الشرك، يجب أن تختفي أنت، أن تظهر حقيقة هذا الدين، أن لا يكون لك وجود وأنت تشرح حقائق الدين، يجب أن ينصرف الناس إلى الله ورسوله، لا إليك بالذات :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨))

لو دعوت إلى غير الله، أو لو دعوت إلى الله من دون بصيرة لكنت من المشركين.

أناس كثيرون جداً، تزل أقدامهم فيلعنون الشيطان، اسمع الإجابة:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢))

[سورة إبراهيم]

والإنسان ـ أيها الإخوة ـ ستأتيه لحظة إذا كان مشركاً يعض أصابعه ندماً، يا ليتني لم أشرك بربي أحداً، نحن في الدنيا، نحن في بحبوحة مادام في العمر بقية فأنت في بحبوحة، وحد يا أخي، لا ترى مع الله أحداً، الله هو الذي يرفع، هو الذي يخفض، هو الذي يعطي، هو الذي يمنع، هو الذي يعز، هو الذي يذل، لا تشرك بالله.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠))

[سورة الكهف آية ١١٠]

بل إن المسلمين وهم يعدون مليار ومائتي مليون، لماذا لم يستخلفهم الله عز وجل ؟ ولماذا لم يمكن لهم ؟ ولماذا لم يطمئنهم ؟.. الجواب قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥))

[سورة النور]

فإذا تطلعنا إلى غير الله، إذا أردنا أن نقيم حياتنا على منهج غير منهج الله، إن أردنا أن نأخذ من الغربيين ما عندهم من نظم لا ترضي الله، حينما نشرك في أخذ مناهج غير منهج الله عز وجل، هذا هو الجواب، لأن الله لم يستخلفنا، ولم يمكنا، ولم يطمئنا.

الله عز وجل يقول:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨))

[سورة العنكبوت]

ما من إنسان على وجه الأرض له حق عليك كحق والدين ومع ذلك:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

يا بني ـ أم سيدنا سعد ـ سأدع الطعام حتى أموت، أو تكفر بمحمد قال يا أمي قال يا أمي لو أن لك مائة نفس فخرجت واحدة واحدة، ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئت أو لا تأكلي.

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥))

[سورة لقمان]

هؤلاء الذين أشركتهم مع الله

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر]

أيها الإخوة الكرام:

موضوع الشرك موضوع خطير جداً، بمعناه الضيق، أن تقول بوذا إله، هذا ليس في مجتمع المسلمين.. بالمعنى الضيق أن تقول إن بوذا إله، وأن هذه البقرة إله، هذا ليس موجوداً في عالم المسلمين إطلاقاً:

" أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوة خفية، وأعمال لغير الله ".

الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وأقله أن تغضب على نصيحة، وأن تحب على جور.

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد هو الإيمان، والتوحيد هو الإسلام، والتوحيد فحوى كل الأديان، والتوحيد هو العقيدة والطاعة هي السلوك، فمن عرف الله واحداً، كاملاً، موجوداً، وأطاعه فقد حقق الهدف من وجوده، فقد جمع المجد من كل أطرافه.

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

آية أخيرة أختم بها هذه الخطبة، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ(٦))

[سورة فصلت]

فاستقيموا إليه، واستغفروه عن الماضي، أنت الآن في المستقبل استقم إليه استقم إليه استقامةً تصلك إليه، والماضي لا تعبأ به، الإسلام يجب ما قبله..

" لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي ".

(أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)

كل الويل، كل الهلاك، كل الشقاء، كل الإحباط، كل خيبة الأمل لمن أشرك بالله،

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٧٤ : خ١ -وصية لقمان لابنه٢ (علاقة المرء بوالديه) ، خ٢ - كيف عرف الله؟.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٩-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

في الخطبة السابقة بدأت وصية سيدنا لقمان لابنه، وبينت لكم في حينه أن هذه الوصية تُعد منهجاً تربوياً، فيها أصول مناهج التعليم في بلاد المسلمين، بدأت في الخطبة السابقة، بالعقيدة:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣))

[سورة لقمان]

وبينت لكم أن الدين كله توحيد، وأن فحوى دعوة الأنبياء جميعاً توحيد وعبادة، وأن التوحيد نهاية العلم، والتقوى نهاية العمل، وننتقل اليوم إلى فقرة أساسية من وصية سيدنا لقمان عليه السلام لابنه وهو يعظه قال تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨))

[سورة العنكبوت]

هاتان الآيتان ـ أيها الإخوة ـ تبينان علاقة المرء بوالديه، وفيهما حقائق دقيقة، وتوجيهات حكيمة. قلما تجد في القرآن الكريم وصية للآباء بأولادهم إلا آية المواريث:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

[سورة النساء آية ١١]

وآية قتل الأولاد من إملاق:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

[سورة الأنعام آية ١٥١]

فيما سوى هاتين الآيتين لا تكاد تجد في القرآن الكريم كله آيات كثيرة توصي الآباء بالأبناء، لماذا؟.. قال: لأن الفطرة وحدها ـ طبع الإنسان، فطرته، جبلته، برمجته، تصميمه ـ لأن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوليد من قبل والديه، الفطرة وحدها مدفوعة إلى رعاية الأولاد لضمان استمرار الحياة، إن الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما، وأعمارهما، ومن كل ما يملكان، من غالٍ ورخيص ونفس ونفيس، من غير تأفف، ولا شكوى، بل من غير انتباه ولا شعور، بل في نشاط وفرح، وسرور، كأنهما هما اللذان يأخذان الفطرة وحدها كفيلة بتوجيه الآباء لرعاية

أبنائهم.

زرت مستشفى للأطفال، الشيء الذي يلفت النظر، أن كل الأمهات من كل الاتجاهات، والمستويات، والانتماءات، جاهلة، ومتعلمة محجبة، ومتبرجة، تحرص على سلامة ولدها حرصها على وليدها.

هذه هي الفطرة، ولولا الفطرة لما استمرت الحياة..

قصة رمزية ـ ذكرتها لكم من قبل ـ أن أحد الأنبياء الصالحين رأى أماً تخبز على التنور، وكلما وضعت رغيفاً في التنور قبلت ابنها، وضمته وشمته، فعجب هذا النبي الكريم من هذه الرحمة التي في قلب الأم فأعلمه الله أن هذه الرحمة من عند الله، ولو نُزعت لألقت الأم ابنها في التنور، هذه رحمة ليست قسرية، إنها رحمة فطرية، رحمة الآباء بأولادهم طبع، فطرة، جبلة، لكن الذي ينبغي أن نعلمه علم اليقين أن برَّ الأبناء بآبائهم تكليف.

الوليد ـ أيها الأخوة ـ في حاجة إلى الوصية المكررة ؛ ليلتفت إلى الجيل المضحي، المدبر، المولي، الذاهب في أدبار الحياة، بعدما سكب عصارة عمره، وروحه، وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة، دين ووفاء، أب ضحى، وأم ضحت بكل شيء من أجل ابنهما.

الآن الابن يوصيه الله عز وجل أن يرد الجميل..

أيها الإخوة الكرام:

وصية الله للأبناء تكررت:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥))

[سورة الأحقاف]

آية ثانية:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤))

[سورة لقمان]

آية ثالثة:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨))

[سورة العنكبوت]

المرأة التي تحمل وليدها وصفها الله عز وجل فقال:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَين)

المرأة في الأصل ضعيفة، وقد وصانا النبي بالضعيفين المرأة واليتيم وحينما تحمل تزداد ضعفاً على ضعف، لأن حاجة الجنين مقدمة على حاجاتها، لذلك الجنين يأخذ من عظام أمه حاجته من الكلس، كثيراً ما تُصاب المرأة الحامل بأسنانها، وضعف عظامها، لأن الجنين يأخذ كل حاجته من جسم أمه، فهي في الأصل ضعيفة، لحكمة أرادها الله، كي تتكامل مع زوجها، هي تكمل ضعفها بزوجها، وزوجها يكمل ضعفه العاطفي بها، هي سكن له، وهو سكن لها، فهذا الضعف الفطري في أصل خلقها زاده ضعفاً حملها لهذا الوليد.

من غرائب ما سمعت من بعض الإخوة الأطباء أن الذي يسميه العوام بالوحام، هو حاجة الوليد إلى نوع من أنواع الطعام، إذا كان الوليد يحتاج إلى البوتاسيوم، أو إلى الكلس، أو إلى مادة هو في أمس الحاجة إليها، شهوة الأم في أثناء الحمل تعبير عن حاجة الوليد:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ)

هذه الآية الكريمة ترسم هذا البذل النبيل، والأم تحمل النصيب الأوفر وتجود به في عطف شديد، وعميق، وحاني، ورفيق، لذلك:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ))

[أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة وأحمد]

للأم زيادة على حق الأب ثلاثة أضعاف.

روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده:

((عن بريده، عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله، هل أديت حقها ؟ قال لا، ولا بزفرة واحدة"))

الآية الكريمة:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤))

لأن الله سبحانه وتعالى وهبك نعمة الوجود، ووهبك نعمة الإيجاد ووهبك نعمة الإمداد، ووهبك نعمة الهدى والرشاد، فالشكر لله أولاً ولمن كان سبب وجودك، وقيل لك آباء ثلاث، أب أنجبك، وأب زوجك وأب دلك على الله، فالأب الذي أنجبك كان هو السبب في وجودك:

(أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

قال بعض العلماء: أن ان اشكر لي نعمة الإيمان، وأن اشكر لوالديك نعمة التربية، فالابن الذي تلقى تربية عالية من والديه، هذه نعمة لا تعدلها نعمة على الإطلاق، الابن الذي تلقى تربية عالية ؛ تربية دينية تربية أخلاقية، تربية علمية، تربية جسمية، تربية نفسية، تربية اجتماعية، تربية جنسية، الابن الذي تلقى تربية عالية المستوى من والديه، هذه النعمة تأتي بعد نعمة الإيمان بالضرورة:

(أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

وقال بعض العلماء: من صلى لله الصلوات المفروضة فقد شكر لله عز وجل، ومن دعا لوالديه عقب الصلوات المفروضة: رب اغفر لي ولوالدي، رب ارحمهما كما ربياني صغيراً، فقد شكر لوالديه.

قال بعض العلماء: لا يكون الشكر إلا في خمسة شروط ؛ حينما يخضع الشاكر للمشكور، خضوع الطاعة، وحينما يحبه، وحينما يعترف بهذه النعمة، وحينما يثني عليها، وحينما لا يستعملها فيما يكره.

تخضع لمن أسدى إليك النعمة، وتطيعه، وتعترف بهذه النعمة وتثني عليها، وتستعملها فيما يحب، فإن فعلت هذا فقد شكرت الله عز وجل.

القرآن الكريم ـ أيها الإخوة ـ فيه بالتعبير الحقوقي الحديث مؤيدات قانونية، أنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ، وسوف أحاسبك عن التقصير، وسوف أجازيك حينما تشكر، فإن للحسنة ثواباً، وإن للسيئة عقاباً.

الآية الكريمة تؤكد أن عليك أن تشكر المنعم الأول هو الله عز وجل ثم عليك أن تشكر والديك الذين كانا سبب وجودك.

خ كريم قدم من أمريكا في الصيف فحدثني بقصة لفتت نظري له ابن بارٌّ، جاء صديق ابنه الزنجي ليزور ابنه، ما كان من هذا الابن إلا أن أسرع وقبل يدي أبيه أمام هذا الزنجي، والأم أعدت طعاماً إكراماً لصديق ابنها، رأى شيئين، رأى احترام الابن لأبيه، ورأى رحمة الوالدين لابنهما.. إعداد الطعام لصديق ابنهما إكرام للابن، فطلب هذا الزنجي أن يسلم، قبل أن يسمع عن الإسلام كلمة

واحدة، رأى شيئاً مدهشاً، وهذا نحن من فضل الله عز وجل، في العالم الإسلامي بقية هذه المعاني، بقية هذه العادات الإسلامية توجب احترام الأبناء للآباء شيء رائع جداً، أن يكون الأب في مكانة علية، عند أبنائه، وأن يكون الابن موضع عناية كبرى من قبل والديه، أما هذا الأب الذي يطرد ابنته من البيت إذا بلغت سن الرابعة عشرة، من أجل أن تعمل وتأكل ولا يعرف عن أخلاقها شيئاً، هذا ليس أباً، الأب المسلم همه كله رعاية أولاده..

لكن هناك ملاحظة دقيقة جداً، هي أن الإحسان للوالدين شيء والطاعة المطلقة شيء آخر، الآية الكريمة:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥))

[سورة لقمان]

الحقيقة أن الأب والأم إذا أمراك بما أمر الله، طاعتهما واجبة، لأن حقيقة طاعتهما هي طاعة الله عز وجل، لو أمرك الأب أن تصلي لو أمرك أن تكون صادقاً، لو أمرك أن تكسب المال الحلال، لو أمرك أن تكون محسناً، هذه كلها أوامر الله، فطاعة الأب واجبة، لأنها تعبير بشكل أو بآخر عن طاعة الله عز وجل.

لكنْ في حالات قد تكون قليلة في بلادنا وربما تكون كثيرة، حينما يأمرك أبوك أن تترك فريضة، أن تترك طلب العلم، أن تترك أداء الصلوات في المسجد، حينما يأمرك أبوك أن تفعل شيئاً لا يرضي الله إما بترك فريضة، أو باقتراف معصية، سقطت طاعته.

أم سيدنا سعد ابن أبي وقاص، قالت له يا بني، إما أن تكفر بمحمد وإما أن أدع الطعام حتى أموت - وضعته أمام خيار صعب، قال يا أمي لو أن لك مائة نفس، فخرجت واحدة واحدة، ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئت أو لا تأكلي.

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥))

تجب طاعة الوالدين إذا أمراك بطاعة الله، والحقيقة طاعتهما هي طاعة لله، أما حينما يأمراك بأمر متناقض مع منهج الله، أمراك بتطليق امرأتك ظلماً، وهي امرأة صالحة، مطيعة، أمراك أن تقترف معصية أكل المال الحارم، أمراك أن تدع طلب العلم، أمراك أن تفعل شيئاً لا يرضي الله، بمثل هذه الحالة سقط عنك واجب طاعتهما، وبقي عليك واجب الإحسان إليهما، الإحسان شيء، والطاعة شيء آخر وأوضح ما في هذا الموضوع، قوله تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣))

[سورة الإسراء]

الطاعة لله وحده، والإحسان للوالدين، أما حينما تختلط الأوراق فهذا الذي يطيع أمه وأباه في معصية الله، هذا ليس باراً بهما، وكثيراً من الأبناء، حينما يمتنعون عن تنفيذ أمر من أبيهما، من والديهما، لا يرضي الله، لعل هذا الامتناع يكون سبب توبة الوالدين، لعل هذا الموقف الحازم من الابن يكون صحوة للوالدين، أما إذا ساير الابن أمه وأباه على معصية لله عز وجل، فقد زادهما طغياناً وإثماً..

((عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وأحمد]

الآية الكريمة:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

أدق ما في هذه الآية، أن كلمة ما ليس لك به علم، ليس نفي العلم بل نفي الشريك، يعني إذا قال لك عالم كبير من علماء الحديث: هذا الحديث لا أعرفه، يعني لا أصل له، إنكار العلم بالشيء أحد أنواع إنكار وجوده، فهنا الشريك ليس له أصل، ليس له وجود، لا يقوى على فعل شيء، لا يمنحك حياةً، ولا رزقاً، ولا يدفع عنك ضرّاً، ولا يجلب لك نفعاً.

وإن جاهداك على أن تشرك بي، ما ليس لك به علم، أي ما ليس بشيء لا وجود له، فلا تطعهما. يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢))

[سورة العنكبوت]

أيها الإخوة:

سقوط حق الطاعة، لا يسقط حق الإحسان:

((عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا))

ورد في السنة، أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه قالت للنبي صلى الله عليه وسلم وقد قدمت عليها خالتها، وقيل أمها من الرضاعة، فقالت:

((عن عروة بن الزبير عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهم عَنْهمَا قَالَتْ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُدَّتِهِمْ مَعَ أَبِيهَا فَاسْتَفْتَتْ

رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا قَالَ نَعَمْ صِلِيهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد]

يبقى على الابن حق الإحسان ، إذا سقط حق الطاعة يبقى حق الإحسان، فالإحسان أنت ملزم به مهما يكن الأب، مؤمن، منحرف مقصر، عاصٍ، كافر، أي أب له عليك حق الإحسان، ولعل أداء حق الإحسان يكون سبباً في هداية الأب، وكم من أب لان قلبه من إحسان ابنه، كم من أب لان قلبه، وأحب أن يتوب إلى الله من شدة إحسان ابنه.

أيها الإخوة الكرام:

في الآية شيء دقيق، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

[سورة الكهف]

قالت علماء اللغة: فعل ألفينا في العربية، يعني وجدناه غافلاً عاشرت القوم فما أجبنتهم، أي ما وجدتهم جبناء، عاشرت القوم فما أبخلتهم يعني ما وجدتهم بخلاء، أغفلنا بمعنى وجدناه غافلاً:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

ولكن الله عز وجل يقول لا تتبع هذا، واتبع من ؟ اتبع سبيل من أناب إلي، هذا الذي يرجع إلى الله تائباً، عرفه، عرف الطريق إليه، تخلق بأخلاق هذا المنهج العظيم، اتبع سنة سيد المرسلين، هذا الذي نور الله قلبه، وأصلح سريرته، وأصلح علانيته، وجعله على الحق، على المنهج المستقيم.. اتبع هذا، استنصح هذا، خذ رأي هذا:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

أيها الإخوة الكرام:

هذه الآية الكريمة، فيها بعض التفاصيل الفقهية، قال العلماء:

لا يجوز أن تطيع والديك في معصية، ولا في ترك طاعة، ولكن أجاز بعض العلماء، إرضاءً للوالدين ترك الطاعة الممضوضة، يعني بعضهم قال، الجهاد الكفائي، حينما يكون هناك جهاد كفائي وليس فرض عين، إذا دخل العدو فالجهاد فرض عين، أما إذا كان هناك رغبة في نشر الإسلام، هذا جهاد كفائي، فلو أن الأم والأب ليس لهما معيل إلا ابنهما، في مثل هذه الحالة، يجوز أن يطيعهما في طاعة ممضوضة أو جهاد كفائي.

وبعضهم قال: يمكن للابن أن يجب أمه وهو في الصلاة، في الصلاة النافلة، إذا أيقن أنها تهلك إن لم يجبها، هناك تفاصيل فقهية في هذا الموضوع، على كل طاعتهما في المباحات ليس فيه خلاف بين العلماء.

أيها الإخوة الكرام:

بقي أن الصحابي الجليل ابن عباس، استنبط من هذه الآية وهي قوله تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤))

[سورة لقمان]

جمعها مع آية أخرى:

وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، استنبط هذا الصحابي الجليل أن أقل الحمل ستة أشهر، فمن أنجب ابناً في الشهر السادس، لا ينبغي أن يشد بزوجته، فأقل مدة الحمل في الجمع بين الآيتين ستة أشهر.

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

قبل أن أصل الموضوع الآخر في الخطبة الثانية، أتمنى عليكم أن تكون هذه الوصية منهجاً لكل أب، والله فيها كل شيء، فيها العقيدة فيها بر الوالدين بالحدود الشرعية، وفيها العبادات، وفيها المعاملات، وفيها الأخلاق، منهج كامل، ولكنْ بشكل موجز، فإذا فُصل صار منهجاً لكل أب ولكل معلم، وقد ألقيت الخطبة الأولى بمناسبة حفل اختتام الدورة الصيفية، لمعهد التحفيظ في هذا المسجد، وهذه الخطب متعلقة بمنهج تعليم الصغار.

كتاب تُرجم إلى العربية، فيه ترجمة مرشد آمن بالله عز وجل، أدق ما في هذا الكتاب، هذا الرجل بعد أن عرف الله، واتصل به، وشعر بالسعادة التي لا توصف، يصف حالته قبل الإيمان، يقول: لا أحد يعرف الوحدة كالملحد فعندما يشعر الشخص العادي بالعزلة فإنه يستطيع ـ هذا الذي عرف الله ـ أن يناجي من خلال أعماق روحه الواحد الأحد، الذي يعرفه ويكون بمقدوره أن يشعر بالاستجابة، ولكن الملحد، لا يستطيع أن يسمح لنفسه بتلك النعمة العظيمة، نعمة أن تناجي الله عزوجل، وأن تنتظر إجابته.

اتصالك بالله عز وجل عن طريق الدعاء، وانتظارك استجابته عن طريق الإكرام، هذه النعمة العظمى لا يعرفها الملحد، ويقول لك:

لأن عليه أن يسحق هذا الدافع، ويذكر نفسه بسخفها، لأن الملحد عالمه صغير جداً، حظوظه إدراكاته، وهذا العالم المحدود في تناقص مستمر.

هذا الملحد يعمل أستاذاً للرياضيات في جامعة كبرى من جامعات أمريكا، منطلق بحثه عن الحقيقة، منطلق إيمانه بالله، فتاة دخلت مكتبه ـ أذكر لكم ما كتب حرفياً، يقول هذا الرجل الذي آمن بالله وأعلن إسلامه بعد أن كان ملحداً، وهو على متسوى عالٍ جداً من الذكاء، ويعمل أستاذاً في جامعة في أمريكا للرياضيات، يقول:

لن أستطع نسيان تلك الفتاة الشابة، التي جاءت إلى مكتبي تطلب المساعدة، وعندما فتحت الباب، وجدت أمامي امرأةً غامضة، بدت وكأنها من الشرق الأوسط، كانت مغطاةً بالثياب السود بشكل كامل، من رأسها إلى قدميها، بينما الفتيات هناك يسرن شبه عرايا.. لقد طلبت مني المساعدة في الجانب النظري من حقل دراستها، وقالت إن أستاذها أرشدها إلي، وافقت على مساعدتها، وسرعان ما تحطمت الصورة التي كنت كونتها عن النساء العربيات، لقد كانت طالبة دراسات عليا في الرياضيات، وهي معيدة في الجامعة التي أعمل فيها، ولكنني لم أستطع أن أتخيلها وهي تقف بتلك الملابس أمام صف من سكان انديانا الأصليين وفي الوقت نفسه كان لها وقار واتزان جعلاني أشعر بالخجل من نفسي بقربها، وجدت نفسي محاولاً عدم التحديق بها، لشدة هيبتها، لقد كان بداخلها قوة لا أعرف ما هي، ومنذ تلك اللحظة أصبح عندي اهتمام بالديانات الأخرى.

هذا المفتاح.. المؤمن، لباسه، صمته، أدبه، نفسه، وضوحه هو دعوة بكاملها، قد لا يتكلم..

دخلت فتاة محجبة، رصينة، وقورة، تسأله أن يساعدها في موضوع قال: استحييت أن أنظر إليها، شعرت بخجل أن أكون قريباً منها شعرت أن قوةً في داخلها، ما هذه القوة، هذا المنظر وسط بحر من النساء الكاسيات العاريات، شبه المتعريات في أمريكا، هو الذي دفعه إلى أن يسلم.. طبعاً قرأ القرآن، وقرأ ترجمة القرآن، وصار يصلي..

سأله مرةً رجل مستهزئاً، لمَ تصل الصلوات في المسجد، ولا سيما الجهريات، وأنت لا تتقن العربية إطلاقاً، ماذا تفهم بالصلاة، فكانت إجابته مذهلة !.. قال: ماذا يفهم الطفل الرضيع وهو على صدر أمه وهي تحدثه، ماذا يفهم من كلامها ؟ إنه يشعر بسعادة لا توصف مع أنه لا يفهم كلامها.

والله أيها الإخوة ؛ قرأت هذا الكتاب بعضه، أدركت حقيقة هي ما يلي:

أن في الكون حقيقةً واحدة هي الله، ولا حقيقة سواه، وكل إنسان من أي جنس، من أي عرق، من أي دين، من أي ثقافة، يقترب من الله عزو جل، يشعر بمشاعر موحدة تجمع المسلمين جميعاً. قد تقرأ عن رجل ليس مسلماً، كان ملحداً، بعيد عن بيئتنا، وعن ثقافتنا، وعن ظروف حياتنا، يتصل بالله عز وجل، فإنك ترى نفسك في كتابه، ما هذا السرُّ ؟.. هذا هو سرّ الإسلام، الإسلام يجمع، بينما التعصب له يفرق، التعصب للأديان يفرق، أما حقيقة الدين تجمع.

أيها الأخوة الكرام:

يقول: شعرت أن قوةً بداخلها، لا أعرف ما هي، ومنذ تلك اللحظة أصبح عندي اهتمام بالديانات الأخرى، وهذه الرحلة الطويلة، انتهت بإسلامه، وحسن طاعته لله عز وجل، وقد ألف كتاباً مطولاً، أجاب فيه ابنته الصغيرة، قالت له يا أبت لماذا أسلمت ؟.. قال هذا حقها، لأنني سأغير مستقبل أولادي، هم مسلمون مثلي، فإذا سألتني ابنتي لماذا أسلمت يا أبت، فهذا الكتاب هو جواب لها. فيا أيها الإخوة الكرام:

آن الأوان أن نصحو، إذا كنا نقلد الغرب، هؤلاء المسلمون، هذا يتمتع بذكاء من أعلى مستوى، كان أستاذه في الجامعة يقول له: اخرج من القاعة ولك العلامة التامة، لأنه إذا دخل إلى القاعة أربك الأستاذ بمثل هذا الذكاء الحاد، تسلم أعلى منصب في الجامعة، فلما رأى هذه الفتاة، والنساء حولها كاسيات عاريات، مائلات مميلات، منظر هذه الفتاة جعله ينطلق إلى معرفة الدين الإسلامي.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٧٥ : خ١ -وصية لقمان لابنه٣ (العدل - الصلاة) ، خ٢ - علاقة الغضب بالصحة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٩-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

لا زلنا مع المنهج التعليمي القويم، الذي انطوت عليه وصية لقمان الحكيم لابنه، ووصلنا إلى قوله تعالى:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦))

[سور لقمان]

حبة الخردل صغيرة جداً، ضائعة لا وزن لها ولا قيمة، هذه الحبة:

(إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

لو أن هذه الحبة، من الخردل، التي لا وزن لها، صغيرة صغيرة ضائعة لا قيمة لها، كانت في أعماق صخرة في باطن الأرض، يستحيل على البشر مجتمعين أن يأتوا بها، أو أنها في السموات، في هذه المجرات التي لا يعلم عددها إلا الله، أو في أصقاع الأرض التي لا يحصيها إلا خالقها، هذه الحبة يأتي بها الله، هذا هو علم الله عز وجل.

حينما جاء الأعرابي، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال يا محمد عظني ولا تطل فتلى عليه قول الله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

[سورة الزلزلة]

قال كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام فقه الرجل ".

لو لم يكن في القرآن الكريم كله، إلا قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

لا يعصي الإنسان ربه إلا بنقص في علمه، حينما يشعر أن الأمور هكذا، قد لا يُحاسب، قد لا يدفع ثمن هذه المعصية، يعصي، أما حينما يعلم، أنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، لا يمكن أن يعصي الله عز وجل، المعصية أساسها نقص في العلم نقص في معرفة

الله، والإيمان الذي ينجي، هو الإيمان الذي يحمل على طاعة الله، فإذا كان في السلوك خلل، إذا كان في الكسب شبهات، إذا كان في الإنفاق مشكلات، إذا كان البيت غير إسلامي، إذا كان العمل غير إسلامي، معنى ذلك أن هناك نقصاً في العلم عليك أن تستدركه، وإلا ضاع العمر سدىً.

أيها الإخوة الكرام:

ثلاث كلمات إذا أيقنتم بهن، فوالله الذي لا إله إلا هو، لا يمكن لإنسان أن يعصي ربه، إذا أيقنت أنه يعلم، لا تخفى عليه خافية وأيقنت أنه سيحاسب، ولن تتفلت من قبضة الله، وأيقنت أنه سيعاقب استقمت على أمر الله.

أنت مع إنسان قوي، حينما توقن أن مخالفة أمره تصل إليه، وأنه لن يسامح، بل سيعاقب، لا يمكن أن تجرء على معصية إنسان أقوى منك فكيف بالواحد الدَّيان، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

[سورة الطلاق آية ١٢]

من كل أسماء الله الحسنى اسمان، أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، إذا أيقنت أن علمه يطولك:

إنها إن تك مثقال حبة من خردل ـ أنت أكبر من حبة خردل ـ فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأتي بها الله.

العلماء قدروا أن في الكون ما يقترب من مليون مليون مجرة، وأن مجرتنا مجرة صغيرة بالنسبة إلى المجرات الكبيرة، وأن المجموعة الشمسية كلها، لا تزيد عن نقطة في مجرة درب التبابنة، إذا كان في الكون مليون مليون مجرة، وفي تقدير بعض العلماء أن في المجرة الواحدة مليون مليون نجم..

(يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

هذا هو علم الله، لا تخفى عليه خافية، علم ما كان، وعلم ما يكون وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون..

يعلم السرَّ.. ما أسررت، وأخفى، وما خفي عنك، يعلم خائنة الأعين، ليس في الأرض كلها، مخلوق بإمكانه أن يضبط نظرك.. طبيب يفحص مريضة، مسموح له أن ينظر إلى مكان الألم، مكان المرض، فإذا نظر إلى مكان آخر، أية جهة في الأرض تستطيع أن تضبطه إلا الله..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩))

[سورة غافر]

هذا علم الله، والله جل جلاله، سيحاسب:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

[سورة الحجر]

وسيعاقب.. تيقن من ثلاث كلمات، وانظر بعدها كيف أنك تتحرى الحق، تخاف أن تأكل درهماً حراماً، درهماً واحداً، تخاف أن تتكلم كلمة لا ترضي الله، تخاف أن تنظر نظرةً في سخط الله، عندئذ تحاسب نفسك على النظرة وعلى الكلمة وعلى أية ذرة من الأعمال، ألا يكفينا قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

ويا أيها الإخوة الكرام:

في أي مجتمع، مجتمع مدرسة، مجتمع مستشفى، مجتمع معمل مؤسسة، مسجد، لا يمكن أن تستقيم الأمور إلا بالعدل، العدل يسع الجميع، ولا يمكن أن تستقيم الحياة الإنسانية إلا بالعدل..

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦))

هذا درس بليغ، درس في العدالة بليغ..

يُذكر أن بعض زعماء أوربا، عقب الحرب العالمية الثانية، التي ما أبقت شيئاً، أكلت الأخضر واليابس، وقف هذا الزعيم يخاطب أركان حكومته، سأل وزراءه واحداً واحداً، كيف الصناعة عندك يا مستر فلان؟ قال له: المعامل كلها مدمرة... كيف الزراعة عندك يا سيد فلان؟.. الحقول كلها محروقة، كيف المال عندك يا فلان ؟.. الخزينة فارغة فسأل وزير العدل، كيف العدل عندك يا فلان، قال بخير، قال كلنا إذاً بخير.. كلنا إذاً بخير..

أيها الإخوة الكرام:

راعدل بين أولادك، اعدل بين موظفيك، الظلم ظلمات يوم القيامة اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، بل إن الله سبحانه وتعالى يجب دعوة المظلوم، لا لأنه استوفى شروط الدعاء، لا، يجب دعوة المظلوم لا بأهلية منه، بل بعدل الله عز وجل..

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦))

كم من أب مسلم، يعطي الذكور ولا يعطي الإناث، هذا ظلم شديد كم من أب مسلم يعطي أولاده من هذه الزوجة، ويحرم أولاده من تلك الزوجة، كم.. ؟ كم من أب مسلم يضرُّ بالوصية، فتجب له النار..

يا أيها الإخوة الكرام:

هذه الآية وحدها تكفينا:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦))

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

" يا محمد مثل بهم كما مثلوا بأصحابك، قال: لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً ".

أحياناً الإنسان يحتاج إلى أتباع، يقبل ولاءهم فقط، وهم يفعلون ما يفعلون، ولكن الدين شيء آخر، لن تتقرب من الله، لن يسمح لك أن تقف بين يديه، وأن تشعر بنشوة الصلاة، إلا إذا كنت مستقيماً.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد والدرامي]

قل ما شئت لكنه يحجبك بسيئتك، الذنوب قواطع، والسيئات موانع..

يا أيها الإخوة الكرام: ا لمنهج:

((إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ))

قاض في زمن المنصور، طلب مقابلته ليرفع له استقالته، قال: ولمَ؟

قال: والله يا أمير المؤمنين طُرق بابي قبل يومين، طرقه طارق وقد قدم طبقاً من رطب، فسألت غلامي من الذي قدمه ؟.. قال: رجل قلت صفه لي، قال: صفته كيت كيت، فعلمت أنه أحد المتخاصمين عندي قلت رده له، رد الطبق، في اليوم التالي وقف أمامه المتخاصمان وكان الحق مع الذي لم يقدم الطبق، فحكم له على الذي قدم الطبق ورده، قال والله يا أمير المؤمنين، تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق مع أني رفضته، كيف لو قبلته.. رفض الطبق فقدم استقالته..

لا يستقيم أمر البيت إلا بالعدل بين الأولاد، ولا يستقيم أمر مدرسة إلا بالعدل بين الطلاب، ولا يستقيم أمر مستشفى إلا بالعدل بين الأطباء والمرضى..

أيها الإخوة الكرام:

هذا منهج لحياتنا.

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦))

هناك قاعدة: (كمال الخلق يدل على كمال التصرف) انظر إلى خلق الله عز وجل، في درس الجمعة القادم،اليوم إن شاء الله، قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦))

[سورة البقرة]

هذه البعوضة التي لا شأن لها، التي لا قيمة لها،

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

هذه البعوضة، فيها جهاز رادار، وفيها جهاز تحليل، وفيها جهاز تخدير، وفيها جهاز تمييع، تطير في الظلام الدامس، تأتي على جبين الطفل عن طريق جهاز رادار تملكه، وتأخذ عينة من دمه فتفحصه، لا يناسبها، تنتقل إلى أخيه، تميع الدم كي يدخل في خرطومها، ثم تخدر الطفل كي لا يضربها.. بالرادار، والتحليل، والتمييع، والتخدير..

ولها ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، والجناح يرفُّ أربعة آلاف رفة في الثانية الواحدة، وفي أرجلها مخالب إذا وقفت على سطح خشن، وفي أرجلها احتياطات أخرى، محاجم إذا وقفت على سطح أملس، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦))

كمال الخلق ـ هل يمكن أن يكون هذا الخالق الحكيم، العظيم، العليم ظالماً ؟ !.. كمال الخلق يدل على كمال التصرف..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

[سورة الحجر]

ورد في الأثر أن الوحي انقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

ـ هكذا قرأت ـ قال:

((يا عائشة لعلها تمرة أكلتها من تمر الصدقة))

هكذا ربنا عز وجل:

((إن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً))

أعلى درجة في الذكاء، أن تقف عند حدودك، أن لا تأخذ ما ليس لك لأن الله سبحانه وتعالى سيحاسب، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢))

[سورة إبراهيم]

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧))

[سورة آل عمران]

يجب أن تبني بنيانك على تقوى من الله، يجب أن تبني تجارتك على الاستقامة، يجب أن تبني دخلك على المال الحلال، وإلا هناك تدمير لا يعلمه إلا الله.

هذا منهج في التعليم..

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦))

والشيء الثاني في هذا المنهج:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧))

[سورة لقمان]

أقم الصلاة..الدين كله اتصال بالله، الدين كله ملخص بكلمتين:

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (٣١))

[سورة مريم آية ٣١]

الدين كله اتصال بالخالق وإحسان للمخلوق، هناك حركة نحو الله اتصال بالله، وهناك حركة خيرة نحو الخلق، وبين الحركتين علاقة مستديرة، بمعنى أنه كلما أحسنت إلى الخلق رأيت الطريق سالكاً إلى الله، ولكما ازددت صلاةً، ازددت كمالاً، فانعكس هذا على خلق الله.

الصلاة تؤدي إلى مزيد من الكمال في معاملة الخلق، والكمال في معاملة الخلق، يؤدي إلى مزيد من الاتصال بالله عز وجل.

الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين.

إن الإنسان خُلق هلوعاً.. ما معنى هلوع، فسرتها الكلمات التي أتت بعدها: إن الإنسان خُلق هلوعاً إذا مسَّه الشرُّ جزوعاً.. سرعان ما ترعد فرائصه، سرعان ما تنهار قواه بالخبر السيء، هكذا خلقه الله عز وجل، خلقه شديد الخوف، شديد الجزع:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

[سورة المعارج]

شديد الخوف لخطر أمامه، حريص حرصاً بالغاً على ما في يديه يعني جبن وبخل، جبلة الإنسان هكذا، ضعف في أصل خلقه:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

لماذا ؟.. خلقه جزوعاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، لو لم يخلقه جزوعاً ما تاب إلى الله، ولا أقبل عليه، ولا انطلق إلى بابه، أما خوفه الشديد يدفعه إلى باب الله، يدفعه إلى أن يتوب، هذا الضعف في أصل خلقه يشبه ما يسميه الكهربائيون بالفيوز في الآلة، آلة غالية جداً فيها فيوز ؛ نقطة ضعف على ممر التيار، فإذا جاء التيار شديداً فجأة ساح هذا الخط الضعيف، وانقطع التيار عن الآلة، فحُفظت الآلة، ولو كانت هذه النقطة غير موجودة لاحترقت الآلة، فدائماً مثل أن نقطة الضعف في أصل خلق الإنسان، بمثابة هذه الفيوز في الآلة الغالية جداً:

إن الإنسان خُلق هلوعاً.. هكذا خُلق ضعف في أصل خلقه.. ولماذا خلقه منوعاً، حتى إذا أنفق المال ارتقى به، من منا يرقى إذا أمسك قبضة من رمل وأعطاها للفقير ؟.. لا قيمة لها.. من منا يرقى إذا أطعم الفقير طعاماً فاسداً ؟.. من منا يرقى إذا ألبس الفقير ثوباً مهترئاً، لأنه لا قيمة له عنده، لا ترقى إلا بالشيء الطيب، الشيء الجيد، الشيء الجديد، فلذلك خُلق منوعاً ؛ ليرقى إذا أنفق، لا يرقى بإنفاقه إلا إذا كان منوعاً:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

هذا الذي اتصل بالله عز وجل نجا من هاتين الآفتين، لأنه وثق بما عند الله، صار كريماً، وصار شجاعاً، عرف بان الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، توحيده جعله كريماً، وتوحيده جعله شجاعاً،

ولكن ـ أيها الإخوة الكرام ذكرت هذا من قبل ـ إذا قلت كلمة إنسان على من تنطبق ؟ تنطبق على خمسة آلاف مليون الآن، لو أضفت عليها كلمة واحدة إنسان مسلم.. ضاقت الدائرة، من خمسة آلاف مليون إلى مليار ومائتين مليون فلو قلت إنسان مسلم عربي، مائتي مليون، من مليار ومائتي مليون إلى مائتي مليون، لو قلت إنسان مسلم عربي مثقف، ضاقت الدائرة:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥))

طبقوا هذه القاعدة على هذه الآية..

كلما أضيفت كلمة ضاقت الدائرة، فهذا المصلي الذي ينجو من الهلع وينجو من الحرص والطمع، وينجو من الخوف والجبن، هذا المصلي تلك هي صفاته كلها، فإن اختلت واحدة، ضعفت هذه الثمرة التي ينالها من الصلاة.

الصلاة في أدق تعاريفها القرآنية، قرب من الله، قال تعالى:

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩))

[سورة العلق]

والصلاة في أدق تعاريفها، وعي وإدراك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً (٤٣))

[سورة النساء]

فهذا الذي لا يعلم ما يقول في الصلاة في حكم السكران، هو ليس سكران، ولكنه في حكم السكران..

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

" الصلاة ـ كما ورد في مسند الإمام أحمد ـ ميزان فمن وفى استوفى".

لا سمح الله ولا قدر، الإنسان إذا زلت قدمه وقع في مخالفة، وقام ليصلي، يشعر أن هناك حجاباً كثيفاً بينه وبين الله، فالصلاة ميزان فمن وفى الصلاة حقها استوفى منها ثمراتها " الصلاة ميزان فمن وفى استوفى ".

شيء آخر: مجتمع الغرب بأكمله قائم على الردع الخارجي، وكلما وضعنا ردعاً خارجياً جاء هذا الإنسان الذكي فاخترع ما يبطله..

نريد أن نقيد السرعات على الطرقات العامة، نضع جهاز رادار لكشف السرعات العالية، يأتي الإنسان الذي فيصنع جهازاً يكشف جهازا لرادار.. كنت راكباً سيارة في أمريكا، سمعت إشارات صوتية قلت ما هذه، قال هذا الجهاز ينبهني أن بعد خمسة كيلو متر في جهاز رادار، يخفض السرعة، عطل كل هذا النظام، هذه معركة بين عقلين قد يكون واضع النظام ذكياً، والمواطن أذكى منه، الآن هم يحتاجون إلى اختراع جهاز يكشف أجهزة السيارات.. ومعركة لن تنته.

أما النظام الإسلامي مبني على الوازع الداخلي، وشتان بين الرادع الخارجي والوازع الداخلي. في ليلة واحدة في بعض مدن أمريكا انقطعت فيها الكهرباء، فارتكبت فيها مئتا ألف سرقة.. مئتا ألف سرقة ارتكبت في ليلة واحدة، لأن النظام أساسه ردع خارجي، أما الإسلام نظامه داخلي، قال تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥))

[سورة العنكبوت]

يا هذا بعني هذه الشاة ـ راعي ـ قال: ليست لي.

قل لصاحبها ماتت.

ليست لي.

خذ ثمنها..

ليست لي.

قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله..

هذا هو الدين كله، هذا الراعي ليس عنده مكتبة ضخمة، ولا حضر مؤتمر إسلامي، ولا اطلع على الفكر الآخر، ولا رد على هذه النظريات، لكنه اتصل بالله فعرف عظمته، فوضع يده على جوهر

الدين.. إذا قلت أين الله فأنت مسلم، ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام.
الإيمان عفة، عفة عن المطامع، عفة عن المحارم، هذا هو الإيمان:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرَ)

المتصل لا يأكل المال الحرام، دققوا في هذه الآية:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ(٢٣))

[سورة ص]

الزوجان خلطاء، والجاران خلطاء، والشريكان خلطاء، قال تعالى:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)

استنبط علماء المسلمين من هذه الآية أن الذي يبغي على خليطه ليس مؤمناً، الذي يأخذ ما ليس له، عشرات ألوف الدعاوى في قصر العدل كلها افتراء وتزوير واحتيال لأخذ ما ليس لك.

سنتان بالتمام والكمال، ولم يرفع إليه أحد قضية، سنتان بالتمام والكمال ولم يرفع إليه أحد قضية، هذا هو العدل..

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥))

يعني أكبر ما فيها أن تذكر الله، والدليل:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤))

[سورة طه]

وقال بعض العلماء في تفسير آخر، قال: إنك في الصلاة تذكره وإذا ذكرته ذكرك، وذكره له أعظم من ذكرك له، إذا ذكرك طمأنك وإذا ذكرك وفقك، وإذا ذكرك حفظك، وإذا ذكرك أيدك، وإذا ذكرك نصرك ذكره لك أعظم من ذكرك له، ولذكر الله أكبر.

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥))

في الحديث الصحيح: " الصلاة نور ".

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد]

نور يقذفه الله في قلبك، قال تعالى:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢))

[سورة الأنعام]

نور.. إذا صحت الرؤيا صح العمل، وإن صح العمل سلمت وسعدت الذي يسرق لماذا يسرق ؟ لأنه يرى خطأً أن السرقة شطارة، والذي يزني لماذا يزني ؟.. لأنه توهم خطأً أن الزنا مغنماً. أما حينما ترى حقائق الأمور، حينما ترى الحقائق يصح العمل، لذلك الصلاة نور، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨))

[سورة الحديد]

نور تمشي به.. فالصلاة نور.

هناك شيء آخر: " الصلاة طهور "..

مستحيل إنسان اتصل بالله يحقد.. لا يحقد، مستحيل إنسان اتصل بالله يحتال، يتكبر، يتعجرف، يتغطرس، يحتقر الناس، هذه صفات المنقطع عن الله " إن مكارم الأخلاق عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً ".

علامة المصلي متواضع، علامة المصلي رحيم، علامة المصلي حكيم، علامة المصلي حليم، علامة المصلي منصف، علامة المصلي يتبع العدل، فإذا رأيت ظلماً، وانحرافاً، وقسوةً، وكبراً، وعجرفةً وبذاءة، هذا الإنسان احكم عليه قطعاً أنه لا يتصل بالله، قد يؤدي حركات الصلاة، لكنه لا يتصل بالله، لو اتصل بالله لكان إنساناً آخر لذلك الصلاة طهور كما قال عليه الصلاة والسلام، تطهر صاحبها من الدنس، ما فيه حقد، ولا فيه حسد، ولا فيه كبر، ولا فيه صفة مذمومة.

ما هذا الأدب يا رسول الله، ما هذا الأدب.. أدب جمٌّ.. جاءه عكرمة مسلماً، أعطى توجيه، قال: جاءكم عكرمة مسلماً، فإياكم أن تسبوا أباه.. من أبو عكرمة ؟.. أبو جهل، أعدى أعداء النبي، إياكم أن تسبوا أباه، فإن سبَّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت ".

طالب علم جاء من بلد أفريقي جالس مع إخوانه، ذكر اسم والده قال له واحد: أبوك مؤمن، مستقيم؟.. فانزعج.. الأب الكافر العدو اللدود قال: إياكم أن تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت".

ما هذا الأدب يا رسول الله قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

هذا أدب الصلاة، هذا الذي يصلي هكذا يكون.

الصلاة نور، والصلاة طهور، والصلاة سرور،

((يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

[أخرجه أبو داود وأحمد]

لسان حال المقصرين: أرحنا منها.. وهذا هو الفرق بين الواجب والحب، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.. لو أن الآية تطمئن القلوب بذكر الله، المعنى ليس هذا، تمطئن بذكر الله وبغير ذكر الله، أما حينما قُدم ألا بذكر الله تطمئن القلوب، القلوب لا تطمئن إلا بذكر الله..

لذلك سمعت هذا من إخوة كثيرين، إنسان حقق نجاح اقتصادي صار معه ملايين مملينة، شاعر بفراغ، إنسان حقق نجاح إداري، بلغ منصب رفيع جداً، شاعر بفراغ، إنسان حقق نجاح علمي نال أعلى شهادة، شاعر بفراغ، في النفس فراغ لا يملؤه إلا الإيمان بالله وطاعته والإقبال عليه، هذا الفراغ قائم، فإن لم تملأه، الدنيا كلها لا تملأ هذا الفراغ، لذلك " أرحنا بها يا بلال ".. وعن السيدة عائشة " كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة ".

وتقول السيدة عائشة أيضاً:

((كان عليه الصلاة والسلام يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا نعرفه ولا يعرفنا))

أحياناً موظف يطلبه رئيسه، يقف على المرآة يهيئ نفسه، نظر إلى هندامه، إلى ثيابه، إلى شعره، يدخل إلى مديره العام، فكيف إذا وقفت بين يدي الواحد الديان ؟..

سيدنا سعد يقول:

((ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، ما صليت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، ولا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من كتاب الله تعالى))

أيها الإخوة الكرام:

أختم هذه الخطبة بالأثر القدسي:

((ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي وكفَّ شهواته عن محارمي ، ولم يصرَّ على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي، إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس، على أن أجعل له الجهالة

حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، يسألني فأعطيه، يقسم علي فأبرُّه، أكلؤه بقربي، أستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يُمس ثمرها، ولا يتغير حالها))

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١))

[سورة المؤمنون، طه، الشمس]

من هم ؟.. الذين هم في صلاتهم خاشعون..

قال العلماء: الخشوع في الصلاة ليس من فضائل الصلاة بل من فرائضها، لقوله تعالى: قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون.

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة الكرام:

بحكم عملي في الإشراف على مجل إسلامية، اطلعت على مقالة لفتت نظري، هذه المقالة مبنية على أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: لا تغضب ".

وكاتب المقالة صديق طبيب، جاء بالمعلومات العلمية الدقيقة المطول جداً حول الأثر الفيزيولوجي الذي يحدثه الغضب في الجسم، فالموحد لا يغضب، والمتصل بالله لا يغضب، والغضب صفة لا تليق بالمؤمن يقول عليه الصلاة والسلام " لا تغضب ".. وسأعالج هذا الموضوع إن شاء الله في درس مطول، في درس الأحد، على كل ملخص هذا الموضوع:

أن الانفعالات الشديدة، تحرض الغدة النخامية، على إفراز هرمونها المحضر لغدة الكظر، غدة الكظر، تعطي أمراً للقلب بالتسارع فالغاضب نبضه مائة وستين، وتعطي أمراض للرئتين بسرعة الوجيب والغاضب يلهث، وتعطي أمراً برفع الضغط، الضغط يرتفع فجأة، قد يصل إلى واحد وعشرين، ومع ارتفاع الضغط هناك خطر نزيف في الدماغ، خثرة في الدماغ يعني شلل، أو جلطة في القلب، أو عمى مفاجئ.

قال العلماء، معظم حالات الداء السكري تأتي عقب انفعال شديد لأن الإنسان حينما يغضب.. الطريق نفسه، الغدة النخامية ملكة الغدد، تأمر الكظر، فيعطي أمراً للقلب بالتسارع، وأمراً للرئتين بسرعة الوجيب وأمراً للكبد بطرح كمية كبيرة من السكر، فالسكر يزداد فجأة في الدم وإن السكر يعطي لزوجة في الدم، لذلك الداء السكري عقب انفعال شديد جداً.

شيء آخر: الغضب الشديد يؤدي إلى ارتفاع شحوم الدم، وهذه تؤدي إلى تصلب الشرايين، وهذا يؤدي إلى أمراض في القلب.

شيء آخر: الانفعالات الشديدة تثبط حركة الأمعاء، فالعصبي المزاج معه إمساك مزمن، ومع الإمساك المزمن إنتانات، وتقرحات، وقد تؤدي إلى سرطانات في الأمعاء.

أما أخطر خطر، هو أن الانفعال الشديد يضعف جهاز المناعة في الإنسان، ومع ضعف جهاز المناعة تقوى الجراثيم والأورام الخبيثة لذلك جهاز المناعة المكتسب مسؤول عن الأمراض الجرثومية والسرطانية..

تسع وتسعون بالمائة من مرضى الإيدز عندهم سرطان، لأنه لما فقد هذا الجهاز فعاليته نمت الخلايا نمو عشوائي.

المقال طويل جداً، وتفصيلات مملة، لكن ذكرت لكم رؤوس هذه التفصيلات، هذا هو الغضب، لذلك كان الحلم سيد الأخلاق.

الحلم خلق عالٍ جداً، لكن التوحيد يعينك على الحلم، إن رأيت الأمر كله بيد الله، وأفعال الله كلها حكيمة، وكل شيء أراده الله وقع، وكل شيء وقع أراده الله، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، انتهى الأمر، لا شيء يزعج، هذا الذي حصل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

هذا التوحيد هو برد وسلام، التوحيد راحة، التوحيد طمأنينة، التوحيد ثقة بالله.

سراقة يلحق النبي ليقتله، قال كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى، دققوا في هذا القول، إنسان سيقتلك ليأخذ مائة ناقة جزاء القتل النبي عليه الصلاة والسلام واثق من أن الله لن يتخلى عنه، سيوصله إلى المدينة، وسيؤسس دولة، وسيحارب الفرس، وسوف تأتيه كنوز كسرى، وسوف يلبس سراقة سواري كسرى، هذا المؤمن، واثق من نصر الله، واثق من أن الله لا يتخلى عن المؤمنين إطلاقاً، هذا شعور صحي، شعور مريح.

اسمعوا هذه الكلمة: الإيمان صحة، صحة بالمعنى المادي، التوحيد صحة، يعني إن أردت أن تعمل الأجهزة بانتظام، الضغط معتدل والنبض معتدل والكولسترول معتدل كن مؤمناً، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢))

[سور الشعراء]

كنت أنتظر أن يقول والذي يمرضني ويشفيني، وإذا مرضت فهو يشفين، عُزي المرض إلى الإنسان، لضعف توحيده اضطر، لضعف توحيده انفعل، لشركه حقد، الحقد والانفعال أسبابها الشرك.

الإنسان إيمانه يضفي عليه صحة، مرةً سمعت أن مريضاً أراد أن يجري عملية في بلد غربي، فهو نفسه حدثني، قال: جاءتني ممرضة أدارت ظهرها لي ونسقت الأزهار، وسألتني عن الطبيب الذي سيجري العملية، سميت اسمه لها، قالت: مستحيل هذا ليس عنده وقت، قال أنا جئت من الشام على هذا.. قالت لا، هذا ليس عنده وقت أبداً، هذا أجرى عشرة آلاف عملية لم تفشل واحدة، شعرت بنشوة ـ قال لي ـ كبيرة جداً، هذه الممرضة جاءت خصيصاً لرفع معنوياته كي تنجح العملية. العلماء استنبطوا أن كلما كانت معنويات المريض عالية جداً الشفاء صار قريب جداً، فلذلك العضوية تضعف أمام النفس ذات الصلة بالله عز وجل، أما النفس المشركة الضعيفة البعيدة عن الله، قلبها هواء.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٧٦ : خ١ -وصية لقمان لابنه٤ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، خ٢ - تجربة تأثير القرآن على النبات.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-١٠-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

لا زلنا في المنهج التعليمي، والمنهج التربوي الذي ورد في وصية لقمان الحكيم لابنه، هذا منهج كامل في العقيدة وفي العبادة وفي المعاملة وفي مكارم الأخلاق.

وصلنا في الخطبة السابقة إلى قوله تعالى:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦))

[سورة لقمان]

يا بني أقم الصلاة

هذا موضوع الخطبة السابقة، الخطبة اليوم وأمر بالمعروف وانه عن المنكر..

أيها الإخوة الكرام:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة في الإسلام يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في إحيائه:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ومن أجله أرسل الله النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه (بساط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخُربت البلاد وهلك العباد، لم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد. قطب الدين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتسع دوائر الحق، وتحاصر دوائر الباطل، أما إذا سكت المسلم ولم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر اتسعت دوائر الباطل، وحاصرت دوائر الحق، فمن أجل بقاء الحق، يجب أن نأمر بالمعروف، وأن ننهى عن المنكر، قضية وجود أو عدم وجود.

يقول أحد العلماء: لو قُدر أن رجلاً يصوم النهار، ويقوم الليل ويزهد في الدنيا كلها، هو مع ذلك لا يغضب لله، ولا يتمعر وجهه إذا رأى منكراً، فلا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، فهذا

الرجل الذي يصوم النهار ويقوم الليل، فهذا الرجل من أبغض الناس عند الله، ومن أقلهم ديناً، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله منه.

الساكت عن الحق شيطان أخرس، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق ولو علم المداهن، والمداهن هو الذي يبذل دينه من أجل دنياه، يسكت عن الحق، لا يتكلم، يجامل، ينافق، ولو علم المداهن الساكت أنه أبغض الناس عند الله لتكلم ونصح، ولو علم طالب رضى الخلق بترك الإنكار عليهم، أن صاحب الكبائر أحسن حالاً عند الله منه، لتاب من المداهنة مأمورون بالمداراة، منهيون عن المداهنة، المداراة: بذل الدنيا من أجل الدين، والمداهنة، بذل الدين من أجل الدنيا.

أوحى الله إلى ملك من الملائكة: أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال يا رب إن فيها عبداً لك لم يعصك طرفة عين، قال اقلبها عليه وعليهم، فإن وجهه لم يكن يتمعَّر إذا رأى منكراً.

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

[سورة الأحزاب]

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

(يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

ما المعروف أيها الإخوة، أروع تسمية لهذا النشاط الإسلامي تسمية المعروف، لأنها تبين، أن فطرة الإنسان متوافقة مع أحكام الدين فأقم وجهك للدين حنيفاً، إقامة وجهك للدين حنيفاً، يعني أن تعطيه كل اهتمامك، أن تعطيه كل انتباهك، أن تعطيه كل جهدك، أن تعطيه كل إخلاصك، فأقم وجهك للدين حنيفاً، إقامة وجهك للدين حنيفاً هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، تطابق مائة بالمائة، بين ما جاء به القرآن الكريم، وبين طبيعة النفس البشرية، فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها..

تطابق أحكام الدين مع فطرة النفس تطابق تام، لذلك ما يُسمى بالكآبة ما يسمى بالشعور بالذنب، ما يسمى بالشعور بالنقص هذا تعذيب الفطرة لذاتها، حينما تخرج عن منهج الله.

تعريف المعروف: كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه، ألم يقل الله عز وجل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠))

[سورة الشمس]

يعني حينما تفجر تعلم أنها تفجر، وحينما تتقي تعلم أنها تتقي في أصل فطرتها، من دون معلم، من دون موجه، من دون مذكر فطرة النفس تقتضي أنها إذا كانت محسنة تعلم أنها محسنة، وإن كانت مسيئة تعلم أنها مسيئة.

فالمعروف: كل ما تعرفه النفس من الخير، وتطمئن إليه، وهو اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله، بالفطرة.

العمل الطيب يرتاح له الناس جميعاً بالفطرة، والعمل السيئ ينزعج له الناس جميعاً بالفطرة، فالفطرة مجبولة على الخير، على الحق على إقامة العدل.

المعروف: كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه، وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله تعالى، والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه، وهو من الصفات الغالبة، أي هو معروف بين الناس، إذا رأوه لا ينكرونه، لذلك قال بعض علماء الأصول، هنالك ما يُسمى بالإجماع السكوتي، أي أنك إذا ألقيت خطبة، موضوعاً، ألفت كتاباً طرحت فكرة، وكانت وفق الحق، لا أحد يعترض عليك، متى يعترض الناس عليك، إذا خالفت فطرتهم، فإذا سكتوا فمعنى ذلك أن هذا وفق المنهج لأن سكوتهم إجماع، طبعاً سكوت أهل الحق.

((عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الْأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِوَابِصَةَ جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ وَقَالَ اسْتَفْتِ نَفْسَكَ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ ثَلَاثًا الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

[أخرجه الدارمي وأحمد]

توافق الحق مع الفطرة.

أحياناً تأتي مصائب، الناس جميعاً على اختلاف مللهم ونحلهم وانتماءاتهم وأديانهم، بفطرتهم يرون أن هذه المصائب يسوقها الله لبعض من يستحق.

يقول ابن جرير الطبري، أصل المعروف كل ما كان معروفاً فعله جميلاً ليس مستحسناً غير مستقبح في أهل الإيمان، ولا يستنكرون فعله.

والمعروف: ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً، فالعقول السليمة تستحسنه ولا تنكره.

قيل لأعرابي بمَ عرفت أن هذا الإنسان رسول الله، فقال: ما أمر بشيء فقال العقل ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به.

الأصل في المجتمع المسلم أنه مجتمع المعروف، فهو متعارف بينهم يحبونه، ويقبلون على فعله وتطبيقه، أما في المجتمع المنحرف حينما يصدر تشريع بأن الشذوذ ليس شذوذاً، حينما تُعقد عقود القران بين رجلين، فهذا مجتمع طمست فيه الفطرة، ليس هذا المجتمع مقياساً للمعروف والمنكر، النفوس السليمة، الطبائع السليمة، الفطرة السليمة، المؤمنون ما أنكروه فهو منكر، وما قبلوه فهو معروف، وفي علامات آخر الزمان يقول عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا أصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، قالوا أو كائن ذلك يا رسول الله، قال كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف))

المنكر ضد المعروف، ما عُرف قبحه نقلاً وعقلاً، أصل المنكر ما أنكره الله، ورآه أهل الإيمان قبحاً فعله، بل إن الإنسان أي إنسان إذا كان صادقاً مع نفسه ينكر المنكر.

وقع تحت يدي كلمة لامرأة تعمل في الفن في فرنسا، سألوها: ما شعورك وأنت على خشبة المسرح، فقالت: شعور الخزي والعار وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الناس، إن الحب يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرف مغلقة، لأنها صادقة مع نفسها نطقت بفطرتها إن الحب يجب أن يكون بين الزوجين وفي غرف مغلقة.

بل إن الحيوان يعرف المنكر، أرأيت إلى هرة خطفت قطعة لحم من عندك أين تأكلها ؟ تأكلها بعيداً عنك، أما إذا قدمت إليها هذه القطة إليها طواعية أكلتها أمامك، قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠))

أخطر معنى لهذا الآية، معنى مدمر، أن تفهم من هذه الآية أن الله خلق فيها الفجور، أو خلق فيها التقوى.. لا، هي مخيرة، حينما تتقي تعلم أنها تتقي، وحينما تفجر تعلم أنها تفجر.

لذلك سُميت معصية الله منكراً لأن كل أهل الإيمان يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها، والذي يرتكب المنكر منبوذ من قبل أهل الإيمان.

إليكم بعض الآيات الكريمة التي تعرفكم بشأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جُعل من أخص صفات النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧))

[سورة الأعراف]

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص صفات المؤمنين

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١))

[سورة التوبة]

بل إن الوصف المضاد من أخصِّ صفات أضدادهم، (المنافقين) في المنهج والمعتقد والمصير، قال تعالى عن المنافقين:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧))

[سورة التوبة]

من علة واحدة..

المؤمنون بعضهم لبعض نضحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم ".

إن من أشرف صفات المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هؤلاء الذين اشترى الله منهم أنفسهم، شراء قطعي، بأن لهم الجنة ما صفاتهم.

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢))

[سورة التوبة]

المؤمنون إذا استخلفوا في الأرض، إذا مكنهم الله في الأرض أي مؤمن إذا رفعك الله، أعطاك منصباً قيادياً، جعلك مدير مدرسة، جعلك مدير مستشفى، جعلك مدير معمل، جعلك رئيس دائرة، المؤمن إذا مكنه الله في الأرض، أعطاه قوة ماذا يفعل بها، قال تعالى:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١))

[سورة الحج]

بل حتى الذين صدقوا من أهل الكتاب واتبعوا النبي الكريم، لماذا اتبعوا النبي الكريم ؟ لأنهم كانوا من قبل يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، قال تعالى:

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣))

[سورة آل عمران]

كل مسلم يفتخر أنَّه من أمة محمد، قال الله تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠))

[سورة آل عمران]

ما علّة هذه الخيرية، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، فلو كفَّ المسلمون عن الأمر بالمعروف وعن النهي عن المنكر فقدوا هذه الخيرية، هم أمة كأية أمة، ليس لها أية ميزة.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨))

[سورة المائدة]

ويا أيتها الأمة الإسلامية، إن لم تأمروا بالمعروف، وإن لم تنهوا عن المنكر أنتم بشر ممن خلق، إذا هان أمر الله عليكم هنتم على الله.

سيدنا عمر عملاق الإسلام، قرأ هذه الآية: كنتم خير أمة أخرجت للناس فقال: من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها ومن لم يفعل ذلك استحق الهلاك.

هل تصدقون أن سبب هلاك أمة أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فاعلون مجاملات، مراعاة خاطر، سكوت عن الحق، قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩))

[سورة الأحزاب]

لو أن هؤلاء خافوا من غير الله فسكتوا عن الحق، خافوا من غير الله فنطقوا بالباطل إرضاء له، ماذا بقي من دعوتهم ؟.. انتهت دعوتهم.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩))

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣))

[سورة فصلت]

يقول الإمام الحسن: هو المؤمن..

ومن أحسن قولاً.. أي ليس في الأرض كلها، إنسان أحسن عند الله من هذا الإنسان.. ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين.. قال الإمام الحسن: هو المؤمن أجاب

الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، فهذا حبيب الله، وهذا ولي الله، فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد عند الله.

هل تصدقون أيها الإخوة أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تلي منزلته منزلة الأنبياء، والدليل، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١))

[سورة آل عمران]

جاؤوا بعدهم تماماً... يقتلون النبين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب إليم..

ألا يكفينا ـ أيها الإخوة ـ هذا الحديث الشريف الصحيح، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتُّبِعَ فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتُّبِعَ فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا))

[أخرجه الترمذي والدارمي]

يعني إذا ساهمت في هداية إنسان، أعمال هذا الإنسان، وذرية هذا الإنسان إلى يوم القيامة في صحيفتك، لذلك:

يا علي لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها وخير لك مما طلعت عليه الشمس، وخير لك من حمر النعم ".

الدعوة إلى الله صنعة الأنبياء، وهي فرض عين على كل مسلم في حدود ما تعرف ومع من تعرف فقط.

حضرت هذه الخطبة، ألم تفقه منها شيئاً ؟.. اجعلها مدار حديثك كل الأسبوع، مع أختك، مع أولادك، مع شركائك، مع جيرانك، مع زملائك، بلغوا عني ولو آية، الدعوة إلى الله فرض عين بدليل أن الله عز وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨))

[سورمة يوسف]

رفإن لم تدع إلى الله على بصير بالدليل والتعليل فلست متبعاً لرسول الله، في حدود ما تعلم، الشيء الذي تعلمته فقط، تعلمت آية واحدة حديثاً واحداً، حكماً فقهي واحداً، قصة لصحابي جليل واحدة، هذه الواحدة انقلها للناس.

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

[أخرجه البخاري والترمذي والدارمي]

((نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة]

قد تبلغ هذا الإنسان فيكون علماً من أعلام الإسلام وهو في صحيفتك.

((إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا يُعْطَوْنَ مِثْلَ أُجُورِ أَوَّلِهِمْ فَيُنْكِرُونَ الْمُنْكَرَ))

[انفرد به الإمام أحمد]

ماذا يفعلون، قال ينكرون المنكر فقط.. إنكار المنكر يحتاج إلى جهد أكثر راحة للنفس، دعه وشأنه، ما علاقتي به، السكوت عن الحق من عمل الشيطان..

يعني أبسط مثل، رجل جاءته بنت أخيه إلى البيت زائرة بثياب فاضحة، رحب بها، وقبلها، وأثنى عليها، ولم ينبهها إلى ثيابها الفاضحة، هذا أقرب مثل لنا، أما إذا وجهها، ونصحها، وبين لها قيمة الحشمة في المرأة فقد أمر بالمعروف، انتهت مهمته.

أحد خلفاء بني أمية، صعد المنبر ليلقي الخطبة قبل صلاة العيد أمسكه أحد التابعين، قال هذا لم يفعله رسول الله، تابع الخليفة صعوده إلى المنبر وألقى خطبته، قال أحدهم أما هذا فقد أدى ما عليه..

أنت عليك أن تنصح، أن تبين، انتهت مهمتك، رُفع عنك اللوم والعتب.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة، وحينما نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نستحق الهلاك، ليس هناك استخلاف كما وعدنا، ليس هناك تمكين، كما وعدنا، ليس هناك تطمين كما وعدنا، ليس هناك دفاع عنا كما وعدنا، ليس هناك نصر كما وعدنا حينما ندع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حينما يهون أمر الله علينا نهون على الله.

يعني الإنسان أحياناً يتزوج امرأة، ولا يأمرها بالصلاة أبداً، تحقق له كل حاجاته، طبخها ممتاز، تنظيفها جيد، تروق له في شكلها، انتهى الأمر، هذا الذي لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر سيحاسبه الله عز وجل، لأنه يسهم في تقليص وتضييق دوائر الحق، أما حينما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، تعين على بقاء الحق، وعلى تنمية الحق.

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

باحث من دولة عربية مجاورة، عُرف بإنتاجه العملي على المستوين العربي والدولي، وهو أستاذ جامعي، له وزنه، اختصاصه بعلم فزلجة النبات، وقد اشتهر بتجاربه العملية الرائدة، أما التجربة قد لا تصدقونها إلا أن الواقع أثبتها، يؤكدها قوله تعالى:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤))

[سورة الإسراء]

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١))

[سورة النور]

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤))

[سورة الحشر]

ما لغير العاقل..

(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦))

[سورة الرحمن]

يقول هذا الباحث النباتات كما الأجرام السماوية، وكما مخلوقات الله الأخرى تشعر، وتسمع، وتستجيب سلباً أو إيجاباً لما من حولها من مؤثرات خارجية، هذا ملخص البحث.

أجرى هذا الباحث في حديقة كلية العلوم، نصب أربعة بيوت بلاستيكية، وزرع فيها قمحاً من نوع معين عام ألف وتسعمائة وسبعة وتسعين، هذه البيوت موحدة بحجمها، ملأها بكميات متساوية من التراب، وغرس فيها بذور الحنطة على عمق واحد، وتم تسميدها جميعاً بكميات متساوية السماد المعين، وسمى اسمه، وسقيت جميعاً بذات العدد من السقيات، وبكميات ماء متماثلة، اختار إحدى طالباته لتقرأ السورة القرآنية يس والفاتحة والإخلاص، وآية الكرسي، مرتين في الأسبوع على البيت الأول، وفي البيت الثاني، كلف طالبة أن تأتي بنبات أمام النبات، وأن تمزق النبات، وأن

تعذبه وأن تقطع أوصاله، وأن تذكر كلمات قاسية نابية أمام هذا النبات، مرتين في الأسبوع، وكلف طالبة ثالثة، بضرب النبات وكيه، وتعريض وريقاته للقص.

يعني في نبات عُذب أمامه نبات، وفي نبات تلقى التعذيب هو، وفي نبات قرئ أمامه آيات من كتاب الله..
البيت الرابع تركه لينمو نمواً طبيعياً، وأطلق عليه اسم الضابط..

فماذا كانت النتيجة ؟ النتيجة عرضها في مؤتمر علمي، النتيجة نبات البيت الذي استمع إلى القرآن الكريم ازداد طول نباته أربعة وأربعين بالمائة عن طول النبتة الضابطة في البيت الرابع، وازداد غلته مائة وأربعين بالمائة عن غلة البيت الرابع الضابط، أما البيت الثاني والثالث الذي تحمل التعذيب أو رأى التعذيب، فقد تدنى طول نبتته خمس وثلاثون بالمائة نقصاً، وهبط إنتاجه إلى ثمانين بالمائة نقصاً..

وهذا تفسير علمي للبركة، يعني المؤمن حينما يزرع يقرأ القرآن بنفس طيبة، يذكر الله دائماً، فهذا الذكر أمام النبات يزيد في الغلة.

أنا رأيت بأم عيني قبل ثلاثين عاماً فيما أذكر، حبةً قمح في الغوطة أنبتت خمسة وثلاثين سبلة، أخذت إحدى السبلات وفرطتها فإذا فيها خمسين حبة، فضربت الخمسين في خمس وثلاثين فإذا ألف سبعمائة وخمسين حبة من حبة.

هذا العالم يقول: الدنم الواحد الآن يعطي ألف وخمسمائة كيلوا، كان من الممكن أن يعطي أربعة عشر طن بالآية الكريمة:

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١))

[سورة البقرة]

لذلك ـ أيها الإخوة ـ التقنين تقنين تأديب لا تقنين عجز، هذا الذي يقول لك أن هناك نقص في المواد الغذائية في العالم، وسوف يكون الحرب على القمح أو على الماء.

على الماء.. قرأت في مجلة علمية محترمة جداً، أنه اكتُشفت سحابة في الفضاء يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم بالمياه العذبة..

فالله عز وجل إذا قنن تقنين تأديب لا تقنين عجز، قال تعالى:

(لَو اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١٦))

[سورة الجن]

لم يعد هناك حرب مياه..

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦))

[سورة الأعراف]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦))

[سورة المائدة]

ويقاس عليها القرآن..

هذا التقنين تقنين تأديب لا تقنين عجز.

وقد يستغرب أحدكم أن هذا النبات يستمع إلى القرآن ويستجيب له لم تعجبون، وقد قال الله عز وجل:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١))

[سورة الحشر]

أيها أقرب للحياة، النبات أم الجبل..

هذا القرآن الكريم أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ليكون منهجاً لنا، فالإنسان الذي أنزل القرآن من أجله غفل عنه، بينما النبات يستجيب له.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٧٧ : خ١ -وصية لقمان لابنه٥ (الصبر) ، خ٢ - البقدونس وتأثيره الصحي.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-١٠-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

لازلنا في المنهج التعليمي التربوي الذي ورد في وصية لقمان الحكيم لابنه، وقد كان موضوع الخطبة السابقة:

يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر..

واليوم واصبر على ما أصابك..

الصبر ضبط للشهوات وتحمل للمكاره، وصبر على قضاء الله وقدره.

الصبر ثمن الجنَّة..

هذه الجنة التي خُلقنا من أجلها ثمنها الصبر، فالإيمان هو الصبر، بقية المخلوقات ليسوا مكلفين، ولم يعطوا حرية الاختيار، كسائق القطار يمشي على سكة، لكن الإنسان لكرامته عند الله عز وجل، ولأنه قبل حمل الأمانة التي أشفق من حملها السماوات والأرض، سخر الله له الكون كله تسخيرين، تسخير تعريف وتكريم، وأودع فيه العقل، ومنحه حرية الاختيار، وأودع فيه الشهوات، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤))

[سورة آل عمران]

ليرقى بها صابراً أو شاكراً إلى رب الأرض والسماوات، فثمن الجنة ضبط الشهوات، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١))

[سورة النازعات]

الصبر هو الإيمان، أشدُّ شيءٍ في حياة المؤمن أنه صابر، صابر على ما أُمر، صابر عما نهي عنه، وصابر على قضاء الله وقدره فالسِّمة الصارخة في حياة المؤمن هي الصبر.

الله جل جلاله أمر بالصبر، وورد الصبر في تسعين موضعاً في كتاب الله، هذه المواضع وزعت على ستة عشر باباً، الباب الأول أن الله سبحانه وتعالى أمر بالصبر، وكل أمر في القرآن الكريم ما لم تقم قرينة على عكس ذلك، كل أمر يقتضي الوجوب، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣))

[سورة البقرة آية ١٥٣]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠))

[سورة آل عمران]

وقال تعالى:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧))

[سورة النحل]

إذا قلنا ما الكلمة التي تقابل الإيمان، إنَّها الصبر، الصبر ثمن الجنة الصبر علامة محبة الله،الصبر علامة ابتغاء رضوان الله الصبر علامة السعي للجنة، الصبر علامة الخوف من النار، إنَّ الصبر أساسي في حياة المؤمن، بنص الأوامر القرآنية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣))

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠))

يجب أن تصبر، وينبغي أن تحمل أخاك على الصبر، يجب أن تصبر وتعتقد أن الصبر من نعم الله الكبرى.

سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة، يقول الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ أُعنت على الصبر عليها..

وكما أن الله جل جلاله أمرنا بالصبر، نهانا عن ضدِّه، وهو الضَّجر قال:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥))

[سورة الأحقاف]

الاستعجال دليل نفاذ الصبر، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩))

[سورة النساء]

إنسان خدم أمه المريضة قعيدة الفراش أعواماً طويلة، تزيد عن عشرة أعوام، ثم نفذ صبره، فعلا صوته، وتأفف من وجودها في بيته فجاء أخوه، ونقلها إلى بيته، وبعد يومين توفيت، أبطل عمله كله، لا تبطلوا أعمالكم، تابع الصبر إلى نهايته، لأن جزاء الصبر بغير حساب.

يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

[سورة آل عمران]

يعني إن تكونوا تألمون أيها المؤمنون فإن هؤلاء الكفار يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون..

إذا كنت في نفق مظلم، والكافر في نفق، الكافر في نفق مسدود لكن النفق الذي أنت فيه نافذ إلى الجنة، فيه أمل، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١))

[سورة القصص]

إذا كنت في شدة أو في ضيق فأنت موعود بالجنَّة...

قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.. كما قيل عقب معركة أحد.. فأنت إن كنت في نفقٍ ضيِّق، إن كنت في ضائقة وعدك الله بالجنة قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١))

أيها الإخوة الكرام:

ربنا عزَّ وجل خالق الكون أثنى على أهل الصبر، قال:

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧))

[سورة آل عمران آية ١٧]

هؤلاء أثنى الله عليهم، إذا أثنى الله عليه فأنت في مرتبة علية عند الله عزوجل:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧))

[سورة البقرة]

لابد من الابتلاء، وطِّن نفسك، أن هذه الجنة التي وُعدنا بها، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢))

[سورة آل عمران]

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣))

[سورة العنكبوت]

يا إمام أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين، فقال الإمام الشافعي لم تمكن قبل أن تُبتلى..

جنة عرضها السماوات والأرض، تريدها بلا امتحان، بلا جهد هذا مستحيل، من أجل أن تضيف إلى اسمك كلمة دكتور، تدرس ثلاثاً وثلاثين عاماً، د. فقط على الكرت، تدرس دراسات طويلة من أجل أن تهيء نفسك لحرفة راقية، تستعد لها ضعف العمر، أربعين سنة استعداد لعشر سنوات أو عشرين، وهذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين، هذه من دون صبر، من دون جهد، من دون ثمن، ألا إن سلعة الله غالية..

" طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب ".

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧))

(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧))

أيها الأخ الكريم، ألا تحب أن يحبك الله عز وجل، إن محبة الله أثمن شيء في حياتك، ما من مرتبة تصل إليها أعلى من أن يحبك الله والصبر سبب محبَّة الله، قال تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦))

[سورة آل عمران]

إن أردت أن يحبك الله عز وجل اصبر، اصبر على طاعته واصبر عما نهاك عنه، واصبر على قضائه وقدره.

الإنسان أحياناً يقيم علاقة طيبة مع إنسان قوي، يمتلئ طمأنينة يمتلئ قلبه أمناً، يقول لك صديقي، هاتفه معي... ألا تحب أن يكون الله معك وإذا كان معك فمن عليك، من يستطيع في الأرض كلها أن ينالك بسوء إذا كان الله معك، إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، ألا تحب أن يكون الصبر سبباً لمعية الله.

قال بعض العلماء: معية الله معيتان، معية عامة ومعية خاصة المعية العامة هو مع كل خلقه بعلمه وإحاطته، مع الكافر، مع الملحد، مع المجرم، مع أي مخلوق، قال تعالى: وهو معكم أينما كنتم، المعية الخاصة، الله مع المؤمنين، معهم حافظاً، معهم مؤيداً، معهم ناصراً معهم موفقاً، معهم مسدداً، قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(٤٦))

[سورة الأنفال]

ألا تكفي هذه أن يكون الله معك، إن الله مع الصابرين..

وإن أردت توجيه الله لك، يقول الله عزّ وجل:

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦))

[سورة النحل]

خير لك أن تصبر، خير لك أن ترضى بقضاء الله وقدره، حينما تسعى وتسعى، وينتهي بك السعي إلى هذا المكان، الآن اصبر، أما إذا كان عندك مدخر من الجهد، والوقت، عند حيلة، تصل بها إلى هدفك.

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد]

حينما تُغلب اصبر، أما..

(إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩))

[سورة الشورى]

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠))

[سورة الشورى]

مأمورون أن نسعى..

من أنتم، قالوا نحن المتوكلين، قال عمر: كذبتم، المتوكل الذي ألقى حبةً في الأرض ثم توكل على الله.

أنا أصبر حينما أُغلب، لذلك قالوا هناك فقر الكسل، وفقر القدر وفقر الإنفاق.. فقر الكسل صاحبه مذموم، كسول، إرجائي، يؤخر، لا يتقن عمله، هذا يفقره الله فقر كسل، بسبب كسله.

وهناك فقر القدر، يُصاب الإنسان بعاهة، هذا فقر القدر، هذا يحتاج إلى صبر.

وهناك فقر الإنفاق، قال والله يا رسول الله إني أحبك، قال انظر ما تقول، قال والله إني أحبك، انظر ما تقول، قال والله إني أحبك، قال إن كنت صادقاً فيما تقول، للفقر أقرب إليك من شرك نعليك، هذا فقر الإنفاق.. معك مال، وأمامك فقراء مرضى، محتاجون..

شاب يتحرق على أن يتزوج، وبإمكانك أن تزوجه..

إنسان بلا عمل، بإمكانك أن تعينه..

إنسان مريض بإمكانك أن تنفق على شفائه ولا تفعل..

قال إن كنت صادقاً فيما تقول.. هذا فقر الإنفاق، هذا فقر محمود.

ماذا أبقيت يا أبا بكر، قال الله ورسوله، أنفق على النبي كل ماله.

عندنا فقر الإنفاق محمود، فقر الكسل مذموم، فقر القدر معذور عليه أن يصبر.

الصبر خير لأصحابه، قال تعالى:

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦))

[سورة النحل]

حينما تصبر الله جل جلاله، سوف يجزيك أحسن ما كنت تعمل يعني أعلى عمل لك يجزيك عليه، قال تعالى:

(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦))

[سورة النحل]

مهما قدَّمت لا تقدِّم شيئاً أمام الجنة، إنك تفع سبب دخول الجنة فرق كبير بين أن تشتري تفاحاً ثمنه عشر ليرات، وتُعطى بيتاً ثمنه مائة مليون، أنت بكل عملك في الدنيا قدمت ثمن مفتاح البيت، ولم تقدم ثمن البيت، الجنة محض فضل، وعملك سبب لدخول الجنة، ادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم..

الإنسان قد يأخذ شيك محدد.. مائة ألف، مئتا ألف، خمسمائة ألف مليون.. محدد، إلا أن الصابر أجره بغير حساب، ما قولك إنسان يملك ثروة فلكية، أعطاك شك موقع فقط، قال لك ضع الرقم الذي تريد، هكذا الصابر، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠))

[سورة الزمر آية ١٠]

بلا حساب، الصابر فقط، كل حسنة لها ثواب، ثواب محدد، إلا الصابر، يوفى الأجر بغير حساب، دقق في المثل مرة ثانية، إنسان عنده ثروة فلكية، أعطاك شيك موقع فقط، قال لك ضع الرقم الذي تريد لاتخشى مهما يكن كبيراً، ضع الرقم الذي تريد وخذ المبلغ..

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠))

الله عز وجل بشر الصابرين، قال:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥))

[سورة البقرة]

هذه الآية خاصة بالمؤمنين، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦))

[سورة البقرة]

أن تأتي مصيبة تقول يا رب لك الحمد أنا صابر، نجحت نجاحاً باهراً نلت العلامة التامة، هذا هو النجاح، يقول سيدنا علي:

" الرضى بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".

لا يمكن أن تُمتحن المركبة في الطريق الهابطة، لابد من تُمتحن في الطريق الصاعدة، تُمتحن بالرخاء، ولابد من أن تُمتحن بالشدة تُمتحن بالغنى، ولابد من أن تُمتحن بضيق ذات اليد، تُمتحن بالصحة ولابد من أن تُمتحن بشيء يوهمك أنك مريض، ماذا تقول ؟..

أب يغدق على ابنه كل شيء، من الطعام والشراب واللباس وغرفة خاصة، ونفقة كبيرة، بأحسن مدرسة، بأحسن لباس.. مرةً جلس الابن على المائدة قال له يا بني لا تأكل.. كل هذا الفضل الذي غمر الأب ابنه فيه، ألا ينبغي أن يقول حاضر يا بابا، كما تريد..

سيدنا إبراهيم قال: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك، هل هذا مقبول أن يذبح الأب ابنه، أن يذبح ابنه النبي، قال تعالى:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢))

[سورة الصافات آية١٠٢]

هذا الصبر ـ أيها الأخوة ـ يمتص كل مشكلة، لأنك تعلم أن الأمر بيد الله وأن الله إذا أراد شيئاً وقع، وإذا وقع الشيء أراده الله حكماً وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

[سورة آل عمران آية٢٦]

والله مرة احترق سوق في دمشق، يعني أحد التجار أنا أظنه صالحاً احترق محله كله، وذهب من البضاعة بالملايين، التقيت به قال لي أنا لي في التجارة ثلاثون عاماً، لعلي أكلت مرة مالاً حراماً

في هذه السنوات الثلاثين، فجعلها الله تكفيراً لي، ما رأيت تاجراً احترق محله كله، وله أموال في الصندوق احترقت أيضاً، وتلقى هذا القضاء والقدر بالصبر.. الرضى بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين.

الصابر عالم، الصابر يعرف الله، الصابر موحد، يعرف أن الأمر بيد الله، الصابر يعلم أن الله رحيم، وأن الله حكيم، وأن الله عادل.

بشرهم الله، قال:

(أولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧))

[سورة البقرة]

إنا لله: نحن ملك لله، وإنا إليه راجعون بهذه المصيبة، هكذا قال بعض العلماء..

والصبر سبب النصر، قال تعالى:

(بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ(١٢٥))

[سورة آل عمران]

أيها الإخوة الكرام: المعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، وبين حق وباطل لا تطول لأن الله مع الحق، أما بين باطلين لا تنتهي، يقول عليه الصلاة والسلام: " واعلم أن النصر مع الصبر ".

أهل الصبر أهل العزائم، الطبقة العليا نخبة المؤمنين، قمم المؤمنين هم الصابرون، قال تعالى:

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣))

[سورة الشورى]

المراتب العليا، الحظوظ العظمى، الأهداف الكبرى، لا ينالها إلا الصابرون، قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(٨٠))

[سورة القصص]

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥))

[سورة فصلت]

المرتبة العالية جداً جداً ينالها الصابر، الحظ العظيم أن يكون نصيبك من الله عظيماً ينالها الصابر، بل إن الآيات الكونية التي نصَّبها الله عز وجل من أجل أن نعرفه، لا ينتفع بها إلا الصابرون:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥))

[سورة سبأ]

بالمناسبة الإيمان نصفان، نصف صبر، ونصف شكر..

يعني مثلاً، الله أودع في الإنسان الشهوات، إذا نظر إلى امرأة تحل له وأكرمه الله بها يشكر فيرقى، وإذا غض بصره عن امرأة لا تحل له يصبر فيرقى، في الحالتين يرقى.

إذا أكلت مالاً حلالاً كسباً مشروعاً، واستمتعت بهذا المال، أنفقته على أهلك وأولادك، ترقى، ترقى شاكراً، وإن تعففت عن مال حرام ترقى صابراً، في الحالتين ترقى عند الله، إن كبرت بعين الناس بسبب طاعتك لله، ترقى، وإن كبرت بأعين الناس بسبب قوتك وبطشك تسقط فدائماً الإنسان يرقى صابراً، ويرقى شاكراً..

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥))

[سورة سبأ]

حتى الآيات لا ينتفع بها إلا الصابر

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥))

[سورة إبراهيم]

الصبار الشكور هو المؤمن، يصبر في الضراء، ويشكر في السراء هذه صفة المؤمن، في الزلازل وقور، في الرخاء شكور إذا أعطي الدنيا يشكر، إذا حُرم منها يصبر، إذا اغتنى يشكر إذا افتقر يصبر إذا صح جسمه يشكر، إذا مرض يصبر، إذا أقبلت عليه الدنيا يشكر، إذا أدبرت عنه يصبر، في الحالتين يرقى، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

عجبت لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان ذلك له خير، وإن أصابته ضراء صبر فكان ذلك له خير وليس ذلك لغير المؤمن ".

غير المؤمن في الرخاء كفور، وفي الشدة قنوط، يقنط من رحمة الله في الرخاء كفور، وفي الشدة يؤوس.

بالمناسبة ـ أيها الإخوة ـ إن أردت أن تكون إماماً للناس، والله عز وجل أمرك أن تدعو بهذا:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (٧٤))

[سورة الفرقان]

إن أردت أن تكون إماماً فطريق الإمامة الصبر، قال تعالى:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣))

[سورة الأنبياء]

الشيء الدقيق جداً هو أنك مخلوق للجنة، أعظم عطاء تناله أن تصل إلى الجنة، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥))

[سورة آل عمران آية١٨٥]

هذا الفوز المطلق الإنسان يفوز بالمال في الدنيا، يموت يترك المال.

يفوز بمرتبة عالية يموت يدعها، يفوز بمتع كثيرة يموت يتركها هذا فوز نسبي، فوز محدود، " لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء ".. ولكن الفوز المطلق أن تُزحزح عن النار وأن تدخل الجنة، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥))

عود على بدء:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣))

[سورة الرعد]

الباء السببية، سلام عليكم بما صبرتم..

يعني ثمن الجنة أن تصبر، أن تصبر على طاعة الله، وأن تصبر عما نهاك الله عنه، وأن تصبر على قضاء الله وقدره..

الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، هذا الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمئن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين..

يقول سيدنا عمر عملاق الإسلام رضي الله عنه: خير عيش أدركناه بالصبر..

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم: " الصبر ضياء ".. نور أمامك

ويقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام البخاري:

" ومن يتصبر يصبره الله ".

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧))

[سورة النحل]

يا رب أعني على الصبر، حتى الصبر من نعم الله الكبرى..

عجبت لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان ذلك له خير، وإن أصابته ضراء صبر فكان ذلك له خير وليس ذلك لغير المؤمن ".

لكن الصبر عند الصدمة الأولى، بعد الصدمة الأولى الصبر إجباري لابد من أن تصبر، لكن ليس لك أجر بعدها، الصبر عند سماع الخبر.. يا رب لك الحمد، يا رب أنا طوع يديك..

الآن ـ أيها الإخوة ـ في موضوع دقيق جداً، قال العلماء: أرفع أنواع الصبر على الإطلاق ما كان اختياراً.

مثلاً: أنت في البيت جالس بين أهلك وأولادك وزوجتك، جلسة مريحة كل شيء ميسر، حان وقت مجلس العلم، قد تأتي إلى مجلس العلم ليس هناك كرسي مريح فرضاً، ليس هناك ضيافة، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

[سورة الكهف]

هذا الذي يصبر باختياره هذا أعلى أنواع الصبر.

الصبر على الطاعة باختيارك، والصبر على المعصية باختيارك، أما الصبر على بلاء الله ليس باختيارك، ماذا تفعل ؟ لو أردت أن لا تصبر ماذا تفعل، إنسان لو مات ابنه، لو أراد أن لا يصبر هل بإمكانه أن يعيده حياً، لذلك الصبر على الطاعة، هذا صبر فيه كسب، والصبر عن المعصية، صبر فيه كسب، أما الصبر على قضاء الله وقدره هذا صبر ما فيه كسب، يعني إن لم تصبر هذا الواقع، ماذا تفعل ؟..

لذلك العلماء قالوا: صبر سيدنا يوسف على مطاوعة المرأة التي راودته عن نفسه، أعظم عند الله بكثير عن صبره وهو في الجب، وعن صبره وهو في السجن، مع بعض التفاصيل..

كان هذا النبي الكريم شاباً، وداعي الشهوة في الشباب أقوى، وكان عزباً ليس له ما يعوضه ويبرد شهوته، ثانياً، وكان غريباً، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يتسحيا من يسكن في بلده ثالثاً، وكان مملوكاً والمملوك ليس وازعه كوازع الحر، وكانت المرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته وقد غاب الرقيب، وهي الداعية إلى نفسها والحريصة أن يبقى الخبر سراً أكثر منه، وتوعدته إن لم يفعل بالسجن، ومع كل هذه الدواعي صبر اختياراً، وإيثاراً لما عند الله، يعني أعلى درجة في الصبر أن تصبر باختيارك، أما الذي يأتي قضاءً وقدراً، ننصحكم أن تصبروا ، وما في بديل أساساً..

أما هذا باختيارك، حينما تنفق مالك، باختيارك، حينما تطلب العلم باختيارك، حينما تؤثر أخاك باختيارك، أعلى أنواع الصبر ما كان من كسبك، لذلك العلماء قالوا: الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات، فإن الله عز وجل يحب أهل طاعته أكثر يعني من ترك المعصية عمل عملا عظيما، ولكن عمله سلبي ولكن من عمل الطاعة، ارتقى إلى الله عز وجل، أنت بترك المناهي تسلم، وبفعل الطاعة ترقى عند الله عز وجل.

هذا معنى قول سيدنا لقمان لابنه وهو يعظه:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧))

[سورة لقمان]

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

كلما ازددت معرفة بآيات الله ازددت معرفة بالله، شيء لا يخطر في بالكم هذا البقدونس الذي تأكلونه كل يوم، هناك مجلة محترمة تصدر في بلاد الخليج عالجت موضوع هذا النبات معالجة عميقة جداً فإذا في هذه المقالة الشيء الذي لا يُصدق، من أجل أن تعرف كيف أن الله أكرمك. قال: قال هذا النبات فيه كثير من الفيتامينات، وفيه كثير من العناصر النادرة، وفيه زيت طيار، ملعقتا طعام من هذا النبات مفروم فرماً ناعماً تؤمن للكائن الحي ثلث الجرعة اليومية من طليعة الفيتامين أ وثلثي الفيتامين س، وثمن جرعة الحديد اليومية.

المواد النادرة في هذا البقدونس، الزرنيخ، والبورون، والنحاس والتيتانيوم، هذه مواد نادرة، موجودة في البقدونس، لذلك قال بعض الأطباء: كُلْ كلَ شيء ؛ لأن كل شيء فيه مواد مرممة، ومعالجة للجسم باعتدال.

ينصح الأطباء أن يوضع على المائدة قبل خمس دقائق من تناول الطعام ؛ لأن فيه زيت طيار، والفائدة في هذا الزيت الطيار.

هذا النبات دواء مدر للبول، يستخدم في حالات الاستسقاء، وفي حالات الوزمات ذات المنشأ القلبي، ويُستخدم في الحصى، والكلية، وأمراض المثانة، وفي أمراض الكبد، وفي الحويصلة

الصفراوية (المرارة) وهذا النبات ينظم التنفس، وينشط القلب، ويعين على خروج الغازات من الجسم ويحصن الرؤيا، ويوقي اللثة، ويشفي من لدغات البعوض والزنابير والنحل، ويقتل الطفيليات، هذا النبات الذي لا نأبه له، موجود مبذول هو دواء في الحقيقة، هذا النبات يزيل رائحة المواد الكريهة في الجسم، يقوي غدتي الكظر، وهي المسؤولة عن الحالات التي تصيب الإنسان في حالات الشدة، الكظر يرفع ضربات القلب، ويضيق الأوعية والشرايين المحيطية ويرفع نسبة السكر في الدم، ويزيد وجيب الرئتين.

وهذا النبات يفيد الغدة الدرقية، المسؤولة عن الاستقلاب، ويقوي الأوعية الدموية، ويمنعها عن أن تنفجر عند ارتفاع الضغط، وهو ممتاز لأمراض الجهاز البولي التناسلي، ويساعد في حال تشكل الحصى في الكليتين وفي المثانة على تفتيتها، ويعالج مرض الاستسقاء، ويعالج بعض أمراض العيون، ويحسن الدورة الشهرية، وفي فصل طويل عن التجميل عن طريق البقدونس ما لنا شغل فيه..

هذا النبات الذي بين أيدينا، لو تفكر الإنسان في هذا الغذاء الذي يأكله من صممه له، من أودع فيه هذه النسب، معادن نادرة، أربع معادن نادرة فيتامين أ، فيتامين س، حديد، لذلك قالوا خير الدواء ما كان غذاءً.. دواء متوازن غير مؤذي نباتي، أما الأدوية التي نأخذها الكيماوية هذه تشفي من جهة، وتؤذي من جهة أخرى..

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٧٨ : خ١ -وصية لقمان لابنه٦ (عدم الكبر) ، خ٢ - البعد بين كواكب المجموعة الشمسية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-١٠-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الاولى

أيها الإخوة الكرام:

لازلنا في المنهج التربوي الذي ورد في وصية لقمان لابنه، وقد ذكرت من قبل خطبة عن العقيدة وخطرها، فالإنسان إذا صحت عقيدته صح عمله، وإذا صح عمله، سلم وسعد.

وذكرت خطبة عن العمل الصالح، وفي رأس العمل الصالح برُّ الوالدين، وذكرت أنه لابد من أن تتبع سبيل من أناب إلى الله، لابد من الولاء والاتباع لأهل الحق، ثم ذكرت ميزان العدل المطلق عند الله عزوجل، قال تعالى:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦))

[سورة لقمان]

ثم تحدثت عن الصلاة كأداة اتّصال، أداة تطهير، أداة تنوير أداة إسعاد، وانتقلت إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الفريضة السادسة التي هي علة خيرية هذه الأمة، ثم وصلت إلى الصبر وكيف أن الإيمان هو الصبر، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

وهذه الخطبة هي الأخيرة في موضوع منهج لقمان الحكيم التربوي الذي ورد في وصيته. الكبرياء على العباد لأن الفقرة الأخيرة:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨))

[سورة لقمان]

هذا الموضوع الأخير الموضوع الأخلاقي..

الكبرياء على العباد صفة ربّ العباد، الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى، والذي إذا ظهر قهر، وإذا تجلّى طاشت لأنوار جلاله ألباب البشر..

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦))

[سورة الجاثية]

أما ذل العباد لربِّهم فبالحقِّ لا بالباطل، وهو الخالق العظيم والرب الرحيم، والمسيِّر الحكيم، بديع السماوات والأرض ذو الفضل العظيم ذو الجلال والإكرام، ذو الطول والإنعام.

والمتكبِّر من بني البشر، مبطل متطاول يزعم لنفسه ما ليس لها والكبر جملة من الخصال الخسيسة، في طليعتها جحد الحق، وتجاهل الواقع، وسوء العشرة، وتجاوز القدر، وتحقير الفضل. يقابل الغطرسة والكبر، الذل والخنوع، وقد يجهل الإنسان حقائق التوحيد، أو يعتقد اعتقاداً فاسداً أساسه الشرك، فيذل نفسه، ويقبل الدنية في دينه، لواحد من أمرين، إما خوف أن يُصاب برزقه، أو أن يُصاب بأجله، مع أن الله جل جلاله، قطع سلطان البشر عن الآجال والأرزاق جميعاً، فليس لأحد إليهما سبيل، وبيَّن الله في كتابه العزيز أن البشر لو اجتمعوا بأسرهم، هم أذل من أن يمنعوا شيئاً أعطاه الله أو أن يعطوا شيئاً منعه الله، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

[سورة فاطر]

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧))

[سورة يونس]

هذا الذل ايها الإخوة ـ ذل الشرك، وذل الخوف ليس من التواضع في شيء، وقد يقصِّر الإنسان في أداء واجبه، أو يهمل عمله، أو صنعته أو يسيء إلى الناس في تعامله معهم، فيأتيه اللوم والتقريع فيتطامن ويستخذي، هذا الذل ذل التقصير، والإيمان والإساءة ليس من التواضع في شيء، ذلة العبد لعبد باطلة لا ريب فيها، فقد حرم الإسلام على المسلم، أن يهون أو أن يُستذل، أو أن يُستضعف، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

[سورة آل عمران]

وفي الحديث الصحيح:

((من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا))

لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير))

احتجْ إلى الرجل تكن أسيره، استغن عنه تكن نظيره، أحسن إليه تكن أميره.. شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس.

اعتزاز المسلم بنفسه، وبدينه، وبربه هو عزة الإسلام، عزة الإيمان وهو غير كبرياء الطغيان، إنها أنفة المؤمن أن يصغر لجهة أو أن يتضع في مكان، أو أن يكون ذَنَباً لإنسان، إنها ترفع عن مغريات الأرض ومزاعم الناس، وأباطيل الحياة، إنها انخفاض إلى خدمة المسلمين، والتبسط معهم،

واحترام الحق الذي يجمعه بهم إنها إتيان البيوت من أبوابها، وطلب العظمة من أصدق سبلها، قال تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠))

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر]

اجعل لربك كل عـزك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

حق يقابله واجب، وليس يُسمح للمرء أن يطالب بماله من حق حتى يؤدي ما عليه من واجب، فإذا كُلفت بعمل فأديته على أصح وجوهه عندئذ لا سبيل لأحد عليك، ولا يستطيع من فوقك، ولا من دونك أن ينالك بلفظ جارح، وتستطيع أن تحتفظ بعزة نفسك أمام كل الناس على اختلاف مراتبهم، حين تسد الثغرات التي ينفذ منها إليك اللوم والتقريع إن ألد أعدائك يتهيبك، قال تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦))

[سورة يونس]

وقال صلى الله عليه وسلم:

((إياك وما يُعتذر منه))

في هذه المقدمة اتضح الكبر والذل والتواضع والعزة، أربع مفهومات أخلاقية متداخلة، الذلة شيء، والعزة شيء، والتواضع شيء والكبر شيء آخر، ينبغي أن تكون متواضعاً وأن تكون عزيزاً ولا ينبغي أن تكون متغطرساً ولا أن تكون خانعاً، إلى الآيات الكريمة قال تعالى:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨))

[سورة لقمان]

أي لا تُعرض بوجهك عن الناس، إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم، ولكن ألن جانبك، وابسط وجهك كما جاء في الحديث:

((... لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلق أخاك بوجه طلق))

طلاقة الوجه صدقة، طلاقة الوجه تواضع، طلاقة الوجه أخلاق.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إسبال الإزار مخيلة، والمخيلة لا يحبها الله عز وجل))

وقال بعض العلماء: ولا تصعر خدك للناس: أي لا تتكبر فتحتقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك.
لا تصعر خدك للناس: لا تتكلم وأنت معرض عنهم.

وقال بعض العلماء: التشدق بالكلام نوع من تصعير الخد للناس.

ولا تمش في الأرض مرحاً..

المؤمن الكامل يفرح بعطاء الله، يفرح إن قدَّر الله على يده عملاً صالحاً، يفرح إن آتاه الله علماً، قال تعالى:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨))

[سورة النساء]

فهذا الذي يفرح بالدنيا ضعف في عقله، متاع الدنيا قليل الدنيا منقطعة، تأتي ساعة تفقد كل شيء في ثانية واحدة، لكنَّ الآخرة متصلة.

ولا تمش في الأرض مرحاً..

أي لا تمش مشي خيلاء، متكبراً، جباراً عنديداً، لا تفعل ذلك فإن الله يبغضك، ولهذا قال: إن الله لايحب كل مختال فخور.. المختال المُعجب في نفسه، والفخور على غيره..

يقول أنا أكثر منك مالاً، أنا أكثر منك جاهاً، أنا أوسع منك ثراءً.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧))

[سورة الإسراء]

ذُكر الكبر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشدد عليه فقال:

إن الله لا يحب كل مختال فخور.

سأله رجل إني لأغسل ثيابي، فيعجبني بياضها، ويعجبني شراك نعلي، وعلاقة سوطي، فهل هذا من الكبر؟..

((قال عليه الصلاة والسلام وطمأنه: ليس هذا كبراً، إنما الكبر بطر الحق، وغمص الناس))

أن ترد الحق، أن لا تقبل حكم الله، أن لا تقبل حكم رسول الله أن لا تنصاع لحديث صحيح، أن لا تقبل سنة رسول الله، هذا هو الكبر أن تستكبر عن طاعة الله، أن تستكبر عن عبادته، الكبر: بطر الحق وغمص الناس..

غمص الناس: أن تحتقرهم، أن تزدريهم وهم ليسوا كذلك، أن تقلل من شأنهم وهم ليسوا كذلك، أن تتهمهم في إيمانهم وهم ليسوا كذلك، أن تتهمهم في نواياهم وهم ليسوا كذلك، هذا هو الكبر، بطر الحق وغمص الناس.

أما قوله تعالى: واقصد في مشيك: أي امش مشياً مقتصداً ليس بالبطيء المتثبط، ولا السريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين.

واغضض من صوتك: لا تبالغ في الكلام، لا ترفع صوتك فيما لا فائدة منه، لهذا قال الله عز وجل:

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩))

[سورة لقمان]

((عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان))

إن أنكر الأصوات لصوت الحمير

أيها الإخوة الكرام، دققوا في هاتين الآيتين:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧))

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

الحكمة عند الله خير كثير، ومتاع الدنيا مهما كان كثيراً هو عند الله قليل، لأنه زائل.

لا زلنا في جو هاتين الآيتين.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[رواه مسلم]

((وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: دخلت المسجد فإذا معاذ بن جبل يبكي عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، قلت ما يبكيك يا معاذ، قال حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى، ينجيهم الله عز وجل من كل فتنة مظلمة))

الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى، ينجيهم الله عز وجل من كل فتنة مظلمة.

((وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، رب ذي طمرين لا يُؤبه له، لو أقسم على الله لأبره))

لو قال: اللهم إني أسألك الجنة، لأعطاه إياها، ولم يعطه من الدنيا شيئاً.

للناس مقاييس، وعند الله مقاييس، البطولة أن تكون متفوقاً في مقاييس الله عز وجل.

((ولم يمنعها إياه لهوانه عليه، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء))

((وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال، إن من ملوك الجنة من هو أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه، إن استأذن الأمراء لم يؤذن له، وإذا خطب الناس لا ينكح، وإذا قال لم ينصت إليه، في صدره حوائج، يتجلجل بها صدره، لو أقسم على الله لأبره، ولو قُسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم))

أيها الإخوة الكرام:

إن لم تكن مشهوراً، إن لم تكن علماً، إن لم تُسلط عليك الأضواء إن كنت خامل الذكر، قد تكون عند الله علي القدر.

((.. أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، قال أو مثلي، قال نعم يا أخي خامل في الأرض علم في السماء))

((قال عليه الصلاة والسلام: أحب عباد الله إلى الله الغرباء، قيل ومن الغرباء، قال الفارون بدينهم))

ما عليك أيها الأخ الكريم أن تكون مذموماً عند الناس محبوباً عند الله..

ورد أن سيدنا موسى في المناجاة، قال يا رب لا تبق لي عدواً فخاطبه الله عز وجل، وكان نجي الله، أن يا موسى هذه ليس لي ـ لابد للإنسان من أعداء، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢))

[سورة الأنعام]

قال بعض العارفين: اللهم إني أسألك ذكراً خاملاً، وقال بعضهم الآخر: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك، وعند الناس من أسط خلقك.

هذا عن الخمول، فماذا عن الشرهة، هذا ضمن قوله تعالى: ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور..

((يقول عليه الصلاة والسلام: بحسب المرء من الشر إلا من عصم الله، أن يُشار إليه بالأصابع، في دينه ودنياه، وإن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

فقيل للحسن إنه يشار إليك بالأصابع، فما قولك، سبط رسول الله قال إنما المراد من يشار إليه في دينه

((وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: لا ترفع شخصك لتُذكر وتعلم، واكتم واصمت تسلم، وبهذا تسرُّ الأبرار، وتغيظ الفجار))

ويقول إبراهيم ابن الأدهم سلطان العارفين: ما صدق الله من أحب الشهرة، وما صدق الله عبد إلا سرَّه ألا يُشعر بمكانه، ومن عرف مكانه عند الله ما ضره مقالة الناس فيه.

ومن أحب الله أحب أن لا يُعرف عند الناس.

وقال بعضهم: إياك وكثرة الأخلاء، إن أحببت أن يسلم إليك دينك فأقلل من المعارف، شبكة العلاقات الواسعة جداً هذه تبعد عن الله عز وجل.

ومرةً يقول سليم بن حنظلة، بينما كنا حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة، قال هذا التجمع إنها مذلة للتابع، فتنة للمتبوع.

" وعن ابن عون عن الحسن، قال: كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يُشتهر بها، ومن الثياب الرديئة التي يُحتقر فيها ".

بين ثوب مشهور، وبين ثوب مهجور، هذه هي السنة، والفضيلة وسط بين طرفين.

وقال بعض العلماء: إن قوماً جعلوا الكبر في قلوبهم، والتواضع في ثيابهم.. هناك أشخاص متكبرون، مظهرهم في تواضع، الغلاف غلاف تواضع، لكن الحقيقة فيه كبر..

ويروى عن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام أنه قال لبني إسرائيل، ما لكم تأتوني عليكم ثياب الرهبان، وقلوبكم قلوب الذئاب، البسوا ثياب الملوك، وألينوا قلوبكم بالخشية. وهذا الموضوع الثاني موضوع الشهرة، ضمن قوله تعالى:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

بقي حسن الخلق: كان عليه الصلاة والسلام من أحسن الناس خلقاً قيل يا رسول الله: أي المؤمنين أفضل، قال أحسنهم خلقاً.

إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة، وشرف المنازل، وإنه لضعيف في العبادة، وإنه ليبلغ في سوء خلقه، دركات جهنم وهو عابد.

حسن الخلق هو الإيمان، من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

((وعن أنس مرفوعاً: ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة))

((وعن عائشة مرفوعاً: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار))

((وعن أبي هريرة رضي الله عنه، سئل عليه الصلاة والسلام عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال الأجوفان، الفم والفرج))

الفم: المال، تشتري به الطعام النفيس، والفرج: الشهوة الجنسية من هنا يؤخذ الناس، من هنا يسقطون، من هنا يهانون، ومن هنا يحاسبون، من هنا تُنشر تقاريرهم في أحدث وسائل النشر، ألفين صفحة، نُشرت فيها فضائح، وفيها مخاز لا يعلمها إلا الله، من طريق الفم والفرج، يسقط الإنسان، ويُحتقر بين الناس.

((وسئل عليه الصلاة والسلام، ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال حسن الخلق))

وقيل: ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن، وإن من خياركم أحسنكم أخلاقاً، وإن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله، يغدوا عليه الأجر ويروح.

وإن أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي، وأبعدكم مني منزلاً في الجنة، مساويكم أخلاقاً، الثرثارون، المتشدقون، المتفيهقون.

ألا أخبركم بأكملكم إيماناً، أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون.

أيها الإخوة الكرام:

ما حسَّن الله خُلق رجل، وخلقه ودخل النار، ما دام الله عز وجل قد شرف هذا الإنسان وحسن خلقه إذاً مصيره إلى الجنة.

خصلتان لا تجتمعان في المؤمن، البخل وسوء الخلق، وما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق، لأن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر.

((وعن رجل من قريش، قال قال عليه الصلاة السلام: ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق، إن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل))

مثل طريف قد يأتيك ضيوف كثيرين، ليس عندك شيء تقدمه إليهم عندك كيلو لبن، يمكن أن تضيف إلى هذا اللبن خمس كيلو ماء وتجعله شراباً سائغاً وتقدمه لهم، أما هذا اللبن لو أضفت إليه نقطة نفط لأفسدته، ولألقيته وضحيت فيه، لماذا لأن الكبر يتناقض مع العبودية لله عز وجل.

لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، نهايته إلى الجنة، ومن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على وجهه في النار، ولا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب عند الله من الجبارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب.

وما دخل قلب شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك كلما ازداد الكبر ضعف العقل.

وقال بعض العلماء: ليس السجود كبر، ولا مع التوحيد نفاق.

ومن جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه.

الكبر وحسن الخلق، والشهرة والخمول، موضوعات أربع ضمن قوله تعالى:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨))

[سورة لقمان]

أيها الإخوة الكرام:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

***

الخطبة الثانية:

من الحقائق المقطوع بها؛ أن في الكون مائة ألف مليون مجرة إلى الآن، هذا المنظور الحالي، مائة ألف مليون مجرة، مجرتنا درب التبابنة إحدى هذه المجرات، وهي مجرة متوسطة، فيها مائة ألف بليون نجم وكوكب، طولها مائة ألف سنة ضوئية، عرضها خمس وعشرون ألف سنة ضوئية، القمر بعده عنا ثانية ضوئية واحدة الشمس ثماني دقائق، المجموعة الشمسية ثلاث عشرة ساعة، أما هذه المجرة درب التبابنة طولها مائة ألف سنة ضوئية، عرضها خمس وعشرون ألف سنة ضوئية، الضوء ماذا يقطع في السنة، يقطع عشر مليون مليون كيلو متر، يعني ثلاثة عشر صفر.

الآن المجموعة الشمسية التي نحن فيها، طولها ثلاثة عشر ساعة ضوئية، لاحظ فلكي ألماني اسمه جوهان بوت، أن المسافات مسافات الكواكب في المجموعة الشمسية تخضع بتتابع رياضي عجيب نشر ورقة كتب عليها صفر، ثلاثة، ستة، ضعف ثلاثة، اثنا عشر أربع وعشرون، ثمانية وأربعون، ستة وتسعون، مائة واثنان وتسعون كل رقم ضعف الذي قبله، وأعطى عطارد أول رقم صفر، والزهرة ثلاثة، والأرض ستة، والمريخ اثنا عشر، وتوقف هنا، ثم أضاف رقم أربعة إلى كل هذه الأرقام، ثم قسمها على عشرة، فإذا الناتج هو بعد كل كوكب عن الشمس، هذا القانون ظهر في القرن التاسع عشر وقام حوله ضجة كبيرة، وعليه مأخذان، رقم أربع وعشرون غير موجود، لا

يوجد نجم بهذا المكان، ورقم مائة وإثنان وتسعون ليس هناك نجم بهذا المكان، واتهم هذا القانون بأنه غير صحيح، ثم اكتُشف في الرقم أربع وعشرين هناك مجموعة كويكبات، وفي موقع مائة واثنين وتسعين هناك كوكب أورانوس، فهذه المجموعة الشمسية تخضع لقانون دقيق جداً، يعني كل نجم رتبه بسلسلة هندسية أو حسابية، وأضاف رقم أربعة، وقسم على اثني عشر، الناتج بعد كل كوكب عن الشمس، كان يوجد فراغان الأربع وعشرين، والمائة واثنين وتسعين، ثم اكتشف الكويكبات في المكان الأول، وأورانس في المكان الآخر.

هذا الكون الذي تبدوا فيه عظمة الله عز وجل، هذا الكون الذي هو تجسيد لأسماء الله الحسنى، هذا الكون الذي هو مظهر لعظمة الله عز وجل، قال تعالى:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١))

[سورة يونس]

وحذرنا من أن نمر على هذه الآيات ونحن عنها غافلون.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٧٩ : خ١ -تعليم الفتاة العلم الشرعي ، خ٢ - لهذه الأسباب أخرجته من بيتي .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-١٠-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، موضوع الخطبة اليوم، ضرورة تعليم الفتاة الأمور الشرعية فالمرأة المسلمة - أيها الإخوة - تعاني من عصور قديمة من حرمان كبير، لكثير من الحقوق التي منحها إياها الإسلام، وحجبها عنها مجتمع بقصد أو بغير قصد، أهم حق خسرته المرأة حقها في تعلم العلم الشرعي، التأكيد على العلم الشرعي، حقها في تعلم العلم الشرعي، لأنك إن علمت رجلاً علمت واحداً، وإن علمت فتاة علمت أسرةً، لأن الأسرةً أناط الله بها تربية أولادها، فإذا كانت متفقهة في العلوم الشرعية، عرفت حق زوجها، وعرفت حق أولادها، وعرفت واجبها تجاه زوجها وأولادها، فإذا أحسنت المرأة تبعل زوجها وأولادها فهي كالمجاهدة في سبيل الله، قال عليه الصلاة والسلام يخاطب النساء عامة، من خلال امرأة قال لها:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[أخرجه البيهقي عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

كيف تحسن المرأة تبعل زوجها ؟ كيف تعرف مهمتها الأولى التي أنيطت بها ؟ كيف تعرف حق زوجها عليها ؟ كيف تعرف حق أولادها عليها ؟ لا أقول هذا الكلام من فراغ..

رُفعت إلي قضية في هذا الأسبوع عن مشاجرة بين زوجين من أجل صلاة الأولاد، الأم تصرُّ على أن يبقوا نائمين دون أن يصلوا، من أجل أن ترتاح أجسامهم، والأب يصرُّ على إيقاظهم إلى الصلاة، فالمرأة الجاهلة عقبة كأداء أمام تربية أولادها، فلا بد من تعليم المرأة التي هي زوجة وأم العلومَ الشرعية، أركانَ الإيمان، أركانَ الإسلام، حقائقَ الزواج، حقوقَ الزوج، حقوقَ الزوجة، ألا ترى أيها الأخ الكريم - أن معظم النساء يظهرن بأجمل زينة لكل جهة إلا الزوج ألا ترى أن المرأة قد تفضل لقاءً مع صديقاتها عن تربية أولادها، هذا كله جهل انعكس تفتتاً في الأسرة وانحرافاً في الأولاد.

حق المرأة في العلم الشرعي حق مكتسب، ذكره الله تعالى في القرآن الكريم، وأيَّده عليه الصلاة والسلام بأقواله وأفعاله، فالآية الأولى:

(اقرَأ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَق (٢) اقرَأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥))

[سورة العلق]

أول آية أنزلت في القرآن الكريم:]اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ[، لك أن تقرأ من الكون، ولك أن تقرأ من الكتب، لابد من أن تقرأ ؛ لأن القراءة هي الحاجة العليا في الإنسان، في الإنسان حاجات سفلى يشترك بها مع غيره من المخلوقات، الطعام والشراب والجنس، بينما حاجته العليا هي معرفة الله عز وجل، ومعرفة الله أصل الدين لذلك كانت أول آية في القرآن الكريم:

(اقرَأ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

العلم يجب أن يوظف لمعرفة الله، كان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من علم لا ينفع، من قلب لا يخشع، من أذنٍ لا تسمع.

دخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المسجد، فرأى رجلاً تحلق الناس حوله، فسأل من هذا ؟ سأل سؤال العارف، قالوا: هذا نسابة، قال: وما نسابة ؟ قال: يعرف أنساب العرب، فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك علم لا ينفع من تعلمه، ولا يضر من جهل به.

لا ينبغي أن نعلم الفتاة أي شيء، يجب أن نعلمها الكتاب المقرر الذي هو بمثابة حجر الزاوية في حياتها، إنه القرآن الكريم، إنها السنة النبوية، إنها الآداب الإسلامية، فكم من بيت هو قطعة من الجحيم بسب الزوجة، كم من زوجة ترتكب أفدح الأخطاء لجهلها فقط ما علمتها أمها أحكام دينها، علمتها فن الطبخ، علمتها فن التزين.

أيها الإخوة الكرام

(اقرَأ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

أيْ لابد من أن تلبي حاجة العقل بمعرفة خالق الكون، بمعرفة منهج خالق الكون، لحمل النفس على طاعة الله، هذه هي الحاجة العليا، هذه هي الحاجة التي إذا لبيتها كنت إنساناً، هذه الحاجة التي تؤكد إنسانية الإنسان، (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)، العلم يجب أن يوظف لمعرفة الله، للسمو بالنفس، ليس العلم في الإسلام هدفاً بذاته إنما هو وسيلة.

أيها الإخوة الكرام، هذه الآية الأولى، لك أن تقرأ في الكون، فالكون قرآن صامت ولك أن تقرأ في القرآن كون ناطق، ولك أن تقرأ في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي.. قرآن ناطق، وقرآن صامت، وقرآن يمشي،

(اقرَأ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

من أجل أن تعرف الذي خلقك، من أجل أن تعرف سرَّ وجودك، وغاية وجودك، من أجل أن تعرف منهج ربك، من أجل أن تحمل نفسك على تطبيق منهج ربك

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

الإنسان يحب الزيادة في كل شيء، نفس الإنسان تواقة إلى المزيد، بماذا أمرنا أن نستجيب ؟.. قال تعالى:

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً(١١٤))

[سورة طه]

لسان حال الناس: وقل رب زدني مالاً، وقل رب زدني جاهاً، وقل رب زدني استمتاعاً بالحياة، هذا لسان حال الناس، لكن الإنسان المؤمن ينبغي أن يكون هذا حاله، (وَقُلْ رَّبِ زِدْنِي عِلْماً)، منهومان لا يشبعان، طالب علم، وطالب مال.

أيها الإخوة الكرام، أمور الدنيا لها سقف، مهما كنت غنياً لابد من أن تأكل وجبة محدودة، مهما كنت غنياً لابد من أن تسكن في غرفة واحدة في وقت واحد، لابد من أن ترتدي ثوباً واحداً في الوقت الواحد، هناك سقوف كثيرة، إلا أنك إذا عرفت الله، ليس هناك سقف لسعادتك، الطريق السالك إلى ما لا نهاية طريق العلم، أما الطرق الأخرى كلها طرق مسدودة، تنتهي بالموت، لذلك ربنا عز وجل قال:

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً(١١٤))

الناس اتفقوا عن غير اتفاق بينهم على أن يعظموا أصحاب الأموال الأقوياء، الأذكياء، أصحاب الشكل الوسيم، هذه قيم الناس، ولكن الله عز وجل في القرآن الكريم، جعل المقياس في التفاضل بين الناس العلم والعمل، قال تعالى:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩))

[سورة الزمر]

شرف العلم والعلماء شرف عظيم، بل إن الله جل جلاله شرف العلم والعلماء، وجعلهم في مرتبة أعلى من متربة سائر البشر، قال تعالى:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩))

بل إن رتبة العلم أعلى الرتب، والمرأة التي تعرف أحكام دينها تعرف ربها، تعرف أحكام الشريعة، تعرف ما لها وما عليها تعرف واجبها تجاه أولادها، واجبها تجاه زوجها، هي امرأة لا تُقدر بثمن:

((فاظفر بذات الدين تربت يداك))

[متفق عليه]

أيها الإخوة الكرام، حتى فيما بين العلماء هناك مراتب، ودرجات، وأناس متفوقون وأناس غير متفوقين، وقد ميز الله بين العلماء، وجعل هذا العلو مختلفاً من عالم إلى عالم، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١))

[سورة المجادلة]

فهناك عالم وغير عالم، والعالم في درجة بحسب علمه

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

أحد العلماء الأجلاء يقول ما نصه: الخطاب إذا خاطب الله الذكور في القرآن الكريم، فهو خطاب حكمي للذكور والإناث، عام للذكور والإناث، إذ أن الأحكام المذكورة بصيغة المذكر إذا أطلقت في القرآن الكريم، ولم تقترن بالمؤنث فإنها تتناول الرجال والنساء، لأنه يُغلب المذكر على المؤنث عند الاجتماع، وهذه حقيقة في أصول الفقه ثابتة أي أمر موجه إلى الذكور موجه حكماً إلى الإناث، على قاعدة التغليب فإذا اجتمع الجنسان في أمر غُلّب الذكور، وجاء الخطاب بصيغة المذكر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٣٥))

[سورة النساء]

أي آية تبدأ بقوله تعالى،

(يا أيها الذين آمنوا)

فيها أمر ضمني إلى المؤمنات.

أيها الإخوة الكرام، من الثابت أن المرأة مساوية للرجل في التكليف، وفي التشريف وفي المسؤولية، وربنا عز وجل تأكيداً لهذه الحقيقة، وتوضيحاً لها ودعماً لها، في بعض الآيات الكريمة، خاطب النساء والرجال معاً قال تعالى:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

[سورة آل عمران آية ١٩٥]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧))

[سورة النحل]

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(٣٥))

[سورة الأحزاب]

فهذه آيات عدة، آيات تؤكد أن المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف وفي التشريف، وفي المسؤولية، فلماذا لا تعلم الفتاة أحكام دينها ؟.. لماذا لا تعرفها بربها ؟.. لماذا لا تبصرها بعلة وجودها ؟ لماذا لا تبين لها مهمتها في الحياة، وهي أخطر مهمة على وجه الأرض.

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

هؤلاء الصغار الذين في الطرقات، إن أعجبتك أخلاقهم فمن أمهاتهم، وإن لم تعجبك فمن أمهاتهم، هذه المرأة جعلها الله المربية الأولى، ورد في الأدب المفرد للإمام البخاري، أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأة تنازعني تريد الدخول قبلي، تنازعني دخول الجنة، قلت من هذه يا جبريل، قال هذه امرأة مات زوجها، وترك لها أولاداً، فأبت الزواج لأجلهم))

امرأة تأبى الزواج، تحرم نفسها حظها من الرجال من أجل تربية أولادها، هذه بحسب هذا الحديث تنازع النبي دخول الجنة والحديث رمزي، يعني لها عند الله شأن كبير.

الآية الكريمة:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

شيء آخر، يقول الله عز وجل:

(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨))

[سورة فاطر]

وهذه المرأة لا تخشى الله إلا إذا عرفت الله، إن لم تعرفها بالله كيف تخشى الله، ما من رجل فيما أعلم، يحلف على امرأته يمين طلاق، وسوف تفاجؤون، إلا كسرت يمينه، بجهلها، تضحي بمستقبلها، تركب رأسها، يتملكها الشيطان، لجهلها، لجهلها بنعمة الزواج، تكفر بهذه النعمة، لا ترعوي، لا تنصاع لزوجها، لجهلٍ ولحمق، ولغباء، ولبعد عن مناهل الدين، إنها تتغذى لا من الكتاب والسنة، تتغذى من جهات أخرى لا ترضي الله عز وجل، تتغذى من الساقطين والساقطات.
أيها الإخوة الكرام، حينما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((طلب العلم فريضة على كل مسلم))

ماذا نفهم من هذا الحديث ؟ مادام طلب العلم فريضة فالذي لم يطلب العلم وقع في الإثم، الذي لم يطلب العلم وقع في الإثم، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم، قال العلماء:

((على كل شخص مسلم ذكراً كان أو أنثى))

وفي الحديث الصحيح أيضاً الذي رواه الإمام مسلم والترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة))

أليست الجنة للذكور والإناث، أم للذكور فقط ؟ بل للذكور والإناث إذاً على المرأة أن تسلك سبيل الجنة، وسبيل الجنة هو العلم، وهذا استنباط يقيني قطعي، ما دامت الجنة، للرجال والنساء، للذكور والإناث، وسبيل الجنة هو العلم، لقول النبي الكريم:

((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة))

وفي هذا الحديث تغليب كما قلت قبل قليل..

أيها الإخوة الكرام، مادامت الجنة للرجال والنساء فالعلم إذاً لا يقتصر على الرجال دون النساء، بل يشمل النساء والرجال معاً.

وفي الحديث الصحيح عن أبي بُرْدَةَ عَنْ أبيهِ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((ثَلاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ ثُمَّ قَالَ عَامِرٌ أَعْطَيْنَاكَهَا بِغَيْرِ شَيْءٍ قَدْ كَانَ يُرْكَبُ فِيمَا دُونَهَا إِلَى الْمَدِينَةِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدرامي]

التركيز على أدَّبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، والفتاة التي تعرف أحكام دينها فتاة لا تُقدر بثمن، إنها الأم الناجحة والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والمرأة الجاهلة عدوة نفسها، قد تخسر زوجها بحمقها وقد تخسر أولادها بحمقها،

وقد تهمل واجبها الذي أنيط بها بحمقها وجهلها، أما إذا عرفت ربها، فهي إنسان قد تساوي قلامة ظفرها مليون رجل، المرأة إذا عرفت ربها، وعرفت واجباتها تجاه زوجها وأولادها، قد تساوي قلامة ظفرها مليون رجل شارد وتائه.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧))

[سورة النحل]

وفي الحديث الصحيح أيضاً عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ

((قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ فَقَالَتِ امْرَأَةٌ وَاثْنَتَيْنِ فَقَالَ وَاثْنَتَيْنِ))

[أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وأحمد]

أيها الإخوة الكرام، صحابيات كثيرات سألن النبي عليه الصلاة والسلام عن الأحكام الشرعية، هذه خولة بنت ثعلبة، تقول: يا رسول الله إن زوجي تزوجني وأنا شابة ذات أهل ومال وجمال، فلما كبرت سني، ونفر بطني، وتفرق أهلي، قال لي أنت عليَّ كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا - أنا أربيهم - وإن ضممتهم إلي جاعوا - هو ينفق عليهم، هذا التكامل بين الذكور والإناث - بكى النبي عليه الصلاة والسلام، هذه الصحابية الجليلة كانت تمشي في الطريق مرةً فسألت سيدنا عمر، فنزل عن دابته، وأصغى إليها باحترام، عجب أصحابه قال: ألا أصغي لها، وقد سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات.

هذه المرأة أجاب القرآن عن سؤالها:

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١))

[سورة المجادلة]

أيها الإخوة الكرام، أسماء بنت يزيد سألت النبي عن المحيض وأجابها القرآن الكريم.. أم سليم بنت ملحان، والدة أنس ابن مالك سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الاحتلام، قال أبو موسى الأشعري ما أشكل علينا ـ نحن أصحاب النبي ـ حديثاً قط، فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً، هذه المرأة التي ينبغي أن تكون أماً، وأن تكون زوجة، وأن تعلم أبناءها أحكام دينهم، وآداب الإسلام، وحب النبي العدنان.

القصة الشهيرة في الحديبية، حينما أمر النبي أصحابه أن يحلقوا وأن يذبحوا، فتروي الروايات أن أصحاب النبي طمعوا في فتح مكة وطمعوا في أداء مناسك العمرة، وحيل بينهم وبين هذا الطلب

فتألموا ألماً شديداً، وتلكؤوا في تنفيذ أمر النبي، فدخل النبي عليه الصلاة والسلام على أم سلمة، وأنبأها بتلكؤ أصحاب النبي في تنفيذ أمره فقالت يا رسول الله (اسمعوا هذه الزوجة الحصينة) قال يا رسول الله اخرج لا تكلم أحداً منهم، حتى تنحر بدنك، وتدعو خالقك فيحلق لك فلما رأى أصحاب النبي نبيهم عليه الصلاة والسلام قد نحر البدن التي جاء بها لينحرها، وحلق رأسه فنحروا بدنهم، وجعل بعضهم يحلق لبعض، وانتهى الأمر

وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

يعني تنصحها وتنصحك، وتأمرها وتأمرك، تصغي إليها وتصغي إليك وهكذا الحياة بين الزوجين.

أيها الإخوة الكرام، حاجة المرأة إلى العلم الشرعي حاجة أساسية، لصالحها، لتنجو من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، وحاجة لمجتمعها كي تربي أولادها على العقيدة الصحيحة، وعلى الخلق القويم، وعلى الآداب الإسلامية فلابد من أن ينتبه الآباء إلى تعليم بناتهم الأحكام الشرعية، والعلم الشرعي، كي تكون هذه المرأة زوجة صالحةً تؤدي حق زوجها وحق أولادها، وبذلك تكون قد بلغت مرتبة الجهاد في سبيل الله.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت، قد تخطانا لغيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

في بعض المجلات الرصينة زاوية من زواياها المتعددة، عنوان هذه الزاوية أجمل ما قرأت، وإذا صح أن يكون في خطب الجمعة زاوية من هذا القبيل، فقرة من هذا القبيل، أجمل ما قرأت، فإني قرأت في هذا الأسبوع مقالة في مجلة إسلامية، بعنوان (لهذه الأسباب أخرجته من بيتي) جاء في هذه المقالة، لقد اكتشفت فجأة أن الوحش كان يقيم بيننا طوال تلك السنين دون أن ندري، لقد كان دائم التجمل أمامنا ليخدعنا لقد دخل بيتنا ضيفاً عزيزاً أكرمناه، وأحللناه في صدر البيت، راح يتكلم ونحن نصغي إليه بانتباه شديد، يعرض علينا ما يشاء من المناظر النافع منها والخبيث، نتلقاها باحترام، نحافظ أمامه على الهدوء والسكينة، فلا نقاطعه، ولا ننتقده، بل نصغي إليه باستسلام كامل، ولساعات طويلة كل يوم، حارمين أنفسنا من التفاعل فيما بيننا وبين الآخرين، ومضت السنون ونحن على أدبنا في حسن الاستماع إليه وحده، حتى تنبهنا ذات يوم إلى حقيقة مرعبة، فخلال هذه السنين الطويلة، قام هذا الضيف الذكي ببناء علاقة ودية وفكرية ومزاجية مع كل أفراد الأسرة، تأصلت ونمت على حساب علاقاتنا الأسرية والاجتماعية، التي ضعفت حتى أصبحنا نعيش في بيت واحد كالغرباء وأصبح كل منها منسجماً مع هذا الضيف، ويبني علاقاته بالآخرين لا من خلال المبادئ الدينية الأصيلة، ولا من خلال القيم الأخلاقية الخالدة، ولكن من خلال ما يوحيه إليه

هذا الضيف من خلال حديثه وعروضه، ولم يترك لنا هذا الضيف وقتاً لنبحث فيه عن الحقيقة وعن ما يسعدنا في دنيانا وأخرانا، فالوقت وهو أثمن شيء في الحياة ليس ملكنا، بل ملك هذا الضيف، حتى أصبح المصدر الوحيد لثقافتنا ولا يسمح لنا بتنويع مصادر هذه الثقافة، ولم يعد متاحاً لنا كوالدين القيام بمسؤولياتنا التربوية تجاه أولادنا، بل انحصر همنا في تأمين الطعام للأولاد، وانحصر هم الأولاد بتناول الطعام بصحبة هذا الضيف، ولكثرة ما عرض عليهم هذا الضيف من مشاهد العنف والإثارة، التي راحت تتزاحم في ذاكرة الأولاد، وتملأ صورها مخيلتهم، وتجعل فكرهم في انشغال دائم بين مختلف المؤثرات الصوتية، والصور المثيرة، فلم يعد أحدهم قادراً على استيعاب دروسه، وغلب العنف على تصرفاته، والأنانية على طباعة، وسيحتاج كل منهم إلى سنوات طويلة من إعادة التأهيل، ليتخلص من هذه الأنانية، وهذا العنف ليصبح عضواً صالحاً في الأسرة وفي المجتمع، وهؤلاء الأولاد هم أعزُّ ما نملك، ولم يبق لي منهم إلا أجسامهم، أما أفكارهم، وعواطفهم، وأخلاقهم فقد أصبحت لشخصيات غريبة عن مجتمعنا وعن قيمنا، وعن مبادئنا، ولا يجمعني بهم جامع، وأمام هول هذه الكارثة، قررت أن أقوم بمبادرة أخيرة أحاول بها استرجاع أسرتي، وبقرار حازم أخرجت هذا الوحش من حياتنا، مستغنياً عن أناقته، وجميل طلته، وبدائع أكاذيبه حتى إني استغنيت عن تقاريره العلمية التي يمكن أن آخذها من ألف مصدر ومصدر.

الحقيقة ـ أيها الإخوة ـ أنني قرأت هذه المقالة ولم أفهم من هو هذا الضيف، أردت أن أعرض عليكم هذه المقالة، فلعل أحدكم يكتشفه فيا رب مبلغ أوعى من قارئ.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦٨٠ : خ١ ـالطفولة والأسرة ، خ٢ ـ تأثير التلفزيون في المنزل .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-١٠-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

موضوع الخطبة اليوم حول الطفولة والأسرة، وهما من أخطر ما في حياتنا الاجتماعية والدينية، ولهذا الموضوع مقدمة لابد من وضعها بين أيديكم.

نحن أمة ـ أيها الإخوة ـ شرفنا الله بالإسلام، وكرمنا به، وأعزنا بها، ولهذه الأمة كتاب هو وحي السماء إلى الأرض، هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكما تعلمون، فضل كلام الله على كلام خلقه، كفضل الله على خلقه.

في هذا الكتاب توجيهات وقائية حكيمة، لكل ما يؤذي الأسرة ويقوض دعائمها، وفي هذا الكتاب أدوية علاجية فعالة، لكل أمراض الأسرة، وإذا صح أن يكون الإنسان ـ كما يقول بعض العلماء ـ إذا صح أن يكون الإنسان أعقد آلة في الكون، فإنه يصح أيضاً أن تكون هذه التوجيهات القرآنية، وتلك الأدوية التي هي في القرآن الكريم أن تكون تعليمات الصانع لهذه الآلة، وكما تعلمون بالبديهة أن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، لأنها الجهة الخبيرة، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤))

[سورة فاطر]

وما من واحد عنده آلة بالغة العقيد، حاسوب أصابه خلل، وإلى جانبه جار طيب جداً، يبيع الخضراوات، لا يمكن أن تدفع إليه هذا الكومبيوتر، مستحيل، تبحث عن الخبير الذي يعلم دقائق هذا الجهاز إنك لا تسلم آلة إلى غير الخبير، أفتسلم أسرتك، وأولادك إلى غير الخبير.

شيء آخر ؛ الناس يبحثون عن الحق، ما الحق ؟.. قال بعض العلماء الحق لابس خلق السماوات والأرض:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣))

[سورة الأحقاف]

يعني لابس الحق خلق السماوات والأرض، ما الحق ؟ نكشفه من كتاب الله:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣))

[سورة ص]

ما خلقناهما إلا بالحق..

معنى باطلا: الباطل الشيء الزائل، والحق نقيض الباطل، إذاً الحق هو الشيء الثابت، الدائم المستمر، والجدار الذي تبنيه من دون أسس علمية لا يستمر، يقع، أما إذا بنيت الجدار وفق أسس علمية بشاقول، وبمواد أساسية، وبأساس جيد، إذا بنيت الجدار وفق أسس علمية، فهذا الجدار لا يتقوض، بني ليبقى، لأنه وفق الحق، فكل شيء بني وفق الحق يستمر، وكل شيء بني خلاف الحق ينهار.

التعريف الثاني للحق:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣))

[سورة الأنبياء]

الحق نقيض اللعب..

أيحسب الإنسان أن يترك سدى..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦))

[سورة المؤمنون]

فالحق هو الشيء الهادف، لا الشيء العابث، هذا الحق الذي يبحث عنه الناس جميعاً، يقول لك: الحقيقة، الحق..

الحق: هو ما نقل عن الله عز وجل، هو القرآن، قطعي الثبوت والسنة الصحيحة، وفق التفسير الأصولي، هذا هو الحق، والعقل الصريح ليس العقل التبريري، والفطرة السليمة، ليست الفطرة المشوهة، والواقع الموضوعي، ليس الواقع غير الموضوعي المزور فالحق تتقاطف فيه خطوط النقل الصحيح، مع التأويل الصحيح وخطوط العقل الصريح، وخطوط الفطرة السليمة، وخطوط الواقع الموضوعي ؛ لأن النقل كلامه، ولأن الكون خلقه الواقع خلقه، ولأن العقل مقياس أودعه فينا من عنده، ولأن الفطرة جبلة جبلنا عليها.

لابد من هذا التطابق، وهذا الحق، هذا مقياسه، الآن نعود إلى الأطفال.. الأطفال ـ أيها الإخوة ـ غراس الحياة، قطوف الأمل، قرة عين الإنسان، زهور الأمة المتألقة، والمتفتحة، هم الجيل الصاعد الذي تعلق عليه الأمة أملين كبيرين، هما أخص واجبات الحفاظ على مكاسب الأمة في شتى الميادين، وتحقيق مكاسب جديدة، كي تحقق الأمة الرسالة التي شرفها الله بها، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[سورة البقرة آية ١٤٣]

ولكن هذه الواجبات الملقاة على عاتق الجيل الصاعد لن تتحقق إلا إذا بذلت الأمة لأبنائها كل عناية واهتمام، وكل غال ورخيص، وكل نفس ونفيس، وقد وجه الإسلام عنايته إلى تربية الأطفال حتى يسعد بهم المجتمع، ويسعدوا هم بالمجتمع، ولكن الشيء الذي يحير ويلفت النظر إعجاباً، هو أن الإسلام لم يأمر بالعناية بالطفل من يوم مولده بل رعاه فكرةً، واحتضنه غيباً، وخطط لمستقبله مستقبلة، ولم يزل أمنية هائمة في ضمير الغيب، لأن الأسرة في الإسلام لها خطورتها ومكانتها، لهذا لابد للإسلام من أن يصحح أول لبنة من لبناته ألا وهي الطفل.

أيها الإخوة:

سئل عملاق الإسلام سيدنا عمر رضي الله عنه، ما حق الولد على أبيه ؟.. فأجاب إجابة رائعة، قال: أن يحسن انتقاء أمه، هذا أول واجب على الآباء تجاه الأبناء، أول حق للأبناء على الآباء أن يحسن اختيار أمه، وأن يحسن اسمه، وأن يعلمه القرآن، كيف لا والطفل هو العنصر الأول في بناء الأسرة، وهو الذي يسعد أهله ويشقيهم يسعدون باستقامته، وسلامته، وسعادته، وتوفيقه، ويشقون بانحرافه بإخفاقه وانحرافه، وشذوذه، وكنت أقول دائماً أيها الإخوة لو أن الوالد وصل إلى أعلى مركز اجتماعي، أعلى مركز إداري، أعلى حجم اقتصادي، أعلى مكانة علمية، ولم يكن ابنه كما يتمنى فهو أشقى الناس

(ولا يخرجنكما من الجنة فتشقى)

.. بحسب قواعد اللغة المفروض أن تكون الكلمة فتشقيا، أما الآية ليست كذلك،

(ولا يخرجنكما من الجنة فتشقى)

لماذا ؟.قال: لأن شقاء الزوج شقاء حكمي للزوجة، والبلاغة في الإيجاز، يقاس على هذه الآية، إذا شقي الابن شقي الأب حكماً، فالذي يعتني بأولاده يبحث عن راحته وعن سلامته وعن سعادته.

أيها الإخوة الكرام:

الأطفال بادئ ذي بدء هم المودة بين الزوجين، كما أن الله خلق السماوات والأرض، لتكون هذه السماوات والأرض آية دالة على عظمته:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١))

[سورة الروم]

وكما أن الله خلق الشمس والقمر ليكونا آيتين على عظمته:

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣))

[سورة الروم]

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧))

[سورة فصلت]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١))

[سورة الروم]

بادئ ذي بدء المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عز وجل أما معنى الرحمة ؛ قد تنقطع المصلحة بين الزوجين، قد يفتقر الزوج قد يصاب بمرض عضال، قد تمرض الزوجة، إن توقفت المصلحة بينهما تلك التي هي سبب المودة، حلّت الرحمة مكان المودة، فهذه الأسرة أسست لتبقى، إما بحكم المودة، وإما بحكم الرحمة، أو بكليهما، ولكن بعض المفسرين جزاه الله خيراً لفت النظر إلى أن قوله تعالى: وجعل بينكم مودة ورحمة، الأطفال، هم الذين يزيدون الموجة بين الزوجين، إذاً الأطفال هم المودة والرحمة، الأطفال يقوون العلاقة الحميمة بين الأبوين ويجعلون هذه العلاقة أكثر أمناً واستقراراً، والأطفال هم البشرى، قال تعال:

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً)

[سورة مريم آية ٧]

والأطفال هم قرة العين.

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (٧٤))

[سورة الفرقان]

والأطفال هم زينة الحياة الدنيا:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦))

[سورة الكهف]

وأما في السنة القولية مما ورد في الأدب المفرد للبخاري،

((أن أول من يمسك بحلق الجن أنا، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت من هذه يا جبريل، قال هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلهم))

الحكم الشرعي من حق الزوجة التي مات عنها زوجها أن تتزوج ولا شيء عليها إطلاقاً، هذا موقف شخصي، لكنها تُكافئ عليها مكافأة كبيرة، نريد من هذا الحديث أن نعرف كم هي عظيمة عند الله تربية الأولاد، هذه التي تنازع النبي الكريم دخول الجنة لأنها ربت أولادها، وقدمت للمجتمع عناصر سليمة.

ومن زاوية أخرى كم تحتاج تربية الأولاد إلى تضحيات جسام، إلى بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وفي الحديث:

((الأطفال دعاميص الجنة))

[أخرجه مسلم وأحمد عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ وَمَاتَ ابْنٌ لِي فَوَجَدْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ هَلْ سَمِعْتَ مِنْ خَلِيلِكَ شَيْئًا نُطَيِّبُ بِأَنْفُسِنَا عَنْ مَوْتَانَا قَالَ نَعَمْ سَمِعْتُهُ قَالَ صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ]

والدعاميص نوع من الفراشات الجميلة، هم أحباب الله، وقرة أعين الآباء، وفي حديث آخر تعرفونه جميعاً:

((لولا أطفال رضع، وشيوخ ركع، وبهائم رتع، لصب عليكم العذاب صباً))

فكأن الصغار يدرؤون عن آبائهم العذاب الذي يستحقونه.

وقد أمرنا أن نأخذ أقوال النبي لأنه المعصوم، ولأنه المشرع، وقد أمرنا أن نتأسى به، بأفعاله لأنه المعصوم ولأنه المشرع، ولأن السنة في تعريفها الدقيق ما أثر عن النبي من قول أو عمل أو إقرار أو صفة فماذا عن سنته العملية.

((صعد المنبر ذات يوم يخطب الناس، ورأى الحسن والحسين يجريان ويتعثران، فقطع خطبته، ونزل فاستقبل الطفلين وحملهما على ذراعيه، ثم صعد المنبر وقال: صَدَقَ اللَّهُ (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا قَالَ أبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ الْحُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ))

[أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد]

((وكان يصلي بأصحابه ذات يوم فأقبل الحسن والحسين فركبا ظهره، وهو ساجد فأطال السجود ثم أطال السجود، ولم يرض أن يعجّل بنزولهما حتى نزلا، وحين سلم سأله أصحابه: لقد أطلت السجود يا رسول الله فقال: لقد ارتحلني أبناي فكرهت أن أعجلهمـا))

من شدة رحمته بالصغار أنه كان يعجل صلاته إذا سمع بكاء طفل وكأن هذا الطفل يادي أمه ببكائه، كان يصلي بأصحابه ذات يوم صلاة الفجر، ومن سنته الشريفة أنه كان يطيل القراءة في صلاة الفجر، ذكر بعض شارحي الحديث أنه قرأ الإخلاص، فعجب أصحابه من هذه السرعة الشديدة في أداء صلاة الفجر، فقال:

((سمعت طفلاً يبكي فكرهت أن أشق على أمه))

هذه رحمته بالصغار وكان يمرُّ ذات صباح على بيت فاطمة فبلغ مسمعه بكاء الحسين فشق عليه ذلك فقال لفاطمة بعد أن انتهرها:

((أو ما علمت أن بكاءه يؤذيني))

أيها الإخوة:

صوناً للأسرة من أن تتصدع وتنهار فيدفع الصغار باهظ الأثمان حذر النبي حينما يخطب الإنسان من المرأة السيئة:

((عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْهم عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة واحمد والدارمي]

وفي بعض الروايات من تزوج المرأة لمالها أفقره الله، من تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، من تزوجها لدينها أكرمه الله.

وتوجيه آخر من النبي عليه الصلاة والسلام إلى أولياء الفتيات:

((عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ قَالَ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[انفرد به الترمذي]

والذي أقوله ـ أيها الإخوة ـ إما أن نتساهل مع خاطبي فتياتنا وإما أن يحل السفاح محل النكاح، ماذا قال سيدنا شعيب لسيدنا موسى خاطب ابنته قال: ((وما أريد أن أشق عليك))، إذا تساهلنا حفظنا مجتمعنا، حفظنا أعراضنا، حفظنا مستقبلنا.

أيها الإخوة الكرام:

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن القرابة القريبة، ليكون النسل قوياً ففي الحديث الموقوف على سيدنا عمر

((اغتربوا لا تضووا))

لأن هذا الضعف يتكرس، إذا كانت القرابة شديدة، ولأن الطفل أيها الإخوة يحمل عناصر الأوبة والعمومة، وخصائص الخؤولة فلابد للإسلام من أن يحفظ على الطفل نقاءه، ووراثته، ليخرج

للناس لا تشوبه شائبة، وأن يشينه ما يشين، أو يحط من قدره سلوك، أو يلحق به سوءات الآباء والأجداد، فمن توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام:

((تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس))

يجب أن تفتخر بآبائك وأجدادك، لا افتخار الجاهلية، ولكن افتخار الطهر والعفاف والتربية. وحفاظاً على التفاف الأولاد حول آبائهم، وعلى حسن العلاقة قيما بينهم وأمر الإسلام الآباء بالعدل بين الأولاد، والتسوية بينهم في العطية، وقصة الصحابي الجليل، النعمان بن البشير، الذي أراد أن يشهد النبي عليه الصلاة والسلام، على نحلة نحلها ابنه، من دون إخوته، فقال له عليه الصلاة والسلام أشهد غيري فإني لا أشهد على جور.

ونظر النبي عليه الصلاة والسلام إلى رجل له فقبل أحدهما، وترك الآخر، فقال له:

((مهلاً، هلا ساويت بينهما، اعدلوا بين أولادكم ولو في القبل))

وبما أن الأنثى مساوية للذكر في التكليف والتشريف والمسؤولية، وبما أن الله كرمه كما كرمها، لذلك لا يقر الإسلام أن يُنظر إلى الأنثى نظرةً دون الذكر، وكل من ينظر هذه النظرة فهو جاهلي بعيد عن روح الإسلام، وكنت أقول ـ أيها الإخوة ـ والله قلامة ظفر فتاة مؤمنة طيبة طاهرة تحسن تبعل زوجها وأولادها، خير من ألف رجل شارد عن الله عز وجل.

أيها الإخوة:

أي أمر في القرآن الكريم موجه للذكور يعني الذكور والإناث من باب التغليب، وفضلاً عن ذلك، خص الله الإناث ببعض الآيات، قال:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

[سورة آل عمران آية ١٩٥]

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(٣٥))

[سورة الأحزاب]

عند الله سواء.

يقول عليه الصلاة والسلام: ((نعم الولد البناء)). وفي حديث آخر وحينما بُشر النبي عليه الصلاة والسلام بفاطمة رضي الله عنها قال:

((ريحانة أشمها وعلى الله رزقها))

وقال أيضاً:

((من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج وليبدأ بالإناث قبل الذكور))

واستثنى الفقهاء من التماثيل اللعب الصغيرة، التي يفرح بها الصغار.

ومن الثابت أن البيئة التي ينشأ فيها الطفل أثراً فعالاً في عقيدته ومبادئه، وفي طباعه وأخلاقه، ويتأثر الطفل أول ما يتأثر بالأبوين الذين يتخذهما مثلاً أعلى في سلوكه، لذلك وجب على الوالدين أن لا يظهرا أمام طفلهما إلا بالمظهر الحسن والخلق القويم، وأن يضربا أمامه أكرم الأمثلة في الأقوال والأفعال..

((أمرأة قالت لابنها في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام: تعال هاك (لأعطيك) فقال عليه الصلاة والسلام ماذا أردت أن تعطيه،قالت تمرة، فقال لها عليه الصلاة والسلام: أو إن لم تفعلي ذلك لعدت عليك كذبة))

وقد وجه الإسلام إلى الوالدين إرشادات سامية إذ أمر الوالدين بالعناية بهم العناية الكاملة، ويقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم:

((أحبوا الصبيان، وارحموهم، فإذا وعدتموهم فوفوا لهم، فإنهم لا يرون إلا أنكم ترزقونهم))

وجزء أساسية جداً في تربية الأولاد هو أن يلزم الوالدان أولادهم وأن يكون أولادهم معهم في أكثر الأوقات، وهذا يساعد على غرس القيم والعادات الصحيحة، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الزموا أولادكم))

أي لا تتركوهم هملاً دون رعاية، أو لا تتركوهم للشاردين والتائهين ورفقاء السوء، الزموا أولادكم، وحينما يؤدب الرجل ولده فإنما يدفع إلى المجتمع لبنة صالحة، وعنصراً خيراً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق بنصف صاع كل يوم))

له أجر كبير، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام حثنا على تربية الأولاد بما في هذا العمل من أجر عظيم، وعلى كل فكل أمر قطعي الدلالة في السنة النبوية الصحيحة يقتضي الوجوب، قال عليه الصلاة والسلام:

((عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ))

[انفرد به ابن ماجة]

الآخرون أنت لهم، وغيرك لهم، أما أولادك فمن لهم غيرك وكفى بالمرء أثماً أن يضيع من يقوت، هو يطعمه لكن ضيعه أهمل دينه وأخلاقه.

في الإسلام توجيهات رائعة، يعني علم النفس التربوي، وعلم الاجتماع، وعلم التربية، حينما يصل إلى ما قاله النبي نثني عليه نثني على العلم، هناك مسلمون يقعون في تناقض عجيب، إذا رؤوا شيئاً في الإسلام يتوافق مع العلم يثنون على الإسلام وكأن العلم هو الأصل، لا، الأصل هو الدين، الأصل هو وحي السماء إذا رأيت في بعض العلوم ما يطابق القرآن والسنة، نقول هذا العلم صحيح لأنه طابق القرآن والسنة.

التربية الحديثة تعنى بالتربية الاستقلالية، التربية الاستقلالية تقوم على احترام الطفل، تقوم على احترام شخصية الطفل، تقوم على منحه بعض الثقة، تقوم على مشاركة الصغير في إبداء الرأي مهما يكن رأيه ضعيفاً، تقوم على أخذ رأي الصغير في حل بعض المشكلات وإن بدا حله غير واقعي، تقوم على توضيح ما في الرأي من خطأ أو ضعف ثم عرض الرأي الصحيح عليه، هذه أسس التربية الاستقلالية، هذه الطريقة تصوغ شخصية الطفل صياغة سليمة وتوجهه الوجهة الصحيحة.

هناك آباء لا يسمحون لأولادهم أن يفعلوا شيئاً، هناك أمهات لا يسمحن لبناتهم أن يفعلن شيئاً، ينشأ هذا الطفل اتكالي، ضعيف الشخصية، لا يواجه الأمور، لا يحل مشكلة، اتكالي، أما الأب الذي يزج ابنه في الحياة مع المراقبة، الذي يعتني به، يمنحه بعض الثقة، يستشيره، يسأله، يأخذ برأيه، ينمي شخصيته، ويكسبه قدرةً على مواجهة مشكلات الحياة.

ورد في الأر

((لاعب ولدك سبعاً، وأدبه سبعاً، وصاحبه سبعاً ثم اجعل حبله على غاربه))

اجعله صديقك، بعد الواحد والعشرين، من واحد لسبعة ملاعبة من سبعة إلى أربعة عشر تأديب، بعد الأربعة عشر مراقبة ومصاحبة، وبعد ذلك صار صديقاً لك.

أما ما ورد في السنة من التربية الاستقلالية التي أرادها النبي صلى الله عليه وسلم والتي علم الناشئة من الصحابة عليها، وعودهم على إبداء آرائهم ما حدث لعبد الله بن عمر، عندما سأل النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ حَدِّثُونِي مَا هِيَ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَاسْتَحْيَيْتُ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنَا بِهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِيَ النَّخْلَةُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي فَقَالَ لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد والدارمي]

اسأل.. أحياناً مدرسون يسألون سؤال صعب لا يجيب يتهمونه بالغباء، كلمة اجلس يا غبي، هذه الكلمة تحطمه لخمسين عاماً.

الطالب الضعيف اسأله سؤال سهل، وارفع له معنوياته، اسأله سؤال مقبول، معقول يجيب عليه، ثم شجعه واثن عليه، تعطيه ثقة بنفسه، فقال عمر، لأن تكون قلتها، أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا.

ثم إن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة والمجتمع الذي ينشئ أفراده على الوعي والمعرفة، وعلى هدى وبصيرة، وثقافة وعلم، هو المجتمع الحق الذي ينهض به أفراده وينهض هو بأفراده، من أجل ذلك دعا الإسلام إلى العلم الذي يحقق الفائدة للمجتمع، وللفرد، والسلامة للعالم، قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤))

[سورة الرحمن]

أيعقل أن يعلم الله الإنسان القرآن قبل أن يخلق، الترتيب علم القرآن خلق الإنسان، قال علماء التفسير: ليس ترتيب هذه الكلمات ترتيباً زمنياً بل هو ترتيب رتبي، بمعنى أنه لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه.

شيء آخر: لفت النبي عليه الصلاة والسلام نظر الآباء، قال علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمن غير زمنكم، يجب أن يقبل الأب التطور، في ثوابت بالإنسان، وفي متغيرات، فالثوابت فوق المكان والزمان، ما غطتها النصوص قطعية الدلالة، أما هناك متغيرات لا يتأثر الدين بها، لا تقترب من الدين، متعلقة بالدنيا، فالأب الناضج لابد من أن يقبل المتغيرات

((علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمن غير زمنكم))

أنت نشأت بالخمسينات، ابنك الآن بالتسعينات، هناك تطور غريب بأنماط الحياة، وأنماط الدخل والعمل والسلوك.

ينبغي أن نعلمهم ما ينبغي أن يُعلم من الدين بالضرورة، وأن هذا العلم فرض عين، أما بقية العلوم فهي فرض كفاية، إذا قام بها البعض سقطت عن الآخرين.

أيها الإخوة الكرام حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وتخطى خيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

الخطبة الثانية:

التقى بي أخٌ البارحة، وقال: سألتنا عن ضيف دخل بيوتنا فأكرمناه فقوض دعائمنا، وما عرفت من هو هذا الضيف، قال لي أدق من ذلك، قال ما عرفت من هو هذا الضيف، أو ما عرفت ما هذا الضيف، لعله عاقل أو غير عاقل، قال حتى كنت في نزهة في جبل قاسيون، فنظرت إلى سطوح البيوت فعرفت من هو هذا الضيف قلت له وسأضيف على ذلك إضافة:

مؤتمر عُقد حول الأسرة والطفولة في بلد عربي، ودعي إليه كبار علماء الاجتماع والنفس والمعنيون بشؤون الأسرة، وقد ألقي بحث حول هذا الضيف، فكان من فقرات هذا البحث:

((يسهم هذا الضيف بشكل أو بآخر عن قصد أو عن غير قصد في تدمير القيم الاجتماعية، ونشر وتكريس التفاهة، وسلب الحساسية وقتل الإبداع، وتشكيل عقبة كؤود أمام التربية والتعليم، ونسف ومسح المكتسبات والمنجزات الاجتماعية، والتربوية والتعليمية، التي تم الحصول عليها، وإنجازها بصعوبة بالغة، كذلك فإن أصابع الاتهام تشير إلى أن هذه الأشكال الثقافية التي يصدرها الغرب إلى البلاد النامية، تشجع على السلبية، والانعزال، وتعطي الأولوية لثقافة الهروب القائمة على الخمول، والانفصال على الواقع والفردية المناهضة لروح الجماعة، والعمل الجماعي، وبخاصة على الشريحة التي يسهل التأثير عليها))

هذا أخطر شيء، هذا الضيف يؤثر على شريحة في مجتمعنا كبيرة جداً يسهل التأثير عليها، قال هي شريحة الأطفال، والحقيقة يوجد إحصاء دقيق إن نسب الأطفال في العالم العربي خمسة وأربعين بالمائة من مجموع السكان، فهذا الضيف يفعل كل هذه الأفعال في هذا الجيل فإذا أردنا أن ننتصر على أعدائنا، وأن نقف على قدمينا، وأن نثق بالمستقبل، فلابد من محاسبة هذا الضيف.

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦٨١ : خ١ ـالمؤمن مرآة للمؤمن ، خ٢ ـ مقالة رمزية عن أمريكا .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-١٢-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إن أحدكم مرآة أخيه، فإذا رأى به أذىً فليمطه عنه))

[رواه السيوطي في الجامع الصغير]

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن مرآة المؤمن))

[روي عن أنس، وصححه السيوطي بأنه حسن]

وفي حديث ثالث يقول عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخ المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوفه من ورائه))

[ورد في البخاري في الأدب ورواه أبو داود عن أبي هريرة]

وفي حديث رابع:

((المسلم مرآة المسلم فإذا رأى به شيئاً فليأخذه))

أيها الإخوة الكرام، المؤمن مرآة المؤمن: أي آلة تريه محاسن أخيه ومعايبه، لكن بينه وبينه، فإن النصيحة في الملأ فضيحة، وإنما يعلم الشخص عيب نفسه بإعلان أخيه، وأخوه يكشف له الخلل فيمنع تلفه وخسرانه.

يكفُّ عليه ضيعته: أي يكفُّ عليه ما يهلكه في معاشه.

ويحوط من ورائه: أي يحفظه ويصونه ويذب بقدر الطاقة.

هذا شرح بعض شرَّاح الحديث في فيض القدير في شرح الجامع الصغير.

هذا الحديث مهم جداً في العلاقات بين المؤمنين، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما قال: ((المؤمن مرآة المؤمن))، هذا الحديث على قلة كلماته عظيم المعاني كثير الدلالات، ينطوي على معان تربوية نحن في أشد الحاجة إليها، وبخاصة في هذه الأيام التي يمر بها المسلمون لتصحيح مسارهم في انطلاقهم إلى الله تعالى، وتحقيق عبوديتهم له.

المرآة ـ أيها الإخوة ـ تظهر العيوب، من دون صخب ولا جدال فيا أيها المؤمن كن كذلك.. انصح أخاك بينك وبينه، من دون فضيحة من دون صخب، من دون تهويل، من دون جلبة، من تشهير

بصمت، المرآة تعكس العيوب بصمت، فكن كهذه المرآة، لأنك كما وصف النبي عليه الصلاة والسلام ـ مرآة أخيك، وهو مرآتك.

فالملاحظة الأولى أيها الإخوة: المرآة تكشف العيوب من دون صخب ولا ضجيج، فكن كذلك ـ أيها المؤمن ـ في تصحيح المسار وفي رأب الصدع، وفي لمِّ الشمل، وفي إصلاح الخلل، بينك وبين أخيك، بصمت، من دون ضجة، من دون فضيحة، من دون تشهير هذا إن أردت أن تكون مرآةً صادقة له.

المرآة لا تبدي العيوب فقط، بل تعكس المحاسن أيضاً، إنها تعكس كل شيء، لعلها تعكس المحاسن قبل المساوئ، فلا تكن إلا كهذه المرآة، إن كان فيه فضيلة، إن كان فيه خير، إن كان فيه محاسن أبرز هذه المحاسن، وإن كان في معايب، بينك وبينه أبرز هذه المعايب له، لا مانع من أن تبرز المحاسن أمام الناس، فهذا دعم للحق، وهذا دعم لأخيك، وهذا إعلان عن أخوتك الصادقة له، أما إذا عكست هذه المرآة بعض المساوئ فينبغي أن يكون هذا فيما بينك وبينه، بصمت، وبهدوء، وبتلطف، وبأجمل كلمة وأرقى عبارة وألطف أسلوب..

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

أيها الإخوة المؤمنون، لا تنسوا أنه ما من امرئ إلا وفيه بعض المحاسن، وكان عليه الصلاة والسلام يبرز هذه المحاسن، من أجل أن يشجع عليها، كان عليه الصلاة والسلام يحسِّن الحسن ويقويه، ويقبِّح القبيح ويوهِّنه فإذا رأيت في أخيك بعض المحاسن فأبرزها.

النبي عليه الصلاة والسلام سمع صحابياً أراد أن يلحق معه الصلاة في الركعة الأولى، أحدث جلبة وضجيجاً في المسجد، فلما انتهت الصلاة، قال له عليه الصلاة والسلام:

((زادك الله حرصاً ولا تعد))

أبرز المحاسن، رأى في هذه الجلبة حرصاً على الصلاة خلف النبي حرصاً على إدراك الركعة وراءه، لكنه أحدث جلبة، قال له: زادك الله حرصاً ولا تعد..

الموضوعية قيمة في العلم أولى، والموضوعية قيمة في الأخلاق أولى، وفي هذه النقطة، يلتقي العلم مع الأخلاق، كن موضوعياً إن ذكرت المساوئ فلا تنس المحاسن، إن رأيت السلبيات فلا تنس الإيجابيات، إن رأيت القبائح فلا تنس المحاسن، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

كن موضوعياً، كن كالمرآة، بصمت بهدوء، من دون ضجيج من دون صخب، من دون فضيحة، اعكس المحاسن، واعكس المساوئ من أجل إصلاح الخلل، من أجل رأب الصدع، من أجل رفع الإنسان إلا مستوى إنسانيته.

أيها الإخوة الكرام، المرآة لا تضعِّف العيوب، بل تظهرها بحجمها الحقيقي إلا إذا كانت مقعرة، المرآة التي نقصدها هنا المرآة المسطحة، وليست المقعرة التي تكبر العيوب، وليست المرآة المحدبة التي تصغر العيوب، كن كالمرآة الصقيلة لا محدبة، ولا مقعَّرة، كن مرآة صادقة تكشف الخطأ، وتصلحه بقصد صلاح حال المسلمين، وهذا الذي لا يعنيه أمر المسلمين، ولا يحمل هم المسلمين ليس من المسلمين، هذا الذي لا يتمعَّر وجهه إذا رأى منكراً ليس مؤمناً، هذا الذي يقول لك أنا على حق، ولا شأن لي بالآخرين، هذا ليس مؤمناً..

المرآة لا تضعِّف العيوب، بل تظهرها كما هي، من دون تضخيم أو زيادة، فعلينا أن نكون منصفين، عادلين، فلا نسلط الأضواء الكشافة، ولا العدسات المكبرة على أخطاء المسلمين، لا نكون قناصين، نكون هادين مهديين، نكون معاونين، نكون بأيدي إخواننا آخذين.

سيدنا حاطب بن أبي بلتعة، عمل عملاً لا يمكن أن يُقاس في أي زمان أو مكان، أرسل رسالة إلى قريش قبل فتح مكة، قال إن محمداً يريد أن يغزوكم، فخذوا حذركم، أعلم الله النبي بكتابه هذا، واستقدمه عن طريق أحد الصحابة من امرأة في نصف الطريق، وطلب حاطب قال له يا حاطب ما حملك على ما فعلت ؟.

قال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال لا يا عمر، إنه شهد بدراً.

يا حاطب، ما حملك على ما فعلت ؟.. قال والله يا رسول الله ما كفرت وما ارتددت، ولكني لصيق في قريش، ولست من أصل قريش، أردت أن يكون هذا الكتاب صنيعة لي عندهم، أحمي بها أهلي ومالي، وأنا موقن أنك منتصر عليهم.

فما كان من النبي عليه الصلاة والسلام إلا أن قال: إني صدَّقته فصدَّقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً. وقال بعض شرَّاح الحديث: إن عمر رأى عظم الذنب، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام رآه زلَّة، نقطة ضعف أصابت هذا المؤمن أراد أن يكون عوناً له على الشيطان، أراد أن يأخذ بيده، فإن رأيت نقيصة أو عيباً حاول أن تفسرها تفسيراً مقبولاً.

التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة، لا تكن عوناً للشيطان عليه كن عوناً له على الشيطان. أيها الإخوة الكرام، المرآة لا يمكن أن تعكس العيوب إلا إذا كانت نظيفة طاهرة صقيلة فهل أنت كذلك ؟.. فقبل أن تعكس عيوب الآخرين، هل نظفت مرآة نفسك، هل أزلت عنها العيوب

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً]

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

[أخرجه الترمذي عن الحسين بن علي]

لن تستطيع المرآة أن تعكس العيوب إلا إذا كانت صقيلة، نظيفة لامعة، وإلا أعطت صورة مشوهة عن الذي أمامها.

وليس كل إنسان يعنى قدر طاقته بتنظيف نفسه، وتطهيرها وصقلها فإذا وصل إلى هذه المرتبة، وقل من يصل إليها، عندئذ يحمل هم المسلمين، ويبدأ بإصلاح المسلمين، فلعل الله سبحانه وتعالى يقبل منه ذلك.

أيها الإخوة الكرام، المرآة حينما تعكس العيوب لا تبالي بمن هذا الذي أمامها كبيراً كان أم صغيراً، هذا الذي يتصيد عيوب الضعفاء، ويغض الطرف عن عيوب الكبراء، هذا ليس مرآةً صادقة، كما أن المرآة تعكس كل العيوب، وتعكس كل العيوب في كل الأشخاص.

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد والدارمي]

إن هذه المرآة تعكس كل شيء، وتعكس كل الأشخاص الذين أمامها من دون تمييز، ومن دون مداهنة، من دون تقبيح.

هناك أناس يستضعفون بعض الناس، فيكيلون لهم الذمَّ جزافاً، أما إذا رأوا أناساً أقوى منهم كالوا لهم المديح جزافاً، هؤلاء ليسوا مرآةً صادقة، الحق يُعلى ولا يُعلى عليه.

المرآة تؤدي واجبها، ولا تنتظر مغنماً، ولا شكراً، ولا تقديراً وهكذا المؤمن، لا ينبغي أن ينتظر على نصيحته جزاءً، ولا تقديراً ولا مديحاً، ولا ثناءً ولا شكراً..

المرآة تستحق التقدير والإكرام، ولا يكسرها أو يهملها إلا جاهل إنها تُريه العيوب، إنها تحسِّن مظهره أمام الناس، إنها تكشف له الأخطاء، إنها ترفعه، فإذا رفضتها، ورفضت نصيحة أخيك ولم تعبأ بها، بل عنفته عليها.

إذا اعتززت بنفسك، ولم تلق له إذناً صاغية، فكأنك كسرت هذه المرآة، ولا يكسرها إلا جاهل، وهذا الذي لا يصغي للنقد يوجه إليه ليس أهلاً أن يرتقي إلى قمة النجاح.

أيها الإخوة الكرام، ورد عن بعضهم هذه الحكمة: تعلموا قبل أن ترأسوا، فإذا ترأستم فلن تعلموا ؛ لأن الإنسان قد يصل إلى النجاح، فيمنعه تفوقه من إصغاء الأذن إلى النصيحة، وعندئذ يصبح النجاح وبالاً عليه، من الصعوبة بمكان أن تصل إلى القمة، ولكن الأصعب من ذلك أن تبقى فيها، إن الطرق إلى الحضيض، كثيرة جداً بدأً من القمة، ونحو الحضيض.

المرآة لا تنسى وظيفتها ولو كسرتها، والمؤمن ينصح من مركز قوة، ومن مركزة ضعف، النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي العلة التي جعلها الله سببا في خيرية هذه الأمة، قال تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠))

[سورة آل عمران]

فعلّة الخيرية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحينما تُعطل هذه الفريضة السادسة، لا معنى لهذه الخيرية، عندئذ نحن بشر ممن خلق، وليس لنا أية ميزة على أحد.

سيدنا عمر وقد طُعن، فقال في أول صحوة له بعد الطعن، هل صلى المسلمون الفجر ؟ أراد أن يطمئن على صلاتهم، وقد طعنه هذا الذي طعنه، والدماء تسيل منه ويقول هل صلى المسلمون الفجر ؟.

لو كسرت المرآة، لا تتعطل وظيفتها، بل تبقى تؤدي مهمتها بإخلاص ونجاح.

أيها الإخوة الكرام، كما أن المرآة لا تخفي العيوب في باطنها، ولا في جوفها، بل تظهرها على صفحتها الخراجية، وتنسى كل صورة حال زوالها وهكذا المؤمن، لا يحقد، ولا يخبِّئ، ولا يجمع، إنما هو مرآة صافية، تعكس الذي أمامها وانتهى الأمر، فإذا أزيح الذي أمامها لم يعلق في باطنها شيء، وكذلك المؤمن سليم الصدر، صافي الطوية لا يحقد، ولا يبغض، ولا يكره.

يقول سيدينا عمر رضي الله عنه: حينما دخل عمير على رسول الله ـ وقد جاء ليقتله ـ فقال رضي الله عنه: دخل عمير على النبي صلى الله عليه وسلم ـ والخنزير أحب إلي منه، وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أولادي.

حينما آمن عمير، وقال له النبي الكريم: يا عمير، ألم تقل لصفوان لولا أطفال أخشى عليهم العنت من بعدي، ولولا ديون ما أطيق سدادها، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، وقف وقال يا رسول الله إن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله وأنت رسوله إذاً، وإني قد أسلمت.. فقال عمر: وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أولادي.

فالمرآة لا تحقد، ولا تخذل، ولا تجمِّع، ولا يعلق فيها شيء بعد زوال الصورة، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن.

المرآة تذكر الذي يرى فيها عيوبه الظاهرة، لا الباطنة، فالمؤمن لا يدقق في البواطن، لا يتتبع العيوب، لا يسأل ماذا تنوي من هذا العمل ؟.. هذا من شانه مع الله، أنت لك الظاهر والله يتولى البواطن، أنت تحكم بالظاهر، والله يتولى البواطن، لا تدخل إلى جوف الإنسان، لا تسأله عن قصده، لا تتبع عيوبه، عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ:

((صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ))

[انفرد به الترمذي]

الشيء الذي ظهر لك هذا موضوع النصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

المرآة تظهر العيوب في حضرة الناظر إليها لا في غيبته فهذا الذي يجامل الناس في حضورهم ويغتابهم في غيبتهم ليس مرآةً كما وصفه النبي عليه الصلاة والسلام، المرآة تظهر الذي أمامها فإذا غاب ليس فيها شيء، أما هذا الذي يجامل الناس، يبتسم لهم، يبش لهم، يثني عليهم، فإذا أداروا ظهورهم طعن فيهم، وانتقدهم وجرَّحهم وسفههم هذا ليس من أخلاق المؤمن.

وشيء دقيق جداً ـ أيها الإخوة ـ هو أن المرآة لا تؤدي دورها إلا إذا وقف الإنسان أمامها، لا تؤدي دورها إلا إذا طلبها، لا تؤدي دورها إلا إذا عرف قيمتها، لا تؤدي دورها إلا إذا عرف فائدتها فلذلك هذا الذي لا يسألك، ولا يستنصحك، ولا يعبأ برأيك، هذا يحتقر المرآة، وهو من أبعد الناس عن النصح وعن قبول النصيحة هذا الذي تأخذه العزة بالإثم، هذا الذي لا يقبل النصيحة، بعيد عن أن يكون من المؤمنين ؛ لأن المؤمن يألف ويؤلف، المؤمن لا يدعي العصمة، يتهم نفسه كثيراً، المؤمن يتمنى أن يكون في أحسن حال عن طريق نظره في عيوبه، وعن طريق إصغائه إلى انتقادات الآخرين.

هذه بعض ما في المرآة التي وصف النبي عليه الصلاة والسلام المؤمن بأنه مرآة أخيه.

أيها الإخوة الكرام، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

أيها الإخوة الكرام، في خلال سفرتي الأخيرة، تواردت علي خواطر كثيرة، أردت أن أسجلها في شكل مقالة قصصية، ولأنه لم يسبق لي أن كتبت في هذا الإطار، أضع هذه المحاولة المتواضعة بين أيديكم.

هناك رجل عنده عشرة أولاد، مختلفون من حيث الذكاء والمحدودية، والطيب والخبث، والالتزام وعدمه، ولكل ولد من أولاده ذرية من الذكور والإناث، أراد الأب أن يعطي أولاده من أمواله ؛ ليمتحنهم، وليرى مدى التزامهم بتوجيهاته، فأعطاهم من أمواله بشكل متساوٍ كماً مختلف نوعاً، فمن بيت إلى محل إلى أرض إلى مال سائل، لكن واحداً من أولاده يتمتع بذكاء متقد، وبقدر ذكائه المتقد يتصف بالخبث الشديد، وبقدر خبثه الشديد ينطوي على أنانية مفرطة، وحب بالذات، لكن الشيء الذي يلفت النظر أنه يتمتع بقدرة عجيبة على أن يظهر بأعلى مظهر أخلاقي علمي حضاري ومن أجل أن يوفر هذا الابن الخبيث لأسرته حياةً رغيدة ناعمة مستقرة لا توفرها أمواله الخاصة، ولا الأموال التي أخذها من أبيه، ولا الأموال التي يمكن أن يحصلها بكده وعرق جبينه، بدأ بالعدوان على أموال إخوته، بشكل مقنع تارة، ومكشوف تارة أخرى، بحسب الظروف المحيطة به، فتارة يغريهم بأن يستثمر أموالهم في محله التجاري فيحجزها عنده، ويعطيهم من أرباحها النذر اليسير، وتارةً يبيعهم حاجات يزينها لهم، ويوهمهم أنهم في أشد الحاجة إليها بأغلى الأثمان، ثم إنه يشتري ما عندهم من مواد هو في أمسِّ الحاجة إليها بأبخس الأسعار، وتارة يدعي أنه يدافع عن أخوته ضد أخطار موهومة ويتقاضى عن دفاعه هذا أكرم أموالهم، وكلما تردد إخوته بإعطائه المال الذي يطلبه منهم أغرى بعض أعوانه وما أكثرهم بتهديدهم وتخويفهم، وفي نهاية المطاف، وبعد أن تمكن من إزاحة منافس طامع من ساحة الصراع كشر عن أنيابه، وأزاح القناع عن وجهه، واغتصب معظم أموال إخوته، ولم يبق لهم إلا النذر اليسير وجعلهم يعيشون في فقر مدقع وفي اضطراب وهلع، والذي أعانه على ذلك أن إخوته مختلفون فيما بينهم، بل إن بعضهم حريص على حسن العلاقة معه، لذلك يتفضل عليهم ببعض الفتاة الذي هو جزء من مالهم المغتصب، ومع كل هذا الحرص الذي يبدوا من بعضهم على حسن العلاقة معه لم يحصِّلوا منه شيئاً، بل فقدوا كل شيء، وهكذا بنى مجده على أنقاضهم، وغناه على إفقارهم، وأمنه على تخويفهم.

ثم إن هذا الأخ الخبيث اغتصب أرضاً واسعة الأرجاء، كثيرةً الخيرات، وطرد أهلها وشردهم، وبنى عليها بيتاً عظيم البنيان واسع الأبهاء، فاخر الأثاث، زوده بكل الوسائل المريحة، والأجهزة العصرية، وألحق به حديقة غناء فيها ما لذ وطاب، وجعل لكل ولد من أولاده جناحاً في هذا البيت، ومنحه مركبة، وكل وسائل الحضارة ومنجزات العصر، وكان مولعاً باقتناء الكلاب، وبدافع من إنسانيته ورحمته بالحيوان، أجرى لأحد كلابه علمية جراحية في قلبه كلفته مبالغ طائلة، وبدل لكلب آخر مفصلاً في ركبته، وأصلح لكلب آخر أسنانه، وبحث عن طبيب نفسي يعالج كآبة ألمت ببعض

كلابه وكان يطعم أولاده من اللحم في اليوم ما لا يستطيع أولاد إخوته أن يأكلوه في شهر مجتمعين، فأولاد إخوته يعانون فقر الدم، وهشاشة في العظام، ولأن غذاءهم من النوع الرخيص، وكم من أخ له في أمسِّ الحاجة إلى عمل جراحي، امتنع عن مساعدته وتفريج كربته، ثم إنه اشترى أرضاً، وجعلها مقبرةً لبعض كلابه الذين ماتوا من فرط العناية بهم، فصار بهذا الغنى ناعم الملمس، حسن المظهر لطيف العبارة، مخملي المعشر، يتأنق في مظهره، ويتقيد في مواعيده، يحرص على صحته، وصحة أولاده، هيأ لهم الملاعب واشترى لهم الأجهزة، ورفعاً لمعنوياتهم وتثبيتاً لمكانتهم سمح لهم أن ينتقدوه، وكان يستثيرهم في كل صغيرة وكبيرة، وأوهمهم أنهم أفضل الناس على الإطلاق.

وكان إذا التقى بإخوته وجه لهم نقداً لاذعاً، لأنهم عنيفون في طباعهم خشنون في مظهرهم، متخاصمون فيما بينهم، لا يعتنون ببيوتهم ولا يحسنون اختيار ثيابهم، ولا يتقيدون بمواعيدهم، ولا يتقنون أعمالهم متمسكين بقيم ومبادئ هي سبب تخلفهم وفقرهم.

فالرجل الذي يتمتع بنظرة ثاقبة وعاطفة عميقة، أساسها مبدأ صحيح وقيم عالية، يقيمه تقييماً، والرجل الذي يتصف بنظر قاصر وعاطفة سطحية، وتحكمه المصالح والقيم يقيمه تقييماً آخر، فقل لي ماذا تقيم هذا الأخ، أقل لك من أنت.. قل لي ماذا تقيم هذا الإنسان الذي بنى مجده على أنقاض الشعوب أقل لك من أنت.

لكن الأب يسجل على أبنائه كل حركاتهم وسكناتهم، وفي أية لحظة يراها مناسبة يأخذ من أولاده كل شيء، ويحاسبهم عن كل شيء ويجزي كلاً منهم بحسب عمله.

((وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢))

[سورة إبراهيم]

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٦٨٢ : خ١ -واقع المسلمين اليوم مع أعدائهم ، خ٢ - الصيام وآلية الهضم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-١٢-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦))

[سورة القصص]

الله جلّ جلاله في القرآن الكريم يُحَدِّثنا، ومن أصدق من الله حديثًا، فزوال الكون أهون على الله من أن لا يُحَقِّق وُعوده للمؤمنين، قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥))

[سورة النور]

والآية التي تُتَمِّمُ هذه الآية قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (٥٩))

[سورة مريم]

ويلقى المسلمون هذا الغيّ تنفيذًا لِتَقصيرهم في أداة الصَّلوات، واتّباع الشَّهوات.

أيها الإخوة الكرام، من الأدْعِيَة القرآنيّة قوله تعالى:

(رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦))

[سورة البقرة]

والله سبحانه وتعالى يُطمئنُ المؤمنين فيقول:

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠))

[سورة آل عمران]

اقرؤوا القرآن أيها الإخوة ففيه إجابات لِكُلّ التَّساؤلات، قال تعالى:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣))

[سورة فاطر]

وقال تعالى:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ(١١٣))

[سورة هود]

هذه الآيات الكريمة لا تحتاج إلى شرح، واضحة بيِّنة، وما علينا إلا أن نصطلح مع الله، ونعود إليه، لأنَّه حقٌّ لنا عند الله أن ينصرنا، قال تعالى:

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠))

[سورة الحج]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ أَفْلَحَ مَنْ كَفَّ يَدَهُ))

[رواه أبو داود]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا))

[رواه مسلم]

وعَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِي اللَّه عَنْهنَّ أَنَّهَا قَالَتِ:

((اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَعَقَدَ سُفْيَانُ تِسْعِينَ أَوْ مِائَةً قِيلَ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ))

[رواه البخاري]

وقال بعض شُرَّاح الحديث: هذا الحديث ينسَحِبُ على قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥))

[سورة الأنفال]

حينما لا يأمر المسلمون بالمعروف، ولا ينْهَون عن المنكر، ولا يحملون هموم المسلمين، رُبَّما كما قال عليه الصلاة والسلام: أنهلكُ وفيما الصالحون، قال: نعم، إذا كثر فيكم الخبَث، وفي رواية لِهذا الحديث عن زَيْنَبَ ابْنَةِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ حَبِيبَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ أَنَّهَا قَالَتِ:

((اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ وَهُوَ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَعَقَدَ بِيَدَيْهِ عَشَرَةً قَالَتْ زَيْنَبُ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ))

[رواه ابن ماجه]

وفسَّر الجمهور الخبَثَ بالفُسوق، والفُجور، وقيل: المراد الزِّنا خاصّة، والظاهر أنّه المعاصي مطلقًا، ومعنى الحديث أنَّ الخَبَث إذا كَثُر فقد يحْصل الهَلاك العام، وإذا كان هناك صالحون، هذا شرْح الإمام النَّووِي لِصحيح مسلم.

أيها الإخوة الكرام، ماذا على المسلمين أن يفعلوا ؟! قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(٦٠))

[سورة الأنفال]

الإيمان وحده شرْطٌ لازمٌ غير كافٍ، والإعداد وحده شرْطٌ لازمٌ غير كافٍ، بل إنَّ علاقة الإيمان بالنَّصْر علاقة رياضِيَّة، علاقة سَبَبٍ بِنَتيجة، والدليل قوله تعالى:

(أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥))

[سورة الأنفال]

يا أيها الإخوة الكرام، يتَّضِحُ من خلال هذه الآية الكريمة أنَّ معادلة النَّصر في حالة قوّة الإيمان واحد إلى عشرة، وفي حالة ضعف الإيمان واحد إلى اثنين، وفي حالة انعدام الإيمان، النَّصر للأقوى ؛ عدَدًا، وعُدَّةً، وقوَّة واستِعْدادًا، وما إلى ذلك لأنَّ الإيمان يُبَدِّل طبيعة النَّفس، ويُغَيّر قِيمَها ويُغَيِّرُ مطامِحَها، ويُصَعِّدُ مُيولها، ويرقى برَغباتها، ويُخَفّف من متاعبها، وهمومها، ويُقَوِّي رجاءَها، وأملها، يقلبُ أحزانها أفراحًا، ومغارمها مغانم، تُؤكّد هذه الحقيقة وَصِيَّة سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سيّدنا سعد ن أبي وقاص رضي الله عنه قال:

((أما بعدُ، فإنِّي آمرُكَ ومن معك من الأجناد بتَقوى الله عز وجل على كلّ حال، فإنَّ تَقْوى الله أفضلُ العُدَّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرُكَ ومن معك أن تكونوا أشدّ احْتِراسا من المعاصي عليكم من عدوّكم، فإنّ ذنوب الجيش أخْوَفُ عليهم من عدوّهم، فإنَّما ينصَرُ المسلمون بمَعصيَة عدوّهم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوَّة ! لأنَّ عَدَدَنا ليس كَعَدَدِهم، ولأنَّ عُدَّتنا ليْست كَعُدَّتهم، فإذا اسْتَوينا في المعصِيَة كان لهم الفضل علينا في القوَّة))

الإيمان أيها الإخوة، يعني أنْ يعتَقِدَ الإنسانُ اعْتقادًا جازمًا أنَّ له أجَلاً لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، هذا الإيمان وحدهُ يغرسُ في النَّفس الشَّجاعة والإقدام، وروح التَّضحيَة والإيثار، سيّدنا خالد رضي الله عنه وهو على فراش الموت قال:

((لقد خُضْتُ سبعينَ معركة أو زهاءها، وما في جسمي موضع شِبْرٍ إلا وفيه ضربة بسَيف، أو طعنة بالرمح، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي، فلا نامَتْ أعْين الجبناء))

ومِمَّا يؤكّد علاقة الإيمان النَّصر أنّ الظروف الصَّعبة التي يضعف أمامها الإنسان غير المؤمن، وتُذِلُّهُ وتُحَدِّدُ مصيره لا يمكن لها أن تأثّر في المؤمن الحقّ، ولا أن تُعِدَهُ عن متابعة سَيْرِهِ، ولا أن تُحَدِّد مصيرهُ الذي رسمه له أعداؤُهُ قال تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦))

[سورة آل عمران]

يا أيها الإخوة الكرام، هذا التَّطبيق العملي لِعَلاقة النَّصر بالإيمان، ففي معركة بدْرٍ كان المؤمنون قِلّة مستضعفين، وكان المشركون كثرةً مستكبرين، وكان المؤمنون مفتقرين مقبلين، وكان المشركون مستغنين معْرضين، فاستَحَقَّ المؤمنون النَّصْر بسَبب إيمانهم وافْتِقارهم، ودُعائِهم وإعدادهم جُهْد استِطاعتهم، قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣))

[سورة آل عمران]

أيْ نصرَهم وهم ضِعافٌ مُستَضعفون، لكنَّهم يوم حُنَين استَجمعوا كلّ أسباب النّصر المادِيَّة مِن وفرة العدد، وكثرة العدَد، واستَجمعوا أسباب النَّصر المَعْنَويَّة حيث دانَتْ لهم الجزيرة العربيَّة، ولكن زلَّتْ بهم القدَم إلى الاعْتِماد على هذه الأسباب الأمر الذي أضْعفَ افْتِقارهم إلى الله تعالى، واعْتِمادهم عليه فجاء التَّأديب الإلهي بقوله تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥))

[سورة التوبة]

أيها الإخوة الكرام، الله عز وجل يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(٦٠))

[سورة الأنفال]

القوَّة مطلقة فكُلّ أنواع القوّة يجب أن يُعِدَّها المؤمنون، ولكنَّ رحمة الله بالمؤمنين أنّها كلَّفتهم بإعْداد القوَّة المتاحة، وليْس بإعْداد القوّة المكافئة، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ))

[رواه مسلم عن عقبة بن عامر]

وهو مِقياسٌ خالد للقوَّة، وعنصر أساسي في كَسْب المعارك مهما اختلفَت أنواع الأسلحة وتطوَّرَت، ومستوياتها الفنيَّة، عَنْ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:

(((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ))

[رواه مسلم]

هذه الحقائق أيها الإخوة مستنبطة من القرآن الكريم، ومن منهج الإنسان المؤمن، وتِلك التَّوجيهات التَّفصيليَّة، والتَّوضيحِيّة التي جاءَت بها سنَّة نبيّنا عليه الصلاة والسلام، وهذا المواقف الأخلاقيَّة الرائعة والحكيمة، والتي وقفها المصطفى صلى الله عليه وسلم أسْوتنا وقُدوتنا، وتلك البطولات الفذَّة التي ظَهَرت من أصْحابه أمناء دَعْوته، وقادة ألْويَتِه نضَعها بين أيدي أبناء أمَّتنا العربيّة، وهي تخوض المعارك تِلْو المعارك مع أعدائها أعداء الحق والخير !

لمَّا فرغَ الناس من قتْلاهم في أُحد قال النبي عليه الصلاة والسلام: مَن رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟! أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟! فذهَب رجل من الأنصار فوجدهُ جريحًا في القتلى، وبه رمق، فقال له: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ فقال: أنا في الأموات، أبْلِغ رسول الله صلى الله عليه وسم عنِّي السَّلام، وقُل له: إنَّ سعد الربيع يقول لك: جزاك الله عنَّا خير ما جزى نبيًّا عن أمَّته، وأبلِغ قومك عنِّي السَّلام، وقُل لهم: إنَّه لا عُذْر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيِّكم، وفيكم عَينٌ تطْرُف ! كان سعْدُ بن الرَّبيع في أعلى سعادته حينما لقيَ الله وقد أدَّى واجبه ! قال: فلم أبرح حتَّى مات، فجئتُ النبي صلى الله عليه وسلَّم فأخبرْتُهُ خبري فبكى حتَّى أخضل لِحْيَتَهُ ! ما هذه السَّعادة أيها الإخوة التي كانت تملأ جوانح سَعد بن الرَّبيع؟! لقد ظهرتْ في ضَوء هذه المبادئ، وتلك القِيَم، بطولات فذَّة يدرأن نرى مثلها في المجتمعات التي أدارتْ ظهرها لِمَنهج الله، وانْغَمَسَت في وُحول الشَّهوات، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (٥٩))

[سورة مريم]

من هذه البطولات الفذَّة بطولة سيّدنا جعفر في مُؤْتة، لمَّا وصل المسلمون إلى مؤتة، وهي قرية واقِعة على مشارف الشام، وجدوا أنَّ الروم قد أعدُّوا لهم مئة ألف تُظاهرهم مئة ألف أخرى، أما جيشُ المسلمين فكان ثلاثة آلاف ! وما أن التقى الجَمعان ودارتْ رحى المعركة حتَّى خرَّ زيد بن

حارثة صريعًا مُقبلاً غير مُدْبر، فما أسْرع أن جاء القائدُ الثاني سيّدنا جعفر بن أبي طالب وثَبَ عن ظهر فرسِه، وحمل الراية، وأوْغَلَ في صفوف الروم، وهو يقول:

يا حبَّذا الجنَّة واقتـرابها طيِّبةٌ وباردٌ شرابها

و الروم رومٌ قد دنا عذابها كافرةٌ بعيدة أنسابها

عليّ إذْ لاقيْتُها ضرابها

وظلّ سيّدنا جعفر رضي الله عنه يجول في صفوف الأعداء ويصول حتَّى أصابتْهُ ضربَةٌ قطَعَت يمينه، فأخذ الرايَة بِشِماله، فما لبِثَ أن أصابتْهُ ضربَةٌ أخرى قطعَت شِماله، فأخذ الراية بِعَضُدَيهِ وصَدرِهِ، فما لبثَ أن أصابتْهُ ثالثة شَطَرتْهُ شَطْرين ! بلغ النبي صلى الله عليه وسلم مصْرع سيّدنا جعفر، تَتِمَّة هذه القصَّة، وكان القائد الثالث سيّدنا عبد الله بن رواحة، وعلى ذِمَّة الرِّوايات أنَّها تردَّد ثلاثين ثانية، وقال:

يا نفسُ إلا تُقْتلي تموتي هذا حِمام الموت قد صَلَيت

إنْ تفْعلي فِعْلهما رضيت وإن تولَّيت فقد شقــيت

فأخذ الراية فقاتَل بها حتَّى قُتِل، قال عليه الصلاة والسلام: أخذ أخوكم زيد الراية فقاتل بها حتى قُتِل، وإنِّي لأرى مقامه في الجنَّة، ثمَّ أخذ الراية أخوكم جعفر، فقاتَلَ بها حتى قُتِل، وإنِّ لأرى مقامه في الجنَّة ثمَّ سكت النبي عليه الصلاة والسلام، فقلِقَ الصَّحابة عن أخيهم عبد الله فقالوا: يا رسول، ما فعل عبد الله ؟! فقال: ثمّ أخذ الراية أخوكم عبد الله وقاتل بها حتى قُتِل، وإنِّي أرى في مقامه ازْوِرارًا عن صاحِبَيْه ! كلّ هذا لأنَّه تأخَّر ثلاثين ثانية مقدار هذين البيتين في بذل نفسه في سبيل الله ! لما بلغ النبي عليه الصلاة والسلام مصرعَ سيدنا جعفر، انطَلَق إلى بيت سيّدنا جعفر بِنَفسِهِ احتِرامًا لأهله، فوجَدَ زوْجته أسماء، تتأهَّب لاسْتِقبال زوجها الغائب وقد عجَنَت عجينها، وغسَلَتْ بنيها، وألبسَتهم، قال أسماء فلما أقبلَ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلّم رأيْتُ دلالة من الحزن توشِّح وجهه الكريم فَسَرَت المخاوِف في نفسي، غير أنَّني لم أسألهُ عن جعفر مخافة أن أسمَعَ منه خبرًا أكرهُهُ ! فحيَّ النبي صلى الله عليه وسلّم وقال: ائتني بِأبناء جعفر، فَدَعَوْتُهم له، فهبُّوا نحوه فرحين، وأخذوا يتزاحمون عليه كلٌّ يريد أن يستأثر به، فأكبّ عليهم صلى الله عليه وسلّم، وجعل يتشمَّمهم، وعيناه تذرفان من الدَّمع، فقلتُ يا رسول: بِأبي أنت وأُمِّي ما يُبكيك ؟! أبلغَكَ عن جعفر وصاحِبَيه شيء ؟! قال: نعم، لقد اسْتُشْهدوا هذا اليوم ! عند ذلك غاصَت البسْمة من وُجوه الصِّغار، لمَّا سَمِعوا أُمَّهم تبكي، وجمدوا في أمكنتهم كأنَّ على رؤوسهم الطَّيْر، أما النبي صلى الله عليه وسلّم فقد مضَتْ وهو يُكَفْكِفُ عَبَراته وهو يقول: اللهمّ اخْلُف جعفرًا في ولده، اللهمّ اخْلُف جعفرًا في أهله، ثمّ قال: رأيتُ جعفرًا في الجنَّة له جناحان مدرَّجان بالدِّماء، وهو مصبوغ القوادم ! هكذا كان

أسلافكم أيُّها الإخوة وهكذا كان أجدادكم، أعزَّهم الله بالنَّصر المبين لأنَّهم اصْطلحوا معه، ونفَّذوا منهجه في بيوتهم.

أيها الإخوة الكرام، إلههم هو إلهنا، وربُّهم هو ربُّنا، والقوانين هي هيَ، والسُّنَن هي هيَ، لم تتبدَّل ولم تتغيَّر، فالصُّلح الصّلح أيها الإخوة، أقبِلوا، وأنيبوا إليه، واصطلحوا معه، وعودوا إلى كتابكم وسنَّة نبيّكم قال تعالى:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ(١١٣))

[سورة هود]

أيها الإخوة الكرام، هذه حقائق، والحقيقة المرّة أفضل من ألف وَهْمٍ مريح، فلا تعيشوا في الأوهام، قال تعالى:

(وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠))

[سورة القصص]

قال تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح]

ما علينا إلا أن نصطلح مع الله، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

[سورة فاطر]

فنحن في أمسِّ الحاجة إلى آيات التوحيد، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤))

[سورة الشعراء]

الله وحده الذي يرفه، ووحده الذي يخفض، ووحده الذي يُعِزّ ويُذِلّ ووحده الذي يُعطي ويمنع، وحده الذي ينصر ويخذل، ولكنَّ العلماء قالوا: لا ينبغي أن تقول أنَّ الله ضارّ ! فمِن أسمائه الضارّ، ولكن ينبغي أن تقول: هو الضارّ النافع، والمعطي المانع، والمعزّ المذلّ، لأنَّ يأخذ لِيُعطي ويُذِلّ لِيُعِزّ، ويضرّ لِيَنفع، ويخفض لِيَرفَع.

عَوْدٌ على بدء، قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً

وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦))

[سورة القصص]

هذه القوَّة الغاشمة والمتغطْرسة في العالم، التي تستبيح الدِّماء، وحقوق الشُّعوب، تمثِّلها هذه الآية السابقة، ونرجو الله أن ينطبق علينا شطر الآية الآخر، قال تعالى

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥))

[سورة القصص]

أيها الإخوة الكرام، حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزَنَ عليكم، واعلموا أنَّ ملك الموت قد تخطَّانا إلى غيرنا، وسيتَخَطَّى غيرنا إلينا، فلْنَتَخِذ حِذْرنا، الكيّس من دان نفسه، وعمل إلى ما بعد الموت، والعاجز من أتبعَ نفسهُ هواها، وتمنى على الله الأمانيّ.

الخطبة الثانية:

وأشهد أن لا إله إلا الله وليّ الصالحين، وأشهد أنّ سيّدنا محمَّدًا عبدهُ ورسوله صاحب الخلق العظيم، اللهمّ صلّ وسلِّم وبارك على سيّدنا محمَّد، وعلى آله وصَحبِهِ أجمعين.

أيها الإخوة الكرام، كنتُ قد أعْدَدْتُ لكم خطبةً عن الصِّيام، ولكنّ الأنباء المؤسِفَة التي سَمِعتموها جميعًا اضطرَّتني أن أُحَوِّل الموضوع إلى موضوع آخر، ولكنّ شطْر الخطبة الثاني هو هذا: قال بعض العلماء المتخصِّصين في التَّغْذِيَة: ليس عِلمُ الإنسان بوَظائف الطَّعام هو الذي يدْفعُهُ إلى تناول الطَّعام ! ولكنّ الإحْساس بالجوع الضاغط وشَهوة الطَّعام الباعثة هما اللَّذان يُحَرِّكان الإنسان إلى الطَّعام، أما حاسَّة الجوع فَتَدْعو الإنسان إلى ما يسدّ حاجته من الطَّعام لِيَبقى حيًّا، وأما شَهوة الطَّعام الباعثة فهي وسيلة، وليْسَت غاية، لأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام كان مِن أدْعِيَتِهِ: الحمد لله الذي أذاقني لذَّته، وأبقى فيَّ قوَّته وأذْهَب عنِّي أذاه، فمِن نِعَم الله عز وجل أنَّ هذا الذي هو سبب في بقاء حياتك طيِّب المذاق، فهناك الحاجة إلى الطَّعام بدافع الإحساس بالجوع وهناك لذَّة الطَّعام، فقد يستكمل حاجته إلى الطعام بِسائِلٍ يُحْقَنُ في دَمِهِ ولكنّ الله عز وجل تفضّل علينا فجَعَل هذا الطَّعام ذا طَعمٍ لذيذ، فشَهوة الطَّعام وسيلة، فإذا جعلها الإنسان غاية اضْطرب الجِسم، أُناس كثيرون عن سوء تقْديرٍ منهم، أو عن ضَعف في إرادتهم يَجعلون شَهوة الطَّعام غاية، وإذا أصبح الطعام غاية يتعطَّل ما يُسَمِّيه العلماء بالجرس الخفي الذي يدقّ حين الجوع فقط ! تتعطَّل وظيفة هذا الجرس، فالمعدة كما قال عنها العلماء تتمدّد مراتٍ عديدة، فَمِن حجمٍ ابتِدائي مئتان وخمسون سنتمترًا مكعّبًا إلى ألفين وخمسمئة سنتمتر مكعّب، فحينما تتمدّد المعدة يُصبحُ الطَّعام هدفًا ؛ نعيشُ لِنَأكل ! هذا تمهيد، وهناك حقيقة عجيبة جدًّا، ولكنَّها ثابتةٌ على نحْوٍ قاطِع، وهي أنَّ آليات تعامل الأبدان مع الطَّعام تسْتوْجِبُ

الصِّيام، فقد صمَّم المولى جلّ وعلا الأبدان على نحْوٍ يُهَيِّأ التعامل مع مركبات الطعام وفقًا لآليَةٍ تسير بانتظام وتوافقٍ في ثلاث مراحل، وهذا بحثٌ مهمّ جدًّا !

المرحلة الأولى: مرحلة هضْم الطعام في المعدة والأمعاء، ثمّ الامتصاص والتَّمثيل، وتحويل الطعام إلى سكّر يسري في الدِّماء، وإلى مواد أخرى مُرَمِّمة يستخدمها الجسم لإطلاق الطاقة، وبناء الأنسِجَة !

المرحلة الثانية: مرحلة تخزين الفائض من الطاقة، التي تزيدُ عن حاجة الجسم، فالسُّكَّر الفائض يُخَزَّن في الكبد والعضلات على نشاءٍ حيواني، ويُخَزَّن الفائض الدُّهني في معظم أنحاء الجسم. فالأولى هضم، وامتصاص، واستهلاك، والثانية تخزين، والمرحلة الثالثة هي مرحلة فتْح مخازن الطاقة، وتحويل السكّر والدُّهون إلى سكّر وأحماض دُهْنيَّة لإطلاق طاقتها في الجسم، دَقِّقوا أيُّها الإخوة، المرحلة الثالثة لها ميزةٌ خاصَّة، وهي أنَّها لا تحدث مطلقًا إذا لم يمْتَنع الإنسان لِفترةٍ زمنيَّة محدَّدة عن تناول الطعام، فالمهمّة الثالثة معطَّلة ما لم يمْتَنِع الإنسان عن تناول الطَّعام !

أيها الإخوة الكرام، قال العلماء: يبدأ مستوى السكّر في الدم من ثمانين إلى مئة وعشرين ميليغرامًا في كلّ سنتمتر مكعَّب، هذا نِسبة السكّر في الدم، وبعد صِيام سِتِّ ساعات تنخفض هذه النِّسبة، وهنا تتجلّى عجيبة من عجائب الجسم البشري ؛ مركز بالدِّماغ - لا يعنيكم اسمه الدقيق - يُرْسِل إلى الغدد الصماء برسائل عاجلة يطلب منها العَون والمدد، فالكظر يفرزُ هرمونًا يحثّ على تَحويل النشاء الحيواني في العضلات والكبد إلى سكّر بوَساطة هرمون، والغدَّة الدرقيَّة تفعل مثل ذلك عن طريق إفراز هرمونها، فهي تحُثّ سكَّر الدم المُخزَّن في العضلات والكبد على أن يُطْلَق، ويُستَهلك لأنَّ نسبة السكَّر في الدم انْخفضَتْ بعد سِتِّ ساعات من الصِّيام، والغدّة الأخرى هي البنكرياس، تفعَل مثل ذلك عن طريق هرمون يحثّ هذه المخزونات على الانطلاق كي تُستهلكَ، فذا استُهلك الإنسان ما هو مخزون عنده من السُّكر في عضلاته وكبده، يتحوَّل العمل إلى الدُّهون المخزَّنة ! فتَهْدِمها، وتحرِّر طاقتها، وقد أكَّدَت الأبحاث العلميَّة ازدياد احْتِراق الدُّهون طوال ساعات الصِّيام، واستهلاك الدهون المتراكمة في مناطق ترسُّبها على الجسم.

أيها الإخوة، حقيقة مذهلة، فكلّ كيلو غرام من الأنسجة الدهنيّة يحتاج إلى ثلاثة كيلو متر من الأوعيَّة الشَّعريَّة التي يسري خلالها الدم، وهذه عِبءٌ على القلب، فلو أنّ الإنسان زاد حجمه بعشرة كيلو غرامات، فهذا دليل أنَّ به ثلاث مئة كيلو متر أوعيَة شَعْريَّة زائدة ! وقال العلماء: إنَّ فيزيولوجيَّة خلق الأبدان تقتضي الامتِناع عن تناول الطَّعام، لماذا ؟ لإراحة الوظيفة الأولى والثانية، ولإتاحة الفرصة لِعَمل الوظيفة الثالثة، فالصِّيام ترتاح به وظيفة هضم الطعام وامتصاصه، وترتاح الوظيفة الثانية وهي تخزينه، وتبقى الوظيفة الثالثة وهي هدم المُدَّخرات الدهنيَّة وإحراقها،

واستهلاك المُدَّخرات الدهنيَّة في العضلات والدم، فلِكون الصِّيام ضروريّ لكلّ إنسان كانت هذه الفريضة على كلّ الأمم والشُّعوب، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

[سورة البقرة]

ولكن هذا البحث العلمي يعني شيئًا دقيقًا، وهو أنَّ الصِّيام عِبادة، وقُرْبٌ من الله، ومزيدٌ من الاتِّصال بالله، وكلّ عمل ابن آدم له إلا الصِّيام الله يجزي به ! فالصِّيام تَقْوِيَة إرادة الإنسان، وأن تشعر بضَعفك البشري فهذا البحث العلمي لا يخدش مهمَّة الصِّيام الأولى وهي العبادة، والقرب، ولكنّ أمر الله متنوّع فهو عبادة، وهو قُرب، وهو تحجيم، وهو صِلَة، وافتقار

والحمد لله رب العالمين

خطبة الجمعة ـ الخطبة ٠٦٨٣ : خ١ ـيجب أن يستمر رقي رمضان لما بعد رمضان ، خ٢ ـ الزكاة .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-١٢-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

أيها الإخوة الكرام: يقول الله عزوجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

(سورة البقرة)

العبادات في الإسلام كما قال الإمام الشافعي معللة بمصالح الخلق، بل إن بين العبادة ونتائجها علاقة علمية لأن العبادة منهج الله عزوجل، وهو الخبير ما ينفع الإنسان في دنياه وأخراه، فالصيام في تعريف الفقهاء إمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من الفجر الصادق وحتى الغروب بنية العبادة والطاعة، لأن هذا النهي أيها الإخوة عن شهوة الطعام والشراب وعن شهوة أخرى شهوات مباحة وفق منهج الله عزوجل ومحببة للإنسان، وقد ورد في الحديث القدسي:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ))

(صحيح البخاري)

وفي رواية أخرى: يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي

أيها الإخوة الكرام: تشير هذه الآية الكريمة إلى أن مبدأ الصوم لا يختلف من زمن إلى آخر فهو ركن تعبدي موجود في الديانات السماوية السابقة للإسلام إنه منهج الله في تربية الإسلام، أما قوله تعالى:

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

أي لعلكم تدعون المعاصي وتلتزمون الطاعات لا في شهر رمضان فحسب بل في كل أشهر العام.

أيها الإخوة الكرام: أدق نقطة في هذا الموضوع هو أن هؤلاء الذين يمتنعون عن بعض المعاصي في رمضان ثم يعودون إلى ما كانوا عليه قبل رمضان هؤلاء ما فقهوا حقيقة الصيام ! أرادنا الله بالصيام أن نقفز قفزة تستمر طوال العام، لا أن نعود كما كنا قبل رمضان ليس القصد أن ننتصر على أنفسنا في رمضان ثم ننخزل أمامها بقية العام، ولكن الصيام الحقيقي أن نحافظ على هذا النصر على طول الدوران وتقلبات الزمان والمكان، ليس القصد أن نضبط ألسنتنا في رمضان فننزهها عن الغيبة والنميمة وقول الزور، ثم نطلقه بعد رمضان إلى حيث الكذب والبهتان، ولكن

الصيام الحقيقي أن تستقيم منا الألسنة، وأن تصلح فينا القلوب مادامت الأرواح في الأبدان، ليس القصد أن نغض أبصارنا عن محارم الله وأن نضبط شهواتنا غير المشروعة برمضان ثم نعود إلى ما كنا عليه بعد رمضان، إنّا إذاً كما قال الله عزوجل:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً)

(سورة النحل)

ولكن الصيام الحقيقي أن تصوم جوارحنا عن كل معصية في رمضان وبعد رمضان حتى نلقى الواحد الديّان ! ليس القصد أن نتحرى الحلال خوفاً من أن يرد علينا صيامنا ثم نتهاون في تحريه بعد رمضان على أنه عادة من عوائدنا، ونمط شائع من سلوكنا، ولكن الصيام الحقيقي أن يكون الورع مبدأ ثابت وسلوكاً مستمراً في حياتنا، ليس القصد أن نبتعد عن المجالس التي لا ترضي الله إكراماً لشهر رمضان ثم نعود إليها وكأن الله ليس لنا بالمرصاد في بقية أشهر العام، ليس القصد أن نراقب الله في أداء واجباتنا وأعمالنا مادمنا صائمين فإذا ودعنا شهر الصيام آثرنا حبوب أنفسنا على أمانة أعمالنا وواجباتنا، مثل هذا الإنسان الذي لم يفقه حقيقة الصيام ولا جوهر الإسلام إنه كالناقة حبسها أهلها ثم أطلقوها لا لما حبست، ولا لما أطلقت.

أيها الإخوة الكرام: الشيء المهم جداً الذي ينبغي أن نستوعبه هو أن الله تعالى لم يصطفي رمضان من بقية الشهور ليكون شهر طاعة وقرب فحسب، بل أراده الله شهراً يتدرب فيه الإنسان على الطاعة حتى يذوق حلاوة القرب وعندها تنسحب هذه الطاعة، وذاك القرب على كل شهور العام ! محور هذا الموضوع أن تستمر بعد رمضان على ما أنت عليه في رمضان، هذا أهم ما في الموضوع، عوام الناس يصومون ويعودون إلى ما كانوا عليه قبل رمضان،

رمضان ولّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

أيها الإخوة الكرام: الشيء المهم الآخر هو أن الله سبحانه وتعالى أراد رمضان أن يكون على طول الدوران، والحكمة من أن الله أمرنا بالإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غياب الشمس هي: أن الإنسان حينما يدع ما هو مباح امتثالاً لأمر الله لا يستطيع ولا يتوازن مع نفسه حينما يدع ما هو مباح امتثالاً لأمر الله أن يقترف ما هو محرم عند ئذٍ يختل توازنه، أمرك أن تدع الطعام والشراب فلا أن تدع المعاصي والآثام من باب أولى، فمن ترك الطعام والشراب واقترف الآثام اختل توازنه كأن الله عزوجل أرادنا بهذا الشهر أن تتقوى إرادتنا، وأن نملك ناصية أمورنا، وأن نشعر بقيمة إنسانيتنا.

أيها الإخوة الكرام: وحينما يصطفي الله شهراً من الشهور لتصفوَ فيه العلاقة بالله يصطفيه من أجل أن يشيع هذا الصفاء مع الله في كل الشهور لأن الله مع المؤمن في كل زمان، الشيء بالشيء يذكر

وحينما يصطفي الله مكانا كبيته الحرام ويدعو المؤمنين إليه ليذوقوا حلاوة القرب فيه أراد أن ينسحب هذا القرب على كل الأمكنة لأن الله مع المؤمن في كل مكان، وحينما يصطفي الله إنساناً فيكشف له الحقائق إنما يصطفيه ليكشف من خلاله الحقائق لكل الناس، وحينما يصطفي الله إنساناً ليوحي إليه الأمر والنهي والمنهج القويم إنما يصطفيه ليكون هذا المنهج مطبقاً لدى كل الناس.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢))

(سورة هود)

أيها الإخوة الكرام: إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، حينما يصطفي الله إنساناً ليسعده سعادة أبدية إنما يصطفيه ليسعد بدعوته كل الناس، مجمل القول: أن الله سبحانه وتعالى يصطفي زماناً كرمضان، ومكاناً كبيته الحرام، وإنساناً كسيد الأنام، إنما شاء الله ذلك أن يشيع الصَفاء الإنساني في كل الناس، والصَفاء المكاني في كل الأمكنة، والصَفاء الزماني في كل الأزمنة، ثم يقول الله عزوجل:

(أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)

(سورة البقرة)

إنها أيام قليلة، تعد على الأصابع، اصطفاها الله عزوجل لتكون أيام طاعة وقرب، فلعل الطاعة والقرب تستغرق كل أيام العام.

(أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)

الله جل جلاله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وسع النفس لا يستطيع أي إنسان أن يقدره بعقله، لكن الله وحده الذي خلق والذي صنع بعلمه وخبرته وحكمته ورحمته هو وحده الذي يقدر الوسع فهو جلّ جلاله يعطي الرخصة عندما يكون التكليف فوق الوسع، وتحديد المرض الذي يبيح الفطرة يكون بغلبة الظن، أو بإخبار طبيب مسلم ورع حاذق، وكذلك السفر الذي تقصر فيه الصلاة يعد علة للإفطار في رمضان ! لذلك لا يقبل في الدين أن يقول إنسان من خلال تحكيم عقله في موضوع تكليفي هذا الأمر لا أقدر عليه والله لن يؤاخذني على تركه إلا أن ترد في هذا الأمر رخصة من الذي خلق الإنسان ويعلم حقيقة وسعه في أحد الوحيين بالكتاب والسنّة، وحينما يطيق المسلم الصيام في السفر أو في المرض فالأولى أن يصوم لقول الله عزوجل:

(وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤))

(سورة البقرة)

أيها الإخوة الكرام هذا وجه من وجوه تفسير هذه الآية، ولأن القرآن حمَّال أوجه فهناك وجوه أخرى لتفسيرها.

أيها الإخوة الكرام: الشريعة كلها رحمة، كلها مصلحة، كلها عدل، فكل قضية خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن العدل إلى الجور، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل !

فهذا الذي يدعي أنه ورع، ويصر على الصيام مع أن الأطباء ولا سيما المؤمنون منهم، والورعون والمتفوقون حذّروه من الصيام ينبغي أن يفطر امتثالاً لمنهج الله عزوجل، ولئلا يلقي بنفسه إلى التهلكة

أيها الإخوة الكرام: مادام الصائم قد ذاق حلاوة القرب في شهر الصيام فهو سيتجه بحكم فطرته إلى الشكر لله تعالى على ما أولاه من نعم المعرفة والقرب، وهنا من المناسب جداً أن يقول الحق جلّ جلاله عقب هذه الآيات:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

(سورة البقرة)

إذا سألك، ولم يقل إن سألك، لأن الفرق كبير بين إذا وبين إن، إذا تفيد تحقق الوقوع.

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١))

(سورة النصر)

لا بد من أن يأتي.

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)

(سورة الحجرات)

بنبأ قد يأتي أو لا يأتي، إذا تفيد تحقق الوقوع، بينما إن تفيد احتمال الوقوع.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

أي لابد من أن يسألوا عني.

أيها الإخوة الكرام: من لوازم معرفة الله عز وجل والوصول إليه والتنعم بقربه التوجه إليه وحده بالسؤال والدعاء، وهذه هي حقيقة التوحيد وهو جوهر الدين، وكل دين سماوي، قال عليه الصلاة والسلام

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الْغَمَامِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ))

(سنن الترمذي)

لو تأملتم أيها الإخوة في آيات القرآن في مادة السؤال لوجدتم أن كل سؤال ورد في القرآن الكريم، ورد في جوابه كلمة قل !

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً (١٠٥))

(سورة طه)

إلا في هذه الآية:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

لن ترد كلمة قل بين السؤال والجواب لذلك استنبط العلماء من عدم وجود كلمة قل بين السؤال والجواب أن الله عزوجل ليس بينه وبين عباده وسيط.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

لمجرد أن تقول: يا رب يقول الله عزوجل: لبيك يا عبدي.

أيها الإخوة الكرام:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

قال بعض العلماء: العبد نوعان، عبد قهر، وعبد شكر، فكل إنسان عبد مقهور لله عز وجل، مقهور في وجوده، وفي قيامه وحركته، مقهور في حواسه ونشاطه، والله سبحانه وتعالى هو الذي أقامه على ما هو عليه، فلو انقطع عنه الإمداد لحظة واحدة لفقد وجوده، واستمرار وكمال وجوده، فكل عبد هو عبد قهر إطلاقاً، لكن العبد الذي يأتي الله عز وجل يأتيه طواعية، ومستجيباً لأمره، ومحباً ومنيباً ومقبلاً هذا اسمه عبد الشكر ! فالذي يأتيه قصراً، الذي تتوقف حياته على إمداد الله له هو عبد القهر، أما الذي يتوجه إلى الله طواعية بمبادرة منه هو عبد الشكر، لذلك تجمع كلمة عبد على عبيد وعلى عباد، فإذا قال الله عزوجل:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦))

(سورة فصلت)

تعني عديد القهر، لكن الله عزوجل حينما يقول:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

جمع لعبد الشكر، فإذا كنت من عبيد الله الشاكرين فأنت من عباد الله الصالحين.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان)

أيها الإخوة الكرام: لماذا لا يستجيب الله أحياناً لمن يدعوه ؟ هذا سؤال أجاب عنه النبي الكريم فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه قال:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ثُمَّ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

(الإمام أحمد)

ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة وأن يكون طعامك طيبا تسعة أعشار الدين ! بمعنى أن تشتريه بمال حلال، بمعنى أن تكون مستقيماً في كسب المال، وكسب المال يعد باب كبير من أبواب الطاعة وكسبه بشكل غير مشروع يعد باباً كبيراً من أبواب المعصية.

أيها الإخوة الكرام:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

(سورة البقرة)

تؤمن بالله عزوجل، وتستجيب لأمره فيجيب دعائك، وإذا أمنت به واستجبت إلى أمره أرشدت إلى الدعاء المستجاب وإلى مضمون الدعاء الذي ينفعك في الدنيا والآخرة.

أيها الإخوة الكرام: حينما لا يستجاب الدعاء يعزى ذلك إما إلى فساد الداعي وانحرافه عن منهج الله، أو أنه ليس من الرحمة ولا من الحكمة أن يستجاب له، فلو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، وعلى كل حظ المؤمن من الدعاء الإجابة أو التعبد، فالدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام: هو العبادة

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر)

ولكنك أيها الأخ الكريم: لا تدعو إنسان لا وجود له، فإذا كان موجوداً لا تدعو إنساناً لا يسمعك، فإذا كان يسمعك لا تدعو إنسان ليس قادر على أن يجيبك، فإذا كان قادراً لا تدعو من لا يحبك، فحينما تدعو إنساناً لقضية أو لحاجة أنت موقن يقين قطعي أنه موجود أولاً، ويسمعك ثانياً وقادر على إجابتك ثالثاً، ويحب أن يرحمك رابعاً، فإذا دعوت الله وحده فقد تحققت فيك هذه الخصائص، أنت مؤمن بوجوده وعلمه وبقدرته ومحبته، لذلك الدعاء هو العبادة، قال بعض العلماء: والذين هم على صلاتهم دائمون في الدعاء، دعائهم مستمر ! وقال بعضهم: بمعنى الدعاء أنه عبادة العبد من شأنه أن يفتقر إلى الله عزوجل، والله عزوجل شأنه العطاء، والعلاقة بين العبد المفتقر والإله العظيم هو العطاء والطلب ! لذلك قال الله تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً (٧٧))

(سورة الفرقان)

أنت بالدعاء أقوى الناس ! الدعاء سلاح المؤمن، خالق السماوات والأرض، من بيده ملكوت كل شيء، من إليه يرجع الأمر كله، يقول لك: ادعوني لأستجب لك ! وفي معنى دقيق جداً هو أن الله عزوجل ما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا وإلا لما كان هذا الأمر واضحاً، وذا معنى، ما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا، وما أمرنا أن ندعوه إلا ليعيننا، وما أمرنا أن نتوب عليه إلا ليتوب علينا، فمن هو العاجز ؟ هو الذي عجز عن أن يستغفر الله، وأن يدعوه، وأن يتوب إليه ويستعين به، ما أمرك أن تستعين به إلا ليعينك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك، وما أمرك أن تتوب إليه إلا ليتوب عليك ! والله يريد أن يتوب عليكم، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً، هذا الشهر أيها الإخوة: شهر فيه صلح مع الله، من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلاهُ الْجَنَّةَ))

(سنن الترمذي)

وموطن الشاهد في هذا الحديث ورغم أنف عبد أدرك رمضان فلم يغفر له، إن لم يغفر له فمتى ؟ هذا شهر التوبة والمغفرة والصلح مع الله والعتق من النار، أن تفتح مع الله صفحة جديدة، أن تعود إلى فطرتك، وتحقق إنسانيتك، أن تسعد بقرب الله عزوجل، شهر التوبة والغفران، فرصة سنوية كي يمحى الماضي وتشحن شحنة روحية تعينك على متابعة منهج الله طوال العام القادم.

اللهم أعنا على الصيام والقيام، وغض البصر وحفظ اللسان، وأدخلنا الجنة بسلام.

أيها الإخوة الكرام: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس